هو العليم

دورة في المعلوم والمعارف الإسلامية

٦

الجزء الثاني من

نور ملكوت القرآن

من أقسام

أنوار الملكوت

تأليف سماحة العلامة الراحل

آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

أفاض الله علينا من بركات أنفاسه القدسية

تعريب:

حسن ابراهيم

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحیم

هو العليم

أنوار الملكوت :

نور ملكوت القرآن

نور ملكوت المسجد

نور ملكوت الصلاة

نور ملكوت الصيام

نور ملكوت الدعاء

هو الهادى

تتعلّق مطالب هذا المجلّد بدور القرآن الكريم بوصفه كتاباً سماوياً يبحث فى الأُصول الإلهيّة المسلَّمة بصورة عامة .

و لهذا السبب فهى تتعرَّض لنقد و مناقشة بعض الانحرافات فى فهم الآيات القرآنيّة الكريمة .

الفهرس

فهرس مطالب و موضوعات

نور ملكوت القرآن

الجزء الثانى

المطالب الصفحات

البحث الرابع

القرآنُ تبيانٌ لكلّ شيء ، و ثابتٌ لا يُنسخ

الصفخة ٣ إلى الصفحة ٥٠١

يشمل المطالب التالية :

كيف يُظهر القرآن كلّ خفىّ و يحلّ كلّ مُعضل ٥

تحدّى القرآن للبشر أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة كسورة ٧

لا يطّلع على حقائق القرآن و تأويله إلاّ أولياء اللـه ٩

الآيات الدالّة على أنّ القرآن من قِبَل اللـه تعالى ١١

خطبة أميرالمؤمنين عليه السلام فى شموليّة القرآن ١٢

انقسام القرآن إلى حلال و حرام ،و فرائض و فضائل ، و ناسخ و منسوخ و غيرها ١٤

الامثال و العبر، و المحكم و المتشابه، و المفسّر و المبيّن فى القرآن ١٧

النسخ فى الكتاب و الثبوت فى السنّد، و النسخ فى السنّة و الثبوت فى الكتاب ١٩

فى الواجبات الموقّتة التى ينتفى وجوبها بعد مرور زمن معيّن ٢١

الروايات الواردة فى أنّ القرآن تبيان لكلّ شيء ٢٣

المطالب	الصفحات
القرآن يرفع الإنسان إلى أعلى درجات الإنسانيّة	٢٥
وَ إِنَّهُ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ * لاَّ يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاَ مِنْ خَلْفِه	٢٧
معنى عزّة القرآن عدم انفعاله بأىّ! وجه، و امتناعه عن الخسران	٢٩
فى تفسير: لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ	٣١
مجموع عدد الآيات القرآنيّة	٣٣
فى معنى قول أميرالمؤمنين عليه السلام: إنَّ القرآن حمّالٌ ذو وجوه	٣٥
رسالة القرآن هى بناء الإنسان، لا حلّ المسائل العلميّة	٣٧
ليس من الصحيح تطبيق الآيات القرآنيّة على العلوم العصريّة	٣٩
افتقار النظريّات إلى الثبات، و ارتباطها بنظريّات أُخرى	٤١
سيطرة فرضيّة بطليموس ألفى سنة على عقول منجّمىا لعالم	٤٣
اختلاف نظر المنجّمين فى أُصول علم الهيئة فى القرون الاخيرة	٤٧
اكتشاف الجاذبيّة الارضيّة حصل قبل نيوتن بألف سنة تقريباً	٤٩
إشكال علماء الطبيعة بعد نيوتن على عموميّة قانونه فى الجاذبيّة	٥١
اعتراض اينشتَين على عموميّة دليل جاذبيّة نيوتن	٥٣
اعتراف أينشتَين بعدم وجود دليل نظرىّ أو تجريبىّ على عدم تناهى الفضاء	٥٥
استعمال تعبير «الفضاء اللاتمناهى» غير إسلامىّ	٥٧
فى تفسير آية : ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْم	٥٩
سيكون مشهوداً للماديّين يوم القيامة أنّ جميع قوانين الطبيعة كانت حقّاً	٦١
اختلاف آراء الفلاسفة الماديّين فى حقيقة المادّة	٦٣
القول بانتهاء الإنسان إلى آدم و حوّاء ، و بانتهاء كلّ حيوان إلى أصله	٦٥
القول بانتهاء الإنسان و جميع أنواع الحيوان إلى نوع واحد	٦٧
فرضيّة القائلين بالتكامل، و عدم وجود الحلقة المفقودة	٦٩
مؤسّس التشريح التطبيقىّ (كوفيه الفرنسىّ) من مدافعى نظريّة ثبات الانواع	٧١
كان داروين مسيحيّاً و مؤمناً باللـه	٧٣

المطالب	الصفحات
عدم اعتبار الروايات الدالّة على أنّ خلق حوّاء من ضلع آدم الايسر	٧٧
نقد أبي المجد لفلسفة داروين و مقولة شبلي شُميّل المصريّ..	٧٩
شعر شبلي شميّل في الرسول الاكرم	٨١
فرضيّة داروين لا تستلزم إثبات نظريّة المادّيّين	٨٣
لا فرق في الحكمة المتعالية بين خلق اللـه للكائنات بسنّة التكامل أو غيرها	٨٧
افتراض العثور على الحلقة المفقودة لا يكفي لإثبات سنّة التكامل	٩١
كلام ابن سينا في وجوب اعتبار ما لم يقم الدليل على بطلانه من الممكنات	٩٣
خلقة عيسى كانت إعجازاً، كخلقة آدم من التراب	٩٥
ردّ الآيات القرآنيّة على الطوائف المسيحيّة الثلاث المعتقدة بألُوهيّة المسيح	٩٧
آيات القرآن تبطل نظريّة المعتقدين بتغيّر الانواع بشأن آدم	٩٩
دلالة آية «وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ» على فطرة آدم من الطين	١٠٣
آية «ثُمَّ سَوَّيـٰهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ» لا تدلّ على عقيدة التكامل	١٠٥
آيات سورتي المؤمنون و السجدة تدلاّ ن على خلق آدم من الطين	١٠٧
آية «ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً» تدلّ على خلقة آدم من سلالة الطين	١٠٩
استدلال بعض القائلين بالتكامل بآيات القرآن يفتقر إلى الاساس و البرهان	١١١
علماء طبقات الارض لا يملكون دليلاً على اتّصال هذا النسل بالأُمم السابقة	١١٣
الروايات الواردة في أنّ اللـه خلق قبل آدم دورات من البشر	١١٥
المراد من آدم في القرآن آدم الشخصيّ لا آدم النوعيّ	١١٧
ظاهر القرآن أنّ نكاح أولاد آدم كان فيما بينهم	١١٩
حرمة نكاح الاخوات غير فطريّ، بل حسب مصالح المجتمع	١٢١
ردّ العلاّمة الطباطبائيّ قدّس اللـه نفسه على فرضيّة تغيّر الانواع	١٢٣
ردّ العلاّمة الطباطبائيّ على كتاب «خلقت انسان» في نظريّة تغيّر الانواع	١٢٧
الردّ الواهي لمؤلّف «خلقت انسان» على مقولة الأُستاذ في نظريّة تغيّر الانواع	١٢٩
نقد كتاب «خلق الإنسان» للأُستاذ العلاّمة نقدٌ واهٍ و لا أساس له	١٣١

المطالب	الصفحات
أخطاء كتاب «خلقت انسان» فى الاستناد إلى آيات القرآن	١٣٥
الردّ الواهى لمؤلّف كتاب «خلقت انسان» على الأُستاذ العلاّمة	١٣٧
حصول التحريف فى التوراة ، لكنّها ليست بالكامل محرّفة	١٤١
التوراة كتاب سماوىّ فيه حكم اللـه و هدايته و نوره	١٤٣
معنى الإسرائيليّات و إقحام مقولة خلق آدم من الطين دفعةً واحدة فى التفسير	١٤٥
طريق تشخيص الإسرائيليّات عن الروايات المعتبرة صحّة سند الرواية	١٤٩
خطبة «نهج البلاغة» فى خلقة آدم من الطين	١٥١
ضعف استدلال كتاب «خلقت انسان» بآيات القرآن	١٥٣
دلالة «ثمّ» فى الآية على التراخى عند العلاّمة الطباطبائىّ	١٥٥
أخطاء مؤلّف كتاب «راه طى شده» فى بعض مطالبه	١٥٧
نقد العلاّمة الطباطبائىّ لكتاب «راه طى شده» (= الطريق المطوىّ»	١٦١
مقالة تحت عنوان : انبساط و انقباض النظريّة للشريعة	١٦٣
الايمان بالغيب و بملائكة العالم العلوى شرط التقوى و الفلاح	١٦٧
الانتقادات الواردة على مقالة « انبساط و انقباض نظريّة الشريعة »	١٦٩
آيات القرآنيّة الداعية لتعلّم الحكمة	١٧١
احترام الإسلام لحكماء اليونان ونزول سورة لقمان	١٧٥
وقوف الفلاسفة الإلهيّين اليونانييّن بوجه الماديّين	١٧٧
مقولة الكسيس كارل حول أضرار المدنيّة والثقافة الجديدة على البشريّة	١٧٩
الفلاسفة المسلمون لهم الحقّ العظيم فى الدفاع عن التوحيد والقرآن	١٨٣
وجوب إحياء تدريس «الأسفار الأربعة» فى الحوزات العلميّة	١٨٥
اهتمام حوزة النجف الشديد بتدريس الفلسفة والعرفان	١٨٩
عبارات مقالة «بسط وقبض نظريّة الشريعة» فى الردّ على الفلسفة الإلهيّة	١٩١
لا علاقة ببحث الإلهيّات وفلسفة ما وراء الطبيعة ببحث الطبيعيّات	١٩٣
الاعتراض على المقالة فى الفصل بين وظائف الطبيعة و ماوراء الطبيعة	١٩٩

فهرس مطالب و موضوعات

المطالب	الصفحات
علماء الإسلام هم أبرز العلماء ، وآباء العلوم الطبيعيّة	٢٠١
كلام عبد الحليم الجندى حول تأسيس الإمام الصادق للعلوم الإسلاميّة	٢٠٣
جابر بن حيان و ذوالنون المصرىّ وابو زكريّا الرازىّ مؤسّسو علم الكيمياء	٢٠٥
بروز أبى ريحان البيرونىّ فى مسائل الفيزياء والهيئة والنجوم	٢٠٩
بحوث أبى ريحان البيرونى حول الآبار الارتوازيّة	٢١١
من كشوف أبى ريحان : قانون خاصّيّة الأوانى المستطرقة	٢١٣
نبوغ أبى ريحان فى الفلكيات و علم النجوم	٢١٥
اكتشافات أبى ريحان الجديده فى المسائل الرياضيّة و الهيئة	٢١٩
دورالعلوم والثقافة والحضارة الإسلاميّة فى العلوم الأوروبيّة	٢٢٥
فوائد علم الطب القديم و أضرار الطب الحالىّ	٢٢٧
أضرار الطبّ الحديث الناجمة عن استخدام التقنية المعاصرة	٢٢٩
أضرار الأجهزه الطبيّه الحديثة على مهارة الطبيب	٢٣٣
الاشكال الثالث: أساس الحوزات العلميّة على القرآن والعرفان	٢٣٥
العلم الذى اوصى الاسلام بتعلّمه	٢٣٧
وجوب تحصيل العلوم الاهم و ترك العلوم المهمّة لضرورات ضيق الوقت	٢٣٩
المراد من العلم النافع ، و العلم الذى يرغب به الشارع	٢٤١
اشرف العلوم و افضلها ، علم معرفة اللـه تعالى	٢٤٣
التوسع فى العلوم التجريبيّه بدون الارتباط باللـه فى ضرر البشريّة	٢٤٩
علة تشكيل الحوزات العلمية : الوصول للاهداف القرآنيّة السامية	٢٥٣
علة تأسيس المعاهد الدراسيّة الحديثة مواجهة الحوزة العلميّة	٢٥٧
ماذا تنتظر الحوزه العلميّة من اساتذتها و القائمين على ادارتها ؟	٢٦١
هدف الحوزات العلميّة تربية الفقيه العارف باللـه	٢٦٣
لابد للعلوم الدينيّة ان تصبّ فى عرفان اللـه لتضاء بنور اللـه	٢٦٥

المطالب	الصفحات
لا يجوز الفتيا لمن لا يستفتى من اللـه بصفاء سرّه و إخلاص عمله	٢٦٧
العلم المجازى كالميزاب المفتوح ، و العلم الحقيقىّ كماء الحياة	٢٦٩
روايات حول اصحاب العلوم الظاهريّه و المجازيّه	٢٧١
الإشكال الرابع على صاحب مقالة « انبساط و انقباض نظريّة الشريعة»	٢٧٣
الإشكال الخامس على المقالْ هو عدم التفريق بين المجاز والكذب	٢٧٧
بحث بشأن المعنيين الحقيقىّ و المجازىّ ، و الصدق و الكذب	٢٧٩
كلمات أعلام المحققين حول مجازات القرآن	٢٨٣
النسبة بين الحقيقة و المجاز مع الصدق و الكذب عموم و الخصوص من وجه	٢٨٥
شواهد السكّاكى فى استعمال الأفعال فى المعانى المجازيّة : إرادة الإفعال	٢٨٧
تفسير « إشعاْ من القرآن » لمسّ الشيطان بمرض الصرع أو بمرض جرثومىّ	٢٨٩
تفسير و توجيهه لعبارة «يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ»	٢٩١
صاحب تفسير « المنار » ينكر تأثير الجن فى مرض الصرع	٢٩٣
رد العلامة الطباطبايى على القائلين بأنّ إسناد جنون العبد إلى اللـه محل إشكال	٢٩٥
كلام مؤلف «روح المعانى» بشأن مسّ الشيطان قريب من وجهة نظر العلامة	٢٩٧
يقول القرآن : الإنس و الجنّ طائفتان قابلتان للخطاب و لهما شعور	٣٠١
جميع أفراد الجانّ مكلّفون كالإنسان ، جزاء عملهم الجنة و النار	٣٠٣
ينبغى لمفسِّر القرآن أن يكون عالماً بلسان القرآن	٣٠٧
شهرة العلامة الطباطبائى فى البلدان العربيّة تفوق شهرته فى إيران	٣٠٩
الاعتصام باللـه من شر وساوس الجن و الإنس	٣١١
قصة إحضار الجن من قبل السيّد البحرينى فى محضر العلامة الطباطبائى	٣١٣
مشاهدة آثار الجنّ فى مشهد المقدسة من قبل آية اللـه الشيخ الدامغانى	٣١٥
حجّيّة الظهورات القرآنيّة وفق الأساس العقلائىّ غير قابلة للتشكيك	٣١٧
الروايات الواردة فى عدم جواز التفسير بالرأى فاقت حد التواتر	٣١٩
جميع الحكمة و العرفان و الشرع من معين واحد ، و تدلّ على أمر واحد	٣٢١

فهرس مطالب و موضوعات

المطالب	الصفحات
الإشكال السابع : على صاحب مقالة « انبساط و انقباض نظريّة الشريعة»	٣٢٥
اشكال صاحب المقالة على قول الأستاذ العلامة الطباطبائى قدس سرّه	٣٢٧
القرآن يقول بالعلل الطبيعيّة للحوادث و يعتبرها جميعاً راجعة الى اللـه تعالى	٣٢٩
القرآن يعتبر العلل الطبيعيّة تحت العلل المجردة ، و مستندة اليها	٣٣١
القرآن يعتبر الملائكة واسطة التدبير بين اللـه و عالم الخلق	٣٣٣
جميع الأمور و الحوادث هى تحت نظر و تدبير الملائكة بأمر اللـه تعالى	٣٣٥
القرآن الكريم ينسب إلى الملائكة تدبير الأمور	٣٣٧
تفسير « النَازِعَاتِ غَرْقاً » و أصناف الملائكة الموكّلين بشؤون العالم المختلفة	٣٣٩
وجود الملائكة له عنوان الواسطه بين اللـه و الخلق	٣٤١
الملائكة هم واسطة محضه ، و ليس لديهم لىّ استقلال و استنكاف	٣٤٣
وظائف و شؤون الملائكة السماوييّن فى تعبيرات القرآن الكريم	٣٤٥
اختلاف كيفيّة تمثل الملائكة باختلاف الأذهان	٣٤٧
النظريّات التى لم تثبت بعد بالأدلة المتقنة ، هى فرضيّات لا قوانين	٣٥٣
العقل حجة قبل الشرع ، و للـه تعالى حجّتان	٣٥٧
الروايات الواردة فى تقدم العقل على الشرع	٣٥٩
العقل هو الحجّة الأولى بين اللـه و العباد	٣٦١
رواية قيمة للإمام موسى بن جعفر عليه السلام فى حجّيّة العقل	٣٦٣
شرح فقرات من الحديث المروىّ عن الكاظم عليه السلام بشأن العقل	٣٦٥
معنى كون أحكام الدين الإسلامى المقدس فطريّة	٣٦٧
تفسير آية : فِطْرَتَ اللَـهِ الَّتى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا	٣٦٩
تفسير العلامة الطباطبائىّ لمراحل الفطرة من السنّة الدينيّة	٣٧١
الناس يؤسّسون إثر العقائد المختلفة أحكاماً و سنناً مختلفة	٣٧٣
الفطرة ، و الإسلام ، و دين اللـه ، و سبيل اللـه عند العلامة الطباطبائى	٣٧٥
اللواط مخالف لفطرة الإنسان و محرم فى جميع الشرائع	٣٧٧

المطالب	الصفحات
يمنع فى سنّة التكوين و الفطرة لىّ اتّصال جنسىّ بغير الزواج	٣٨١
عدم دلالة فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أنّى شِئْتُمْ على وطء النساء من غير الفرج	٣٨٥
الزنا كاللواط مخالف للفطرة و محظور	٣٨٧
الغيرة على العرض و المحافظة على النساء و الحجاب من الأحكام الأوّليّة	٣٨٩
شرب الخمر يخالف حكم الفطرة و العقل المستقل و الشرع القويم	٣٩١
أكل الربا من المصاديق الواضحة للأحكام المخالفة للفطرة	٣٩٥
بيانات العلامة الطباطبائىّ فى عموميّة مفاد : فَلَهُ مَا سَلَفَ وَ أَضمْرُهُ إلَى اللَـهِ	٣٩٧
لطائف الآيات الواردة فى حرمة الربا فى نظر العلامة الطباطبائىّ	٣٩٩
تلازم قاعدتى الأحكام العقليّة و الشرعيّة تصدق فى الأحكام الفطريّة	٤٠٣
الفطرة هى ما طابق العقل الإنسانى دون العقل الحيوانى	٤٠٥
الأحكام الاضطراريّة فطريّة كما فى الأحكام الأخرى	٤٠٩
جميع الأحكام الأوّليّة و الثانويّة الاضطراريّة هى من احكام الفطرة	٤١١
الفرق بين حقيقة العلم و الأخلاق ؛ الأمور الحقيقيّة والاعتباريّة	٤١٣
مواضيع كتاب «دانش و أرزش» (= العلم و القيم)	٤١٥
إشكال صاحب كتاب «دانش و أرزش» على العلامة الطباطبائى	٤١٧
إشكال صاحب الكتاب على العلامة فى الخلط بين معنى الوجود و الوجوب	٤٢١
إشكال مؤلف «دانش و ارزش» ناشى من عدم فهم المعنى الاعتبارىّ	٤٢٣
فى معنى الاعتباريّات و قياسها مع الحقائق	٤٢٥
يعتقد العلامة بقيام كلّ اعتبار بحقيقة معيّنة	٤٢٧
محل الأمور الاعتباريّة فى الذهن ، و لها وجود خارجىّ	٤٢٩
مؤلف «دانش و ارزش» ينفى حجّيّة القياس القائم على البرهان العقلىّ	٤٣٥
التفسير الخاطى لآية الفطرة من قبل مؤلف كتاب «دانش و ارزش»	٤٣٧
معنى الفطرة لدى الراغب الأصفهانىّ و ابن الأثير و الزمخشرىّ	٤٣٩
آيات قرآنيّة تشير إلى استناد الأوامر و الأخلاقيّات على المسائل العلميّة	٤٤١

فهرس مطالب و موضوعات

المطالب	الصفحات
اعتقاد صاحب « بسط و قبض تئوريك شريعت » بمذهب داروين	٤٤٧
عدم امتلاك داروين للدليل قاطع على رجوع أصل الإنسان إلى القرد	٤٤٩
بيان الإمام الصادق فى توحيد المفضّل فى عجائب خلقة القرد	٤٥٣
ملاطفة المؤلف مع أحد القائلين برجوع أصل البشر إلى القرد	٤٥٧
تحريف معنى و مراد القرآن أسوأ من تحريف ظاهره	٤٥٩
احتجاج قيس بن سعد بن عبادة على معاوية فى المدينة	٤٦١
قيس يعدد لمعاوية فى المدينة فضائل أمير المؤمنين عليه السلام	٤٦٣
بحث ابن عباس مع معاويّة حول حجّيّة القرآن	٤٦٥
قيام بنى أميّة كان لاقتلاع جذور القرآن	٤٦٧
إنّ اللـه يضع أمام كلّ نبى عقبات و مصاعب تعترض وصوله الى غايته	٤٧١
حكومة يزيد استبداد محض ، و هادفة لهدم القرآن	٤٧٣
أشعار يزيد فى وصف الخمر فى حضور الإمام الحسين عليه السلام	٤٧٥
أشعار يزيد الاءلحاديّة فى هجاء رسول اللـه و السخرية بيوم المعاد	٤٧٧
أشعار يزيد الصريحة فى الكفر	٤٧٩
يزيد ينكت بالخيزرات ثغر الحسين عليه السلام	٤٨١
تمثّل يزيد بأبيات ابن الزبعرىّ صريح فى الكفر	٤٨٣
مقولة يزيد صريح فى قتل الاءمام الحسين بحميّة جاهليّة	٤٨٥
قول ابنة عقيل بن أبى طالب حين سماعها بشهادة الحسين عليه السلام	٤٨٧
هدف معاوية و يزيد و مَن تابعهما فى الدنيا هو هدم قدسيّة القرآن	٤٨٩
كلام البيرونىّ و عمارة الفقيه اليمنىّ فى عداء بنى أُميّة لآل الرسول	٤٩١
قراءة رأس الاءمام الحسين عليه السلام المقطوع من على الرمح آية الكهف	٤٩٥
مراثى حجّة الإسلام نيّر التبريزىّ فى عظمة بُراق الإمام الحسين	٤٩٧

البَحْثُ الرَّابعُ

القُرْآنُ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيءٍ، ثَابِتٌ لَا يُنْسَخُ

و تفسير آية

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ

أعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أعْدَائِهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الانَ إلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولاَ حَولَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قال اللـه الحَكِيمُ فى كِتابهِ الكَريم:

وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .[1]

و قد كان النصف الاوّل لهذه الآية:

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّن أنفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰؤُلاَءِ.

يستفاد من ذيل هذه الآية المباركة أنّ القرآن الكريم هو الموضّح و المبيّن لكلّ شىء ، و يمثّل بشكل مطلق الهداية و الرحمة و البشرى للمسلمين الحقيقيّين الذين اتّخذوا الاءسلام ديناً و نظاماً ، و صدّقوا بنبوّة الرسول الاكرم صلّى اللـه عليه وآله وسلّم أكرم الانبياء من الاوّلين و الآخرين و الشاهد عليهم أجمعين ، و آمنوا بهذا الكتاب السماوىّ : القرآن .

---

١ ـ الآية ٨٩، من السورة ١٦: النحل.

و قد وردت أحاديث بهذا الشأن عن الائمّة الطاهرين سلام الله عليهم فى تفصيل هذه المسألة ؛ فيروى محمّد بن يعقوب الكلينىّ بإسناده عن مرازم ، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال :

إنَّ اللـه تَعَالَى أَنْزَلَ فِى القُرْءآنِ تِبْيَانَ كُلِّ شَىْءٍ ، حَتَّى وَاللَهِ مَا تَرَكَ اللَهُ شَيئاً يَحْتَاجُ إلَيْهِ العِبادُ ، حَتَّى لاَ يَسْتَطِيعَ عَبْدٌ يَقُولُ : لَوْ كَانَ هَذَا أُنزِلَ فِى القُرْآنِ ، إلاَّ وَ قَدْ أَنْزَلَهُ اللَهُ فِيهِ . [١]

و يروى الكلينىّ أيضاً، بإسناده عن عمرو بن قيس، عن الإمام الباقر عليه السلام ، قال : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : إنَّ اللَهَ تَعَالَى لَمْ يَدَعْ شَيئاً يَحْتَاجُ إلَيْهِ الاُمَّةُ أنزَلَهُ فِى كِتَابِهِ ، وَ بَيَّنَهُ لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ؛ وَ جَعَلَ لِكُلِّ شَىءٍ حَدًّا ، وَ جَعَلَ عَلَيْهِ دَلِيلاً يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَ جَعَلَ عَلَى مَنْ تَعَدَّى ذَلِكَ الحَدَّ حَدًّا . [٢]

و يروى الكلينىّ كذلك بإسناده عن مُعَلَّى بن خُنَيْس، قال: قال الإمام الصادق عليه السلام: مَا مِنْ أَمْر يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ إلاَّ وَ لَهُ أَصْلٌ فِى كِتَابِ اللَهِ ؛ وَ لَكِنْ لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُ الرِّجَالِ . [٣]

و قد نقل المرحوم الجامع لجميع العلوم النقليّة و العقليّة المولى محسن الفيض الكاشانىّ رضوان الله عليه فى المقدّمة السابعة من تفسيره الشريف المسمّى بـ «الصافى» عن بعض أهل المعرفة كلاماً دقيقاً و لطيفاً و واقعيّاً جدّاً و بأنّ القرآن تبيان لكلّ شيء ، نورد خلاصته هنا :

إنّ العلم بالاشياء يمكن أن يحصل للناس عن طريقين :

الاوّل: عن طريق الإدراكات الحسّيّة، أى الحواسّ الموجودة فى الإنسان ، كسماع خبر و شهادة شاهد و رؤية شيء أو اجتهاد و تجربة أو نحو

١إلى٣ ـ «تفسير الصافى» ج ١، ص ٣٧ ، نقلاً عن «الكافى» طبعة الأفسيت .

ذلك . و هذا العلم جزئـىّ و محـدود لمحدوديّـة و جزئيّـة معلومـه؛ و لانّ معلومـه جزئـىّ، و محـدود و متغـيّر فـهذا العـالم أيضـاً سـيفتقر إلى الثبـات ، و سـيكون متغيّراً يطرأ عليه الفساد و الفناء، لانّ هـذا العلـم إنّمـا يتعلّـق بالشـىء فى زمـان وجوده، معلوم أنّه قبل وجوده كان علماً آخر، و بعد فناءه و زوالـه سـيتبيّن علـم ثالث، لذا فـإنّ مثـل هـذه العلـوم الـتى تشـكّل غـالب العلـوم البشـريّة فاسـدة و متغيّرة و محدودة .

الثانى : عـن طريـق العلـم بأسـباب و علـل و غايـات الاشـياء ، و هـذا لا يتأتّى بالإدراكات الحسّـيّة، بـل هـو علـم كلّـىّ بسـيط و عقلـىّ، لانّ أسـبابه كلّيّة ، و الغايات العامّة للاشـياء غـير محـدودة و لا محصـورة، و ذلـك لانّ لكـلّ سـبب سـبب آخـر، و لذلـك المسـبّب سـبب آخـر، إلى أن ينتـهى إلى مبـدأ المبادىً و مسبّب الاسباب، و هذا العلـم يمكـن أن ينالـه الشـخص الحـائز لعلـوم أُصـول التسـبيبات و مبـدأ الاسـباب، و هـو علـى كلّـىّ لا يتغـيّر أو يـزول ، و يختصّ بالافراد الذين نالوا العلم بـالذات القدسـيّة لواجـب الوجـوب و صفاتـه الكماليّـة و و حجبـه الجلاليّـة و كيفيّـة عمـل و مأموريّـة الملائكـة المقرّبـين المدبّريـن للعـالم و المسـخّرين بـالإرادة الإلهيّـة لاغـراض العـالم الكلّيّـة ، و عرفـوا كيفيّـة التقديـر و نـزول الصـور فى عـالم المعـنى و فضـاء التجـرّد و الإحاطة و البساطة الملكوتيّة .

و علـى هـذا فسـيتّضح لهـم سلسـلة و العلـل و المعلـولات، و الاسـباب و المسـبّبات، و كيفيّـة نـزول أمـر اللـه فى الحجـب و شـبكات عـالم التقديـر، و علائق موجودات هذا العالم مع بعضها .

فعلمهم محيط بالاُمور الجزئيّة و بأحوال هذه الاُمـور و الآثـار و اللواحـق المترتّبة عليها، و هو علم ثابت و دائمـىّ خـالٍ مـن التغيـير و التبديـل، فيصلـون مـن الكلّيّـات للجـزئيّـات و مـن العلل للمعلـومـات ، و مـن ملكـوت الاشـياء

الجوانب المُلكيّة ، و يعلمون من البسائط المركّبات .

و هم يطّلعون على الإنسان و حالاته، و على مُلكه و مَلَكوته ، أى على طبيعته و نفسه و روحه، و ما يُكملها و يُصعدها إلى عالم القدس و الحرم الإلهىّ و مقام الطهارة المطلقة، كما أنّ لديهم العلم الكلىّ بما يدنسها و يلوّثها و يُرديها، و ما يسبّب شقاءها و يهوى بها إلى أظلَم العوالم، أى إلى سطح البهيميّة .

فيعلم جميع الأُمور الجزئيّة من مرآة تلك النفس الكلّيّة، و ينظر لجميع الموجودات المحدودة المتغيّرة من جانب الثبات و الكلّيّة، و يشاهد من عالم الثبات تدريج الزمان و تغيير الموجودات الزمانيّة المتغيّرة .

و هذا كعلم الله سبحانه و علم الانبياء العظام و الاوصياء الكرام و الاولياء ذوى المجد و الملائكة المقرّبين بجميع الموجودات الماضية و المستقبلة و الكائنة، و هو علم حتمىّ ضرورىّ فعلىّ لا يتجدّد بتجدّد الحوادث و لا يتكثّر بتكثّرها، بل هو علم بسيط و مجرّد و كلّىّ و محيط ، يرفل دوماً فى خلعة النور و التجرّد و الوحدة فيزين بها قامة الكلّيّة .

فمن حاز هذا العلم أدرك جيّداً معنى قول الله تبارك و تعالى فى القرآن الكريم : وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ :

و هنا يفهم المرء جيّداً أنّ علوم القرآن كلّيّة لا تتغيّر و لا تزول بتغيّر الزمان و المكان و تجدّد الحوادث . و لا تزول أبداً ، و لا تتبدّل بنشوء المسالك و الغايات و بظهور المدنيّات المختلفة أبداً ، فيصدّق تصديقاً حقيقيّاً وجدانيّاً أنّه ما من أمر من الأُمور إلاّ و قد نُظر إليه فى القرآن الكريم من جانب الكلّيّة و الثبات و بُيِّن ذلك تحت حكم و قانون عامّ .

فإن كان ذلك الامر غير مذكور بعينه فى القرآن الكريم ، فمن المسلّم أنّ مقوّماته و أسبابه و مباديه و غاياته قد ذُكرت فيه . و هذه الدرجة من فهم

القرآن و عجائبه و أسراره و دقائقه و أحكامه المترتّبة على الحوادث لا ينالها إلاّ أفراد خاصّين تجاوز علمهم المحسوسات و وصلوا إلى العلوم الكلّيّة الحتّمية و الابديّة .

و فى رواية مُعَلَّى بن خُنَيْس التى ذُكرت أخيراً ورد :

مَا مِن أمْر يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ، إلاّ وَ لَهُ أصْلٌ فِى كِتَابِ اللّه وَلَكِنْ لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُ الرِّجَالِ .

و هذه الحقيقة مشهودة بشكل واضح و بيّن ، فأوّلاً أن أصل و كلّيّة كلّ أمر موجود و مذكور فى القرآن؛ و ثانياً لَنّ علّة عدم بلوغ عقول الرجال هى عدم الوصول لذلك العلم الكلّىّ . أمّا الاولياء الخاصّون و المقرّبون للحضرة القدسيّة فلهم العلم بهذه الحقيقة . [1] ـ انتهى حاصل كلام هذا العالم الجليل مع ما أضفناه من إيضاح .

و على هذا الاساس ، فلو أراد جميع أفراد البشر، و جميع أفراد الجنّ ، بل جميع الممكنات ذات الشعور الحسّىّ أن يأتوا بكتاب كالقرآن لما استطاعوا .

قُل لَئِن اجْتَمَعَتر الإنسُ وَ الْجنُّ عَلَىأَن يَأتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْءانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض ظَهِيرًا . [2]

و يَتّضح ممّا بيّنا أخيراً سرّ هذا المعنى بوضوح تامّ و سبب عجز الجنّ و الإنس عن الإتيان بمثيل للقرآن، و إن اجتمعوا و تظاهروا و تعاضدوا على ذلك ؛ فالسبب هو لَنّ علم القرآن كلّىّ ؛ و جميع الجنّ و الإنس لم يدخلوا

---

١ ـ «تفسير الصافى» ج ١، ص ٣٧، ضمن المقدّمة السابعة من المقدمات الاثنا عشر المذكورة فى مقدّمة التفسير، و حقّاً لَنّ جميعها مفيد و قد حوى على مطالب قيّمة .

٢ ـ الآية ٨٨ ، من السورة ١٨: الاءسراء .

مدرسة الكلّيّة و لم يطووا مرحلتها ، فهم لذلك عاجزون عن درك المعانى الكلّيّة ، و لا سبيل لهم إلى فهمها و إدراكها .

فهم ليسوا عاجزين فقط عن الإيتان بقرآن كامل، بل حتّى عن الإتيان بعشر سور كسوره :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَٰتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لآ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ . [١]

فأنتم لا تعجزون فقط عن الإيتان بعشر سور، بل عن الإيتان بسورة واحدة كسور القرآن !

وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ . [٢]

و كذا الامر فى سورة يونس؛ فبعد أن تحدّى فى مقام التعجيز جميع أفراد البشر ليأتوا بسورة مثله، يصرّح: أن ادعوا مِن دون الله مَن شئتم و استعينوه على هذا الامر، لكنّكم لن تستطيعوا أبداً .

ثمّ يبيّن أنّ علّة تكذيب الكفّار و المتمرّدين بعدم إحاطتهم بحقائق القرآن و عدم إدراكهم و فهمهم لسرّ أمره .

و السرّ فى ذلك هو أنّ كلام الله لا يمكن فهمه إلاّ للّه، و لا يمكن

---

١ ـ الآيتان ١٣ و ١٤، من السورة ١١: هود.

٢ ـ الآيتان ٢٣ و ٢٤، من السورة ٢: البقرة.

إدراكـه بـأىّ وجـه مـن الوجـوه إلاّ الاوليـاء المقرّبـين الذيـن فنـوا فى ذاتـه القدسـيّة ؛ و تقصـر أفكـار علمـاء العـالم و مفكّريـه ـ مـهما حلّقـت بنـات أفكـارهم ـ عـن الرقـىّ إلى ذوقـه المتسـامية، لانّـهم لم يتخطّـوا بعـدُ حـاجز العلوم التجريبيّة و لا يزالـون أسـرى سـجن الحـسّ و الطبيعـة، فـهم لا يطـالون سموّه .

أولياء اللـه و مقرّبـو الحـريم الإلهـىّ هـم وحدهـم الذيـن يطلّعـون علـى حقائق القرآن و تأويله، لاتّصال وجودهم بوجود الحـقّ تعـالى و فنغـاء علومـهم فى علم ذاته الاحديّة .

وَ مَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَـهِ وَ لَـٰكِن تَصْدِيـقَ الَّـذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتَـٰب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ فَـأْتُوا بِسُـورَةٍ مِّثْلِـهِ وَ ادْعُـوا مَـنِ اسْـتَطَعْتُمْ مِّـن دُونِ اللَـهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ.

بَلْ كَذَّبُـوا بِمَـا لَـمْ يُحِيطُـوا بِعِلْمِـهِ وَ لَمَّـا يَأْتِـهِمْ تَأْوِيلُـهُ و كَذَلِـكَ كَـذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الظَـٰلِمِينَ . [1]

فسيَفْهَم هؤلاء المتمـرّدون و المكذّبـون أنّ القـرآن كـلام اللـه عـزّ وجـلّ عندما يأتيهم تأويله، أى حين يعبرون علوم الحسّ و يدركون الكلّيّات . [2]

فهـم لم يعـدّوا أنفسـهم لتلّقـى هـذا المعـنى فى هـذه الدنيا ، و لهـذا فبعد

---

١ ـ الآيات ٣٧ إلى ٣٩، من السورة ١٠: يونس.

٢ ـ أراد يعقـوب بـن إسـحاق الكنـدىّ الفيلسـوف أن يكتـب كتابـاً فى ردّ القـرآن، فأرسـل إليه الاءمـام الحسـن العسـكرىّ عليـه السـلام أحـد تلامذتـه ليسـأله عـن القـرآن ثمّ يقـول لـه: إن أتـاك هذا المتكلّـم بهـذا القـرآن هـل يجـوز أن يكـون مـراده بمـا تكلّـم بـه منـه غـير المعـانى الـتى قـد ظننتـها أنّـك ذهبـتَ إليـها! فمـا يدريـك لعلّـه قـد أراد غـير الـذى ذهبـت أنـت إليـه فتكـون واضعـاً لغـير معانيه. فأصغى له هذا الرجل الحكيم ثمّ قبل و صدّق، فانصرف عمّا كان يراه .

ارتحالهم من الدنيا و نسيانهم العلوما لماديّة سيفهمون أنّ آيات القرآن كانت كلّها حقّاً، و كانت كلّيّة غير جزئيّة، لكن فهمهم لن يضير هم فى تلك الحال و لن ينفعهم شيئاً .

فليس هذا الكلام من عند رسول الله قد أعدّه و نطق به عن هوى نفس، بل هو الوحى السماوىّ قد أوحاه إليه الرسول الإلهىّ: جبرائيل ذو القوىً الشديدة و الشوكة .

وَ مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى' * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى' * عَلَّمَهُ و شَدِيدُ الْقُوَى'. [١]

فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَ مَا لاَ تُبصِرُونَ * إِنَّهُ و لَقُولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَ لاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَـ'لَمِينَ * وَ لَوْ تَقَوَّلَ بَعْضَ الاْقَاوِيلِ * لاَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّن أَحَدٍ عَنْهُ حَـ'جزِينَ * وَ إِنَّهُ وَ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَ إِنَّهُ و لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَـ'فِرِينَ * وَ إِنَّهُ و لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ . [٢]

و من بين الآيات الدالّة على نزول القرآن من جانب الله تعالى الآيات التى يشدّد فيها على نبيّه فيؤاخذه و يستنطقه، ممّا لا يترك شبهة لدى قارى الآيات أنّ النبىّ عبدٌ و مولىً للّه مطيع له مسلّم لامره و نهيه، فالله سبحانه يرسل من مقامه الآيات، و على هذا المأمور أن ينفّذ ما أُمر به، فإن بدرت منه مخالفة أو عصيان ـ مهما صغر ـ فسيُحكم بالعذاب المتحتمّ الاليم و النقمة الشديدة ، كما فى الآيات التى ذُكرت أخيراً : وَ لَوو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ

١ ـ الآيات ٣ إلى ٥، من السورة ٥٣: النجم.
٢ ـ الآيات ٣٨ إلى ٥٢، من السورة ٦٩: الحاقّة.

الأقَاوِيل، إلى آخر الآيات .

و كالآيـة المباركـة: وَإِن كَـادُوا لَيَفْتِنُونَـكَ عَـنِ الَّـذِى أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ و وَ إِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً .

وَ لَوْ لاَ أَن ثَبَّتْنَـاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيوهِم شَيئًا قَلِيلاً.

إِذًا لاَذَقْنَـاكَ ضِعْـفَ الْحَيَـاوةِ وَ ضِعْـفَ الْمَمَـاتِ ثُـمَّ لاَ تَجِـدُ لَـكَ عَلَيْنَـا نَصِيرًا. [1]

و قد أورد العلاّمة آية اللـه الطباطبائىّ قدّس اللـه سـرّه فى التفسـير كلامـاً فى أنّ المـراد مـن الَّـذِى أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ هـو القـرآن ، بمـا يشـتمل عليـه مـن التوحيـد و نفـى الشـريك و السـيرة الصالحـة، و هـذا يؤيّـد مـا ورد فى بعـض أسباب النزول أنّ المشـركين سـألوا النـبىّ! صلّـى اللـه عليـه و آلـه و سـلّم أن يكفّ عن ذكر آلهتهم بسوء و يبعد عن نفسـه عبيـد هـم المؤمنـين بـه و السـقاط حتّى يجالسوه و يسمعوا منه، فنزلت الآيات .

و المعـنى : أنّ المشـركين اقـتربوا أن يزلّـوك و يصرفـوك عمّـا أوحينـا إليـك لتتّخـذ مـن السـيرة و العمـل مـا يخالفـه ، فيكـون فى ذلـك افـتراء علينـا لانتسابه بعملك إلينا ، و إذاً لاتّخذوك صديقاً .

و المراد من التَّثْبيت كما يفيده السياق هو العصمة الإلهيّة ، و المعـنى : و لـو لا أن ثبّتنـاكَ بعصمتنـا دنـوتَ مـن أن تميـل إليـهم قليـلاً، لكنّـا ثبّتنـاك فلم تدن من أدنى الميل إليهم فضـلاً مـن أن تجيبـهم إلى مـا سـألوا ، فـهو صلّـى اللـه عليه و آله و سلّم لم يجبهم إلى ما سألوا و لا مال إليهم شيئاً قليـلاً و لا كـاد أن يميل. [2]

---

١ ـ الآيات ٧٣ إلى ٧٥، من السورة ١٧: الاءسراء.

٢ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٣، ص ١٨٤.

و كالاية المباركة: وَ لَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً . [١]

و آية: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَ لاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَ قُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللـه مِن كِتَـٰب وَ أُمِرْتُ لاِعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمُ اللَهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ . [٢]

و لامير المؤمنين عليه السلام خطبة فى «نهج البلاغة» حول عظمة القرآن و خلوده ، أوردناها فى بداية هذا الكتاب، لذا نجد الآن وجوب الإرجاع لها. [٣]

و أوردوا له فى «نهج البلاغةش أيضاً:

ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ لِقَاءَهُ. وَ رَضِىَ لَهُ مَا عِندَهُ، وَ أَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا؛ وَ رَغِبَ بِهِ عَنْ مُقَارَنَةِ البَلْوَى.

فَقَبَضَهُ اللَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ؛ وَ خَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الانْبِيَاءُ فِى أُمَمِهَا إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ؛ وَ لاَ عِلْمٍ قَائِمٍ : كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ؛ مُبَيِّناً حَلاَلَهُ وَ حَرَامَهُ؛ وَ فَرَائِضَهُ وَ فَضَائِلَهُ؛ وَ نَاسِخَهُ وَ مَنْسُوخَهُ؛ وَ رُخَصَهُ وَ عَزَائِمَهُ؛ وَ خَاصَّهُ وَ عَامَّهُ؛ وَ عِبَرَهُ وَ أَمْثَالَهُ؛ وَ مُرْسَلَهُ وَ مَحْدُودَهُ؛ وَ مُحْكَمَهُ وَ مُتَشَابِهَهُ؛ مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ وَ مُبَيِّناً غَوَامِضَهُ .

بَيْنَ مَأْخُوذِ مِيثَاقِ فِى عِلْمِهِ؛ وَ مُوَسَّعٍ عَلَى العِبَادِ فِى جَهْلِهِ. وَ بَيْنَ مُثْبَتٍ فِى الكِتَابِ فَرْضُهُ ؛ وَ مَعْلُومٍ فِى السُّنَّةِ نَسْخُهُ ؛ وَ وَاجِبٍ فِى السُّنَّةِ

١ ـ الآية ٨٦ ، من السورة ١٧: الاءسراء.

٢ ـ الآية ١٥، من السورة ٤٢: الشورى.

٣ ـ انظر «نور ملكوت القرآن» ج ١، البحث الاوّل.

أَخْذُهُ؛ وَ مُرَخَّص فِى الكِتَابِ تَرْكُهُ.

وَ بَيْنَ وَاجِب بوَقْتِهِ؛ وَ زَائِل فِى مُسْتَقْبَلِهِ؛ وَ مُبَايَن [1] بَيْنَ مَحَارِمِهِ، مِنْ كَبير أوْعَدَ عَلَيْهِ نيرَانَهُ؛ أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ. وَ بَيِّنَ مَقْبُولٍ فِى أَدْنَاهُ مُوَسَّعٍ فِى أَقْصَاهُ. [2]

و قد عدّد أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبة، أقسام و أنواع آيات القرآن من جهات مختلفة:

حلال القرآن : كتناول الطيّبات و الاطعمة الزكيّة، و نكاح أربع نساء بالعقد الدائم :

---

١ ـ ذكر ابن أبى الحديد فى شرحه ج ١، ص ١٢٢ (طبعة دار الكتب العربيّة) كلمة مُباين بين محارمه مرفوعةً، و قال: و مباينٌ بالرفع لا بالجرّ، فإنّه ليس معطوفاً على ما قبله، ألا ترى أنّ جميع ما قبله يستدعى الشىء و ضدّه أو الشىء و نقيضه، و قوله و مباين بين محارمه لا نقيض و لا ضدّ له، لانّه ليس القرآن العزيز على قسمين أحدهما مباين بين محارمه و الآخر غير مباين، فإنّ ذلك لا يجوز، فوجب رفع مُباين و أن يكون خبر مبتدأ محذوف ـ انتهى .

و قرأه المرحوم المولى فتح اللّه الكاشانىّ فى شرحه ، ص ٤١ ، مجروراً و اعتبره عطفاً ؛ لكنّ الشيخ محمّد عبده قرأه بالرفع أيضاً فاعتبر خبر القرآن محذوفاً .

و يجد الحقير أنّ قراءة الجرّ أولى لسببين، أوّلهما: أنّ الرفع سيخلّ بسياق العبارة و سيأتى للذهن بأمر جديد لا علاقة له ما سبقه من الجمل. و ثانيهما : أنّ عبارة «من كبير أو عد عليه نيرانه» يمكن اعتبارها مع معبارة «أو صغير أرصد له غفرانه» معنيين متضادّين يظهران معنى المباينة . و فى هذه الصورة فإنّ النظيرين سيبقيان فى مكانهما و سيزول الاءشكال فى كلا الصورة و المعنى .

و الارجح الاظهر بنظر الحقير هو أنّ عبارة «مباين بين محارمهش قد حصل فيها تحريف فى النسخ، و أنّها كانت فى الاصل «و بين مباين محارمه» فتأخّر موضع كلمة «بين» مسبّباً هذا الاءبهام .

٢ ـ ضمن الخطبة الأُولى من «نهج البلاغة» ص ٢٥ و ٢٦، الطبعة المصيريّة بتعليقة الشيخ محمّد عبده .

وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـٰت. [١]

وَإِن خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَمَـٰى فَأنْكِحُوا مَـا طَـابَ لَكُـم مِّـنَ النِّسَـاءِ مَثْنَى وَ ثُلَـٰثَ وَ رُبَـٰعَ فإِن خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ. [٢]

حرام القرآن : كتناول الخبائث و الاشياء الضارّة ، و كالزنا :

وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـٰئِثَ. [٣]

الزَّانِيَةُ وَ الزَّانَـى فَـاجْلِدُوا كُـلَّ وَاحِـدٍ مِّنـهُمَا مِأَئَـةَ جَلْـدَةٍ وَ لاَ تَـأْخُذْكُمْ بهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُم تُؤْمِنُـونَ بِاللَّـهِ وَ الْيَـوْمِ الاْخِـرِ وَلْيَشْـهَدْ عَذَابَـهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ. [٤]

فرائض القـرآن :كـالصلاة،والزكـاة :وأَقِيمُواالصَّلوةَوَءَاتُواالزَّكَـوةَ وَارْكَعُوامَعَ الرَّاكِعِينَ. [٥]

فضـائل القـرآن : أى المسـتحبّات و النوافـل الزائـدة عـن الفرائـض ، و الموجبة إعلاء درجة المؤمـن، كصلـوات النوافـل، و صـلاة الليـل، وَ مِـنَ الَّيْـلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا. [٦]

نَاسخ القرآن : أى الآية الـتى نسـخت و ألغـت حكـم مـا قبلـها و حلّـت محلّـها، كـالحكم بقتـل المشـركين الـوارد بعـد الامـر بـالمداراة و الصـبر و تحمـل الاذى منهم و المسايرة معهم. [٧]

---

١ ـ الآية ١٥٧، من السورة ٧ : الاعراف.

٢ ـ الآية ٣، من السورة ٤ : النساء.

٣ ـ الآية ١٥٧، من السورة ٧ : الاعراف.

٤ ـ الآية ٢، من السورة ٢٤: النور.

٥ـ الآية٤٣،من السورة٢:البقرة.

٦ ـ الآية ٧٩، من السورة ١٧: الاءسراء.

٧ ـ كالآية ١٠٩ ، من السـورة ٢ : البقـرة : وَدَّ كَثِـيرٌ مِـن أَهْـلِ الْكِتَـٰبِ لَـوْ يَـرُدُّونَكُـم مِّـنِ

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُّمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَوةَ وَ ءَاتَوُا الزَّكَوةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .[1]

منسوخ القرآن : أى الآيات التى انتهى مدّة حكمها ، كحرمة بعض أنواع الطعام التى حرّمها الله على اليهود جزاء لطغيانهم و ظلمهم :

وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِم شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَـٰهُم ببغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصَـٰدِقُونَ .[2]

رُخَص القرآن : أى الاشياء التى أُبيح ارتكابها ، كتناول الدم ، و الميتة ، و ما أُهِلّ لغير الله به، و غيرها ممّا وردت حرمته فى الآية الثالثة من سورة المائدة ، ثمّ جاء فى ذيل الآية أن :

فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

عَزَائم القرآن: و هى الاشياء التى يجب الإتيان بها حتماً، و لا رخصة فى تركها ، مثل :

وَ لاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ و لَفِسْقٌ .[3]

خَاصّ القرآن : الاحكام التى تخصّ إنساناً معيّناً ، كرسول الله

بَعْدِ إِيمَـٰنِكُم كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللَهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ. و كالآيتين ١٠. ١١، من السورة ٧٣ : المزمّل : وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً × وَ ذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُم قَلِيلاً.

١ ـ الآية ٥، من السورة ٩ : التوبة.

٢ ـ الآية ١٤٦، من السورة ٦ : الانعام.

٣ ـ الآية ١٢١، من السورة ٦ : الانعام.

صلّى اللـه عليه وآله الذى ورد خطاب اللـه تعـالى لـه بشـأن تحريمـه مـا أحـلّ اللـه له :

يَـأَيُّهَا النَّبِـيُّ لِـمَ تُحَـرِّمُ مَـآ أَحَـلَّ اللـه لَـكَ تَبْغِـى مَرْضَـاتَ أَزْوَاجِـكَ وَ اللَهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . [٢]

عامّ القـرآن : الاحكـام الـتى لا تختـصّ بشـخص أو طائفـة معيّنـة : كوجوب اعتداد النساء وحرمة تزويجهنّ قبل انقضاء العدّة ، مثل :

يَـأَيُّـهَا النَّبِـيُّ إِذَا طَلَّقْتُـمُ النِّسَـاءَ فَطَلِّقُوهُـنَّ لِعِدَّتِـهِنَّ وَ أَحْصُـوا الْعِـدَّةَ وَ اتَّقَول اللَهَ رَبَّكُمْ . [٢]

عِـبَر القـرآن : أى المطـالب الـواردة فى القـرآن الموجبـة لِعبـة قارئـه ، كلاحوادث الواقعـة علـى الأُمـم السـالفة و نـزول العـذاب لتمرّدهـم و تعدّيـهم الحقّ و سلوكهم طريق الظلم و العدوان، كقصّة أصحاب الفيل و غيرها .

و العبرة من مادّة العبور، و هـو الانتقـال مـن مكـان إلى مكـان ، و يقـال للعـبرة عـبرة لانّ النـاظر يعطـف نظـره عنـها فيعـود لنفسـه و يعتـبر و يتّعـظ ، كقصّة فرعـون الـتى بيّنـها اللـه سـبحانه فى سـورة النازعـات، و ذهـاب النـبى موسى على نبيّنا و آله و عليـه السـلام بـأمر اللـه إليـه لهدايتـه ، فـأراه الآيـة الكبرى ، فكذّب و عصى، فجمع الناس و نادى: أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَـى، فـأخذه اللـه بيَدر قدرته و أنزل به عذاب و نقمة الدنيا و الآخرة :

فَـأَخَذَهُ اللَـهُ نَكَـالَ الاْخِـرَةِ وَ الاْولَـى ×إِنَّ فِـى ذَلِـكَ لَعِـبْرَةً لِّـمَن يَخْشَى. [٣]

---

١ ـ الآية ١، من السورة ٦٦ : التحريم.

٢ ـ الآية ١، من السورة ٦٥ : الطلاق.

٣ ـ الآيتان ٢٥ و ٢٦، من السورة ٧٩ : النازعات .

أمثال القرآن: و هى الامثال التى يضربها ليفهم الناس بالمثال الحقّ فى الامر الممثَّل ، مثل :

ضَرَبَ اللَهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ وَ مَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ .

وَ ضَرَبَ اللَهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُ لاَيَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَ مَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٌ . [1]

مُرْسَل القرآن : و هو المطلق بلا قيد ، كتحرير العبد ، مؤمناً كان أم كافراً :

وَ الَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ [2] مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللَهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . [3]

محدود القرآن : و هو المُقَيَّد ، أى الحكم الذى يرد مع القيد و الحدّ ؛ و استعمال لفظة محدود بدل مقيّد غاية فى الفصاحة؛ و مثله تحرير عبد مؤمن و عدم كفاية العبد الكافر :

مَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ [4] .

محكم القرآن : الآيات التى لها دلالة صريحة على معناها، مثل الآية

---

١ ـ الآيتان ٧٥ و ٧٦، من السورة ١٦: النحل.

٢ ـ الظِّهارُ من الأُمور التى كان يفعها العرب فى الجاهليّة . فكان أحدهم يخاطب زوجته ، فيقول لها بقصد الاءنشاء : أنتِ مِنِّى كَظَهْرِ أُمِّى، فيحرم عليها جماعها . ثمّ جاء الإسلام فحرّم ذلك ، و عيّن كفّارة لمن يظاهر زوجته ، و أوجب عليه تحرير رقبة قبل أن يمسّ زوجته .

٣ ـ الآية ٣، من السورة ٥٨ : المجادلة .

٤ ـ الآية ٩٢، من السورة ٤: النساء.

الشريفة: قُلْ هُوَ اللَهُ أَحَدٌ . [١]

متشابه القرآن: الآيات التى تحتاج دلالتها على المعنى الحقيقىّ إلى التأويل . كالآية الشريفة : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاظِرَةٌ * إِلَى' رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . [٢]

مجمل القرآن : الآيات المحتاجة إلى تفسير، كإقامة الصلاة ، التى بيّن رسول الله كيفيّتها و قال: صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونى أُصَلِّى [٣] ؛ أمّا أصل التكليف فى القرآن فمجمل، مل: أَقِيمُوا الصَّلَوةَ .

مُبَيَّن القرآن: الآيات التى لا تحتاج إلى تفسير فى فهم معناها، كآية : فَأَعْلَمْ أَنَّهُ، لآ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللَهُ [٤]. و الآية الشريفة : وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ . [٥]

مَأخُوذُ المِيثَاقِ عِلْمُهُ فِى القُرْآنِ: و هو ما يتوجّب على الإنسان علمه، و يؤاخذ على جهله، كآيات التوحيد، و أحكام وَ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لآ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ [٦] .

مُوَسَّعٌ عَلَى العِبَادِ جَهْلُهُ فِى القُرْآنِ: الآيات التى لا يؤاخذ الإنسان على جهلها، كمقطّعات السور مثل : كهيعص [٧]، و حم * عسق [٨]، و أمثالهما .

ثُبُوتُ القُرْءانِ وَ نَسْخُ السُّنَّةِ : و هو الحكم الذى ورد فى القرآن، لكنّه

---

١ ـ الآية ١، من السورة ١١٢ : الإخلاص.

٢ ـ الآيتان ٢٢ و ٢٣، من السورة ٧٥ : القيامة.

٣ ـ «الجواهر» ج ٩، ص ٣٣٤، الطبعة الحروفيّة، كتاب الصلاة، مبحث القراءة، و أورد فى التعليقة : و هذه الرواية موجودة فى «صحيح البخارىّ» ج ١، ص ١٢٤ و ١٢٥.

٤ ـ الآية ١٩، من السورة ٤٧: محمّد.

٥ ـ الآية ٥٢، من السورة ١٤: إبراهيم.

٦ ـ الآية ١٦٣، من السورة ٢: البقرة.

٧ ـ الآية ١، من السورة ١٩: مريم.

٨ ـ الآيتان ١ و ٢، من السورة ٤٢: الشورى.

نُسِخَ فى السنّة القطعيّة لرسول اللـه صلّى اللـه عليه وآلـه وسلّم، كعقوبـة الزانيـة المحصنة الـتى أمـر القـرآن بإمسـاكها فى البيـت حتّـى تمـوت أو يجعـل اللـه لهـا سبيلاً، و أمّا غير المحصنة فحكـم بإيذائـها حتّـى تعـود و تتـوب ، أمّـا فى السـنّة فقـد جعـل حكـم الزانيـة المحصنـة الرجـم، و غـير المحصنـة الجلـد، فنسـخ أمـر رسول اللـه الحكم الوارد فى القرآن ، و هو :

وَ الـلَّتِى يَأْتِينَ الْفَـٰحِشَـةَ مِـن نِّسَـائِكُم فَاسْتَشْـهِدُوا عَلَيْـهِنَّ أَرْبَعَـةً مِّنكُـمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِـكُوهُنَّ فِـى الْبُيُـوتِ حَتَّـى يَتَوَفَّـٰهُـنَّ الْمَـوْتُ أَوْ يَجْعَـلَ اللَـهُ لَهُنَّ سَبِيلاً.

وَ الَّذَانِ يَأْتِيَنـٰهَا مِنكُمْ فَـاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَ أَصْلَحَـا فَـأَعْرِضُوا عَنْـهُمَآ إِنَّ اللَهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا . [1]

و كان هذا مطبّقاً حتّى أمـر رسـول اللـه برجـم الـزانى المحصـن و بجلـد الزانى غير المحصن ، فنسخ حكم حبسهنّ فى البيوت و حكم إيذائهنّ .

نَسْـخُ القُـرْءانِ و ثُبُـوتُ السُّـنَّةِ: و هـو عبـارة عـن حكـم ورد فى السـنّة القطعيّـة لكـنّ القـرآن ألغـاه، كـالصلاة إلى بيـت المَقْـدِس فى بـدء الإسـلام الـتى كانت واجبة حسب السنّة القطعيّة إلى مـا بعـد هجـرة الرسـول إلى المدينـة بعـدّة سنوات، ثمّ نسخ القرآن الكريم هذا الحكم :

قَدْ نَـرَى تَقَلُّـبَ وَجْـهِكَ فِـى السَّـمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّـكَ قِبْلَـةً تَرضَـٰهَـا فَـوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ وَ حَيْـثُ مَـا كُنتُـم فَوَلُّـوا وُجُوهَكُـم شَـطْرَهُ و وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُـونَ أَنَّـهُ الْحَـقُّ مِـن رَّبِّـهِمْ وَ مَـا اللَـهُ بِغَـٰفِـلٍ عَمَّـا يَعْمَلُونَ . [2]

---

١ ـ الآيتان ١٥ و ١٦، من السورة ٤: النساء.

٢ ـ الآية ١٤٤، من السورة ٢: البقرة.

حتّى يصل إلى هذه الآية فيقول أيضاً :

وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِنَّهُ و لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَ مَا اللَهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . [١]

ثم يقول تأكيداً، فى الآية التى تليها:

وَ مِن حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ و لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُم حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِى وَ لاِتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . [٢]

الواجب المؤقّت فى القرآن : هو العمل الواجب فى زمان معين ، فاذا انقضى ذلك الزمن لم يعد واجباً، كحج بيت الله الحرام المتعين فى عدة ايام من ذى الحجة ، و غير واجب بعدها .

و لِلَهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . [٢]

المعصية الكبيرة فى القرآن: و هى الذنب الذى اوعد القرآن على ارتكابه جهنم، كقتل المؤمن عمدا :

وَ مَن يَقْتُلْ مُؤمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُو جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا. [٣]

المعصية الصغيرة فى القرآن: و هى الذنب الذى وعد على ارتكابه المغفرة ان لم يرتكب معه كبيرة :

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰئِرَ الْإِثْمِ وَ الفَوَاحِشَ إلاّ اللَّمَمَ إنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ

١ ـ الآية ١٤٩، من السورة ٢: البقرة.
٢ ـ الآية ١٥٠، من السورة ٢: البقرة.
٣ ـ الآية ٩٧، من السورة ٣: آل عمران.
٤ ـ الآية ٩٣، من السورة ٤: النساء.

المَغْفِرَةِ.[1]

مقبول فى أدنى القرآن موسع فى أقصاه: و هو العمل ذو المراتب و الدرجات، يقبل الله من المكلّف الدرجة الادنى و يترك له حرية اختيار المراتب و الدرجات الاعلى و الاهمّ و الاصعب، مثل كفّارة اليمين و هى إطعام عشرة مساكين وجوباً، و ترك اختيار الكفّارة الاشقّ و الاكثر مؤنة؛ أى كسوة عشرة مساكين أو عتقهم؛ لاختيار المكلّف نفسه.

لاَ يُؤاخِذُكُمُ اللَهُ بِاللَّغْوِ فِى ٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُ و إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَهُ لَكُم ءَايَـٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .[2]

يروى محمّد بن يعقوب الكلينىّ فى «الكافى» بسنده المتّصل، ضمن حديث أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال :

القُرآنُ هُدَىً مِنَ الضَّلاَلَةِ وَ تِبْيَانٌ مِنَ العَمَى ؛ وَاسْتِقَالَةٌ مِنَ العَثْرَةِ ؛ وَ نُورٌ مِنَ الظُّلْمَةِ ؛ وَ ضِيَاءٌ مِنَ الاحْدَاثِ ؛[3] وَ عِصْمَةٌ مِنَ الهَلَكَةِ؛ وَ رُشْدٌ مِنَ الغَوَايَةِ؛ وَ بَيَانٌ مِنَ الفِتَنِ ؛ وَ بَلاَغٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى اىخِرَةِ ؛ وَ فِيهِ كَمَالُ دِينِكُمْ ؛ وَ مَا عُدِلَ عَنِ القُرْآنِ إِلاَّ إِلَى النَّارِ.[4]

يروىَ الكلينىّ أيضاً ، بإسناده عن سَماعة بن مِهران أنّ الإمام

---

١ ـ الآية ٣٢ ، من السورة ٥٣ : النجم .

٢ ـ الآية ٨٩ ، من السورة ٥ : المائدة .

٣ ـ فى نسخة «الكافى» بهذا اللفظ، أمّا فى «المحجّة البيضاء» عن «الكافى» فروى بلفظ **الاجداث** بالجيم المعجمة .

٤ـ «أُصول الكافى» ج ٢، ص ٦٠٠ ، الطبعة الحروفيّة ، المطبعة الحيدريّة .

الصادق عليه السلام قال:

إنَّ العَزيزَ الجَبَّارَ أَنـزَلَ عَلَيْكُـمْ كِتَابَـهُ، وَ هُـوَ الصَّـادِقُ البَـارُّ؛ فِيـهِ خَـبَرُكُمْ وَ خَبَرُ مَن قَبْلَكُمْ ؛ وَ خَبَرُ مَنْ بَعْدَكُمْ ؛ وَ خَبَرُ السَّمَاءِ وَ الاَرْضِ . وَ لَوْ أَتَـاكُمْ مَـنْ يُخْبِرُكُمْ عَن ذَلِكَ لَتَعَجَّبْتُمْ . [١]

لـذا فمـن اعتمـد علـى القـرآن فقـد اعتمـد علـى الحـقّ و الواقـع، فـهو عزيز، أى مستقلّ و فاعل ، و من لجأ إلى غيره فهو ذليل ، أى منفعل بلا داع .

فـالاوّل يمتلـك بنفسـه القـاهرة حكومـة علـى لَىّ موجـود، و أىّ! علـم ، و لَىّ مدرسة يرد عليـها، فيُلقّـها مـن قدرتـه الفعليّـة و يؤثّـر بهـا. أمّـا الثـانى ، ذو النفس المقهورة المنفعلـة ، فمحكـوم لاىّ علـم و فكـر ـ مـهما كـان بـاطلاً ـ يتلقّح منه و يأخذ عنه .

العـامل بـالقرآن فى أمـان و حصـنٍ حصـين، و غـيره فى خـوف و قلـقٍ و اضطراب.

و يروى الكلينىّ أيضاً بإسناده عـن الإمـام جعفـر الصـادق عليـه السـلام ، قال: **كَانَ فِى وَصِيَّةِ أَمِـيرِ المُؤمِنِـينَ أَصْحَابَـهُ: اعْلَمُـوا أَنَّ القُـرْءَانَ هُـدَى النَّـهَارِ؛ وَ نُورُ اللَّيْلِ المُظْلِمِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ جُهْدٍ وَفَاقَةٍ .** [٢]

أى أنّه عليه السلام كان يوصـى أصحابـه باتّخـاذ القـرآن نهـاراً مصباحـاً للهداية، و برنامجاً للعمل، و قـدوة و أسـوة، و مفتاحـاً لكـلّ معضـل و مشـكل ، و باتّخاذه نوراً لليل البهيم ، حين يـهجع الكـلّ و ينـامون، فيتلـوه هـؤلاء أحيانـاً فى صـلاة الليـل بقـراءة السـور الطـوال و الآيـات العجيبـة ، و يقتحمون بقراءته

١ـ «أُصول الكافى» ج ٢، ص ٥٩٩ .

٢ـ «أُصول الكافى» ج ٢، ص ٦٠٠ .

عالماً من نور و صفاء و سرور و بساطة و تجرّد، و یردون بقراءة کلّ آیة علی روضة خاصّة ذات أفنان، فتضیء لهم آیات القرآن کلّ عقبة و مرتفع تلفّه الظلمة ، و تسطع بأنوارها الوهّاجة المحیّرة للعیون و الابصا ، ثمّ ینقضی اللیل و یطلع بیاض الفجر الصادق، و تطلّ أشعة الشمس من وراء الاُفق طلائع بشارةٍ بقدوم الشمس ، لکنّ هؤلاء لم یکونوا فی ظُلمة أبداً ، و لم یحسّوا بافتقاد النور، مع أنّهم کانوا فی درجة عالیة من الفقر و الجهد و المشکلات المادّیّة، لانّ باطنهم و ذهنهم مع هذا کلّه کان مضیئاً و منوراً بأنوار آیات القرآن .

آنکه در خانهاش صَنم دارد
گر نیاید برون چه غم دارد ؟[1]

و کذلك یحدّث الکلینیّ بإسناده : عن الزهریّ أنّه قال : سمعتُ علیّ بن الحسین علیه السلام یقول :

آیاتُ القُرآنِ خَزَائِنُ العِلْمِ فَکُلَّمَا فَتَحْتَ خِزَانَةً، یَنْبَغِی لَکَ أَن تَنْظُرَ مَا فِیهَا . [2]

القرآن کتاب الحقیقة و کتاب معالجة الافراد لإیصالهم إلی مقام الکمال و أوج درجات الإنسانیّة، و إخراجهن من مستوی البهیمیّة إلی أعلی نقطة من ذروة الآدمیّة .

فهو یشخّص المرض جیّداً، و یعالجه کلّیّاً، فی سهولة و یسر و سرعة، فلا یخطی فی تشخیص الداء و وضع یدِهِ علی موطن العلّة، و لا فی أُسلوب العلاج و المداواة ، و لا یستبدل دواءً بآخر، بل یصف الدوا و یشیر علی

١ـ یقول: «ماذا یضیر مَن کان فی وجوده الحقّ إن ظلّ فی بیته قابعاً؟».

٢ـ «أُصول الکافی» ج ٢، ص ٦٠٩.

موارد الاحتراز و الاجتناب بما يقتضى، دون زيادةً أو نقصان، و لا ينقض يده عن المعالجة و يوقفها حتّى يشفى أفراد البشر من كلّ الامراض المزمنة و الكامنة و الخفيّة و المضاعفة، و ذلك بوصفاته العلاجيّة المتعاقبة إلى أن يعطى أخيراً شهادة العافية و السلامة الشاملة .

فهو فى أمره أشبه بجرّاح لا نظير له فى العمليّات الجراحيّة، و كذا فى قوّة التشخيص و المعالجة، وهو يلحظ على الفور النقطة السوداء الخطرة فيستأصلها من مكانها بأسرع وقت و يريح المريض منها، و يصف الدواء لمن لا يحتاج الجراحة و يعالجه حسب مزاجه و قابليّته .

و لامير المؤمنين عليه السلام خطبة ورد فى جملتها فقرة يشير فيها إلى حذاقة و مهارة رسول الله فى علاج الامراض الروحانيّة، و هى تصدق على القرآن و مهارته و حذاقته أيضاً: **طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ. قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ. وَ أَحْمَى مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنْ قُلُوب عُمْى. وَ آذَانٍ صُمٍّ. وَ أَلْسِنَةٍ بُكم. مُتَّبعٌ بدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الغَفْلَةِ وَ مَوَاطِنَ الحَيْرَةِ .** [1]

فالادوية النّافعة للقلوب العمى هى التى تعطى الفهم بكشف موانعه و توقظ الوجدان؛ و التى تنفع الآذان الصمّ هى الإنذار و الوعيد و الوعظ و التخويف و التحذير و الترغيب و التحريض؛ و ما ينفع الالسنة البكم هى تلك الادوية التى تنطق اللسان و تجريه بذكر الله .

و قد ذكر المرحوم المولى فتح الله الكاشانىّ فى «شرح نهج البلاغة» أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد بقوله **طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ** نفسه النفيسة [2]، لكنّ هذا بعيد كما هو ظاهر من السياق .

١ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٠٦، و فى طبعة مصر بتعليقة محمّد عبده: ج ١، ص ٢٠٧.

٢ـ «شرح نهج البلاغة» للمولى فتح الله، ص ١٩٣، الطبعة الحجريّة.

نعم، فكما كانت الروح المقدّسة لرسول الله؛ والتى هى حقيقة القرآن؛ **طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ**، كان القرآن أيضاً **طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ**، ينقذ البشر من الامراض المهلكة المدمّرة للأُسر و البيوت.

كم هى قبيحة ظلمات النفس! و كم هو حسن و جميل الخروج منها! فالقرآن هو الذى يمدّ يده ليخرج البشر من ظلمات الباطن، و يعالج أمراضه الروحيّة و المعنويّة جميعاً فيصير الإنسان إذ ذاك إنساناً مستقيماً و بشراً سويّاً.

ففى الزوايا العميقة المتشابكة للنفس الامّارة يجد الإنسان نفسه أمام ألف ألم و عقدة و محنة، و ألف خصلة سيئّة، و آلاف من الخواطر المشوّشة المضطربة؛ فكيف سيميّز الخلل و يضع يده على مكان الداء؟ و بما أنّه ـ علس سبيل الفرض ـ فى ظلام، فكيف سيشخّص طريق العلاج الناجع؟ أو كيف يعرف حقيقة.ىّ خصلةٍ و صفة قد ألقته فى معرض الردى والهلاك؟

لكنّ بزوغ شمس القرآن ينير ساحة النفس، فيرى الإنسان عيوبه و نقائصه رأى العين، ثمّ لا يقرّ له قرار قبل استئصالها، لوجود باعث باطنىّ قوىّ يدفعه ليعمل بتعاليم القرآن، فينتهى إلى مراده و يجنى رغائبه و يصل إلى غاياته فى الوصول إلى مقام الإنسانيّة و معرفة نفسه .

العلم بالنفس هذا و معرفتها هو نفسه معرفة المعبود تعالى، لانّ: **مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ** .[1]

و جلىٌّ أنّ هذا هو الصراط المستقيم الذى يوصل الإنسان بأقصر فاصلة و سبيل و أقصر زمن و أقصر معالجة إلى هذا الهدف العالى والغاية

١ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٦، ص ١٨٢، عن «الغرر و الدرر» للامدىّ.

السامية، لا أن يبطى فى معالجته و يتعثّر و يتكاسل حتّى تطول الفترة ، فيؤدّى ذلك إلى تشتّت قوى الإنسان و إضعافها، و وضعه على شفا الموت و الهلاك .

وَ إِنَّهُ و لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ * لاَّ يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاَ مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ * وَ لَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْ لاَ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُ و وَ عَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَ شِفَآءٌ وَ الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . [١]

لقد وصفت هذه الآيات القرآن بالعزّة: **وَ إِنَّهُ و لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ**، و العزيز ضدّ الذليل؛ و الذليل هو القابل للتأثّر و الانفعال، و يقال لذلّة الحال التأثّر و الانكسار.

القرآن عزيز، أى أنّ موضوعاته و أحكامه و محتوياته ليست فى معرض الانكسار و البطلان و النسخ، و لن يمكن للعلوم البشريّة الانتقاص منه ، و لن يعترى أحكامه و مواضيعه الوهن و لن يتسرّب إلى فرضيّاته الخلل و البطلان كما فى بقيّة الكتب .

لا يأتيه الباطل من بين يديه : فما ورد عن السابقين من الانبياء و المرسلين، و الاولياء المقرّبين ، و الحكماء الإلهيّين ، و العلماء و المؤرّخين ، و الاطبّاء الروحانيّين و النفسانيّين، و الاطباء الماديّين و الطبيعيّين، و الاُمم و الطوائف السالفة، و ما بيّنوه إلى زمن آدم أبى البشر؛ فقد وقف القرآن أمام كلّ ذلك ثابتاً دون تأثّر أو انفعال ، و لن يتمكّن أيّاً

١ـ الآيات ٤١ إلى ٤٤، من السورة ٤١: فصّلت.

منهم من أن يوجّه له نقداً أو طعناً.

فلقد ورد على التوراة و الإنجيل الفعليّين مئات الانتقادات و الإشكالات العقليّة و النقليّة ، أظهرت بوضوح تحَريفها عن الوحى السماوىّ الاوّل، بالشكل الذى عجز فيه حماتها و مدافعوها عن الإجابة ، و تراجعوا أذلاّء أمام أسئلة السائلين التى بقيت تنتظر الإجابة .

لذا، فقد خرج هذا الكتابان فعلاً من المجتمعات العلميّة و البحث و الدراسة و التحليل، بحيث صارا منزويّين منعزلَين بين زوايا الصوامع و الكنائس .

لقد تخبّط الدين المسيحىّ فى مسألة التثليث، و لم تذكر التوراة شيئاً عن المعاد، و عزت الفجائع و الدواهى إلى ساحة الانبياء، و ابتُليت مطالبها الواقعيّة بانتقادات العلوم و الاكتشافات و إشكالاتها .

و يعدّ الإنجيل شرب الخمر حلالاً، لانّه قد عبّر عنه بدم ! و لا يمكن لمن سار على نهج التوراة و الإنجيل من الوصول إلى مقام التوحيد ، لانّ سيره هذا مخالف لبرنامج التوحيد و تعاليمه .

أمّا القرآن الكريم فهو كتاب عزيز، له مجد و عزّة و كرامة، يعامل و يواجه بالعظمة و السيادة، و ليس بإمكان أىًّ كان أن ينقد حتّى جزئيّات مضامينه و آياته و قصصه، أو أن يعثر فى طيّاته على موضوع يخالف التأريخ و الاكتشافات و نتائج الحفريّات الاثريّة، أو يناقض العقل أو القواعد الرياضيّة و النجوم و الهيئة و أمثالها .

و لا يأتيه الباطل من خلفه؛ أى من زمن نزوله إلى يوم القيامة، فأىّ بشر شاء أن يرد ميدان المواجهة معه، فى أىّ علم أو أىّ تجربة، فلا مناص له من التسليم بمقام عزّ القرآن، لانّ أساسه متين و محكم لا يتغيّر، فُصِّل على أساس من الثبات و الاستقرار، لانّ علومه لا تستند إلى الحسّ و الخيال

لتزول بـزوال الحـسّ و الخيـال. و اسـتناداً إلى هـذا الاسـاس الـذى بُيِّـن فإنّـه لم يستفد أحـد لحـدّ الآن مـن التقـدّم العلمـىّ المـادّىّ و الطبيعـىّ و التجريـبىّ فى الهيئـة و النجـوم و الطبيعيّـات، و تسـخير النـور و الامـواج الكهربائيّـة، و فلـق الـذرّة، والحركـة إلى القمـر، و بالاسـتمداد مـن التقـدّم الصنـاعىّ! وا لطبّـىّ المدهش، و من سـائر العلـوم، مـن الابحـاث النفسـيّة و الحقوقيّـة، و مـن العلـوم الخارجـة عـن الطبـع و الطبيعـة، و بالاتّصـال بعـالم النفـس، لم يمكنـه بهـذا كلّـه أن يأتى بموضوع أسمى و أفضل من القرآن .

بـل كـان الكـلّ خـاضعين خاشـعين و مسـلّمين معـترفين باحتياجـهم للقرآن، و بـأن لا فـائدة مـن التقـدّم فى هـذه العلـوم المادّيّـة و الطبيعيّـة لنجـاة البشـريّة مـن سـجن الجـهل، إن تمّ ذلـك بمعـزل عـن متابعـة تعـاليم القـرآن السامية، بل سيزيد ذلك الطين بلّة و المشكلة تعقيداً .

و هذا هو معنى عـزّة القـرآن الـذى يمثّـل كـلام الخـالق ، فـهو لا يـتراجع و لا يهتزّ أمام المنطق و الفرضيّـات الـتى تواجهـه، بـل هـو ثـابت راسـخ، قـائم بنفسـه، دائـم علـى كـرّ الدهـور، مضـىء كالمصبـاح المنـير فى سـجن الجـهل ، و كالشمس التى تستوعب العالم وت نـيره بأعتـها و ضيائـها، و هـو معـنى عـدم ورود الباطل **مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاَ مِنْ خَلْفِهِ**.

و ليس من منهَج القـرآن تخويـف النـاس و إرعـابهم باسـتمرار، فيدفعـهم ذلك إلى حافّة القنوط، أو ترغيبهم حتّى يصلوا إلى حافّة التمادى و الطغيان .

يقول اللـه سبحانه، بعد الآية السالفة:

مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيـلَ لِلرُّسُـلِ مِـن قَبْلِـكَ إِنَّ رَبَّـكَ لَـذُو مَغْفِـرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ .

فلو جئنا بهذا القرآن بلغـات مبهمـة مضطربـة غـير مُبيَّنـة مليئـة بالالغـاز و الاحـاجى، و لـو جئنـا به بلسـان عـيىّ غير فصـيح ، أو بغير اللسـان العـربىّ

الفصيح، لتساءل المغرضون : لماذا أُبهمت آياته ! و لِمَ لَمْ يفصّل مطالبه و يبيّنها؟

و لقالوا : ما الفائدة من كتاب مجمل غير فصيح لأُناس فصحاء بلغاء؟ قل لهم أيّها النبىّ: كفّوا عن هذه المقولات! فلقد جئنا بكتاب لسانه عربىّ مبين، لا إبهام فيه و لا ايهام، و قد فصّلناه و بيّناه .

و هو كتاب للمؤمنين الذين فتحوا بصائر قلوبهم ، كتاب هداية و إرشاد للغاية القصوى المنشودة إلى آخر منزل المقصود، و للوصول إلى أعلى درجات الإنسانيّة و نيل مقام التوحيد، و شفاء للامراض العُضال المتراكمة .

أمّا الذين لم يؤمنوا به فقد صُمّت أسماعهم و عُميت قلوبهم و بصائرهم، فلم يعد يمكنهم سماع آيات الله أو مشاهدتها.

فما الذى يجنيه الكفّار بإعراضهم عن القرآن سوى صمم آذان القلوب، و عمى البصائر و عجزهما عن الإصغاء و الرؤية؟

أُولئك هم الذين يُنادَون من مكان بعيد، نداء الهداية الإلهيّة يطرق أسماعهم من البعيد، و لا يعدو أن يكون لديهم إلاّت همهمد غير مفهومة ؛ على العكس من المومنين الذين عاشوا بانقيادهم و طاعتهم و تبعيّتهم للقرآن فى حرم و حريم القران، يستمعون نداءه من مكان قريب ، فيفهمون ألفاظه و كلماته و جملاته، فيأخذون جميع القرآن بحسّهم و عقلهم و وجدانهم و يدركونه و يفهمونه جيّداً .

يروى **الكلينىّ** بسنده عن **سفيان بن عُيَينة**، عن **الزُّهرى**ّ، قال : **قَالَ عَلِىٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: لَوْ مَاتَ مَن بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَمَا اسْتَوْحَشْتُ بَعْدَ أَن يَكُونَ الْقُرْآنُ مَعِى .**

وَ كَانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِذَا قَرَأَ « مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ » يُكَرِّرُهَا حَتَّى كَادَ أَن

يَمُوتَ.[١]

فالإنسان غنىّ بمعيّة القرآن لانّه حقّ، و متحقّق بالحقّ، و معلّم العلوم الحقيقيّة الحقّة ؛ و هو بدونه فقير و يبقى فقيراً و إن طالع جميع كتب مكتبات الدنيا، لانّه قد حاد عنا لعلوم الحقيقيّة و الوجدانيّة، و ارتمى بين العلوم التخيّليّة.

و يروى الكلينىّ بسنده عن معاوية بن عمّار، قال: قال لى الإمام الصادق عليه السلام: **مَن قَرَأَ القُرْآنَ فَهُوَ غَنِىٌّ وَ لاَ فَقْرَ بَعْدَهُ، وَ إلاَّ مَا بِهِ غِنَىً**.[٢]

القرآن كتاب عميق له درجات و مراتب، يتزوّد منه الجميع كلٌّ بقدر فهمه، و يمتلك فى الوقت نفسه ظاهراً واضحاً قابلاً لدرك عامّة الناس ، و باطناً ذا منازل و درجات، فكلٌّ يمضى فيه إلى درجة و منزلة ما لا يعدوها إلى غيرها من منازل القرآن، و لا يفهم معانيه العميقة و بواطنه، مضافاً على ما يتطلّبه فهم باطن القرآن و حقيقته من التزكية و الطهارة؛ فحيقة القرآن و عمقه و باطنه ليست ممّا ينال بالمطالعة و القراءة فقط :

فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعُ النُّجُومِ * وَ إِنَّهُ و لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ * لاَ يَمَسَّهُ و إِلاَّ الْمُطَّهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَـٰلَمِينَ.[٣]

لذا، فعلى من ينشد الوصول إلى حقيقة القرآن و معانيه العميقة و أسراره الباطنيّة أن يصل أوّلاً إلى حقيقة الطهارة المطلقة ، و ذلك بمتعابعة

١ـ «أُصولُ الكافى» ج ٢، ص ٦٠٢.
٢ـ «أُصول الكافى» ج ٢، ص ٦٠٥.
٣ـ الآيات ٧٥ إلى ٨٠، من السورة ٥٦: الواقعة.

و السیر علی نهجه و خطّه، و یعبور عالم النفس الامّارة لیقع ناظره علی جمال الحضرة الاحدیّة و یصل إلی مقام التوحید المطلق .

أیّ لَنّ نفس القرآن و العمل به سیأخذان بیده شیئاً فشیئاً و درجة درجة إلی الاعلی لیفوز بالدرجة العلیا و یحظی بالسهم الاوفی .

فالعلم بالقرآن یستوجب العمل به، و ذلك العمل یستلزم و یستتبع علماً أعلی، ثمّ لِنّ ذلك العلم سیورث عملاً أعلی ، و ذاك العمل الاعلی سیورث علماً أعلی، و هلمّ جرّا .

فکلّ مرتبة من مراتب العلم و العمل فی المرتبة الادنی تورث العلم و العمل فی المرتبة الاعلی حتّی یصلان به إلی العلم المطلق و العمل المطلق ، أی العلم اللامتناهی و العمل الطاهر الخالص المحض الذی لا تشوبه شائبة من أنانیّة أو هوی أو نزوع إلی غیر الله سبحانه .

و هذا هو **مقام الفناء فی الله تعالی** الذی یحصل للعامل بالقرآن ، و هنا تصبح حقیقة کتاب الله مشهودة و محسوسة و ملموسة، فینظر بالعین الإلهیّة إلی کتابه، و یسمع بالأُذن الإلهیّة کلامه، و یقرأ باللسان الإلهیّ قرآنه،فهنا عبدٌ و لا ربّ، و هو لا یدّعی الربوبیّة و مقامها، بل هنا عبدٌ، هنا محوٌ و إطلاق ، و لا شیء هنا غیر الذات القدسیّة للحضرة الاحدیّة .

قطره دریاست اگر با دریاست

ورنه قطره قطره و دریا دریاست[1]

و هذا المقام مختصّ بالمقرّبین إلی مقام الحقّ تعالی، و السالکین الواصلین ، و المحترقین الواهین الحیاری ؛ أمّا سائر الناس فکلٌّ سیستفید من علوم القرآن بحسب فهمه و قدرته العقلیّة ، و کذلك بقدر تقواه و طهارته

١-یقول: «القطرةُ بحرٌ قد ذابت فی البحر، أمّا خارجه فالبحرُ بحر و القطرة قطرة».

المكتسبة؛ فمن حاز التقوى و الطهارة قوى عقله، و قاده القرآن و أرشده إلى درجة أفضل.

إنّ درجات و مراتب فهما لقرآن أشبه بدرجات سلّم البناء، فللوصول إلى الدرجة الاعلى لابدّ من عبور الدرجة التى تسبقها، و الدرجة الادنى هى ممهّد و معدٌّ للصعود و الرقىّ إلى الدرجة الاعلى، وَ **هَكَذَا إلَى أنْ يَصِلَ السَّطْحَ فَهُوَ نُورٌ عَلَى نُور.**

يروى الكلينىّ بإسناده عن جابر، عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه قال:

يَجىءُ القُرْآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِى أَحْسَنِ مَنْظُورٍ إلَيْهِ صُورَةً، فَيَمُرُّ بالمُسْلِمِينَ فَيَقُولُونَ: هَذَا الرَّجُلُ مِنَّا.

فَيُجَاوِزُهُمْ إلَى النَّبِيِّنَ: فَيَقُولُونَ: هُوَ مِنَّا.

فَيُجَاوِزُهُمْ إلَى المَلاَئِكَةِ المُقَرَّبِينَ؛ فَيَقُولُونَ: هُوَ مِنَّا.

حَتَّى يَنتَهى إلَى رَبِّ العِزَّةِ عَزَّ وَجَلَّ: فَيَقُولُ:

يَا رَبِّ! فُلاَنُ بْنُ فُلاَن، أَظْمَأْتُ هَوَاجِرَهُ، وَ أَسْهَرْتُ لَيْلَهُ فِى دَارِ الدُّنْيَا! وَ فُلاَنُ بْنُ فُلان، لَمْ أُظْلِمِىء هَوَاجِرَهُ؛ وَ لَمْ أُسْهِرْ لَيْلَهُ!

فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى: أَدْخِلْهُمُ الجَنَّةَ عَلَى مَنَازِلِهِمْ!

فَيَقُومُ؛ فَيَتْبَعُونَهُ؛ فَيَقُولُ لِلْمُؤمِن: اقْرَأْ، وَ ارْقَه!

قَالَ: فَيَقْرَأُ وَ يَرْقَى حَتَّى يَبْلُغَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَنْزِلَتَهُ الَّتِى هِىَ لَهُ فَيَنْزِلُهَا . [1]

و يستفاد من هذه الرواية، أوّلاً: أنّ منازل الجنّة تقع فى درجات و مراتب متباينة ، و أنّ عددها كثير ، بعدد آيات القرآن التى ذكروا أنّها

١ـ «أُصول الكافى» ج ٢، ص ٦٠١.

ـ بأعلى التقديرات ـ ستّة آلاف و مائتان و ستّ و ثلاثون آية .[1]

و ثانياً: أنّ هذه المنازل ليست فى عرض بعضها، بل هى فى طول بعضها البعض، فالوصول إلى الدرجة الاعلى يستلزم العبور من الدرجة الادنى منها.

و ثالثاً ، أنّ هذه المنازل مرتّبة طبقاً لآيات القرآن ، فمن حاز حظاً

١ـ قال العلاّمة الطباطبائى قدّس الله نفسه فى كتاب «قرآن در اسلام» (= القرآن فى الإسلام) ص ١٢٨، طبعة دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٩١ هجرىّ: واختلفوا فى عدد مجموع الآيات على ستّة أقوال ذكرها أبو عمر الدانىّ («الاءتقان» للسيوطىّ ج ١، ص ٦٩)، فقيل ستّة آلاف آية، و قيل ستّة آلاف و مائتان و أربع آيات، و قيل ستّة آلاف و مائتان و أربع عشرة آية، و قيل ستّة آلاف و مائتان و تسع عشرة اية، و قيل ستّة آلاف و مائتان وخمس و عشرون آية، و قيل ستّة آلاف و مائتان و ستّ و ثلاثون آية. قولان من هذه الاقوال الستّة لقرّاء أهل المدينة، و أربعة أقوال لاربعة قرّاء بقيّة المدن التى كانت لديهم مصحف عثمان، و هى مكّة و الكوفة و البصيرة و الشام، و كلّ صاحب قول من هذه الاقوال يسند رأيه إلى عصر الصحابة، ثمّ يعتبرونها روايات موقوفة فينسبونها إلى النبىّ صلّى الله عليه وآله و سلّم ، و من هنا اعتبر الجمهور عدد الآيات و التمييز بينها توقيفيّاً. لاهل المدينة عددان كما ذكرنا أحدهما لابى جعفر يزيد بن القعقاع و شيبة بن نصّاح، و الثانى عدد إسماعيل بن جعفر بن أبى كُثَير الانصارىّ؛ و عدد أهل مكّة هو عدد ابن كثير عن مجاهد عن ابن عبّاس بن كعب ؛ و عدد أهل الكوفة عدد حمزة و الكسائىّ و خلف، و يرويه حمزة عن ابن أبى ليلى عن أبى عبدالرحمن السلمىّ عن علىّ عليه السلام؛ و عدد أهل البصرة عدد عاصم بن العجّاج الجحدرىّ ؛ و عدد أهل الشام عدد ابن ذكوان و هشام بن عمّار و ينسب إلى أبى الدرداء . و يجب أن يُعلم أنّ الاختلاف فى عدد مجموع الآيات لا فى زيادتها و نقصانها، لانّ من المسلّم أنّ آية واحدة لم تنقص أو تزيد فى القرآن الكريم، و لا شبهة فى هذا الامر، و هو من المُجمع عليه بين العامّة و الخاصّة؛ بل إنّ ذلك لدخول بعض الآيات فى البعض الآخر بالشكل الذى يعدّون فيه آيتين على أنّهما آية واحدة؛ أو يعدّون الآيات المقطّعة فى أوائل السور آيةً منفصلة، و البعض يعدّها مع الآية التى تليها آية واحدة فهذه الاختلافات سبّبت اختلافهم فى عدد آيات القرآن.

أو فر من الفهم و العلم و الدراية و التلاوة عن تدبّر لآيات القرآن، كان نصيبه منزلاً أعلى و أرفع.

فقد وضع الله سبحانه رتب و درجات فى الجنّة للعاملين بالقرآن و العالمين العاملين به.

لذا، فقد توجّب على المؤمن ـ مادام لم يصل إلى حقية القرآن و لم يدرك معانيه الباطنيّة ـ أن لا يهمل شأن قراءته و التدبّر و التفكّر فى آياته، و أن لا يترك التزكية و تطهير النفس و العبادة الهادفة الموصلة، و العمل المنتج المثمر، لينال مراده و يدرك غايته .

يروى الكلينىّ بسنده عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، قال: **يَنْبَغِى لِلْمُؤْمِنِ أَنْ لاَ يَمُوتَ حَتَّى يَتَعَلَّمَ القُرْآنَ أَوْ يَكذونَ فِى تَعْلِيمِهِ .** [1]

نعم، يكفى فى عظمة القرآن و كلّيّته أن يستدلّ به المستدلّون فى كلّ عصر و زمان لإثبات ادّعاءاتهم و يوردونه شاهداً على صدق أقوالهم، مع تباين و اختلاف كلّ تلك الادّعاءات و المواضيع و المقاصد .

و قد أوصى مولى الموالى أميرالمؤمنين عليه السلام عبدالله بن عبّاس حين بعثه للاحتجاج على الخوارج و إلزامهم أن :

لاَ تُخَاصِمْهُمْ بِالقُرآنِ! فَإنَّ القُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوه. تَقُولُ وَ يَقُولُونَ ! وَ لَكِن حَاجِجْهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً . [2]

لقد استدلّ المحقّقون من علماء الرياضيّات و أهل الهيئة القائلون

١ـ «أُصُول الكافى»، ج ٢، ص ٦٠٧؛ و قد وردت الرواية فى نسخة «الكافى» بهذا اللفظ، أمّا فى «المحجّة البيضاء» نقلاً عن «الكافى» فأوردها بلفظ «فى تعلّمه».

٢ـ «نهج البلاغة» ج ٢، باب الرسائل، الرسالة رقم ٧٧، و فى طبعة مصر مع تعليقة محمّد عبده: ص ١٣٦.

بثبات الارض و سکونها و دوران الشمس حولها، و المعتقدون بأنّ للسیّارات أفلاکاً و تداویر و ممثّلات، استدلّوا بالقرآن أنّ: وَ کُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ .[1]

والیوم حیث تُعدّ حرکة الأرض و سکون الشمس من البدیهیّات فقد استدلوا بنفس الآیة أیضاً : وَ کُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ .

قال القدماء : إنّ المراد بالفلك کرة مجوّفة ، سطحها الخارجیّ یقابل السطح الداخلیّ لکرة أُخری فوقها، و سطحها الداخلیّ یواجه السطح الخارجیّ لکرة أُخری تحتها، و کلّ من السیّارات و القمر مُحکم ثابت فی هذا الفلك، أی فی سمکه، لا حرکة له أبداً، بل إنّ جرم الفلك هو المتحرّك، و فی النتیجة، فإنّ السیّارات التی هی ثابتة علیه تتحرّك بحرکته و تدور.

و یقول المتأخّرون : إنّ المراد بالفلك هو نفس المدار الدائریّ الشکل ، و لکنّ السیّارات و القمر هی نفسها فی حرکة ، و لیس هناك أفلاك لها جرم غیر نفس أجرام الکواکب ؛ و إنّ القمر و الشمس و المرّیخ و زحل و المشتری و عطارد و الزهرة و یورانیوس و نبتون و بلوتون ـ حیث اکتشف هذین الاخیرین مؤخّراً ـ هی کواکب و کلٌّ منها یشبه کرة سباحة فی الفضاء فی مدار خاصّ بها ، لیس لها وقوف و سکون و لو للحظة .

لکنّ ما یراه هذا الحقیر أنّ القرآن الکریم لم یأت فی الاساس لحلّ مثل هذه الاُمور و المسائل ، فهو کتاب تعلیم و تربیة و بناء الإنسان ،

١ـ الآیات ٣٨ إلی ٤٠، من السورة ٣٦ : یس. وَ الشَّمْسُ تَجْری لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ * وَ الْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّی عَادَ کَالْعُرْجُونِ الْقَدِیمِ * لاَ الشَّمْسُ یَنْبَغِی لَهَا أَن تُدْرِکَ الْقَمَرَ وَ لاَ الَّیْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ کُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ .

و ليس كتاب طبّ و تشريح و هيئة و نجوم، و لا كتاب طبيعيّات و رياضيّات و كيمياء و فيزياء .

و إذا ما أشار فى مورد لإرائة الطريق و هداية البشر للصراط المستقيم فى مثل هذه الامور، فمع أنّ قوله و بيانه عين الواقع و الصدق المطلق، فإنّه لايشير للامر بشكل يثير الاضطراب بين الناس و يسبّب الصخب و الغوغاء بين علماء العصر؛ و لم يبيّن ما يريد بيانه الاّ بالاعتماد على القواعد العلميّة التى تؤيّدها التجارب الطويلة الموزونة، لاحتمال عدم قبول الناس لما لا تؤيّده التجربة فى عصر ما بعد أن يحتاجوا لقبولها إلى البحث الطويل و التديقيق و التحقيق المتمادى؛ و قد يفتح القرآن الطريقَ فى مثل هذه المواضيع، أو يشير إليها دون ذكر الاسباب و الدواعى بشكل صريح .

و قد كانت مسألة حركة الارض من المسائل التى لا تزال مستعصية بالنسبة للكثيرين على الرغم من جميع الادلّة و البراهين التى أُقيمت عليها ؛ إذ لم يتمكّنوا من الوصول بها إلى أبعد من مرحلة الفرضيّات، مضافاً على ذلك فإنّ سكون الارض أمر وجدانىّ، وا لكلّ يرى بالوجدان سكون الارض و ثباتها .

فعلى افتراض أنّ عصر نزول القرآن كان بعد مرور ما يقرب من خمسمائة عام [1] على هيئة بطليموس ، و كانت دنيا العلم آنذاك قد أقرّت بسكون الارض و كونها مركز العالم، و أنّ الشمس و القمر و السيّارات تدور

١ـ لعلمنا أنّ بطليموس قد عاش سنة ١٣٩ ميلاديّة، و كانت ولادة رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم سنة ٥٧١ ميلاديّة، لذا فقد كانت ولادة النبيّ سنة ٤٣٢ ميلاديّة بعد حياة بطليموس، و لانّه بُعث فى الاربعين من عمره الشريف و استغرق نزول القرآن ٢٣ سنة فسيكون آخر زمن نزوله ٤٩٥ سنة بعد بطليموس.

حـول الارض؛ فلـو قـال القـرآن صراحـة؛ إنّ الارض تـدور حـول الشـمس ، و إنّها متحرّكة، و إنّ السكون الذى ترونه ليس إلاّ خيـال و وهـم، فمـن الواضـح أنّـه لم يكـن ليمكنـه أن يُقيـم دليـلاً لهـذا المـدّعـى مـن بنـدول فـوكو [1] و من

١ـ ثبـت فى الميكـانيك أنّ مسـتوى اهـتزاز البنـدول ثـابت غـير متغـيّر و لـو دارت نقطـة تعليقـه. و علـى هـذا القـانون عمـد فوكـو العـالم الفيزيـائىّ الفرنسـىّ سـنة ١٨٥١ م فى بـاريس إلى عمل بندول عظيـم فى أحـد الابنيّـة العليـا المسمّاة «بنتيـون» مـن كـرة ضخمـة منـا لنحـاس وزنهـا ٢٨ كيلـو غرامـاً، و ربطـها بطـرف سـلك طولـه ٦٤ مـتراً و علّقـه تحـت قبّـة تلـك البنايـة، ثمّ أبعـد الكـرة قـدراً مـن محـلّ التعـادل و ربطـها بحبـل قـام بإشـعاله ليتحـرّك البنـدول لوحـده بـدون أىّ عـامل خارجىّ يزيغه عن الجهة الاصليّة، أى عن المستوى الرأسىّ الذى كان فيه التذبذب .

و لانّ فوكـو كـان قـد فـرش الارضيّـة بـالرمل، و وضـع علـى سـطح الكـرة إبـرة، فقـد شـاهد و مـن كـان معـه أنّ سـطح ذبذبـة البنـدول كـان يـزوغ بشـكل منتظـم عـن المسـتوى الرأسـىّ الاصلـىّ من الشرق إلى الغرب حول محور يمرّ بنقطة تعليق البندول .

و قـد اسـتنتج فوكـو أنّ سـبب انحـراف سـطح البنـدول هـو دوران الارض علـى محورهـا مـن الغـرب إلى الشـرق . فلـو كـان البنـدول معلّقـاً فى القطـب ، فـإنّ مسـتوى ذبذبتـه خـلال يـوم نجومـىّ كـان سـيدور دورانـاً كـاملاً بالجهـة المعاكسـة للـدوران الظـاهرىّ للكـرة السـماويّة ؛ و لـو نُصـب البنـدول عنـد خـطّ الاسـتواء لكـان دورانـه صفـراً، أى أنّ البنـدول سـيبقى عنـد خـطّ الاسـتواء فى مستوى واحد؛ و كانت درجة انحراف سطح ذبذبة البندول فى باريس ١١ درجة فى ساعة.

و لانّـه ثبـت فى الميكـانيك أنّ مقـدار الانحـراف أو الزوغـان فى مـدّة معيّنّـة يتناسـب مـع جيـب عـرض المكـان أو النقطـة الـتى أُجريـت فيـها التجربـة؛ فلـو مثّلنـا عـدد السـاعات النجوميّـة بحـرف (أ)، و إلى عـرض مكـان التجربـة بحـرف (ب)، فـإنّ مقـدار زاويـة الانحـراف (ج) فى الزمان المفترض تصبح:

ج = أ × جيب زاوية ب × ١٥ درجة.

و على هذا فإنّ مدّة الزمن النجوميّة (د) التى ينطبق فيها سطح البندول على وضعه السابق ستكون: د = ٢٤ ساعة نجوميّة / جيب زاوية ب

و لانّنـا نعلـم أنّ جيـب زاويـة ٩٠ درجـة يسـاوى واحـداً، و أنّ جيـب زاويـة صفـر يسـاوى صـفراً ، فـإنّ مـقـدار الـزمـن الـلازم لـدورة كـامـلـة للبنـدول المـتحـرّك فى القـطب ٢٤ ساعة

الشواهد الأُخرى، إذ إنّ ذلك ليس من صلب رسالته و مهمّته، فتكون النتيجة أن يثار الصخب و الضوضاء حول الرسالة من جرّاء هذه المسألة الصغيرة، فيؤدّى ذلك إلى عرقلة تطبيق النبيّ للاحكام الإنسانيّة لمئات السنين.

و على اساس هذا الامر المهمّ و السرّ العظيم نرى فى الاخبار و الادعية و الروايات تذكيراً بحركة الشمس و سيرها؛ لانّ من يفتح عينيه صباحاً سيرى بالبداهة طلوع الشمس من الشرق؛ ثمّ حركتها شيئاً فشيئاً حتّى تصل إلى منتصف النهار، ثمّ حركتها تدريجيّاً نحو المغرب حتّى تختفى أخيراً وراء أُفق الغرب.

و إنّما تستند هذا الروايات و الادعية على المشاهدة الوجدانيّة و الإحساس الفعلىّ، و إلاّ فقد كان ينبغى أن يُعرض كلّيّاً عن باب الادعية و بيان عجائب الشمس و حركتها فى مدارها فلا يتفوّه بشأنها شيئاً، و هذا الامر واضح و بيّن و معهود للدرجة التى نلاحظ معها أنّ علماء الرياضيّات الكبار و المنجّمين العظام الحاليتين الين أثبتوا حركة الارض قد اعتقدوا بذلك ، و تراهم يتحدّثون عن حركة الارض فى الكتب و المجلاّت، لكنّهم حين يريدون إلقاء كلمد أو التحدّث فى محيط المنزل يقولون: جاءت الشمس، ذهبت الشمس؛ يقول أحدهم: اذهب إلى المدرسة يا بنى حين ترتفع الشمس عن الأُفق مقدار قامة، و لا يقول: اذهب إلى المدرسة حين تدور الارض من جهة الغرب إلى الشرق بمقدار قامة ! لانّه لو تفوّه بشىء

نجوميّة، و فى خطّ الاستواء صفراً. («تاريخ نجوم اسلامى» لنلّينو الايطالى، ترجمة أحمد آرام بالفارسيّة، ص ٣١٤ و ٣١٥). و قد أجرى الميرزا غلام حسين خان رهنما سنة ١٣١٤ هجريّة شمسيّة تجربة فوكو فى مسجد سبهسالار فى طهران .

من ذاك لضحكوا منه.

فبيان الصيغ و المعادلات و الأُسلوب العلميّ شيء، و الكلام مع الناس، مع الاب و الأُمّ و الابن شيء آخر. لذا تدعى حركة السماء بهذه الكيفيّة بالحركة الظاهريّة .

و على هذا فقد جاء فى دعاء الصباح مثلاً : [1] **وَ أَتْقَنَ صُنْعَ الفَلَكِ الدَّوَّارِ فِى مَقَادِيرِ تَبَرُّجِهِ .** [2]

و نستنتج من هذا : أولاً: أن لا نتساءل : لماذا لم يرد ذكر الامر

١ـ روى المجلسيّ دعاء الصباح فى «بحار الانوار» ج ١٨، ص ٦٠٦، كتاب الصلاة، فى باب نافلة الفجر و كيفيّتها و تعقيبها، طبعة الكمبانيّ، عن أميرالمؤمنين عليه السّلام ، و قال: و كان عليه السلام يدعو به بعد نافلة الصبح، ثمّ يقول فى بيانه فى خاتمة الدعاء : و هذا الدعاء من الادعية المشهورة، و لم أعثر عليه فى الكتب المعتبرة إلاّ فى «مصباح السيّد ابن باقى» و كذلك عثرت على نسخة منه قرأها مولانا الدرويش محمّد الاصفهانيّ، و هو جدّ أبى لأُمّى ، على العلاّمة نور الدين عليّ بن عبدالعالى الكركىّ، و أجاز لجدىّ قراءتها .

و أورد المرحوم المجلسيّ هذا الدعاء أيضاً فى كتاب دعاء «البحار».

٢ـ يجب العلم أنّ الفلك بمعنى المدار، كما جاء فى القرآن الكريم أنّ الشمس و القمر و الليل وا لنهار يسبح كلٌّ منها فى فلك، أى فى مدار خاصّ (الآيات ٣٨ إلى ٤٠، من السورة ٣٦: يس) : **وَ الشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَ الْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .**

أمّا فى هيئة بطليموس فالفلك هو جسم صلد كروىّ! الشكل سُمّرت فيه الكواكب و النجوم، و هذا الجسم الكروىّ يتحرّك مع مجموعة النجوم التى فى داخله؛ و لم تكن لفظة «فَلَك» الواردة فى الدعاء بمعنى الجسم الكروىّ، و لم ترد كلمة التبرّج فى اللغة بمعنى كونه أبراجاً، بل هو من إظهار الزينة و المحاسن. و على هذا فإنّ معنى هذه الفقرة من الدعاء المبارك هو: أنّ الله قد أتقن و أحكم هذه المدارات العجيبة فى السماء التى يدور فيها عدد معيّن من النجوم.

الفلانىّ فى القرآن؟ و لِمَ لَم يُبحث فى القرآن عن حركة السفينة الفضائيّة؟ و عن فلق الذرّة؟ أو عن المثلّثات الكرويّة ؟

و ثانياً: أنّ الذين بذلوا الجهود المضنية فى هذا المجال محاولين تطبيق آيات القرآن على العلوم العصريّة ، كالمرحوم آية الله السيّد هبة الدين الشهرستانىّ فى كتاب «الهئية و الآسلام» و الشيخ طنطاوى الجوهرىّ فى تفسير «الجواهر» لم يسلكوا سبيلاً صحيحاً و صائباً . [١]

١ـ القرآن هو عين العلم والحقيقة، و ليس فى إمكان العلم و قدرته أن يشتبك معه مُخاصماً ، بل هو معه دوماً رفيقاً يبيّن معضلاته و يشرح كلّيّاته،؛ بخلاف الحديث، فكلّ رواية و حديث يخالف العلم أو يخالف القرآن فهو مردود قبل الرجوع إلى سنده، و كلّما ازاداد له مخالفة ازداد ضعفاً. و للشيخ محمود أبو ريّة فى كتاب «أضواء على السنّة المحمّديّة» ص ٣٩٣ و ٣٩٤، الطبعة الثانية، كلام يستلفت النظر فى هذا الشأن، نورده هنا عنه؛ يقول:

كان أحد الشيوخ الازهريّين قد أخذ على العلاّمة السيّد رشيد رضا أنّه انتقد كعب الاحبار و وهب بن منبّه و أظهر عدما لثقة بروايتهما. فأجاب رحمه الله يردّ طويل ممتع مفحم ننقل منه ما يلى: إذا سلّمنا أنّ كلّ من وثّقه جمهور المتقدّمين فهو ثقة ـ و إن ظهر خلاف ذلك بالدليل ـ نفتح باباً للطعن فى أنفسنا بنبذ الدليل و الاخذ فى مقدّماته بالتقليد ، و مخالفة هداية القرآنا لمجيد. و بعد أن بيّن أنّ نقد رواة الحديث قد بحث فيه رجال الجرح و التعديل، قال: أمّا تمحيص متون الروايات و موافقتها أو مخالفتها للحقّ و الواقع و للأُصول أو الفروع الدينيّة القطعيّة أو الراجحة و غيرها، فليس من صناعتهم، (أى رجال الحديث)، و يقلّ الباحثون فيه منهم؛ و من تعرّض له منهم ـ كالاءمام أحمد و البخارىّ ـ لم يوفه حقّه، كما تراه فيما يورده الحافظ ابن حجر فى التعارض بين الروايات الصحيحة له و لغيره، و منه ما كان يتعذّر عليهم العلم بموافقته أو مخالفته للواقع كظاهر حديث أبى نزّ عند الشيخين و غيرهما : أين تكون الشمس بعد غروبها ؟ فقد كان المتبادر منه للمتقدّمين أن الشمس تغيب عن الارض كلّها و ينقطع نورها عنها مدّة الليل ! إذ تكون تحت العرش تنتظر الاءذن لها بالطلوع ثانية !! و قد صار من المعلوم القطعىّ لمئات الملايين من البشر أنّ الشمس لا تغيب عن الارض فى أثناء الليل، و إنّما تغيب عن بعض الاقطار و تطلع على غيرها، فنهارنا ليل عند غيرنا، و ليلنا نهار عندهم ، كما هو المتبادر من قوله تعالى : **يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ**

بما أنّ علوم العصر ليست علماً قائماً على برهان قويم، فلا يمكن أن تكون مبيّنة لحقائق الدين و معارفه، و لا تستطيع أن تكون سدّاً فى طريق الدين و حائلاً دون مسيرته، لذا فإنّ من مصلحة هذه العلوم وحامليها أن توظّف فى طريق الدين و خدمته .

و ما هذه العلوم إلاّ نظريّات و فرضيّات و آراء قد أُخذت من تجارب ناقصة و استقراء ناقص غير كامل، و هى تعليلات تختلف باختلاف الآراء و وجهات النظر، ينشئونها أحياناً و يرفعونها كما يفعل البنّاء ثمّ يضيفون عليها، و أحياناً أُخرى ينقضونها فيهدمونها؛ يثبّتونها و يحكمونها ثمّ يعودون فينقضونها من أساسها. فهى تمثّل فى زمن عنوفانها و قبولها أفضل المطالب التى يستشهد بها الناس، ثمّ يُعدل عنها و ينكص عن الإيمان بها فى الازمان التالية، مثلها فى ذلك مثل الحرب و الصلح بين طائفتين، تغلب اليوم هذه فيُدقّ طبل أمجادها و علوّها إلى عنان السماء، و تعلب فى غد تلك فتمرّغ أُنوف دولة خصومها و منافسيها القدماء فى تراب الذلّ و الهوان .

نعم، فلقد كان لكلٍّ من العليلات و الاسباب الكامنة لنظام الكون و عالم الوجود عصر تتسلّط فيه و تحكم على الافكار السائدة فيه، فتغلب غيرها من الفرضيّات والنظريّات، و يتّفق أصحاب النظر و المتخصّصون فى ذلك الفنّ أن لا بديل لهذه النظريّة و لا منازع؛ و لانّ الناس تابعون للعلماء فى كلّ زمان فإنّهم يعتقدون أنّ هذا الاكتشاف و الرأى الجديد من الحقائق الثابتة التى لا تزول أبداً، و أنّ العقول لن تتمخّض عن أفضل منها و أحسن ، فهى أمر ثابت و خالد أبد الدهر .

و لكن بمرور زمن غير طويل ترى كوكب ذلك الاكتشاف و الرأى

النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ، و فى قوله: يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ و حَثِيثًا.

يأفل، و تألّقهما يخبو وراء الأُفق. و حكومتهما و سطوتهما تنهار، وع ند ذلك تحلّ محلّها فرضيّة و نظريّة جديدة. و هذه الأُخرى لها كسابقتها كرّ و فرّ إلى حين، و صولة فى الميدان، تصول وحيدة فريدد حتّى تخرّ فجأة إلى الارض بالسيف القاطع لنظريّة و فرضيّة ثالثة.

لقد كان نظام سكون الارض حركة الافلاك مورد قبول و إجماع العلماء ما يقرب من ألفَى سنة، و كان معدوداً من العلوم الواضحة و من الاوّليّات و يعتبرون منكره كمنكر و جاحد البديهيّات .

و لقد كُتِبَ فى هذه المدّة المديدة عدد لا يُحصى من الكتب بهذا الشأن، فى أوضاع الفلك و كيفيّتها و عدد المدوّرات و ممثّلاتها ، ودُرِّسَ و بُحث فى المدارس العلميّة، لكنّ عصره انقضى و انهار و جاء بعده نظام حركة الشمس حول الارض و حركة السيّارات حول الشمس، و لم تمضِ مدّة طويلة حتّى انهار هو الآخر و جاء نظام حركة الارض و جميع السيّاراتَ حول الشمس، والله هو العالم ما هى الفرضيّة التى ستحلّ فيما بعد محلّ هذه الفرضيّة السائدة اليوم ؟ [1]

لقد كان **بطليموس** [2] أو **بطليموس** Petolemee عالماً رياضيّاً كبيراً

١ـ لقد عمد بطليموس بطل فرضيّة حركلة الافلاك و المدوّرات، كما ذكر نفسه فى «التحرير المجسطىّ» فى سنة ٨٨٥ بعد بخت نصر، و سنة ٤٥١ بعد موت الاءسكندر إلى جمع مجسطىّ، و باعتبار أنّ تحديد زمن ذلك هو ١٣٩ ميلاديّة، و أنّنا الآن فى سنة ١٤٠٩ ه ق و ١٣٦٧ ه ش و ١٩٨٨ م ، فقد مرّ على ذلك ١٨٤٩ سنة

٢ـ كان بطليموس بطل من تلامذة مدرسة الاءسكندريّة، و قد أسّس إدارة خاصّة لتعيين طول البلاد و عرضها، و قد جمع عصارة أتعاب أبرخس (هيبارك) و أثبتها فى كتابه «المجسطىّ». و قد ترك مضافاً على كتاب «المجسطىّ» الذى كان فى علم النجوم كتاباً فى ا لهندسة و آخر فى الجغرافيّة ، حيث استندت تحقيقات و أبحاث علماء النجوم فى

و منجّماً يونانيّاً مشهوراً عُـرف بـالمصرىّ لتوقّـف والـده فى مصـر، و قـد عـاش حتّى سنة ١٣٩ ميلاديّة، و كانَ يعتقـد بسـكون الارض و ثباتهـا و كونهـا مركـزاً لجميع العالم من شمس و ثوابت و سيّارات و أفلاك .

و كـان يقـول: إنّ الشـمس و السـيّارات فى حالـة دوران حـول الارض بشـكل دائـرة؛ و لانّـه قـد لاحـظ بمرصـده اختلافـات فى حركـة الكواكـب السيّارة ـ من ثبـات و إقامـة و رجعـة ـ لا تنسـجم مـع فرضيّـة كـون الافـلاك دائـرة ، فقـد كـان مجـبراً علـى افـتراض أفـلاك مختلفـة أُخـرى داخلـها باسـم تدوير، ثمّ بافتراض أفـلاك داخـل التداويـر باسـم ممثّـل، و بهـذه الفرضيّـة فقـد استطاع بحساب دقيـق رصـد و تصحيـح الحركـة الدوريّـة للافـلاك و حركاتهـا غـير المنظّمـة و تباطؤهـا و رجوعـها، و دوّن ذلـك فى زيجـه المسـمّى بـ« المَجَسطىّ» .

لقـد قـام بطليمـوس برصـد ١٢٢٢ نجمـاً، و أثبـت الطـول و العـرض الفلكى ّلكلٍّ منها فى كتابـه «المجسـطىّ»، و كـانت هيئـة بطليمـوس مـورد قبـول علماء النجوم و الهيئة لغاية أربعمائة و خمسين سنة قبل الآن .

القرون الاخيرة علـى هـذا «المجسـطىّ». و قـد قـدّم بطليمـوس عـدّة أدّلـة علـى كرويّـة الارض ، منـها ختفـاء السـفن تدريجيّـاً عـن نظـر سـكنة السـواحل؛ فـإذا لم تكـن الارض كرويّـة لغـابت عـن أنظارهم دفعة واحدة .

و الثـانى: شـرح دليـل أرسـطو حـول السـفر نحـو الجنـوب و الشـمال، حيـث كلّمـا سـرنا نحـو الشـمال فـإنّ النجـوم الجنوبيّـة سـتختفى عنّـا، و كّمـا اقتربنـا مـن الجنـوب فـإنّ النجـوم الشـماليّة سـتختفى ، و هكـذا الامـر عنـد السـفر شـرقاً أو غربـاً حيـث تختفـى عنّـا النجـوم الغربيّـة و الشـرقيّة على الترتيب .

و الثـالث: اختـلاف طلـوع و غـروب الشـمس فى الامكنـة المختلفـة، فـإذا كـان سـطح الارض مسـتوياً لكـان طلـوع الشـمس و غروبهـا مـرّة واحـدة. و خلاصـة الامـر فقـد حـاز بطليمـوس مقامـاً مرفوعاً فى الرياضيّات و النجوم و الجغرافية لا يتّسع هذا المختصر لتفصيله و الاءسهاب فيه .

و قد استمرّ ذلك حتّى جاء **نيقولاً كوپرنيك** (Nicolas Copernic ، المولود سنة ١٤٧٣ و المتوفّى سنة ١٥٤٣ م، و هو من منجّمى بولونيا المهمّين و تابع نظريّة بطليموس و دقّته الكبيرة التى بذلها فى «المجسطىّ» فعجز أخيراً عن تصوّر أفلاك متعدّدة، و قال بحركة الارض حول الشمس و نقض أُصول هيئة بطليموس كليّاً ؛ لذا يعدّ واضع و مؤسس الهيئة الجديدة ، لأنّه أوّل القائلين بحركة الأرض فى القرون الأخيرة .

وكان سبب توجّه كوبرنيك لحركة الأرض هو رصده الحركات المتضادّة التى كان يلحظها فى السيّارات ، لأنّه طبقاً لأصول هيئة بطليموس فقد كان يفترض لكلّ حركة يراها فى السيّارات فلكاً خاصّاً معزولاً، حتّى صار إثبات و تسجيل حركة الافلاك بالنسبة له عملاً شاقّاً جدّاً ؛ و كان يرجع فى نفس الوقت إلى نظريّة **فيثاغورس** فى الحركة الوضعيّة للارض فتولّدت لديه شيئاً فشيئاً فكرة إمكان حركة الارض و السيّارات حول الشمس فى مدارات دائريّة.

لكنّه واجه صعوبة لانّ ما كان يستخرجه بالحساب لا ينسجم مع نتائج رصده، و كان هناك اختلاف بين ما هو محسوب و ما هو مرصود.

و عليه فقد بقيت مسائله حول السماء مسعصية عليه حتّى فارق الدنيا ، و ذلك بسبب تصوّره أنّ المدارات دائريّة ، كما كان يعتقده القدماء .

و قد استمرّ ذلك و دام حتّى جاء المنجّم الدنماركىّ **تيخو براهه** (Tycho - Brahe) ، المولود سنة ١٥٤٦ و المتوفّى سنة ١٦٠١ ميلاديّة، و شرع بعد كوبرنيك بالتحقيق فعرف خطأ سلفه، و اعتقد أنّ مدار السيّارات لم يكن فى الاصل دائريّاً، بل شبيهاً بالبيضوىّ، أى كدائرة مدّت فنجم لها مركزان . [١]

١ـ مأخوذ من «گاهنامه» (= التقويم) للسيّد جلال الدين الطهرانىّ! (سنة ١٣٠٧)،

و بهذا الامر فقد اقتربت حساباته مع نتائج الرصد و تقارب عنده المحسوب و المرصود ؛ لكنّ تيخو براهه ارتكب خطأً آخر فى اعتقاده كبطليموس بسكون الارض، و وضعه لذلك أُصولاً فى الهيئة ليست كأُصول بطليموس و لا كأُصول كوبرنيك .

تقول أُصول هيئة بطليموس إنّ الارض هى مركز العالم، و إنّ بقيّة السيّارات كالقمر و الزهرة و عطارد و الشمس و المريخ و المشترى و زحل هى بالترتيب أفلاك دائريّة الشكل تدور حول الارض. و تقول أُصول هيئة كوبرنيك إنّ الشمس هى مركز العالم، و الزهرة و عطارد و الارض و المريخ و المشترى و زحل هى بالترتيب مدارات دائريّة الشكل تدور حول الشمس .

لكنّ تيخو براهه كان يعتقد أنّ الارض هى مركز العالم، و أنّ القمر يدور حول الارض ، و عطارد و الزهرة تدور حول الشمس ، و الشمس تدور حول الارض، و المريخ و المشترى و زحل تدور حولها جميعاً .

و مع كلّ الجهود التى بذلها تيخو براهه فى الإرصاد لكنّ حساباته لم تكن لتطابق مشاهدات الارصاد السماويّة، و لم تكن المسائل السماويّة مكشوفة له بشكل تامّ حتّى فارق الدنيا .

و قد جاء بعد تيخو براهه تلميذه المنجّم الالمانىّ المعروف **جان كبلر** (Jean Kepler) ، المولود سنة ١٥٧١ و المتوفّى سنة ١٦٣٠ ميلاديّة، فتابع جهود أُستاذه تيخو براهه و أنجز الكثير من التحقيقات .

و لانّ كبلر قد لاحظ الفرق بين حساباته و بين مشاهداته الرصديّة فقد أوجد طريقاً ثالثاً بين نظريّة كوبرنيك و نظريّة تيخو براهه، فاعتقد أوّلاً بحركة الارض حول الشمس ، و بأنّ الشمس هى مركز المجموعة

ص ١٣٤ و ١٣٥.

الشمسيّة، و ثانياً أنّ مدار السيّارات حسب نظريّته كان بيضويّاً .[١]

١ـ يجب العلم أنّ بيضويّة مدار السيّارات حول الشمس ، و كذلك حركة الارض حول الشمس هى من المسائل التى الكتشفها المسلمون قبل تيخو براهه بستّة قرون من قبل علمائهم الكبار فى القرن الخامس الهجرىّ ، أى القرن العاشر الميلادىّ ، و من المعلوم أنّ كبلر و كوبرنيك لم يكن لهما أثر و وجود فى ذلك الوقت .

يقول غوستاف لوبون فى كتاب «حضارة الاءسلام و العرب» ص ۶۱۴، الباب الثالث ، الفصل الثانى ، فى علم الرياضيّات و الهيئة ، الطبعة الثانية :

و مع أنّنا قلنا سابقاً إنّ جميع كتب المسلمين فى الاندلس قد ضاعت و اندثرت، إلاّ أنّه يمكن الاستدلال بما احتوته كتب علماء النصارى فى ذلك الزمن على أساس التحقيقات العلميّة للعلماء المسلمين، و من ذلك ما توصّل إليه سيديّو من رسائل الملك كاستيل أذفونش العاشر، و كذلك من الاسناد والمصادر الاُخرى التى يمكن الاستنتاج منها أنّ علماء المسلمين سبقوا كوبرنيك و كبلر فى اكتشاف حركات الكواكب السيّارة على شكل بيضوىّ، و فى نظريّة دوران الارض حول الشمس، و أنّ أزياج الاذفونش العاشر المسمّاة ب «الازياج الاذفونشيّة» مأخوذة من المسلمين .

و يقول فى ص ٦٠٥ و ٦٠٦ بشأن كشف حركة القمر غير المتشابهة: لقد قام ابن ماجور وابنه بتحقيقات و اكتشافات علميّة من سنة ٨٨٣ إلى سنة ٩٣٣ ميلاديّة، و استخرجا و رتّبا تقاويم، و قد اكتشف الفاضل الاخير خلافاً لعقيدة العلماء و خصوصاً بطليموس أنّ فاصلة القمر عن الشمس فى تناقص، و نتيجة هذا الاكتشاف المذكور فقد اكتشف فى حركات القمر جزءاً ثالثاً غير مستقلّ (حركات غير متشابهة) .

و قد وجد المسيو سيديّو قبل عدّة سنوات نسخة خطّيّة يظهر منها أنّ أبا الوفاء قد كشف بشكل كامل عن التغييرات التى قلناها عن القمر؛ فقد اعتبر الحركة التى اكتشفها بطليموس فى القمر مسألة غير كاملة و مخالفة للواقع، كما أثبت بعد هذا الاكتشاف أنّه مضافاً إى الاختلافين فى حركة القمر بواسطة جاذبية الشمس و بيضويّة مداره، فهناك اختلاف حركة ثالثة أيضاً فى الخطّ الفاصل بينه و بين الشمس، و هو الذى يسمّى هذه الايّام حركة القمر غير المتشابهة .

لقد كان الاكتشاف المذكور من الاكتشافات المهمّة التى نُسبت إلى تيخو براهه الذى جاء بعد ذلك بستمائة سنة . و قد استنتج مسيو سيديّو من المقدّمات السابقة على

و قد وجد كبلر الذى كان يرصد كوكب المرّيخ أنّ له اختلافاً مع حساباته بمقدار ٨ دقائق؛ و لانّه كان يثق بحساباته و يعتبر رصده صحيحاً فقد تحرّى سبب ذلك و اعتقد أخيراً أنّ ذلك الاختلاف يرجع إلى ظنّه أنّ المدارات دائريّة، فلو حسبها بيضويّة لزال الاختلاف و الفارق .

و على هذا، فقد وضع ـ بعد أن قضى عمراً فى ذلك ـ ثلاثة قوانين مهمّة فى علم الهيئة أحدها أنّ مدار السيّارات حول الشمس بشكل بيضوىّ تقع الشمس فى إحدى بورتيه .[1]

و قد حاز كبلر على نجاحات فى حلّ المسائل السماويّة المستعصية و كانت أُصول هيئة هى نفسها أُصول هيئة كوبرنيك مع إضافة هذه القوانين الثلاثة لها.

و دام هذا حتّى مجىء **إسحاق نيوتن** (Isaac Newton) ، المولود سنة ١٦٤٢ و المتوفّى فى ١٧٢٧ ميلاديّة، المنجّم و العالم الفيزيائىّ الإنجليزىّ الذى أثبت عن طريق الجاذبيّة الحركة الوضعيّة و الانتقاليّة للارض .

و قد اكتشف بمعابعته قوانين كبلر القانون التالى: أنّ الاجسام تجذب بعضها البعض الآخر بقوّة تتناسب طرديّاً مع حاصل ضرب كتلتيهما (جرميهما) و عكسيّاً مع مربّع البعد بينهما. ($\frac{mm}{r^2}$) ؛ و كذلك فإنّ الكرتين متشابهتا الاجزاء تجذب بعضها البعض بنسبة البعد بين مركزيهما.

و قد كان لكوبرنيك حدس بقوّة الجاذبيّة؛ و أحسّ بها من المتقدّمين

وصول علماء الرياضيّات فى بغداد فى أواخر القرن العاشر إلى أقصى ما يمكن علم الفلك أن يصل إليه بغير نظّارة و مِرْقَب .

١ـ و قانونه الثانى : الخطّ المستقيم الذى يصل بين مركز الشمس و مركز أىّ كوكب سيّار يُمسح؛ و الكوكب يدور فى مداره؛ مساحة فى الفضاء واحدد فى الزمن الواحد .

و قانونه الثالث: مربّع زمن الدوران يتناسب مع مكعّب بُعدها المتوسّط عن الشمس.

آناكزاغور (Anaxagore) وإبيكور (Epicour)، الذى عاش بين سند ٣٤١ حتّى سند ٢٧٠ قبل ميلاد المسيح، و هو من فلاسفة اليونان المعروفين الذى كتب ما يزيد على ثلاثمائة كتاب، لكنّ اكتشاف الجاذبيّة كان من نصيب نيوتن .

و معروفة هى قصّة جلوس نيوتن فى حديقة مفكّراً فى سبب عدم ثبات النجوم السماويّة و علّة حركتها، ثمّ سقوط التفّاحة من إحدى الاشجار إلى الارض، فظلّ يفكّر: لماذا سقطت التفّاحة إلى الارض و لم تذهب إلى الجانب الآخر؟ أو أن تظلّ بعد انقطاعها من الشجرة ثابتة فى مكانها؛ ثمّ توصّل بعد مدّة إلى علّة سقوط الاجسام إلى الارض، أى اكتشاف الجاذبيّة الارضيّة، و طبّق ذلك على النجوم السماويّة، فعلم أنّ سبب حركتها هى قوى الجاذبيّة التى تجذبها .

نعم ، لا عجب أنّ الإفرنج يفتخرون بنيوتن، لانّه فكّر فى تجاذب أجزاء العالم فيما بينها، لكنّ العجب أنّ الشرقيّين يُباهون به و يعتبرونه قمّة الرقىّ مع أنّ قانون جاذبيّة الاجسام ليس من مكتشفاته ؛ فقد كان للطبيب الشهير و الفيلسوف عديم النظير: **ثابت بن قُرّة** نفس هذه العقيدة قبل ألف و مائة و خمسين سنة .[1] يقول **الحكيم المتألّه الصمدانىّ الحاجّ المولى**

١ـ أورد فى «روضات الجنّات» ص ١٤١ و ١٤٢، الطبعة الحجريّة، فى ترجمة أحوال ثابت بن قرّة، بحثاً مفصّلاً عنه نذكره باختصار: ثابت بن قرّة بن مروان بن ثابت الصابئ الحرّانىّ، و مذهبه من الصابئة، و كان ماهراً فى علم الطبّ و الفلسفة، و له تأليفات كثيرة فى فنون من العلم، و قد أخذ كتاب إقليدس الذى عرّبه حنين العبادىّ فهذّبه و أوضح منه غوامضه، و كان من أعيان عصره فى الفضائل. و قال فى «رياض العلماء» إنّه.وّل من حرّر كتاب إقليدس ؛ و أورد الخواجة نصيرالدين الطوسىّ اسمه فى كتابه المشهور بـ « التحرير» و قال إنّه حلّ الاءشكال فى نسخته.

. . . . . .

و قد عاصر الاءمام الرضا و الاءمام الجواد عليهما السلام ـ انتهى كلام صاحب «رياض العلماء».

و ذكر الشهرزوريّ فى «تاريخ الحكماء» أنّ المعتضد العبّاسيّ كان يقوم بإكرام الحرّانىّ المذكور كثيراً، و من إكرامه له أنّه كان يطوف فى بستان له و يده على يد ثابت فانتزعها من يده بغتة بحيث فزع منه ثابت و قال له: أخطأت حين وضعت يدى على يدك فإنّ العلم يعلو و لا يعلى عليه. و قد كتب كتاب «الذخيرة» فى الطبّ و كان متفرّداً لا نظير له فى جميع فنون الفلسفة فى عصره. و قال فى «وفيّات الاعيان» إنّ وفاته كانت سنة ٢٨٨ هجريّة. و لثابت بن قرّة ابن اسمع إبراهيم كان فى الفلسفة و الطبّ كأبيه، و توفّى سنة ٣٨٠ هجريّة، و قيل إنّ عمره كان ٩١ سنة و دفن فى منطقة شونيزى بضواحى بغداد يقال لها مقابر قريش و تدعى اليوم بالكاظميّة، و رثاه السيّد الرضىّ جامع «نهج البلاغة» عند موته بقصيدته الداليّة التى أوّلها :

أعلمتَ مَن حملوا على الاعوادِ أرأيتَ كيف خَبَا ضياءُ النادى

جبلٌ هوى لَوْ خرّ فى البحر اغتدى من ثقله مُتتابع الازيادِ

ما كنتُ أعلمُ قبل حطّك فى الثرى أنّ الثرى يعلو على الاطوادِ

و هى قصيدة من ثمانين بيتاً. يقول صاحب «الروضات»: لم أرَ قصيدة أعلى منها و أفضل .

و حين لام الناس السيّد الرضىّ متسائلين: كيف يمدح سيّد علوىّ كافراً صابئاً و يرثيه هكذا ؟ فكان يقول : إنّما رثيتُ فضله .

و أورد سيّدنا الجزائرىّ فى مقاماته : أنّ كنية هذا الرجل كانت أبا إسحاق، و كان له صحبة مع السيّد المرتضى علم الهدى . و قد اغتمّ السيّد المرتضى لموته ، و قالوا إنّ السيّد المرتضى كان كلّما مرّ بقبره ترجّل قبله بمسافة ثمّ يركب بعد عبوره له بمسافة، حتّى لامه أخوه السيّد الرضىّ !، فقال السيّد المرتضى: إنّما أعظّم درجته فى العلم و لستُ أنظر إلى دينه.

و قد رثى السيّد المرتضى هذا الرجل العظيم بعد موته بقصيدة طويلة موجودة فى ديوانه من جملتها هذه الابيات :

و لقد أتانى مِن مصابك طارقٌ لكنّه ما كان كالطرّاقِ

ما كان للعينين قبلك بالبكا عهدٌ ، و لا الجَنبين بالإقلاقِ

و أطقتُ حملَ النائبات و لم يكن ثقلٌ بِرزئك بيننا بِمُطاقِ

هادى السبزوارىّ قدّس الله سرّه فى كتابه فى شرح دعاء الجوشن الكبير، فى شرح فقرة: يَا مَنِ اسْتَقَرَّتِ الاَرَضُونَ بِإِذْنِهِ : [1] المراد من الاستقرار سكون الارض فى الوسط (فى المركز) ، وَ سَبَبُهُ مَيْلُ أَجْزَائِهَا الثَّقِلَةِ مِنْ جَمِيعِ الجَوَانِبِ إِلَى المَرْكَزِ، فَتَقَاوَمُ وَ تَتَدافَعُ وَ تَتَعادَلُ مِنْ جَمِيعِ الجِهَاتِ فَسَكَنَتْ فِى الوَسَطِ .

إلى أن يصل الحكيم السبزوارىّ قدّس الله نفسه إلى القول : وَ قَالَ ثَابِتُ بْنُ قُرَّةَ: سَبَبُهُ طَلَبُ كُلِّ جُزْءٍ مَوْضِعَاً يَكُونُ فِيهِ قُرْبُهُ مِنْ جَمِيعِ الاجْزَاءِ مُتَسَاوِيَاً. إِذْ عِنْدَهُ مَيْلُ المَدَرَةِ إِلَى السِّفْلِ لَيْسَ لِكَوْنِهَا طَالِبَةً لِلْمَرْكَزِ بِالذَّاتِ. بَلْ لاِنَّ الجِنْسِيَّةَ مَنْشَأُ الانْضِمَامِ. فَقَالَ: لَوْ فُرِضَ أَنَّ الارْضَ تَقَطَّعَتْ وَ تَفَرَّقَتْ فِى جَوَانِبِ العَالَمِ؛ ثُمَّ أُطْلِقَتْ أَجْزَاؤُهَا، لَكَانَ يَتَوَجَّهُ بَعْضُهَا إِلَى بَعضٍ وَ يَقِفُ حَيْثُ يَتَهَيَّأُ تَلاَقِيهَا . [2]

١ـ فى الفقرة السادسة من الفقرات المائة لدعاء الجوشن الذى رواه الكفعمىّ! فى «المصباح» و «البلد الامين» عن الاءمام زين العابدين، عن أبيه، عن جدّه رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين و أورد المرحوم الحكيم السبزوارىّ هذه الفقرة مع شرحها فى كتابه «شرح الاسماء الحسنى» ص ٥٣ ، الطبعة الحجريّة .

٢ـ «شرح الاسماء الحسنى» للحكيم السبزوارىّ، ص ٥٣ ، الطبعة الحجريّة، و يقول نفسه بعد نقل هذا المطلب عن ثابت بن قرّة : و لمّا كان كلّ جزء يطلب جميع الاجزاء طلباً واحداً؛ و من المحال أن يلقى الجزء الواحد كلّ جزء؛ لا جرم طلب أن يكون قربُه من جميع الاجزاء قرباً متساوياً؛ و هذا هو طلب الوسط. ثمّ يقول الحكيم السبزوارىّ فى شأن فلسفة الإلهيّين: ثمّ إنّ كون ما ذكروه أسباباً طبيعيّة لذلك (لتعادل الارض و عدم تلاشيها) لا ينافى كونه بإذن الله، لانّه مسبّب الاسباب، أبى الله أن يجرى الأُمور إلاّ بأسبابها، كما أنّ إحياء عيسى عليه السلام الموتى و إعطاء الادوية لشفاء المرضى لا ينافى كونهما بإذن الله ، لانّه معطى التأثير والخاصيّة، لا مؤثّر فى الوجود إلاّ الله .

و لذا ، فإنّ ما جاء فى كتب الفيزياء من أنّ قوّة الجاذبيّة التى تجذب الاشياء نحوها

و على هذا فإنّ قانون نيوتن لم يكن بالامر البعيد عن أفكار حكمائنا و فلاسفتنا، أو أنّهم لم يكتشفوا قانون الجاذبيّة العامّة بعد.

فما أقبح للرجل أن يجلس للاكل على مائدة قوم، ثمّ يقدّم الشكر و الامتنان لغيرهم ! فيقول فى مقالته :

لقد كان نيوتن الفارس الاوحد ليمدان التحقيق، و نابغة التأريخ النادر، سخّر عقول و أذهان العلماء و الحكماء قرنين كاملين، و أجبر العلماء الرياضيّين و التجريبيّين و الفلاسفة و العرفاء على الجَلوس لَتعلّم الابجديّة فى مدرسته، و على كنس أرض القصر الرفيع لمعرفته، هذا هو اعتراف جان لوك الفيلسوف الانجليزىّ.

لكنّ عقيدة نيوتن لم تكن بمنأى و منجى من الانتقاد و الطعن، فقد أورد علماء الطبيعة بعد نيوتن إشكالاً على عموميّة قوّد الجاذبيّة التى صاغها بشكل قانون، و اعتقدوا أنّ الجسم لا يمكنه التأثير فى جسم آخر من مسافة بعيدة، جذباً كان ذلك التأثير أم غيره.

فقال **فراداى** : كلّجسم يوجد أمواجاً فى محيطه، تكون دائرته الأُولى بقدر محيط الجسم، و كلّما اَبتعدت عنه زادت اتّساعاً، و تدعى تلك الامواج ب **جوّ الجذب**؛ و هذه الامواج كالنور و الكهربائيّة، فهى تستقلّ بعد تولّدها و تنفصل عن الجسم ، فإن انعدم الجسم و زال أو انتقل إلى محلّ آخر فإنّ جوّ الجذب سيبقى موجوداً لمدّة قصيرة .

تتمركز فى مركز الارض لا نصيب له من الصحّة، فقوّة الجاذبيّة فى جميع الاجزاء، و لانّها متماثلة و متساوية فكلّما اقتربنا من مركز الارض فإنّ قوّتها تزداد لتراكم أجزائها، فتتصاعد سرعة الحركة بشكل مضاعف ، فأىّ شىء نتركه فى الفضاء سيسقط إلى الارض بتعجيل $\frac{1}{2}gT^2$ (نصف وزنه مضروباً فى مربّع الزمن) .

و جوّ الجذب هذا طبقاً لمقولة نيوتن $\frac{mm}{r^2}$ يعادل حاصل ضرب الجرمين (الكتلتين) مقسوماً على مربّع المسافة بينهما .

أى لو تضاعفت المسافة بين الجسمين فإنّ قوّة الجاذبيّة ستتضاءل إلى الربع .

و قد أخضع **ألبرت أينشتَين** (Albert Einstein) المحقّق الالمانىّ ، المولود سنة ١٨٧٩ و المتوفّى سنة ١٩٥٥ ميلاديّة ، جوّ الجذب حسب مقولة فراداى لقانون النسبيّة .

و كتب **أينشتَين** نفسه فى كتابه «النسبيّة و مفهوم النسبيّة» فى الفصل الثلاثين تحت عنوان: **إشكالات معرفة الدنيا فى نظريّة نيوتن**، يقول: إنّ مشكلاً رئيسيّاً يواجه الميكانيك السماوىّ التقليدىّ (الكلاسيكىّ)، و على ما أعلم فقد بحث ذلك لاوّل مرّة من قبل **زَلَيجر** (Seeliger) المنجّم، و هو أنّ العالم غير متناه بلحاظ الفضاء و الزمان، فالنجوم موجودة فى كلّ مكان بالشكل الذى يجعل كثافة المادّة بشكل متوسّط واحداً فى جميع الامكنة بالرغم من كونه متغيّراً جدّاً فى الجزئيّات.

و بعبارت أُخرى: فكلّما ابتعدنا فى الفضاء أكثر فأكثر فإنّنا سنواجه دوماً مجاميع رقيقة من النجوم لها نفس النوع و الكثافة تقريباً.

و لا تنسجم هذه النظرة مع نظريّة نيوتن التى تستوجب أن يكون للعالم نوع مركز تزداد فيه كثافة النجوم قياساً للامكنة الأُخرى، و كلّما ابتعدنا عن هذا المركز فإنّ كثافة مجاميع النجوم ستقلّ، حتّى نصل أخيراً فى الفواصل البعيدة جدّاً إلى منطقة خالية لا متناهية، فينبغى لعالَم النجوم أن يكون كالجزيرة المتناهية فى محيط الفضاء اللامتناهى . [١]

١ـ ذكر أينشتَين فى تعليقة الكتاب البرهان على هذا الامر بهذا الشكل : طبقاً

و لا یبدو هذا الاستنباط فی حدّ ذاته کافیاً و مقنعاً؛ و الابعد منه قبولاً هو أنّ النور المنبعث من النجوم و کذلك کواکب مجموعة النجوم تنتظمّ حسب رأی نیوتن داخل الفضاء اللامتناهی، فلا تعود مرّة أُخری و لا تتبادل التأثیر مع الاشیاء الأُخری فی الطبیعة؛ و مصیر عالم مادّیّ متناه و محدود کهذا هو الفراغ و الخلو قلیلاً و بشکل منتظم .

و للخلاص من هذا اللغز فقد اقترح زَلیجر تعدیلاً فی قانون نیوتن ، وافترض أنّ قوّة الجاذبیّة بین کتلتین تفصل بینهما مسافات شاسعة ستضعف بشکل أسرع ممّا فی قانون نیوتن؛ أی مقلوب مربّع المسافة ؛ و فی هذه هذه الحالة یمکن لمعدّل کثافة المادّة أن یبقی ثابتاً فی کلّ مکان ، حتّی فی اللانهایة دون أن تنشأ میادین جذب کبیرة إلی ما لا نهایة . و بهذا الاقتراح فإنّنا سنتخلّص من شرّ التصوّر المزعج فی عالم مادّیّ له شیء من نوع المرکزیّة . [1]

و واضح أنّ انتقاد أینشتَین لنیوتن هو فی فرضه عدم تناهی الفضاء ؛ فهو یعود إلی شرح مبسّط فی الفصل الحادی و الثلاثین تحت عنوان: **إمکان**

لنظریّة نیوتن فإنّ عدداً من خطوط القوّة التی تأتی من اللانهایة و تنتهی إلی لکتلة (الجرم) m تتناسب مع الکتلة m ، فلو افترضنا أنّ معدل کثافة الکتلة (p)فی العالم ثابت ، فإنّ کرة بحجم vلها کتلة متوسطة تعادل pv ، و علی هذا فإنّ عدد خطوط القوّة التی تمرّ من سطح الکرة (F) و تذهب إلی داخلها تتناسب مع p. v.

و أنّ عدد خطوط القوّة التی تمرّ من وحدة المساحة السطحیّة للکرة و تدخل فیها یتناسب مع $p \times \frac{V}{F}$ أو P. R.

لذا فإن شدّة المیدان فی سطح الکرة یزداد مع ازدیاد نصف قطرها و یصل أخیراً إلی ما لا نهایة ، و هو محال .

١ـ «نسبیّت و مفهوم نسبیّت اینشتین» (= النسبیّة و مفهوم نسبیّة أینشتَین) ترجمة محمّد رضا خواجه پور، ص ١٠٩ و ١١٠.

قبول العالم المتناهى و لكن غير المحدود، يقول فى آخره:

« و يُستنتج ممّا قيل أنّه يمكن تصوّر وجود فضاءات مغلقة لكنّها بدون حدّ و غاية، و بين هذه الفضاءات فضاء كروىّ (و بيضوىّ) يمتاز ببساطته، لانّ جميع نقاطه فى عرض بعضها البعض .

و ينشأ من هذا البحث سؤال يستلفت انتباه المنجّمين و علماء الفيزياء، و هو: هل العالم الذى نعيش فيه غير محدود؟ أو أنّه بشكل عام كروىّ محدود متناه ؟

إنّ تجربتنا لا تكفى بأىّ وجه من الوجوه للإجابة على هذا السؤال بدرجة تبعث على الاطمئنان . و بهذه الطريقة يُجاب على الإشكال الذى أُشيرله فى الفصل الثلاثين » .

و نلحظ هنا أنّ أينشتَين نفسه قد وقع فى معضلة النتيجة الحاصلة من قانون الجاذبيّة العامّ .

و حسب طريقة و أُسلوب علماء الطبيعة الإفرنج الذين يدّعون بلا دليل و لا برهان عدم محدوديّة الفضاء، و عدم وجود حدّ و نهاية لعالم الاجسام و الكرات السماويّة، فهو الآخر يريد الخروج من نتيجة قانون نيوتن و اعتبار العالم المادّىّ أبديّاً غير متناه تحت غطاء عدم محبوبيّة و استحسان تناهى الفضاء و محدوديّته، و عدم استحسان انهدام عالم المادّة و دماره؛ فيحاول إرضاء نفسه و الخلاص من شرّ العالم المحدود المتناهى و المقبل على النقصان باستناده لفرضيّة زلّيجر فى إمكان عدم صدق قانون لجاذبيّة فى المسافات البعيدة جداً، و لنظريّة النسبيّة العامّة التى يبقى صدقها هنا محلّ تأمّل و نظر.

و هذه فى فلسفة الإفرنجيّين التى لا تقوم على البرهان و الدليل المتقن ، فقبولهم أو إنكارهم الشىء إنّما يستند فى النهاية على استحسان

القلب أو إنكاره.

لقد أثبت **الشيخ الرئيس ابن سينا** و سائر الحكماء ذوى العزّة و الاقتدار بالدليل العقلىّ أنّ الفضاء ليس مطلقاً غير متناه، و أنّ هناك جسماً محيطاً بالعالم كلّه بمعنى الكرسىّ و العرش، ليكون لكلّ جسم مكانه الطبيعىّ، فوجود جسم بدون مكان طبيعىّ، و كذا بدون زمان هو أمر محال.

و قد اعترف أينشتَين نفسه أنّه ليس لدينا دليل تجريبىّ و لا دليل نظرىّ لحلّ المشكلات الاساسيّة لعالم المادّة التى تجعله حسب قانون الجاذبيّة العامّ متناهياً و محدوداً و تسوقه إلى الزوال و الدمار. ثمّ يقول فى آخر الفصل الثلاثين من كتابه السالف الذكر:

« و ليس لدينا أساس تجريبىّ و لا أساس نظرىّ للخلاص من المشكلات الاساسيّة بالالتفات حول قانون نيوتن و تغييره، فإنّ قوانين كثيرة يمكن تصوّرها تقود إلى نفس النتيجة، و لا يمكن إيراد دليل على أرجحيّة أحدها على الباقى، لانّ أيّاً من هذه القوانين لا يفترق عن قانون نيوتن بلحاظ الاستناد على أُصول نظريّة أشمل» .[1]

و هناك فى عصرنا مجموعة من خرّيجى الجامعات لم يمتلكوا ثقافة صحيحة، و لم يكن منهج دراستهم تحقيقيّاً، بل إنّهم يردّدون عقائد الغربيّين و أقوالهم بشكل سطحىّ كالببغاء ، و لا يكفّون عن ذكر **ديكارت و كانت** .

فهم لا يفهمون من الفلسفة إلاّ الاطّلاع على تأريخها و أسماء مشاهيرها و زمن ولادتهم و وفاتهم؛ و يصدّقون كلّ ما يقوله الطبيعيّون الأُوروبيّون و يظنّونه صحيحاً ؛ و لا يقرّون مسألة المكان الطبيعىّ للاجسام،

١ـ «نسبيّت و مفهوم نسبيّت» (= النسبيّة و مفهوم النسبيّة) ص ١١٠.

و يقولون إنّ الفضاء غير محدود، و ينكرون العرش و الكرسيّ!

إنّ المراد من **الكرسيّ** كما جاء فى عقائد الصدوق عليه الرحمة هو جملة جميع الخلق؛ أى الوعاء الذى توجد فيه جميع الاجسام بلا استثناء ، و هو ما يدعى فى اصطلاح الحكماء ب **مُحَدَّد الجِهَات** ، [١] و باصطلاح بعضهم العرش الذى هو أكبر من الكرسيّ و الحاوىّ له، فمحدّد الجهات الاصلىّ هو فى الحقيقة العرش . **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَواتِ وَ الْأَرْضِ** . [٢]

أى أنّ البناء الوجودىّ لعالم المادّة و الاجسام ، من الذرّة إلى المعجرّات ، و من الارض إلى ما يتصوّر فى السماوات فوق عالم الاجسام ، كلّه فى كرسيّ اللّه،.ى أن ذلك الكرسيّ كبير لدرجة لا تبقى خارجة عنه أيّة ذرّة فى السماوات أو فى الارض ، بل تنضمّ داخله فيحيط بها و يشملها .

أمّا **العرش** فأكبر منه، و هو عبارة عن بناء عالما لوجود بما فيه من مادّة و مجرّدات .

و الآية الكريمة : **الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** [٣] لها دلالة على أنّ عرش المُلك و الهيمنة، و أريكة القدرة و إنفاذ الامر و النهى التكوينىّ ، و إيجاد و إعدام جميع الاجسام و المادّيّات ، و إنشاء جميع المجرّدات من

١ـ محدّد الجهات يختلف عن معنى الفلك محدّد الجهات، و باعتبار عدم وجود فلك محدّد الجهات كما هو الواقع، فهذا المعنى لا يستلزم تحديد الجهات؛ و الحقيقة التى غالباً ما يعتقدها علماء الفيزياء هذه الايّام هى أنّ العالم بلحاظ المكان غير محدود بحدّ معيّن، و أبعاده دوماً فى حال اتّساع و تمدّد لا منافاة لها مع تحديد الجهات، و البرهان الفلسفىّ على محدوديّة الجهات على أساس المادّة و مادّيّة الموجودات، فالمادّة فى حدّ نفسها محدودة و لو كانت فى ذاتها فى حالة اتّساع و تضخّم مستمرّ.

٢ـ جزء من الآية ٢٥٥، من السورة ٢ : البقرة .

٣– الآية ٥ ، من السورة ٢٠ : طه .

الارواح و الملائكة و عوالم العقول و البسائط، كلّها من اللـه تعالى، لا شريك له، فهو الاحد الحـىّ القيّـوم ، الصمـد العليـم القديـر، المـهيمن علـى هـذا العـالم الواسع و مُسَلَّطْ و مسيطر عليه . [1]

١ـ يقـول العـالم الخبـير الشـيخ محمّـد حسـين آل كاشـف الغطـاء فى كتـاب «الفـردوس الاعلى» ص ٤٨ و ٤٩ ، الطبعة الثانية :

و أمّـا العـرش و الكرسـىّ فليـس فى الشـرع كتابـاً و سـنّة مـا يـدلّ صريحـاً علـى جسـمانيّتهما سـوى بعـض إشـارات طفيفـة، مثـل قولـه تعـالى: وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَواتِ وَ الْأَرْضَ (الآيـة ٢٥٥، مـن السـورة ٢: البقـرة) ، و قولـه: عَلَـى الْعَـرْشِ اسْـتَوَى (الآيـة ٥، مـن السـورة ٢٠: طـه)، و هـى مصروفة عن هذا الظاهر قطعاً .

و أمّـا السـنّة فالاخبـار، كمـا فى السـماء و العـالم مـن «البحـار» و غـيره، مختلفـة أشـدّ الاختـلاف ، و فيـها مـا يُشـعر بأنّـهما جسـمان و أكثرهـا صريـح فى عـدم الجسـميّة و أنّـهما مـن مقولة العلم و القدرة و الملك و صفات الذات المقدّسة .

و بالجملـة فإمعـان النظـر فى الاخبـار و كلمـات العلمـاء و المفسّـرين لا يزيـد إلاّ الحـيرة و الارتبـاك؛ و الـذى أراه فى هـذا الموضـوع الدقيـق و السـرّ العميـق و البحـث المغلّـف بسـرائر الغيـب و حجـب الخفـاء أنّ المـراد بالكرسـىّ هـو الفضـاء المحيـط بعـالم الاجسـام كلّـها مـن السـماوات و الارضـين و الكواكـب و الافـلاك و الشـموس، فـإنّ هـذه العـوالم الجسـمانيّة بـالقطع و الضـرورة لهـا فضـاء يحويـها و يحيـط بهـا، سـواء كـان ذاك الفضـاء متناهيـاً، بنـاء علـى تنـاهى الابعـاد ، أو غـير متنـاه ، أى مجـهول النهايـة، بنـاء علـى صحّـة عـدم تنـاهى معلـولات العلّـة غـير المتناهيـة . و هـذا الفضـاء المحيـط بعـوالم الاجسـام هـو الكرسـىّ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَواتِ وَ الْأَرْضِ و هـو المعـبّر عنـه أيضـاً بلسـان الشـرع ب «عـالم المُلـك» تَبَـارَكَ الَّـذِى بِيَـدِهِ الْمُلْـكُ؛ ثمّ تحمـل هـذا الفضـاء و كـلّ مـا فيـه القـوّة المدبّـرة المتصرّفـة فيـه، و ليسـت هـى مـن الاَجسـام ، بـل نسـبتها إلى الاجسـام نسـبة الـروح إلى الجسـم ، و هـذه هـى العـرش الـذى يحيـط بالكرسـىّ و يحملـه و يدبّـره و يصرّفـه و يتصـرّف فيـه، و تقـوم تلـك القـوّة بثمانيـة أركـان كـلّ واحـد متكفّـل بجهـة مـن التدبـير، فتحمـل ذلـك العـرش المحيـط بالكرسـىّ و مـا فيـه و هـى حملـة العـرش؛ وَ يَحْمِـلُ عَـرْشَ رَبِّـكَ فَوْقَـهُمْ يَوْمَئِـذٍ ثَمَـانِيَةٌ. و لعـلّ هـذه الثمانيـة هـى الصفـات الثمانيـة: العلـم و القـدرة و الحيـاة و الوجـود و الإرادة و السـمع و البصـر و الإدراك ، فهـى العـرش الاوّلى بالنظـر إلى نسـبتها إلى تـدبير الاجسـام

إنّ تعبير «الفضاء اللامتناهى» التى يلاحظ تكرارها هذه الايّام فى الكتب و المجلاّت و الخطب ليس من الإسلام، بل من الغربيّين، أخذه عنهم شبابنا عديمو الخبرة و الدراية بلا تبصّر فدرجوا على استعماله .

و على المسلمين، بل على كلّ شخص حكيم يعمل على أساس البرهان و أُصول الفكر الصحيح أن يستعملوا بدل هذا التعبير تعبير **الفضاء الواسع ، و الجوّ الرحب الكبير**.

و نحن لا نعلم أكان أينشتَين معتقداً بعالم المجرّدات و سيطرة القوّة على المادّة و سيطرة عالم الانوار على عالم حجاب المادّة، أم لا؟!

فقد قيل إنّ أصله كان نمساويّاً و من أتباع الدين اليهودىّ، و ما يُستخلص من عباراته أنّ له ميلاً كبيراً إلى عالم المادئ َ و علائقه، و إلى أحكام و قوانين عالم الطبيعة، فهو يعتبر علائق المادّة أصيلة للحدّ الذى لم يكن ليرتضى لهذا العالم بالترعزع و الانهيار حتّى بعد ملايين السنين ، و بأن تختلّ و تضطرب بعض قوانينه السارية الفعليّة .

و هذا الرأى هو من منظار المادّيّين القائلين بأصلاد المادّة و أزليّتها و أبديّيتها: لا الإلهيّين الذين يعتقدون بعالم أوسع و أرحب، و فضاء أهدأ و أجمل ، و لا يمثّل عالم المادّة بأجمعه ، بكلّ أحكامه و لوازمه و آثاره

والسماء و الارض و ما فيهما، و هى العرش الاعلى و الملائكة الكروبيّين بالنظر إلى نسبتها إلى الذات المقدّسة و أنّها صفات تلك الذات، و العرش الاعلى و الادنى هو عالم الملكوت ، ثمّ فوق القدرة المدبّرة للاجسام عالم العقول و المجرّدات و الملائكة الروحانيّين، و هذا هو عالم الجبروت، ثمّ يحيط بهذا العالم و يدبّره و يتّصل به عالم الاسماء و الصفات و الإشراقات و التجلّيات ، و هو عالم اللاهوت، فانتظمت العوالم الاربعة هكذا. عالم اللاهوت ، ثمّ عالم الجبرت ، ثمّ عالم الملكوت ، هو العرش ، ثمّ عالم المُلك و هو الكرسىّ ، أعنى الاجسام و الجسمانيّات .

و خصوصیّاته، و جمیع قواعده و صیغه و فرضیّاته و قوانینه ، مثابل ذلك العالم إلاّ کأساور ملقاة فی صحراء قاحلة بلا حدود .

و قد خاطب الله سبحانه تعالی نبیّه المصطفی فی کتابه الکریم بشأن هذا النوع من اسالیب التفکیر :

فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى . [1]

فکلمة بلوغ تعنی الوصول إلی الغایة، و تمثّل نهایة القصد و الحرکة . و یا له من تعبیر عجیب جدّاً فی بیان مراد الله لمتعال فی تعیین هویّة و میزان اعتبار المادّیّین تعبیر القرآن هذا **ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ** .

أی أنّ غایة و أقصی حدود مشاوراتهم العلمیّة ، و منتهی جهودهم و تحمّلهم المشاقّ وصولاً لاساس الفهم و العلم و الإدراك هو هذا العالم المادّیّ و الجسمانیّ، فأذهانهم لا تعرف إلاّ الجسم و الطبیعة و المادّة ، و کلّ لفظ یطرق أسماعهم یحملونه علی المعنی المادّیّ، حتّی لفظ الجلالة و الروح و النفس و المَلَك .

یقولون : إنّ ما یتبادر إلی ذهننا من هذه العبارات و الکلمات هو معانیها المادّیّد و الطبیعیّة .

نعم ، فهذا التبادر یعود إلی الجهل و هو لیس بحجّة لإیصال المعنی الحقیقیّ، إذ هو کتبادر الماء الأُجاج فی ذهن من لم یذق الماء العذب الفرات من قبل .

إنّما تنشأ أکثر اعتراضات و إشکالات و کفر و إلحاد الملحدین

١ـ الآیتان ٢٩ و ٣٠، من السورة ٥٣: النجم.

و الجاحدين و المنكرين من هذا المنطلق؛ أى أنّهم يفهمون من كلّ شيء معناه المادّىّ المحسوس فقط، و ما يتبادر إلى ذهنهم هو الجسم و الطبيعة و المادّة لا غير، لذا فحين يرون أقوال الانبياء لا تطابق الحسّ تراهم يعمدون إلى إنكارها و تكذيبها. فحين يسمعون مثلاً بعذاب القبر و سؤال منكر و نكير يتبادر إلى ذهنهم فوراً أنّه ينبغى للملائكة أن يكونوا مرئيّين، و أصواتهم مسموعة، فحين لا يرون و لا يسمعون شيئاً يقولون: ليس هناك من شيء ، لانّ غاية علمهم هى المادّة المحسوسة الملموسة .

أمّا العلماء و العقلاء فيعلمون أنّ هناك عالماً آخر وراء العالم المحسوس، فتراهم يعزون ما لا ينطبق من أقوال الانبياء العظام و رسول الله على عالم المادّة حكاية عن ذلك العالم الغير محسوس .

و لقد كان أينشتَين متحمّساً لعالم المادّة، قلقاً لدماره و خرابه، لذا فقد عمد فى هربه من التزلزل فى أبديّة المادّة الذى استنتجه من قانون نيوتن إلى فرض النسبيئة فى الموارد التى لا تصدق فيها، و قد أراح نفسه و أقنعها بتسليمه لامر محال، و هو: عدم تناهى الفضاء و عدم تناهى الزمان.

و ليت قانون الطبيعة و المادّة المحسوسة و انطباق قانون النسبيّة فى الفضاء اللامتناهى تماشيه و تسايره، و لكن هيهات؛ إذا ما العمل إذا سُمع نداء: **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوءُ و دَةُ سِئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَآءُ كِشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ .** [١]

١ـ الآيات ١ إلى ١٤: من السورة ٨١ : التكوير.

و سيُكوّر و يُحمع نور هذه الشمس الذهبيّة و ضياؤها الذى يعمّ العالم فتغدو مظلمد قائمة، و ستنطفى هذه النجوم الجذّابة التى تخطف الافئدة ، من ثوابت و سيّارات، و ستتحرّك هذه الجبال الموطّدة و تُسيّر، و ستُشعل هذه البحار و تُسجّر، و ستُكشط هذه السماوات فتُزاح جانباً، و سيأتى نفخ إسرافيل فى الصور أن :

إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ . [1]

فتنشقّ هذه السماء الزرقاء و تتناثر الكواكب ذات قوى الجذب و التنافر و تتبعثر كرمال الصحراء و تتشتّت بلا رابطة و لا علاقة، و ستنشقّ البحار و تتفجّر، و يخرج الناس من قبورهم و يُبعثون ليُروا جزاءهم ، و عندها فسوف لن ينفع قانون جاذبيّة نيوتن و لا فرضيّة أينشتَين النسبيّة :

هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ . [2]

فلن يجدوا ثَمَّ من مادّة و لا أزليّتها و لا أبديّتها ، و لا الطبيعة و العالم الحسّىّ و لا قوانينه و علائقة، و سيدركون هناك جيّداً أنّ الله مولاهم و وليّهم و حارسهم و مدبّرهم و راعيهم و المحيط بهم و المهيمن على جميع أمورهم قد كان فى جميع مدّة الدنيا المديدة حقّاً، و أنّ المادّة بجميع أحكامها الماديّة، و الطبيعة و قوانين جاذبيّتها و تنافرها كانت تحت أمر و هيمنة إرادة و علم و قدرة الحقّ تعالى، و هذا الامر ليس كأنّه بل إنّه لحقّ .

و سيدركون أنّ تلك المدائح و التكريمات التى كالوها للمادّة ، و الايّام

١ـ الآيات ١ إلى ٥، من السورة ٨٢ : الانفطار.

٢ـ الآية ٣٠ ، من السورة ١٠ : يونس.

و الليالى التى قضوها للحصول على صيغة جديدة و اكتشاف قانون جديد لها، بل إنّ ذلك العمر الذى قضوه فى هذه المرحلة بعقد المؤتمرات و حضور الجلسات، و فى المطالعة و التأليف، و فى طىّ المراحل الجامعيّة ، لم يكن حقّاً . و أنّ نسبة الثبات و الاصالة التى كانوا يفيضونها على المادّة كانت خطاً محضاً و حجاباً و عمى، و ها هى الآن قد ضاعت كلّها فى موقف ظهور الحقّ هذا، و أنّ ما توهّموه علماً فى الدنيا و ما كانوا يدَّعونه علماً قد اتّضح الآن أنّه لم يكن إلاّ خيالاً و وهماً ، ضاع بأجمعه و تلاشى .

و صار مشهوداً فى هذا الموقف أن لم يكن فى الطبيعة مع الله شىء آخر سواه، و أنّ ما كان جارياً هو الحقّ و إرادته المباشرة، لكنّ العين الحولاء كانت ترى الحقّ باطلاً و الباطل حقّاً .

نعم ، لقد سقنا البحث إلى هنا ليُعلم كم طال اختلاف الآراء و النظريّات حول دوران الارض و المدار السماوىّ ، و أين انتهى ، و لسنا نعلم ما الذى سيأتى بعد من آراء لتنسخ آراء السابقين .

و نظير اختلاف آلآراء حول دوران الارض اختلافها فى الحرارة المركزيّة للارض، و التى ظلّ العلماء لمدّة مديدة يعزون السبب الوحيد للزلزلة و البركان فى قمم الجبال إلى الحرارة المركزيّة للارض، حتّى جاء **اللورد كِلْفين** فعزى ذلك إلى شىء آخر و وافقه **داروين** على رأيه هذا .

و أعجب من هذا كلّه هو اختلاف الآراء و تباين النظريّات بشأن حقيقة المادّة؛ نعم هذه المادّة نفسها التى يحنون الرؤوس تعظيماً لها و يحصرون الموجودات فيها، فجعلوها مقابل الله الازلىّ الابدىّ عَلَماً يُثبتون لها أعلى صفات الأُلوهيّة من الازليّة و الابديّة، و لقد جهدوا فى الكفر بالله الربّ الخالق و ساقوا أنفسهم أذلاّء تابعين لهذه المادّة الصمّاء عديمة الشعور.

لقد اتّفق رأى طبيعىّ العالم و ماديّيه و كلمتهم ابتداءً على أنّ المادّة لا تفنى و لا تضمحلّ، و كانوا يتمسّكون بهذا الرأى و يصرّون عليه لدرجة يعجب المرء منها و يحار؛ ثمّ أثبت **جوستاف لوبون** أنّ المادّة تفنى و تضمحلّ و تتحلّل، و أنكر **هانس** و **مالبرانش** و **طومسون** من الاصل تلك الذرّات الصغار و الجواهر الفردة التى اعتبرت المادّة مكوّنة من تركيبها ، و قالوا إنّ حقيقة المادّة ليست أجزاءً صغاراً و ذرّات دقيقة مرتبطة و مركّبة ببعضها ، بل هى نوع من الحركة فى الاثير، [1] أو نوع من الاضطراب و الاهتزاز أو الامواج التى توجد فى الاثير.

و لقد نفى **جوستاف لوبون** حتّى هذا النوع من الوجود للمادّة أيضاً، و كان رأيه أنّ المادّة هى مخازن للقوّة تتمكّن فيها لاغير، و اعتبرها **اسبرن دينلدر** عبارة عن خُلل و فتحات توجد فى انتظام دقائق الاثير.

و قد أنكروا فى الحقيقة بهذا النمط من الآراء و النظريّات وجود المادّة، و استنكفوا عن معبودهم الازلىّ، فوجّهوا وجوههم إلى قبلة أُخرى هى الاثير، هذا الاثير الى كانوا ابتداءً ينكرون أصل وجوده و تحقّقه ، و لا يعرفون له وجوداً إلاّ بمقدار ما تستخدمه المادّة و بمقدار الميدان لحركتها و مرآة تجلّى مظاهر قدرتها و قوّتها.

ثمّ بقى الاثير أيضاً مدّة ينتظر حلول يوم نحسه و إدبار حظّه لِينزلوا به ما أنزلوه بالمادّة، و ليهبطوا به من علياء عرشه و سلطان قوّته و اقتداره و يخلعوا عنه رداء الازليّة و الابديّة، و يعلّقونه قهراً و جبراً على خشبة إعدام التجزئة و التفرقة و الفناء و الاضمحلال و ينكرون أصل وجوده تماماً كما

١-**الاثير**، مادّة سائلة لا تقع تحت الوزن تتخلّل الاجسام، فتملا الفراغات الموجودة بينها.

فعل بوانكاره، حيث جاء و أبدل الاثير بآخر يحلّ محلّه و يقوم مقامه فأناطوا إلى الامر و النهى . نعم؛ وَ كُلٌّ آت قَريب .

و ها نحن بعد مرور مائة و خمسين ستّة مرّت ـ من زمن أينشتَين حتّى اليوم ـ لا نسمع عن الاثير شيئاً، بل و نرى علم الفيزياء يرفض الاثير و لا يقرّبه .

و كما حكم جماعة بفناء المادّة و اضمحلالها، فإنّ آخرين قد سلبوا عنه صفة بساطتها، فقالوا إنّ أجزاء المادّة و ذرّاتها الصغيرة التى تشكّل جوهرها ليست بسيطة، بل إنّ كلاّ من هذه الذرّات الصغيرة التى تدعى بالجزئيّات تمتلك نواة مركزيّة تدعى **البروتون** و مرحكّبة من ألف جزء من الشحنة الكهربائيّة الموجبة، يدور حول هذه النواة دقائق تحمل الشحنة الكهربائيّة السالبة يُدعى كلٌّ منها ب **الآلكترون** . [1]

١ـ لقد توصّل الكيميائيّون سابقاً إلى أنّ الجزى كأصغر قطعة من الاجسام، و هو عبارة عن ذرّة صغيرة لا ترى بالعين المجرّدة، و إذا ما حاولنا تحطيمه فإنّه سيفقد خواصّه الاوّليّة، و إذا ما أردنا تقسيم هذا الجزى فلن نحصل على جزى آخر، إذا إنّه مركّب من دقائق صغيرة جدّاً تدعى بالذرّات، و كان علماء الفيزياء و الكيمياء يعتدون إلى ما قبل تسعين عاماً أنّ الجزى هو أصغر تقسيمات المادّة، ثمّ توصّل الكيميائيّون عند تجاربهم على المحاليل المخفّفة الكيميائيّة ، و الفيزيائيّون فى تجاربهم لاءمرار تيّار كهربائىّ داخل محلول كيميائىّ، توصّلوا إلى وجود أقسام أصغر تتكوّن منها المادّة تدعى بالذرّات، و توصّلوا إلى أنّ الذرّة الواحدة التى يصغر قطرها عن جزء من عشرة آلاف جزء الملّيمتر هى نفسها عالم عجيب، فلها مركز كالشمس يدعى البروتون تدور حوله ذرّات تدعى إلكترونات بسرعة هائلة تحمل جميعها الشحنة السالبة؛ و أنّ طاقة الذرّة كبيرة إلى الحدّ الذى يدّخر غرام واحد من التراب طاقة تزيد على حاصل عمل المحطة الكهربائيّة فى طهران لمدّة سنة كاملة. و لقد أوضحت التحقيقات الجديدد قبل أربعين سنة أنّ النواة هى أيضاً بدورها مركّبة من دقائق تحمل الشحنة الموجبة و هى البروتونات و دقائق عديمة الشحنة تشبه الإلكترونات (النيوترونات) فهذه جميعها

ثمّ جاء بعد ذلك آخرون و قالوا إنّ المادّة ليست إلاّ أمواجاً حركيّة، فلا شيء منها فى العالم إلاّ نفس الحركة، و إنّنا نشاهد اختلاف الصور و الاشكال و الاشياء فى الخارج لاختلاف نوع الحركة التى نسمّيها أمواجاً .

فلو كان هذا الاختلاف فى المادّة الذى أوجدوه يتعلّق بالمادّة نفسها لما كان مهمّاً، لكنّ هذه الآراء الاخيرة تسبّب تحطّم و انهيار أساس بحث و استدلال الفلاسفة الماديّين لقرون متمادية و عصور طويلة .

و من بين المسائل التى صارت مورد بحث المحافل و المدارس هى مسألة أصل نوع الإنسان، و أنّه مِمَّ خُلق؟ فهل ولد من أب و أُمّ معيّنين؟ أم تدرّج من طبقات الحيوانات السابقة الواحدة تلو الأُخرى حتّى انتهى إلى نوع البشر؟!

و فى هذا الشأن قولان:

القول الاوّل: إنّ أبوَى هذا النوع كانا آدم و حوّاء اللذان خلقهما الخلاّق العليم القدير بإرادته بنحو الإبداع و الإعجاز دفعة واحدة، بأن صيّر التراب طيناً فسوّى منه آدم ، ثمّ نفخ فيه فصار بشراً سويّاً له عقل و ذكاء و إدراك.

و كذا الامر بشأن أصل خلقة سائر أنواع الحيوان، حيث خلق لكلّ منها أصلاً من أب وأُمّ، البقر و الغنم، و الاسد و النمر، و الطيور و الحيوانات البرّيّة... كلٌّ خلق له أصلاً بنفس الأُسلوب و أوجه فيه نفساً حيوانيّة خاصّة، فصارت أُصول بداية خلقة الاجيال العديدة للحيوانات على ظهر البسيطة .

صار آدم أباالبشر، لانّ بدنه يخلو من الشعر خلافاً لجميع الحيوانات،

تكوّن الشحنة الكهربائيّة بمعنى الطاقة

لذا يقال للإنسان بشر، **فالبشر جمع بشرة**، و البشرة تقال للموجود الذى يخلو جلده من الشعر فتبدو بشرته؛ و هكذا صارت **أُصول الحيوانات أبا الفَرَس و أبا الغنم و أباالبقر و أبا الاسد** و غيرها.

و أوجد كذلك للبناتات و الاشجار أصلاً من ذكر و أُنثى، فخلق أشجار الصنوبر، و السِّدر، و الاشجار المثمرة، و الاعشاب و الحنطة و العدس و الازر و غيرها بهذا المنوال، و أوجد بصنعه البديع أُصول الاشياء .

ثمّ أجرى بإرادته التامّة هذه الانواع البديعة بالتناسل و التكاثر بالمثل فى الإنسان و الحيوان و النبات، و هو الآن أيضاً كلّما شاء أن يوجد نوعاً بديعاً فى أىّ وقت أوجده، و متى ما شاء أن يسبّب انقراض نوع ما و قطع نسله فَعَل، ثمّ أسند نوعاً آخر مكانه على كرسيّة .

كانت جميع الحيوانات ثابتة لا تتغيّر، تعود جميعاً إلى أُصولها البديعة الإعجاز، المخلوقة دفعة واحدة؛ و ستستمرّ هكذا إلى الابد أنواع النباتات بتكاثرها التناسلىّ، و ستمضى أنواع الحيوان و أصناف الإنسان نحو الثبات و الاستقرار، فلا تبديل فى العالم لنوع ما إلى نوع آخر، فجميع الانواع ثابتة و العالم ثابت لا يتغيّر، و هو أشبه بنجوم السماء، و جميعها قد ملأت ساحة عالم الطبيعة بهذه الكيفيّة؛ و يُدعى هذا القول **فيكْسِيسْم** (Fixisme) ، و القائلون به يدعون **فيكْسِيست** (Fixisme) .

و القول الثانى: إنّ جميع الموجودات الحيّة، من حيوان و إنسان و نبات قد جاءت نتيجة التغيّر و التبدّل فى الانواع، و إنّجميع الناس ينتهون إلى نوع من الحيوان جاء كسائر أقسام الحيوانات من نوع واحد، ثمّ تكاثرت على إثر تكامل الانواع.

فهذه الكثرة الملحوظة فيها ترجع إلى تناسلها وتكاثرها و وجودها التكاملىّ ، و إلاّ فكلّما توغّلنا نحو أُصولها سنجد أنّ جميع الانواع كانت

أبسط و أقلّ عدداً، حتّى نصل إلى أنواع من الحيوانات الصحراويّة، و تلك تعود إلى أنواع من الحيوانات ذات الحياتين، و تلك ترجع إلى أنواع من الحيوانات المائيّة، و هذه الاخيرة أصلها فى غاية البساطة و تنتهى أخيراً إلى الموجودات ذات الخليّة الواحدة التى توجد فى المياه الراكدة الآسنة.

فقد نمت و تكاملت تلك الحيوانات ذات الخليّة الواحدة التى كانت فى الماء بنحو تصاعدىّ و شطرنجىّ، أى أنّ ذلك الموجود ذا الخليّة الواحدة قد انقسم للوهلة الأُولى من الوسط إلى نصفين، ثمّ نما النصفان، ثمّ انقسم النصفان و نميا، ثمّ صارا ثمانية فستّة عشر، و هكذا تضاعفت بنحو المتوالية الهندسيّة و ظهرت منها حيوانات أكبر بحريّة كانت تعيش فى بداية أمرها فى ذلك الماء الآسن و المستنقعات الراكدة، ثمّ جاءت إلى حافّة الماء فخرجت منه، و عادت إليه حتّى صارت شيئاً فشيئاً ذات حياتين، ثمّ تطوّرت هذه الحيوانات ذات الحياتين تدريجيّا فابتعدت عن الماء و نشأ منها الحيوانات الصحراويّة، ثمّ نشأ منها الطيور و الإنسان. فكان أوّل أمر الإنسان نوعاً من الحيوان، ثمّ سقط شعر جسمه و ذيله و قرناه على إثر التكامل فصار بشراً .

و قد وهب الله لهذا النوع عقلاً، و جعل أحده آدم و الآخر حوّاء ، أمّا غيرهما من أفراد الإنسان الذين لم يمتلكوا العقل و الشعور فقد انقرض نسلهم من العالم بالتدريج؛ أو أنّهم هم أيضاً كانوا يمتلكون العقل و الإدراك، و قد أنعم الله على البشر من بينهم بخلعة النبوّة و العلم و المعرفة، فصار البشر يتكرّم عليها بقوّة العلم .

و يُدعى هذا القول ترانسفورميسم (Transformisme)، و يُدعى القائلون به ترانسفورميست (Transformiste).

إنّ اختلاف الإنسان عند القائلين بتكامل الانواع (ترانسفورميست)

مماثل بعينه لاختلاف الانواع فى الحيوانات، فكما أنّ هناك أصنافاً مختلفة من الإنسان ترجع إلى أُصول و أعراق مختلفة: الاصفر و الاسود و الابيض و الاحمر، لكنّها ترجع إلى.صل واحد و تنتهى إلى إنسان واحد، و كذا الامر بالنسبة لجميع أنواع الحيوانات، إذ إنّها تنتهى هى الأُخرى إلى نوع واحد .

و ما العالم إلاّ كنهر جار تسير فيه الانواع إلى تكاملها فتتبدّل أنواعها إثر التغيّر التكاملىّ فيها.

و ينطبق كذلك أصل هذه الفرضيّد على الحيوانات و النباتات ، فآدم و حوّا لم يكونا الحلقة الأُولى فى هذه السلسلة، بل تمّ تحوّل الانواع إلى نوع البشر بعد مرور ملايين من السنين، فتمّ انتخاب آدم و حوّاء، و على رأى البعض فقد استلزم ذلك مرمر ثلاثمائة مليون سنة، و على رأى بعض آخر ستمائة مليون سنة، و بقول آخرين ثمانمائة مليون سنة، و قال آخرون بأكثر من هذا .

و السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: ما هو نسل الحيوانات الذى كان قبل آدم و مثّل الحلقة التى سبق حلقة نسل البشر؟

قيل : تلك حلقة مفقودة ؛ فجميع حلقات الحيوانات السابقة و الانواع المختلفة التى تبدّلت و تطوّرت منها قد اكتُشف و صار معلوماً ، و من المسلّم أنّ الإنسان ينتهى هو الآخر إلى تلك الانواع؛ لكنّ بين الإنسان وتلك الانواع السابقة حلقة وصل ؛ فما هى حلقة الوصل تلك! و ظلّ هذا السؤال بلا إجابة . لذا فقد دُعيت تلك الحلقة بالحقة المفقودة .

يقول داروين إنّه قد اكتشف الحلقة المفقودة، و تلك هى الفرد!! لكنّ داروين لم يقدّم دليلاً على مقولته هذه، التى رفضها كبار القائلين بنظريّة تغيّر الانواع ممّن جاء بعد داروين، كما أنّ دعاة هذه النظريّة بقوا لا يملكون أىّ دليل قاطع لرفض ما يستفاد من ظواهر الآيات القرآنيّة فى

أنّ اللـه تعالى خلق البشر من الطين دفعد واحدة علـى نحـو الإعجـاز و الإبـداع و نفخ فيه من روحه .

و لانّ الحلقـة المفقـودة بقيـت غـير مكتشـفة، فـإنّ هنـاك فى هـذا المجـال احتمالان من وجهة النظر العلميّة :

الاوّل : لَنّ نسـل البشـر ينتـهى إلى أنـواع الحيوانـات السـابقة، مـع احتمال تحقّق الحلقة المفقودة و التسليم بها .

والثانى : خلق آدم دفعـة واحـدة بنحـو الإعجـاز، و فى هـذه الحالـة فـإنّ القـائلين بتغـيّر الانـواع سـيتكلّمون فى هـذا الامـر وفـق الظـنّ و الحـدس و التخمين، فهم يتشدّقون بأنّ أسـاس التكـامل صـادق فى جميـع الانـواع فلابـدّ أن يكون الامر كذلك بالنسبة للإنسان .

و هناك قول ثالث فى هـذا الشـأن، و هـو غـير معـروف طبعـاً، و هـو أن نقـول بأنّنـا نعتقـد بـالخلق الإعجـازىّ دفعـة واحـدة بخصـوص الإنسـان، أى بنظريّة ثبات الانواع، و نقـول بـالتبدّل و التكـامل لسـائر أنـواع الحيوانـات، أى بنظريّة تغيّر الانواع و تكامله. نعود ثانية إلى موضوعنا الاصلىّ و نقول :

بالرغـم مـن اعتقـاد مؤلّـف كتـاب «خلـق الإنسـان» [1] بنظريّـة تكـامل الإنسـان و إصـراره الشـديد علـى تطبيـق آيـات القـرآن عليـها، لكنّـه يقـول بصراحة :

«على فرض صحّة نظريّة داروين و قطعيّتـها فـهى لا تمثّـل إلاّ بيانـاً لعلّـة التغيـير التدريجـىّ للموجـودات الحيّـة، لكـنّ نظريّـة كـهذه ليسـت صادقـة و لا تنطبـق علـى ابتـداء الخلقـة حيـث كـان الامـر خاليـاً إذ ذاك مـن تنـوع و اختلاف الموجودات .

---

١ ـ كتاب «خلقت إنسان» (= خلق الاءنسان) بالفارسيّة، للدكتور يدالله سحابى.

فلقد أثبتت العلوم الحياتيّة هذه الايّام ـ مؤيّدة بالدلائل المكتشفة فى علم طبقات الارض ـ حدوث التنوّع و الاختلاف التدريجى فى الموجودات الحيّة، فزادت أنواعها و كثرت، ممّا يؤيّد كون الحياة قد نشأت من مكان واحد .

أمّا كيفيّة نشوء الحياة من جسم ميّت و مادّة غير حيّة، فبالرغم من جميع الجهود العلميّة التى بُذلت لمعرفة ذلك فقد بقيت المسألة فى حدود الفرضيّة و النظريّة و لم تكتسب صورتها القطعيّة اليقينيّة .

لقد واجهت نظريّة داروين الانتقادات (راجع كتاب «Bioligie Animale» تأليف Aron et Grasse ، الصفحات ١٣٣٤ إلى ١٣٦٢، نشر Masson باريس، سنة ١٩٦٠ م) ، و لم تكتسب نظريّته شكلها و إطارها التامّ الخالى من الاستثناءات، لذا فإنّ استناد الماديّين على فرضيّة داروين و الفرضيّات المتعلّقة بمنشأ الحياة سعياً لإنكار خالق العالم لن يصمد أمام المنطق العلمىّ» . [١]

و يقول المولّف المذكور كذلك:

«لقد اعتقد العلماء السابقون فى عصر المدنيّة اليونانيّة بالتغيير التدريجىّ للموجودات الحيّة مثل أناكسيماندير (Anaximander) وامبدوكليس (Empedocles). فأمبدوكليس مثلاً (القرن الخامس قبل الميلاد) قد اعتقد قبل داروين أن كيفيّة التنازع على البقاء و انتخاب الاصلح مؤثّر فى تغيير الانواع .

لم تتجاوز المعارف و المعلومات العلميّة العامّة فى القرون الوسطى بشأن الموجودات الحيّة ما ذُكر فى آثار الهنود و البابلتيين ، أو ما ورد فى

١ ـ كتاب «خلقت انسان» للدكتور يدالله سحابى، هامش ص ٦ و ص ٢ على الترتيب.

التوراة، و مع ذلك فإنّ بعض كبار مفكّرى المسيحيّة مثل غريغوريوس النيصى (Gregory Of Nissa) من الكنائسيتين اليونان و أُغوستين المقدّس (Augustin) من الكنائسيتين اللاتينيّين اللذين عاشا فى القرن الرابع و الخامس الميلادىّ كانا يعتقدان بتكامل العالم وت طوّره ضمن الإرادة الإلهيّة، و أكدّا فى كتاباتهما أنّ الاقسام الجديدة للموجودات الحيّة قد خُلقت من التغيير التدريجىّ للاقسام السابقة تحت تأثير عوامل طبيعيّة ثانويّة» .[1]

و قال كذلك: «إنّ نظريّة تغيّر الانواع (ترانسفورميسم) قد جرى بيانها قبل داروين من قبل بُوفُّون Buffon)، ١٧٠٧ إلى ١٧٨٨ م)، و لامارك Lamarek) ، ١٧٤٤ إلى ١٨٢٩ م) ، و جيفرو سنتيللر Etienne) Geffroy - Saint - Hillaire ، ١٧٧٢ إى ١٨٤٤ م)،و قبل ذلك من قبل بعض العلماء المسلمين و العلماء اليونانيّين، و من المؤكّد أنّ العلماء المتأخّرين لم يكونوا بمعزل عن الاطّلاع على أفكار أسلافهم، لكنّ نظريّة داروين قد ترافقت مع تجارب و أمثلة كثيرة ممّا أدّى إلى القبول بها أكثر من سابقاتها ، و إلى تركّزها فى الاذهان .

لقد اعتقد داروين Charles Robert Daewin)، الذى عاش بين ١٨٠٩ و ١٨٨٩ ميلاديّة) بتأثير موضوع التنازع على البقاء فى الانتخاب الطبيعىّ، و فى نشوء أنواع جديدة و تكاثرها و تغييرها التدريجىّ. و كما قد أُشير سابقاً فقد كان لداروين أسفار كثيرة للمطالعة و لإجراء التجارب بشأن نظريّته ، و قدّم الامثلة المتعدّدة لعمهد ، لذا فقد أثارت نظريّته الاهتمام منذ

---

١ ـ كتاب «خلقت انسان» للدكتور يدالله سحابى، هامش ص ٦، و ص ٢، على الترتيب.

البداية.

لكنّ مطالعة الانتقادات التى وجّهت لها فيما بعد ستوضّح أنّ هذه النظريّة لم تكتسب صفتها القطعيّة، كما أجبر داروين نفسه على اعتبار عوامل ثانويّة أُخرى مؤثّرة فى التغيير التدريجىّ للانواع » .[١]

و يقول كذلك: «بناء على نظريّة ثبات الانواع (فِيكِسيسم) فإنّ العلماء المتمّين كانوا يعتقدون بعدم وجود رابطة و علاقة نسليّة بين أقسام الموجودات الحيّة . و كانت هذه العقيدة رائجة إلى أوائل القرن التاسع عشر للحدّ الذى كان العالم الفرنسىّ كوفيه (Cuvier مؤسّس علم التشريح التطبيقىّ يكتشف بمطالعاته و أبحاثه الدقيقة الواسعة تشابه الهيكل التشريحىّ بين بعض الموجودات المختلفة ظاهريّاً ممّا يشير إلى ارتباطها و علاقتها، لكنّه كان واقعاً تحت تأثير نظريّة ثبات الانواع و أحد المدافعين عنها، فأُجبر فى النهاية على إضافة وجهة نظر جديدة إلى نظريّة ثبات الانواع تقول :

بالرغم من أنّ لانواع الموجودات خلقة منفصلة و مستقلّة عن بعضها ، لكنّ نظر الخلاّق فى إيجادها لم يكن عشوائيّاً خالياً من النظام و التخطيط ، و إنّ على علماء الطبيعة أن يكتشفوا و يتعرّفوا على هذا التخطيط المشترك الواحد الذى استُخدم فى خلقة الموجودات ، و هذا التخطيط المشترك المذكور إنّما هو الصفات الطبيعيّة المشتركة فى أنواع الاحياء المختلفة) .[٢]

و يضيف المؤلّف أيضاً:

«إنّ نظريّة داروين هى نظريّة لبيان العلّة (أو إحدى العلل) المؤثرة فى

---

١ ـ «خلقت انسان» ص ٤ إلى ٦.

٢ ـ «خلقت انسان» ص ٣.

التغيير التدريجىّ للانواع، و ليس فى مسألة خلقتها التكامليّة، و كما أوضحنا سابقاً فإنّ داروين قد اعتبر فى بداية الامر الانتخاب الطبيعىّ للانواع بواسطة عامل التنازع على البقاء هو المؤثّر الوحيد فى تنوّع و تكاثر الموجودات.

و قد اعتبر علماء آخرون مثل بوفون و لا مارك و سنتيلَر وإيزمان (Weismann) الذى عاش بين ١٨٣٤ إلى ١٩١٤ م) و دى فرايس (de Vries ، ١٨٤٨ إلى ١٩٣٥ م) عوامل أُخرى مثل تغيّر الظروف الطبيعيّة لمحيط العيش و استعمال أو عدم استعمال الاعضاء، و تغيير هيكل الخميا الجنسيّة و التغيير السريع (Mutation) مؤثّرة فى التغيير التدريجىّ للانواع .

و لم تكن أيّاً من هذه النظريّات، بالرغم من التجارب الكثيرة التى أُجريت بشأنها، متكاملة شاملة، فقد حفل كلٌّ منها بالنواقص و الإشكالات التى منعت من اعتبارها و النظر إليها كنظريّة عامّة قطعيّة فى التغيير التدريجىّ لانواع الموجودات. كما أيّد داروين نفسه فى كتاباته الاخيرة مسألة تأثير ظروف محيط العيش على تكامل و نشوء أنواع جديدة، مضافاً إلى التنازع على البقاء (راجع كتاب « Cours elementaires de Zoologie » تأليف Remy Perrier ، نشر Masson ، باريس، ص ١٠٠).

و كذلك اعتقادهم فى النظريّة الداروينيّة الجديدة بأنّ عامل الوراثة وا لتغيير الدقيق للخلايا الجنسيّة منا لمؤثّرات فى نشوء الانواع الجديدة .

و على أيّة حال فلا يمكن لاىّ من العوامل المذكورة أن يكون لوحده عاملاً قطعيّاً و تامّاً للتغييرات التدريجيّة للموجودات فى أىّ زمان و مكان ، فهذه العوامل و أمثالها بأجمعها هى عوامل ثانويّة لعلّة أصليّة و غائيّة أدّت إلى تغييرات مستمرّة فى عالم الوجود منظّمة و مثمرة و متناسبة مع بعضها و قابلة

للاستمرار» .[١]

نعم، لقد كان داروين الذى يمكن أن نعتبره المنشى و البادى بهذا الرأى التكاملىّ فى هذا العصر مسيحيّاً إنجليزيّاً متديّناً متمسّكاً بالمسيحيّة ، و قد أمسك عندا حتضاره بكتاب المسيحيّين المقدّس على صدره و ألصقه به بقوّة، لقد كان معتقداً باللـه، لكنّ نظريّاته صارت بعد موته مورداً أُسيء استخدامه و الاستفادة منه، فقد جعله المادّيّون و الملحدون سنداً و دسيسة لهم أثاروا لاجلها ضجّة و صخباً بالشكل الذى لم يكن داروين نفسه ليرضى به أو يريده .

و قد أثارت هذه النظريّة قلقاً و اضطراباً شديداً فى محافل المسيحيّين الأُوروبّيّين؛ مع أنّ الإنجيل يطرّق إلى بدء خلقة الإنسان،ل كنّه نصّ على صحّة مطالب التوراة بأجمعها و اعتبر اتّباعها فى العقيدة و الاخق و العمل واجباً، كما أوجب على المسيحيّين العمل بكتاب التوراة مادام الدهر، و لم يعدّه منسوخاً باطلاً؛ لذا فحين تتعارض نظريّة داروين مع تصريح التوراة فى الفصل الثانى من سِفْر التكوين بالقول بأنّ اللـه خلق آدم من الطين و خلق زوجه حوّاء من خَلْفِهِ، أى من أصغر أضلاع جنبه الايسر، [٢] فإنّها لهذا تتعارض بصراحة مع عقيدة و مذهب القساوسة النصارى .

لقد وردت فى سفر تكوين التوراة مسائل مغايرة للحقيقة لشأن خلقة آدم و حوّاء و تفوّق الشيطان عليهما فى أصل الخلقة تجعل تحريف هذا الكتاب الإلهىّ بيَدِ البشر مسألة مسلّمة، و قد ورد فى بعضها وصف اللـه بالكمر و الخداع و وصف الشيطان بالصدق !

---

١ ـ «خلقت انسان» ص ٩ و ١٠.

٢ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٤، ص ١٥٦.

و قـد ألّـف علمـاء الإسـلام الاعـــلام كتبـــاً لإبطـــال هـــذه الزخـــارف و الاضاليل التى تدلّ الادلّة و الشواهد العقليّة و النقليّة علـــى خلافـها، كمـا فعـل آية اللـه المعظّم الشـيخ محمّـد جـواد البلاغـى ّ النجفـىّ [٨] فى كتـاب « الرحلـة المدرسـيّة أو المدرسـة السـيّارة» فى ثلاثـة أجـزاء، و هـو حقّـاً كتـــاب نفيـــس ثمين .

أمّا مسألة خلق زوج آدم من ضلعـه الايسـر، و مـا هـو مشـهور مـن أنّ عدد الاضلاع اليسرى للرجل تنقـص عـن مثيلاتهـا فى المـرأة فكـلام عـار عـن الحقيقة، لا واقع له فى الخارج و لا دليل عليه من الآيات القرآنيّة .

و الآيـة المبـاركـة : يَـــأَيُّهَـا النَّـاسُ أَتَّقُـوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّـن نَّفْسٍ

---

١ ـ أورد العلاّمـة الحـاجّ الشـيخ آغـا بـزرگ الطـهرانىّ فى «أعـــلام الشـــيعة» فى قســـم نقبـــاء البشـر، ج ١ ص ٣٢٣ إلى ٣٢٦، برقـم ٦٦٣ ترجمـة أحوالـه مفصّـــلاً، و نـــورد هنـــا خلاصتـــها: كـــانت حياتـه بـين سـنة ١٢٨٢ و ١٦٥٢ هجـرىّ قمـرىّ؛ مـن أعـــلام علمـــاء الاءســـلام فى عصـــره، مجـــاهد كبير و مؤلّف كثير التـــأليف، و كـان نـادر دهـره و مـن الذيـن أوقفـوا حيـاتهم و كرّسـوا أوقـاتهم لخدمـة الديـن و الحقيقـة. و قـد وقـف قبـال النصـارى و أمـام تيّـار الغـرب الجـارف فمثّـل لهـم سمّـو الاســـلام علـى جميـع الملـل و الاديـان حتّـــى أصبـــح لـــه الشـــأن العظيـــم و المكانـــة المرموقـــة بـــين علمـــاء النصـارى و فضلائـها. و كـان أعـلام أوروبّـا يرجعـون إليـه فى حـــلّ معضلاتهـــم العلميّـــة و الدينيّـــة . و قـد اتّصـل بـه أعـلام لورنـــدرة و غيرهـــا و كـــانوا يفزعـــون إليـــه فى المســـائل العويصـــة. و مـــن المستفيدين منه المستر خالد شردراك، فإنّه كان يرجع إليه فى المشاكل التى يواجهها.

و قد ترجم الكثـير مـن مؤلّفاتـه فى حياتـه إلى الاءنجليزيّـة و طبعـت للاسـتفادة منـها مـن قبـل المسـيحيّين الغربيّـين. و مـن مؤلّفاتـه: «الهـدى إلى ديـــن المصطفـــى»، و «أنـــوار الهـــدى»، و «الرحلـــة المدرسـيّة»، و «نصـائح الهـدى و أعـاجيب الاكـــاذيب»، و «التوحيـــد و التثليـــث»، و «إبطـــال فتـــوى الوهّـابيّين بهـدم قبـور البقيـع»، و رسـالة أُخـرى فى إبطـال فتـوى الوهّـابيّين أيضـاً، و «البـلاغ المبـــين» فى الالهيّـات، و «تفســـير آلاء الرحمـــن»، و الكثـير مـــن الكتـــب الأُخـــرى المطبوعـــة؛ و أمّـــا غـــير المطبـوع فـهو كثـير، ذكـره العلاّمـة الطـهرانى ّ، و كـــانت وفاتـــه فى ٢٢ شـــعبان فـــاغتمّ لفقـــده العـــالم الشيعىّ و الاءسلامىّ و الحوزة العلميّة فى النجف، رحمة اللـه عليه رحمة واسعة .

وَاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، [١] تدلّ على أنّ الرجل و المرأة خُلقا من جنس واحد، و أنّ زوج آدم قد خُلقت من نفس المادّة التى خُلق آدم منها، و لفظة مِن فى خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ليست تبعيضيّة، بل نشوئيّة تفيد ابداء الغاية. و معنى النفس الواحدة هو الشيء الذى تقوم به إنسانيّة الشخص، و هو عبارة عن الروح و البدن فى عالم الدنيا، و الروح فقط فى عالم البرزخ، فالآية فى مساق قوله تعالى :

وَ مِن ءَايَـٰتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَ رَحْمَةً ؛ [٢] و قوله تعالى: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَ حَفَدَةً ؛ [٣] و قوله تعالى: فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ مِنَ الْأَنْعَـٰمِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ؛ [٤] و نظيرها قوله : وَ مِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْن . [٥]

فما جاء فى بعض التفاسير من أنّ المراد بالآية كون زوج هذه النفس مشتقّة منها و خلقها من بعضها وفاقاً لما فى بعض الاخبار أنّ الله خلق زوجة آدم من ضلع من أضلاعه ممّا لا دليل عليه من الآية . [٦]

و فى «نهج البيان» للشيبانىّ عن عمرو بن أبى أبى المقدام ، عن أبيه، قال: سألتُ أباجعفر عليه السلام: من أىّ شيء خق الله حوّاء؟

فقال عليه السلام: أىّ شيء يقولون هذا الخلق؟

---

١ ـ الآية ١، من السورة ٤: النساء.

٢ ـ الآية ٢١، من السورة ٣٠: الروم.

٣ ـ الآية ٧٢، من السورة ١٦: النحل.

٤ ـ الآية ١١، من السورة ٤٢: الشورى.

٥ ـ الآية ٤٩، من السورة ٥١: الذاريات.

٦ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٤، ص ١٤٥.

قلتُ: يقولون: إنّ اللـه خلقها من ضلع من أضلاع آدم .

فقال: كذبوا، أكان اللـه يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه؟!

فقلتُ: جعلت فداك، من أيّ شيّ خلقها ؟

فقال: خَبَّرنى أبى عَنْ آبائه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللـه صَلَّى اللَـهُ عَلَيْـهِ وَآلِـهِ وَ سَلَّمَ:

إنَّ اللَهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى قَبَـضَ قَبْضَـةً مِـنْ طِـين، فَخَلَطَـهَا بيَمِينـهِ ـ وَ كِلْتَـا يَدَيْهِ يَمِينٌ ـ فَخَلَقَ مِنْهَا آدَمَ؛ وَ فَضُلَتْ فُضْلَةٌ مِنَ الطِّينِ فَخَلَقَ مِنْهَا حَوَّاءَ .

و روى الصدوق عن عمـرو مثلـه. و هنـاك روايـات أُخـرى تـدلّ علـى أنّها خلقت مـن خَلْـف آدم و هـو أقصـر أضلاعـه مـن الجـانب الايسـر؛ و كـذا ورد فى التوراة فى الفصل الثانى من سفر التكوين .

و هـذا المعـنى و إن لم يسـتلزم فى نفسـه محـالاً إلاّ إنّ الآيـات القرآنيّـة خالية عن الدلالة عليها كما تقدّم .[1]

أمّا أنّ آدم قد خُلِق من الطين لا من الاجنـاس الأُخـرى الـتى كـانت قبـل آدم فهو صريح الآية القرآنيّـة :إِنَّ مَثَـلَ عِيسَـى عِنـدَ اللَـهِ كَمَثَـلِ ءَادَمَ خَلَقَـهُ ۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ و كُن فَيَكُونُ .[2]

لـذا فحـين وصـل صـدى نظريّـة داروين المخالفـة للقـرآن الكـريم إلى الممالك الإسلاميّة و وصل تركيـا (آسـيا الوسـطى» و مصـر و العـراق و إيـران ، فقد انبرى العلمـاء الكبـار فـألّفوا المؤلّفـات لردّهـا، و مـن بينـهم العـالم الكبـير وا لمجتهد و الفيلسـوف الخبـير آيـة اللـه المعظّـم أبـو المجـد الشـيخ محمّـد رضـا الاصـفهانىّ ابـن آيـة اللـه الخـبير و العـارف البصـير الشـيخ محمّـد حسـين

---

١ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٤، ص ١٥٦، ضمن بحث روائىّ.

٢ ـ الآية ٥٩، من السورة ٣: آل عمران.

مسجد شاهى [١] ابن آية اللـــه الاعظـم الشـيخ محمّـد تقـىّ الاصفـهانىّ صـاحب الحاشـية علـى المعـــالم باســـم «هدايـــة المسترشـــدين»، و هـــو أخ صـــاحب «الفصـول» الشـيخ محمّـد حسـين؛ فقـد كتـب ردّاً جامعـاً فى جزءيـن بالعربيّـة ، طبعه و نشره سنة ١٣٣١ هجريّة و قد طبع هـــذا الكتـاب و اسمـه «نفقـد فلسـفة داروين» فى نفس السنة فى مطبعة الولاية ببغداد . [٢]

---

١ ـ لقـد كـان الشـيخ حسـين مسـجد شـــاهى بعـــد إلكمالـــه الدراســـة فى النجـــف الاشـــرف و نيلـه درجـة الاجتـهاد العاليـة و رجوعـه إلى أصفـهان معـــدوداً فى الطـــراز الاوّل لعلمـــاء أصفـــهان ، بـل فى مقدّمتـهم، و كـان مجلـس درسـه فاتحـــة تشـــكيل الحـــوزة هنـــاك؛ ثمّ برقـــت فى قلبـــه بارقـــة غيبيّـة، وهـبّ النسـيم الملكـــوتىّ! المنعـــش علـــى روحـــه، فغـــرق فى التفكـــير فيمـــا ســـتؤول إليـــه عاقبة هذه الرياسة المطلقة، فمـا الـذى سـيصير إليـه حالنـا نحـن الذيـن تزودّنـا مـن عرفـان اللـه زادنـا لـو انقضـى العمـر علـى هـذه الحـال فرحلنـا عـن الدنيـا صفـر الايـدىّ؟ و أيّـة خسـاة عظيمـة سـتكون نصيبنـا؟ مـع أنّـه كـان فى شـرخ الشـباب و فى أوّل عنفـوان غـرور الاءقبـال علـى الدنيـــا و مظاهرهـــا، فمـرض مـن هـذه الافكـار و سـقط فى فـراش المـرض و تعطّـل مجلـس الـــدرس و صـــلاة الجماعـــة ، و كـانت حالتـه تـزداد سـوءاً يومـاً بعـد آخـر، و كـان اصفـرار وجهـه محسوسـاً ملحوظـاً لمـن يـــراه، ثمّ شـدّ الرحـال بعـد ثلاثـة أشـهر إلى العتبـات العاليـات المقـدّسـة، و فُتحـت أمـام ناظريـه خـلال الطريـق نـافذة مـن عـالم الغيـب، و عـاد لـه بـاب المكاشـفات الروحيّـة، حتّـى وصـل النجـف الاشرف فأقام هناك.

و كان مشـغولاً هنـاك علـى الـدوام بالاذكـار و الاوراد و طـرق بـاب العرفـان؛ و كتـب تفسـيراً لسورة الفاتحة و قدر من سورة البقرة جرى طبعه فكان مفيداً جدّاً لاصحاب السلوك.

و قد قال لى آية اللـه السيّد عبدالهـادى الشـيرازىّ قـدّس اللـه نفسـه: كنـتُ كلّمـا قـرأت قـدراً مـن هـذا التفسـير ليـلاً أيّـام الدراسـة أحـسّ أنّـه يمنحـى حالـة لا أتمكّـن معـها مـن مطالعـة دروســـى حتّـى الصبـاح. و لم تطـل إقامتـه فى النجـف أكـثر مـن أشـهر سـتّة حيـث لبّـى دعـوة المحبـوب و المعشـوق المطلـق. و قـد كتـب ابـن أخيـه شـــرحاً لاحوالـــه جـــرى طبعـــه فى الصفحـــات الملحقـــة بالتفسير المذكور.

٢ ـ قال العلاّمة آغا بزرگ الطهرانىّ فى «الذريعة» ج ٢٤، ص ٢٧٧ :

« نقـــد فلسـفة داروين » : ردّ عـلى الفلســـفة الطبيعيّـــة لآقـــا رضـــا الاصفهـانىّ (١٢٨٧ إلى

و قد طبع أبو المجد الشیخ محمّد رضا کتابه باللغة العربیّة بسبب إقامته فی النجف الاشرف و کربلاء المقدّسة، ثمّ ترجم هذا الکتاب إلی الفارسیّة أیضاً . و لقد شرع المتشبّهون بالإفرنج و ذوو ربطات العنق [1] بإثارة الضجّة و الضوضاء بمجرّد نشر فرضیّة داروین، بلا أدنی تحقیق أو تأمّل ، و بلا مناقشة لصحّتها أو بطلانها ؛ و لانّ داروین کان إنجلیزیّاً و من علماء الطبیعة فقد أطلقوا علیه لقب الفیلسوف و بدأوا بشنّ هجوم ساخر ولاذع علی الدین و العقیدة فی الصحف و المدارس الثقافیّة الاستعماریّة، و یا لها من سخریة حین قالوا :

قصّة آدم و حوّا که دروغ است دروغ

نسل میمونم و از هر دو جهان آزادم [2]

۱۳۶۱) ابن محمّد حسین بن محمّد باقر بن محمّد تقی، ألّفه أوائل انتشار نظریّة داروین فی النشوء و الارتقاء فی إیران بشکل غیر صحیح معارض للدین فاعترض علیه الناقد من هذه الناحیة و أثبت فیه الواجب من دون الحاجة إلی الدور و التسلسل. فعارضه جمیل صدقی الزهاویّ الشاعر الادیب الفیلسوف، فکتب آقا رضا فی جوابه (القول الجمیل إلی صدیقیّ الجمیل)، و له أیضاً کتاب «نجعة المرتاد» المنشور.

۱ ـ ربطات العنق التی لها شکل الصلیب، و تدعی بالفارسیّة (چلیپا)؛ و لانّ استعمال الصلیب کان میزة خاصّة للنصاری فإنّ ارتداء محرّم فی الشریعة الاءسلامیّة، سواء علّق علی الصد أم علی العنق، و شدّ علی الید أم علی الخصر، و کذا الامر فی مختلف الاستعمالات فی غرفة الانسان أم فی بیته .

و قد ورد هذا التقلید منأُوربّا أوائل النهضة الدستوریّة فی إیران و قبلها بقلیل، حیث راج استعمال ربطات العنق بشکلیها الطویل و القصیر، و کان المتشبّهون بالاءفرنج یلبسونها فی أعناقهم عالمین بأمرها أو جاهلین، و استمرّ حتّی عصر الحکومة الاءسلامیّة فی إیران حیث بطل أمرها کلّیّاً و الحمد لله .

۲ ـ یقول: «إنّ قصّة آدم و حوّاء کذب، کذب محض، فمن نسل القرد أنا و حرٌّ فی کِلا العالَمین».

و لقد كان شِبْلى شُمَيِّل المِصْرِىّ، و هو مسيحىّ لبنانىّ سكن مصر، (ميلاده ١٨٥٣ م = ١٢٦٩ ه ، و وفاتَه ١٩١٧ م = ١٣٣٥ ه) من المادّيّين الملحدين فى ذلك العصر، و دكتوراً محقّقاً فى دنيا الطبّ، ينحو نحو الفلاسفة فى أحاديثه و كتاباته، و كان أيضاً من المعتقدين بهذه النظريّة و من مؤيّدى داروين المتعصّبين ، لكنّه خلافاً لداروين المؤمن باللّه كان ملحداً منكراً للّه سبحانه .

وُلد شبلى فى قرية كفر شيما فى لبنان، و أكمل دراسته فى الجامعة الامريكيّة، ثمّ أقام فىأُوروبّا مدّة سنة، عاد بعدها إلى مصر فاستوطنها، و سكن بداية الامر فى الإسكندريّة، ثمّ فى طنطا ، ثمّ اختار السكن فى القاهرة حيث وافته المنيّة إثر نوبة قلبيّة مفاجئة .

و كان شبلى شميّل يكتب مقالاته فى المجلاّت ، فكتب رسالة فى النشوء و الارتقاء و طبعها، ثمّ كتب رسالة باسم «مجموعة مقالات» كتبها فى الجرائد و المجلاّت و طبعت مستقلّة ، ثمّ طبع رسالة أُخرى باسم «آراء الدكتور شميّل»، و أُخرى باسم «شرح بوخنر [1] على مذهب داروين»، و رسائل أُخرى فى الطبّ (حاشية على كتب الطبّ القديمة) و غيرها؛ و كان يقول الشعر أحياناً لكنّه لم يكن شاعراً، و كان متمرّساً بالفرنسيّة حاذقاً لدرجة عُدَّ معها من الكتّاب بالفرنسيّة . [2]

و كان شبلى سميّل رجلاً صريح اللهجة عديم المحاباة و المجاملة ،

---

١ ـ بوخنر (Bochner، ١٨١٧ إلى ١٨٩٨ م) من شيوخ و أعلام المادّيّين و أتباع المذهب الطبيعىّ، و له كتاب باسم «المادّة و القوّة» ذكر كولبه صاحب كتاب «المدخل إلى الفلسفة» عنه تناقضات كثيرة.

٢ ـ كتاب «الاعلام».للزركلىّ، ج ٣، ص ٢٢٧؛ و كتاب «معجم المؤلّفين» لعمر رضا كحالة ، ج ، ص ٢٩٤.

فمع أنّه كان فی الاصل مسيحيّاً ثمّ صار من أتباع النظريّة الداروينيّة، ثمّ زاد على ذلك فصار ماديّاً؛ فهو فی الحقيقة داروينیّ و مادّیّ معاً (Materialist & Darwinist) ، يعنی أنّه من المجدّدين الذين عاشوا فی الغرب و تربّوا تربية أمريكيّة ، [1] و من المفكّرين المتعصّبين ؛ لكنّه فی نفس الوقت كان ينحنی إجلالاً و تواضعاً و خضوعاً لنبیّ الإسلام الاكرم . [2]

و لشميّل أبيات فی شأن الرسول الاكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم تستحقّ التأمّل :

دَعْ مِن مُحَمَّدَ فِی سَدَی قُرْآنه
مَا قَدْ نَحَاهُ لِلْحَمَةِ الغَايَاتِ
إنِّی وَ إنْ أكُ قَدْ كَفَرْتُ بدِينه
هَلْ أكْفُرَنّ بِمُحْكَمِ الآيَاتِ
أوْ مَا حَوَتْ فِی نَاصِعِ الألْفَاظِ مِنْ
حِكَمٍ وَادِعَ لِلْهَوی وَ عِظَاتِ

---

١ ـ يقول السيّد على أكبر البرقعیّ فی كتاب «راهنمای دانشوران» (= دليل العلماء) ج ٢، ص ٣٩ :

كان شبلی شميّل من أعلام الادب الشرقیّ و من أفاضل الكتّاب المسيحيّين، لكنّه لم يكن ملتزماً بالدين ، فسلك طريقاً يخالفه ، و دُعی بشيخ الملحدين المسيحيّين .

٢ ـ و لا ينفرد شبلی شميّل بهذا الامر، بل إنّ الكثير من العلماء و المؤلّفين الأُوروبيّين المنصفين الذين ألمّوا بالقرآن و أحاديث الرسول قد عَرَّفوا نبیّ الاءسلام على أنّه رجل المعنويّة الفذّ و البطل الاخلاقیّ العالميّ، كفولتير الشاعر الفرنسیّ المعروف، كما فی كتاب «الاءسلام فی نظر فولتير» تأليف الدكتور حديدی، و كتوماس كارليل الاءنجليزیّ فی كتاب «الابطال» و كإرنست رنان الفرنسیّ فی كتاب «حضارة الاءسلام» .

وَ شَرَائِعِ لَوْ أَنَّهُمْ عَقَلُوا بِهَا
مَا قُيِّدَ العُمْرَانُ بِالعَادَاتِ
نِعْمَ المُدَبِّرُ وَالحَكِيمُ وَ إِنَّهُ
رَبُّ الفَصَاحَةِ مُصْطَفى الكَلِمَاتِ
رَجُلُ الحِجَى رَجُلُ السِّيَاسَةِ وَالدُّهَى
بَطَلٌ حَلِيفُ النَّصْرِ وَ الغَارَاتِ
بِبَلاَغَةِ القُرْآنِ قَدْ غَلَبَ النُّهَى
وَ بِسَيْفِهِ أَنْهَى عَلَى الهَامَاتِ
مِنْ دُونِهِ الأَبْطَالُ مِنْ كُلِّ الوَرَى
مِنْ غَائِبٍ أَوْ حَاضِرٍ أَوْ آتٍ[1]

و يقول شميّل بشأن الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام :

الإمام عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب، عَظِيمُ العُظَمَاء ، نُسْخَةٌ مُفْرَدَةٌ لَمْ يَرَ لَهَا الشَّرْقُ وَ لاَ الغَرْبُ صُورَةً طِبْقَ الأَصْلِ ؛ لاَ قَدِيمَاً وَ لاَحَدِيثَاً .[2]

يقول صاحب كتاب « سيرى در أنديشة سياسى عرب» (=جولة مع سياسة العرب الفكريّة) : و لكنّنا من جهة أُخرى نجد فى الكثير من كتابات

---

١ ـ أورد السيّد حميد عنايت فى كتاب «سيرى در أنديشة سياسى عرب» (= جولة مع سياسة العرب الفكريّة) سبعاً من هذه الابيات عدا البيت الاوّل فى الهامش رقم ١، ص ٢٥٥ و ٢٥٦، و يقول كاتب الهوامش السيّد محمّد رضا حكيميّ إنّ هذه الابيات نقلت من كتاب «محمّد و القرآن» للشيخ كاظم آل نوح العراقيّ ، طبعة المطبعة العربيّة ببغداد ، ١٣٥٤ هـ ، صفحة ١٨١.

٢ـ «الاءمام عليّ صوت العدالة الاءنسانيّة» لجورج جرداق، دورة فى خمسة مجلّدات ، المجلّد الاوّل: «عليّ و حقوق الاءنسان» ص ٣٧.

شميّل إشارات على نزوعه إلى الدين، فنحن لا نعجب من كلامه فى الدفاع عن المسيحيّة باعتباره مسيحىّ الاصل ، لكنّ ما يدهشنا ثناؤه و مدحه لحقيقة التعاليم الإسلاميّة فى مقالة بعوان القرآن و العمران ردّ فيها على مقولة اللورد كرومر الحاكم الإنجليزىّ لمصر التى يتهجّم فيها على الإسلام .

و كان كرومر قد قال: «إنّ الإسلام لا يتلاءم بحكم ماهيّته مع التقدّم و الحضارة، لذا يجب البحث عن أساس تخلّف المسلمين فى الإسلام نفسه» .

و قد أثار كلام كرومر هذا حفيظة المصريّين و آثار غضبهم بشدّة ممّا دفع بالجرائد لنشر مقالات ضدّه. و قد جهد شميّل فى ردّه على كلام كرومر لان يشير إلى المماثلة بين الإسلام و المسيحيّة، فكتب يقول :

إنّ أغلب الاديان الكبيرة إنّما جاءت لتحرير الإنسان و نشر العدالة و المحبّة و المساواة بين الناس، فالإسلام و المسيحيّة كلاهما يسعى لتحقيق هذا الهدف .

فالإسلام يشارك المعدمين فى أموال ذوى النفوذ و الثروة ، و المسيحيّة تدعو الإنسان لنكران ذاته فى خدمته لاقرانه فى الإنسانيّة ، فالإسلام دين الجدّ و الاجتهاد و المسيحيّة دين البصيرة و النظر، لأنّهما يولى عنايته للمحسوسات و ثانيهما للمجرّدات ، لكن من العجائب أنّ الوضع قد انعكس، فأتباع الإسلام قد توقّفوا عن الجهد و السعى و التحرّك ، و أتباع المسيحيّة قد لزموا جانب الإفراط فى الحياة العمليّة .

و يستنتج شميّل من هذه النكتة أنّ حقيقة الاديان لا ترتبط بكيفيّة المدنيّة ـ أو حسب مقولته: بعمران مجمع أتباعها ـ و أنّ أُسلوب حياة أتباع الاديان لا يصحّ اعتبارها دوماً دليلاً على صواب عقائدهم الدينيّة أو بطلانها ، و الحال فإنّ الانتقادات التى يوجّهها كرومر للإسلام ترتبط بسلوك

المسلمين تأريخيّاً و ليس بالإسلام نفسه .[١]

نعم، لقد صار البحث على عدّة مراحل:

الاولى: أن نفترض صحّة فرضيّة داروين و نقول بأنّ أصل الإنسان من القرد، و أصل القرد من الحيوانات و الطبقات التى سبقته، و هكذا حتّى نصل إلى الحيوانات المائيّة و الموجودات ذوات الخليّة الواحدة .

فنقول إنّها كانت منشأ الحياد و بدايتها، ثمّ سارت حياتها فى طريق التكامل إثر تكامل المادّة حتّى وصلت إلى الحياة الفعليّة التى نشاهدها فى عالم البشريّة بصورته الحاليّة بعد مئات الملايين من الصسنين؛ فأىّ علاقة لهذا الامر بمقولة الماديّين الذين ينكرون وجود الله؟

إن كان أصل الإنسان من آدم فالخالق هو الله، سواء حصل ذلك فى ذلك الزمن السالف أم تدرّجاً من ذلك الزمن إلى زمننا الحالىّ؛ و إن كان أصل الإنسان قرداً و هلمّ جرّاً إلى الطبقات السابقة و الموجودات ذوات الخليّة الواحدة، فالخالق هو الله أيضاً، سواء فى ذلك الزمن، أم تدرّجاً من ذلك الزمن إلى زمننا، لانّ إشكال الماديّين إنّما ينحصر فى مُنشى الحياة و باعثها.

يقول الإلهيّون : إنّ المادّة عديمة الفهم و الشعور و لا يمكنها أن تنشى الحياة التى هى قوّة مسيطرة على المادّة، و أن تخضعها لقوّتها و تهيمن عليها و توجدها و تفنيها. فى حين يقول الماديّون: إنّ الحياة معلولة للمادّة و أثرها الطبيعىّ و الطبعىّ .

فماذا سيضير فى هذا النوع و النقاش إن كان مبدأ الحياة نفخ الخالق تعالى فى الحمأ المسنون ليكون مادّة نشأة آدم و زوجه ، أو كان من

---

١ ـ «سيرى در أنديشة سياسى عرب» ص ٥٠ و ٥١ .

الموجودات ذات الخليّة الواحدة النامية فى المستنقعات و المياه الآسنة؟!

لذا، فلا وجه لإسناد نزاع الإلهيّين و المادّيّين إلى فرضيّة الثبوت أو إلى نظريّة التكامل .

و الدليل المهمّ للإلهيّين ضدّ المادّيّين هو أنّ المادّة إن كانت منشأ الحياة فلن يتوجّب أن يسير العالم نحو التكامل، لانّه لا ينبغى لتكاثر الخلايا و الكائنات الاوّليّة ذات الخليّة الواحدة أن يسبّب تصاعد القوّة و حركة المادّة بنحو تصاعدىّ و هرمىّ باتّجاه القدرة و العلم و الحياة .

فإن انقسمت الخليّة الاوّليّة من وسطها نصفين، و انقسم نصفاها إلى نصفين، ثمّ صار الاربعة ثمانية و هكذا وصولاً إلى خلايا بدن الإنسان التى تعدّ بالمليارات، فينبغى لبدن الإنسان بهذا الهيكل و الضخامة أن يكون تمثالاً كبيراً ليس إلاّ. إذ مِن أين تؤتى له هذه القدرة والعظمة، و هذا الشعور و الإدراك، و خلايا الكلية و القلب و الكبد، و هذا الترابط و العلاقات المدهشة العجيبة، و هذا التوحّد و التكاتف المحيّر الذى يربط خليّة من خلايا العين بخليّة من خلايا ظفر القدم، و يجعل هذه المليارات من موادّ الخلايا المنفصلة الثقلية الكثيفة واحداً، و يعطيها الخفّة و يحرّكها بإرادة واحدة؟!

فخليّة واحدة تضاف إلى مائة مليار خليّة ستساوى مائة مليار خلية و خليّة واحدة، و من الخطأ أن نقول إنّها ستساوى نفسَ و قدرةَ و علم و حياة إنسان، و شخص ذى إرادة و اختيرا يحرّك مليارات الخلايا هذه و ينقلها من مكان الآخر.

و بناء على هذا، فلا علاقة لفرضيّة داروين مع نظريّة المادّيّين، و أنّ محاولة المادّيّن الاستفادة منها ليس إلاّ مغالطة فى فنّ الحكمة و المنطق ، و أنّ الصراخ و الضجيج لن يمكنه صياغة قواعد برهان تقوم على المقاييس

الصحيحة.

الثانية: أنّ فرضيّة داروين لم تنتِه بعدُ، فهى لا تزال فى طور الفرضيّة و لم تأتِ كقانون و قاعدة. فقد وضع داروين فرضيّته فى الانتخاب الطبيعىّ الحاصل على إثر تنازع الموجودات الحيّة على البقاء فى محيط البيئة ، لانعدام الغذاء و مستلزمات المعيشة و صغر المحيط اللازم لاستمرار حياتها .

و لم تحظَ هذه الفرضيّة بالقبول، بل كانت مورد انتقاد و إشكال علماء الطبيعة و خبراء علم البيئة و الحياة بشكل جعل داروين نفسه يتراجع فى حياته فيعتبر بعض الاشياء الاُخرى من بين العوامل المؤثّرة فى التكامل و التطوّر .

الثالثة : أنّ رجوع نسل البشر إلى القرد إنّما هو فرضيّة داروين و ليس فرضيّة علماء الطبيعة، فداروين قد اعتبر القرد الرابط بين البشر و الحلقات السابقة، و ذكر أدلّة على هذا المعنى، لكنّها لم تكن مقنعة لعلماءء علم الحياة و البيئة، فاعتبروها أدلّة غير صحيحة و قالوا لذلك ب الحلقة المفقودة، أى لا يمكن للقرد أن يكون حلقة الوصل، تلك الحلقة التى ظلّت مجهولة لدينا حتّى اليوم .

و لانّ آثار الحفريّات الارضيّة من الفسائل و غيرها لم تكن ذات جدوى فى إيضاح الامر، فإنّ علينا حسب نظريّة التكامل أن نقول إنّ حلقة الوصل كانت موجودة فى هذا العالم ثمّ فُقدت و فقد أثرها؛ أمّا ماهيّة تلك الحلقة، و أىّ حيوان كانت، و بأىّ صفات اتّصفت، فإنّ هذا ممّا لم يعرفه أحد و لم يدّعِ الشهادة عليه أحد .

لذا، فلا يمكن لعلماء البئية أبداً تقديم نظريّة التكامل على أنّها مسألة علميّة، ما لم يكتشفوا حلقة الوصل هذه و يثبتوا أنّها كانت الحلقة الرابطة بين البشر و سائر الطبقات ، فما هو موجود حاليّاً إنّما يمثّل فرضيّة

فقـط، فرضیّـة یمکـن أن تتحـوّل إلی قـانون التکـامل التـامّ لـــو تمّـــت حلقـــة الوصل و تشخصّت .

الرابعـة: لـو کـانت حلقـة الوصـل الرابطـة موجـودة، فـلا یمکـن إثبـــات مسألة رجوع و انتهاء سلسلة نســل البشـر إلی طبقـات الحیوانـات السـابقة، لانّ إثبـات سلسـلة النسـب لتلـك الموجـودات ذات الخلیّـــة الواحـــدة وفـــق رأی و نظریّـة المـادّیّین القـائلین بعـدم وجـود اللـــه العـالم القدیـــر الحـــیّ المـــهیمن بإرادته الفعلیّة علی جمیع العالم و تدبیره و تسییره کان تامّاً من قبل .

أمّا وفق نظریّـــة و فلسـفة الإلهیّـین فـإنّ ذلـك الإثبـات لـن یتـمّ، لانّـهم یقولون بأنّ اللـه العلیم القادر الحـیّ الخـالق قـد أوجـد العـالم بإرادتـه و یسـیّره الآن و یدیره بحیاته و علمه و قدرته و تدبیره .

و فی هذه الحالة فـإنّ جمیـع التغیـیرات فی العـالم ، مـا کـان منـها بحسـب الاسـباب الظاهریّیـة، کحرکـة الشـمس و القمـر ، و حـدوث الفصـول المختلفـة، و هطـول المطـر مـن السـماء، و نمـوّ الاشـجار الخضـراء و الاعشـاب والحبـوب و غیرها؛ أو ما لم یکن بحســب الاسـباب الظاهریّـة، کانشـقاق القمـر[1] ، و تکلّـم عیسـی علیـه السـلام عنـد ولادتـه ، [2] و إحیائـــه المـــوتی و إبرائـــه الاکمـــه و الابرص ، [3] ـ الذی عجـزت دنیا العلـم عن معـالجته ـ ثمّ ضرب الحجر بالعصا

---

١ ـ الآیـات ١ إلی ٣، مـن السـورة ٥٤: القمـر. اقْـتَرَبَتِ السَّـاعَةُ وَانشَـقَّ الْقَمَـــرُ * وَإِن یَـــرَوْا ءَایَةً یُعْرِضُوا وَ یَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَ کَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَ کُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ.

٢ ـ الآیـة ٢٤، مـن السـورة ١٩: مـریم: فَنَـادَی'هَـا مِـن تَحْتِـهَا أَلاَّ تَحْزَنِـی قَـدْ جَعَـلَ رَبُّـكِ تَحْتَكِ سَرِیًّا.

٣ ـ الآیـة ١١٠، مـن السـورة ٥: المـائدة: وَ إِذْ تَخْلُـقُ مِـنَ الطِّـین کَهَیْئَـةِ الطَّـیْرُ بِـإِذْنِی فَتَنفُـخُ فِیهَا فَتَکُونُ طَیْرًا بِإِذْنِی وَ تُبْرِی ُ الأَکْمَهَ وَ الأَبْرَصَ بِإِذْنِی وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَی بِإِذْنِی .

لتنفجر العيون المتدفّقة منه ، [١] و العبور من نهر النيل و انفراجه عن طريق يابس لعبور موسى و قومه ثمّ انضمامه على فرعون و قومه و إغراقهم جميعاً ، [٢] و إراءة اليد البيضاء ، [٣] و كذلك سائر المعجزات و خوارق العادات التى ظهرت و تظهر من الانبياء العظام والائمّة الكرام و سائر أولياء الحقّ ذوى العزّة وا لاحترام ، كلّها جميعاً كانت من الله وحده لا إله سواه .

فالاسباب الظاهريّة التى قيل عنها: أَبَى اللَهُ أَنْ يُجْرِى الأُمُورَ إلاَّ بأَسْبَابِهَا، بيَدِ اللَه، فهو نفسه مسبّب الاسباب، أى المهَيّى لدواعيها وَ أسبابَها؛ لَا أن يكون سبحانه محكوماً و مغلوباً لسبب، فيعجز عن الإتيان بشيء إلاّ عن سببه الخاصّ، فهذه عقيدة مخالفة للتوحيد تماماً. فما الذى يضير الخالق فى هذه الحال أن يخلق أحداً عن طريق التوالد و التناسل أو عن طريق آخر كما فعل مع آدم و عيسى ابن مريم عليهما السلام؟ فالكلّ هو معجز، خَلْقُ الطفل عن طريق الاستيلاد، و نفخ الروح بواسطة جبرائيل فى بطن مريم، أم بواسطة إرادته القاهرة فى طين آدم، كلّها عنده على حدٍّ سواء، فلا فرق بينها صعوبة أو سهولة، و هى كلّها على وتيرة واحدة، و أُسلوب و سُنّة واحدة، و لو بدت عند المحجوبين بمظاهر مختلفة.

و نسأل القائلين بفرضيّة التكامل: ما تقولون فى ناقد صالح التى خرجت من الجبل و خُلقت فى آنٍ واحد؟ أكان لديها أب و أُمّ فوُجدت عن

١ـ الآية ١٦٠، من السورة ٧ : الاعراف : وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى' إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ و أَنِ اضْرِب بعَصَاكَ الْحَجَرَ فَأَنبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا.

٢ـ الآية ٥٠، من السورة ٢: البقرة: وَ إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَ أَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَ أَنتُمْ تَنظُرُونَ.

٣ ـ الآية ٢٢، من السورة ٢٠: طه: وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَى .

طريق التناسل لتضطرّوا فى نسبتها إلى خلايا المياه الآسنة؟!

و ما تقولون فى انبعـاث عصـا موسـى ثعبانـاً يتعقّـب فرعـون و جنـده ؟ أكان لها هى الأُخـرى أب و أُمّ فجـاءت عـن طريـق التناسـل ليتوجّـب عليكـم أن ترجعوها إلى ذوى الخليّة الواحدة؟!

إنّ واقـع الامـر و حقيقتـه هـى أنّ القـائلين بالتكـامل بهـذا الشـكل لا يختلفـون عـن المـاديّين، فـأُولئك ينكـرون اللـه لفظـاً، و هـؤلاء ينكرونـه معنى، فيسقطون البارى من أثره و يهبطون به عن عرش عظمته .

فالقول بإلـه لا يمكنـه الفكـاك مـن نظـام المـادّة و آثـاره و لوازمـه الـتى لا ينفكّ عنها، والعاجز عن تجـاوز هـذا كلّـه، هـو نفـس معـنى و مفـهوم أصالـة المـادّة و أُلوهيّتـها الـتى تقـول بهـا المـاديّون، فالمـاديّون لا يقولـون غـير أنّ المـادّة الازليّـة قـد تحرّكـت فى نظامـها الصحيـح المتقـن فـأوجدت هـذا العـالم البديع المدهش، و هو عين كلام الذيـن يعتـبرون اللـه مُجـبراً محبوسـاً فى إطـار المادّة و أعمالها .

إنّ دين التوحيد يدعـو الإنسـان إلى اللـه المريـد المختـار الـذى يخضـع جميع نظام المادّة تحت سلطته و اقتـداره و علـى أسـاس علمـه و قدرتـه ، القـادر بإرادته على خلق العالم من جديد أو هدمه و تخريبه .

لكـنّ البعـض يـأتى فيـؤوّل الآيـات القرآنيّـة النازلـة بشـأن معجـزات الرسل الإلهيّين، و يفسّر الشيطان بالجرثومة!

أفأجبرتم أن تقولوا شعراً فتعجزوا عن إكمال قافيته؟!

أفكنتم مجبرين على كتابة التفسـير، لتـأتور فتفسّـروا بذوقكـم و رأيكـم و مزاجكم بـلا قرينـد أو شـاهد خـارجىّ، و تفسّـروا معجـزات الانبيـاء كإحيـاء إبراهيم عليه السلام الطير و غيرها برأيكم و وفق نظركم ؟

أىّ جـواب لديكـم إذا اسـتوقفكـم اللـه يـوم القيامـة فسألكم : أىّ دليل

غُـرتم علـى كتـابى و عـددّتم معـانٍ سـخيفد كـهذه علـى أنّـها معـــانى آيـــاتى الكريمة؟!

نحن لا نقول بعدم إمكان أمر التكـامل و سُـنّته، بـل بإمكـان ذلـك، لكـنّ الفاعل يبقى ـ فى حال تحقّقها و صدقها ـ هو اللـه سبحانه.

نحن نقول: إنّ حصر قدرة اللـه تعـالى و تحديدهـا فى سـنة التكـامل أمـر خاطى، فاللـه سبحانه يمكنـه أن ينشـى عليـس فى بطـن أُمّـه بـلا أب، و يخلـق آدم و حوّاء من الطـين، و يمكنـه كذلـك أن يوجـد ذلـك عـن طريـق التكـامل ، فكلا الامرين لديه سواء.

و الحال هذه فإن رأيتـم الإمـام عليـه السـلام يشـير بإرادتـه إلى صـورة أسد على الستارة فيصنع منـها أسـداً مفترسـاً و هيكـلاً غاضبـاً خارجيّـاً يـهجم علـى هـارون و المـأمون، فـلا تقولـوا إنّ هـذه الروايـات ضعيفـة لاتّنـالم نعـثر فى علـوم الحيـاة مـن مقارنـة الفسـائل، و فى حـالات علـم الاجنّـة و التشـريح التطبيقـىّ علـى أسـد ترجـع سلسـلة نسـبه إلى ذوى الخليّـة الواحـــدة للميـــاه الآسنة .

فكلّ الإشـكالات أيّـها العزيـز إنّمـا تكمـن فى إرادتـك حصـر و تحديـد قدرة اللـه تحت اسم السنّة السنيّة و النـهج التكـاملىّ العجيـب المدهـش، فتشـيح بوجهك عن قدرة اللـــه و تتبـع مدرسـة المـادّيّين الـتى يشـكّل غالبيّتـها علمـاء الحياة و الطبيعة العالميّين، و تـردّد نفـس كلامـهم: لا مفـرّ أبـداً مـن هـذه السـنّة و النظام الذى حدّدناه و شخّصناه، فمن أراد الهرب بأىّ شـكل مـن هـذه العلـوم فإنّه سيُجبر على السقوط فى أحضانها مرّة أُخـرى؛ فـهذه كـلام خـاطى و منطـق مغلوط، واللـه سبحانه يخلق و يفنى بإرادتـــه القـاهرة كـلّ آن ثمانيـة عشـر ألـف عالم، بل ملايين العوالم؛ أفيعجـز سـبحانه بعـد هـذا عـن خلـق آدم مـن الطـين ، هذا الخلق الذى وجده السيّد داروين غير مستساغ فى مذاقه؟!

و علينا والحال هذه أن نتبع الدليل الإثباتىّ بعد إمكان الدليل الثبوتىّ فنقول: لو وُجدت الحلقة المفقودة أيضاً، و أثبت علماء علما لحياة بشكل قاطع (كما فى ٢×٢ = ٤) أنّ حلقة كانت قبل الإنسان يمكن إثبات سلسلة نسل البشر بواسطتها إلى الحلقات السابقة؛ فكيف يمكن أن نعلم أنّ خلق آدم كان من سلسلة التوالد و التناسل القديم أم من نفخ روح الله فى الطين ، بعد أن قلنا و أثبتنا أن كلام الطريقين ممكن؟

فيمكن للناقة أن توجد عن طَريق الولادة من حيوانين ذكر و أُنثى ، و يمكن أن توجد وتكوّن بإرادة و إعجاز صالح النبىّ فتخرج و تتكوّن من الجبل.

هذان الطريقان لا يفترقان من وجهة نظر الحكمة المتعالية والفلسفة التوحيديّة، فكيف يتسنّى لنا أن نقول: إنّ هذه الناقة١٤٣ ليست من الجبل ، و إنّها لم تكن معجزة، و إنّها ولدت حتماً بطريق الولادة الطبيعيّة؟

هنا يظهر الفارق بين المنكر و المؤمن؛ و الكافر والموحّد؛ و الملتزم و المتهوّر؛ فمن أصغى السمع لكلام النبىّ صالح فعدّها ناقة الله ، [1] فهو موحّد حسن العاقبة؛ و من كذّب كلامه فعدّها فى سائر النوق فهو مشرك و عاص يتنظر العذاب الإلهىّ .

لقد كان كلامنا فى افتراض وجود الحلقة المفقودة و إثبات انحدار نسل البشر إلى الطبقات السابقة و الحيوانات القديمد، حيث إنّ هذه الإثبات يبقى فى دائرة الإمكان لا الوقوع الخارجىّ ، لانّ هناك طريقاً آخر يقابل

١ ـ الآية ٧٣، من السورة ٧ : الاعراف: وَ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ و قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِى أَرْضِ اللَهِ وَ لاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

هـذا الطريـق المنتـهى بسلسـلة الاعقـاب السـالفة قبـل الإنسـان، و هـو طريـق ممكن الوجود من وجهة نظـر البحـث و الدراسـة القديمـة، و هـو حـدوث بدايـة نسل البشر مـن آدم و زوجـه عـن طريـق تحقّـق الإرادة القـاهرة للـربّ القديـر العليم دفعة واحدة بنحو بناء وجودهما مـن الـتراب، بـلا تغـيّر مـن نـوع لآخـر. و مادام هذا الطريق ممكناً غير مُغلق فـإنّ التقيّـد و الالـتزام بوجـود آدم و حـوّاء بداية سلسلة نسل بنى آدم مـن أطـوار الانـواع الماضيـة، سـيبقى أمـراً لا معـنى له .

فطبقاً للاُصول العلميّـة مـن جهـة، و لتصريـح الآيـة القرآنيّـة مـن جهـة أُخـرى ، [1] بـأنّ جميـع سلسـلة البشـر الموجوديـن حاليّـاً علـى سـطح الكـرة الارضيّة يرجعـون إلى رجـل واحـد و امـرأة واحـدة، لا دخـل فى بـدء نسـلهما الاوّلىّ لسـائر الموجـودات مـن ملائكـة أو جـنّ أو حيوانـات ، إذاً ينبغـى القـول بأنّـه لـوا اكتملـت أدلّـة علمـاء الحيـاة، و علـى فـرض وجـود الحلقـة المفقـودة ، فيمكـن لتلـك السلسـلة مـن الإنسـان أو الموجـودات الـتى وُجـدت بعـد الحلقـة الاخـيرة أن تكـون قـد فنيـت و انقرضـت بواسـطة الحـوادث الخارجيّـة الـتى وُجـدت فى الارض طـوال مئـات الملايـين مـن السـنين ، مـن براكين و سيول و طوفانات و زلازل عالميّـة و أمثالهـا الـتى تحقّـق أحـد نظائرهـا و أمثلتها فى طوفان نـوح فـأُغرق جميـع البشـر علـى سـطح الارض عـدا نـوح و نسـله؛ و أنّ هـذه السلسـلة البشـريّة مـن بـنى آدم، المنتـهين إلى آدم و حـوّاء قد وُجدت دفعة واحدة بأمر اللـه؛ أو إذا كان هناك زمـن و تـدرّج لخلقـهم مـن التـراب ، فمـن المسـلّم أنّهـم لم يجيئـوا مـن حيـوان آخـر علـى نحـو التوالـد

١ ـ الآيـة ١، مـن السـورة ٤: النسـاء: يَـا'أَيُّـهَا الـنَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُـمُ الَّـذِى خَلَقَكُـم مِّـن نَّفْـسٍ وَاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَ نِسَآءً.

و التناسل .

و لا دليل لدينا لإبطال إمكان الوجود هذا (لا الوجود نفسه) ، سواء فى الفلسفة الكليّة أم فى علم الحياة، و إذا ما كان لدى علماء الحياة ما يقولونه خلاف هذا فليدلو بدلوهم !

يقول الشيخ الرئيس ابن سينا : كُلُّ مَا قَرَعَ سَمْعَكَ مِنَ الغَرَائِبِ فَذَرْهُ فِى بُقْعَةِ الإمكَانِ مَا لَمْ يَذُدْكَ عَنْهُ قَائِمُ البُرْهَانِ . [1]

و يقول فى آخر «الإشارات»:

إيَّاكَ أَن يَكُونَ تَكَيُّسُكَ وَ تَبَرُّؤُكَ عَن العَامَّةِ، هُوَ أَنْ تَنْبَرِىَ مُنْكِراً لِكُلِّ شَىْءٍ. فَذَلِكَ طَيْشٌ وَ عَجْزٌ. وَ لَيْسَ الخَرْقُ فِى تَكْذِيبِكَ مَا لَمْ يَسْتَبِنْ لَكَ بَعْدَ جَلِيَّتُهُ،دُونَ الْخَرْقِ فِى تَصْدِيقِكَ مَا لَمْ تَقُمْ بَيْنَ يَدَيْكَ بَيِّنَةٌ!بَلْ عَلَيْكَ الاعْتِصَامُ بحَبْلِ التَّوَقُّفِ .

وَإِنْ أَزْعَجَكَ اسْتِنْكَارُ مَا يُوعَاهُ سَمْعَكَ، مَا لَمْ تَتَبَرْهَن اسْتِحَالَتُهُ لَكَ ؛ فَالصَّوَابُ أن تَسْرَحَ أَمْثَالَ ذَلِكَ إِلَى بُقْعَةِ الإِمْكَانِ،مَا لَمْ يَذُدْكَ عَنْهُ قَائِمُ الْبُرْهَانِ [2].

---

١ ـ و هذه هى عبارة الشيخ المعروفة التى نقلت فى الكثير من كتبه، و المراد بالامكان هنا الامكان العقلىّ لا الاءمكان الذاتىّ . قال الحكيم السبزوارىّ فى «شرح المنظومة» ص ٤٦ ، طبعة ناصرى ، ضمن «شرح غرر» (المعدوم لا يُعاد بعينه) : و معنى الاءمكان هنا خلاف الاعتقاد الجازم أى الاحتمال، كما يقال: ذَرْ فِى بقعة الاءمكان ما (موصولة) لم يَذُدده (أى لم يدفعه) قائمُ البرهان إشارة إلى دليل إقناع آخر و هو أنّ الاصل فيما لا دليل على امتناعه أو وجوبه هو الاءمكان، كما قال الحكماء: كلّ ما قرع سمعك من الغرائب فذره فى بقعة الامكان ما لم يذدك عنه قائم البرهان .

٢ الإشارات الطبعة الحجرية ، الصفحة الأخيرة ؛ و فى طبعة مصر الجديدة ، ج ٤، ص ١٥٩ و ١٦٠.

كان هذا دليلنا للإمكان الثبوتيّ لخلق آدم و حوّاء بدون أن يكون لهما أب و أُمّ من الطبقة السابقة .

أمّا دليلنا الإثباتيّ فى تحقّق هذا الإمكان فهو القرآن الكريم، حيث إنّ آياته لها ظهور قريب من النصّ فى الدلالة على هذه الحقيقة؛ كالآية المباركة:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللـه كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ و مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ و كُن فَيَكُونُ.[١]

فهذه الآية صريحة فى الدلالة على خلق آدم من التراب، و تشبّه خلق عيسى فى ولادته الإعجازيّة بلا أب بخلق آدم الإعجازىّ من التراب بمجرّد كلمة كُن الصادرة من ربّ العزّة.

أى لا دلالة لألُوهيّة عيسى لمجرّد أنّ خَلْقَه فى بطن أُمّه مريم دون أن يمسّها بشر، فهو و أبوه آدم قد خُلقا من غير أب؛ و إذا كان فقدان الاب لعيسى دليلاً على أُلُوهيّته، فعليكم أن تقولوا بأُلوهيّة آدم المخلوق من التراب وحده بلا أب و بلاأُمّ أيضاً. لكنّكم لم تقولوا و لن تقولوا بأُلوهية آدم، فيجب إذاً أن لا تقولوا ذلك فى عيسى أيضاً .

و قد تحدّثت الآيات التى سبقت هذه الآية مفصّلاً عن بشارة الملائكة لمريم بأنّ الله يهبها كلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا و الآخرة و من المقرّبين، يكلّم الناس فى المهد و كهلاً و من الصالحين؛ فتتساءل مريم: يا إلهى! أنّى يكون لى غلام و لم يمسسنى بشر؟

فيردّ سبحانه: كذلك! إنّ الله يخلق ما يشاء، إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون!

---

١ ـ الآية ٥٩، من السورة ٣: آل عمران.

ثمّ يعدّد القرآن هنا معجزات عيسى على نبيّنا و آله و عليه الصلاة و السلام واحدة واحدة، ثمّ يخاطب نصارى نجران الذين ادّعوا أُلوهيّة عيسى فيقول بعد الآية السالفة :

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَ أَبْنَآءَكُمْ وَ نِسَآءَنَا وَ نِسَآءَكُمْ وَ أَنفُسَنَا وَ أَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَـٰذِبِينَ .[1]

أى أنّه نفى ادّعاءهم فى عيسى و حذّرهم و دعاهم إلى المباهلة و الملاعنة مبيّناً بإجمال ما سبق أن أوضحه مفصّلاً من الخلق الإعجازىّ لعيسى، الشبيه بخلق آدم، و ذلك ليتمّ الحجّة عليهم بعد فقدانهم الحجّة و البرهان فى ردّهم، و على هذا فسيكون معنى الآية: أنّ كيفيّة خلق عيسى هى نظير كيفيّة خلق آدم، فقد جُمعت أجزاؤه من التراب، ثمّ قال لها : كُن فَتَكوّنت بشراً كاملاً بلا أب .

و ينقسم هذا البيان إلى حجّتين ، تكفى كلٌّ منهما لوحدها لنفى أُلوهيّة المسيح :

الأُولى : أنّ عيسى مخلوقٌ للّه، خَلَقَهُ بهيئة البشر و إن كان بلا أب ، و من كانت حاله هكذا فهو عبدٌ للّه، و ليس إلهاً .

الثانية: أنّ خلق المسيح لا يزيد شيئا عن خلق آدم ، فإن اقتضت سنخيّة خلقته أن يقال بأُلوهيّته، لَوَجَب أن يكون هذا الداعى و المقتضى فى خلقة آدم كذلك؛ فى حين أنّ النصارى لم يكونوا ليعتقدوا فى آدم هذا الاعتقاد، لذا فإنّ عليهم، للمماثلة و المشابهة بين الحالتين ـ أن يكفّوا عن عقيدتهم هذه فى عيسى.

---

١ ـ الآية ٦١ ، من السورة ٣ : آل عمران .

و نلحظ فى الآية: أنّ خلق عيسى كخلق آدم، و هو الخلق الطبيعىّ فى العالم، و لو أنّه خارق للسنّة الجارية فى النسل حيث يحتاج الطفل فى وجوده إلى أب.

و يستفاد من كلمة فَيَكُون إرادة الحكاية عن حال الماضى ؛ و لا منافاة بين هذه الجملة المضارعد مع كلمة كن الدالّة على عدم التدريج، لانّ جميع الموجودات ـ تدريجيّة الوجود كانت أم دفعيّة الوجود ـ هى مخلوقات الله سبحانه و قد تكوّنت بأمره، أى بنفس كلمة كُن، كما يقول سبحانه: إِنَّمِا أَمْرُهُ و إِذَاأَ رَادَ شَيئًاأَ ن يَقُولَ لَهُ و كَن فَيَكُونُ . [1]

و من الواضح أنّ التدريج يتحقّق فى الكثير من الاشياء تدريجيّة الوجود، قياساً و نسبةً لخصوص أسبابها التدريجيّة الحصول، و إلاّ فإنّ قسنا هذه الأُمور التدريجيّة بالبارى تعالى فى ذلك المقام الرفيع فلا مهلَة و لا تدريج ، كما يقول سبحانه :

وَ مَآ أُمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْح بِالْبَصَرْ . [2]

و استناداً إلى هذا البيان فَإنّ كلمة فيكون لا تختلف أبداً عن كلمة كان، فكمة كُنْ تدلّ على أنّ الله سبحانه لا يحتاج فى خلقه الاشياء إلى أسباب ليختلف عنده حال ما يريد خلقه؛ قياساً لذاته القدسيّة؛ بإمكان و استحالة و سهولة و صعوبة، و قرب و بُعد، لاختلاف الاسباب و العلل الدخيلة فى إيجاد ذلك الشيء .

فالشيء الذى يريد الله خلقه يقول له كُن فيصبح كان، أى أنّ وجوده الخارجىّ قد تحقّق بلا حاجة للاسباب العاديّة التى لها دخل فى وجوده .

---

١ ـ الآية ٨٢، من السورة ٣٦ : يس.

٢ ـ الآية ٥٠، من السورة ٥٤: القمر.

و هـذه الآيـة للجـهتين الآيتـين صريحـة فى خلقـة آدم أبى البشـر مـن الـتراب دفعـة واحـدة، و إعجـازاً بـدون العلاقـة التناسـليّة عـن طريـق الاب و الأُمّ .

الجهة الأُولى: من منظـار معـنى و مفـهوم نفـس الآيـة، لانّ وجـه تشـبيه عيسـى بـآدم فى هـذه الآيـة المباركـة ينحصـر فى جملـة خَلَقَـهُ و مِـن تُـرَابٍ ؛ و لانّنا نعلم أنّ عيسى لم يُخلـق دفعـة واحـدة مـن الـتراب، و أنّ اللـه لم يخلـق تماثلاً له ابتداءً ليتكوّن و يوجد بنفخ روحـه فيـه بكلمـة كُـنْ، بـل إنّ أُمّـه مـريم عليها السـلام قـد ولدتـه بطريقـة طبيعيّـة بـالحمل فى البطـن و بـألم المخـاض ؛ لذا، فمن المسلّم القطعىّ أن يكـون التشـبيه بـآدم فى خلقتـه الترابيّـة هـو الـلازم الاكيد للخلق من التراب دفعة، و هو فقدان الاب .

أى أنّ عيسـى يمـاثل أيضـاً فى هـذه الخلقـة الاسـتثنائيّة و الخلـق بـدون أب آدمَ الذى خُلق مـن تـراب بـلا أب، فقـد خُلقـا بـأمرٍ حتمـىّ و كلمـة كُـن فظهرا على مسرح الوجود .

الجهة الثانية: كـان احتجـاج و استشـهاد القـرآن بهـذه الآيـة فى معـرض الردّ على النصـارى المتوهّمـين فى عيسـى المولـود بـلا أب مرتبـة تفـوق مرتبـة البشريّة، و القائلين له بمرتبة تعادل الألُوهيّة .

و قـد انقسـم النصـارى وفـق الآيـات القرآنيّـة إلى ثـلاث فـرق، و هـى مرفوضة من وجهة نظر العقائد التوحيديّة :

الفرقـة الأُولى:أُولئـك القـائلون بـأنّ عيسـى المسـيح أحـد الأُصـول الثلاثة القديمة الاقانيم الثلاثة، فكانوا يظنّونـه ثَـالِثُ ثَلَـاثَـةٍ؛ كمـا تشـير الآيـة : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَهَ ثَالِثُ ثَلَـاثَةٍ . [1]

١ ـ الآية ٧٣، من السورة ٥: المائدة.

أىأُولئك القائلون بالأُصول القديمة الثلاثة، أوّلها الذات التى يعبّرون عنها ب الاب. و ثانيها: الحياة التى يعبّرون عنها بـرُوحُ القُدُس . و ثالثها : العِلم الذى يعبّرون عنه بـ الابن.

فكانوا يدعون كلاّ من هذه الأُصول الثلاثة ب الأُقْنُوم، الاب و الابن و روح القدس التى يعتبرونها الله و الاصل و القديم، و هم معروفون و مشهورون فى اعتقاداتهم باسم : الاب و الابن و روح القدس .

و يقول فى القرآن الكريم فى ردّهم و نهيهم :

وَ لاَ تَقُولُوا ثَلـٰثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ . [١]

الفرقة الثانية :أُولئك القائلون إنّ عيسى مريم هو الله نفسه؛ فيردّ القرآن عليهم : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . [٢]

والفرقة الثالثة: القائلون بأنّ المسيح ابن الله، كما يقول القرآن الكريم : وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَهِ وَ قَالَتِ النَّصَـٰرى الْمَسْيحُ ابْنُ اللَهِ . [٣]

و بناء على هذه الاعتقادات الثلاثة التى يعتقدها المسيحيّون فى عيسى فإنّهم ينقسمون إلى ثلاث طوائف : المَلكَائِيّة، و النَّسْطُورِيَّة، وَاليَعْقُوبِيَّةِ .

و لانّ هذه العقائد كفر بأجمعها وفق المنطق القرآنىّ ، و لانّ النصارى الذين يحملون أمثال هذه العقائد فى المسيح يستدلّون عليها بانعدام وجود أب له، فيقولون: إنّ جميع أفراد البشر يولدون من أب، لكنّ عيسى جاء إلى الدنيا بغير أب ، فمن الواضح أنّه ليس من سنخ البشر، بل هو من عالم

١ ـ الآية ١٧١، من السورة ٤: النساء.

٢ ـ الآية ١٧ و الآية ٧٢، من السورة ٥: المائدة.

٣ ـ الآية ٣٠، من السورة ٩: التوبة.

الربوبيّة و اللاهوت؛ فقد وجّه القرآن هذه الآية فى ردّ هذه الطائفة، ثمّ قال :

الْحَقُّ مِن ربِّكَ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ .[1]

ثمّ دعاهم القرآن بعد هذه الآية إلَى المباهلة و الملاعنة بآية :

فَمَن حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْم .

فيمكن الردّ بآية :إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَهِ كَمَثَل ءَادَمَ خَلَقَهُ و مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ و كُن فَيَكُونُ، على النصارى فى هذه الاحتجاج و الاستشهاد فيما إذا كان المراد من خلقه آدم من التراب فى هذا الوجه من المشابهة هو عدم ولادة آدم من أب. فيقول: إنّ عيسى و إن اختصّ بخلقه و تكوينه فى مجيئه إلى مسرح الظهور بلا.ب، لكنّ هذه التكوّن الخاصّ لا يستلزم ارتفاعه إلى مرتبة الأُلوهيّة و الربوبيّة، لانّ آدم أيضاً يماثله فى الخلق و الوجود الخاصّ و ولادته من التراب بلا أب و بلاأُمّ أيضاً، لذا فإنّ عليكم إمّا أن تقولوا بأُلوهيّة آدم أيضاً ـ فى حين أنّكم لا تفعلون ذلك ـ أو أن تقولوا ببشريّد عيسى .

لكنّ القائلين بتكامل الانواع و تطورّها، و المعتبرين آدم مولوداً من أب و أُمّ عن طريق التناسل يقولون فى شأن هذه الآية الكريمة :

إنّ المراد من خَلَقَهُ و مِن تُرَابٍ ليس الخلق الإعجازىّ لآم من تمثال من الطين على هيئة آدم، بل إنّ المراد هو أنّ أصل جميع الاشياء من التراب، فالاغذية و الاطعمة و اللحوم و الفواكه و الخضروات التى تسبّب تكوّن النطفة من التراب، لذا فإنّ خلقة آدم من التراب أيضاً، و أنّ الله يريد فى هذه الآية بيان هذا القدر فقط ؛ لأنّ عيسى بن مريم أيضاً قد خُلق من

---

١ ـ الآية ٦٠، من السوة ٣: آل عمران.

التراب على مثال آدم الذى كان من التراب .

و لقد كانت خلقة عيسى حسب المنوال الطبيعىّ و لم تكن خرقاً للعادة، فقد اتّضح من وجهة نظر علوم الحياة أنّ بعض النساء يقمن بإنتاج الحيا من و البويضات فى نفس الوقت .

فيريد أن يقول الله هنا إنّ خلقة عيسى لم تكن خارجة عن سير الطبيعة و العادة، مثل كآدم الذى وُجد من التراب بواسطة الاصل الكلّىّ للتوالد و التناسل.

و قالوا بشأن كلمة كُن فَيَكُونُ إنّ معناها أنّ الله قال لآدم صفوته : كن عالماً؟ أو كن نبيّاً! أو كن موجوداً منتخباً من بين الانواع! فكان هكذا، كما قال لعيسى: كن عالماً! و كن نبيّاً! و كن ذا معجزة! فَنادى أُمّه حين وُلد: أن ألاّ تحزنى قد جعل ربّك تحتك سريّاً .

و فى هذا التفسير إشكالان :

الإشكال الاوّل : إنّ وجه تشبيه عيسى بخصوص آدم أمر خاطى ، إذ بناء على هذا التفسير فى أنّ ترابيّة آدم من جهة أنّ أصله كان من مادّة التراب فإنّ جميع أفراد البشر هم من هذا القسم. و ينبغى على هذا أن يقول: إنّ مثل عيسى عندالله كمثل سائر الناس .

فالقرآن كلام الله، و قوله فصل ليس بالهزل ، فإنّه إن جاء و خصّص فى قوله آدم بهذا التشابه بالرغم من وجود الاشتراك فى وجه الشبه فى جميع بنى آدم و جميع الناس من زمن آدم إلى قيام القيامة، فلا يُحمل ذلك إلاّ على الطخأ و الاشتباه ، و لن يمكن تصوّر محمل آخر له .

و على هذا فإنّ تشبيه عيسى بآدم ، أى الاسم الخاصّ و العَلَم لرأس سلسلة نسل البشر ـ لا اسم الجنس كلفظ إنسان و بشر الذى يُطلق على جميع الافراد ـ لا يمكن أن يكون له وجه إلاّ الخصوصيّة التى كانت فى آدم

نفسه، لا فى سائر الافراد، و لا يمكن لتلك الخصوصيّة أن تكون غير خلقه الإعجازىّ من التراب بدون وساطة الأب .

الإشكال الثانى: كانت هذه الآية ـ كما هو الحال فى الآيات التى سبقتها و التى بعدها ذكرنا أيضاً مفهومها هنا ـ رداً على المسيحيّين الذين اعتقدوا لعيسى ـ من وجهة عدم وجود أب له ـ مرتبة أعلى من البشريّة و صعدوا به إلى عالم الأُلوهيّة، و فى هذه الحالة و بناء على هذا التفسير فلن يكون هناك ردّ عليهم .

فالمسيحيّون يقولون: بما أنّ المسيح يمتلك خلقاً استثنائيّاً ، و قد جاء ظهوره بدون أب، فهذا الظهور هو ظهور الله؛ و إذا ما قيل فى جوابهم إنّ خلقته عاديّة و غير استثنائيّة، و إنّه جاء كسائر بنى آدم بالطريق الطبيعىّ فإنّهم لن يقبلوا بذلك، أى أنّ هذا المنطق لن يغلق أمامهم طريق الاستدلال .

فمقولة المسيحيّين هى أنّ عيسى لا يشبه سائر أفراد البشر، لذا فهو إله ، و إذا ما قلنا فى جوابهم إنّه يشبه سائر أفراد البشر و هو ليس بدليل ، لانّه سيكون نفياً لادّعائهم بلا دليل، أى أنّه سيكون مصادرة بالمطلوب .

و يتّضح هنا أنّ ما جرت مناقشة فى كتاب «خلقت انسان» (= خلق الإنسان) حول هذه الآية، و ما سعى إليه المؤلّف، سواء فى متن الكتاب أو فى البحث و التوضيح الإضافىّ الذى أُلحق به، فى إسقاط هذه الآية من الظهور فى خلقة آدم من التراب بلا أب و بشكل إعجازىّ ، كان غير موفّق و غير تامّ .[1]

١ـ متن كتاب «خلقت انسان»، تأليف الدكتور يدالله سحابى، الفصل الثالث، ص ١٤٨ إلى ١٧٢، و لم يُعتنَ فى هذا البحث الطويل أبداً بالنكات الدقيقة التى جعلناها محور البحث ، و لم تذكر الملاحظات التى تفيد من وجه ما فى إثبات المطلب.

و الاعجب من هذا فقد ادّعى المؤلّف صراحة أنّ جميع الآيات القرآنيّة المتعلّقة بالخلقة من التراب وا لطين و أمثالهما ترجع إلى لفظ إنسان، و هو اسم عامّ، أمّا ما يخصّ آدم، أى الاسم الخاصّ، فليس لدينا أبداً فى القرآن آية ذات دلالة على أنّه خُلِق من التراب .[١]

و لست أدرى كيف تغافل عن عبارة كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ و مِن تُرَابٍ مع أنّه أورد الآية مورد البحث فى موضعين فى كتابه .[٢]

و يتّضح من هذا البيان أيضاً أنّ ما بُحث فى كتاب «تكامل در قرآن» (= التكامل فى القرآن) لتفسير عقيدة التكامل من هذه الآية ليس تامّاً ، فقد جاء فى هذا الكتاب: أنّ الآية المبحوث عنها هنا تكفى فى ردّهم و تخطئة أوهامهم بالإشارة إلى تشبيه عيسى بآدم، و مفادها أنّه كما خلق الله آدم من تراب ثمّ قال له كن، فكذلك خلق عيسى من تراب ثمّ قال له كن، فلو كان هذا النحو من الخلقة مقتضياً للألُوهيّة لكان آدم أيضاً إلهاً، بل كان كلّ من يشترك معه فى التكوّن من تراب إلهاً أيضاً ـ انتهى .[٣]

و ورد كذلك : أنّ المعتقدين بالتكامل يقولون أن لا إشكال فى مماثلة

و قد ذكر فى البحث و التوضيح الاءضافىّ ص ١٨٣ إلى ١٨٦، مطالباً خارجة عن فنّ المناظرة، لا تستقيم مع هدف البحث .

١ ـ كتاب «خلقت انسان» ، البحث و التوضيح الاضافىّ ص ١٨٠، يقول هنا :

لا يوجد فى القرآن مطلقاً آية أو جملة لها دلالة صريحة أو تلميحاً على الخلقة المباشرة و ظهور آدم و زوجه من التراب و الطين... فليس هناك تصريح كهذا يرجع إلى آدم الذى ذكر اسمه فى عدّة مواضع، (فمثلاً لم يقل: خلق آدم من الطين) ـ انتهى .

أو ليست جملة : كمثل آدم خلقه من تراب كجملة خلق آدم من طين؟! فافهم و تأمّل .

٢ ـ ص ١٠٧ و ١٤٨.

٣ ـ كتاب «تكامل در قرآن» بالفارسيّة، ص ٨ .

عيسى لآدم فى التكوّن من تراب و غذاء و نطفة و علقة إلى الولادة فما بعدها، و لا إشكال أيضاً فى أنّ الله قد وهب لعيسى العقل و العلم و الإدراك ، أو وهب تلك الاُمور مع النبوّة فى أوائل تولّده على نحو الإعجاز و الخرق لناموس التكوين، كما أعطى لآدم كذلك العقل أو العلم و النبوّة بنفس الطريقة، فوجه الشبه فى الآية هو المماثلة فى الخلقة و العلم، و معنى قوله كن أى كن عاقلاً عالماً أو عالماً نبيّاً ـ انتهى .[1]

و من جملة الآيات التى لها دلالة على أنّ مبدأ خلقة الإنسان (آدم) كان من الطين هذه الآيات الثلاث :

الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ و وَ بَدَأَ خَلْقَ الإنسَـٰنِ مِن طِين * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ و مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِين * ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الاْبْصَـٰرَ وَ الاْفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ .[2]

يقول فى «مجمع البيان»: السُّلاَلَةُ الصَّفْوَةُ الَّتِى تَنْسَلُ أَى تُنْزَعُ مِنْ غَيْرِهَا ، وَ يُسَمَّى مَاءُ الرَّجُل سُلاَلَةً لاَنسِلاَلِهِ مِنْ صُلْبِهِ .[3]

قال العلاّمة الطباطبائىّ قدّس الله سرّه: فى هذه الآية وَ بَدَأَ خَلْقَ الإنسَنِ مِن طِين، المراد بالإنسان النوع، فالمبدو خلقته من طين هو النوع الذى ينتهى أفراده إلى مَن خُلق من طين من غير تناسل من أب و أُمّ كآدم

---

١ ـ «تكامل در قرآن» ص ٥٦ .

٢ ـ الآيات ٧ إلى ٩، من السورة ٣٢: السجدة.

٣ ـ يقول فى «مجمع البحرين»: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الاْنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِين٤، يعنى آدم عليه السلام أُسلّ من طين. و يقال: سلّه من كلّ تربة. و مِن فى الموضعين للابتداء، و السلالة: الخُلاصة لانّها تُسَلُّ من الكدر. و يكنّى بها الولد. و السلالة: النطفة أو ما ينسلّ من الشىء القليل. و كذلك الفُعالة نحو الفُضالة و النُخامة و القُلامة و نحو ذلك، و سُلالة الوصيّين: أولادهم.

و زوجه عليهما السلام، و الدليل على ذلك قوله من بعده: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِين. فالنسل الولادة بانفصال المولود عن المولودين ، و المقابلة بين بدء الخلق و بين النسل لا يلائم كون المراد ببدء الخلق بدء خلق الإنسان المخلقو من ماء مهين، و لو كان المراد ذلك لكان حقّ الكلام أن يقال : ثُمَّ جَعَلَهُ سُلَالَةً مِن مَاءٍ مَهِين ، فَافْهَمْهُ .[1]

و كان مقصوده بهذا البيانَ: أنّ مجيء كلمة نسل هنا بشكل حتميّ تدلّ على مغايرة كيفيّة خلقة بدء الإنسان مع كيفيّة خلقة ذرّيّته و أولاده ، لذا لا يمكن اعتقاد بدء خلق الإنسان من نوع آخر بالتوالد والتناسل و النطفة التى هى سلالة من ماء مهين. و هو يردّ بهذا البيان على تفسى رو تعبير الذين يعتبرون البشر نوعاً مبتذلاً من أنواع أُخرى .

يقول الحقير: و مضافاً إلى ذلك و أكثر، فإنّ هذا البيان ردّ على الذين حملوا هذه الآية على مبدأ خلقة الإنسان و بقيّة الموجودات من الطين الاوّل، أى من تلك الخلايا و الموجودات ذوات الخليّة الواحدة .

و المراد بنسله عندهم نُطَفُ أنواع الحيوانات و الناس السابقين قبل ولادة آدم، و حملوا تسويته على خلقة الإنسان الكامل من جميع الجهات كآدم، التى اكتسب بها قابليّة السمع و البصر و الفؤاد و صار لائقاً لمقام العلم و المعرفة و شكر الخالق .

يقولون : إنّ هذه الآيات الثلاث تبيّن بالترتيب ثلاث دورات مختلفة لنشوء الإنسان :

الدورة الأُولى : حين كان الإنسان طيناً ، و لم تكن الموجودات ذوات الخلايا الواحدة قد ظهرت : وَ بَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ .

---

١ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٦، ص ٢٦٣.

الدورة الثانية: حين نشأت الخلايا و بدأت بالتكاثر، فظهرت أنواع بعد أنوع أُخرى بالتكاثر فى النسل : ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ و مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَآءٍ مَّهِينٍ . أى أنواع النطف ، إذ من غير ذوى الخلايا الواحدة فإنّ الجميع يحتَاجٍ فى تكاثره إلى ذكر و أُنثى و فعل و انفعال .

الدورة الثالثة: تسوية الإنسان الكامل و منحه من بين جميع طبقات الحيوانات السابقة هيكلاً بدنيّاً قابلاً من الناحية الفسلجيّة للاعضاء السمعيّة و البصريّة و القوى الفكريّة .

ثُمَّ سَوَّيٰهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ .[1]

أقول : يجعل التفسير بهذا النمط كلمة نَسْلَهُ زائدة و غير ضروريّة ، لانّ الله قد خلق مبدأ الإنسان من طين، ثمّ جعله يتقلّب بهيئة النطف المختلفة فى العصور و الدهور حتّى سوّاه و نفخ فيه من روحه؛ أى أنّ هذا التفسير سيجعل كلمة نَسْلَهُ زائدة لا مكان لها، لذا فبعد أنّ التفت المؤلف إلى هذا التراحم، ترجم عبارة ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ و مِن مَّآءٍ مَّهِينٍ بهذه الصورة : (سپس او را از عصارهای از آب ناچيز قرار داد) .[2]

و ما أيّده هو و صاحبُ كتاب «التكامل فى القرآن) أكثر هو مجىء لفظ ثُمّ فى الآية التاسعة: ثُمَّ سَوَّبٰهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ، لانّ ثُمَّ فى اللغة تفيد التعاقب مع التراخى و الفاصلة، و لو تركنا هذا اللفظ بهذا المعنى فسيلزم أن تكون التسوية و نفخ الروح فى آدم أبى البشر بعد نشوء ذرّيّته

---

١ ـ خلاصة و حاصل المطالب الواردة فى كتاب «خلقت انسان» ص ١١٨ إلى ١٢٠، و البحث و التوضيح الاءضافىّ ص ٢٠١ و ٢٠٢ .

٢ ـ «خلقت انسان» ص ١١٨ إلى رقم ١٢١، و ترجمة عبارته بهذا الشكل: ثمّ جعله من سلالة من ماء مهين.

و أولاده، على ما يقتضيه سياق الآية الثامنة : ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ و ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ، و إن سلخنا لفظ ثمّ عن هذا المعنى و أخذناه بمعنى واو العطف، أو اعتبرناه للتراخيّ فى حكاية الحال، لكنّا قد علمنا فى هذه الحالة خلاف الظاهر و خلاف الاصل .[1]

أقول : يَرد هذا الإشكال فى حالة رجوع ثُمزسَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ إلى المطلب الاوّل فى الآية الثامنة. أمّا إذا كانت راجعة لكلتا الآيتين و كلا المطلبين، فالمعنى صريح جدّاً و واضح. و الظاهر أنّه يجب اعتباره مرتبطاً بكلتا الآيتين، فيكون المعنى: ثمّ بدأ خلق الإنسان الذى كان مبدأ خلقته من الطين و نسله من سلالة من ماء مهين فسوّاه و نفخ فيه من روحه .

و على هذا فإنّ تسوية الإتنسان و نفخ الروح فيه بعد خلق الإنسان من الطين فى آدم أبى البشر، و بعد جعل نسله بشكل نطفة، و طىّ مدارج الحمل من العلقة و المضغة و العظام و إكساء العظام لحماً فى أولاد آدم و ذرّيّته . و هذا هو التفسير الذى قال به العلاّمة قدّس الله سرّه .[2]

و ينبغى العلم أنّ التفسير الذى بيّنه العلاّمة قدّس الله سرّه هنا فى شأن هذه الآية الكريمة : وَ بَدَأَ خَلْقَ الإنسَـٰنِ مِن طِين × ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍمَّهِينٍ ، هو عين التفسير الذى أورده للآيات الواردة فى سورة المومنون :

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِين * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِين * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ

---

١ ـ «خلقت انسان» ص ١١٩؛ و «تكامل در قرآن» ص ٣٣.

٢ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٦، ص ٢٦٣.

الْخَـٰلِقِينَ . [1]

فقد أورد العلاّمة فى تفسير هذها لآيات أنّ السُّـلاَلَة اسـم لِمـا يُسـلّ مـن الشىء، كالكُساحة اسم لِمـا يُكسـح . و ظـاهر السـياق أنّ المـراد بالإنسـان هـو النوع ، فيشمل آدم و من دونه ، و يكون المـراد بـالخلق الخلـق الابتدائـىّ الـذى خلق به آدم من الطين ثمّ جعل النسل مـن النطفـة ، و تكـون الآيـة و مـا بعدهـا فى معنى قوله : وَ بَدَأَ خَلوقَ الإنسَـٰنِ مِن طِين * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ و مِن سُلَـٰلَةٍ مِّـن مَّآءٍ مَّهِين ، [2] و يؤيّده قوله بعده: ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَـةً، إذ لـو كـان المـراد بالإنسـان ابن آدَم فحسب و كان المراد بخلقـه مـن طـين انتـهاء النطفـة إلى الطـين ، لكـان الظاهر أن يقال: ثُـمّ خَلَقْنَـاهُ نُطْفَـةً كمـا قيـل: ثُـمَّ خَلَقْنَـا النُّطْفَـةَ عَلَقَـةً فَخَلَقْنَـا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً إلى آخره .

و بذلـك يظـهر أنّ قـول بعضـهم إنّ المـراد بالإنسـان جنـس بـنى آدم ، و كذا القول بأنّ المراد به آدم عليه السلام غير سديد .

و أصل الخلق ؛ كما قيل ؛ التقدير، يقـال خَلَقْـتَ الثَّـوْبَ إذَا قِسْـتَهُ لِتَقْطَـعَ مِنْـهُ شَـيْئاً مِـنَ اللِّبَـاسِ، فـالمعنى: وَ لَقَـدْ قَدَّرْنَـا الإنْسَـانَ أَوَّلاً مِـنْ سُـلاَلَةٍ مِـنْ أَجْزَاءِ الاَرْضِ المَخْلُوطَةِ بِالمَاءِ . [3]

و على هذا التفسير فإنئ ما يستفاد من كلامه أنّ سرّ هـذا التفسـير يكمـن فى المجىء بكلمد جَعَلَ بدل كلمـد خَلَـقَ فى الآيـة ثُـمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَـةً فِـى قَـرَارٍ مَّكِـينٍ . أى أنّنـا جعلنـا الإنسـان بعـد خلقـه البَدْوىّ فى رحم أُمّه بصورة نطفة ،

---

١ ـ الآيات ١٢ إلى ١٤، من السورة ٢٣ : المؤمنون.

٢ ـ الآيتان ٧ و ٨، من السورة ٣٢ : السجدة.

٣ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٥، ص ١٩ و ٢٠، منشورات جماعة المدرّسين فى الحوزة العلميّة ـ قم المقدّسة .

و لم يقل ثُمَّ خَلَقْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. أى أنّنا كوّنّا الإنسان بعد خلقه البدوىّ فى رحم أُمّه نطفة و أبدلناه فى سيره التّكاملىّ بنطفة .

فالفرق بين كلمة جَعَلَ و خَلَقَ أنّ الجعل مجرد الوضع و الإقرار، أمّا الخلق فعبارة عن الإبداع و الإحداث ، و هو تسديد الشيء من قياساته و أبعاده و تبديل ماهيّته و صورته الاوّليّة .

فإن كان المراد من الآية تطوّر حالات الإنسان من بداية المرحلة الترابيّة من عصارة و سلالة الارض فى الفواكه و الخُضَر و الحبوب و اللحوم و الدسوم التى ستتبدّل من ثَمّ فى بدن الإنسان إلى دم و من ثمّ تتبدّل إلى نفطة ، فيجب أن يقول إنّنا جعلنا بدء خلق الإنسان من سلالة الطين ، ثمّ خلقناه و بدّلناه بصورة و ماهيّة نطفة فى رحم أُمّه، كما هو الامر فى السير التكاملىّ بعد النطفة، أى الإنشاء و الخلق الجديد فى حالات النطفة و تطوّراتها ، كما قال : ثُمَّ خَلَقْنَا و بدّلنا النُّطْفَةَ بصورة و ماهيّة العلقة فَخَلَقْنَا و بدّلنا العَلَقَة بصورة و ماهيّة المضغة فخلقنا العلقة مضغة، لانّه يبيّن فقط فى هذا الفرض التطوّرات و الحالات المختلفة لسلالة التراب التى طوتها من بدء خلقتها حتّى صيرورتها إنساناً كاملاً خَلْقًا بَعْدَ خَلْق و تبديلاً بعد تبديلها السابق حيث طوت مراحل و منازل معيّنة، و على هذا الفرض فإنّ الإتيان ابتداءً بعبارة الخلق: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَـٰنَ و ذكر التطوّرات بعد النطفة بعبارة الخلق أيضاً: ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا، ثمّ العدول بين هاتين الفقرتين من كلمة خَلَقَ إلى جَعَلَ و القول : ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ سوف لن يُحمل إلاّ على اللغو و الخطأ و عرض المقصود بعبارة تدلّ على خِلافه وَ حَاشَا لِلْقُرْآن أن يَكُونَ فِيهِ بَاطِلٌ وَ هَزْلٌ ﴿إِنَّهُ و لَقَولٌ فَصْلٌ * وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ » .

و هذا دليل قطعىّ على أنّ الإنسان المراد به فى هذه الآية ليس نوع بنى

آدم، و لم يكن المقصود من الآية هو السير التكاملىّ فى الحالات المختلفة ، بل إنّ الإنسان بما هو إنسان عموماً من آدم و بنى آدم، و المراد من خَلَقْنَا الإنْسَنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ابتداؤه، أى آدم، فهو الذى خلقه الله من سلالة من طين. و المراد من ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ نشوء الإنسان بعد آدم، و المتحقّق من النطفة عن طريق التوالد و التناسل .

و المراد بالسُّلاَلَة هنا العصارة و الخلاصة و الجوهرة المستخلصة من الارض، لا الحيوانات الاوّليّة و ذوى الخلايا الواحدة؛ و على هذا فإنّ مفاد هذه الآية التى وردت فيها عبارة سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ لا يختلف عن مفاد آية السجدة التى وردت فيها عبارة بَدَأَ خَلْقَ الإنسَـٰنِ مِن طِينٍ . بل هو مفاد واحد .

و سيظهر الفرق بين سلالة من طين و نفس الطين فيما لو أخذنا المراد بالسلالة تبعاً لتفسير القائلين بتكامل الخلايا الاوّليّة و الانسجة المفردة .

و على هذا، فقد كان ينبغى للآية أن تشير إلى مسارها بإراءة المسير التكاملىّ للإنسان، و بيان الحالات و التطوّرات الحاصلة فى الموجود الواحد، و هو ما يتنافى وا ستعمال كلمة ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً التى كان ينبغى أن يكون بدلها ثُمَّ خَلَقْنَاهُ نُطْفَةً، أى أنّنا خلقنا الإنسان أوّلاً من نسيج مفرد و خليّة حيّة موجودة فى المستنقعات و المياه الآسنة و الحمأ المسنون الناشى فوق الارض من الطين و الماء، ثمّ بدّلنا تلك الخليّة والنسيج بعد تطوّرات و تغيّرات أنواع فى الماهيّة و الموجوديّة نطفة فى الرحم، ثمّ خلقنا و بدّلنا النطفة أيضاً فى ماهيّة و موجوديّة العلقة .

لكنّ معنى الآية ليس هكذا، بل إنّ معناها أنّنا خلقنا الإنسان من سلالة الطين، ثمّ جعلناه بشكل و صورة نطفة فى الرحم؛ و الجعل غير الخلق . فتعبير و تفسير العلاّمة ، و النكتة البديعة الدقيقة التى أفادها من الآية

فى خلق آدم من الطين أو من سلالة الطين، و كذلك عين عباراته التى أوردناها و التى استُفيدت نكاتها جميعاً من الفرق بين لفظ جَعَلَ و خَلَقَ ، إنّما تشهد جميعها على دقّة النظر و طريق سدّ الشبهات .

و يعترض فى كتاب «التكامل فى القرآن» على العلاّمة بعد بيان تفسيره لنشوء آدم من الطين فى هذه الآية: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِين ، فيقول : العجب منه كيف ألغى فى تفسيره الآية معنى السلالة بالكلّيّة معً أنّه قد نقل عن «مجمع البيان» معناها قبيل هذا الكلام، لكنّه أسقطها فى إيضاح معنى الآية فأوجب الخلط وا لتغيير فى معنى الآية . [1]

و الجواب : أنّ العلاّمة لم يسقط كلمة سلالة حين التفسير، و لكن بما أنّ فقرة ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً التى جاءت ب جَعَلْنَاهُ و لم تأتِ ب خَلَقْنَاهُ، فقد عدّ الآية ذات مفاد واحد مع الآية: وَ بَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِين، لذا فإنّ مجىء جَعَلْنَا بدل خَلَقْنَا دليل على منعنا من عدّ الآية فى سياق بيانً مدارج الإنسان التكامليّة، بل ينبغى عدّها فى معرض بيان خلقته الاوّليّة، أى خلقة آدم من الطين و خلقة نسله من النطفة. و فى هذه الحال فما الفرق بين أن نقول إنّه خُلِقَ من الطين، أو من سلالة الطين ؟ فكلاهما له نفس المفاد و المفهوم .

أمّا إذا أخذنا سُلاَلَة بمعنى الخليّة الاوّليّة؛ كما استند فى كتاب «التكامل» ؛ فبالرغم من أنّ سلالة من طين ستعطى مفهوماً مغايراً لمفهوم نفس الطين حيث غفلوا عن استعمال عبارة ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً و أخذوا فى السياق معنى جَعَلْنَا بمعنى خَلَقْنَا ، ثمّ أنهى البحث بهذا الترتيب، فتأمّل !

و قد سار مؤلّف كتاب «خلقت إنسان» على هذا النهج فاعتبر كلمة سلالة فى هذه الآية بمعنى الخليّة الاوّليّة ، ثمّ توسّع فى ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً

[٢٨] ـ «تكامل در قرآن» ص ٤٤.

واعتبر هذه النطفة التى جاءت نكرة علامة إبهام ذات مفهوم كلّىّ، فهى تشمل جميع نطف الحيوانات من الانواع السابقة التى تمثّل بنظره حلقات فى سلسلة آباء و أجداد آدم .[1]

و كان هذا دليلاً فى نظره على نشوء الإنسان و ارتقائه و تكامله من الخليّة الواحدة الموجودة أوّل الخلة، و بما أنّه كان يريد استنتاج التكامل ضمن بحث طويل ، فقد تشبّث بمطالب غير محكمة من جهة فنّ الادب و العربيّة و البرهان .[2]

---

١ ـ «خلقت انسان» ص ١٤٠ إلى ١٤٣.

٢ ـ يقول فى ص ١٤٢ من كتاب «خلقت انسان»: رابعاً: الجملة فى آخر الآية ١٢ (... فى قرار مكين) تشير إلى أنّ مفهومها، و مِنْ ثَمّ مقصود تمام الآية، كلّىّ و عامّ و غير ناظر إلى موضوع منحصر و خاصّ، مثل رحم الأُمّ كما تصوّر بعض المفسّرين، إذ لو كان المقصود من الصفة و الموصوف فى «قرار مكين» هو رحم الأُمّ و كان له اختصاص لصار معرّفاً بألف و لام أو بأدوات التعريف الأُخرى، أو الاستخدام بدل تلكم الكلمتين المذكورتين أسماء صريحة كالارحام و البطون (كما استعمل فى الآيات الأُخرى)، لكنّ كلمة «قرار» قد استعملت نكرة و وُصفت بصفة «مكين» فهى تدلّ على عناية خاصّة لا يمكن إلاّ أن تكون لتعميم مفهوم الجملة المذكورة بالمكان المساعد لتنمية النطفة فى جميع الموجودات ذات النطفة ـ انتهى .

و يجب القول فى جوابه : أوّلاً : إنّ تفسير قَرَارٍ مَّكِين برحم الأُمّ هو عقيدة جميع المفسّرين لا مجرّد تصوّر بعضهم. و ثانياً: إنّ مجىء «قرار» نكرة و كذلك عدم استعمال أرحام و بطون، ليس لها أيّة دلالة على مقولته. و ثالثاً: لقد وردت عين عبارة «قرار مكين» فى موضع آخر من القرآن ـ الآيتان ٢٠ و ٢١ من السورة ٧٧: المرسلات ـ حيث يقول ٥ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِين * فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِين ؛ و المراد من الماء المهين هنا النطفة بلا شكّ ، و المراد من القرار المكين رحم الأُمّ، لانّ خطاب الآية كان للناس، و الخطاب يجب أن يكون ـ خاصّة إذا كان بصورة الاستفهام التقريرىّ الذى هو مورد الكلام ـ بشكل يكون بتمام معناه قابلاً لفهم المخاطب و دركه. و من المعلوم أنّه لو افترض أنّ ابتداء خلق الانسان كان الحمأ المسنون و المستنقعات و المياه الضحلة الآسنة ، و افترض أنّ القرار المكين هو

و قد غفل فى هذا الاستدلال أيضاً عن عبارة ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ .

و يتّضح ممّـا أوردنـا فى هـذا البحـث عـن الأُسـتاذ العلاّمـة أنّ اسـتدلال صـاحب كتـاب « خلق الإنسان » لم يستند على أساس معين، إذ لَنّ رمز التفسير

محـلّ وقـوع النطفـة فى جميـع الحيوانـات و الانـواع قبـل ظـهور الاءنسـان، فكيـف يصبـح هـــذا المعـنى الـذى هـو مـورد شـكّ و شـبهة و إنكـار الخـواصّ و العلمـاء أمـراً بديـهيّاً واضحـاً بيّنـــاً لعامّـة النـاس بشـكل يمكـن معـه أن يخاطبـهم اللـــه بنحـو الاسـتفهام التقريـرىّ (أَلَـمْ نَخْلُقكُّـم.... فَجَعَلْنَـــٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ) و يدعوهم للاءقرار و الاعتراف؟!

و علـى هـذا، فينبغـى أن يكـون معـنى مـاء مـهين و قـرار مكـين واضحـاً للعامّـة. و لم يكـــن فى أفـهام العمـوم فى هـــذا الخطـــاب غـــير خصـــوص نطفـــة الرجـــل و خصـــوص رحـــم المـــأة ؛ و لانَّ القُـرانَ يُفَسِّـرُ بَعْضُـهُ بَعْضَـاً فنعلـم بقرينـة مدلـول هـذه الآيـة أنّ ثُـمَّ جَعَلْنَـــٰهُ نُطْفَـةً فِـى قَـرَارٍ مَّكِـين ، أى رحـم الأُمّ لا أرحـام القـرود علـى رأى داروين ، و الانـواع السـابقة لسلسـلة الحلقـة المفقـودة علـى رأى المؤلّف المذكور.

و رابعـاً : إنّـه أخـذ معـنى ثمّ دالاً علـــى الـــتراخى بفواصـــل زمانيّـــة مديـــدة تمتـــدّ لملايـــين السنين ، و أورد على أساسها آية ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِين كشاهد على نظريّة تغيّر الانواع .

و نسـأله : مـا تقولـون فى آيـة أَلَـمْ نَخْلُقكُّـم مِّـن مَـاءٍ مَّـهِينٍ فَجَعَلْنَـــٰهُ فِـى قَـرَارٍ مَّكِـينٍ الـــتى لم يرد فيها لفظ ثمّ؟

و حاصل الامر أنّـــه لا يمكـن الاسـتفادة مـن هـذه الادلّـة الواهيـة الـتى يمكـن اكتشـاف نواقـص لا تحصـى فيـها مـن جهـة اللغـة العربيّـة فى تفسـير الآيـات القرآنيّـة، هـــذا و أَنّ لثـمّ وا لفـاء معـــانٍ أُخـرى . قـال العلاّمـة قـدس اللـهسرّه فى «الميزان» ج ١٥، ص ١٩ بشـأن ثمّ وا لفـاء فى الآيتـــين ١٣ و ١٤، مـن السـورة ٢٣ : المؤمنـون: ثُـمَّ جَعَلْنَـــٰهُ نُطْفَـةً فِـى قَـرَارٍ مَّكِـين * ثُـمَّ خَلَقْنَـــا النُّطْفَـــةَ عَلَقَـــةً فَخَلَقْنَـا الْعَلَقَـةَ مُضْغَـةً فَخَلَقْنَـا الْمُضْغَـةَ عِظَـــٰمًا فَكَسَـوْنَا الْعِظَـــٰمَ لَحْمًـــاً ثُـمَّ أَنشَأْنَـــــٰهُ خَلْقًـــا ءَاخَـــرَ، هـذه الآيـات الـتى هـى مـدار بحثنـا: و قـد قيـل فى اختـلاف كلمـــة ثمّ و الفـــاء فى هـــذه الآيـــات إنّ الاشـياء الـتى تُعطـف ب ثمّ بينونـة كاملـة مـع مـا عطـف عليـه كمـا فى قولـه: ثُـمَّ جَعَلْنَـــٰهُ نُطْفَـــةً ثُـــمَّ خَلَقْنَـا النُّطْفَـةَ عَلَقَـةً ثُـمَّ أَنشَأْنَـــٰهُ خَلْقًـا ءَاخَـرَ. و مـا لم يكـن بتلـك البينونيّـة و البعـد عطـف بالغـــاء ، كقوله : فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَـٰمَ لَحْمًا .

الصحيح لهذه الآية هو التوجّه إلى كلمة جَعَلْنَا، كما أنّ رمز التفسير الصحيح للآية السابقة هو التوجّه إلى لفظة نَسْل الذيى جيء به معطوفاً على الخلقة الأُولى للإنسان: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ و مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِين .

إنّ الآية الدالّة على أنّ جميع أفراد البشر على الكَرَة الارضيّة يرجعون إلى نفس الأب و الأُمّ على طول سلسلة التوالد و التناسل هى آية : يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن نَّفس وَاحِدة وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَ نِسَآءً وَ اتَّقُوا اللَهَ الَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيبًا . [1]

فخطاب الآية عامّ لجميع الناس : يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ، و قد عدّهم مخلوقين من أب واحد وأُمّ واحدة، بالنحو الذى بثّ على الارض منهما الكثير من الرجال و النساء .

فيستفاد أوّلاً : أنّ جميع الناس ، من أيّة طائفة و أصل كانوا ، و على أيّة بقعة يعيشون ـ فى وسط المعمورة أم فى أقصاها، و فى جزر آمريكا الشماليّة أم الجنوبيّة التى تفصل بينهما المحيطات المائيّة ـ إنّما يرجعون إلى زوجين اثنين كانا على رأسهم و السبب فى ظهورهم و نشأتهم، ثمّ حدثت هذه الفاصلة بواسطة الحوادث الجويّة و الارضيّة، من الصواعق و العواصف و السيول مدّة عمر الارض المديدة التى لا يعرف قدرها تحديداً ، فسبّب انفصال و افتراق هاتين المجموعتين عن بعضها .

و مع أنّنا نمتلك حاليّاً تأريخ ستّة الآف سنة فقط، لكنّ علماء طبقات الارض و علماء الفسائل قد ذكروا أنّ عمر الإنسان على الارض يزيد على خمسمائة ألف سنة .

---

١ ـ الآية ١، من السورة ٤: النساء.

قال الاستاذ العلاّمة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه :

و ظاهر السياق أنّ المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، و من زوجها زوجته؛ و هما أبوا هذا النسل الموجود الذى نحن منه و إليهما ننتهى جميعاً على ما هو ظاهر القرآن الكريم، كما فى قوله تعالى: خَلَقَكُم مّن نَّفْس واحِدَة ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا [١] و قوله تعالى: يَـٰبَنى ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ [٢] ، و قوله تعالى حكاية عن إبليس : قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لاَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ و إِلاَّ قَلِيلاً. [٣]

ثمّ يقول فى بحث مستقلّ فى عمر نوع الإتنسان و الإنسان الاوّلىّ بعد بسط القول فى كلام علماء طبقات الارض المعتقدين بأنّ عمر هذا النوع من الإنسان يزيد على ملايين السنين، و قد وجدوا من الفسائل الإنسانيّة و الاجساد و الآثار ما يتقدّم عهده على خمسمائة ألف سنة على ما استظهروه : فهذا ما عندهم غير أنّه لا دليل معهم يقنع الإنسان و يرضى النفس باتّصال النسل بين هذه الاعقاب الخالية و الاُمم الماضية من غير انقطاع . فمن الجائز أن يكون هذا النوع ظهر فى هذه الأرض ثمّ كثر و نما وعاش ثمّ انقرض ثمّ تكرّر الظهور والانقراض ، و دار الأمر على ذلك عدّة أدوار، على أن يكون نسلنا الحاضر هو آخر هذه الادوار.

أمّا القرآن الكريم فإنّه لم يتعرّض تصريحاً لبيان انحصار ظهور هذا النوع فى هذه الدورة التى نحن فيها أو أنّ له أدواراً متعدّدة نحن فى

---

١ ـ الآية ٦، من السورة ٣٩: الزمر.

٢ ـ الآية ٢٧، من السورة ٧: الاعراف.

٣ ـ الآية ٢٧، من السورة ٧: الاعراف.

آخرها، و لو أنّه يمكـن استشـمام هـذا المعـنى مـن قولـه تعـالى: وَ إِذْ قَـالَ رَبُّـكَ لِلْمَلَئِكَةِ إِنِّـى جَـاعِلٌ فِـى الْأَرْضِ خَلِيفَـةً قَـالُوا أَتَجْعَـلُ فِيـهَا مَـن يُفْسِـدُ فِيـهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ [1]، حيث يمكن الاستشـمام مـن هـذه الآيـة بسـبق دورة أُخـرى للإنسـانيّة تقدّمـت علـى دورتنـا، و قـد تقدّمـت الإشـارة إلى هـذا المعـنى فى تفسير الآية.

نعم، فى بعض الروايات الواردة عن أئمّـة أهـل البيـت عليـهم السـلام مـا يثبت للإنسانيّة أدواراً كثيرة قبل هذه الدورة. [2]

و أورد فى البحث الروائىّ: ورد فى كتـاب «التوحيـد» عـن الصـادق عليـه السـلام، قـال: **لَعَلَّـكَ تَـرَى أَنَّ اللَـهَ لَـمْ يَخْلُـقْ بَشَـراً غَـيْرَكُمْ؟ بَلَـى وَاللَـهِ لَقَـدْ خَلَقَ أَلْفَ آدَمَ؛ [3] أَنْتُمْ فِى آخِرِ أُولَئِكَ اى دَمِيِّنَ.**

و نقل ابن ميثم فى «شرح نهـج البلاغـة» عـن البـاقر عليـه السـلام مـا فى معناه، و أورده الصدوق فى «الخصال» أيضاً.

و ورد فى كتاب «الخصال» عن الصادق عليه السلام، قال:

إِنَّ اللَهَ تَعَالَى خَلَـقَ اثْنَـى عَشَـرَ أَلْـفَ عَـالَم، كُـلُّ عَـالَم مِنْـهُمْ أَكْـبَرُ مِـنْ سَبْعِ سَـمَاوَاتٍ وَ سَـبْعِ أَرَضِـينَ، مَـا يَـرَى عَـالَمٌ مِنْـهُمْ أَنَّ لِلّـَهِ عَزَّوَجَـلَّ عَالَمَـاً غَيْرَهُمْ.

و ورد فى «الخصال» عن الباقر عليه السلام أنّه قال:

لَقَـدْ خَلَـقَ اللَهُ عَـزَّ وَجَـلَّ فِـى الاَرْضِ مُنْـذُ خَلَقَهَـا سَبْعَةَ عَالَمِينَ لَيْسَ هُمْ

---

١ ـ الآية ٣٠، من السورة ٢: البقرة.

٢ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٤، ص ١٤٩ و ١٥٠.

٣ـ إنّ المـراد بـآدم العَلَـم و الاسـم الخـاصّ الـذى يطلـق علـى رأس سلسـلة النـوع الاءنسـانىّ، لـذا ينبغـى العلـم أنّ المـراد بـألف ألـف آدم ليـس مليـون آدمـىّ خلقـهم اللـه قبـلاً، بـل مليـون رأس سلسلة جاء من كلّ منهم سلسلة من بنى آدم.

مِن وُلْدِ آدَمَ، خَلَقَهُمْ مِن أَدِيمِ الاَرْضِ فَأَسْكَنَهُمْ فِيهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ مَعَ عَالَمِهِ ثُمَّ خَلَقَ اللَهُ عَزَّوَجَلَّ آدَمَ أَبَا البَشَرِ وَ خَلَقَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْهُ ـ الحديث .[١]

و قال أيضاً: هناك آثار أرضيّة كثيرة تدلّ على تغييرات هامّة فى سطح الارض بمرور الدهور من تبدّل بحر إلى برّ و بالعكس، و سهل إلى جبل و بالعكس، و ما هو أعظم من ذلك كتبدّل القطبين إلى منطقة البروج على ما تشرحه علوم طبقات الارض و الهيئة و الجغرافية. ثمّ يقول بعد ذكر آيات من القرآن مرّت فى مطاوى بحثنا :

فإنّ الآيات كما ترى تشهد بأنّ سنّة الله فى بقاء هذا النسل أن يتسبّب إليه بالنطفة، لكنّه أظهره حينما أظهره بخلقه من تراب، و أنّ آدم خلق من تراب ، و أنّ الناس بنوه، فظهور الآيات فى انتهاء هذا النسل إلى آدم و زوجته ممّا لاريب فيه و إن لم تمتنع من التأويل .

و قال البعض: إنّ المراد بآدم فى آيات الخلقة و السجدة لآدم: النوعىّ دون الشخصىّ، كأنّ مُطلق الإنسان من حيث انتهاء خلقه إلى الارض و من حيث قيامه بأمر النسل و الإيلاد سُمّى بآدم، و ربّما استظهر ذلك من قوله تعالى: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰئِكَةِ اسْجُدُوا لاِدَمَ**، [٢] فإنّه لايخلو من إشعار بأنّ الملائكة إنّما أمروا بالسجدة لمن هيّأه الله لها بالخلق وا لتصوير، و قد ذكرت الآية أنّه جميع الافراد لا شخص إنسانىّ واحد معيّن حيث قال: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ** إلى آخر الآية، و هكذا قوله تعالى :

١- «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٤، ص ١٥٦.

٢ـ الآية ١١، من السورة ٧: الاعراف.

قَالَ يَـٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ـ إلى أن قال : **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّار وَ خَلَقْتَهُ و مِن طِين** ـ إلى أن قال: **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** .[1]

حيث أبدل ما ذكره مفرداً أوّلاً مثل **خَيْرٌ مِّنْهُ** و **خَلَقْتَهُ** إلى الجمع ثانياً مثل **لَأُغْوِيَنَّهُمْ**. و يردّه مضافاً إلى كونه على خلاف ظاهر ما نقلناه من الآيات ظاهرُ قوله تعالى بعد سرد قصّة آدم و سجدة الملائكة و إباء إبليس فی سورة الاعراف :

يَـٰبَنِى ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَتِهِمَآ،[2] فظهور الآية فی شخصيّة آدم ممّا لا ينبغی أن يرتاب فيه، و كذا قوله تعالى :

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَئِكَةِ اسْجُدُوا لاِدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا .

قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ و إِلاَّ قَلِيلاً،[3] فواضح فی هذه الآية بعد ذكر آدم الشخصیّ أنّ الشيطان يريد إغواء ذرّيّته من ولد آدم. و كذا الآية المبحوثة: **يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْس وَاحِدَة وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيًا وَ نِسَآءً** إلى اخر الآية بالتّقريب الّذی مرّبيانه .

فالآيات ـ كما ترى ـ تأبى أن يسمّى الإنسان آدم باعتبار و ابن آدم باعتبار آخر، و كذا تأبى أن تنسب الخلقة إلى التراب باعتبار و إلى النطفة

١ـ الآيات ٧٥ و ٧٦ و ٨٢ و ٨٣ ، من السورة ٣٨: ص.

٢ـ الآية ٢٧، من السورة ٧: الاعراف.

٣ـ الآيتان ٦١ و ٦٢، من السورة ١٧: الاسراء.

باعتبار آخر، و خاصّة فى مثل قوله تعالى: **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**، و إلاّ لم يستقم استدلال الآية على كون خلقة عيسىٰ استثنائيّة ناقضة للعادة الجارية. فالقول بآدم النوعىّ فى حدّ التفريط؛ و الإفراط الذى يقابله قول بعضهم إنّ القول بخلق أزيد من آدم واحد كفر. ذهب إليه **زين العرب** من علماء السُّنّة .[1]

و **يستفاد ثانياً**: أنّ الطبقة الأُولى من الإنسان كانت عبارة عن آدم و زوجه، اللذين تكاثرا عن طريق التزواج فأولدا بنين و بنات؛ و الكلام هنا فى كيفيّة تكاثر نسل هؤلإ الاولاد مع أنّهم كانوا كلّهم إخوة و أخوات . فهل تحقّق ذلك فيما بينهم؟! أو تمّ بطريق آخر؟

يشير ظاهر الآية المذكورة: **وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَ نِسَآءً**، إلى اتّصال هذا النسل الموجود بآدم و زوجه بلا مشاركة من الغير، ذكَراً كان أم أُنثى، لانّ القرآن حين عبّر ب **بَثَّ** لانتشار ذلك النسل فإنّه لم يُشير إلى غير ذينك الشخصين، فلو كان قد شاركهما فى هذا النسل غيرهما، لقال: **وَ بَثَّ مِنْهُمَا وَ مِنْ غَيْرِهِمَا**، أو عبارة أُخرى تشبهها .

و حين نعتبر مبدأ التوالد و التناسل منحصراً فى آدم و زوجه فيتسوجب أن يكون التزاوج قدحصل بين البنين و البنات. و قد ورد فى هذا الخصوص من جهة دلالة الروايات مضمومان متفاوتان، **الاوّل**: أنّ التزواج حصل ـ كما تفيد الآية ـ بين الإخوة و الاخوات، و هو أمر لا يستلزم إشكالاً، لانّ حرمة نكاح الأُخت إنّما تكون بتشريع الله سبحانه، فى حين لم يكن للناس قبل نوح على نبيّنا و آله و عليه السلام شريعة، فقد كان نوح عليه السلام أوّل الانبياء ذوى العزم الذى كان لهم شريعة و كتاب. فلم يكن

١ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٤، ص ١٥١ و ١٥٢.

للناس قبل زمن نوح مجتمع و مدنيّة، و كانوا يعيشون بشكل بدائيّ بسيط . و إذا كان قد جاءهم أنبياء من قِبَل الله تعالى إلى حكم ما، فقد كان ذلك منحصراً بالاعتقاد بالتوحيد و الاحكام العقليّة المستقلّة و بعض الاحكام البسيطة العامّة، كالدعوة للصدق و عبادة ربّ العزّة عن رغبة و لهفة و أمثال ذلك، و إذا ما كان آدم نبيّاً أيضاً فإنّ تعاليمه و أحكامه لنسله ستكون بهذا المقدار .

و هذه المجموعة من الروايات قابلة للاخذ و الاعتبار، لانّ مضمونها يوافق **كتاب الله** و ينسجم معه .

والثانى: أنّ الله تعالى قد أنزل من الجنّة غلماناً و حوريّات ليتزوّجوا بأولاد آدم و بناته ذوى السيرة الحسنة، و أرسل من الجانّ ليتزوّجوا بأولاد آدم ذوى السيرة السيّئة، و قد انقسم الناس لهذا السبب إلى مجموعتين . و جاء فى بعض الروايات أنّه أرسل حوريّة من الجنّة إلى **هابيل** و جنيّد إلى **قابيل**، فحسد قابيلُ هابيلَ و انتهى به الامر إلى قتله. و ورد فى بعضها ما يشبه ذلك بمضامين أُخرى .

و هذه الروايات بالغرم من أنّ بعضها صحيح السند، لكنّها مرفوضة جميعاً و غير قابلة للعمل بمقتضاها، لمخالفتها ظاهر **كتاب الله** تبعاً للادلّة الاُصوليّة التى تدرّس فى أُصول الفقه؛ لذا فإنّ المتّبع هو تلك المجموعة الاُولى من الروايات الموافقة لظاهر كتاب الله .

و قد قال الاُستاذ العلاّمة قدّس الله سرّه بعد البحث بشأن هذه الآية و عدم مشاركة غير الإنسان فى بقاء نسل بنى آدم :

و أمّا الحكم بحرمة نكاح الاخوات فى الإسلام و كذا فى الشرائع السابقة عليه على ما يُحكى ، فإنّما هو حكم تشريعىّ يتبع المصالح وا لمفاسد ، لا تكوينىّ ، غير قابل للتغيير، و زمامه بِيَدِ الله سبحانه **يَفْعَلُ مَا**

يَشَآءُ وَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، فمن الجائز أن يبيحه يوماً لاستدعاء الضرورة ذلك ثمّ يُحرّمه بعد ذلكَ لارتفاع الحاجة و استيجابه انتشار الفحشاء فى المجتمع. و القول بأنّه على خلاف الفطرة و ما شرعه الله لانبيائه دين فطرىّ قول فاسد؛ قال تعالى :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّين حَنيفًا فِطْرَتَ اللّه الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْق اللّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ . [١]

فإنّ الفطَرة لا تنفيه و لا تدعو إلى خلافه من جهة تنفّرها عن هذا النوع من المباشرة (مباشرة الاخ مع الاُخت)، و إنّما تبغضه و تنفيه من جهة تأديته إلى شيوع الفحشاء والمنكر و بطلان غريزة العفّة بذلك و ارتفاعها عن المجتمع الإنسانىّ، و من المعلوم أنّ هذا النوع من التماسّ و المباشرة إنّما ينطبق عليه عنوان الفجور و الفحشاء فى المجتمع العالمىّ اليوم، و أمّا المجتمع يوم ليس هناك بحسب ما خلق اله سبحانه إلاّ الإخوة و الاخوات و المشيّة الإلهيّة متعلّقة بتكثّرهم و انبثاثهم فلا ينطبق عليه هذا العنوان .

و الدليل على أنّ الفطرة لا تنفيه من جهة النفرة الغريزيّة تداوله بين المجوس أعصاراً طويلة (على ما يقصّه التأريخ) و شيوعه قانونيّاً فى روسيا (على ما يُحكى) و كذا شيوعه سفاحاً من غير طريق الزواج القانونىّ فى أُوروبّا . [٢]

و قد قال **مونتسكيو** فى كتاب « **روح القوانين** » إنّ هذا العلم مخالف

١- الآية ٣٠ ،من السورة ٣٠ :الروم .

٢ـ من العادات الرائجة فى هذه الازمنة فى الملل المتمدّنة من أُوروبّا و أمريكا أنّ الفتيات يزلن بكارتهنّ قبل الزواج القانونىّ و البلوغ إلى سنّه، و قد أكّد الاحصاء أنّ بعضها إنّما هو من ناحية آبائهنّ أو إخوانهنّ .

للقوانين الطبيعيّة، و هى التى تجرى فى الإنسان قبل عقده المجتمع الصالح لإساده، فإنّ الاختلاط و الاستيناس فى المجتمع المنزلىّ! يبطل غريزة التعشّق و الميل الغريزىّ بين الإخوة و الاخوات [و هو قولٌ فاسد، لانّه ممنوع كما تقدّم أوّلاً، و مقصور فى صورة عدما لحاجة الضروريّة ثانياً، و مخصوص بما لا تكون القوانين الوضعيّة غير الطبيعيّة حافظة للصلاح الواجب الحفظ فيى المجتمع و متكفّلة لسعادة المجتمعين، و إلاّت فمعظم القوانين المعمول بها و الأُصول الدائرة فى الحياة اليوم غير طبيعيّة» . [1]

١ـ «الميزان فى تفسير القرآ» ج ٤، ص ١٥٤ و ١٥٥.

لذا يمكن الاستنتاج أنّ قولهم بتقديم تلك المجموعة من الروايات ذات السند الاصحّ ، و الاستناد إلى أنّ الزواج بالاخوات سفاح هو رفض لظاهر الآية و كلام خالٍ من التحقيق قد يقبله العوامّ، و ذلك أوّلاً: لانّ الآية كانت أعلى من الظهور و قريبة منا لنصّ، لانّها كانت فى مقام بيان خصوصيّة و كيفيّة انتشار أولاد آدم. و قد أورد العلاّمة فى مواضع عديدة من تفسيره أنّ الروايات الواردة فى التفسير هى غير الروايات الواردة فى الاحكام، و يجب أن لا تكون خبراً لواحد، بل مقطوعة الصدور .

ثانياً : لانّ تزاوج أولاد آدم مع الملائكة و الحور من الجنّة أو بالجنّ و الشياطين فى عالما لمادّة و الطبيعة مخالف للأُصول العلميّة الطبيعيّة و مخالف للقواعد و الأُصول العقليّة الحِكميّة ، لانّ تزواج فرد طبيعىّ مع فرد مجرّد معنوىّ لايحصل إلاّت عنط ريق الاعجاز، و لم يكن ظاهر الآيات إعجازيّاً، و إلاّ فإنّه كان ممكناً أن يولد أولاد آدم بلا أب أو أُمّ فى المرتبة الأُولى ، شأنهم فى ذلك شأن عيسى ابن مريم .

ثالثاً: فإنّ تزول المَلَك و الحوريّة غير متصوّر ـ وفق آيات القرآن ـ مع أصل و ثبات هذه النشأة، كما ورد فى الكثير من الآيات أن: **وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنَا عَلَيْهمو مَّا يَلْبِسُونَ** (الآية ٩، من السورة ٦: الانعام) ؛ **قُلْ لَّوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً** (الآية ٩٥، من السورة ١٧: الاءسراء)؛ **وَ لَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ** (الآية ٨، من السورة ٦: الانعام) .

رابعاً : أنّ هذه الفرضيّة تستلزم مشاركة الغول و الجنّ فى آباء الانبياء الكرام

نعم، فبعد بحث مفصّل للأُستاذ حول انتهاء نسل جميع البشر إلىأُمّ واحدة و أب واحد و وقوع التوالد و التناسل بعد ذينك الابوين بين أولادهما بلا تدخّل من موجود آخر، عقد بحثاً مستقلاً تحت عنوان: إنّ الإنسان نوع مستقلّ و ليس متحوّلاً من نوع آخر، جدير بالاهتمام و التأمّل :

إنّ الآيات السابقة تكفى مؤونة هذا البحث فإنّها تنهى هذا النسل الجارى بالنطفة إلى آدم و زوجته و تبيّن أنّهما خلقا من تراب، فالإنسانيّة تنتهى إليهما و هما لا يتّصمن بآخر يماثلهما أو يجانسهما و إنّما حدثا

و الذوات الطاهرة، و حاشاهم عن ذلك.

خامساً: فإنّ نزول حوريّة و جَنّيّة فى عالم الطبيعة يجب أن يرجع فى النهاية إلى إنسان حسن السيرة و آخر سيّى السيرة، لانّ تلبّس الملك و الجنّ بلباس المادّة سوف لن يجعله إلاّ إنساناً، و سيدعم هذا القول رأى القائلين بتكامل الانواع و عدم انتهاء النسل البشرىّ إلى آدم و حوّاء، و قد جرى بيان فساد هذا القول مفصّلاً .

أورد آية الله الشعرانىّ فى كتاب «طريق السعادة» ص ١٣٨ و ١٣٩، الطبعة الاُولى: أنّ اليهود والنصارى يقولون بعدم وجود النسخ فى أحكام الله، لانّ إرادة الله لا تتغيّر، فما حُكم به بقى أزلاً و أبداً. و يقولون إنّ موسى أوّل من أورد الشرائع، و هذه الشريعة باقية إلى يوم القيامة. و قد استدلّ المرحوم الشعرانىّ لاءبطال كلامهم و إثبات التناسخ بوجوه... حتّى يصل إلى القول: و يقول اليهود إنّ يعقوب كان له زوجتين أُختين: لياه و راحيل؛ و من ثمّ فقد كان الجمع بين الأُختين فى شريعة ابراهيم جائزاً، ثمّ جرى تحريمه فى شريعد موسى عليه السلام.

و يقول المفسّرون اليهود أيضاً إنّ عمران أبا موسى عليه السلام تزوّج عمّته فولد له منها موسى و هارون عليهما السلام، و من ثمّ فقد كان الزواج بالعمّة فى شريعة إبراهيم جائزاً ثمّ حُرّم فى التوراة .

و يتّضح من سفر التكوين «٢٠: ١٢» أنّ سارة كانت أُخت إبراهيم لابيه؛ فإن صحّ ذلك فقد نُسخ حكم ذلك فى شريعة موسى و ثبت النسخ، و إن لم يصحّ فلا اعتماد على التوارة و لا اعتبار لحكم أبديّتها .

حدوثاً.

و الشايع اليوم عند الباحثين عـن طبيعـة الإنسـان أنّ الإنسـان الاوّل فَـرْدٌ تكـامل إنسـاناً، و هـذه الفرضيّـة بخصوصـها و إن لم يتسـلّمها الجميـع تسـلّماً يقطع الكلام، و اعـترضوا عليـها بـأُمور كثـيرة مذكـورة فى الكتـب، لكـنّ أصـل الفرضيّـة و هـى أنّ الإنسـان حيـوانٌ تحـوّل إنسـاناً ممّـا تسـلّموه و بنـوا عليـه البحث عن طبيعد الإنسـان. فإنّـهم فرضـوا أنّ الارض ـ و هـى أحـد الكواكـب السـيّارة ـ قطعـة مـن الشـمس مشـتقّة منـها، و قـد كـانت فى حـال الاشـتعال و الذوبان ثمّ أخذت فى التبرّد من تسلّط عوامـل الـبرودة، و كـانت تـنزل عليـها أمطار غزيرة و تجرى عليها السيول و تتكوّن فيها البحار. [1]

ثمّ حدثـت تراكيـب مائيّـة و أرضيّـة فحدثـت النبـاات المائيّـة ثم حدثـت بتكـامل النباتـات و اشـتمالها علـى جراثيـم الحيـاد السـمك و سـائر الحيـوان الماثـىّ ، ثمّ السـمك الطـائر ذوالحيـاتين ، ثمّ الحيـوان الـبرّى ، ثمّ الإنسـان ، كـلّ

١ـ إنّ كـون الارض فى الاصـل قطعـد مـن الشـمس هـى فرضيّـة لابـلاس حيـث يقـول: إنّ تشـابه الحركـات الوضعيّـة و الاءنتقاليّـة لاعضـاء المنظومـة الشمسـيّة مـع بعضـها، و كذلـك خروجـها مـن مركـز السـيّارات لم يحـدث تلقائيّـاً، و علّـة ذلـك أنّ المنظومـد الشمسـيّة كـانت فى بدايـة الامـر نجمـة سـحابيّة كبـيرة تمتـدُّ إلى مـدار كوكـب النبتـون، ثمّ فقـدت حرارتهـا شـيئاً فشـيئاً و انقسـمت و تجـزّأت بفعـل الضغـط والـتراكم إلى كـرات ذات أبعـاد مختلفـة، مركزهـا الحقيقـىّ الشـمس الـتى كـانت بنفسـها جـزءاً مـن هـذه المنظومـة و شـكّلت فعـلاً مركـز هـذه الكـرات و منفصلـة عنـها. كـان لابـلاس ((Laplsceمنجّمـاً و مهندسـاً فرنسـيّاً مشـهوراً عـاش بـين ١٧٤٩ و ١٨٧٢ ميلاديّـة). و هنـاك آيـة فى القـرآن الكـريم صريحـة فى أنّ الكـرة الارضيّـة كـانت متئصلـة و ملتحمـة فى بـدء الخلقـة مـع الكـرات السـماويّة، ثمّ فصلـها اللـه و فرّقـها عـن بعضـها: **أَوَلَـمْ يَـرَ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا أَنَّ السَّـمَوَاتِ وَ الأَرْضَ كَانَتَـا رَتْقًـا فَفَتَقْنَـاهُمَـا**. (الآيـة ٣٠، مـن السـورة ٢١: الانبيـاء) و ورد فى الآيـة ١١، مـن السـورة ٤١: فصّلـت: **ثُـمَّ اسْـتَوَى إِلَـى السَّـمَاءِ وَ هِـىَ دُخَـانٌ فَقَـالَ لَـهَا وَ لِـلأَرْضِ ائْتِيَـا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ**.

ذلك بتكامل عارض للتركيب الارضيّ الموجود فى المرتبة السابقة يتحوّل به التركيب فى صورته إلى المرتبة اللاحقة، **فالنبات ثمّ الحيوان المائيّ ثم الحيوان ذو الحياتين ثمّ الحيوان البرّيّ ثمّ الآنسان** على الترتيب هذا.

كلّ ذلك لما يشاهد من الكمال المنظّم فى بُنيتها و نظم المراتب الآخذة من النقص إلى الكمال و لما يعطيه التجريب فى موارد جزئيّة التطوّر، و هذه فرضيّة افترضت لتوجيه ما يلحق بهذه الانواع من الخواصّ و الآثار من غير قيام دليل عليه بالخصوص و نفى ما عداها مع إمكان فرض هذه الانواع متبائنة من غير اتّصال بينها بالتطوّر، و قصر التطوّر على حالات هذه الانواع دون ذواتها و هى التى جرى فيها التجارب، فإنّ التجارب لم تتناول فرداً من أفراد هذه الانواع تحوّل إلى فرد من نوع آخر كقردة الى إنسان و إنّما يتناول بعض هذه الانواع من حيث خواصّها و لوازمها و أعراضها. و استقصاء هذا البحث يُطلب من غير هذا الموضع، و إنّما المقصود الإشارة إلى أنّه فرض افترضوه لتوجيه ما يرتبط به من المسائل من غير أن يقوم عليه دليل قاطع، فالحقيقة التى يشير إليها القرآن الكريم من كون الإنسان نوعاً مفصولاً عن سائر الانواع غير معارضة بشيء علميّ.[١]

١ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٤، ص ١٥٣ و ١٥٤.

إنّ كلام الطبيعيّين فى أنّ عمر الارض ينتهى إلى مئات الملايين من السنين يفتقر إلى الاساس العلميّ و التحقيقيّ. و الاقرب أنّ أنساناً مختلفة من الاءنسان قد وجدت. وى يستفاد من بعض الاحاديث استمرار خلقة الانسان إلى أمد غير محدود، قال المعصوم فيها إنّ قبل آدمنا هذا كان آدم موجوداً، و خُلق قبله آدم و هكذا. و يبدو كذلك قول الطبيعيّين فى هذا الامر بعيداً لجهة أُخرى و هى أنّ العلوم و الفنون البشريّة قد تطوّرت كثيراً فى الالفى سنة الاخيرة هذه، فكيف يمكن أن تمرّ ميين السنين على البشر دون أىّ تأثير؟!

و على ما يبدو فالاقرب للعقل أن نقول إنّ الانسان قد ظهر خلال ملايين السنين

و يستفاد من بيان الأُستاذ أنّ ما قالوه و أثبتوه و تسالموا عليه فى بحوث علم الحياة و علم الاجنّة و علم الفسائل التى يشكّل مجموعها علم الطبيعة هو تطوّر الانواع فقط لا تبدّلها و تغيّرها.

فالتطوّر فى الانواع يعنى التغييرات فى الآثار و الخواصّ و العوارض الداخليّة لذلك النوع، كالتغييرات والتحوّلات الحاصلة فى نوع الحصان، أو نوع الفيل، أو نوع الغنم؛ و التى طوت فى مسير تكاملها مدارج و مراحل معيّنة.

و التبدّل فى الانواع يعنى تغيّر و تبدّل نوع لنوع آخر، كأن يتغيّر فرد أو أفراد من نوع الحصان إلى فرد أو أفراد من نوع الفيل، و كتغيّر أحد أفراد النسناس و القرود إلى فرد من البشر.

لمرّات و قام بالتكاثر و التوالد و التناسل، ثمّ انقرض لعلّة ماكالوباء و السيل و الزلزلة و القحط، ثمّ جاءت مجموعة أُخرى و هكذا.

و كلامهم فى أنّ إيجاد جميع الموجودات حتّى التى كانت أصلاً لخلقتها يجب أن يكون من ذكر و أُنثى، لذا فإنّ خلقة آدم من الطين خروج عن هذه القاعدة كلامٌ قائم على الحدس و الظنّ ليس إلاّ. و يقول الطبيعيّون اليوم: من المسلّم أنّ الحياة لم تكن موجودة على الارض فى زمن ما ثمّ ظهرت، فالكرة الارضيّة قد انفصلت من الشمس و كانت ملتهبة ساخنة كالشمس لا يمكن لاىّ موجود حىّ أن يعيش عليها، ثمّ بردت تدريجيّاً فصارت قابلة للعيش، لذا فإنّ الموجود الحىّ الاوّل قد جاء بلا أب وأُمّ، إنساناً كان أو حيواناً. و العجب من خلقة آدم من التراب هو نفسه العجب من خلقة الموجودات الأُخرى أيضاً، فلو تعقّلنا ظهور موجود حىّ متحرّك من التراب فإنّ نشوء الاءنسان سيكون معقولاً هو الآخر. مضافاً إلى هذا فقد ذكر الكثير من الشواهد فى كتب الحكمة لخلقة الحيوان من غير أب و أُمّ معيّنين من الموادّ الارضيّة، كخلقة العقرب من وضع حجرين جافّين على بعضهما و رشّ مقدار من الماء بينهما، أو كخلقة القمّل من أوساخ البدن، و كخلقة السمك فى ماء القناة بدون اتّصالها بشىء . و بالطبع فإنّ خلقها له سبب طبيعىّ نادر الوقوع و لا يجب أن يكون من شيئين .

و ما جرى إثباته فى علم الطبيعيّات هو التطوّرات فى الانواع، أمّا تبدّلها فلم يقم عليه الدليل العلمىّ أبداً، و لم يثبت بالتجربة؛ و خمصة الامر لم يتمّ إراءة دليل نظرىّ أو تجربىّ عليه، و لو تمّ ذلك لصار بشكل قانون و قاعدة. و كان كلّ ما قيل و كتب و بُحث بشأن تبدّل الانواع عبارة عن فرضيّة تحقّق ذلك، و لا تصلح الفرضيّة لأن تكون دليلاً على موضوع معيّن، لذا ففرضيّة تبدّل الانواع بشكل عامّ لا تستند إلى دليل علمىّ .

و قد وافق الأُستاذ قدّس الله سرّه على مسألة التطوّر فى الانواع و أثبت على أساسها أنّ اختلاف دماء البشر الموجب لاختمف ألوانهم (الابيض و الاسود و الاحمر و الاصفر) لا يوجب و لا يبرّر اعتبارنا البشر منقسمين لاربعة أنواع مستقلّة، لانّ الابحاث الطبيعيّة مبنيّة على فرضيّة التطوّر فى الانواع.

«و مع هذا البناء كيف يمكن الاطمئنان بعدم استناد اختلاف الدماء فاختلاف الالوان إلى وقوع التطوّر فى هذا النوع؟

مع أنّنا نعلم أنّهم جزموا هذه الايّام بوقوع تطوّرات كثيرة فى الانواع الحيوانيّة كالفرس و الغنم و الفيل و غيرها. و قد ظفر البحث و الفحص بآثار أرضيّة كثيرة تكشف عن ذلك، على أنّ العلماء اليوم لا يعتنون بهذا الاختلاف كثيراً.» [1]

و بعد أن أورد الأُستاذ قدّس الله سرّه بحثاً وافياً حول هذه المسألة فى الجزء الرابع من تفسيره، حيث استفدنا من مقدار منه، يبدو أنّه عثر على كتاب «خلقت انسان» الذى حاول مؤلّفه فيه بإصرار إثبات التبدّل والتغيّر فى الانواع استناداً إلى آيات الران فعدّ العلاّمة مطالبه مرفوضة بأجمعها ،

١- «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٤، ص ١٥٠.

و ردّ عليها جميعاً فى الجزء السادس عشر ضمن بحث فى ستّة صفحات بعنوان : **كلام فى كينونة الآنسان الأُولى** [1]، دون أنى شير إلى اسم الكتاب أو مؤلّفه، و قد أدّى ذلك إلى قيام مؤلّف الكتاب المذكور بإلحاق عدّة صفحات فى آخر كتابه تحت عنوان بحث و توضيح إضافىّ ليكون ـ فى نظره ـ قد أجاب على ردّ الأُستاذ .

و قد استدلّ الحقير فى البحث السابق على انسجام الآيات القرآنيّة مع النهج التفسيرىّ و بيان الأُستاذ، فى حين كانت مطالب كتاب «خلقت انسان» غير صحيحة من وجهة نظر الاستدلالات القرآنيّة.

و نطرح بعض أقوال الأُستاذ الواردة فى هذا الجزء من التفسير، التى تردّ على كتاب «خلقت انسان»؛ ثمّ نعرض رأينا ليتّضح صواب كلام الأُستاذ و خطأ كلام مؤلّف كتاب «خلقت انسان» و مخالفته للصواب .

قال الأُستاذ: «و أمّا القول بانتهاء النسل إلى فردين من الإنسان الكامل بالكمال الفكرىّ من طريق التوالد، ثمّ انشعابهما وا نفصالهما بالتطوّر من نوع آخر من الإنسان غير الكامل بالكمال الفكرىّ، ثمّ انقراض الاصل و بقاء الفرع المتولّد منهما على قاعدة تنازع القاء و انتخاب الاصلح، فيدفعه قوله تعالى: **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ و مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**، على التفسير المتقدّم و ما فىَ معناه من الآيات .

على أنّ الحجّة التى أُقيمت على هذا القول قاصرة عن إثباته، فإنّها شواهد مأخوذة من **التشريح التطبيقىّ** و **أجنّة الحيوان** و **اىثار الحفريّة** الدالّة على التغيّر التدريجىّ فى صفات الانواع و أعضائها، و ظهور الحيوان تدريجاً آخذاً من الناقص إلى الكامل ، و خلق ما هو أبسط من الحيوان قبل

١ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٦، ص ٢٦٩ إلى ٢٧٤.

ما هو أشدّ تركيباً.

و فيه أنّ ظهور النوع الكامل من حيث التجهيزات الحيويّة بعد الناقص زماناً لا يدلّ على أزيد من تدرّج المادّة فى استكمالها لقبول الصور الحيوانيّة المختلفة، فهى قد استعدّت لظهور الحياة الكاملة فيها بعد الناقصة، و الشرية بعد الخسيسة، و أمّا كون الكامل من الحيوان منشعباً من الناقص بالتولّد و الاتصّال النسبىّ فلا و لم يعثر هذا الفحص و البحث على غزارته و طول زمانه على فرد نوع كامل متولّد من فرع نوع آخر، على أن يقف على نفس التولّد دون الفرد والفرد .

وَ مَا وُجِدَ فِيهَا شَاهِداً عَلَى التَّغَيُّرِ التَدرِيجىّ فَإِنَّمَا هُوَ تَغَيُّرٌ فِى نَوْعٍ وَاحِدٍ بالانْتِقَالِ مِن صِفَةٍ إلى صِفَةٍ أُخرَى لاَ يَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنْ نَوْعِيَّتِهِ وَالْمُدَّعَى خِلاَفُ ذَلِكَ . فالذى يُتسلّم :

أنّ نشأة الحياة ذات مراتب مختلفة بالكمال و النقص و الشرف و الخسّة ، و أعلى مراتبها الحياة الإنسانيّة ثمّ مايليها ثمّ الامثل فالامثل ، و أمّا أنّ ذلك من طريق تبدّل كلّ نوع ممّا يجاوره من النوع الاكمل فلا يفيده هذا الدليل على سبيل الاستنتاج . نعم يوجب حدساً ما غير يقينىّ بذلك ؛ فالقول بتبدّل الانواع بالتطوّر فرضيّد حدسيّة تبتنى عليها العلوم الطبيعيّة اليوم و من الممكن أن يتغيّر يوماً إلى خمفها بتقدّم العلوم و توسّع الابحاث» . [١]

و قد ردّ مؤلّف كتاب «خلقت إنسان» (= خلق الإنسان) على هذا البيان بقوله : نذكر فى جوابنا لهذا الرأى مطلبين :

«**أوّلهما**: أنّ الامثلة و الشواهد الّتى أوردناها فى القسم الاوّل من كتاب « **خلقت إنسان** » (= خلق الإنسان) من العلوم العصريّة للحياة و لطبقات

١ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٦، ص ٢٧٢ و ٢٧٣.

الارض و ذلك لزيادة اطّلاع مَن لا عهد لهم بمثل هذه الابحاث و لا تمثّل إلاّ جزءاً من كلّ، و عشراً من معشار الامثلة و الموارد التى جرى بحثها و تجربيتها فى كلٍّ من فروع العلم المذكورة .

و يمكن اعتبار النتائج الإيجابيّة الحاصلة فى القسم العملىّ و التطبيقىّ للعلوم المذكورة؛ كتحسين الأُصول و الانواع النباتيّة و الحيوانيّة و مسائل الصحّة الإنسانيّة أو اكتشافات الحفريّات؛ مؤيّدة لهذه الابحاث فى مسألة التكامل و ارتباط سلسلة الموجودات الحيّة.

و لو كان كلّ ما ذُكر من شواهد لبيان ارتباط و قرابة لموجودات فيما بينها ناقصاً غير مدعوم، فكيف تمّ الوصول إلى النتائج المدهشة فى مسائل الطبّ الحاضرة مثلاً؟ أو فى الاستفادة من المنابع الطبيعيّة!

و كيف يمكن الاستناد على بحث فلسفىّ واحد هو **أنّ المادّة لا تتقبّل عند كمالها الصور الحيوانيّة المختلفة** أن يغضّ النظر عن النتائج العمليّة و الملموسة الاخيرة؟

فهناك فى العلوم التجريبيّة نظريّات و فرضيّات هى غير القوانين و القواعد، فالأُولى متغيّرة و غير قطعيّة، و الثانية ثابتة و لها جانب قطعىّ، ففى علوم الحياة مثلاً **ليس للنظريّة العائدة إلى العلّة أو العلل المؤثّرة فى التغيّر التدريجىّ للصفات الطبيعيّة لانواع الموجودات و انشعاب مجموعة من مجموعة أُخرى شكلاً قطعيّاً و ثابتاً**، لكنّ مسألة الظهور التدريجىّ للموجودات، و ارتباطها فيما بينها، و وجود أُسس و قوانين عامّة فى هيكلها الجسمىّ، من قبيل وجود محور عظمىّ و عصبىّ ظهرىّ، و جهاز الدورة الدمويّة المغلقة فى جميع الحيوانات يعدّ أساساً و قانوناً عامّاً .

و ما يستفاد منه فى العلوم الطبيعيّة التجريبيّة و ما يشكلّ أساس الاكتشاف و اكتساب المعلومات الجديدة هى هذه القواعد و الأُسس ،

لا النظريّات و الفرضيّات القابلة للتغيير، و التى أشار اليها فى السطرين ٥ و ٦ من صفحة ٢٧٣ .

و **ثانيهما**: أنّنا نذكّر مرّة أُخرى أنّ ما بُحث و استنتج فى كتاب «خلقت انسان» قد استند إلى الآيات القرآنيّة فقط، و لم يستفاد فى الاستنتاج المذكور من أىٍّ من البحوث العلميّة و التكامليّد؛ و على هذا فلو فرضنا محالاً بعدم وجود شواهد منع لوم الحياة و طبقات الارض فى إثبات مسألة التكامل و الانشعاب التدريجىّ للموجودات، فإنّ ذلك لن يشكّل خللاً و لا إيراداً على ما كتبنا و بحثنا فى الكتاب سالف الذكر» . [١]

و فى رأيى فإنّ منشأ الخطأ للمؤلّف المذكور و من ساوقه و شاكله فى هذا النحو و الأُسلوب هو الخلط بين **الآمكان** و **الوقوع**، و بعبارة أُخر: عدم التمييز بين **القابليّة** و **الفعليّة**.

فما ذُكر فى علوم الحياة من الشواهد و الامثلة لن يعطى نتيجة أبعد من إمكان سلسلة الاتّصال لا وقوع الاتّصال، و لو زادوا على الشواهد و الامثلة عشرات بل مئات الاضعاف أمثالها.

إنّ الحكماء و الفلاسفة يفصلون بعلميّة التدقيق و التحقيق بين هاتين المسألتين، و لا يسمحون لمطلب ثبت إمكانه فقط أن يستفاد منه أحياناً فى مرحلة الوقوع و الوجود الخارجىّ، ليمكن للخصم المجادل أن يستنتج ـ بدون الالتفات إلى التفاوت بين هاتين المرحلتين المختلفتين ـ وقوع و ثبوت شيء ما من مجرّد إمكان وجوده.

فى حين لم يقدّم **داروين** و جميع أتباعه دليلاً أبعد من الإمكان، و عجزوا عن الإتيان بأكثر من ذلك الدليل ، فكيف يتأتّى الآن لاتباع تلك

١- كتاب «خلقت انسان» (= خلق الانسان) للدكتور يد الله سحابى، ص ١٩٢ و ١٩٣.

المدرسة أن يثبتوا الوقوع الخارجيّ بمجرّد إمكانه؟!

و من الطريف فى الحكمة و الفلسفة أن يرى أحد حديداً أُحمى بالنار ثمّ يقول باعتقاد جازم إنّ هذا الحديد قد أُحمى بأشعة الشمس، و دليله فى ذلك أنّ الحديد يمتلك قابليّة الإتحماء لو بقى تحت أشعة الشمس مدّة طويلة.

و تماماً هذا هو كلام مؤيّدى تغيّر الانواع الذين يريدون الحكم بوقوع التغيّر و التبدّل من المقارنة و أُسلوب تحديد الفسائل، و من الحالات الجنينيّة المختلفة، و من تناسب الانسجة الحيوانيّة، و أن يصبح هذا الإمكان الذى لا يعدو أن يكون فرضيّة، قانوناً و قاعدة، لكنّ الحكيم يقف بوجه مغالطتهم فيقول: هذه مغالطة و ليست برهاناً، فأنتم لم تبرهنوا على أبعد من الإمكان ، أى أنّكم قدّمتم فرضيّة و نظريّة ليس إلاّ، فَلِمز تضعون اسمها قانوناً و قاعدة ؟ و لِمَ تقولون فى علوم الحياة ارتباط الموجودات من جهة علاقة الانشعاب و التولّد هو قانون و قاعدة ؟

إن هو إلاّت خطأ و تجانف عن الحقيقة ذلك الذى قلتم به، **فالقابليّة غير الفعليّة**، و الإمكان غير الوجود و التحقّق .

لذا، فإنّ ما تبحثون عنه فى علوم الحياة، و تتخيّلونه قاعدة و أساساً مخدوش لدينا، لانّه لا يعطى.بعد من إمكان شىء و فرض وجوده، فمهما سمّيتموه علماً فلن يكون بعلم، إن هو إلاّ الحدس و الظنّ و الخيال .

يقول الحكيم: إنّ التكامل فى النوع غير التبدّل فى النوع، و ما ثبت بالتجربة و المشاهدة فعلاً هو التطوّر و التكامل الحادث فى داخل كلّ نوع ، لكنّكم لم تستطعيوا أن تشيروا إلى التبدّل و لو فى مورد واحد، فضلاً عن تبدّل الحيوان إلى إنسان غير مفكّر، و تبدّل الإنسان غير المفكّر إلى إنسان عالم مفكّر.

و الإشكال الآخر: أنّه قال: كيف يمكن بالاستناد إلى بحث فلسفيّ واحد فى **أنّ المادّة لا تتقبّل عند كمالها الصور الحيوانيّة المختلفة** أن يغضّ النظر عن النتائج العلميّة الملموسة المذكورة؟

و ينبغى أن نسأله: أين شاهدتم هذا البحث الفلسفيّ؟ و ممّن سمعتموه؟ فنحن لم نره حتّى الآن فى أىّ مكان، و لم نسمع به من أحد، **وَ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ** .[1]

فما وَرد عن الحكماء و الفلاسفة يخالفه و يعاكسه تماماً، فهم يقولون إنّ المادّة تتقبّل أيّة صورة من الصور الحيوانيّة، فتكون عند تكاملها قد طوت مراتب، و تشكلّت و تصوّرت بأشكال متفاوتة و صور مختلفة .

و قد كان إثبات الحركة الجوهريّة من قبل **الحكيم الجليل و الفيلسوف النادرة**، الذى فتح مغلّق الابواب، و حلّ المعضلات الصعاب، و استحدث المسائل الجديدة فى الحكمة المتعالية على أساس هذا المطلب ؛ أنّ المادّة تتحرّك فى جوهرها فتتّخذ بنفسها الصور المختلفة، ثمّ تظهر فى النفس الناطقة و الروح المجرّدة الإنسانيّة، ثمّ تتحرّك من هناك أيضاً لتطوى آخر درجة من درجات التكامل.

أفلم تقرأوا بعدُ هذه الاشعار البديعة و اللطيفة و العميقة للملاّ الرومىّ ، محمّد البلخىّ :

از جمادى مُردم و نامى شدم
وز نما مردم به حيوان سر زدم[2]

١ـ الآية ٣٦، من السورة ٢٨: القصص.

٢ـ «ديوان مثنوى مولوى» ج ٣، ص ٢٩٥، س ٢٧ إلى ٢٩، طبعة ميرزا محمودى.
يقول: «كنتُ جماداً فمتُّ و نموت، ثمّ متّ من حالة النماء فصرت حيواناً».

مـــردم از حيـــوانى و آدم شـــدم
پس چه ترسم كى ز مردن كم شدم
حمـــلة ديـــگر بمـــيرم از بشـــر
تا بـر آرم از مـــلائـــك بال و پـر
وز مَـــلَك هم بايـدم جَستن ز جو
كُـلّ شَـــىءٍ هَـــالِـك إلاّ وَجَـــهَـهُ
بار ديـگر از مَـلَك قـربان شـــوم
آنچـــه انـــدر وهـم ناید آن شـوم
پس عـدم گردم عدم چون ارغنون
گويـدم **كإِنَّـا إلَيْـــهِ رَاجِعُـــونَ**.[1]

و أمّا الإشكال الذى كان للأُستاذ العلاّمة قدّس اللـــه سـرّه علـى كلامكـم فـهو: أنّ هـذا الاسـتدلال لا يشـير إلى أكـثر مـن **أنّ المـادّة لا يمكنـها فى طـىّ مراحـل كمالهـا لقبـول الصـور الحيوانيّـة المختلفـة إلاّ أن تخضـع للتـدرّج** ؛ فمـا علاقة هذا القول بعدم قبول المادّة للصور الحيوانيّة المختلفة؟

فكـلام العلاّمـة راسـخ لا غبـار عليـه، و هـذا الكـلام يعـــنى أنّ المـــادّة ـ حسـب قولكـم ـ اتّخـذت فى تكاملـها طريـــق التـــدرّج، و هنـــاك فى عـــالم الوجود تدرّج مـــن النـاقص إلى الكـامل؛ و نحـن لا اعـتراض لدينـا علـى هـذا القول.

١-يقول:» و من الحيوانيّة متُّ فصرتُ آدميّاً، فَلِمَ الهلع من الموت كرّةً أُخرى؟
إن هىَ إلاّت ميتة أُخرى من البشريّة لاكتسب من الملائكة أجنحة و زغباً.
و عَلَىَّ بعد ذاك أن أتابع مسيرة البحث من جديد، فكلّ شىء هالك إلاّ وجهه.
فميتةٌ أُخرى من المَلَك تدفعنى لانال ما لا يناله الوهم.
فأصبح عدماً، عدماً كالمزامير قائلاً إنّا إليه راجعون».

الآشكال الثالث: قوله: إنّ النظريّات والفرضيّات فى مجال العلوم التجريبيّة هى غير القوانين، فالاُولى متغيّرة و غير قطعيّة، و الثانية ثابتة و لها جانب قطعىّ.

و جوابه: إنّ هذا لا يشمل العلوم التجريبيّة فقط، بل يجرى و يصدق على جميع العلوم، يبقى أنّ مطلب النشوء و الارتقاء و الانتخاب الطبيعىّ و التغيّر فى الانواع يمثّل فرضيّة لا قانوناً، و أنتم الذين منحتموه جزافاً اسم القانون.

إن هِىَ إلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَ ءَابَاؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا من سُلْطَـٰن. [1]

أزيحوا جانباً هذا الاسم الذى وضعتموه خطأً أو تغافلاً، فلن يتبقّ هناك من شىء إلاّ النظريّة و الفرضيّة التى لا يعلم إلاّ الله وحده كم جاء من أمثالها فى الدنيا من نظريّات و أفكار ثمّ انطوت و تلاشت .

الآشكال الرابع: قولكم: إنّ الاستناد إلى الآيات القرآنيئة مثّل محور رأينا فى كتاب «خلقت إنسان»، و على هذا فإن لم تستطع شواها و أدلّة علوم الحياة أن تصمد فى إثبات مسألة التكامل و الانشعاب التدريجىّ للموجودات، فلن يشكّل ذلك خللاً فى ما كتبنا و بحثنا فى الكتاب المذكور.

و الجواب: إنّ أهمّ نقاط الخلل و الإشكال فى كتابكم هو هذا الاستدلال بالآيات و ليس القمس الاوّل من الكتاب الذى أوردتم فيه الشواهد و الامثلة؛ فقد تمثّل إشكال القسم الاوّل فى أنّ كلّما أوردتم من شواهد فقد كان بخصوص تحوّل و تكامل النوع ، و فى تطوّر و اختلاف

١ـ الآية ٢٣، من السورة ٥٣ : النجم

حالات النوع ضمن النوع نفسه. محاولين أن تستنتجوا لتغيّر من هذا التطوّر. و لم نفهم كيف يعطى هذا البحث فی التطوّر نتيجة التغيّر و التبدّل؟!

أمّا بحثكم فی الآيات القرآنيّة فقد لفّه الاضطراب و التشويش، و كان واهياً من جهة فنّ التفسير، و لا تخلو استدلالاته و عباراته من هفوات، و قد جرى فی هذا البحث البيان الاستدلالیّ لقسم من تلك الاخطاء و الهفوات من الإشارة إلی مواقع الخلط و مواضع الخطأ .

و أمّا استدلالكم بالآية المباركة : **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إبراهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ**،[1] بهذا التقريب: أنّ الاصطفاء هو انتخاب الشيخ الجيّد و المرغوب ، و هذا الانتخاب يصدق حين يكون هناك جماعة يتمّ من خلالهم اختيار و اصطفاء المنتخب الافضل و الاشرف، كما اختار الله نوحاً و آل عمران آل ابراهيم من بين أقوامهم .

و يستلزم هذا أن يكون مع آدم قوم غيره ليصطفيه الله و ينتخبه من بينهم و يؤثره و يفضّله عليهم، و لا يمكن أن يكون أولئك القوم غير البشر البدائيين الذين سبقوا عصر آدم ممّن لم يجهّزوا بجهاز العل، حيث انتخب آدم من بينهم فصار مجهّزاً بجهاز العقل الكامل.

و جوابه هو ما ذكره الأُستاذ قدئس سرّه؛ و هو أنّ **العالمين** فی الآية جمع محلّی باللام، و هو يفيد العموم و يصدق علی عامّة البشر إلی يوم القيامة، فهم مصطفون علی جميع المعاصرين لهم و الجائين بعدهم، كمثل قوله : **وَ مَا أَرْسَلْنَـٰكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَلَمِينَ** .[2]

فما المانع من كون آدم مصطفی مختاراً من بين أولاده ما خلا

١ـ الآية ٣٣، من السورة ٣: آل عمران.

٢ـ الآية ١٠٧، من السورة ٢١: الانبياء.

المذكورين منهم فى الآية؟ و على تقدير اختصاص الاصطفاء بما بين المعاصرين و عليهم، فما هو المانع من كونه مصطفى مختاراً من بين أولاده المعاصرين له؟ و لا دلالة على أنّ اصطفاء آدم أوّل خلقته قبل ولادة أولاده .

على أنّ اصطفاء آدم لو كان على الإنسان الاوّلىّ كما يذكره المستدّل ، كان ذلك بما أنّه مجهّز بالعقل، و كان ذك مشتركاً بينه و بين بنى آدم جميعاً على الإنسان الأُوّلىّ، فكان تخصيص آدم فى الآية بالذكر **تخصِيصاً من غير مُخَصِّص**» .[1]

و قد ردّ مؤلّف كتاب «خلقت إنسان» فقال: «إذا كان المفهوم من عموميّة كلمة **العالمين** لتحليتها باللام هو إطلاقها على الجائين أيضاً، و اعتبار آدم مصطفى على جميع الجائين، غير الافراد الذين وردت أسماؤهم فى الآية لاستلزم أن يكون جميع الافراد الذين ذكروا **بالاسم** أو بلفظ آل فى الآية فى مقام واحدة و فضيلة واحدة ، فإذا عُلم أنّ الأنبياء المذكورين فى الآية لم يكونوا فى مرتبة واحدة ، فلا يمكن تعميم مسألة **الاصطفاء** على أزمنة غير أزمنتهم ، لانّ القاعدة أن يُصطفى الافضل من بين الآخرين .

و باعتبار اصطفاء هؤلاء ألانبياء جميعاً، فينبغى أن يكونوا إذن فى مرتبة و درجة واحدة؛ لكنّ هؤلاء الرسل الإلهيّين لم يكونوا ـ للادلّة التى سترد آنفاً ـ فى مقام واحد، فلا يمكن اعتبار اصطفائهم كائناً فى زمن غير زمانهم و فى شريعد غير شرائعهم .

ثمّ شرع بعد هذا الكلام فى الفقرتين ب و ج بإثبات أفضليّة بعض

١ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٦، ص ٢٧٣ و ٢٧٤.

الانبیاء علی آدم بالدلیل العقلیّ و حسب الآیات القرآنیّة». [1] و لعلّ الإجابة علی کلامه من البساطة للحدّ الذی ربّما سهل علی الاطفال درکها ؛ فحین نختار و ننتقی عدّة أشیاء من بین أشیاء مختلفة؛ فإنّ هذا الاختیار لا یستلزم أن تکون هذه الاشیاء المنتخبة متماثلة و فی نفس الرتبة ؛ و إذا ما اختار مدیر مدرسة یوماً من بین صفّ معیّن عدد من الطّلاب الممتازین، فإنّ اختیاره لا یستلزم أن یکونوا جمیعهم فی الدرجة نفسها؛ و لو انتقی معلّم روضة أطفال یوماً للاطفال مجموعة لعب خاصّة من بین الدُّمی و اللعب، فلن یتوجّب من ذلك أن تکون تلك اللعب متساویة و متماثلة فی المرغوبیّة ؛ و إذا ما نتقی الفلاّح یوماً من جنینة الفواکه مجموعة من ثمار الکمّثری و الخوخ و الإجّاص، فنضّدها فی طبق و قدّمها لصاحب الجنینة، فإنّ ذلك لا یستدعی أن یکون لهذه الثمار المنتقاة نفس الشکل، و نفس الخاصیّة و الطعم و القیمة؛ و لو انتخب حاکم ما یوماً من بین وزراء و مدراء و موظّفی قسم معیّن جماعة، فإنّ ذلك لا یستلزم أن یکون المنتخب منهم وزیراً فی مرحلة، و اختیار مدیر فی مرحلة أُخری، و اصطفاء موظّف فی مرحلة ثالثة لا علاقة لکلّ منها بالآخر بالرغم من اجتماع هؤلاء و اشتراکهم فی معنی الاصطفاء و الانتخاب .

ثمّ أردف المؤلّف فی الفقرة د لتأکید مقولته:

و إذا ما وسّعنا مفهوم کلمة **العالمین** لتحلیتها باللام، و اعتبرناها ناظرة لجمیع أدوار البشریّة، أفیمکننا إنکار أنّ نوحاً و کلاّ من أنبیاء آل إبراهیم و آل عمران قد اصطفوا فی زمانهم من بین قومهم الذین شاکلوهم فی

١ـ کتاب «خلقت انسان»، البحث و التوضیح الاءضافیّ، ص ١٩٥ و ١٩٦ .

الجسم؟ فإن كان ذلك حقّاً فكيف نستنبط معنى آخر من الآية التى ذكرت آدم كرديف لسائر الانبياء بغير أن تذكر لن استثناءً و اختصاصاً، فنعتبره مخلوقاً من غير أب وأُمّ، و نعتبر اصطفاءه من بين البشر الذين سيجيئون فيما بعد؟» .[1]

و جوابه: أنّنا لم نستفد مسألة خلق آدم من غير أب و أُمّ من آية الاصطفاء فى القرآن الكريم :

إنَّ اللَـهَ اصْطَفَـى ءَادَمَ وَ نُوحًـا وَ ءَالَ إبْرَاهِيـمَ وَ ءَالَ عِمْـرَانَ عَلَـى الْعَـٰلَمِينَ .[2]

فلقد ذكرت آيات أُخرى هذا المعنى و تكفّلت بإثباته، و قد أوردناها بالتفصيل، كآية: **إنَّ مَثَلَ عِيسَـى عِندَ اللَـهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ و مِن تُـرَابٍ ثُـمَّ قَالَ لَهُ و كُن فَيَكُونُ .**[3]

أمّا معنى الاصطفاء فى آية الاصطفاء فهو واحد لجميع المذكورين فيها، أى آدم و نوح و آل إبراهيم و آل عمران، و كان ذلك هو الانتخاب و الاختيار من جهة النبوّة الممتازة و علوّ درجة الرسالة و المقامات التوحيديّة و غير ذلك .

فأين هو سعى الأُستاذ قدّس الله سرّه لإثبات خلق آدم بغير أب وأُمّ اعتماداً على آية الاصطفاء، لتحاولوا منع هذا الإثبات و إبطاله؟ فهذا المعنى للاصطفاء (أى الخلق بغير أب وأُمّ) قد كان هنا من بنات أفكاركم، اختلقتموه من عند أنفسكم ثمّ عدتم فتعثرتم به و أشكلتم عليه !!

١ـ كتاب «خلقت انسان» ص ١٩٦ و ١٩٧، البحث و التوضيح الاضافىّ.

٢ـ الآية ٣٣، من السورة ٣: آل عمران.

٣- الآية ٥٩، من السورة ٣: آل عمران.

إنّ التردّد و الإشكال الاهمّ الذى يمسك بتلابيب مؤلّف الكتاب المذكور فلا يملك منهم ناصاً هو إقراره بعَلَميّة لفظ آدم، حيث صرّح بذلك فى مواضع عدّة من كتابه، أى أنّ لفظ ادم يمثّل الاسم الخاص لجدّ بنى آدم، أى أبى البشر، و أنّ هذا الاصطفاء و الانتخاب فى هذه الآية يرجع إلى نفس هذا الشخص المعيّن الخارجىّ أيضاً، و يصرّح بأنّ آية الاصطفاء و سائر الآيات الواردة فى خصوص آدم ترجع إلى انتخاب هذا الفرد من بين جميع أمثاله فى النوع ممّن عاصروه فى ذلك الوقت و المفتقرين إلى جهاز العقل و الإدراك، حيث اختار الله تعالى من بين هذه الحيوانات، أو البشر فاقدى العقل و الإدراك فرداً بشراً؛ أى يمتلك بشرة و لا يكسو جسمه الشعر و ليس له ذنب أو قرون؛ فسمّاه آدم و خلع عليه خلعة العقل و الإدراك ، و متّعه بمقام الاصطفاء و الانتخاب، فصار أولاده بعد ذلك بنى آدم و سُمّوا بالبشر.

و نقول هنا : تبعاً لنظريّة النشوء و الارتقاء و الانتخاب الطبيعىّ، فإنّ لفظ آدم بعنوان الاسم الخاصّ و العلم الشخصىّ لا معنى له و لا معقوليّة بشكل كلّىّ؛ فأمّا أن تقولوا بآدم النوعىّ؛ أى أنّ المراد بآدم فى القرآن نوع الإنسان، السابقون منهم و اللاحقون؛ فى حين أنّكم لا تقولون بهذا المعنى، [1] و قد رفض الأُستاذ العلاّمة قدّس الله نفسه فى تفسيره مسألة اعتبار آدم نوعيّاً، وا عتبره يمثّل اسماً لفرد معيّن محدّد؛ أو أن تنصرفوا ـ فى حال التزامكم بآدم الشخصىّ طبق آيات القرآن ـ عن نظريّة التبدّل فى الانواع و تقولوا بخلق آدم الدفعىّ و الإعجازىّ من الطين.

فالإشكال يتمثّل فى أنّ عمر الإنسان حسب نظريّة الخلق الدفعىّ

١ـ «خلقت انسان» ص ١٠٥.

لا يتجاوز عدّة آلاف من السنين، لكنّ عمر العالم حسب نظريّة التكامل فى الانواع ينبغى أن يزيد على مئات الملايين من السنين، فقد قال البعض : إنّ الحياة بدأت على ظهر البسيطة قبل مائتى مليون سنة، و قال آخرون : قبل ثلاثمائة، و أربعمائة، و حتّى ثمانمائة مليون سنة .

إذ يجب مرور ملايين السنين ـ طبقاً للانتخاب الطبيعىّ ـ ليتبدّل نوع إلى نوع آخر؛ فعمليّة التغيّر تحدث فى رأى علوم الحياة بشكل بطىء و تدريجىّ، إلى الحدّ الذى يستغرق تبدّل و تغيّر جزئىّ فى نوع ما ضمن نفس النوع ـ كتبدّل بعض الاصابع، أو اختفاء أرجل الحرباء ـ ألفاً أو آلافاً من السنين .

و قد ظلّ داروين قلقاً بعد تقديمه فرضيّته فى أنّ عمر الدنيا ثلاثمائة مليون سنة، لانّ هذا المقدار إن لم يثبت فإنّ فرضيّته ستفقد أثرها و قيمتها، لذا فقد سُرّ أيّما سرور عندما ثبت اعتماداً على تقدير عمر النظائر المشعّة فى أعماق الصخور أنّ عمر الدنيا يزيد على هذا المقدار.

و **تبعاً لهذه النظريّة** فإنّ الفترة الزمنيّة لتبدّل إنسان غير عاقل إلى بشر عاقل و مدرك بصورته الفعليّة ستستغرق مليون سنة، ليمكن خلالها لهذا الإنسان المفكّر أن ينفصل عن الإنسان فاقد العقل. و بناء على عقيدة داروين فى أنّ النوع الذى سبق الإنسان كان هو القرد، و على عقيدة الآخرين فى أنّه يمثّل الحلقة المفقودة؛ فإنّ زمان التحوّل يجب أن يمتدّ بالقدر الذى يتطلّبه تحوّل قرد نحاول اليوم ـ على سبيل المثال ـ أن نصيّره إنساناً.

و على هذا فإنّ القول بآدم الشخصىّ، و بانتخاب فرد خاصّ و وضع تاج و **عَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** على رأسه غير معقول أبداً وفق هذه

النظريّة، و ذلك ممّا يستلزم مضافاً إلى ما سبق أن نعتبر قصّة آدم و حوّاء و خلقهما فى جنّة الاستعداد، و أمر الملائكة بالسجود لآدم، و عصيان إبليس، و سلطانه على بنى آدم، و إخراج آدم و زوجه من الجنّة، و ما إلى ذلك من الخصوصيّات التى بيّنها القرآن الكريم؛ فتصبح مجرّد قضايا تمثيليّة و أساطير خياليّة قد ذُكرت لبيان المطلب و تقريبه، و هو خلاف منحى التفسير و منهجه .

ثمّ ما يدرينا أنّ بقيّة القصص القرآنيّة ليست من هذا القبيل؟ يضاف إلى ذلك أنّنا إذا رفعنا اليد عن ظهورات القرآن، بل عن نصوصه فى هذه الموارد، بالرغم من استغراقها للقسم الاعظم من الآيات، فإنّ ظهور سائر الآيات فى معانيها سيزول، و ستبطل حجّيّة القرآن فى بيان و إفادة معانيه و مفاهيمه؛ و خلاصة الامر فإنّ هذا الكتاب المبين المتين الإلهىّ الذى ينبغى الاستفادة من كلّ كلمة منه سيصبح كتاب لغو لا ثمرة فيه و لا فائدة . و حاشا أن يؤول إلى هذا الوضع و يظهر بهذه الكيفيّة كتاب الله القويم و حجّته على البشر إلى يوم القيامة، و أحد **الثَّقَلَيْن** المتبقّيين عن رسول الله ، و كتابٌ هو الفصل و ليس بالهزل، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و من خلفه .

كان هذا بحثنا حول الآيات القرآنيّة الكريمة، و علمنا بحمدالله أنّه يعطى نتيجة تخالف عقيدة كتاب «خلقت انسان» (= خلق الإنسان) .

و أمّا تصريحه فى موضعين من كتابه أنّ: القول بخلق آدم دفعة واحدة من الطين إنّما هو من أساطير و خرافات الاوّلين، و من مطالب التوراة المحرّفة التى لا يمكن الوثوق بها و الركون إليها ؛ فيجدر بنا أن نورد

١ـ و يرد عين هذا الاءشكال على مؤلّف كتاب «تكامل در قرآن (= التكامل فى القرآن).

عين عبارته التى ذكرها فى مقدّمة كتابه قبل تفصيل البحث بشأنها .

فهو يقول: «إنّ مطالب التوراة، مع كلّ التحريف الذى لزمها، تظهر أحياناً فى قالب المعتقدات الدينيّة لسائر الاديان، و من جملتها، فإنّ التعبيرات المختلفة لهذا الكتاب لم تخلُ من تأثير فى تفسير آيات القرآن، و من ثَمَّ فِى العقائد الإسلاميّة .

فمع ما فى القرآن الكريم من بيانات واضحة و محكمة فى آيات عديدة حول خلق الإنسان، لكنّ بعض المفسّرين قد ذكروا تعبيرات تقارب مطالب التوراة حول نشأة آدم متأثّرين بالتلقين الحاصل من الإسرائيليّات المتبقيّة، دون الالتفات إلى مفهوم الكلمات و معانى الآيات، كاعتبارهم نوع البشر من نسل آدم، و قولهم إنّ آدم هو مخلوق متميّز و مستقلّ عن جميع الموجودات الحيّة الاُخرى، فقد أظهروا فى بياناتهم أنّ الله صنع هيكلاً من طين، ثمّ نفخ فيه فخلق منه آدم أبا البشر.

و لقد كان رواج و شيوع تعبيرات كهذه عن آيات القرآن للحدّ الذى لم يستطع حتّى المفسّرون الجدد ـ عدا قلائل منهم ممّن يمتلكون اطّلاعاً على العلوم الحديثة و يتحلّون بذهنيّة منفتحة لاكتساب الحقائق ـ أن يبقوا بمعزل عن التعبيرات القديمة، و أن يبيّنوا و يفسّروا آيات الكتاب الإلهىّ بنظر أوسع و أرحب و بدون رأى مسبق، بعيداً عن الخواطر التلقينيّة و الموروثة» .[1]

١ـ «خلقت انسان» ص ١ و ٢، المقدّمة.

و يقول كذلك فى متن الكتاب ص ١٠٢: لقد كرّر أغلب الاءسلاميّين هذه الاساطير القديمة حول خلق الاءنسان تبعاً للمخلّفات الذهنيّة التى امتلكوها بلا وعى من تلقين الاسرائيليّات، حاتّى أنّ مفسّرى القرآن الاجلاّء الذين عُدّوا من مفاخر العالم الاسلامىّ ؛ لعدم وقوفهم على حقائق الهيكل التشريحىّ للموجودات الحيّة و الاُسس التى انطوت

و لقد خبط المؤلّف فيما نقلناه عنه خطب عشواء، إذ لم تنحصر أخطاؤه و هفواته فى كلّ سطر من كلامه، بل تعدّت ذلك إلى كلّ عبارة و جملة:

فَأوَلاً: إنّ كتاب التوراة من الكتب السماويّة النازلة على موسى، على نبيّنا و آله و عليه السلام، و كلّه صحيح و مبارك عدا موارد تُعدّ على الاصابع جرى تحريفها و تغييرها، و هى موارد مشخّصة و معيّنة، أوّلها المطالب المخالفة للعقل المستقلّ، لانّها تنسب الخطأ إلى اللـه، و تحكى غلبة الشيطان على اللـه فى خلق آدم، لانّه بيّن لآدم ما أراد اللـه إخفاءه عنه، [1] و أمثال ذلك .

عليها خلقتها، أو لعدم توافر الفرص لديهم لمناقشة و بحث مثل هذه المسائل العلميّة؛ قد عدّوا النوع الاءنسانىّ من نسل آدم، و اعتبروا آدم مخلوقاً مستقلاً لا نظير له فى جميع الكائنات الحيّة.

و يقول كذلك فى ص ١٨٩ فى البحث و التوضيح الاءضافىّ؛ و يلاحظ مع ذلك أنّهم ـ انطلاقاً من الرواسب الذهنيّة القديمة التى لم تكن لتخلو من المختلقات الاءسرائيليّات ـ قد اعتبروا خلق آدم دفعيّاً بشكل مثال من الطين ثمّ بنفخ روح الحياد فيه، و عدّوه أوّل سلسلة البشر، أو أبا البشر. انتهى.

١ـ تبيّن التوراة بشأن علّة إخراج آدم من الجنّة نظريّة تخالف النظريّة القرآنيّة تماماً، فالقرآن يعدّ اللـه مصلحاً و الشيطان ماكراً، فى حين تعدّهما التوراة عكس ذلك، و هذا ما يدعو للتعجّب، فكيف يقدّم هادٍ للبشر كالتوراة باسم العقيدة خالق العالم على أنّه ماكر و محتال؟!

يقول القرآن الكريم إنّ الشيطان قد خدع آدم بقوله إنّك إن أكلت من هذه الشجرة لكنتَ من الخالدين فى الجنّة، فى حين لم تكن الحقيقة كذلك؛ فاللـه سبحانه قبل أن يأمر الشيطان بالسجود لآدم فقد أعطى آدم العلم و المعرفة:

وَ عَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَئِكَةِ؛ بل إنّ تلك الشجرة، حسب العقائد الاسلاميّة ، كانت شجرة سيّئة ، كشجرة الحسد و البخل و الحقد ، فحين أطاع آدم

و ثانيها المطالب التى وردت فى القرآن الكريم و أشارت إلى بعض مطالب التوراة المحرّفة، و ما خلا ذلك فإنّ جميع مطالب التوراة حقّ و صدق و نور، و ما ورد فيها موافقاً للقرآن الكريم مثل أصل نشوء آدم من الطين فكلّه صحيح و صواب.

فالقرآن الكريم يعدّ التوراة حكم الله و هدى و نور يحكم بها

الشيطان فأكل من تلك الشجرة صار موجوداً ماديّاً يعتريه الحسد و البخل و الحقد، فأُبعد عنا لجنّة محلّ المنزّهين.

)يقول فى الآيات ١١٥ إلى ١٢١، من السورة ٢٠: طه): **وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلىَ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ و عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَئِكَةِ اسْجُدُوا لاَدَمَ فَسَجَدُوا َ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى' * فَقُلْنَا يَـادَمُ إِنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى *إِنَ لَكَ أَلاَّ تَجُوعُ فِيهَا وَ لاَ تَعرَى * وَ أَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَ لاَ تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَـنُ قَالَ يَـادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلىَ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لاَ يَبْلَى * فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ و فَغَوَى.**

فالقرآن الكريم يعدّ الشجرة خبيثة، و يعدّ الشيطان الذى قال عن الشجرة إنّها شجرة الخلد كاذبا و عدواً لادم. لكنّ الامر فى التوراة معكوس تماماً، فهى تقول إنّ الشجرة كانت شجرة المعرفة، و إنّ الله أراد لادم البقاء فى الجنّة و لكن بلا علم واطّلاع، فدعى الشيطان آدم للاكل من شجرة المعرفة، فأكل منها و اكتسب العلم والمعرفة فشاهد نفسه عرياناً.

فحسب كلام التوراة فقد كان الشيطان صادقاً و نصوحاً لآدم إذ هداه إلى الحقيقة و الوقائع لكنّ الله كان يريد إبقاء آدم بلا علم و معرفة فمنعه من الاكل من الشجرة.

فالتوراة تقول إذن إنّ الله والدين يدعوان إلى الجمود و الخمول و عدم المعرفة و البصيرة، و يريدان إبقاء الاءنسان فى قوقعة الجهل، و على الاءنسان ـ لانتزاع نفسه من هذه القوقعة باكتساب المعرفة ـ أن يبتعد عن دائرة تعاليما لدين، لأنّها جهل و عمى و مقرّرات تحجب ملامح الحقائق و الواقعيّات.

لذا يمكن القول إنّ تعليمات التوراة هذه مثّلت الجناية الكبرى بحقّ البشريّة، لأنّها ساقت اليهود و المسيحيّين للتمرّد على التعاليم الدينيّة.

النبيّون:

وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِندَهُمُ التَوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّه ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَآ أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنزَلْنَا التَّورَاةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الاْحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللّهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنَ وَ لاَ تَشْتَرُوا بِايَاتِى ثَمَنًا وَ مَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ. [1]

و نلحظ فى هذه الآيات مدى القيمة التى عدّها الله سبحانه للتوراد و ذمّ مخالفيها ؛ ثمّ يقول سبحانه بعد بيان عدّة آيات :

وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّورَاةَ وَ الاْنجِيلَ وَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لاَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَ مِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ . [2]

ثمّ يأمر سبحانه نبيّه الكريم بعد تلك الآية أن يخاطب أهل الكتاب :

قُل يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمو عَلَى شَىْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّورَاةَ وَ الاْنجِيلَ وَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُم وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الْكَافِرِينَ. [3]

و ثانياً : لقد قلتم إنّ بعض المفسّرين ـ تبعاً لتلقين الاسرائيليّات ـ كانوا يقولون بصنع مثال آدم من الطين؛ ثمّ قلتم: إنّ رواج و شيوع تعبيرات كهذه عن آيات القرآن كان للحدّ الذى عجز حتّى المفسّرون الجدد ـ عدا عدّة منهم ممّن يمتلكون اطّلاعاً على العلوم الحديثة و يتحلّون بذهنيّة منفتحة

١ـ الآيتان ٤٣ و ٤٤، من السورة ٥: المائدة.

٢ـ الآية ٦٦، من السورة ٥: المائدة.

٣ـ الآية ٦٨، من السورة ٥: المائدة

لاكتساب الحقائق ـ أن يبقوا بمعزل عن التعبيرات القديمة .

و ينبغى الإشارة هنا إلى التناقض الصريح فى كلامكم ففى قولكم ، أوّلاً: بعض المفسّرين، ثمّ إضافتكم ثانياً بأنّ ذلك شاع حتّى لم يبقَ إلاّ قليل من الفسّرين الجدد بمعزل و منجى منه .

و مضافاً إلى ذلك فإنّ جميع المفسّرين الجدد و القدماء ممّن يمتلكون مقاماً فى التفسير و يصحّ إطلاق اسم المفسّر عليهم يقولون بخلق آدم من الطين دفعة واحدة؛ ولدى الحقير حاليّاً ما يقرب من خمسين دورة تفسير من الشيعة و العامّة من صدر الإسلام و حتّى الآن لم نعثر فى شىء منها على قائل بخلق آدم من أب وأُمّ و إمضاء لقول تبدّل الانواع .

أمّا المفسّرون الجدد الذين ذكرتموهم و قلتم إنّهم يمتلكون اطّلاعاً على العلوم الحديثة فليتكم أشرتم إليهم بأسمائهم .

و بغضّ النظر عن ذلك فإنّ هناك الآن من يمتلكون اطّلاعاً واسعاً على العلوم الحديثة و لهم أيضاً اليد الطولى و الباع الطويل فى تفسير القرآن بحيث يصحّ إطلاق لقب مفسّر لكلّ منهم، لكنّهم يرفضون مع ذلك فرضيّة تبدّل الانواع و يعتبرون البحث عنها أُلعوبة فى يد القاصرين، و يعتقدون جادّين بإعجاز الخلق الدفعىّ لآدم، أى ما ندعوهم اليوم ب فيكسيزم مائة فى المائة لا ترانسفورميزم .

ثالثاً : لقد عددتم القائلين بإعجاز خلق آدم استدلالاً من الكتاب الإلهىّ من وارثى خواطر التلقين و التعبيرات الموروثة، فكيف لم تعدّوا أنفسكم و مَن شاركم هذا النهج من مولودى خواطر التلقين و الإلقاء ، و من وارثى الفرضيّات و النظريّات الفعليّة، مع أنّها لا تمثّل إلاّ و هماً و حدساً و ظنّاً .

رابعاً : لقد صرّحتم أنّ التوراة قد ظهرت فى قالب العقائد الدينيّة

لسائر الاديان، و أنّ التعبيرات المختلفة لهذا الكتاب لم تخلُ من تأثير فى تفسير آيات القرآن، و من ثَمَّ فى العقائد الإسلاميّة .

إنّ تفاسيرنا للقرآن بشأن خلق آدم قد اعتمدت على ما جاء فى صدر الإسلام، كما ورد عن **أميرالمؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام** و تلميذه البارع فى التفسير **ابن عبّاس** و **سعيد بن جبير** و أمثالهم، لذا فإن لم نقل تحقيقاً إنّ هذا التفسير كان مؤثّراً فى التوراة و أُسلوبها التفسيرىّ، فلا يمكننا القول إنّ مطالب التوراة قد تركت تأثيراً فى الأُسلوب التفسيرىّ للقرآن الكريم، و ليست الروايات الواردة فى التفسير منحصرة **بكعب الاحبار** و **أبى هريرة** و **عبدالله بن سلام** ليمكن الطعن فى أصالتهم و إيجاد الشكّ فى تفسير حقائق القرآن .

و **خامساً**: لقد قلتم: لقد ذكر بعض المفسّرين مع ذلك متأثّرين بما تبقّى فى أذهانهم من تلقين الإسرائيليّات تعبيرات مقاربة لهذه المطالب حول نشأة آدم .

و نجد أنفسنا مجبرين هنا على بيان معنى الإسرائيليّات ليتّضح من ذلك أن لا علاقة و لا راطبة أبداً للروايات الواردة فى التفسير و لا لاستناد المفسّرين فى المنهج التفسيرىّ بالإسرائيليّات، حيث إنّ تعبير إسرائيلىّ بالخصوص قد أُسىّ إستخدامه هنا .

تُطلق **الآسرائيليّات** على الروايات التى رواتها من اليهود الذين اختاروا الانضمام إلى الإسلام، و يشاهد ضمن رواياتهم فى تفسير القرآن ، أو فى الاحكام و العقائد مطالب تطابق ما جاء فى العهد القديم للتوراة من قصص الانبياء و تخالف مدلول القرآن أو الاحاديث الصحيحة المسندة المطابقة لحكايات التوراة و أحكامها عن اليهود و تمسّكوا بها لفهم و تفسير

بعض آيات القرآن المستعصية عليهم، ثمّ نسبوا هذه الروايات كذباً و افتراء إلى النبيّ الاكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أو إلى أحد الائمّة عليهم السلام ، لتكون مقبولة لعامّة المسلمين و المعتقدين بالقرآن .

و ينبغى ـ بناء على هذا ـ أن يكون رواة هذه الروايات إمّا من أهل السنّة الذين افتقدوا المنبع الصحيح للتفسير و لم يكن ماء معين الولاية فى متناول أيديهم، فرأوا أيديهم خالية فى التفسير، و أُجبروا ـ كى لا يتخلّفوا عن جمع المفسّرين و المحدّثين و المؤرّخين ـ أن يتطاولوا بهذه الانحرافات ؛ أو من أهل الكذب و الجعل و الدّس و الوضع الذين اختلقوا رواية و نسبوها إلى مصدر الوحى أو إلى المعصوم، فهم يروون الرواية فى هذه الحال إمّا بلا واسطة، أو يختلفون لها حسب رأيهم وسائط من المعتبرين و الموثّقين و ينسبون سلسلة الرواية افتراءً بذكر الاسم و اللقب و الاشخاص .

و هذه الروايات تشخّص و تعيّن من قبل العالم و المجتهد الفقيه البصير بواسطة علم الدراية و الرجال، بالاستعانة بعلم أُصول الفقه و البحث عن كيفيّة حجّية الخبر، و البحث عن التعادل و الترجيح، و كيفيّة تقديم بعض الروايات على بعضها الآخر؛ فالفقيه و المتبحّر المتخصّص فى هذا الفنّ يفهم بمجرّد رؤية الرواية أهذا الحديث مقبول أم مرفوض؟ من الإسرائيليّات هو أو من غيرها ؟

و كما قلنا فنيبغى لرواى هذا النمط من الاحاديث إمّا أن يكون سنيّاً وضّاعاً و كذّاباً، لاسنيّاً موثّقاً (لانّ الرجل السنّىّ المذهب إن كان عادلاً أو ثقة فى مذهبه فإنّ روايته مقبولة عند الشيعد)، أو أن يكون مجهول الحال ، أو إن كان شيعيّاً فينبغى أن يكون غير موثّق و لم يشهد رجال علم الحديث على صدقه .

و فى كلّ من هذها لصور و الحالات فإنّ الرواية تُعدّ ضعيفة السند و يُعدّ راويها ضعيفاً، و تُعتبر الرواية غير صالحة للاخذ بها، لانّ لاشخص الامين و العادل و الموثّق ـ طبق فرضنا ـ لا يكذب متعمّداً على النبيّ و الإمام .

و المتكفّل بتشخيص هويّة و شخصيّة و مذهب و اسم و عنوان الرواة و أوضاعهم واحداً واحداً هو علم الرجال؛ و قد كتب **المجتهد الخبير و الفقيه البصير: المرحوم آية الله الحاجّ الشيخ عبدالهل المامقانىّ** تغمّده الله برحمته كتاباً جرى طبعه فى ثلاثة أجزاء ضخمة، يُعدّ من أشمل و أنفع كتب الرجال من حيث المجموع من زمن **النجاشىّ** و **الشيخ الطوسىّ** و **الكشىّ** و **العلاّمة الحلّىّ** إلى زماننا الحاضر، و سمّاه: «**تنقيح المقال فى علم الرجال**» . [1]

١ـ يقول فى «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» ج ٤ ، ص ٤٦٦ ، رقم ٢٠٧٠ :

و هذا الكتاب من أكثر الكتب المؤلّفة فى الرجال تفصيلاً، و فيه ترجمة جميع الصحابة والتابعين و سائر أصحاب الائمّة و غيرهم من الرواة إلى القرن الرابع مع عدد من العلماء و المحدّثين، يقع فى ثلاثة مجلّدات كبيرة، و قد وُلد مؤلّفه سنة ١٢٩٠ و توفّى من ١٣٥١ هجرىّ قمرىّ ـ انتهى.

أقول: كتاب «منهج المقال فى أحوال الرجال» هو كتاب «الرجال الكبير» من تأليف الميرزا محمّد الاسترابادىّ، و قد كتب العلاّمة الوحيد البهبهانىّ حاشية عليه .

و كتاب «منتهى المقال فى أحوال الرجال» هو كتاب رجال بوعلى، و مؤلّفه بوعلى : محمّد بن إسماعيل ، المولود سنة ١١٥٩ و المتوفّى سنة ١٢١٥ أو ١٢١٦، و منهجه فيه أن يذكر أوّلاً نظر كتاب «منهج المقال» ثمّ حاشية الوحيد البهبهانىّ، ثمّ إن لاحت له فوائد عليه ذكرها، و بالطبع فهذا الكتاب أشدّ اختصاراً من كتاب «الرجال الكبير» لكنّه لم يورد فيه المجاهيل .

و كتاب «توضيح المقال فى علم الرجال» تأليف الملاّ علىّ الرازىّ، ذكرت فيه المشتركات و كثير من الفوائد.

و كتاب « روضات الجنّات فى أحوال العلماء و السادات » تأليف السيّد محمّد باقر

و نورد فى هذا المجال عدداً من الروايات المرويّة فى شأن خلق آدم، من «نهج البلاغة» و «قصص العلماء» و «تفسير العيّاشىّ»، ممّا يعدّ سنادها فى أعلى درجات الاعتبار، لتّضح كم كان خلط مؤلّف كتاب «خلقت انسان» (= خلق الإنسان) مبحثَ الإسرائيليّات مع المقولة التى نحن بصددها مثيراً للعجب و الاستغراب.

لكأنّه فَهم الرواية الإسرائيليّة على أنّه الرواية التى توافق مضمون مطالب التوراة، و هو فهم خاطى و غير صائب، لانّ الكثير من مطالب التوراة توافق القرآن، أفيمكن رفع اليد عنها؟!

كما أنّ كثيراً من روايات العامّة تتّفق و رواياتنا الصحيحة مفاداً و مضموناً، و لا تختلف فى المحتوى،.فيمكن الإغماض عنها جميعاً؟!

كلاّ بالطبع، فهذا نهج خاطى لا يقرّه العقل وا لعلم، بل ينبغى تميز الصحيح عن السقيم، ليؤخذ بالصحيح و يُعرض عن السقيم. فإذا ورد فى التوراة أنّ الله واحد، و أنّ موسى نبىٌّ بالحقّ، أفعلينا أن نخالفه و نقول إنّ الآلهة اثنان ، و موسى نبىٌّ كاذب ؟! لا شكّ أبداً أنّ هذا الامر غير وارد

الخوانسارىّ المولود سنة ١٢٢٦ و المتوفّى سنة ١٣١٣ ه ق . على ما ذكره صاحب «الذريعة»

و قد قال الشيخ الحرّ العاملىّ فى كتاب «أمل الآمل» ج ٢، ص ٣٧٠، الفائدة العاشرة: اعلم أنّ هذا الكتاب يليق أن يكون متمّماً للكتاب الكبير فى الرجال لميرزا على الاسترابادىّ المشتمل على ما فى «الخلاصة» للعلاّمة، و «الفهرست» و «الرجال» للشيخ، و «الفهرست» للنجاشىّ، و كتاب الكّشىّ، و ابن داود، و غيرهم و قد اشتمل على أكثر من سبعة آلاف اسم و أكثر من ستّة آلاف و ستمائة كتاب و رسالة .

و كتاب «بهجة المقال فى شرح زبدة المقال» للحاجّ ملاّ على العيليارىّ التبريزىّ المتوفّى سنة ١٣٢٧ ه. ق.

إطلاقاً لا بالنسبة إلی التوراة و لا إلی أیّ کتاب آخر أو بحث و مطلب علمیّ .

أمّا روایة «**نهج البلاغة**»، فالخطبة الأُولی التی وصف فیها أمیرالمؤمنین علیه السلام أوّل الخلق، فیقول بشأن صفة خلق آدم علیه السلام:

ثُمَّ جَمَعَ سُبحَانَهُ مِن حَزْنِ الارْضِ وَ سَهْلِهَا وَ عَذْبِهَا وَ سَبَخِهَا تُرْبَةً سَنَّهَا بالمَاءِ حَتَّی خَلَصَتْ؛ وَ لاَطَهَا بالبَلَّةِ حَتَّی لَزُبَتْ. فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاء وَ وُصُول؛ وَ أَعْضَاء وَ فُصُولَ .

أَجْمَدَهَا حَتَّی اسْتَمْسَكَتْ؛ وَ أَصْلَدَهَا حَتَّی صَلْصَلَتْ، لِوَقْتٍ مَعْدُود وَ أَمَدٍ مَعْلُوم. ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إنسَاناً ذَاأَذْهَان يُجيلُهَا، وَ فِكْرٍ يَتَصَرَّفُ بهَا، وَ جَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَات يُقَلِّبُهَا، وَ مَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الحَقِّ وَ البَاطِلِ، وَ الاَذْوَاقِ وَالمَشَامِّ وَ الاَلْوَانِ وَ الاَجْنَاسِ .

مَعْجُوناً بطِينَةِ الاَلْوَانِ المَخْتَلِفَةِ وَ الاَشْبَاهِ المُؤْتَلِفَةِ وَ الاَضْدَادِ المُتَعادِيَةِ وَ الاَخْلاَطِ المُتَبَايِنَةِ مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ وَالبَلَّةِ وَالجُمُودِ ـ الخطبة. [1]

و «نهج البلاغة» هو کلام معدن الحِکَم و العلم و باب مدینة العلم و الحکمة أفضل الکتب علی الإطلاق بعد القرآن الکریم، کلّ خطبة و عبارة فیه تکفی لوحدها فی الدلالة علی صدوره عن مدرسة الوحی و العصمة و الیقین .

و أمّا روایة «**قصص الانبیاء**»، فیروی بإسناده عن الشیخ الصدوق ، عن أبیه، عن سعد، عن ابن یزید، عن ابن أبی عُمیر، عن هشام بن سالم ، عن الصادق علیه السلام أنّه قال :

١ـ «نهج البلاغة» الخطبة الأُولی، و فی طبعة مصر بتعلیقة الشیخ محمّد عبده: ج ١، ص ٢٠ و ٢١.

كَانَتِ المَلاَئِكَةُ تَمُـرُّ بـآدَمَ عَلَيْـهِ السَّـلاَمُ ـ أَى بُصُورَتِـهِ وَ هُـوَ مُلْقَـى فِـى الجَنَّةِ مِنْ طِينٍ ـ فَتَقُولُ: لاَمْرَ مَا خُلِقْتَ؟! [1]

و كتـابً « **قصـص الأنبيـاء** » للقطـب الراونـدىّ، أى الشـيخ و الإمـام قطب الدين أبى الحسين بن سعيد بـن هبـة اللـه بـن حسـن الراونـدىّ المتوفّـى سنة ٥٧٣ هجريّة. و هـذا الرجـل مـن أسـاطين و فحـول علمـاء الشـيعة و مـن أعاظم الرواة و أكابر الثقـات السـابقين، و باعتبـار أنّ سلسـلة سـند روايتـه إلى المعصوم فى هذا الحديث كـانت صحيحـة بأجمعـها، فـإنّ هـذه الروايـة تعـدّ مـن الصحاح، و لا شكّ فى إسنادها إلى المعصوم و فى حجّيّتها . [2]

و إن لم يكن «قصص الانبياء» هـذا لهـذا الرجـل الجليـل، فـهو بـلا شـكّ للسـيّد الاجـلّ الاكـرم الافخـم **السـيّد ضيـاء الديـن أبى الرضـا فضـل اللـه الراوندىّ** أحد تلامذة **أبى علىّ** ابن الشيخ الطوسـىّ، و هـو مـن أعيـان و أعـلام علماء الشيعة و الموثّقـين الذيـن نزلـوا راونـد كاشـان فاتّخذوهـا محـطَّ رحـالهم و دار سكناهم و إقامتهم .

و قـد ذكـر المرحـوم السـيّد جـلال الديـن المحـدّث الارمـوىّ ترجمتـه مفصّـلاً فى مجمـوعـة أشـعار لـه طُبعـت ملحقة بكتاب « نَقْض » (= النَقْض) ،

١ـ «بحـار الانـوار» ج ١١، ص ١١٣، حديـث ٣٣، الطبعـة الحروفيّـة، و هـذا الحديـث موجود أيضاً فى «قصص الانبياء» الخطّىّ .

٢ـ يقـول العلاّمـة الخبـير و المحـدِّث الكبـير الحـاجّ الشـيخ آغـا بـزرگ الطـهرانىّ فى «الذريعـة» ج ١٧، ص ١٠٥، رقـم ٥٧٤ بشـأن «قصـص الانبيـاء»: لقطـب الديـن هبـة اللـه الراونـدىّ . و نقل عنـه فـارس فى «سـعدا لسـعود». و نسـبه صـاحب «الريـاض» و كذلـك فى «بحـار الانـوار» نقـلاً عن كتاب السـيّد ابـن طـاووس «النجـوم» و «فـلاح السـائل» للسـيّد فضـل اللـه أبى الرضـا الراونـدىّ تلميـذ أبى علـىّ، و لكـن لتعـدّده فـهناك إمكـان أن يكـون لكـلٍّ مـن هذيـن الجليلـين تـأليف مسـتقلّ باسم «قصص الانبياء»، واللـه العالم ـ انتهى موضوع الحاجة .

و نقل قصصاً من تبحّره و تضلّعه فى العلوم و الادب و العربيّة .

فإن كانت قصص الانبياء المذكورة من تأليفاته أيضاً فإنّها ستكون كذلك فى ذروة الإتقان، و ستكون الرواية الواردة فى موضوعنا صحيحة السند .

و أمّا رواية العيّاشىّ عن سلمان الفارسىّ فهى أنّه قال :

إنَّ اللَهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ فَكَانَ أَوَّلَ مَا خَلَقَ عَيْنَاهُ؛ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى جَسَدِهِ كَيْفَ يُخْلَقُ؟ فَلَمَّا حَانَتْ وَ لَمْ يَتَبَالَغِ الخَلْقُ فِى رِجْلَيْهِ،أَرَادَ القِيَامِ فَلَمْ يَقْدِرْ. وَ هُوَ قَوْلُ اللَهِ: «خُلِقَ الآنسَانُ عَجُولاً». [1] **وَ إِنَّ اللَهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ وَ نَفَخَ فِيهِ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَنَاوَلَ عُنْقُوداً فَأَكَلَهُ .** [2]

و مع أنّ هذه الرواية مرسلة حسب اصطلاح أهل الحديث ، لكنّ رواية العيّاشىّ لها فى تفسيره يعدّ مهمّاً، فالعيّاشىّ أحد العلماء الكبار و من المفسّرين ذوى المنزلة العظيمة، حاز منتهى الثقة و الاطمئنان، حتّى قدّمه بعض العلماء فى الفضل و المنزلة على **محمّد بن يعقوب الكلينىّ** صاحب « **الكافى** » .

إنّ الروايات الواردة فى موضوعنا كثيرة، لكنّنا آثرنا ذكر هذا العدد من الروايات المعتبرة سنداً و دلالة ليتّضح عدم ارتباط مسألة الإسرائيليّات بما نحن بصدده .

١-نقل العيّاشى فى هذه الرواية عن سلمان، و كذا فى رواية العيّاشىّ فى التفسير و الشيخ فى «الامالى» (بحسب نقل تفسير «البرهان» ج ١، ص ٥٩٩ ، الطبعة الحجريّة) عن هشام بن سالم، و جاء فيها: **خُلِقَ الأنْسَانُ عَجُولاً**؛ و لكنّ الذى فى القرآن هو: **خُلِقَ الأِنسَانُ مِن عَجَلٍ** «صدر الآية ٣٧، من السورة ٢١: الانبياء) و: **وَ كَانَ الأِنسَانَ عَجُولاً** (ذيل الآية ١١، من السورة ١٧: الاءسراء).

٢ـ «بحار الانوار» ج ١١، ص ١١٨ و ١١٩، الحديث رقم ٤٩ .

و كانت هذه نكات مهمّة يلزم بيانها و التذكير بها لمطالعى كتاب «**خلقت إنسان**» (= خلق الإنسان)، و إلاّ فإنّ أخطاءً كثيرة أُخرى وردت فى مطاوى الكتاب المذكور، من جملتها استنباطه وجود أب و أُمّ لآدم من لفظ **خَلْق** فى الآيات :

خَلَقَ الْأنسَنَ مِن صَلْصَل . [١]

و: **خَلَقَكُم مِّن نَّفْس وَاحِدَة** . [٢]

و: **إِنِّى خَـٰلِقٌ بَشَرًا مِّن طِين** . [٣]

اعتبر فيها كلمة خلق بمعنى إيجاد شيء من شيء آخر، لا بمعنى الإيجاد و الإنشاء الابتدائىّ . [٤]

و من قبيل استفادته لهذا المعنى من لفظ **صِهْر** فى الآية :

وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ و نَسَبًا وَ صِهْرًا وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا . [٥]

حيث استفاد من كلمة **صِهْر** أنّ تحقّق هذا المعنى فى آدم أبى البشر نفسه يستلزم رابطة مصاهرته و ارتباطه مع أناس من معاصريه . [٦]

و كذلك الاتّهام الذى وجّهه للعلاّمة الأُستاذ قدّس الله سرّه، و نسب إليه فى البحث و التوضيح الإضافىّ أنّه قال فى المقالة مورد البحث ، و بالإرجاع إلى تفسير الجزء الثامن بخصوص الآية ١١ ، من السورة ٧ :

١ـ الآية ١٤، من السورة ٥٥: الرحمن.

٢ـ الآية ١، من السورة ٤: النساء.

٣ـ الآية ٧١، من السورة ٣٨: ص.

٤ـ «خلقت انسان» ص ١١١.

٥ـ الآية ٥٤، من السورة ٢٥: الفرقان.

٦ـ «خلقت انسان» ص ١٢١.

الاعراف الشریفة، و لاجل إزالة الدلول التکاملیّ الجلی لتلك الآیة :

إنّ حرف ثمّ فی الآیة ۱۱ من سورة الاعراف لیس حرف عطف ترتیبیّ یفید التراخی، بل هو بمعنی الواو و العطف الکلامیّ .[۱]

و تمثّل هذه العبارات الاخیرة خطأً محضاً بیّناً، و أمراً لا یلیق نسبته لمثل عبارات الأُستاذ .

فما ذکره العلاّمة قدّس الله سرّه فی الجزء الثامن فی تفسیر الآیة المبارکة :

وَ لَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُم ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَئِكَةِ اسْجُدُوا لاَدَمَ .

إنّ ثمّ هنا بمعنی التراخی الحقیقیّ، و علی هذا فالانتقال فی الخطاب من العموم إلی الخصوص، أعنی من قوله : **خَلَقْنَـٰكُمْ وَ صَوَّرْنَـٰكُم** إلی قوله : **ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَئِكَةِ اسْجُدُوا لاِدَمَ**؛ و هو خطاب بخصوص آدم، أی أنّ الخطاب انتقل من جمیع بنی آدم إلی الملائکة و ذلك لبیان حقیقتین :

الأُولی: أنّ السجدة التی أمر الله بها الملائکة کانت لجمیع بنی آدم ، أی للنشأة الإنسانیّة و إن کان آدم علیه السلام خصوصاً هو القبلة المنصوبة للسجدة، فهو علیه السلام فی أمر السجدة کان مثالاً یمثّل به الإنسانیّة مناب أفراد الإنسان علی کثرتهم، لا مسجوداً له من جهة شخصه، کالکعبة المجعولة قبلة یتوجّه إلیها فی العبادات و تمثّل بها ناحیة الربوبیّة.

ثمّ أورد العلاّمة لإثبات هذا المدّعی ثلاثة أدلّة من آیات القرآن الکریم قد تناولها بالتفصیل.

الثانیة: أنّ خلق آدم علیه السلام کان خلقاً للجمیع؛ ثمّ یورد لإثبات هذا المدّعی آیتین من القرآن بعنوان دلیل ، و آیتین تأیید و إشعار .

۱ـ «خلقت انسان» ص ۱۸۵، البحث و التوضیح الاضافیّ.

ثمّ يقول فى خاتمة بحثه و تفسيره :

و للمفسّرين فى هذه الآية أقوال مختلفة ؛ قال فى «مجمع البيان»: ثمّ ذكر سبحانه نعمته فى ابتداء الخلق فقال: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَكُم ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُم**. قال **الاخفش**. ثُمَّ ها هنا فى معنى الواو؛ و قال **الزَّجَّاج** : و هذا خطأ لا يجوّزه الخليل و سيبويه و جميع مَن يُوثق بعلمه، إنّما ثمّ **للشىء الذى يكون** بعد المذكور قبله لا غير.

ثمّ ذكر العلاّمة بعد نقل هذا القول: العلّة التى أوردها الزجّاج لكلامه من أنّ عرب الجاهليّة يقولون: فعلنا بكم كذا و كذا، و هم يعنون أسلافهم .

و قد جاء فى القرآن أيضاً: **وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ**، [1] و كان الخطاب هنا ليهود زمان النبىّ بما فعله الله بأسلافهم من يهود النبىّ موسى، و على هذا فإنّ ثمّ ليست بمعنى الواو، و هى من هذا الطريق تعنى التراخى؛ كان هذا كلام الزجّاج . [2]

و قد رفض العلاّمة لدليلين دليل الزجّاج على صحّة استعمال أمثال هذا الخطاب لإفادة معنى التراخى، لا أن يكون قد أثبت معنى الواو للفظ ثمّ. أى أنّه يقول: إنّ ثمّ لها معنى التراخى، و قد استعملت للتراخى للحقيقتين اللتين بيّنهما العلاّمة، لا للعلّة التى ذكرها الزجّاج .

فالعلاّمة فى ردّه على الزجّاج لم يردّه فى اعتبار ثمّ دالّة على التراخى ليثبت بذلك كلام الاخفش الذى عدّها بمعنى الواو، بل إنّه ردّ على تعليل الزجّاج فى استعمال ثمّ للتراخى، ليثبت بكلامه ـ ببيان تلكما الحقيقتَين ـ استعمال ثمّ فى التراخى.

١–الآية ٦٣، من السورة ٢: البقرة.

٢ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٨، ص ١٨ إلى ٢٠.

و ما أورده العلاّمة فی الجزء السادس عشر فی شأن هذه الآیة هو:

و ربّما استدلّ بقوله فی سورة الاعراف: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَئِكَةِ اسْجُدُوا لاَدَمَ** بناء علی أنّ **ثُمَّ** تدلّ علی التراخی الزمانیّ، و یلزم أن یکون للنوع الإنسانیّ وجود قبل خلق آدم لتؤمر الملائکة بالسجود له. و فیه أنّ **ثُمَّ** فی الآیة للترتیب الکلامیّ، و هو کثیر الورود فی کلامه تعالی، علی أنّ هناك معنی آخر «ثُمَّ» للترتیب الحقیقیّ أشرنا إلیه فی تفسیر الآیة فی الجزء الثامن من الکتاب .[1]

و قد اتّضح بما أوردنا من بیان للحقیقة، و شرح لقول العلاّمة فی کلام الموضعین حجم الخطأ الذی ارتکبه مؤلّف «خلقت انسان» فی نسبته للعلاّمة صرف ثُمَّ و سلخها عن معنی التراخی و اعتبارها بمعنی الواو. و یبدو بنظر الحقیر أنّه علی الظاهر لم یفهم معنی کلام الاُستاذ و مقصوده قبل أن یتصدّی للردّ علیه؛ فأجدر بالمرء التحرّز عن الخوض فی فنّ لا یمتلك مفاتحه و فنونه، لانّ البحث و التحلیل و النقد و الاجتهاد و إظهار النظر فی علم لا تخصّص للمرء فیه و لا مهارة لن یفضی بصاحبه عن القصد إلاّ بُعداً ، کمن سار فی مفازة علی غیر هدی .

لقد استلفت نظر الحقیر قبل أربعین سنة کتاب ما، فطالعته بدقّة حتّی أتیتُ علی آخره فهالنی أنّ کاتبه، و هو امرؤٌ طیّب حقّاً و لیس بمُغرض ، و قد بذل اهتماماً بالغاً لیطرح لطلبة الجامعة، و للمجتمع الإسلامیّ موضوعاً مهمّاً، و کان استنباطه للمطلب صحیحاً، و کتابه غیر خال من فائدة ؛ إلاّ أنّه قد ارتکب فی کتابه أخطاء و هفوات بیّنة و واضحة .

و کنت أُتابع ذلك الوقت تحصیلی فی الحوزة العلمیّة المقدّسة فی قم ،

١ـ «المیزان فی تفسیر القرآن» ج ١٦، ص ٢٧٤.

فأخذت الكتاب إلى الاستاذ العلاّمة و ذكرتُ له أمره، فكتب رسالة أرسلها للمؤلّف بشأن بعض هذه الاخطاء .

و لم يكن للحقير توقّف فى قم بعد تلك الرسالة، فقد سددت الرحال لإكمال الحصيل لارض الغرى، النجف الاشرف للإفادة من جوار و كنف مولى الموحّدين أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، و لم يتّضح لى بعد ذلك ما كان جواب الرسالة، لكنّى سمعت أنّ تلك الموارد قد تمّ إصلاحها فى طبعات الكتاب اللاحقة .

و كان ذلك الكتاب يبحث حول سيرة الانبياء و الهدف الغائىّ فى تكامل البشر، و تنظيم أمر دعوتهم و هدايتهم؛ ثمّ كتب فى خاتمة الكتاب بحثاً عن القيامة مع الاستفادة من آيات القرآن الكريم .

و لقد شكّلت العلوم الطبيعيّة المرتكز الاساس لابحاث الكتاب ، و خاصّة فى بحثه النهائىّ عن القيامة، حيث استند إلى بحث المادّة و بقائها و آثارها و خواصّها المحيّرة للعقول. ثمّ واصل المؤلّف بحثه عن إثبات بقاء المادّة حسب قانون **لافوازيه**، و عن تبدّل أشكال الطاقة مع حفظ أصلها حسب القانون الاول **للثرمو ديناميك**، و عن استحالة نشوء وجودحىّ من مادّة غير حيّد، حتّى أنّه استخلص من قانون **لامارك** و **داروين** علامات للقيامة، و اتّخذ من قانون لافوازيه طليعة بشارة لها ضدّ المادّيّين الطبيعيّين الذين ينكرون الخالق .لكنّ هذا البحث قد تضمّن إشكالات مهمّة عدّة :

الاوّل: الاعتقاد بأصالة المادّة و الالتفات الشديد إلى آثارها، لدرجة يصرّح معها فى كثير من الموارد أنّه: على فرض إنكار الروح و بقائها فإنّ مطلبنا لن يتأثّر أو يتزعزع، بل سيبقى له أهمّيّته و قيمته. و فى الحقيقة فإنّ كلامه كان بحثاً عن سيرة الانبياء و حاصل أتعابهم و مجاهداتهم فى إيصال البشريّة إلى الكمال ، و فى وجود المعاد و يوم الجزاء ، لكنّ هذا البحث

لم يَعْدُ عَن كونه بحثاً فيزيائيّاً و ميكانيكيّاً فقط، لم يتخطّ هذا الإطار المعيّن إلى خاتمته، ثمّ ينتهى بالاعتراف بالنتائج الحاصلة من هذه المادّة و علائقها العميقة الدقيقة .

الثانى: إنكار الروح المجرّدة، و بشكل عامّ إنكار جميع المجرّدات ، فلم يأتِ فی كتابه بذكر لِمَلَك مقرّب و لا لذكر العالم العلوىّ!، بل أنكر تصريحاً و تلميحاً عالم المعانى مقابل عالما لمادّة، و أنكر العالما لعلوىّ مقابل العالم السفلىّ، و لم يميّز الروح عن الجسد، [1] و اعتبر الدعاء و التوسّل لغواً لا تأثير له، و الصحّة و السلامة مكفولة برعاية التعاليم الصحّيّة و الطبّيّة، سواء توسّل المريض بمريم أم بأبى الفضل العبّاس عليهما السلام أم لم يتوسّل . [2]

والثالث: اعتباره علم الحكمة و الفلسفة بشكل عامّ باطلاً لا فائدة ترتجى منه، و عدّ انتشارها فی البلاد الإسلاميّة زمن الخلفاء العبّاسيّين ناشئاً من العداء لمدرسة أهل البيت عيهم السلام و محاولة جعلها سدّاً أمامهم . [3]

و العجيب أنّه عدّ الحكمة بمعنى الفلسفة اليونانيّة ! و فسّر الحديث

١ـ يقول فی نفس الكتاب، ص ١٠٩: و باختصار فإنّ جميع المنازعات التی كانت بين العلماء السابقين بشأن الجسم و الذات و المادّة و الروح تختم هنا بأن: لا شیء هناك إلاّ الطاقة؛ فمقدار الطاقة الكلّيّة الموجودة فی الدنيا، أو بعبارة أُخرى: المقدار الكلّىّ للدنيا ثابت لا يزول ـ انتهى.

و هذا القول هو عين مقولة المادّيّين، فهم لا يقولون شيئاً أبعد منه؛ و الحكيم الاٴلهىّ هو الذى يمكنه هنا إبطال كلامهم، و إلاّ فإنّ عالم الفيزياء و عالم الطبيعة سيتوقّفان هنا لا محالة، و سيحنيان الرؤوس خاضعين شاءا أم أبيا، و ينبغى العلم أنّ دراسة الحكمة و الفلسفة من الضروريّات للاستدلال على التوحيد و البرهان العقلىّ.

٢ـ كتاب «راه طی شده» (= الطريق المطوىّ) ص ٩٢.

٣ـ «راه طی شده» ص ٦٠.

المروى عن الصادق عليه السلام: **الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤمِن** بمعنى مُضِلَّة المؤمن. و قال: والظاهر أنّ قول الصادق: **الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤمِنِ** كان فى شأن هذه الفلسفة أو الحكمة اليونانيّة .

و قال فى الهامش : إنّ البعض قد ترجم **ضَالَّة المُؤْمِن** بمعنى الشيء المفقود الذى يبحث عنه المؤمن، و ذلك دفاعاً منهم عن الحكمة اليونانيّة . [1] كما يقول فى مكان آخر: لقد سِرنا منذ القدم الاوّل على طريق المتاهة فوصل بنا الامر إلى السقوط فى ضائقة كهذه! و لقد صدق إمامُنا حين قال : **الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ** . [2]

الرابع: نسبته مطالب غير صحيحة للفلاسفة و الفقهاء المسلمين نتجت حسب رأيه إثر تماسّ و تلاقح الافكار الفلسفيّد لحكماء اليونان الكبار مع أفكارهم و آرائهم. حتّى يصل إلى القول (على لسانهم): ينبغى تقصّى منشأ أبس حركة أو أثر حاصل فى الاشياء أو الاشخاص فى مشيئة العالم العلوىّ، و بواسطة الارواح اللطيفة من جنّ و مَلَك و غيره. **فالسحب** ترعد من لفح سياط الملائكة، و **قوس قزح** هو قوس أميرالمؤمنين ، و الزلزلة و الصاعقة و السيل و القحط ليست إلاّت بلاءً سماويّاً ينزل لتأديب العصاة، فإن تاب الناس و أقلعوا و رفعوا الايدى مبتهلين متضرّعين بالدعاء فستتكاثف السحب بقدرة قادر و ستنهمر أمطار الرحمة .

أمّا سبب الامراض و الاوبئة فهو غضب الله أو انتقام الجنّ للاضرار التى لحقت بهم ، و السبيل إلى علاجها بشرب الماء الذى تُمتم عليه بدعاءٍ

١ـ كتاب «راه طى شده» (= الطريق المطوىّ) ص ٥٩، الطبعة الأُولى، سنة ١٣٢٧ هجرىّ شمسىّ.

٢ـ «راه طى شده» ص ٦٤.

ما، أو بالطلاسم و التماثم، أو بتسخير الارواح .[1]

الخامس : الاهتمام و العناية التامّة بمدرسة الغرب و العلماء الأُوروبيّين و علماء المسائل التجريبيّة و الطبيعيّة و الميكانيكيّة، و تجاهل علماء و فقهاء الإسلام و ذكرهم باسم **المشايخ**، و فى صفّ **القسسة** ،[2] و تقديمهم على أنّهم أفراد جامدون قصير و النظر ضحلو الافكار؛ و التناسى الكلّىّ لخدمات نوابغ العلم و العلماء الحقيقيّين الذين غاصوا فى متون الفكر و المعرفة؛ و الانشداد إلى مختبر فلان الفرنسىّ أو محلّ تجارب فلان الإنجليزىّ. و كان من بين مطالبه: «أنّ التقدّم العلمىّ لم يجعل العالم المختصّ بالطبيعة موحّداً عمليّاً فقط، بل إنّه صار يدرك الصفات الثبوتيّة للّه أفضل بكثير من أمثال **العلاّمة الحلّىّ** و **الشيخ مرتضى الانصارىّ**؛ صحيح أنّه لا يتلفّظ ب **الله اكبر**، لكنّ فهمه لعظمة الدنيا و سعتها، أى عن صنع الله، و إدراكه للقدرة الموجودة حتّى داخل الذرّة الواحدة، يعادل ملايين المرّات ما افترضوه استناداً على الهيئة اليونانيّة» .[3]

١ـ «راه طى شده» (= الطريق المطوى» ص ٥٩.

٢ـ «راه طى شده» ص ٤٨، و لكن لىّ دين؟ دين القسسة و المشايخ؟ الدين المحرّف لمن يقولون بالطبيعة و ماوراء الطبيعة ؟أُولئك الذين يمزجون الدين بالافكار القديمة و يتبعون العلوم و الفلسفة اليونانيّة الخاطئة، و يصرّون على إظهاره فى قالب سلسلة من الطقوس و التشريفات والمراسم و المظاهر القديمة المندثرة ـ إلى آخره.

٣ـ «راه طى شده» (= الطريق المطوىّ) ص ٥٣.

و يقول أيضاً: إنّ العالِم المعاصر المتخصّص بالميكروبات هو أيضاً من فقهاء الدين فى تصوّر دقائق الطبيعة و اللطافة التى صنعتها يد خالقها، فهم لا يقولون كلّ يوم خمس مرّات سبحان الله ٣٣ مرّة، لكنّهم يعتبرون جهاز الخلقة منظّماً محفوظاً من الخطأ بحيث يمكنهم بمحاسبات أرقام صغيرة معدودة أن يخبروا عن وقائع حدثت قبل ملايين السنين ، أو عن مصير آلاف السنين المقبلة . فلانّهم عرفوا المصنوع دُقّ و أكمل منّا ، فمن

و ما يحضرنى الآن أنّ العلاّمة قدّس الله نفسه.شار فى رسالته بإجمال ـ و كانت فى حدود الصفحتين ـ إلى بعض المطالب التى ذكرناها، و ورد فى جملتها أنّ الحكمة قد وردت فى القرآن الكريم، و تعنى المعرفة المتعالية و البناء الشامخ للفكر الواقعىّ طبقاً لإدراكات الإنسان الحقيقيّة؛ و قد امتدح الله تعالى نبيّه فى موارد عديدة بأنّه و هبه **الحِكْمَة**، و لم يعدُ معناها فى الروايات عن هذا المفهوم .

و أمّا **ضَالَّة** فمن مادّة **ضَلَّ يَضِلُّ ضَلاَلاً** بمعنى الضياع، و هى فعل لازم ثلاثىّ مجرّد، و متعدّيه بمعنى الإضلال: **أَضَلَّ يُضِلُّ إضْلاَلاً** من باب إفعال ثلاثىّ مزيد.

و على هذا فإنّ **ضَالَّةُ المُؤمِن** تعنى أنّ علم الحكمة المفقود الوحيد للمؤمن، يشهد على هذا المطلب تتمّة الحديث: **أَيْنَمَا وَجَدَهَا أَخَذَهَا** ، كالشخص الذى أضاع شيئاً فهو يبحث عنه، أينما بصر به أخذه . [1]

المسلّم أنّهم يمكن أن يعبدوا الصانع أفضل منّا و يقتربوا منه أكثر ـ انتهى.

و ينبغى على هذا القول أن يكون أمثال ابن أبى العوجاء و عبدالله بن المقفّع و علماء الفيزياء الشيوعيّون فى الاتّحاد السوفييتىّ (السابق) الذين ينكرون الله هم حقيقة أهل التوحيد. كلاّ، فالامر ليس كذلك، فما دام هؤلاء لم يعتبروا عالم المادّة بجميع آثاره تحت إرادة و قيوميّة إله عالم ذى شعور حىّ بسيط أزلىّ أبدىّ فرد واحد أحد صمد قيّوم، فهم مشركون كفّار بلا أدنى شكّ أو ريب .

١ـ أورد الشيخ هادى كاشف الغطاء فى «مستدرك نهج البلاغة» ص ١٥٨ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: **الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤمِن، وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بِغَيْرِهِ**، و ما ورد فى نفس «نهج البلاغة» هو: **الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِن؛ فَخُذِ الحِكْمَةَ وَ لَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ**. و فى «تحف العقول» بهذه العبارة: **فَلْيَطْلُبْهَا وَ لَوْ فِى أَيْدِى أَهْلِ الشَّرِّ** ـ انتهى ما جاء فى «المستدرك».

و روى المجلسىّ رضوان الله عليه فى « بحار الانوار» ج ٢ ، ص ٩٩ الطبعة

و أمّا ما نسبتَ من رعد الغيوم جزّاء لفح سياط المَلك، و تسمية قوس الله [1] بقوس أميرالمؤمنين و نظير هذه المسائل، فإنّ نسبة هذه المسائل إلى الفلاسفة المسلمين أمرٌ غريب جدّاً؛ و فى أيدينا الآن جميع كتب الفلاسفة المسلمين من الطراز الاوّل مثل **ابن سينا** و **الفارابىّ** و **صدر المتألّهين الشيرازىّ**، و من الطراز الثانى **كابن رُشد** و **بهمنيار** و **الخواجة نصيرالدين الطوسىّ**، لكنّنا لم نَر و لم نسمع عن أحدهم شيئاً كهذا.

و أمّا إثبات عالم المجرّدات، و الروح المجرّدة، فلا ينافى حقيقة المادّة و آثارها ، فلا بينونة و لا افتراق بينهما ؛ فللمجرّدات تأثير فى

الحروفيّة، عن «الامالىّ» للشيخ بسنده المتّصل عن أميرالمؤمنين عليه السلام، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: **كَلِمَةُ الحِكْمَةِ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُ بِهَا.**

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: **خُذِ الحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ فَإِنَّ الحِكْمَةَ تَكُونُ فِى صَدْرِ المُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ فِى صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِى صَدْرِ المُؤْمِنِ.** («نهج البلاغة» باب الحِكَم، ص ١٥٤، طبعة مصر بتعليقة الشيخ محمّد عبده)، و ضبطها فى «البحار» **فَتَتَخَلَّجُ**، أى: **تَضْطَرِبُ** .

قال أميرالمؤمنين عليه السلام: **الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤمِنِ؛ فَخُذِ الحِكْمَةَ وَ لَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ** («نهج البلاغة» باب الحكم، ص ١٥٤).

و قال الراغب الاصفهانىّ فى «المحاضرات» ج ١، ص ٥٠: قال الرسول الاكرم صلّى الله عليه (وآله) و سلّم: **الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ، أَيْنَمَا وَجَدَهَا قَيَّدَهَا.** و قال أيضاً: **خُذِ الحِكْمَةَ مِمَّنْ تَسْمَعَهَا مِنْهُ، فَرُبَّ رَمْيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ، وز حِكْمَةٍ مِنْ غَيْرِ حَكِيمٍ.** و قال أيضاً: **لاَ يَمْنَعَنَّكَ ضَعَةُ القَائِلِ عَنِ الاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ؛ فَرُبَ فَمٍ كَرِيهٍ مَجَّ عِلْماً ذَكِيّاً، وَ تِبْرٍ صَافَ فِى صَخْرٍ جَاسٍ.**

و قال فى «سفينة البحار» ج ٢، ص ٣٤: و قال عيسى عليه السلام: **لاَ تَضَعُوا الحِكْمَةَ فِى غَيْرِ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا! وَ لاَ تَمْنَعُوهَا أَهولَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ! وَ كُنْ كَالطَّبِيبِ الحَاذِقِ يَضَعُ دَوَاءَهُ حَيْثُ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْفَعُ.**

١ـ ورد فى الرواية: لا تقلْ قَوْسُ قَزَح فإن قُزَح اسم الشيطان، و لكن قُل قَوْسُ اللَهِ.

المادّيّات هو عينه حكومة القوّة و أثرها فى المادّة، لا فرق بينهما فى هذا الامر؛ و عالم المجرّدات هو فى باطن و فى طول عالم المادّة، لا فى ظاهره و فى عرضه. فمع وجود جميع الآثار التى تذكر للمادّة، و التى لا ينكر الحكماء و الفلاسفة أيّاً منها، فإنّ العالما لعلوىّ من المجرّدات و البسائط، و أخيراً من الصفات و الاسماء، و ذات البارى تعالى شأنه الذى لا شبهة فى تجرّده تبعا لقول الموحّدين مقابل المادّيّين، كلّها موجودة مع المادّة و الطبيعة، و لا يمكن تعقّل الانفكاك بينهما ـ انتهى ما بقى فى ذاكرتنا من ردّ العلاّمة بعد مرور هذا الزمن الطويل .

لقد كان المراد أنّ الإنسان حين يمتلك مهارة و تخصّصاً فى فن معيّن، فإنّ عليه الاجتهاد فى ذلك الفنّ فقط، و لا حقّ له فى الدلالة فى الفنون الأُخرى بإظهار النظر و الحكم؛ و فى غير هذه الحالة فإنّ مثل هذه الاخطأء و الهفوات ستكون من نصيبه.

و قد نشرت إحدى المجلاّت أخيراً مقالة باسم «بسط و قبض تئوريك شريعت» (= انبساط و انقباض نظريّة الشريعة)، و عنونتها باسم «نظرية تكامل معرفت دينى» (= نظرية تكامل المعرفة الدينيّة). [١]

و هذه المقالة مليئة بالاخطاء و العثرات، نشير فيما يلى إلى مواضع الخطأ حسب نظرنا :

الاوّل : بالرغم من تكرار الكاتب فى عدّة مواضع من أنّ الشريعة كالطبيعة ثابتة لا تتغيّر ، وأنّ ما يخضع للتغيير هو فهم الاءنسان لهما ، وأنّ تغيير الفهم الحاصل وفق ضرورات البيئة ونشوء العلوم والتفاعل سلباً وإيجاباً

١ـ مجلّة (كيهان فرهنگى» (= العالم الثقافيّة) رقم التسلسل ٥٠ إلى ٥٢، أُرديبهشت ماه ١٣٦٧ و تيرماه ١٣٦٧ شمسيّة، رقم ٢ و رقم

بين المعلومات السابقة والظواهر الفعليّة ، هو أمر حتمىّ لا يمكن اجتنابه ؛ لكنّه مع ذلك يستنتج فى مقام التفصيل والبيان أنّ مجموعة معارف الانسان فى أىّ عصر ، من فهم العلوم الحديثة والاكتشافات المبتكرة والفلسفات العصريّة ، ينبغى أن تكون ميزان ومعيار فهم الانسان للقرآن والسنّة ، فما فهمه واستنبطه الفقه والفقهاء والتفسير والمفسّرون والحديث والمُحَدِّثون فصار عماد عملهم يجب تحديثه وفق الأُسلوب المعاصر ، ليخرج بأُسلوب يقرّه العصر ، وليواكب و يماثل المدارس والاتّجاهات العصريّة التى تعرض نتائج علومها وتحقيقاتها . وحاصل الأمر فإنّ على العالم والمفسّر والفقيه أن لا يتّكل على أمر تعبّدى أبداً ، فيراعى فى علمه وتفسيره وفتواه احتمال المراحل العالية والمنازل السامية التى لم ينلها ، أو يضع القرآن والسنّة والإسلام على محور الأُمور التعبّديّة ؛ فما اعتمد عليه العلم العصرىّ ينبغى أن يصبح هو المرتكز لهذه الأُمور، فذاك هو الأُسلوب الوحيد الكفيل بتقدّم الفقه والعلم . و رداً على ذلك نقول :

بناء على هذا المنحى فلن يكون لدينا ثَمّة قرآن ولا سنّة ، ولا فقه ولا تفسير، فإذا تقرّر إدخال العلوم البشريّة المتغيّرة فى الغايات من العقائد والأفكار والأخلاق والعمل فسنكون قد سلبنا إلى الابد من الدين والشريعة ثباتهما ، ومهما قلنا إنّنا نعتبر الدين والشريعة محترمة وثابتة ، لكنّنا نكون من الناحية العلميّة قد وضعنا مفاتحها بأيدينا ، فصرنا نحاول عند ظهور أى قانون ونظريّة أن نفسّرها وندخل مستلزمات العصر فى ثبات المذهب وأصالته ، وفى الحقيقة فإنّنا سنكون قد دققنا المسمار ليس فى نعش الاسلام وحده ، بل فى نعوش جميع الشرائع .

والسرّ فى ذلك أنّ العلوم البشريّة مهما سمت وعلت وتكاملت فهى محدودة ومقيّدة ، إذ يمكن أن يأتى علم أعلى منها وأسمى ويضع قدمه فى

اميدان فيهدم ما بناه بالأمس .

والشاهد على هذا أنّ جميع العلوم التى تعاقبت الواحد تلو الأُخرى فكلّ منها قد نسخ كلُّ العلم الذى سبقه ؛ كلُّ علم له مريدوه الذين يعتقدون ـ أوان ظهوره وبزوغ نجمه ـ أن لا علم أعلى منه وأسمى ، ويعجز من أراد إلزامهم وإقناعهم بغير ذلك ، لانّه هو نفسه لم يصل إلى علم أعلى منه وأرقى ؛ أما حين يشرف نجم ذلك العلم على الغروب ليتوارى خلف الافق ، ويظهر العلم الجديد الناسخ له ، فإن القديم سيعد فى المسائل البالية الخرافية حتى عند أصحابه وأنصاره .

فالالكترون الذى يعد اليوم من بديهيات علم الكيمياء والفيزياء هو من علومنا وشؤوننا نحن ، وفى يومنا هذا لا فى غدنا ، وغدا حين يتوصل البشر إلى اكتشاف أدق وأعمق ، فينكر أصل الذرات بهذه الكيفية ويزيح الستار لنا بالتجربة والاختبار عن عجائب أخرى من الذرة ، عندها سنضحك على أفكار يومنا المنصرم ، ونسخر من يقين وبرهان وإصرار أمسنا .

إن الدين والشريعة الالهية الحقة جاءت من عند الله تعالى بأصالتها وواقعيتها ، ويقينا أن تعبدياتها تفوق أوامرها ونواهيها البديهية بآلاف المرات ؛ وليس للدين معنى غير نزوله من جانب العلم المطلق على الانسان والبشر ذى العلم النسبى ، والمرتقى يوما بعد آخر من درجة القابلية إلى الفعلية ، وسيبقى البشر فى هذا المستوى مهما استعان بالعلوم والمعارف التجريبية ؛ من ميكانيك وفيزياء وطبيعيات ، ومن علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم طبقات الارض والنبات والحيوان ، وعلم الحياة والكيمياء المعدنية والآلية ، والهيئة وغيرها ؛ قاصرا عن أن ينال بيده عالم الربوبية ، أو يحيط بأسرار الخلقة وخفاياها التى لاتحصى والمحيطة به من كل جانب ، وأن يزيح التعبد عنه جانبا ، إلا أن نقول إننا قد فهمنا العالم

المطلق واكتشفنا سره ولغزه ، وهو قول جزاف خاطى .

فجميع حكماء الأمس واليوم ما لبثوا غارقين فى البحث الجاد ، و معترفون فى الوقت نفسه أن يدهم لم تغترف من العلم شيئا ، وأ نهم بعد لم يرتووا من بحور الاسرار والعلوم قطرة !

إن أول الاشياء التى تنكرها العلوم التجريبية الحالية هو وجود الملائكة ووجود الجن ، فهم ينكرونها لجهلهم بها وعدم وصولهم لإدراكها ، فيقولون : إننا لا نصدق بشىء لانراه ولا نحسه ، فإذا ما وفقت هذه العلوم التجريبية غدا لرؤية الملائكة والشياطين فيومئذ سيحصل لهؤلاء اليقين والاقرار .

أما الحكماء الاءلهيون والربانيون المطلعون على الحقائق والاسرار ، والعارفون بحريم قدس وأمان الله ، فلهم بيانات كالشمس الساطعة عن وجود الملائكة وأشكالهم وشمائلهم ووظائفهم وتكاليفهم ، وعن وجود الجن وأشكالهم وأصنافهم ، كل ذلك اعتمادا ومتابعة لآيات القرآن النازلة من المطلع على الغيب بخفيه وجليه .

أفهل فقدنا رشدنا كى نعرض عن هذه الحقائق صفحا ونقول بأننا لا نعترف بالجن ، لان علم معرفة الجن لم يقرر بعد فى مناهج جامعات أوروبا وأمريكا ؟!

إن التوغل والتعمق فى العلوم المادية للحد الذى تعتبر المادة عنده مع جميع آثارها وخواصها المدهشة أزلية أبدية ، ومن ثم إنكار العالم العلوى والملائكة والنور المطلق للخالق العالم الحكيم الواحد ذى الشعور المسير للعالم تحت هيمنته وإرادته ومشيئته الواحدة المباشرة ، ليس إلا عبادة للمادة وعكوفا فى محرابها ؛ وعند الفلاسفة الماديين مدرسة فى هذا الاتجاه .

ولقد كرر الطبيعيون السابقون ، ويكرر الماديون اليوم هذه المقولة ـ عبر مدرستهم واتجاههم الفكرى ـ مقابل الالهيين .

لكن القرآن ، وهو الكتاب الحكيم المحكم ، ولسان الخالق الناطق الحكيم بلا واسطة ، اعتبر الإيمان بالغيب شرطا لليقين والفلاح :

الم ذلك الكتـ'ب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلو'ة ومما رزقنـ'هم ينفقون * والذين يؤمنون بمآ أنزل إليك ومآ أنزل من قبلك وبالاخرة هم يؤقنون* أولـ'ئك على' هدى من ربهم وأولـ'ئك هم المفلحون .

فقد عد صراحة فى هذه الآيات الاءيمان بالغيب والعالم العلوى والآخرة والتعبد المحض بما أنزل الله تعالى شرط السعادة الابدية ، وعد بعدها مباشرة غيرهم من الأفراد كفارا ، وحكم عليهم بالختم على القلوب والاسماع ، وبالغشاوة والحجاب على الابصار ، وتوعدهم بالعذاب الاليم :

إن الذين كفروا سوآء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على' قلوبهم وعلى' سمعهم وعلى'أبصـ'رهم غشـ'وة ولهم عذاب عظيم . [٢]

وكذلك فإن القرآن الكريم يعد من البر : الاءيمان بالملائكة والعالم العلوى ، أى الايمان بيوم الجزاء :

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولـ'كن البر من ءامن بالله واليوم الاخر والملـ'ئكة والكتـ'ب والنبيين . [٣]

١- الآيات ١ إلى ٥ ، من السورة ٢ : البقرة

٢ـ الآيتان ٦ و ٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣ـ النصف الاول للآية ١٧٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

ويعتبر إتقان وإحكام الكتاب الاءلهى في خلوده وأبديته ، فمعانيه ومفاهيمه تبقى راسخة لا يزعزعها هبوب رياح الاءلحاد والكفر ، ولا عواصف الزندقة والشبهة ، ويبقى في منأى عن عبث أيدى الملحدين أن تغير فيه وتهدم ، وعن أن يستطيع الغبار المتكاثف وسحب النفوس الشيطانية الحالكة ووسوسة الاءنس أن تنثر على طلعته المشعة المنيرة هباء النسخ والبطلان .

فمعنى التصرف في معانى الآيات القرآنية ورفع اليد عن ظهورها بلا قرينة يقينية نقلية أو عقلية هو الاجتهاد في أصول الدين ، لا الاجتهاد في فروعه .[1]

فالاجتهاد في أصول الدين خطأ ، والاجتهاد في فروع الدين ينبغى

١ـ يلزم أن نذكر هنا عبارات وردت في هامش صفحة ٥٨ من كتاب «راه طى شده» (= الطريق المطوى) ، يقول فيها مؤلف الكتاب (وهو من مخالفى الفلسفة والحكمة اليونانية) :

«ويقال اعتراضا بهذا الخصوص إن الدين والعلم للبشر يلزم ـ مع عين ارتباطهما واحتياج أحدهما للآخر ـ أن يحفظ كل منهما استقلاله وكيانه ، فكلما أمكن فهم مطالب وأحكام الدين وتطبيقاتها بالتبصر والدقة اعتمادا على الموازين العلمية كان ذلك أفضل ، لكن العلم باعتبار وقوعه في معرض الخطأ والنقص ، فهو دوما في حال إصلاح وإكمال ، ولا يمكنه أن يكون ملاكا قاطعا ثابتا للدين ، ولا ينبغى للدين أن يسمر ويبقى أسيرا في قالب المعلومات الزمنية» .

وهو قول صحيح وبين ؛ لكن كلام صاحب مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت» (= بسط وقبض نظرية الشريعة) يخالفه تماما ، فهو يقول بصراحة :

« إن الدين والعلم شأنهما شأن خاطرتين فكريتين ، وشأن ضيفين يؤثر أحدهما في الآخر ، فعلم الهندسة يغير الدين ؛ وعموما فإن المعلومات الدينية تفتقد الاصالة والثبات ، ويبقى على عاتق العلماء أن يوازنوا ويوافقوا بين هندسة فكرهم الدينى مع هندسة المعلومات اليومية والعلوم الجديدة»

أن لايتخطى الموازين الشرعية التى يختص بحملها الفقهاء .

أما التصرف فى مفاهيم ايات القرآنية على أساس مناهج البحث وطرقه ، وعلى أساس مفاهيم الاحياء والنهضة التى تستشم من المقالة المذكورة ، فليس فقط نسخا للقرآن ، بل هو مسخ للقرآن .

والآشكال الثانى : أن الفلسفة القديمة فى نظر صاحب المقالة منزوية معزولة ، قد نسختها الفلسفة الحديثة ، حيث وصف الاخيرة بأنها مفتاح طريق السعادة البشرية إلى جادة الرقى والتكامل .

ونجد لزاما قبل البحث والدخول فى صلب الموضوع والتعمق فيه والبحث فى مواضع الخطأ ومواقع الهفوات ، أن نذكر بهذه النكتة :

إن إطلاقهم لفظ **القديم و الجديد** على أى فلسفة أو علم أو دين أو اتجاه أو مدرسة يعبر عن نواياهم بوأد القديم منذ الخطوة الاولى ، ولتوجيه السامع نحو هذا الحديث مهما كان .

وهذا الاسلوب من أنجح أسلحة الاستعمار وأكثرها فعالية ، فهو يحاول منذ الوهلة الاولى باستعمال عنوان القديم والقدم ، المتضمن لمعانى التهرؤ والتآكل والرثاثة ، أن يخطر ذلك المعنى والمحتوى ويرسخه فى ذهن السامع ، ليبعد القديم عنه إلى الابد ويهيل عليه تراب النسيان ، لئلا يدور فى خلده يوما حتى مجرد الرغبة فى رؤيته والتطلع لمنظره الظاهرى الخارجى .

ونلحظ تسميتهم مدارس طلبة العلوم الدينية والمعارف الاءسلامية بالقديمة ، والجامعات السائرة على المنهج والاسلوب الاوروبى بالجديدة ، فيكونون بعملهم هذا قد مهدوا للقضاء على العلم والمعرفة والدين والحقيقة والشرف والإنسانية والرسول والإمام والملك والحديث والقرآن ؛ و فى المقابل فقد روجوا للمادية وأبهتها ومظاهرها الخلابة ، وصادقوا على كيفية

تنشئة الجيل الجديد ليكونوا عبيدا وأسرى للثقافة المنحطة والاخلاق المشؤومة لامم اليهود والنصارى من الشرق والغرب .

أى أنهم بقولهم إن هذه الدراسة حديثة وتلك قديمة قد قطعوا نصف الطريق ، بل ثلثيه وصولا إلى أهدافهم المشؤومة الشريرة . فالله سبحانه أقدم من كل قديم ، وهو أجد من كل جديد ، يستوى عنده القدم والحداثة ، فهو موجود دوما ، وحى وعالم ومحيط دوما ، لان له أصالة وثبات ، مقابل زوال واضمحلال ما سواه .

إن نبى الإسلام ، ودراسة القرآن ، والبحث فى التأريخ الإسلامى ، والفلسفة والعلوم الإسلامية ، وحكمة الإسلام وعرفانه ، وصولا إلى جميع الفنون المتفرعة عن شريعته المقدسة ، من علم التفسير وعلم الحديث ، وحتى العلوم التمهيدية كالمنطق والعربية والادب العربى الذى يسلط الضوء على لسان ولغة هذا النبى العظيم وهذه الآية الاءلهية العظمى ، هى كلها حديثة ذات غضارة ونضارة ، أشبه ببرعم غض فتح للتو أكمامه فى جنينة الورد ذى العبير الفواح ، تتأبى على القدم والاندراس .

أما تلك العلوم التى تبحث أصالة عن المادة أو تؤول إلى التوسع المادى والمأكل الجيد والاجترار الجيد ، الخاوية من آثار الاءنسانية والكمال والحكمة الاءلهية والعرفان الاءلهى ، فهى من المخلفات والبقايا العتيقة المندرسة للامم والاقوام الهمجية وإنسان الغاب الحيوانى الذى تلبس بالطراز الحديث ، فصارت وحشيته وهمجيته القديمة حديثة .

فهم يسقون شبابنا الصاعد باسم المدنية والتكامل نفس الوساوس والافكار الشيطانية ، ويضعون فى رقابهم نير العبودية (عبودية النفس) ، ويحرمونهم من جميع مزايا الإنسانية باسم وعنوان جديد وضمن قالب

وأسلوب حديثين .[١]

وينبغى لهذا الامر أن تستبدل كلمة قديم التى استعملت للفلسفة والمدارس بكلمة أصيل .

و أما إشكالنا وبحثنا فى اعتبارهم الفلسفة قديمة معزولة منزوية ، فهو أن علم الفلسفة الذى يدعى بالحكمة ويدعى صاحبه بالفيلسوف و الحكيم ، من أشرف العلوم التى حصل عليها الاءنسان فى تأريخ البشرية إلى الآن من بين جميع العلوم ، لا نه علم بناء الإنسان ضمن قدرات البشر وطاقاته . ولقد جاء ذكر الحكمة فى موارد عديدة من القرآن الكريم ، وصف فيها البارى تعالى شأنه نبيه الكريم فى مقام امتداحه له بأ نه يعلم الناس الحكمة :

هو الذى بعث فى الامين رسولا منهم يتلوا عليهم ءاياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .[٢]

١-يقول صديقنا العالم المعظم الشهيد الحاج الشيخ مرتضى المطهرى رحمة الله تعالى عليه فى كتاب «الانسان الكامل» ، بالفارسية ، ص ١٩٤ و ١٩٥ : يقول العالم الايطالى اسمه ميكافيللى ، الذى يدور أساس فلسفته حول مسألة التفوق والسيادة : إن الشيء الوحيد الذى ينبغى النظر إليه فى الدنيا هو التفوق والسيادة ، ولا قيمة هناك لاى شيء آخر ، إلا أن يكون مقدمة للوصول إلى التفوق والسيادة . فالكذب والحيلة والخداع والمكر كلها مباحة فى سبيل الوصول إلى التفوق والسيادة .

وهناك فيلسوف آخر ألمانى يدعى نيتشه ـ جن فى أواخر عمره ـ كان يعتقد أن أساس القدرة وأساس الاخلاق يتمثل فى القدرة .

وهناك فيلسوفان غربيان أحدهما ديكارت الفرنسى والآخر بيكون الاءنجليزى طرحا نظرية قبل ذلك بأربع قرون بشأن العلم ، فقالا : إن شرف العلم وفضيلته هو فى الاستفادة منه لتطويع الطبيعة . لذا فقد أسقطا شرف العلم من أصالته . وبالرغم من أن هذه النظرية قد أعقبت إعمار الطبيعة بيد الاءنسان ، لكنها بنفسها قد أفسدت الاءنسان بيد الاءنسان نفسه .

٢- الآية ٢ ، من السورة ٦٢ : الجمعة .

ونلحظ هنا أن الله سبحانه يعد تعليم علم الحكمة وظيفة وواجب نبيه الكريم ، وجلى أن هذه الحكمة غير القرآن ، لا نها وردت قسيما لكلمة الكتاب ومعطوفة عليها ؛ وأ نه يعتبر الناس قبل البعثة فى ضلال مبين لافتقادهم علم الحكمة والرشد والتكامل الانسانى .

ويذكر كذلك دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام خلال بناء الكعبة أن : ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينآ إنك أنت التواب الرحيم . [1]

وبعد ذلك يدعو الاب والابن صاحبا الشأن العظيم وعبدا الله المخلصان هذان ربهما بهذا الدعاء : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم ءاي'تك ويعلمهم الكت'ب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . [2]

١ـ الآية ١٢٨ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ١٢٩ ، من السورة ٢ : البقرة .

يروى الخطيب البغدادى فى كتاب «تقييد العلم» ص ١٤٦ و ١٤٧ ، بسنده المتصل عن محمد بن حجادة ، عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : لا تطرحوا الدر فى أفواه الكلاب . يقول ابن بكار : على ما أعلم فإن مراد النبى كان العلم ـ انتهى .

وأورد الشيخ هادى كاشف الغطاء فى «مستدرك نهج البلاغة» ص ١٥٨ : قال أمير المؤمنين عليه السلام : الحكمة ضالة المؤمن ؛ والسعيد من وعظ بغيره . (والمروى فى «النهج») : الحكمة ضالة المؤمن ؛ فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق . وفى «تحف العقول» : فليطلبها ولو فى أيدى أهل الشر .

وأورد فى «المستدرك» كذلك ، ص ١٧٨ أ نه عليه السلام قال :

الحكمة ضالة المؤمن ، فاطلبوها ولو عند المشرك ، تكونوا أحق بها وأهلها انتهى كلام صاحب «المستدرك» .

وأورد الحكيم المحدث المفسر العالم الاسلامى الكبير الملا محمد محسن الفيض

ونرى هنا أن أفضل دعاء وابتهال لهذين النبيين الجليلين ؛ فى ذلك الظرف الخطير وتلك اللحظات العظيمة فى بناء الكعبة ورفع جدار قبلة المشتاقين لسلوك طريق المحبوب ، ومن شدهم الوجد للقاء المعشوق ، والمتلهفين لاجتياز الماديات الملوثة للطبيعة فانشغلوا بقطع الدنيا وهم فيها إلى ماورائها من عوالم ؛ هو أن يبعث فى هؤلاء القوم نبى آخر الزمان : محمد بن عبد الله ليعلمهم الكتاب والحكمة ، فيخرجهم من زمرة البهيمية ، ويربيهم ويهديهم للتكامل ولبلوغ أوج كمال الانسانية .

فكم هو قيم جليل علم الحكمة ليدعو به إبراهيم وإسماعيل واضعا الحجر الاول فى بناء التوحيد وشريعة الاسلام المقدسة ، ليكون من نصيب الثمرة الوحيدة التى تمخض عنها عالم الوجود ، وثمرة فؤادهما الذى تمثلت فيه أرقى وأسمى نماذج الحياة .

ثم يقول تعالى بعد ذلك بلا فصل :

ومن يرغب عن ملة إبر هم إلا من سفه نفسه . [1]

ويستكشف من هذه الآية أولا : أن السفهاء و المتخلفين فقط هم الذين يعرضون ويرغبون عن ملة إبراهيم وسنته .

و ثانيا : حسب قاعدة عكس النقيض ، فإن : كل من لم يسفه نفسه ، يرغب فى ملة إبراهيم ، أى أن : كل عاقل يرغب فى ملته .

الكاشانى قدس الله نفسه فى كتاب «المحجة البيضاء» ج ١ ، ص ٩١ :

وقال عيسى على نبينا وآله وعليه السلام : لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ! كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء . وفى لفظ آخر : من وضع الحكمة فى غير أهلها جهل ؛ ومن منعها أهلها ظلم . إن الحكمة حقا ؛ وإن لها أهلا . فأعط كل ذى حق حقه .

١ ـ النصف الاول من الآية ١٣٠ ، من السورة ٢ : البقرة .

وبناء عليه فإن الحكماء والفلاسفة الالهيين الذين تبعوا هذا النهج والسنة هم العقلاء ، أما المعرضون عن الحكمة فهم السفهاء الجهلة .

ولقد منح علم الحكمة ـ سوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للكثير من الانبياء الاءلهيين ، ك داود عليه السلام ، [1] و عيسى ابن مريم عليه السلام ،[2] بل يستفاد من إحدى الآيات الشريفة أن الحكمة قد وهبت لجميع الانبياء عليهم السلام [3]؛ مضافا إلى أن الله سبحانه يؤتى علم الحكمة لعباده المصطفين والمباركين الذين هم مورد لطفه ومشيئته ، وقد عد ذلك من الخير الكثير :

يؤتى الحكمة من يشآء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا . [4]

وقد أورد الله سبحانه اسم أحد حكماء اليونان فى القرآن وأنزل سورة باسمه يذكر فيها كثيرا من كلماته ومواعظه وأحاديثه الحكمية كدرس وقدوة خالدة للبشرية .

وهذا الرجل هو لقمان ، [5] وسميت السورة القرآنية باسمه : سورة

---

١ ـ الآية ٢٥١ ، من السورة ٢ : البقرة : وقتل داوود جالوت وءاتى'ه الله الملك والحكمة وعلمه و مما يشآء .

٢ ـ الآية ٤٨ ، من السورة ٣ : آل عمران . ويعلمه الكتى'ب والحكمة والتورى'ة والانجيل .

٣ ـ الآية ٨١ ، من السورة ٣ : آل عمران : وإذ أخذ الله ميث'ق النبيين لما ءاتيتكم من كتى'ب وحكمة .

٤ ـ الآية ٢٦٩ ، من السورة ٢ : البقرة .

٥ نقل المرحوم آية الله الخبير الحاج أبوالحسن الشعرانى فى تعليقة على تفسير « منهج الصادقين » ج ٧ ، ص ٢٤٢ ، عن الطنطاوى ، أن اليونانيين يعدون لقمان منهم . و أورد الشيخ الطنطاوى فى « تفسير الجواهر » ج ١٥ ، ص ١٢٥ و ١٢٦ أن اليونانيين يعدون لقمان

«لقمان» :

ولقد ءاتينا لقمٰن الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد . [١]

وفى سورة الاسراء حيث يعدد سبع عشرة آية فى التوحيد وفى الحد الاعلى من مكارم الاخلاق ، يقول بعدها مباشرة :

ذ لك مما أوحىٰ إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلٰها ءاخر فتلقىٰ فى جهنم ملوما مدحورا . [٢]

ومع أن كلمة الحكمة التى استعملت فى هذه الآيات ونظائرها لم تكن لتعنى خصوص الحكمة اليونانية ، وذلك أولا : باعتبار أن الحكمة وردت بمعناها الكلى والعام ، وهو بمعنى علم معرفة الاءنسان ، وموقعه من خالقه ، وعلاقته بالعالم وبالآخرين ، ومراتب علاقة الجسم وروحه والتأثيرها المتبادل بينها ، وبرنامج ضمان خير الانسان وسعادته المطلقة ، أى أنه فسر بعبارة موجزة بالعلم بحقائق الاشياء حسب إمكان البشر وقدرتهم .

وثانيا : أن الفلسفة والحكمة اليونانية التى رغب فيها متكفلة ببيان

منهم ، و ذكروا أن اسمه ايثوب . و له كتاب موجود يشبه الحكم التى نقلها المفسرون عنه .

وأورد الشهرزورى فى « نزهة الأرواح و روضة الأفراح » (تاريخ الحكماء) ص ٧٢ ، أن انبازقلس ـ و هو من قدماء حكماء اليونان ، و من المقدمين على سقراط و أفلاطون ـ كان تلميذا للقمان ، و أنه تعلم الحكمة على يديه فى الشام .

و ذكر هذا المطلب أيضا القاضى أبوالقاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى ـ المتوفى سنة ٤٦٢ هجرية فى كتابه « طبقات الأمم » و قد ترجم ذلك الكتاب العالم الفلكى الكبير والرياضى المعاصر المرحوم الحاج السيد جلال الدين الطهرانى ملحقا بمجلته « گاهنامه » (= التقويم) ص ١٧٦ ، سنة ١٣١٠ هجرية شمسية .

١ـ الآية ١٢ ، من السورة ٣١ : لقمان .

٢ـ الآية ٣٩ ، من السورة ١٧ : الاسراء .

هذه المطالب ، مما يمكن اعتبار أن هناك ارتباطا وثيقا لحقيقة الحكمة مع الحكمة اليونانية ، وقد جاء فى الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت مدح الحكماء الاءلهيين اليونانيين والثناء عليهم .

وفى الحقيقة ، فإن لهم الحق والفضل العظيم على المجتمع البشرى وعالم الانسانية والموحدين وأصحاب الفضائل والمكارم ، فقد نهض العلماء العظام المرموقون الموحدون فى اليونان فى وقت طغت فيه فلسفة السوفسطائيين وبثت الشك فى كل أمر بديهى ، وساقت البشرية إلى عالم الموهومات والتفكك ، وانتشرت وطغت فيه فلسفة الكلبيين وأدت إلى نهب أموال الناس وأطعمتهم ، فقام هؤلاء العلماء اليونانيون الموحدون العظماء فشمروا عن هممهم وأنجبوا ـ بالمجاهدات العظيمة وتشكيل حلقات الدرس والمدارس التوحيدية على أساس البرهان والشهود ـ التلامذة العظماء ، وهزموا الاتجاه المادى فى اليونان بالرغم من كل المشاكل والمرارة و تحمل المصائب والشدائد التى صبت عليهم واستلزمتها مجاهداتهم .

فقد ابتدع الماديون تبعا لابيقور (أبيكور) فلسفة هى أساس المذهب الحسى ، قالوا فيها إن سعادة الاءنسان تكمن فى لذاته النفسية التى لا يمنع منها إلا الحياء والعفة ونظائرها من الاوهام التى أثقل الاءنسان بها نفسه وسماها بالفضائل ، لذا يلزم الاءنسان أن يتخلص من هذه الفضائل لينال سعادته ، وهكذا صار ، فكان هؤلاء كما عرفوا بوجود وليمة ومأدبة انقضوا عليها وأكلوا كل الغذاء الموجود عليها فلم يدعوا له باقية .

وكان تحمل هذا الامر صعبا على أشراف اليونان ، الذين عز عليهم أن تنتهب أمام أعينهم المآدب التى أعدوها لضيوفهم ، ولم يروا بدا من استئجار أفراد خاصين فى منازلهم يقفون متأهبين والنعال فى أيديهم

لينهالوا بها ضربا على رؤوس هؤلاء .

وكان الفلاسفة الماديون ، ومن بينهم أبيقور نفسه ، إذا أحسوا أن النعال ستنهال عليهم لجأوا إلى الهرب ، وإلا فإنهم كانوا يهجمون فينهبون ولا يدعون لصاحب البيت شيئا .

وكان أسلوب الكلبيين هو هذه الطريقة المادية المحضة والالحاد الصرف ، الذى يرتضيه الشخص الملحد ولا يتعداه قيد أنملة ، لان هذه الفلسفة لا ترى معنى للحسن و القبح و الحلال و الحرام ، فلا زاجر ولا رادع للنفس عما تشتهيه وتطمع فيه ، وهذه هى الفلسفة الشيوعية .

وإذا ما لاحظ الاءنسان أ نهم يستنكفون عن بعض الاعمال الوضيعة ، أو يستعملون عبارة الحياء والعفة فى كلامهم ، فهم إما أن يلفظونها نفاقا ورياء وتظاهرا ، أو أن يكون ذلك من رواسب بعض التعاليم الدينية الممتزجة فى نفوسهم ، مضافا إليها عدم وضوح مستلزمات نهجهم وفكرهم لديهم بالقدر الكافى . [١]

ولقد قام سقراط الحكيم ، وتلميذه العظيم أفلاطون الحكيم ، وتلميذ تلميذه : أرسطو أو أرسطاطاليس فى تدوينهم علم المنطق والحكمة بهدم أسس وكيان فلسفة الماديين وآثارها ، فدونوا فلسفة الاءلهيين على أساس الحق والواقع ، واستدلوا على احتياج عالم الطبيعة إلى رب ذى شعور حكيم وحى وأزلى وأبدى وقادر ، هو مسبب الاسباب وعلة العلل ، وبنوا حكمتهم على أساس مكارم الاخلاق والفضيلة وعالم ماوراء الطبيعة الذى برهن

١ ـ «نقد فلسفة داروين» ج ٢ ، ص ٢٢٧ و ٢٢٨ ، وعلة اشتهارهم بالكلبيين أن أصحاب الموائد كانوا يدعون هذا الطراز من الفلاسفة بالكلاب فيضربونهم بالعظام ويطردونهم ، أو لانهم كانوا يهجمون كالكلاب على أصحاب الموائد .

عليه فى البرهان الارسطى وفى المشاهدات الاءشراقية الافلاطونية .

وقد جرى تدريس كتب أفلاطون وأرسطو فى أوروبا ، ثم قام روجر بيكون ومن بعده فرنسيس بيكون فى نهايات القرون الوسطى (القرنين الرابع عشر والخامس عشر ميلادى) ومن بعدهم ديكارت فى القرن السابع عشر الميلادى ، بهدم أساس الفلسفة الارسطية ، واستمر ذلك لغاية المائتى سنة الاخيرة عند ظهور نيوتن ، ثم تبعه أينيشتين فى عالم الفيزياء ، حيث انصرف اتجاه عامة الناس عن التوحيد والمعارف والاخلاق والفضائل ، وعاد إلى المادية وحياة التجمل وامتطاء الشهوات وعدم إدراك أبعاد الشخصية الاءنسانية ، وانتهى العمل بتلك المدرسة فلم يعد يرى فى أوروبا وأمريكا اليوم فيلسوف إلهى يقوم بتعليم وتنشئة تلامذة أخلاقيين ملتزمين ، أو بتدريس كتب أفلاطون وأرسطو ؛ وهو خسارة بل فاجعة كبرى حلت بتلك الامم ، فلقد صار الأنسان الذى يتحرى شخصيتة فى اتباع التعاليم المنقذة للمسيح على نبينا و آله و عليه السلام ، يحث الخطى مسرعا تجاه التمدن الآلى و علوم الميكانيك والطبيعة ، بشكل نسى معه نفسه وشخصيته وإنسانيته وشرفه وعزته، فلم يتمتع بالدنيا ، بل صار كالآلة والأداة المسخرة بيد الميكانيك ، و هذه هى عاقبة ترك تدريس الحكمة اليونانية فى أروروبا .

يقول الدكتور الكسيس كارل فى مقدمة كتابه «انسان موجود ناشناخته» (= الانسان ذلك المجهول) :

فليس فى مقدور الاءنسان الاستمرار فى متابعة التمدن الآلى فى الطريق الذى سلكه ، لا نه يؤدى إلى الانحطاط ، فلقد بهرته علوم المادة بجمالها حتى سلبت عقله وشغفت لبه ، وصار جسمه وروحه يخضعان لقوانين معقدة هى أشبه بقوانين عالم النجوم التى لا تتغير

ولا تتبدل ، ولا يمكنه تخطيها بدون التعرض لخطرها وأضرارها .

لذا فإن من الضرورى التعرف على العلائق التى تربط الانسان قهرا بالعالم وبأمثاله من البشر ، والتعرف على الروابط بين أنسجته وروحه .

وفى الحقيقة فإنه ينبغى أن يقدم الانسان على كل شيء آخر ، لان جمال التمدن سيزول بانحطاط الانسان ، بل وحتى عظمة عالم النجوم ، وقد ألف هذا الكتاب من أجل هذا الامر . [١]

وكان فردريك كودر الذى شمل نظره الصائب أوروبا عبورا من أمريكا ، هو الباعث والمحرك لتأليف هذا الكتاب . وبكل تأكيد فإن كثيرا من الامم ستسير فى الطريق الذى خطته وبدأته أمريكا الشمالية ، لان جميع الممالك قد قبلت بروح المدنية الصناعية وطرقها بلا تبصر ، و ستواجه

١ـ يقول أحمد أمين المصرى فى كتابه «يوم الاءسلام» ص ١٧٥ و ١٧٦ بعد أن أشبع الحديث عن عدم كفاية المدنية الغربية ، وعن ضرورة الاعتقاد بروحانية الشرق ، وعن الخسائر التى لحقت بالعالم إثر انغماره فى الاخلاق والتربية الغربية :

ولو حكمنا بالظاهر لقلنا إن مادية سليمة تخضع للعقل وتنجح فى الحياة وتسيطر على العالم خير من روحانية فسدت ومبادى قوية تعفنت ، ولكن ليس هذا إنصافا فى الحكم ، فما نتيجة هذه المادية الناجحة ؟! إنها مدنية روعت العالم وجعلته على بركان يوشك أن ينفجر ، وهو كل يوم فى اختراع جديد يهدد العالم بالفناء ، فما نتيجة القوة إذا كانت محطمة ، وما قيمة القصر المزوق إذا ساد سكانه الفزع ؟! ولو أ نك سألت أسرة أوروبية هل تفضل أن تعيش عيشة بذخ وترف وتفقد أبناءها فى الحروب أو تعيش عيشة وسطا ولا يهلك أحد منها فى حرب ، فما الذى كانت تفضل ! إنى لفى شك من قيمة المدنية الغربية إذا نحن قسنا ما أنتجته للعالم من شرور بما أنتجته للعالم من خيرات . فما قيمة آلات وأدوات ومخترعات بجانب أرواح تحصد وطمأنينة تفقد ، واستغلال قليل من الناس للكثرة الغالبة من العالم يرهقونهم ويسومونهم سوء العذاب ، وذلك لا نهم قالوا : إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين .

إنجلترا أو روسيا ، ألمانيا أو فرنسا نفس المخاطر التى تواجهها أمريكا حاليا .

ينبغى لاهتمام الاءنسانية وتوجهها أن يتحول عن الآلة والمادة إلى جسم الاءنسان وروحه ، وأن يعطف على الكيفيات البدنية والمعنوية التى بدونها لن يكون للآلات ولعالم نيوتن وأينيشتين من وجود .

إننا نفهم تدريجيا ضعف تمدننا ، وهناك الكثير ممن يتمنون اليوم النجاة والخلاص من قيود أسر المجتمع الحالى ، وهم الذين أ لف هذا الكتاب من أجلهم ، وكذلك من أجل المفكرين المتطرفين الذين يعتقدون ليس فقط بوجوب إحداث تغييرات فى الشؤون السياسية والاقتصادية ، بل بوجوب انقلاب وتغيير جذرى فى أصول المدنية الصناعية ، ويتمنون طريقا آخر للرقى الاءنسانى .[1]

وكان مستر فرنكل وهو من رجالات الانجليز يتأسف على إلغاء تدريس الفلسفة اليونانية فى أوروبا ، فيقول :

بالرغم من أن المتأخرين عنا قد وصلوا للدرجة العليا من العلوم والصناعات ، لكنهم لم يصلوا إلى عشر ما وصل إليه اليونانيون ، لذا فلو كانت تلك الكتب باقية إلى اليوم ، وأضيفت علوم اليونان إلى علوم الناس الحالية ، فستصبح دنيا اليوم جنة لا يمكن أن نجد فيها شبرا واحدا إلا وهو معمور بأنواع العلوم والفضائل .[2]

لقد عاش أفلاطون قبل بعثة عيسى ابن مريم على نبينا وآله وعليه

١ـ «انسان موجود ناشناخته» (= الانسان ذلك المجهول» ترجمة الدكتور پرويز دبيرى ، الصفحتان ح ، ط من مقدمة المؤلف الدكتور الكسيس كارل .

٢ ـ «نقد فلسفة داروين» ص ٤٧ و ٤٨ .

السلام بخمسمائة عام ، وقد نسب إليه افتراء أ نه قال : إن شريعة عيسى وضعت لضعفاء العقول ، لكنى ـ وقد لمست الحقيقة لن أخضع لهذه الشريعة ؛ فقد عاش كما ذكرنا قبل بعثة السيد المسيح ، وكان أستاذا لأرسطو ، وكان أرسطو بدوره أستاذا ووزيرا للاسكندر المقدونى ، حيث إن ز من الاسكندر المقدونى مدون فى صفحات التأريخ . وكان لافلاطون حكمة الاشراق ، وهو على رأس سلسلة الرواقيين ، وكان يحصل له كشف الحقائق والمعارف الالهية بالرياضات والمجاهدات الباطنية عن طريق تصفية الباطن ، فى حين كان أرسطو تلميذ أفلاطون يمتلك حكمة المشائين ، ولم يكن ليعتنى بالباطن أو يعتمد عليه أبدا ، بل أسس المسائل الحكمية من وجهة نظر البرهان فقط .

وقد بنى الاءسكندر بعد فتحه بلاد المشرق ميناء الاءسكندرية فى مصر وأسس فيها مدرسة قام تلامذة إفلاطون بالتدريس فيها ، فدعيت طريقتهم بـ الطريقة الافلاطونية الجديدة لضمها بعض قوانين أفلاطون إلى جنب بعض الاضافات الجديدة الاخرى ، حيث بقى هذا المذهب إلى زمن فتح الاسكندرية على يد المسلمين زمن عمر ثم فانهار بعدها ، وكان أحد كبار هذا المذهب يدعى ثاميطورس وقد أسلم ودعى بعدها باسم يحيى النحوى .

أما كتاب الاثولوجيا ،[1] وهو كتاب مختصر ونافع ، فقد أ لف على أساس الحكمة الاءشراقية من قبل أفلوطين ـ أحد أتباع هذا المذهب ـ ونسبه البعض خطأ إلى أرسطو .

١ـ تعنى الاثولوجيا فى اللاتينية الاءلهيات بالمعنى الاخص ، وباعتبار نقلهم إلى العربية الحكمة اليونانية المدونة باللاتينية ، فقد اقتبست هذه الكلمة منها ، وبقيت تسمية هذا العلم لدى الفلاسفة على سابق عهدها .

وقد ترجمت كتب اليونان فى الطب والفلسفة والهيئة والهندسة إلى العربية زمن الامامين الرضا والجواد عليهما السلام من قبل حنين العبادى ، وقد حرر ثابت بن قرة أصول أقليدس ، وكان أول من هذبه وحل مشكلاته ومعضلاته .

وبالرغم من ترجمة هذه الكتب إلى العربية من قبل الخلفاء العباسيين وبأمرهم ، ولكن لايوجد هناك أى دليل على أن ذلك قد حصل من أجل لمعارضة الائمة عليهم السلام .

ذلك لأن الطب والفلسفة والهندسة وأمثالها من العلوم لا تخلو فقط من معارضة مدرسة أهل البيت ، بل إنها كانت موافقة لها ، فالبرهان والمنطق يوضحان بصورة أفضل الاقوال الحقة لائمة الدين ، ولم يكن مدعاهم خاطئا ليخشوا ويقلقوا من المنطق والقياس .

وكان جمع من تلامذة الامام الصادق عليه السلام ، أمثال محمد بن النعمان المعروف بالاحول ومؤمن الطاق وهشام بن الحكم من أهل الجدل والبرهان ، والحاصل من دراسة حياة هشام بن الحكم على وجه خاص أنه قد عرف الفلسفة ودرسها ؛ وكان هؤلاء يصرون بتوظيف منطقهم وبرهانهم القوى القويم على إشاعة مدرسة الولاية وإثبات حقانيتها .

ولقد بقيت حكمة المشائين وكتب أرسطو تبحث و تدرس بشكل مستمر فى المدارس والمساجد حتى أ لف المعلم الثانى : الفارابى ، و الشيخ الرئيس ابن سينا كتبا مستقلة فى الفلسفة ، وظهر علماء ، جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر ، أمثال ابن فهد ، و ابن مسكويه ، و ابن رشد ، و الخواجة نصير الدين الطوسى ، [1] و ميرفندرسك ، و الميرداماد الذين أوضحوا وبينوا

١ـ يلزم أن نورد هنا ـ بالمناسبة المدح والثناء الذى ذكره الآية الالهية فى الادب

والعربية والفقه والاصول والحكمة ، نادرة الزمان آية الله الحاج ميرزا أبو الفضل الطهرانى ابن آية الله الميرزا أبى القاسم كلانتر صاحب «تقريرات مباحث ألفاظ الشيخ الانصارى » ، وأب آية الله الحاج الميرزا محمد الثقفى صاحب التفسير الفارسى «روان جاويد» (= الروح الخالدة) أعلى الله مقامهم فى كتابه النفيس النافع : «شفاء الصدور فى شرح زيارة العاشور» ، ذيل فقرة والعن يزيد بن معاوية ، صفحة ٣٠٤ و ٣٠٥ فى شأن الخواجة نصير الدين الطوسى ليتضح حال الخواجة باعتباره أحد فلاسفة الاءسلام ، يقول :

أستاذ البشر الخواجة نصير الدين رضى الله عنه ، اعترف المؤالف والمخالف بأستاذيته طوعا وكرها ، فلقب تارة بأفضل المحققين وأحيانا بالعقل الحادى عشر ، ومرة بسلطان الفقهاء والحكماء والوزراء ، كما فى إجازة الشهيد الثانى لحسين بن عبد الصمد والد الشيخ البهائى ، وفى موضع قيل فى حقه : أفضل أهل عصره فى العلوم العقلية والنقلية ؛ كما شهد فى حقه العلامة والشهيد الثانى ، أو قيل فى حقه : أفضل من شاهدناه فى الاخلاق ؛ كما قد ذكر العلامة فى إجازة بنى زهرة ؛ وقد أثنى عليه مصنف «الزيج الخاقانى » الذى صنفه باسم الميرزا أ لغ بيك ثناء بالغا ، فيه أ نه سر منه العلم والعلماء ؛ أما قول الاستاذ الاعظم البهبهانى فى تعليقته على «رجال الميرزا» فلا أجمل ولا أبدع منه ، فقد قال عنه : لا يحتاج إلى التعريف لغاية شهرته ؛ مع أن كل ما يقال فيه فهو دون رتبته . والحق أن ألف غزالى وأفضل من الغزالى ينبغى أن يكونوا من قطاف عناقيد بيدر تحقيق ذلك المحقق المشهور والعلامة الكبير ، بل لو نظرت بعين الاءنصاف ووضعت التعصب جانبا لامكنك القول إن الخواجة رضى الله عنه هو أفضل علماء بنى آدم من بدء الدنيا إلى يومنا هذا . ويكفيه فضلا أن علماء الاءفرنج فى سعيهم للرد على الاءسلام وإنكار إعجاز القرآن من جهة عجز العالم عن الاتيان بمثله احتجوا بأ نه لم يأت أحد بما جاء به الخواجة فى «المجسطى» أيضا . وقد عده مؤلف «كشف الظنون» وغيره فى أوائل الطبقة الاولى من المصنفين واعترف أن له على جميع أهل العلم من كل ملة حقا ظاهرا تجب رعايته وحفظه ، ووصلت درجة فضله وتحقيقه إلى حيث لم يرتض الملا سعد الدين التفتازانى لنفسه أن تصدر منه كلمة مخالف للتحقيق فى شأن إشكال على توهم فى عبارة «تجريد الطوسى » فى مبحث الماهية ، فيقول : وهذا مؤيد لنسبة هذا الكتاب إلى غير المحقق ، مع أن شأن كتاب «التجريد» يجل عن نسبته إلى غيره . وكلام التفتازانى هذا مع ظهور عداوته ومنافسته للخواجة الذى لم يزل أتباعه

عالم الاسلام والتوحيد والنبوة والاءمامة والمعاد والاخلاق ومكارم الفضائل بنور معارفهم فى تفسير القرآن وبيان حقائقه العلمية والفلسفية ، حتى وصل الامر إلى أفضل الحكماء وأشرف الفلاسفة الاقدمين من المتقدمين والمتأخرين ، صاحب مدرسة الاءشراق وحائز معارف المشائين ، الجامع بين العرفان والبرهان ، وبين صفاء الباطن وقوة البرهان والمنطق :

صدر المتألهين الشيرازى أعلى الله درجته وجزاه الله عن الاسلام والمسلمين وعن التفقه والتفكر والعلم خير جزاء المعلمين ، فقد عاش عمرا فى الزهد والعرفان مع ذكائه ومواهبه الفريدة ونبوغه الذاتى المكتسب ؛ جمع فى أسلوبه بين مدرسة المشائين والاءشراقيين وأهل التفسير والحديث ، وخطى خطواته فى ساحة المجاهدة والشهود مع احترامه وإكرامه لصاحب الشريعة والقرآن ومقام الولاية الكبرى لحل المعضلات

يئنون من أذى بنانه وبيانه وضربات سيفه وسنانه ، والحمد لله على وضوح الحجة .

وقد عد الصفدى فى «شرح لامية العجم» الخواجة من الذين لم يصل أحد إلى رتبتهم فى فن المجسطى ، وتخصيصه هذا كان لعناده .

خجسته رهنمونى ذو فنونى كه در هر فن بود چون مرد يك فن

لمؤلفه :

فى كل فن بارع كأنه لم يتخذ سواء إلا فنه

والخلاصة فإن فضائل هذا البحر المواج الذى كأنه فى ظلمات الجهل السراج الوهاج مما تضيق عنه هذه الصفحة .

ويا عجبا منى أحاول وصفه وقد فنيت فيه القراطيس والصحف

ولنعم ما قيل :

كتاب‌فضل ترا آب بحر كافى نيست كه‌تركنى سرانگشت‌وصفحه بشمارى

يقول : «إن ماء البحر لن يكفى لتبل به أطراف الاصابع فتقلب بها صفحات كتاب فضائلك» .

من الروايات ، والتفسير المشكل من الآيات ، وللوصول إلى أعلى درجات اليقين والورود إلى مقام الصديقين ، محلقا بجناحى العلم والعمل ، فحل مسائل الفلسفة ببرهانه المتين ، وأضاف خمسمائة مسألة مبتكرة على مسائل الحكمة اليونانية التى لم تتجاوز أصولها المائتى مسألة ، فأوصل مسائل الحكمة إلى سبعمائة مسألة .

ولقد هدم صدر المتألهين أصول الفلسفة اليونانية وصار بنفسه موسسا لفلسفة جديدة ومعجون يلائم الطبع من حكم الفطرة وحكم العقل وحكم الشرع ، صاغه بفكره الصائب من بين آلاف الكتب فى الفلسفة والحديث والتفسير ، فسقى منه عشاق العرفان ، ومشتاقى الاستدلال والبرهان ، والمتلهفين من المتشرعين وأهل الاءيمان ، ثم أ لف العديد من الكتب التى كان من أهمها كتاب «الاسفار الاربعة» ، فبعث حياة جديدة فى العلم والبرهان ، وفى اليقين والعرفان ، وفى الشرع والايقان ، وصار ملجأ ومأوى للحكماء الصادقين فى دفع ورد شبهات المنكرين والملحدين من الماديين والزنادقة والمنحرفين عن الولاية المطلقة الكلية ؛ وسندا وناصرا للقرآن بحيث أضحى الجميع فى السنين الاربعمائة الاخيرة يجلسون إلى مائدته ويرتوون من شرابه المعين ، ويستنشقون من بركات أنفاسه القدسية ورحمات كتبه المؤلفة السنية . [1] ولا زال هذا الكتاب

١ ـ يمكن معرفة مقام صدر المتألهين ومنزلته من إحدى رباعيات أستاذه فى علم المعقول : أفضل الحكماء المتشرعين الميرداماد رضوان الله عليه التى أنشدها فيه :

صدرا جاهت گرفت باج از گردون اقرار به بندگيت كرد افلاطون

در مكتب تحقيق نيايد چون تو يك سر ز گريبان طبيعت بيرون

يقول : « صدرا ؛ لقد فرض جاهك أتاوة على الفلك ، وأقر أفلاطون بعبوديته لك . لن يأتى نظيرك فى منهج التحقيق ، ولن ينجب الدهر مثلك أبدا » .

رائجاً مستعملاً فى الحوزات المقدّسة العلمية لطلبة العلوم الدينيّة ، وما برح هذا السِّفر العظيم والرسالة المُبينة التى ترتكز على أصالة التوحيد ، تبحث وتدرّس ويزداد رونقها يوماً بعد يوم بحمد الله ومنّه ، حيث تُظهر عقم الفلسفة الغربيّة الخاوية برغم أنف أنصار المدرسة المادّيّة وأتباع الزَندقة

وأنشد فى مدحه الملاّ عبد الرزّاق اللاهيجىّ صاحب كتاب «گوهر مراد» (= جوهر المراد) و«شوارق الاءلهام» ، الذى كان تلميذه وصهره عدّة أبيات :

افلاطون زمان استاد عالم — كه با او دل نيارد ياد عالم
جهان فضل را مهد دل افروز — شب جهل از فروغش طلعت روز
چو او در مُلك دانش صدر گرديد — هلال دانه دانش بدر گرديد
به يُمن نسبت او خاك شيراز — بهاى خون صد يونان دهد باز
نيارد مثل او در دانش و هوش — فلك گو تا أبد ميگرد و ميكوش

يقول : «أفلاطون العصر وأُستاذ العلم ، فالقلب لا يتذكّر العالم إذا كانت فى صحبته .
أنار مهدُ القلب عالمَ الفضل ، وصار ليل الجهل من إشراقه كطلوع النهار .
وحين صار فى مملكة العلم صدراً ، أضحى هلال العلم بفضله بدراً .
وصارت أرض شيراز بيُمن نسبته اليها ، تعدل دية مائة من مثل اليونان .
لن يُنجب العالم مثاه فى العلم والكياسة ، ولو اجتهد وسعى الى الابد» .

وقد نقل عن الملاّ صدرا أشعار عربيّة كثيرة ، لكنّه لم ينقل عنه شعر بالفارسيّة إلاّ هذين البيتين المذكورين فى مجمع الفصحاء :

آنانكه ره دوست گزيدند همه — در كوى شهادت آرميدند همه
درمعركة دوكون ، فتح از عشق است — هر چند سپاه او شهيدند همه

يقول : «إنّ جميع من اختاروا سبيل الحبيب ، رقدوا بأسرهم فى طريق الشهادة .
ولقد كان الظفر والفتح للعشق فى معركة الكونَين ، ولو أنّ جنوده قد استشهدوا جميعاً» .

وقد ذكر فى «تفسير سورة السجدة» ص ١٠ ، أبياتاً بالفارسيّة فى عظمة القرآن ، وفى ص ٣٤ ، أبيات فى عظمة رسول الله وارتباطه بيوم الجمعة . وقال : أنشدتُ هذه الاشعار حين كنت فى حالٍ من الهيام (فى حالٍ عرفانيّة) .

والمبهورين بفلسفة الغرب . فالحوزات العلميّة منهمكة بتدريس هذا الكتاب ، سواء فى النجف الاشرف ، أم فى بلدة قم الطيّبة ، أم فى دار العلم إصفهان ، أم فى المشهد الرضوى المقدّس وسائر أمكنة العلم ومراكز المعرفة ، ممّا بَهَر الخفافيش من معاندى الاءسلام !

ألا يحزّ فى النفس أن نتمنّى زوال بحث وتدريس هذا السِّفر الجليل فى الحوزات العلمية تحت مبرر الفلسفة القديمة ، [1] ونتشدق بالحديث عن العالم الفارغ ل بيكون والفلسفة الخاوية ل كانت وديكارت ؟! أو أن نبحث عن العون فى ملاقحة الفقه مع الفلسفة الجديدة من أفكار فرويد و برتراند راسل ؟! فنجيز عمل اللواط ونهج قوم لوط الذين ينددى لذكر قبائحهم جبين البشرية ؟! أو نتابع مجلس الاعيان الانجليزى فنوقع علنا على شرعية

١ـ ينبغى العلم أن الفلسفة والحكمة الفعلية فى «الاسفار الاربعة» تغاير كليا حكمة اليونان ، فقد نقض الملا صدرا تلك الفلسفة من أساسها ؛ وهذه الحكمة هى الفلسفة الحقيقية والواقعية القائمة على أساس البرهان ، التى يقرها العقل ويمضيها ، وهى سند ودعامة لدين الاسلام المقدس وشرعه المبين . يقول عبد الحليم الجندى فى كتاب «الاءمام جعفر الصادق» ص ٢٩٣ : إن الوزير الصنعانى (المتوفى سنة ٨٤٠) صاحب كتاب «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» يذكر أن أئمة أهل البيت لم يعرفوا المنطق اليونانى والارسطاطاليسى ، ولم يصوغوا أدلتهم على التوحيد فى صور منطقية ، وإنما فى منهج قرآنى أساسه الاعتبار . وإن الامام عليا لم يعرفه فى خطبه ومواعظه ، وإن الائمة قدموا أدلة التوحيد من غير ترتيب مقدمات المنطق ولا تقاسيم المتكلمين .

ويقرر الوزير الصنعانى أن أسلوب المسلمين أرجح وأحجى من أسلوب المناطقة ، (فهذا أسلوب الانبياء والاولياء والائمة والسلف من النظر ، وخالفهم بعض المتكلمين وأنواع المبتدعة فتكلفوا وتعمقوا وعبروا عن المعانى الجلية بالعبارات الخفية) .

ثم يقول عبد الحليم الجندى فى ص ٢٧٩ : يقول روجير بيكون (المتوفى سنة ١٢٩٤ ميلادية) : لو أتيح لى الامر لحرقت كتب أرسطو كلها ، لان دراستها يمكن أن تؤدى إلى ضياع الوقت ، وإحداث الخطأ ، ونشر الجهالة .

اللواط ؟

أو ليس « بسط وقبض نظرية الشريعة » يرتوى من ذاك النبع ؟

أفهل يتمخض دخول الفلسفة الحديثة فى الحوزة العلمية ، وإلغاء تدريس الفلسفة المانحة للحياة والسعادة وحصاد ألف سنة من أفكار علماء مثل ابن سينا والفارابى والميرداماد فى القالب الفكرى البكر الفريد للملا صدرا الشيرازى عن غير هذه النتيجة ؟

لقد قال المرحوم آية الحق وسند الفلاسفة الحكيم الاعظم آية الله المفخم الحاج الميرزا مهدى الاشتيانى أعلى الله درجته ، وكان فيلسوفا عظيما ونابغة فى الحكمة والفلسفة عند عودته إلى طهران بعد سفره للمعالجة وإجراء عملية جراحية فى ألمانيا : حين رقدت فى المستشفى فى ألمانيا جاء جميع الفلاسفة هناك لرؤيتى بسبب شهرتى لديهم ، وقد بحثت معهم فى أصول مسائل الفلسفة ، فشاهدت حقا أن معلوماتهم تقل عن معلومات أحد الطلبة المبتدئين فى حوزاتنا . [٢]

أما قول القائلين بأ ننا لا نحتاج إلى العلوم العقلية والحكمة ، فما ورد من العلوم العقلية فى أخبار الائمة عليهم السلام ، فنستفيد منه و ما لم يرد فيها فلا حاجة لنا به ؛ فيماثل كلام عمر حين كتب إلى عمرو بن العاص حاكمه فى مصر :

---

١ ـ ولد فى سنة ١٣٠٦ وتوفى فى سنة ١٣٧٢ هجرية ، ومؤلفاته عبارة عن «حاشية أسفار الملا صدرا» ، «حاشية رسائل الشيخ مرتضى الانصارى» ، و«شرح منطق حكمة منظومة السبزوارى » ، و«شرح شفاء ابن سينا» ، و«شرح كفاية الآخوند الملا محمد كاظم الخراسانىّ » ، و«شرح مكاسب الشيخ الانصارىّ » ، و«رسالة فى الجبر والتفويض» ، و«رسالة فى العلم الاءجمالىّ » ، و«رسالة فى الطلب والاءرادة» ، و«رسالة فى وحدة الوجود» ، و«رسالة فى قاعدة لا يَصدرُ عن الواحدِ إلاّ الواحدُ» .

وأما الكتب التى ذكرتها ، فإن كان فيها ما وافق كتاب الله ، ففى كتاب الله عنه غنى . وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة إليه . فتقدم بإعدامها ؛فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الاسكندرية وإحراقها فى مواقدها .[١]

فهذه المقولة بمثابة سد باب التحقيق والتدقيق ونشر علوم وثقافة الدنيا والآخرة ، وهى ذات قول عمر : حسبنا كتاب الله .

فلو لم يكن هناك مفسر وحارس للقرآن كالعترة ، فإنه سيصبح وسيلة لكل جان جائر يحتج ويستشهد بآيات القرآن على حكومته الجائرة ؛ وكذا الامر فى فهم روايات الائمة عليهم السلام باعتبارها ليست فى مرتبة واحدة ، ولاستناد الكثير منها إلى علوم دقيقة عقلية ، فإن لم تجر الاستعانة بالعلوم العقلية فى حل تلك الدقائق والمعارف العظيمة ، فإن عاقبتها ستكون الجمود على الظواهر ، نظير التشبيه والتعطيل والتجسيم والجبر والتفويض ، أو كالشيخية والاخباريين فى فهمهم المعانى السخيفة والمتدنية من كتاب الله ، واستنباطهم المفاهيم السطحية التافهة من الروايات ، وحاشاه وحاشاهم عن مثل ذلك .

لقد كتب آية الله الشهيد الحاج السيد محمد على الطباطبائى القاضى رضوان الله عليه فى تعليقة له على كتاب «الفردوس الاعلى» لآية الله المعظم الحاج الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء عدة مطالب فى مقدمتها

---

١ ـ الغدير ، ج ٦ ، ص ٢٩٨ و ٣٠٠ .

وللمرحوم آية الله الحاج الشيخ مرتضى المطهرى كتاب باسم «كتابسوزى ايران و مصر» (= إحراق الكتب فى إيران ومصر) ، أورد فيه الشواهد العديدة على أن إحراق الكتب فى إيران ومصر شائعة قد نشرها الاوروبيون هذه الايام لاءظهار مخالفة الاءسلام للعلم والثقافة .

نوردها هنا ، حيث كانت جامعة النجف فى كل الازمنة مركزا للبحوث والتحقيقات العلمية والفلسفية والذب عن حريم الاءسلام المقدس : وليعلم إخواننا بالقطع واليقين أن من نيات أعداء الدين وخصماء المذهب من الامم الاجنبية ومن مكايدهم الممقوتة ، هدم أساس هذه الجامعة ومحوها وإبادة مجدها وعظمتها وحطها عن مقامها الشامخ فى عالم التشيع ونسف حضارتها العلمية ونزعاتها الدينية ، ولهم السعى البليغ فى تهيئة أسباب ضعفها وسقوطها واضمحلالها وإرجاع الناس إلى غيرها وترغيبهم إلى سواها فى أمر التقليد والفتوى ، وتحكيم الجمود على أفرادها وسوقهم إلى نبذ أغلب العلوم إلى ورائهم ظهريا ، والاكتفاء ببعض العلوم التى لا يكفى فى قلع أساس الاباطيل والاضاليل وقمع جرثومة الزندقة والاءلحاد ، كما فعلوا ذلك كله بالنسبة إليها بعد أوائل هذا القرن ،شاهدنا ذلك فى السنين الاخيرة وفى أثر ذلك توقف جمع من الاساتذة فى هذه الجامعة عن دراسة بعض العلوم ، وصار هذا الامر من الجنايات التى لا يسدها شىء إلا التيقظ وسد هذه الثلمة بالحرية التامة فى تحصيل العلوم بشتى أنواعها . [1]

١ ـ مقدمة «الفردوس الاعلى» صفحة « يز » و« يج » ، ويقول فى نفس المقدمة أيضا صفحة «ى»ا إلى «به» : وكانت الحرية التامة فى دراسة العلوم من معقولها ومنقولها والتوسع فى اقتنائها وتحصيلها على أنواعها سائدة على تلك الجامعة] يعنى النجف الاشرف [، وفتحت طرقات سهلة فى التحليل والتحرى العلمى وتنوير الافكار والبحث والتنقيب النظرى ، واجتمع فيها أيضا جمع من أكابر الحكماء المتشرعين ، والعرفاء الشامخين ، والمربين للنفوس بالحكمة العملية والدراسة العلمية ، وبتخلقهم بأخلاق الله ، وبخشيتهم فى جنب الله ، وبتحليهم بالفضائل الاءنسانية ، وما كان من نياتهم إلا خدمة البشرية ، مع مراعاتهم الطريقة المثلى والشرعة الوسطى فى بحوثهم القيمة ودروسهم العالية ، وتجنبهم عن الجمود والوقوف عن تحصيل العلوم والرجوع إلى القهقرى . ثم يتكلم بعد ذلك مفصلا عن الشيخ محمد باقر الاصطهباناتى ومهارته فى تدريس الحكمة المتعالية ، وهو الاستاذ الوحيد

ويقول المرحوم كاشف الغطاء فى هذا الكتاب :

وَالظَّاهِرُ بَل اليَقِينُ أَنَّ أَقْوَى المُسَاعِدَاتِ وَأَعَدَّ الاَسْبَابِ وَالمُوجبَاتِ لِلْوُصُولِ إلَى مَقَاصِدِ أُمَنَاءِ الوَحْيِ وَكَلِمَاتِ الاَنْبِيَاءِ وَالاَوْصِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ إنَّمَا هُوَ فَهْمُ كَلِمَاتِ الحُكَمَاءِ المُتَشَرِّعِينَ .[١]

وقد كتبتُ رسالة مختصرة لم تطبع حتّى الآن فى وجوب الاهتمام بتعلم الحكمة والعرفان ، دونت فيها أسماء جمع كثير من جهابذة العلماء وأساطين الفقاهة الشيعية من صدر الاءسلام إلى الآن ممن كان لهم اهتمام أكيد بعلم الفلسفة والعرفان ، وكانوا بالرغم من حيازتهم مقامات عالية فى الفقه والحديث يعدون من المدرسين الاجلاء لهذه العلوم .[٢]

ويلزم الان ، وقد بانت الضرورة الاكيدة لتدريس و تعلم الحكمة

للعلامة آية الله الحاج السيد محمد حسين الطباطبائى أعلى الله تعالى مقامه فى علم الفلسفة ، ثم يقول :

وأيضا كان من مشاهير المدرسين للحكمة المتعالية فى ذلك الوقت ، الشيخ العلامة الجامع لانواع العلوم : الحاج الميرزا فتح الله الشهير بشيخ الشريعة الاصفهانى المتوفى سنة ١٣٣٩ الهجرية القمرية ، الذى تقلد الزعامة العامة والمرجعية فى التقليد والفتوى مدة يسيرة فى أواخر عمره الشريف ، فإنه عند قدومه من إيران إلى العراق مجازا من علماء إصفهان سنة ١٢٩٥ الهجرية كان مدرسا كبيرا فى الحكمة والكلام والفلسفة العالية والمعارف الدينية ....حتى يصل إلى قوله : وأيضا كان من الجهابذة فى الحكمة والفلسفة ومن المدرسين فى هذه الجامعة ، الشيخ العلامة الحكيم : الشيخ أحمد الشيرازى المتوفى ١٣٣٢ الهجرية الجامع بين المعقول والمنقول . وهو أيضا من أساتذة شيخنا العلامة [يعنى الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء] أدام الله أيامه .... حتى يصل إلى القول : فلو أردنا إحصاء المدرسين والاساتذة الكبراء فى المعقول والاخلاق والعرفان والحديث والرجال وعلوم القرآن فى أوائل هذا القرن لطال بنا الكلام ... إلى آخره .

١ ـ «الفردوس الاعلى» ص ٤٢ .

٢ ـ «الرسالة الخطية رقم ٧ » ص ٣٤٩ إلى ٣٥٥

المتعالية والفلسفة السامية ، وتحصيل العرفان ، والارتباط بعالم الربوبيةعالم ماوراء الطبيعة ، ولقاء الحضرة الاحدية ، ولزوم المشاهدة والمعاينة والبرهان اليقينى على ربط القديم بالحادث ، وإحاطة وهيمنة الله الخالق الحكيم العليم ، فى الحوزات العلمية المقدسة التى تمثل جامعات بناء الانسان وتربية البشر ، ومدرسة لتعليم القرآن وتعلمه ، وإشاعة روح وسر النبى ومقام الولاية ؛ يلزمنا أن ننقل نص عبارات من كاتب مقالة «**بسط و قبض تئوريك شريعت**» (= بسط وقبض نظرية الشريعة » لتتضح أكثر فأكثر مواضع الخطأ ومكامن الاشتباه فيها مضافا الى ما ذكر ، فقد قال :

هل يمكن الاعتقاد بعلم النفس القديم والاعتماد على تلقينه وتكراره فى الوقت الحاضر مع إهمال الطبيعيات الحديثة (أى علوم وظائف الاعظاء والانسجة والكيمياء الحيوية والاجنة و...) ؟

هل يمكن تعريف موجود غير مادى بدون معرفة أفضل للمادة ؟

إن كل القدرات التى كشفت حاليا فى المادة وأنواع تركيباتها تدعونا لفهم جديد للامور غير المادية ، ونتساءل : ألم يكن تضخيم القدماء لمسائل ما وراء الطبيعة فى الحقيقة نابعا من جهلهم ؟

ويمكن التوسع أكثر فى هذا السؤال ، فنسأل : ما الذى حصل هذه الايام فدعا حوزات العلوم الدينية إلى إخراج الطبيعيات القديمة فى تكتم وهدوء من ساحة الفلسفة والغاء تدريسها ، والقبول إلى حد ما ، بالعلوم الحديثة ، لكن غياب علوم الطبيعة القديمة تلك لم يضر ما بعد الطبيعة ولم يحزنها بشىء ؟!

أفيمكن فك ارتباط إلهيات الفلسفة مع الطبيعيات بشكل كامل ، كى تبقى الالهيات محتفظة بهيئتها وقوامها السابق ؟

أفلم تكن مسائل ما بعد الطبيعة قد صممت ليمكنها ضم تلك

الطبيعيّات واحتوائها داخلها ؟

أو هل ولد ونشأ هذان الاثنان بلا ارتباط وتناسب بينهما ؟

أوَ هَلْ يمكن اليوم أن يُقبل بالطبيعيّات الحديثة (العلوم التجريبيّة الحديثة) مع ترك الفلسفة محفوظةً يجرى تدريسها بدون أن تمسّها يد ؟

لقد كانت تلك الاءلهيّات هى الموجّه والمكمّل والمبرّر لتلك الطبيعيات ، وكان بناء المعرفة الشامخ ذاك ذا طابقين لا غرفتين ، أفيمكن لانهيار أحد الطابقين أن يترك الآخر بلا ضرر أو تأثر ؟

إن الاضطراب والتشويش المشاهد هذه الايام فى كلمات أعلام الدين فى رفع تعارض العلوم البشرية مع معارف الوحى ، ناشى من أن علمى المعرفة والطبيعة القديمين لم يخليا مكانهما بشكل كامل لعلمى المعرفة والطبيعة الحديثين .

ولا يزال علم الكلام الاسلامى وفهم الشريعة غير متلائم ولا منسجم بعد مع المعارف الجديدة ، ولم يتخذ مكانه المناسب فى الهندسة الجديدة للمعرفة . لذا فإنهم يجهدون ، اعتمادا على علم المعرفة القديم (بدون لحاظ ظرائف الابحاث الجديدة فى الفلسفة وأسلوب المعرفة العلمية) ليحكموا على المكتسبات العلمية الجديدة ويزنوا معارضتها أو موافقتها للمعارف الدينية .[1]

حتى يصل إلى القول :

ويجب الاذعان أن شيئا لم يبق على سابق عهده ، لا أدبنا ولا فلسفتنا ، ولا كلامنا ، ولا عرفاننا ، فلقد وقع فيها جميعا الانبساط والانقباض ، فمن أين يتأتى الادعاء بأن فهم الشريعة يمكنه أن يبقى فى منأى عن رياح التغيير ، وأن لا يتضرر أو يربح فى معاملته معها أخذا أو

١ـ مجلة «كيهان فرهنگى» بالفارسية ، رقم ٥٠ ، اردیبهشت ماه ٦٧ ، رقم ٢ ، صفحة ١٣ ، العمود الاخير .

عطاءً ؟ [1]

إلى قوله :

ولهذا السبب فإنّ فلسفتنا لما وراء الطبيعة ، وقد انعزلت منذ القدم بعيداً عن المعرفة العلميّة الطبيعيّة ، لم تتضرّر بنفسها وتتضاءل ، بل إنّ الفلاسفة هم الذين تضرّروا لهذا السبب ، فلم يقدّر لهم أن يروا وجه الفلسفة كما ينبغى أن يكون عليه وضّاءً مشرقاً . [2]

إلى قوله :

ولا نظنّ أيضاً أنّه يمكن تصديق أنّ علم النجوم القديم قد انفصل عن الفلسفة وأنّ فلسفة ما وراء الطبيعة بقيت على حالها ، إذ إنّ تلك الفلسفة صمّمت لتضمّ علم النجوم ضمنها ، وإنّ الانقلاب والتحوّل الكامل لهذا العنصر ولعناصر أُخرى غيره ـ مع بقاء الاءطار السابق سالماً أمرٌ لا يقرّه العقل ولا يتحمّله .

لقد بدت علائم تحوّل ما وراء الطبيعة ، وعلى الفلاسفة اليقظين أن يكونوا جادّين فى النظر إليها ، وعليهم أن يَزِنُوا منظومة المعرفة الفلسفيّة من جديد ، فالمعرفة التجريبيّة فى العصر الجديد قد جاءت متحدية داعية للمنازلة ، أمّا ما وراء الطبيعة فليس لها فلسفة علميّة موزونة وراسخة ، وهى لا تستمدّ العون من بحث المعرفة ، فهى بمجموعة من الاقوال المتناثرة أشبه منها بمنظومة متّسقة من الآراء المرتبطة ببعضها . [3]

ويُقال فى الاجابة على هذه المطالب : ينبغى القول رداً على جميع هذه الاحتمالات و الاشكالات التى وردت بصورة استفهام فى المجموعة

١ـ مجلّة «كيهان فرهنگى» بالفارسيّة ، رقم ٥٠ ، أُرديبهشت ماه ٦٧ ، رقم ٢ ، صفحة ١٤ ، العمود الاوّل . وكذلك صفحة ١٥ ، العمود الاوّل .

٢ـ مجلّة «كيهان فرهنگى» ، رقم ٥٢ ، تيرماه ٦٧ ، رقم ٤ ، ص ١٣ ، العمود الاخير .

٣ـ مجلّة «كيهان فرهنگى» رقم ٥٢ ، تيرماه ٦٧ ، رقم ٤ ، ص ١٦ ، العمود الاوّل .

المذكورة بأنها ليست إلا مطالب لا دليل لها ، ومدعى خاليا من البرهان ، وخطابة نظمت بلا مطالعة وتحقيق ، وشعرا قيل بلا فهم ولا تدقيق .

فأولا : ما هى علاقة فلسفة ما وراء الطبيعة والاءلهيات بالمعنى العام والخاص بالفلسفة والعلم الطبيعى ؟

ينبغى أن يكون ارتباط العلوم فيما بينها أو عدم ارتباطها إما فى الموضوع أو فى الحكم ، وبعبارة أشمل : من جهة المسائل أو من جهة الغاية والهدف .

إنّ الحكمة الاءلهيّة وفلسفة ما وراء الطبيعة لا ترتبط أبداً فى أىّ من هذه الجهات مع المسائل الطبيعيّة الواردة فى العلوم التجريبيّة مع ملاحظة توسّعها .

فهناك فى الحكمة الاءلهيّة البحث عن العلّة والمعلول ، والتقدّم والتأخّر ، والوحدة والكثرة ، والوجود والماهيّة ، والجوهر والعرض وأمثال ذلك ، والبحث فى إثبات القادر الحىّ الازلىّ الابدىّ السرمدى الشاعر الحكيم العليم القدير المختار ذى المشيئة والاءرادة ، من الطرق المختلفة لابطال الدور والتسلسل ، وعينيّة العلّة مع المعلول فى الوجود واختلافها حسب التنازل والتصاعد وغيرها .

أمّا الطبيعيّات ، فيُبحث فيها عن الحركة والزمان والمكان والمادّة والقوّة وتكوّن الارض والسماء والانهار والاشجار والاحجار والشمس والقمر ، وعن ظهور المعادن ، وعن بدن الاءنسان ، والطبّ والهيئة والنجوم ومسائل الفيزياء والكيمياء وأمثالها .

فقولوا لنا : أهناك اشتراك بين هذين العِلمَين فى موضع معيّن ، ليسبّب ضمور أحدها تضخّم الآخر ونموّه ؟ فى الموضوعات ، أو الاحكام ، أو الغايات ؟!

إنّ الحكمة الاءلهيّة وفلسفة ما وراء الطبيعة تقوم بإثبات معيّة الذات القدسيّة للحيّ المتعال مع جميع الموجودات ، وتشاهد تجلّى الله العالم القدير فى جميع الاشياء ، وتبرهن على ربط الحادث بالقديم ، وتبحث عن إثبات العلل المتوسّطة كالمُثل الافلاطونيّة مثلاً ، أو بتعبير القرآن عن الملائكة المجرّدة **فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ، [1] سواء فى ذلك دارت الارض حول الشمس ، أم دارت الشمس حول الارض ، وسواء كان القمر من أقمار الارض وتوابعها، أم من المجموعة الشمسيّة ، وسواء تكوّن بدن الاءنسان من الاخلاط الاربعة (الصفراء ، السوداء ، البلغم ، الدم) أم من موادّ سمّيت بمسمّيات أُخرى ، أم كانت حقيقتها خارجة أيضاً عن هذه الاربعة (كالأُوكسجين والهيدروجين والنتروجين والكلور والفسفور وغيرها) ، ولا فرق عندئذٍ اعتبرت العناصر البسيطة منحصرةً فى أربعة لا تتجاوزها (التراب ، الهواء ، النار ، والماء) ، أم اعتبرت البسائط متجاوزة لمائة وعشرين ، وقِسْ عليه فَعْلَلَ وتَفَعْلَلَ .

ولقد كان عبدة المادّة فى فلسفة الطبيعيّين يقولون : إنّ جميع هذه العناصر الاربعة ، والاخلاط الاربعة ، والافلاك لا معلولاً ولا علّة حيّة أزليّة ، وهم الآن يقولون : إنّ العناصر البسيطة ، وحركة الاءلكترونات ، وهذا الدوران للعالم الدوّار ، وحركة الامواج ، والنور والكهربائيّة ليست معلومة بعلّة أزليّة حيّة .

وكان الماديّون فى كلا الزمانين ينكرون الصانع العليم القدير ، فى حين كان الالهيّون بدورهم على نهج واحد يثبتون الصانع العليم القدير فى كلا الزمانين.

١ـ الآية ٥ ، من السورة ٧٩ : النازعات .

فحيثما يبدأ البحث الالهى فى الفلسفة عن الماهية والوجود ، فماذا يضير أن نطلق اسم الماهية على الجسم والعناصر التى تتشكل منه ، أو على الموجودات الحية الناشئة من الكيمياء الحياتية مثلا ؟ فالماهية تمتلك فى كل الاحوال معنى يقابل معنى الوجود ، ولا يمكن انكار هذا الكلام ورده . ولو قلنا بأصالة الوجود فسيكون البحث واحدا عن كلا الطريقين ، فى الطبيعيات : الطبيعيات القديمة أو العلوم التجريبية الحالية ؛ ولو قلنا بأصالة الماهية ، فسيكون البحث فى كلا الطريقين واحدا أيضا ، ولا فرق هناك أبدا .

ولهذا فإن الكلام فى أن إزالة و حذف بحث الطبيعيات القديمة سيوجد خللا فى بحث الفلسفة الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) هو قول مهزوز تماما وليس له ما يعضده ويسنده .

ويرجع ذلك إلى أن الاءلهيات قد وضعت على أساس قواعد منطقية يتكفل علم الميزان بصحتها واستقامتها ؛ وعلم الميزان كالقواعد الرياضية ثابت لا تغير فيه ، ولا يمكن إنكار القياسات الاقترانية والاستثنائية ، وإفادة الاشكال الاربعة بشروطها الخاصة ، وترتيب الصغرى والكبرى ؛ فيبقى المطلب فى فلسفة ماوراء الطبيعة غير مقبول ما لم يصل إلى مرحلة البرهان ، فالخطابة والجدل والشعر والمغالطة وجميع المسائل التى شكلت إحدى مقدماتها من هذه مثل الامور غير مقبولة ، والنتيجة تتبع أخس المقدمتين ،لذا ينبغى لمقدمتى القياس أن تكونا مبرهنتين .

ولقد وضعوا لهذا الامر المهم علم المنطق ، وكتب **ابن سينا** منطق «**الشفاء**» الباهر ، وألف **الخواجة نصير الدين الطوسى** كتاب «**أساس الاقتباس**» ، ذلك الكتاب الضخم فى المنطق ، ولا تزال دراسة علم المنطق جارية ومعهودة فى الحوزات العلمية حتى يومنا هذا .

أمّا الطبيعيّات فهى بجميع شؤونها وجميع فروع مسائلها ، من الطبّ والنجوم والهيئة ، ومسائل الارض والسماء ، غير مرتكزة وغير معتمدة على البرهان ، بل تعدّ مسائلها استقرائيّة ، حيث استبدلوا أخيراً كلمة الاستقراء بالتجربة . ولقد قالوا و كتبوا جميعاً مكثرين : إنّ المسائل الاستقرائيّة لا تورث القطع واليقين ، بل هى مسائل ظنّيّة تماثل المسائل الحدسيّة والفرضيّة الحاليّة ، عدا الاستقراء التامّ الذى يورث العلم واليقين .

فنسبة المسائل الطبيعيّة الاستقرائيّة إلى الالهيّات البرهانيّة ، كنسبة فرضيّة حركات الافلاك والتداوير المفروضة ، وثبوت السيّارات داخل جرمها ، وفرضيّة حركة السيّارات فى مداراتها الخاصّة بلا فلك قد سُمّرت فى جُرمه ، إلى نتيجة حسابات عالم رياضىّ ومنجّم مختصّ قاس وأجرى بصورة دقيقة حساب حركة وزمان أوج وانحطاط الشمس أو ما شاء من سيّارات ، وزمن خسوف القمر وكسوف الشمس وفق القواعد الرياضيّة .

فحسابات المنجّم والعالم فى الهيئة واحدة فى كلّ الصور والحالات ، لانّها استندت إلى قواعد رياضيّة ثابتة وغير متغيّرة ، سواء أخذنا الارض كمركز للعالم حسب هيئة بطليموس واعتبرنا الشمس وجميع الثوابت والسيّارات تدور حولها ، أم اعتبرنا الشمس مركزاً والسيّارات والارض تدور حولها حسب هيئة كوبرنيك .

فمع أنّ هاتين الفرضيّتين مختلفتان بالطبع ، لكنّهما لا تؤثّران أبداً على نتيجة حسابات المنجّم ، لانّ الاهتمام الرئيسىّ للمنجّم ونظره ليس لحركة هذه أو تلك ، بل بمقارنة البُعد والقُرب ، وهو أمر لا اختلاف فيه ولا تفاوت .

فلو كانت الفاصلة بيننا وبينكم مائة فرسخ ، وكان لابدّ لنا من طى خمسين ساعة لنصل إلى بعضنا ، فما الفرق للمحاسب الذى سيجرى الحساب فيقول

إنّ كلّ فرسخين ينبغى طيّهما فى ساعة واحدة ، أن نكون نحن ثابتين وأنتم المتحرّكون نحونَا ، أو تكونوا أنتم الثابتين ونحن المتحرّكون نحوكم ، فالاساس هو صحّة المحاسبة وصوابها ، لا حركة هذا وسكون ذاك ؛ فإنّ (٨) **مضروبة فى (٢) تساوى (١٦) ؛ و(٢) مضروبة فى (٨) تساوى (١٦) أيضاً .**

فمسألتا الضرب هاتان مع اختلافهما فى المحتوى ، أى فى المضروب والمضروب فيه ، وبيانهما لمعنيين وكيفيّتين ، لكنّ نتيجة الضرب واحدة .

كان هذا مثالاً لنعلم أنّ مسائل الاءلهيّات أيضاً غير قابلة للتغيّر والتبدّل ، لا نّها كالقواعد الرياضيّة والمثلّثات معتمدة على أساس البرهان ، أمّا الطبيعيّات فتغيّرها ممكن ووارد طبقاً للفرضيّات المتفاوتة وتبعاً للاكتشافات المختلفة .

ومن هنا فليست مسائل ما وراء الطبيعة مع الطبيعيّات كبناء ذى طابقين أو غرفتين ، بل كبناء خرسانى مسلح محكم ومتين مقابل بناء منفصل آخر يواجهه .

ولربما خيل لكاتب المقالة أن مسائل ما وراء الطبيعة وأحكامها ووظائف مهامها ، وصولا إلى الله الواحد القهار ، فى معزل عن مسائل الطبيعة ، بمعنى أن أى أثر نعتبره للمادة والطبيعة لن يكون لعالم ما وراء ذلك وآثار عالم الطبيعة منحصرة بآثار لا يد للطبيعة فيها ، لذا فإن هزال وتضخم الطبيعة والمادة هو على العكس من العالم الذى وراءها ، أى عالم الحياة ؛ أى أن هزال الطبيعة يستتبع ضخامة عالم الحياة ، وضخامة عالم الحياة يستلزم هزال عالم الطبيعة .

وهذا التصور خاطى ومخالف لاصول التوحيد ومباين لمنطق القرآن

والبرهان ، وما نسب فى كتاب « راه طى شده » (= الطريق المطوى) إلى الموحدين والقائلين بعالم الحياة من الفلاسفة خطأ ومجانبة للصواب ، إلا إذا كان مراد الكاتب من الفلاسفة علماء الغرب الذين لم يتذوقوا طعم التوحيد .

فتبعا للحكمة المتعالية فإن جميع أفعال المادة والطبيعة هى أعمال ما وراءها ، فلا يمكن وجود ذرة واحدة وآثارها ولوازمها فى جميع عالم المادة إلا وهى تحت سيطرة وهيمنة عالم الروح ، وإحاطة ومعية عالم ما وراءها ؛ وتفكيك الاعمال الطبيعية وغير الطبيعية ، والقول بقطب مستقل لكل منهما هو خلاف برهان التوحيد .

ولعله ظن أن المراد من عالم النفس : الروح ، وما وراء الطبيعة الملائكة ، وأخيرا فإن قدرة الواحد العليم الحكيم هى تلك الظاهرة الحاصلة من المادة ونتيجة جهاز حركة المادة فى عالم الطبيعة ، أو النظام المتقن المتين الذى جرى علم الطبيعة على أساسه منذ الازل فى مسير واحد ونهج مستقيم بلا أدنى تخلف ، وسيبقى فى جريانه على هذا المنوال أيضا حتى الابد ؛ وبالطبع فتبعا لهذا التصور فإن ضعف الطبيعة يستلزم ضعف هذا المعنى ، وقوتها تستوجب قوة هذه الحقيقة ، ولذا فإن تضخم وهزال المادة سيوجب تضخم وهزال ما وراءها مباشرة فى معادلة مستقيمة طردية لا عكسية .

وهذا التصور هو تصور خاطى أيضا ، لان إتقان النظام والحياة الواحدة الحاكمة على العالمين ، وعلى جميع عالم الوجود ، من فعل الرب تعالى ، لا نفس ذاته القدسية .

ففوق هذا الفعل ، وهذا النظام الواحد المتين الراسخ الحاكم على العالم ، هناك ذات بسيطة ومجردة وواحد وقهار وعليم وقدير ابتدع هذا العالم بإرادته الازلية ، وأداره ويديره ، ويفيض عليه ، ليس فقط فى ابتداء

الخلق ، بل كل لحظة وإلى الابد ؛ فإحاطته به ليست إحاطة علمية فقط ، بل له معية معه فى وجوده وذاته ، وجميع هذا العالم هو علمه الحضورى .

فالاءله المتحرك الجارى الذى له كل يوم ظهور وتجل جديد فى المادة ليس هو الله ، بل مأمور ومحكوم لحكم الله تعالى .

وثانيا : إن علم الطبيعيات لم يلغ تدريسه فى الحوزات العلمية ، فهم الآن يدرسون مع الالهيات مباحث الطبيعيات أيضا ، ولقد كان علماء الاسلام الحقيقيون هم واضعى الحجر الاساس للمدنية الغربية ، وامتلكوا فى جميع الفنون الطبيعية المقام الشامخ الذى لا نشاهد له نظيرا وشبيها فى الغرب .

فأما بشأن علم الكيمياء : فهم يقولون اليوم إن اختلاف الاجسام والعناصر المادية ، كالحديد والذهب والكاربون والاوكسجين عن بعضها مسبب عن اختلاف عدد الاءلكترونات الدائرة حول النواة ، ومرتبط بكيفية ترتيبها أيضا ، فإذا أمكننا أن نغير هذا النظام فى مادة ما إلى نظام مادة أخرى فسنكون قد أوجدنا تلك المادة الثانية ؛ ومن جهة أخرى فإنه يمكن إطلاق **أشعة إكس** والطيف الضوئى نتيجة تغيير الترتيب الالكترونى .

وقد أجرى رجلان إنجليزيان هما **والتون** و **كاسرافت** هذا العمل لاول مرة بشأن عنصر **الليثيوم** فقاما بتحويله إلى عنصر **الهيليوم** .

وقد وصل قدماؤنا إلى مراحل أبعد من هذه ، ولم يزل العلم الحديث عاجزا عن الوصول إلى اكتشافاتهم ؛ فلقد اعتبروا الفلزات قابلة للحياة وممتلكة لنوع من الحياة والموت (والفعالية) ، وقالوا بإمكان توليدها المثل ، فسعوا على هذا الاساس إلى تبديل بعض الفلزات إلى فلزات أخرى وخاصة إلى **الذهب** . ولم يختص هذا التفكير بالمسلمين فقط ، بل

بقيت آثاره من قديم الايام من زمن **أفلاطون** . [1]

والنتيجة المستحصلة من هذه النظرية هى أن **الكيميائيين والمحققين** قد سعوا فى مجال التحقيق . فقاموا فى أبحاثهم باختراعات واكتشافات واختبارات كثيرة ، وظهر فى هذا العلم أمثال **جابر بن حيان المعروف بالصوفى** وهو أحد تلامذة الامام جعفر الصادق عليه السلام ، [2] و **ذو النون**

١ـ إن ما توصلوا اليه اليوم هو اكتشاف البناء الذرى للاشياء وفهم علة اختلاف خواص العناصر مع بعضها من جهة اختلاف عدد الالكترونات فى المدار الخارجى ، وكذلك اكتشاف إمكان تبديل العناصر عن طريق القصف الذرى فى أجهزة خاصة ، وهذه الاكتشافات تعطى بشارات أفضل وأحدث .

٢ـ يقول المستشار عبد الحليم الجندى عضو أركان المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية فى جمهورية مصر العربية فى كتابه القيم : «الاءمام جعفر الصادق» ص ٣ و ٤ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧ ، فى مقدمة الكتاب : والاءمام جعفر الصادق يقف شامخا فى قمة فقه أهل بيت النبى عليه الصلاة والسلام . هو فى الفقه إمام . وحياته للمسلمين إمام . والمسلمون اليوم يلتمسون فى كنوزهم الذاتية مصادر أصيلة للنهضة ، مسلمة غير مخلطة ولامستوردة.

هو الامام الوحيد من أهل البيت الذى أتيحت له إمامة دامت أكثر من ثلث قرن، تمحض فيها مجلسه للعلم ، دون أن يمد عينيه إلى السلطة فى أيدى الملوك ، وبهذا التخصص سلم الامة مفاتح العلم النبوى . ومنه يبدأ التأصيل الواضح لمنهج علمى عام للفكر الاسلامى ، نقلته أمم الغرب فبلغت به مبالغها الحالية ، وعمل به بين يديه ثم أعلنه تلميذه جابربن حيان أول كيميائى ، كما تبايع له أوروبا الحديثة ، وهو منهج التجربة والاستخلاص، أى الاعتبار بالواقع وتحكيم العقل مع النزاهة العلمية.

فالإمام الصادق هو فاتح العالم الفكرى الجديد بالمنهج العقلانى والتجريبى ، كأصحاب الكشوف الذين فتحوا أرض الله لعباده فدخلوها آمنين.

والامام الصادق هو الامام الوحيد فى التأريخ الاسلامى ، والعالم الوحيد فى التأريخ العالمى الذى قامت على أسس مبادئه الدينية والفقهية والاجتماعية والاقتصادية دول عظمى.

ثم يستمر فى كلامه إلى ص ٧ و ٨ فيقول :

والقسم الثانى من الكتاب يعرض تصور المؤلف للعلم الذى علمه الامام ، والمدرسة التى أنتجته ، والمنهج العلمى العالمى الذى أخذ به العلماء الدينيون والفقهيون والرياضيون والفلكيون والكيمائيون وعلماء الطبيعة الاءسلاميون ، ونقله عنهم رياضيو العصور الوسيطة فى أوروبا ليصير منهج التجربة والاستخلاص الذى يعمل به الفكر المعاصر ، بعد إذ ترجم من العربية فى جنوب فرنسا وأسبانيا وصقلية وسواها من جامعات أوروبا ، وسبق إلى التنويه به روجير بيكون ، ثم نسب إلى فرنسيس بيكون بعد ثلاثة قرون ، وكذلك المنهج السياسيالاجتماعى والاقتصادى الذى أقام الدول العظمى والمجتمعات الاسلامية التى يباهى بها المسلمون فى العصر الوسيط وفى العصور الحديثة.

ثم يقول عبد الحليم الجندى فى نفس الكتاب ، ص ٢٢٣ و ٢٢٤ بشأن عظمة جابربن حيان: جابربن حيان أول من استحق فى التأريخ لقب كيميائى ، كما تسميه أوروبا المعاصرة، وهو الذى يشير إليه الرازى (٢٤٠ ـ ٣٢٠) ب «جالينوس العرب» ، فيقول : أستاذنا أبوموسى جابر بن حيان.

والمؤرخون ـ إلا بعضا من غير المسلمين ـ متفقون على تلمذته للاءمام ، وعلى صلته أو تأثره به فى العلم والعقيدة ، وأكثرهم على أ نه صار بعد موت الاءمام من الشيعة الاءسماعيلية. يقول فى كتابه «الحاصل» : **ليس فى العالم شىء إلا وفيه من جميع الاشياء. والله لقد وبخنى سيدى (يقصد الاءمام الصادق) على عملى فقال : والله يا جابر ! لولا أ نى أعلم أن هذا العلم لا يأخذه عنك إلا من يستأهله ، وأعلم علما يقينا أ نه مثلك ، لامرتك بإبطال هذه الكتب من العلم.**

وكانت كتب رياضة وكيمياء تسبق العصور بجدتها ، قيل إنه أخذ علمه عن خالدبن يزيد ثم عن الاءمام جعفر . وهو يشير إلى الاءمام دائما بقوله «سيدى» ، ويحلف به ويعتبره مصدر الالهام له.

يقول فى مقدمة كتابه «الاحجار» : وحق سيدى لولا أن هذه الكتب باسم سيدى صلوات‌الله عليه لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الابد.

وذكر له المستشرق كراوس (Kraus) ناشر كتبه فى العصر الحديث أربعين مؤلفا، أضاف ابن النديم فى القرن الرابع للهجرة عشرين كتابا آخر له ونقل ابن النديم من قوله: ألفت ثلاثمائة كتاب فى الفلسفة ، وألفا وثلاثمائة رسالة فى صنائع مجموعة وآلات

المصرى ، و أبو زكريا الرازى [1] وغيرهم .

وقد اكتشف أبو زكريا الرازى **الكحول** الذى يدعونه اليوم بنفس الاسم (ALCOHOL) من تقطير المواد السكرية والنشاء ، وفتح ـ كما تعلمون بكشفه لهذه المادة فصلا جديدا فى الطب والصيدلة .

واكتشف كذلك **جوهر الكبريت** ـ أى حامض الكبريتيك من تجزئة **الزاج الاخضر** أى كبريتات الحديد المتبلورة ؛ وتعلمون أن هذه المادة صارت أم الصنائع ، وسميت **بزيت الزاج و أم الصنائع** . [2]

ولقد حصل علماؤنا بأجهزة التقطير **القرع والانبيق و بأحجار الكلس** على الكثير من المواد الكيميائية من قبيل **نترات الفضة** (حجر جهنم) **وكلوريد الزئبق المشبع ، و البوتاس ، و أملاح النشادر ، و جوهر الملح** (حامض الهيدرو كلوريك) ، و **الملح** ، و **كاربونات الصوديوم** (القلياء) ، و **الانتيمون** وعشرات المواد الاخرى التى تعد فى الكيمياء الحالية من الاسس والمواد المهمة . [3]

الحرب، ثم أ لفت فى الطب كتابا عظيما ، ثم أ لفت كتبا وكبارا ، وأ لفت فى الطب نحو خمسمائة كتاب . ثم أ لفت فى المنطق على رأى أرسطاطاليس ، ثم أ لفت كتاب «الزيج» أيضا نحو ثلاثمائة ورقة ، ثم أ لفت كتابا فى الزهد والمواعظ.

وألفت كتبا فى العزايم كثيرة حسنة ، وألفت فى الاشياء التى يعمل بخواصها كتبا كثيرة، ثم ألفت بعد ذلك نحو خمسمائة كتاب نقضا على الفلاسفة ، ثم ألفت كتابا فى الصنعة يعرف بـ«كتاب الملك» وكتابا يعرف بـ«الرياض» .

١ـ أبو زكريا الرازى صاحب كتاب «الحاوى» ، من أعاظم أطباء وحكماء القرن الثالث الهجرى ، وهو لشهرته غنى عن الوصف ، وقد ذكر كثير ان ولادته كانت سنة ٢٢٥ ووفاته فى شهر شعبان سنة ٣١٣ ، أو ٣٢٠ هجرية .

٢ـ كتاب «شرح حال ومقام محمد زكريای رازى ، پزشك نامى ايران» تأليف الدكتور محمود نجم آبادى ـ بالفارسية ، ص ٥٥ و ٥٧ .

٣ـ يعترف علماء الغرب أن المسلمين ـ مضافا الى اكتشافاتهم **للمواد** المذكورة فقد

وقد عدوا ـ عند اكتشافهم لهذه المواد ـ أن صنع الفضة والذهب أمر ممكن ، وقد كتب **محمد بن زكريا الرازى** كتابا باسم : «**إن صناعة الكيمياء إلى الوجوب أقرب منها إلى الامتناع**» . يقول **ابن جلجل** فى «**طبقات الاطباء والحكماء**» : لقد أجرى **محمد بن زكريا الرازى** تحقيقات فى صناعة الكيمياء ، وأ لف أربع عشرة مقالة فى علم الكيمياء .

ويشاهد فى فهرس مصنفات الرازى اسم ثلاثة كتب رد فيها على عقيدة **يعقوب بن إسحاق الكندى** [1] فى بطلان صنعة الكيمياء .

اكتشفوا موادا أخرى مثل حامض النتريك ، والهيدروكلوريك ، وكلوريد السلفوريك ، والماء الملكى ، وجوهر النشادر وملح النشادر . ويستحصل الماء الملكى من خلط التيزاب (حامض النتريك) مع جوهر الملح (حامض الهيدروكلوريك) .

يقول غوستاف لوبون فى كتابه «حضارة الاءسلام» ص ٦٢٦ و ٦٢٧ ، الباب الخامس ، الفصل الثانى ، الكيمياء :

والمعارف التى انتقلت من اليونان إلى العرب فى الكيمياء ضعيفة ، ولم يكن لليونان علم بما اكتشفه العرب من المركبات المهمة كالكحول وزيت الزاج (الحامض الكبريتى) وماء الفضة (الحامض النترى) وماء الذهب وما إلى ذلك . وقد اكتشف المسلمون أهم أسس الكيمياء كالتقطير .

وما ذكره البعض فى كتب الكيمياء من أن لافوازيه هو واضع علم الكيمياء يظهر منه نسيانهم أ ننا لا عهد لنا بعلم من العلوم ومنها علم الكيمياء صار ابتداعه دفعة واحدة ، وأ نه وجد عند المسلمين من المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافات لم يكن لافوازيه ليستطيع أن ينتهى إلى اكتشافاته بغيرها .

ويقول فى صفحة ٦٢٩ : وقد اكتشف المسلمون أيضا مركبات أخرى لا غنية للكيمياء والصناعة عنها ، كزيت الزاج (الحامض الكبريتى) ، والكحول ، وكان الرازى المتوفى سنة ٩٤٠ أول من وصفها ، فقال : إن زيت الزاج يستخرج بتقطير الزاج الاخضر ، وإن الكحول يستخرج بتقطير المواد اللبية أو السكرية المختمرة .

١ـ يعقوب بن إسحاق الكندى ، أعلى الفلاسفة العرب مقاما فى القرن الثالث

وكان للكثير من المتصوّفة اشتغال بهذا العمل ، حيث يتكرّر ذكر أسماء : جابر بن حيّان [1] وذى النون ، والجنيد البغدادىّ ، ومحيى الدين عربى ، وشمس التبريزىّ ، وجلال الدين الرومىّ ، والسيّد نعمة الله ولى ، ونور على شاه .

هذه هى عظمة وتقدّم علم الكيمياء أحد فروع الطبيعيّات . وبالطبع فإنّ هذا العلم : علم الكيمياء هو عبارة عن تركيب موادّ خاصّة فى شروط خاصّة لصناعة الذهب . وأمّا الاءكسير الذى يقال له أيضاً : الكبريت الاحمر ، فهو علم يُحصل به على شىء يمكنه تبديل النحاس والفضّة بالمسّ إلى ذهب ، وهو أهمّ كثيراً من الكيمياء .

أمّا بشأن علم الفيزياء : فقد برع العلماء والمفكّرون المسلمون فى هذا الفنّ وبرزوا فى كثير من مجالاته ، سواءً ما تعلّق بحسابات جرّ الاثقال ، أم بأبحاث النور وانكسار الاشعّة والمرايا ،أم فى كثيرمن الصناعات المعتمدة على القوانين الفيزيائيّة .

فاكتشافات أبى ريحان البيرونىّ فى الفلكيّات والرياضيّات و الميكانيك و الهيدروستاتيك (ضغط وتوازن السوائل) حساب ثقل و ضغط السؤال و توازنها ، وارتفاع مياه الينابيع والفوّارات ، وقياس محيط الارض بالطريقة التى دعاها الغربيّون بقاعدة البيرونى ، واختراعه لبعض أنواع

الهجرىّ ، لانّ تأريخ بعض مؤلّفاته فى سنة ٢٢٢ هجريّة . وذكر ابن النديم فى «الفهرست» وابن أبى أُصَيبعة فى «طبقات الاطبّاء» ترجمة أحواله .

١- يقول غوستات لوبون فى هامش صفحة ٦٢٧ من «حضارة الاءسلام» : ويعتبر علماء كيمياء الشرق كالشيخ محمّد قمرى وابن وحشيّة ومظفر على شاه الكرمانىّ وغيرهم جابراً ربيباً للامام جعفر الصادق ؛ ولا شكّ فى تلمذته على يديه ، لا نّه يكرّر فى مؤلّفاته القَسَم باسمه وعنوانه .

الأسطرلاب ، والكتب التى أ لّفها فى الآلات الفلكيّة ، والنجوم المذنّبة ، والظواهر الجوّيّة ، والمدّ والجزر ، وإيجاد الوزن الخاصّ للأجسام ، والحدس بحركة الارض ، واحتمال وجود قارّة أُخرى فى سائر نقاط الربع المسكون كقارّة أمريكا ، وكثير آخر من أمثال هذه المسائل ، تعدّ بأجمعها من المسائل المهمّة التى وُضعت عليها علوم الفيزياء والرياضيّات الحاليّة .

وقد جاء فى مقدمة كتاب « التفهيم لاوائل صناعة التنجيم » أن أبا ريحان قد اخترع ميزانا جديدا لتعيين الوزن والحجم الخاص للاجسام دعاه بـ ميزان أبى ريحان ، وعين بواسطته الوزن الخاص (النوعى) لعدد من الاجسام فى حدود ١٦ فقرة يطابق آخر ما وصلت إلى تحقيقات العلماء الحاليين ، وكان ميزان أبى ريحان فى نظر أهل الفن والخبرة أدق من ميزان أرخميدس .

وهناك رسالة مذكورة فى فهرس مؤلفاته فى النسبة بين الفلزات والجواهر المعدنية كتبها بالفارسية ؛ وقد عين بشكل خاص فى كتاب «الجماهر» الوزن الخاص (النوعى) للفلزات ولبعض الاحجار الكريمة .[١]

البئر الارتوازية : وقد أورد فى « نامة دانشوران » (= رسالة الحكماء) أن هناك بعض المطالب المذكورة فى كتاب «الآثار الباقية» لابى ريحان أقيم على أسسها ونظمها فى كتب حكماء أوروبا ، وذكر من جملتها شروحا لارتفاع الماء من بعض العيون ذكره بعينه الحكيم الطبيعى المسيو زله فى باب «پى آرت زين» .

وسنورد بعد انتهاء مسائل ومطالب أبى ريحان تلك المسألة وسائر المسائل وقواعد رسم الخرائط المعهودة عند حكماء أوروبا ، ليتضح أن أبا

١ـ مقدمة «التفهيم» ص ١١٦ ، بقلم جلال الدين همائى .

ريحان كان لـه تـوارد خواطـر مـع أغلـب حكمائـهم ، أو أنـهم ظفـروا بمؤلفاتـه فاقتبسوا تلك القواعد منه . [1]

١ـ خصص المستشار عبد الحليم جندى فى كتاب «الاءمام جعفر الصادق» ثلاثة فصول منه حول علوم الاءمام فى حقول العلوم التجريبية والعلوم السياسية والعلوم الاقتصادية ، أورد فيها بحوثا قيمة ، واستدل على أن جميع علوم الاوروبيين فى هذه الحقول الثلاثة المهمة مستمدة ومقتبسة منه عليه السلام ، فيقول فى بداية هذه الفصول فى الباب الخامس الذى يشخص المنهج العلمى للاءمام فى ص ٢٧٧ بشكل مكثف :

فى الباب الحالى فصول ثلاثة تحاول تصوير منهج الاءمام الصادق العلمى والحضارى والسياسى والاقتصادى ، كما رسم خطوطه بالفعل وبالقول ، وكما اقتفى آثاره وبنى عليه علماء الاسلام ، الفقهاء منهم والرياضيون التطبيقيون ، مستمتعين بحرية الفكر والبحث التى وردت بها نصوص الكتاب العزيز وأمرت بها السنة . وكان الاءمام الصادق من الاوائل فى تعليمها للمسلمين ، ممن انتسبوا إليه وممن أخذوا عنهم ، يستوى فى ذلك الشيعة وفقهاء أهل السنة .

على هؤلاء الفقهاء تعلم أهل أوروبا منهج النزاهة العلمية والواقعية الذى تبلور فى طريقة «التجربة والاستخلاص» . والذى أعلنه جابر بن حيان ، أول من استحق فى العالم لقب كيميائى كما يعبر عنه الاوروبيون .

ومن المنهج الحضارى : المنهج السياسى والاقتصادى الذى يستهدف عمارة الدنيا بالعدل بين الناس ، والعمل للحياة ، والتكافل بين أعضاء الجماعة ، والسعى لاستثمار طاقات الناس وأموالهم ؛ وهى قواعد بلغ بها الفقه الشيعى غايته ، ابتداء من منهج أمير المؤمنين على ، معمولا به فى حياته أو خلافته ، أو منصوصا فى عهده للاشتر النخعى ، وكله سياسة واجتماع واقتصاد ، إلى رسالة حفيده زين العابدين فى الحقوق ، وهى تجرى فى آثاره ، إلى برنامج حفيده جعفر الصادق العلمى والحضارى ، السياسى والاقتصادى ، يدلى به للناس ، ويطبقه بنفسه ، ويضع به الاسس لدول أو مجتمعات أو جماعات أو جمعيات ، تعمل بمنهاجه لتبلغ أوجها به .

وهذه خصيصة لا يجارى الصادق فيها عالم من العلماء فى التأريخ ، وحسبنا فى هذا المقام كلمات كالاشارات ، تضمنتها الفصول الثلاثة التى حواها هذا الباب .

يقول فى «الآثار الباقية» : تنقسم المياه التى تتجمع فى قعر البئر إلى قسمين : منها ما يترشح أحيانا من أطراف البئر ويتجمع ، فيكون سطح تلك المادة مع سطح الماء المجتمع فى مستوى واحد ، وهذا القسم لا يمكن بأى تدبير أن يرتفع إلى الاعلى ، لان الفتور والضعف الذى فيه لا يتلائم مع ذلك القصد .

ويحدث أحيانا أن يفور الماء فى قعر البئر بقوة لان منبعه ومادته مرتفعة ينحدر منها بشدة ويخرج من المنافذ ، وهذا القسم يمكن رفعه بالآلات العادية المعهودة مثل الفوارات العالية والانابيب ، للقدر الذى يصبح فيه أعلى ارتفاع لماء الفوارة موازيا ومساويا لسطح المادة الاصلى ، وهذا الماء قد يصل أحيانا إلى مستوى القلعة والمنارة .

وقال أبو ريحان فى ذيل ذلك المطلب أيضا :

ولقد حصل كثيرا فى اليمن ، عند حفرهم الآبار ، أن ينتهوا فى حفرهم إلى صخرة ، فيعرف قوم تلك الديار ، حسب فراستهم فى هذا الامر ، من صوت الصخرة كمية الماء المخزون فى تلك المنطقة ، فيعمدون بما فى أيديهم من الآلات إلى إيجاد ثقب ضيق فى تلك الصخرة ، فإن فار منها الماء بسلامة قاموا بتوسعة ذلك المجرى ، وإن شوهد فى الماء آثار الطغيان عمدوا إلى ذلك الثقب فسدوه بالتراب والجير لئلا ينبعث منه سيل مهيب .

وهناك بحيرة واقعة فى أعلى جبل بين مدينتى طوس وأبر شهر تدعى ببحيرة برزود ، يبلغ محيطها مائة فرسخ ، لا يظهر فى مائها الجزر والمد الذى يظهر فى مياه البحار الاخرى ، وذلك لان مستوى المخزن المائىّ الذى يمدّها يوازى سطح البحيرة ، أو أنّه يرتفع عنه ، لكنّ مقدار الماء الذى يجفّ بالتبخّر الحاصل من أشعة الشمس يعادل المقدار الوارد

من المنبع ، لذا انعدمت الزيادة فيه أو النقصان .

حتّى يصل إلى القول :

وقد أورد الحكيم المسيو زله فى كتابه فى علم الطبيعة بشأن بئر جرْنل [1] الواقعة فى باريس فصلاً مشبعاً ، وذكر فى بيان عللـه وأسبابه الطبيعيّة شرحاً يوافق تحقيقات أبى ريحان تماماً .

وعلى كلّ حال فإنّ تلك البئر تقع فى منطقة باريس بعمق خمسمائة وثمانية وأربعين متراً ، ويرتفع ماؤها عن الارض بواسطة أنابيب ارتفاعها ثمانية وثلاثون متراً .

ولقد كان بحر الخزر مورد حيرة حكماءأُوروبّا ، إذ تصبّ فيه كلّ تلك الانهار فى حين ليس هنا من ممرّ ومخرج للماء منه ، لذا فقد اعتقدوا إلى ما قبل مائتى سنة [2] أنّ للبحر المذكور مجريين سفليّين ، أحدهما تحت كرجستان والقفقاس ، والآخر من جهة ممالك إيران وهوانق ، فما يرد فيه من تلك الانهار يذهب فى المجرى الاوّل إلى البحر الاسود ، وفى الثانى إلى الخليج الفارسىّ ، ولولا ذلك فإنّ طغيان الماء الناتج من تجمّع الأنهار العظيمة سيغطّى سواحل إيران وحاج طرخان ، بل سيغطّى خوارزم وجميع آسيا .

لكنّهم قالوا فى مسألة ذلك البحر ؛ استناداً إلى علوم الكيمياء والطبيعة التى تكاملت منذ التأريخ المذكور إلى الآن ؛ بنفس القول الذى

---

١ ـ Gernelle

٢ ـ طُبع المجلّد الاوّل من «نامة دانشوران» (= رسالة العلماء) ؛ كما ذُكر فى مقدّمته بقلم العالم الجليل الحاجّ السيّد رضا الصدر فى ١٥ شعبان سنة ١٢٩٦ هجريّة ، وعلى هذا تصبح الفاصلة الزمنيّة بينه وبين تأليف المجلّد لاوّل من هذا الكتاب «نور ملكوت القرآن» فى ١٤٠٨ هجريّة تعادل ١١٢ سنة ينبغى إضافتها إلى المائتى سنة المذكورة .

نقلناه عن الأُستاذ أبى ريحان ، وتيقّنوا أنّ الكمّيّة التى تجفّ من المياه بأشعّة الشمس تعادل الكمّيّة الواردة فى ذلك البحر ، وقد أمعن جمع من المهندسين الروس فى التحقيق والبحث بشأن هذه المسألة خاصّة ، فاستنبطوا بعد تتبّع زائد ما يطابق رأى أبى ريحان الذى ذكره فى «الآثار الباقية» . [١] ويعرف كشف أبى ريحان هذا اليوم فى الفيزياء ب قانون خاصّيّة الاوانى المستطرقة .

وقد كان لابى ريحان تحقيقات عميقة أيضا بشأن حركة النور والصوت ، وأن حركة الصوت أبطأ من النور . [٢]

ومن بين المسائل الفيزيائية التى يدين بها الاوروبيين للمسلمين مسائل النور والمرايا ، ومن أرقى الكتب التى دونت فى هذا الموضوع كتاب «تنقيح المناظر لذوى الابصار والبصائر» تأليف العلامة كمال الدين أبى الحسن الفارسى ، كتبه قبل سبعمائة سنة ، وهو كتاب فى جزءين يقرب من ألف صفحة . [٣]

---

١ ـ (نامة دانشوران ناصرى) = رسالة الحكماء الناصريين ، ج ١ ، ص ٨٠ و ٨٢ .

٢ ـ «مقدمه التفهيم» ص ١١٧ ، عن «الآثار الباقية» ص ٢٥٦ .

٣ ـ طبع هذا الكتاب فى جزءين كبيرين فى مدينة حيدر آباد سنة ١٣٤٧ و ١٣٤٨ هجرية ، ومؤلفه من الشيعة الاجلاء ، قال عنه فى «الذريعة» ج ٤ ، ص ٤٦٧ : هذا الكتاب شرح للمولى كمال الدين الفارسى ، شرحه بأمر أستاذه قطب الدين الشيرازى المتوفى (٧١٠) على كتاب «المناظر والمرايا» المنسوب إلى أبى على محمد بن الحسين بن الحسن بن سهل ابن هيثم البصرى المتوفى عن عمر طويل فى حدود سنة (٤٣٠) ، ويحتوى على سبع مقالات أضاف لها خاتمة وذيلا ولواحق ، وفرغ من الشرح سنة (٧١٨) . ثم إن معاصر الشارح وزميله فى التلمذة على قطب الدين الشيرازى وهو المولى نظام الدين الشهير بالنظام الاعرج القمى قد اختصر «التنقيح» وسماه : «البصائر فى اختصار تنقيح المناظر» ، وأصل كتاب «المناظر» لاقليدس الصورى ، ثم إن ابن الهيثم أدرج مسائله فى كتابه المسمى بـ «المناظر» .

وأما بشأن علم النجوم والهيئة ، فإن علماء الهيئة الحقيقيين بالرغم من عدم امتلاكهم لوسائل العمل ومستلزماته ، وافتقارهم إلى المنظار (التلسكوب) ، قد عملوا فى حساب قواعد حركات السيارات وقربها وبعدها وأماكنها ومواضعها فى الفلك ، وتعيين أماكن الثوابت والسيارات وصناعة الكرات الفضائية والاسطرلابات والخرائط الجوية والارضية ، فأوصلوا البحث فى هذه العلوم طبق القواعد الرياضية الدقيقة والحسابات الاستدلالية والجبر والمقابلة والمثلثات وقواعد الظل والظل تمام والجيب والجيب تمام إلى ما لا يتصور فوقه .

فلقد كتب أبو ريحان البيرونى ـ وكان متخصصا فى علم الفلك ماهرا فيه حتى لكأن السماء فى قبضة يده ـ كتاب «قانون المسعودى » فى ثلاثة أجزاء ، وكتاب «فى تحقيق ما للهند من مقولة فى العقل أو مرذولة» ، وهو حاصل أربعين سنة من السفر والتوقف فى الهند ، وكتاب «التفهيم فى أوائل صناعة التنجيم» ، و «الآثار الباقية» ، وكتبا ورسائلا جمة ذكرت أسماؤها فى عداد مؤلفاته ، ففاق بألف ضعف الاوروبيين الذين شاهدوا ورصدوا مراكز النجوم بالنواظر المكبرة ؛ فى جهوده ونتائج فكره البكر التى قدمها إلى دنيا العلم والعلماء .

يقول فى « نامة دانشوران ناصرى » (= رسالة العلماء الناصريين) : لقد حاز البيرونى مقاما ساميا فى أنواع الصناعات وفنون الرياضة وأصناف العلوم ، واتفق فضلاء العالم وسلموا على أ نه فى مسائل النجوم متفرد كالشمس ، لم ير له نظير ، ولم يطرق الاسماع اسما لصنو له فى منزلته أو شبيه ، فهو فى الحقيقة درة يتيمة انطوت على الكمالات والفضائل [1] .

١ ـ (نامة دانشوران) (= رسالة العلماء) ج ١ ، ص ٦١ .

حتى يصل إلى القول : ويتضح من كتاب «الاستيعاب فى صنعة الاسطرلاب» وسائر مؤلفاته ، إن ذلك الاستاذ الكامل كما تسلم تفوقه فى المعقول و المنقول ، واشتهرت مهارته فى المحسوسات والمصنوعات ،

يذكر أحمد أمين المصرى فى كتابه «يوم الاءسلام» ص ٨٩ و ٩٠ مطلبا يستحق التأمل ، حيث يقول :

وطريقة الاءسلام الاعتماد على الـ Induction ، أعنى الاستقراء ، فهو يتتبع المسائل الجزئية ما أمكن ثم يستنتج منها القاعدة الكلية ، كما فعلوا فى النحو والصرف ، فكانوا يتتبعون الجزئيات المعروفة ليستنتجوا منها قاعدة : الفعل مرفوع . أما الفلسفة اليونانية أو فلسفة أرسطو فعمادها على الـ Deduction ، أى : الاستنتاج ، فهم يضعون القاعدة الكلية ثم يستنتجون منها النتائج الجزئية ، كقولهم إن الاجسام تتمدد بالحرارة ، والحديد جسم ، إذن فالحديد يتمدد بالحرارة وهكذا . وقد أدتهم طريقة الاستقراء هذه الى الاءمعان فى الشك والتجربة ، فنرى كثيرا مما كتبه الجاحظ فى كتاب «الحيوان» يبتدى بالشك ، ثم يعرض على محك التجربة ، ولا بأس عنده أن يخطى أرسطو فيما قاله ، ويفضل عليه أعرابيا بدويا . وسار النظام على هذا حتى فى الاحاديث النبوية ، فكان يشك فيها أولا ، ثم يعرضها على مقتضى العقل ليعرف أصحيحة هى أم غير صحيحة ؟ فكان الغزالى والجاحظ أسبق إلى الشك من ديكارت ، وكان مسكويه أسبق من داروين فى تقريره مذهب النشوء والارتقاء فى كتاب «تهذيب الاخلاق» ، وكان الطوسى أسبق من أينيشتين فى فهم الزمنية ، غاية الامر أن مواد العلم الاولية كانت لهؤلاء المتأخرين أوفر ، والزمن لهم أعون ، والحقائق عندهم أكثر اتضاحا ، والتعبير أبين ، ويسودهم مذهب التحليل أكثر من مذهب التركيب ، فما يقوله علماء العرب فى جملة ، يقوله المتأخرون من الاوروبيين فى كتاب ، وهكذا . وقد نسبوا إلى روجر بيكون أ نه أول من قال بالاستقراء فى النهضة الاوروبية الحديثة ، مع أ نه خريج الجامعات العربية فى إسبانيا . وعيب العرب أ نهم لم يجدوا من يمجدهم . ومزية الاوروبيين أ نهم يمجدون دائما من يعلى شأنهم ، وهكذا الشأن فى ابن خلدون ، فإنه سبق ديكارت فى تأسيسه علم الاجتماع ، والفرق بين كتب الاءثنين أ نه أيضا بنى كتابه على مذهب الاستقراء الذى سار عليه العرب أكثر مما سار على مذهب الاستنتاج الذى سار عليه الاوروبيون .

١ ـ «نامة دانشوران» ج ١ ، ص ٦٢ .

فإنه وصل فى إبداع الصنائع العملية إلى حيث تركت مهارته فى اختراع طبقات الافلاك وخرائط النجوم عدة صفحات بالغ فى إيضاحها ، حتى كأن الالواح الفلكية قد اندمجت فى صفحات خياله ، والصور الثمان والاربعين قد ارتسمت فى لوح صدره ، وعموما فقد كان فى جودة الذهن وحسن القريحة لدرجة كان يشرع معها بنفسه بالابتكار فى صناعات الخرائط والآثار الجغرافية ، وقد ابتدع عدة قواعد ظل الاوروبيون يجلون واضعها كلما شاهدوها وطالعوها ، كذلك فإن أغلب خرائطهم فى هذا العصر مبتنية ومرتكزة على الاصول والقوانين التى ابتكرها .

كيفية تسطيح سطح الكرة الارضية فى الخرائط الجغرافية المستوية :

هى من بنات أفكار وإبداعات ذلك الفاضل المتفرد ، وقد أوجد قوانين وأطلق مسميات لبعض المسائل الطريفة والمطالب الدقيقة بحس قريحته وفكره البعيد الثاقب بسبب فقدان الوسائل ونقص الآلات لديه ، ويرى من تأملها بعين الاءنصاف مدى علميته وقدر فضله ؛ ومن بينها الاصول والضوابط التى أوردها فى مطاوى مؤلفاته فى تسطيح الكرة الارضية ورسم الخرائط الجغرافية ، وبالرغم من أن حكماء أوروبا قد أوصلوها ـ لتوفر الاسباب وتهيؤ الادوات إلى أعلى درجات الكمال ، لكنهم كلما سمعوا هذه العبارات وشاهدوا هذه الاءشارات كانوا يجلونه ويعتبرونه لائقا لكل ثناء حسب قاعدة الفضل للمتقدم .

ولاجل الاءيضاح المحض لتلك الرموز ، وكشف تلك الكنوز ، فسنورد حاصل ما ذكره فى « الآثار الباقية » فى باب رسم الخرائط الجغرافية ، ثم يشرع ببيان كيفية تسطيح الكرة الارضية الذى أورده فى « الآثار الباقية» ،

وذلك فى ثلاث صفحات كاملة .[١]

وكان أبو ريحان ؛ خلافا لجميع المتقدمين القائلين بسكون الارض حسب هيئة بطليموس ؛ ذا قريحة جيدة فى مسألة حركة الارض ، يعلم من تأمل فيها أن له فى اختيار ذلك المذهب والطريقة كمال الرغبة ، فيقول فى كتاب « الاستيعاب فى عمل الاسطرلاب الزورقى » :

وقد رأيت لابى السعيد السجزى أسطرلابا من نوع واحد بسيط ، غير مركب من شمالى وجنوبى ؛ سماه الزورقى .

فاستحسنته جدا لاختراعه إياه على أصل قائم بذاته مستخرج مما يعتقده بعض الناس من أن الحركة المرئية من الارض دون الفلك .

ولعمرى هو شبهة عسرة التحليل ؛ صعبة المحق ؛ ليس للمعولين على الخطوط المساحية من نقضها شى . أعنى بهم المهندسين وعلماء الهيئة . على أن الحركة سواء كانت للارض أم كانت للسماء ؛ فإنها فى كلتا الحالتين غير قادحة فى صناعاتهم . بل إن أمكن نقض هذا الاعتقاد وتحليل الشبهة فذلك موكول إلى الطبيعيين من الفلاسفة .[٢]

---

١ ـ «نامة دانشوران ناصرى» ج ٢ ، ص ٧٣ إلى ٧٦ .

٢ ـ مقدمة «التفهيم» ص ١١٣ ، عن «قانون المسعودى » ج ١ ، ص ٢٩٧ .

يقول فى «نامة دانشوران ناصرى» (= رسالة العلماء الناصريين) ج ١ ، ص ٧٠ : ومن أمثلة فضائل ذلك الاستاذ الكامل : مناظراته ومباحثاته مع الشيخ الرئيس ابن سينا فى ثمان عشرة مسألة طبيعية ، دارت حول سكون الارض ، وميل جميع الاجسام إلى مركزها ، وامتناع الخلاء ، وإبطال الجزء الذى لا يتجزأ ، وتناهى الابعاد ، وأمثالها من المسائل التى يفهم كل من تأمل بنظر التدقيق فى تلك الرسالة ؛ وهى مطمح أنظار المتقدمين ومطرح أفكار المتأخرين ؛ درجة هذين الحكيمين المتفردين فى الفضل ومرتبتهما فى العلم . فتأمل .

حتى يصل إلى القول : قال ياقوت الحموى : حين وردت جامع مرو ونظرت فى فهرس مؤلفاته ضمن رسالة وقف ذلك المسجد ، وكانت عدة أوراق كتبت بخط دقيق

وقد بحث أبو ريحان فى مشكلة حركة الارض أيضا فى كتاب «تحقيق ما للهند» .

استخراج جيب الدرجة الواحدة :

يعد استخراج جيب الدرجة الواحدة من المسائل الرياضية الدقيقة التى لم يوفق العلماء الذين سبقوا أبا ريحان لكشفها ؛ وكان أبو ريحان أول العلماء الذين وفقوا لذلك ، حيث أورد شرحها فى الباب الرابع من المقالة الثالثة فى « قانون المسعودى » ج ١ ، ص ٢٩٢ ، فقد طرح من عنده ابتداء اثنتى عشرة مقدمة ، أى إثنتا عشرة قضية رياضية ، وبرهن عليها ، ثم استنتج مقصوده واستنبطه منها .

وكان لاءثنين من معاصرى أبى ريحان من أعاظم علماء الرياضيات ؛ أحدهما أبو سهل بيزن بن رستم كوهى والآخر أبو الجود محمد بن ليث السمرقندى ؛ جهود ومحاولات فى هذا الشأن ، لكنها لم تثمر شيئا .

وهناك مسائل أخرى كان للبيرونى نظره الخاص فيها قام بنفسه بقياسها وفق الحسابات الرياضية الدقيقة والارصاد ، مثل قياس مساحة محيط الكرة الارضية وقطرها ، ومسارات الكواكب ، والقاعدة النجومية لتسوية البيوت ، والطول والعرض الجغرافى ، وجهة قبلة المدن ؛ وقاعدة جديدة لاكتشاف جهة القبلة وبناء محراب المساجد ؛ ورصد الميل الكلى والميل الاعظم ؛ والحركة الخاصة الوسطية للشمس ، وحركة أوج الشمس؛

متقارب ، فعددتها فكانت ستين ورقة ؛ وقال البعض إنها كانت تزيد على وقر بعير عند الحمل والنقل ، لكن عقد تلك التصانيف النفيسة انفرط بيد الحوادث فلم يبق من ذاك الكثير الوافر إلا هذا القليل النادر .

والمقدار الدورى لحركة الثوابت ؛ وكثير من المسائل الاخرى التى يطول المقام بشرحها واحدة فواحدة ، وقد ذكر البيرونى هذه المسائل بالتفصيل فى «قانون المسعودى» و «تحديد نهايات الاماكن» و «الآثار الباقية» ، و «كتاب الجماهر» .[1]

---

١ ـ يقول عبد الحليم الجندى فى كتاب «الاءمام جعفر الصادق» ص ٢٩٦ و ٢٩٧ : وعندما توضع أقوال جابر بن حيان فى القرن الثانى للهجرة إلى جوار أقوال الحسن بن الهيثم (٣٥٤ إلى ٤٣٠ ه .ق) بعد أكثر من قرنين ، وقد عمل فى خدمة الدولة الفاطمية ، وهى دولة من دول الشيعة ، وله ٤٧ كتابا فى الرياضيات و ٥٨ كتابا فى الهندسة ؛ تتأكد لنا طريقة ونهج العلوم التجريبية والاستخلاص التى سلكها الاءمام الصادق وأتقن العمل بها ، ووصفها جابر والحسن ، وقد أحسن الحسن التعبير عنها بأفضل المناهج العلمية الواضحة الفحوى والمحددة العبارات ، ويشهد بها من أهل أوروبا دراير فى كتابه «النزاع بين العلم والدين» فيقول : كان الاسلوب المختص الذى توخاه المسلمون سبب تفوقهم فى العلم . فإنهم تحققوا أن الاسلوب النظرى وحده لا يؤدى إلى التقدم ، وأن الامل فى معرفة الحقيقة معقود بمشاهدات ذات الحوادث . ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم هو «الاسلوب التجريبى » . وهذا الاسلوب هو الذى أرشدهم إلى اكتشاف علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة . وإننا لندهش حينما نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم فى هذا العصر .

ثم يذكر عبد الحليم الجندى فى الهامش :

راجع مقدمة كتاب الدكتور مصطفى نظيف ، مدير جامعة عين شمس بالقاهرة عن الحسن بن الحسن الهيثم البصرى أكبر عالم فى الرياضيات والطبيعة فى العصور الوسطى حيث يقول : وفد الحسن من العراق إلى القاهرة ليعمل مهندسا فى خدمة الدولة الفاطمية فى عصر الحاكم بأمر الله . وكان من رأيه جواز إقامة آلات على النيل يحركها تيار مياهه. والدكتور نظيف يقول إنه ينبغى أن نستبدل بأسماء روجير بيكون ومور ليكوس ودافنشى وكبلر ودلابورتا باسم الحسن بن الهيثم .

فعلى يد الحسن بن الهيثم أخذ علم الضوء وجهة جديدة بمنهجه الاءسلامى ، وهو (استقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات وما يخص البصر فى حال الابصار . وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس . ثم نترقى

ومن بين علماء الهيئة والرياضيات والنجوم الذى يدين لعلمه وفضله وكماله جميع أصحاب التقاويم والحسابات من زمنه حتى يومنا هذا ، ويشيرون إليه فى أغلب الكتب بألقاب :

أفضل المتكلمين ، سلطان الحكماء والمحققين ، أستاذ البشر ، علامة البشر ، العقل الحادى عشر : العلامة الخواجة نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسى ، [1]

فإنه بتأسيس مرصد مراغة ، وجمعه علماء الرياضيات وفضلائها وهيئة العلماء والمتخصصين من الطراز الاول لمدة ست عشرة سنة ، فقد قام بترتيب وتدوين الزيج الايلخانى . ثم ألف بعده أحد معاونيه فى تنظيم

فى البحث والمقاييس على التدرج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقرؤه ونتفحصه استعمال العدل لا اتباع الهوى . ونتحرى فى سائر ما نميزه وننقده طلب الحق لا الميل مع الآراء ، فلعلنا ننتهى بهذا الطريق إلى الحق الذى يثلج الصدور ، ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التى عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات) فهذا جمع للاستقراء والقياس . وما هو إلا منهج علماء الرياضيات والطبيعة المسلمين تابعهم فيه ابن الهيثم ونقله علماء أوروبا ابتداء من الكندى (المتوفى سنة ٢٥٢) عالم الطبيعة أو الطبيب الفيلسوف ؛ والرازى (المتوفى سنه ٣٢٠) جالينوس العرب أو الطبيب الفيلسوف الذى يتخذ الاحساسات بالجزئيات أساسا لكل عمله ويدلل بالكائنات الحية على وجود الخالق ؛ وابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٨) الرئيس أو الفيلسوف الطبيب الذى يمثل فكرة المثل الاعلى فى العصور الوسطى كما يقول سارتون ؛ وللاخيرين صورتان معلقتان على جدران جامعة باريس الآن مع جراح العظام ابن زهر .

١ـ «ريحانة الادب» ج ٢ ، ص ١٧١ ، يقول : ولد الخواجه على المشهور فى الحادى عشر من جمادى الاولى سنة ٥٩٧ هجرية فى طوس . وبدأ فى بناء الرصد سنة ٦٥٧ ، وحسب المشهور فقد رحل عن الدنيا يوم عيدالغدير سنة ٦٧٢ فى بغداد ، ونقلت جنازته حسب وصيته إلى الكاظمين عليهما السلام ودفنت أسفل أقدام ذينك الاءمامين المعصومين .

الزيج ،[1] اسمه غياث الدين جمشيد الكاشانى كتابا فى إكمال الزيج

١- أورد المستشار عبد الحليم الجندى فى كتاب «الاءمام جعفر الصادق» ص ٣٠٤ إلى ٣٠٧ ما يلى : ولا عجب أن تتآمر كثرة الاوروبيين بالصمت عن مناهج العلم الحديث المنقولة من نهج المسلمين ، كدأبهم فى تنكير صلة آباء العلوم الرياضيّة والهندسيّة بالمهد الذى نشأت فيه . فذلك استمرار للحروب الصليبيّة ، وإخضاع للحقائق العلميّة للتعصّب الدينىّ المتأصّل فى الحضارة الأُوروبّيّة ، فهم لا يذكرون أنّ فيثاغورث وأرشميدس وإقليدس آباء الرياضيّات ألقوا الدروس وتلقّوها فى مدرسة الاءسكندريّة بمصر ، ولا يذكرون أ نّهم لم يعرفوا كتاب إقليدس المسمّى «الاساسيّات» أو «العناصر» إلاّ عن نسخة عربيّة . ولا يذكرون أنّ أُوروبّا المعاصرة أخذت عن العلم الاءسلامىّ المنهج العلمىّ المعاصر ، أى منهج التجربة والاستخلاص . يقول الشاعر محمّد إقبال ١ : يقول دبرنج Dubring : إنّ آراء روجير بيكون أصدق وأوضح من آراء سلفه . ومن أين استمدّ روجير بيكون دراسته العلميّة ؟ من الجامعات الاسلاميّة فى الاندلس .

ويقول بريفو ٢ Robert Briffault : إنّه لا ينسب إلى روجير بيكون (المتوفّى سنة ١٢٩٤ م ٣) . ولا إلى سميّه الآخر فرانسيس بيكون (المتوفّى سنة ١٦٢٦ م) أىّ فضل فى اكتشاف المنهج التجريبىّ فى أوروبّا . ولم يكن روجير بيكون فى الحقيقة إلاّ واحداً من رسل العلم الاسلامىّ والمنهج الاسلامىّ إلىأُوروبّا المسيحيّة .

ولم يكفّ بيكون عن القول بـ : أنّ معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة . ولقد انتشر منهج العرب التجريبىّ فى عصر بيكون وتعلّمه الناس فىأُوروبّا يحدوهم إلى هذا رغبة ملحّة .

ويضيف : أ نّه ليس هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأُوروبّىّ لم يكن للثقافة الاسلاميّة عليها تأثير أساسىّ ، وأنّ أهمّ أثر للثقافة الاءسلاميّة هو تأثيرها فى العلم الطبيعىّ والروح العلمىّ ، وهما القوّتان المميّزتان للعلم الحديث . ثمّ يضيف :

إنّ ما يدين به علمنا للعرب ليس ما قدّموه لنا من اكتشاف نظريّات مبتكرة غير ساكنة . إنّ العلم مدين للثقافة الاءسلاميّة بأكثر من هذا . فقد أبدع اليونان المذاهب وعمّموا الاحكام ، لكنّ طرق البحث وجمع المعرفة الوضعيّة وتركيزها ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصّلة العميقة والبحث التجريبىّ كانت كلّها غريبة عن المزاج اليونانىّ . إنّ ما ندعوه بالعلم قد ظهر فىأُوروبّا نتيجة لروح جديدة فى البحث ولطرق جديدة فى الاستقصاء ، طريقة

التجربة والملاحظة والقياس ؛ ولتطوّر الرياضيّات صورة لم يعرفها اليونان .وهذه الروح وهذه المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأُوروبّى ّ .

أو كما يقول المستشرق المعاصر برنارد لويس : إنّأُوروبّا القرون الوسطى تحمل دَيْناً مزدوجاً لمعاصريها العرب ؛ وهم الواسطة التى انتقل بها إلىأُوروبّا جزء كبير من ذلك التراث الثمين .

كما تعلّمتأُوروبّا من العرب طريقة جديدة وضعت العقل فوق السلطة ، ونادت بوجوب البحث المستقلّ والتجربة . وكان لهذين الاساسين الفضل الكبير فى القضاء على العصور الوسطى والاءيذان بعصر النهضة .

وروجير بيكون يعلن تأثّره بالمنهج العربىّ ورفضه للمنهج الارسطىّ الذى سيطر على الفكر الأُوروبّىّ من جرّاء الفساد فى بعض استنتاجاته فى العلوم الطبيعيّة فيقول :

If it had my way , I should burn all books of Aristotk for the study of them can lead to a loss of time , produce error . increase ignorance

وتعريبه : لَو أُتِيحَ لِى َ الاَمْرُ لاَحْرَقْتُ كُلَّ كُتُبِ أَرَسْطُو ، لاِنَّد رَاسَتَهَا يُمْكِنُأَن تُؤَدِّى إِلَى ضَيَاعِ الوَقْتِ ، وَالوُقُوعِ فِى الخَطَأِ ، وَنَشْرِ الجَهَالَةِ .

وكما قال جوستاف لوبون بعد ستّ قرون من وفاة بيكون : أَدْرَكَ العَرَبُ بَعدَ لاَى أَنَّ التَّجْرِبَةَ وَالْمُشَاهَدَةَ خَيْرٌ مِنْ أَفْضَلِ الكُتُبِ ، وَلِذَلِكَ سَبَقُوااُورُوبَّا إِلَى هَذِهِ الحَقِيقَةِ ، فَالْمُسْلِمُونَ أَسْبَقُ إِلَى نظَامِ التَّجْرِبَةِ فِى العُلُومِ .

* ـ فى كتابه (= The Reconstruction of Religious Thinking) «= إعادة تكوين الفكر الدينىّ فى الاسلام» .

**ـ فى كتابه (Making of Humanity) «= صنع الانسانيّة» .

*** ـ مات روجير بيكون سنة ١٢٩٤ م ، واستمرّت الجامعات العربيّة والعرب فى الاندلس قرنين بعد ذلك إلى جوار المعاهد التى أُنشئت لترجمة علومهم فى فرنسا والاندلس وإيطاليا وألمانيا . وكان (بيكون) يجيد اللغتين العربيّة والعبريّة ، ويمارس التجارب العلميّة فى الطبيعة والكيمياء ، وقاومه معاصروه ولكنّ البابا شدّ آزره . وكان جزاؤه السجن فى باريس من أجل كتاباته . التى تعدّ طلائع لكشوف علميّة حديثة (كالعدسات والسيّارات ذات المحرّك الابتدائىّ والطائرات) ، وهو القائل : الفلسفة مستمدّة من العربيّة ، فاللاتينىّ على هذا لا يستطيع فهم الكتب المقدّسة والفلسفة إلاّ إذا عرف اللغة التى نُقلت عنها . ومن قبل

ذلك بقرون ، وعلى التحديد فى سنة ٩٢٠ م طلب ملك الصقالبة إلى الخليفة أن يبعث إليه معلمين وفقهاء فصنع ، وكان الجغرافيون العرب فى أرمينية منذ القرن التاسع للميلاد .

كذلك تلقى البابا سلفستر (٩٩٩ إلى ١٠٠٣ م) علومه بجامع قرطبة ، وكان اسمه الراهب جلبير قبل أن يصير رئيسا لدير رافنا . وهو ناقل العلوم العربية والارقام العربية إلى أوروبا . وقد أنشأ مدرسة فى إيطاليا وأخرى فى ريمس بألمانيا لنقل العلوم العربية . ومن الثابت أن مدرسة الوعاظ فى طليطلة نشأت مدرسة لتدريس اللغة العربية سنة ١٢٥٠ م ، ثم أمر مجلس فينا سنة ١٣١١ م بتدريس العلوم العربية فى باريس وسلامنكا وغيرها .

وفى سنة ١٢٠٧ م أنشأت جنوة جامعة لنقل الكتب العربية ، وفى سنة ١٢٠٩ م ، ١٢١٥ م قرر المجمع المقدس منع تدريس كتب ابن رشد وابن سينا لما فيها من حرية فكرية . وفى سنة ١٢٩٦ م قرر المجمع اللاهوتى تحريم تدريس الفلسفة العربية وحرمان كل من يعتقد أن العقل الانسانى واحد فى كل الناس .وكان الامبراطور فردريك الثانى قد أنشأ جامعة نابولى لنقل العلوم العربية فوق ما تنقله مدرسة سالرنو المجاورة . وأنشا العرب المطرودون فى إسبانيا مدرسة مونيليه فى بروفانس بجنوب فرنسا .

والشريف الاءدريسى هو معلم روجار ملك صقلية ، صنع له كرة من فضة ككرة الارض سنة ١١٥٣ م قبل أن تعرف أوروبا أن الارض كروية . ومن الثابت أن فيبروناتش Fibronacci أول عالم اشتغل بعلم الجبر قد رحل إلى مصر وسوريا فى عصر الملك فردريك الثانى ملك صقلية ، وأن أدلارد الباثى Adilard of Bath درس على العرب علمى الفلك والهندسة ، وما هؤلاء إلا طلائع للعصر الذى عاشوا فيه .

وفى العصر ذاته كانت مدرسة صقلية ومثلها مدرسة سالرنو فى جنوب إيطاليا جامعة نابولى التى أنشأها الاءمبراطور فردريك الثانى تذيع العلوم العربية .

واحتل العرب جزر البحر الابيض ابتداء من كريت سنة ٢١٢ ، إلى صقلية سنة ٢١٦ ، أى فى النصف الاول من القرن التاسع للميلاد ، كما استولوا على بارى وبرنديزى فى وسط إيطاليا وتوطدت سيطرتهم على مقاطعتى كامينيا وأبروزى ، وأقاموا فيهما إمارات عربية ، وامتد سلطان عرب الاندلس إلى جنوب فرنسا فى مقاطعة برونانس وحاصروا روما .

وكانت ملابس البابا موشاة بالاحرف العربية ، وتأثر دانتى بالثقافة العربية واضح فى الكوميديا الالهية . وهو يذكر صلاح الدين الايوبى والدوق جودفرى (الملك جود فى

الايلخانىّ للخواجة الذى ظلّ ناقصاً ، وسمّاه بالزيج الخاقانىّ .

وقد كتب الخواجة فى خاتمة عمل الرصد كتاب الزيج الايلخانىّ باسم هولاكوخان ، وأضاف إليه عدّة جداول لم تكن فى الازياج السابقة ، فحاز لهذا السبب اعتباراً أكمل .

ملك بيت المقدس فى حرب الصليبيّين) فى كتابه .

وكانت السفارات بين الملوك والامراء الاءفرنج والسلاطين تمدّ إلىأُوروبّا أسباب الحضارة . وكانت كتب ابن رشد والغزالىّ أيّامئذٍ تقدّم الغذاء العلميّ للفكر الأُوروبّىّ، وكتابات القدّيس توماس الاءكوينىّ (القدّيس توما) ناطقة بالتأثّر الظاهر أو بالنقل الكامل .

وأوّل مرصد فلكىّ أُقيم فىأُوروبّا أقامه العرب بإشبيلية ، وأوّل مدرسة طبّيّة فىأُوروبّا هى التى أقاموها فى ساليرت . ومنذ سنة ٩٧٠ م كان فى غرناطة بإسبانيا ١٢٠ مدرسة ، منها ١٧ مدرسة كبيرة و ٢٧ مدرسة مجّانيّة يتعلّم فيها نبلاءأُوروبّا علوماً عربيّة .

ولمّا سقطت طليطلة فى سنة ١٠٨٥ م فى أيدى الاسبان ، أقاموا المدارس لترجمة العلوم العربيّة فيها ، ولم يتوقّف النقل بل أُتيحت له مصادر جديدة بسقوط قرطبة سنة ١٢٣٦ م ، ثمّ بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م . وكان بلاط الفونسو السادس بعد سقوط طليطلة مصطبغاً بالثقافة العربيّة ، بل هو أعلن نفسه إمبراطور العقيدتين المسلمة والمسيحيّة ؛ وكان الفونسو الخامس الملقّب بالحكيم ملك قشتالة (من سنة ١٢٥٢ إلى ١٢٨٤) أكبر دعاة الثقافة العربيّة ، وقد جمع له اليهود كلّ كتب العرب .

وفى سنة ١٢٥٠ م أنشأت جماعة الوعّاظ فى طليطلة مدرسة لتدريس اللغتين العربيّة والعبريّة بقصد تنصير المسلمين ، كما أ لّفت الكتب للدفاع عن المسيحيّة ضدّ المسلمين . وكان الاسقف ستيفن فى باريس يناقش كتب ابن رشد . وفى آخر أيّام المسلمين بالاندلس أُنشئت محاكم التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة اللذين خيف انتشارهما من كتب المسلمين . وفى بحر ثمانية عشر عاماً من ١٤٨١ إلى ١٤٩٩ أحرقت هذه المحاكم ١٠٢٢٠ رجلاً أحياءً وشنقت ٦٨٦٠ ، وعاقبت بعقوبات أُخرى سبعة وتسعين ألفاً . وفى سنة ١٥٠٢ م قرّر مجمع لاترانا لعن من ينظر فى فلسفة ابن رشد ، لا نّه يقول بحرّيّة العقل .

يراجع الفصل الثانى وعنوانه (قوّة الحضارة العلميّة) من الباب الاوّل فى كتابنا «توحيد الأُمّة العربيّة» الفقرات ٤ إلى ١٨ .

وقد ترجم ونشر مؤرّخواُ وروبّا أيضاً ؛ حسب النقل المعتبر ؛ سنة ألف وثلاث وستّين للهجرة التى توافق سنة ألف وستمائة واثنين وخمسين ميلاديّة فى مدينة لندن جدولاً لعرض البلاد وطولها اعتماداً على هذا الزيج الايلخانى[١] .

ومن بين كتب الخواجة نصير الدين الطوسىّ فى علم السماء كتاب « التذكرة النصيريّة فى الهيئة» ، وهو كتاب مختصر إلاّ أ نّه جامع لمسائل هذا الفنّ ، ومن الشروح المشهورة على هذا الكتاب شرح الفاضل شمس الدين محمّد بن أحمد الحفرىّ أحد تلامذة سعد الدين ، وهو شرح ممزوج سمّاه « التكملة» ، وفرغ من تأليفه فى شهر محرّم الحرام لسنة ٩٣٢ هجريّة .[٢]

ويعدّ علم الهيئة أيضاً من العلوم التى يجرى تدريسها فى الحوزات العلميّة ، وكان العلاّمة آية الله الطباطبائىّ قدّس الله نفسه أُستاذاً فى هذا الفنّ وقادراً على استخراج التقويم ، وقد حضرتُ دورة فى علم الهيئة فى محضره المبارك .

وأمّا علم الطبّ والصيدلة :

فيكفى فى عظمة تدريسه وتعليمه وشهرته أنّ الطبّ كان حتّى السنين

١- « ريحانة الأدب » ج ٢ ، ص ١٧٧ .

٢ ـ قال فى «كشف الظنون» ص ٣٩١ و ٣٩٢ ، الطبعة العثمانيّة ، سنة ١٣٦٠ ه : وأوّل من شرح كتاب «التذكرة» السيّد شريف الجرجانىّ المتوفّى سنة ٨١٦ ، ثمّ شرحه المحقّق نظام الدين حسن بن محمّد النيسابورىّ المعروف بالنظام الاعرج ، وسمّاه «توضيح التذكرة» وفرغ منه سنة ٨١١ ه ، وهو شرح مشهور ومقبول ، ثمّ شرحها الفاضل محمّد الحفرىّ الذى أوردنا بيانه فى المتن ؛ ويقال إنّ للعلاّمة قطب الدين محمّد بن مسعود الشيرازىّ والفاضل عبد العلىّ البيرجندىّ أيضاً شرحاً لـ «التذكرة» ولم أره (ولم أرهما) .

الاواخر منحصراً إمّا حسب طبّ خمسة اليونانىّ ، أو حسب طبّ أبى زكريّا الرازىّ ؛ ولم ننسَ بعدُ ما كان لدينا من حكماء وأطبّاء متبصّرين ، حاذقين ، خبيرين ومشهورين فى كلّ مدينة ومحلّة وشارع ، من المشتغلين بمعالجة الامراض حسب نظام مشخّص وطريقة معيّنة ، تبعاً لكتب الادوية مثل «قرابادين الكبير» وسائر الكتب المتخصّصة فى هذا الشأن ، وذلك بالادوية اليونانيّة ، حسب نوع المرض المشخّص ، أى بالعقاقير والادوية العشبيّة وتعديل المزاج بالمُنضج ثمّ المُسهل .

وكان كتاب «القانون» لابن سينا ، من الكتب المعروفة التى ينبغى فى هذا المجال مطالعتها ؛ وكان لكلّ أُستاذ ـ مضافاً إلى ذلك طريقته الخاصّة فى العلاج وتلامذة خاصّون يقوم بتعليمهم وتدريسهم كتاباً آخر وفق المنهج الذى اختطّه ، يُضاف إلى ذلك مجيئه بالتلاميذ من أوّل العمل إلى مطبّه وإراءتهم ـ عملاً ـ أنواع وأقسام الامراض وطرق معالجتها ومقدار الدواء الموصوف لكلّ حالة ؛ وقد بقى كتاب « القانون » يدرّس حتّى السنين الاواخر لتلامذة الطبّ فى أُوروبّا.

ولقد تغيّر الأُسلوب اليوم ، فجعلوا الادوية عبارة عن موادّ كيميائيّة ذات صيغ وتركيبات خاصّة ، وصيّروها بشكل أقراص أو حُقَن ، لتكون سهلة الحمل والنقل ، وللاستفادة منها بالمقادير المعيّنة حسب الحاجة من جهة ، ولتكون أدوية جاهزة يمكن إيصالها أفضل وأسرع ليد المريض ، ولتكون أكثر انسجاماً مع وضع التقدّم التّقنىّ الحاكم على الدنيا حاليّاً من جهة ثانية ، وليمكن من جهة ثالثة تجزئة العقاقير للتخلّص من الموادّ المضرّة والسمّيّة الموجودة فيها والحصول على الدواء الخاصّ المطلوب بتركيب وخلط الموادّ النافعة لعدّة أنواع من الادوية . وعلى الرغم من امتلاك هذه الطريقة للمنافع العديدة ، إلاّ أنّ لها أضرارها أيضاً .

أوّلاً : لانّ الادوية الصناعيّة تفسد ويعروها التلف بسرعة ، وينبغى اتّخاذ تدابير خاصّة للمحافظة عليها من التلف لمدّة معيّنة ، وتلك التدابير التى تتّخذ للدواء ـ إمّا بواسطة عمل كيميائىّ أو عمل فيزيائىّ لن تبقى بدون تأثير فى بدن المريض ، حيث يسبّب الترسّب التدريجىّ للموادّ الضارّة وردّ فعل خلايا البدن لورودها سَوْق البدن تدريجيّاً للضعف ؛ فى حين أنّ الادوية الطبيعيّة والاعشاب الطبّيّة خالية من الضرر ، ولا يعروها الفساد والتلف وتبقى مدّة طويلة .

وثانياً : استعمال زرق الحُقَن ـ أى إدخال موادّ خارجيّة دفعةً واحدة فى شريان القلب أو العضلة يسبّب إيجاد ردّ فعل سلبىّ ، إذ ينبغى لعموم الاغذية والادوية أن تدخل البدن من المجارى الطبيعيّة ، كالمعدة والرئة .

وثالثاً : فإنّ هذه المركّبات هى أدوية توصف لجميع أنحاء العالم ، بما فيها من مناطق باردة وحارّة ومعتدلة ، ولكلّ أنواع الامزجة ولكلّ الاقوام بصفاتهم وأنواعهم المتباينة ، فكما أنّ ملاحظة وضع الماء والهواء والبيئة الجغرافيّة مؤثّرة فى أصل صحّة الاءنسان وطبيعته ، فهى كذلك مؤثّرة فى كيفيّة المعالجة وتعيين نوع الدواء .

وعلى هذا الاساس يقول ابن سينا فى كتاب « القانون » :

وَكُلٌّ يُدَاوَى عَلَى نَبْتِ بَلَدِهِ . أى ينبغى معالجة كلّ مريض بالاعشاب التى تنمو فى بلده ، لا بأعشاب بلد آخر .

وهذا الامر قد جرت رعايته فى الطبّ القديم ، وكانت الادوية التى يصفها الحكماء عبارة عن جذور العقاقير أو الاعشاب التى تؤخذ غالباً من نفس البلد أو البلاد المجاورة .

ورابعاً : إنّ تلك الادوية العشبيّة هى موادّ معلومة ومجرّبة ، فهى

تؤخذ من النباتات أو الحيوانات المحللة كزيت السمك ، أما الادوية الكيميائية الحالية التى تجلب من بلاد الاءفرنج ، فلا ضابط ولا قيود هناك فى عملية انتخابها . فهم هناك يعدون الكلب والخنزير والضفدع والسرطان البحرى والافعى والسحلية والعقرب وكل ما يتصوره الاءنسان محللة ، فيأكلونه ويستخرجون أدويتهم منه ما صلح لذلك ، من زيت سمك محرم ، أو معدة وكبد خنزير ، ومن غدة بنكرياس كثير من الحيوانات المحرمة ، أو حتى من عصارة فضلات الكلب . [1]

---

١ ـ إن أحد المواد الغذائية والادوية المستعملة حاليا فى بلاد الكفر ، الذى يعتبرونه من أفضل المواد والادوية من الناحية الصحية ، هى الاغذية والادوية المستحصلة من ماء مجارى المدن ، فهم ينصبون معملا لتجزئة المواد الكيميائية فى محل تجمع مياه المجارى ، فيدخلون فيه كل ما فى مياه المجارى من النجاسات وفضلات الانسان والحيوان وسائر الاقذار ، وتجرى تجزئتها فيصنعون من المواد الناتجة الدهن والزبد والمواد النشوية والبروتينية وحتى اللحوم وجميع أنواع الحيمين (الفيتامين) التى تتواجد بكثرة ، ويصنعونها بشكل مواد غذائية ودوائية ويعرضونها للبيع فى السوق . وكان من المزمع أيام الطاغوت إنشاء معمل صغير منه فى طهران فى ممر مياه مجارى مستشفى الالف سرير ، لكنه لم يدخل حيز التنفيذ لاعتراض العلماء الاعلام ، وكذلك أوشك مثل هذا العمل أن يتحقق فى إصفهان أيضا ، حيث استخرج أحد المهندسين هناك زبدا من مياه المجارى وعرضه للبيع فى السوق وأكل منه فى جمع من الناس ؛ وقيل إنه كان شبيها جدا بالزبد الطبيعى ، إلى الحد الذى صعب على الاخصائيين التفريق والتمييز بينهما .

وقد منع إجراء هذا المشروع أيضا ، لكن ذلك معهود ورائج لسنين طويلة فى الدول الكافرة ، حتى وصلوا إلى استخراج العطر الصناعى فى ذلك المعمل ، ويقال إن بعض الصابون المعطر المستورد من الخارج يحوى من ذلك العطر .

وينبغى العلم أن هذه المواد هى غير المواد المستخرجة من النفط ، حيث يقال إن سبعين فى المائة من الاغذية تستخرج من النفط ، والعطر المذكور هو غير العطر المستخرج من النفط والذى يعد من أغلى وأندر أنواع العطور فى الدنيا .

فحقن التستوفيرون (Testowiron) التى يصفونها لبعض أنواع الضعف الجنسىّ يستخرجونها من خصية القرد ، لذا تكون غالية القيمة ، كذلك فهم يعدّون الكحول والخمر حلالاً ، ويعدّونه فى الصيدلة كأحد الموادّ الرئيسيّة .

أمّا الشرع الاسلامىّ المقدّس ، فحين يعتبر هذه الموادّ حراماً ، فليس ذلك فقط للامر التعبّدىّ ، بل للاضرار الجسميّة والروحيّة التى تنطوى عليها أيضاً . لذا نشاهد أنّ هذا النوع من المعالجات بالموادّ الكيميائيّة وتركيبات الموادّ الصناعيّة غير الطبيعيّة تخفِّض بشكل عامّ معدّل العمر الطبيعىّ للانسان ؛ أى أنّ تناول هذه الموادّ ينطوى على إدخال سموم وموادّ ضارّة إلى البدن ، بالرغم من عدم تسبيبها للموت السريع الآنىّ دفعةً واحدة ، إلاّ أنّها تسبّب نوعاً من الموت البطىء التدريجىّ ؛ ويقال إنّ هذا النوع من الادوية والمعالجات يخفِّض معدّل الاعمار الطبيعيّة بما يقرب من عشر سنوات .

يقول الدكتور الكسيس كارل : ويجب من جهة أُخرى أن نسأل أنفسنا : ألا يسبّب نقص تلفات الاطفال والشباب ووفيّاتهم إشكالاً جديداً ؟ فالاطفال العاجزين والمعوّقين تجرى حمايتهم فى المدينة الحديثة فلا يجرى انتخاب الاصلح كما كان يحصل فى السابق .

وإنّ أحداً لا يعلم أين سيؤول مستقبل نسل تجرى حماية موجوداته العليلة والناقصة بواسطة الموازين الطبّيّة والصحّيّة . لكنّنا نواجه أمامنا مسألة معضلة أُخرى يجب أن نجد لها حلاّ سريعاً : ففى الوقت الذى تزول فيه شيئاً فشيئاً أمراض الالتهابات كالجدرى والحصبة والخناق والسلّ والطاعون والاءسهال المعدىّ للاطفال وغير ذلك من الامراض ، ممّا يقلّل من ميزان الخسارة فى الاطفال ، فإنّنا نلاحظ فى المقابل أنّ عدد المصابين

بـالامراض النفسـيّة يـزداد يومـاً بعـد آخـر . ففـى بعـض المنـاطق يزيـد عـدد المرضـى المجـانين فى مستشـفيات الامـراض العقليّـة حتّـى علـى عـدد جميـع المرضى الآخرين الذين تجرى معالجتهم .

ومضافـاً إلى ذلـك فإنّـه ينبغـى الاهتمـام بمسـألة زيـادة الاختـلالات والاعراض العصبيّة ، التى هـى بنفسـها أحـد الاسـباب الرئيسـيّة لكآبـة الافـراد وتشـتت العـائلات ، والـتى تمثـل خطـرا علـى مسـتقبل البشـرية والمدنيـة أهـم بكثير مـن أمـراض الالتـهابات الـتى يخصـص الطـب الحـالى كـل هـذا الوقـت والجهد لدراستها ومكافحتها . [1]

والامر اليوم شـبيه أيضـا بـالقرن السـابق ، فـالرجل الـذى عمـره (٤٥) سنة لا يمتلـك الامـل الكبـير فى أن يصـل إلى سـن الـ (٨٠) سـنة ، ومـع أن متوسـط عمـر الافـراد قـد زاد بكثـير علـى السـابق إلا أنـه يحتمـل أن تكـون الاعمار قد قصرت . [2]

وتبعا لهذا الامـر فـإن الكثـير مـن العلمـاء والاجـلاء يتأسـفون لاندثـار الطب اليونانى ، فليس لدينـا حاليـا مـن أولئـك الاطبـاء فى إيـران إلا واحـد أو اثنان ، [3] وسـيضيع بذهابهـم تعليـم هـذا النـوع مـن الطب وتتشتت علومه ، فقد

---

١ ـ «انسـان موجـود ناشناخـته» (= الاءنسـان ذلـك المجـهول) ص ٢٢ و ٢٣ ، الطـبعة السادسة .

٢ ـ «انسان موجود ناشناخته» ص ١٩٩ و ٢٠٠ .

وينبـغى العلم أن كتـاب «الاءنسـان ذلـك المجـهول» ألـف سـنة ١٩٣٥ ميلاديـة ، وقـد انقضـى فعلا على تأليف الكـتاب إلى زمانـنا (سنة ١٤٠٩ هجـرية قمـرية ـ ١٩٨٨ ميـلادية) ٥٣ سنة .

٣ ـ وهمـا السـيدان الجليـلان : الحـاج السـيد عبـد الحسـين خسـروى الهمـدانى الـذى انتقـل إلى رحمـة اللـه قبـل عـدة سـنين ، وكـان مشـغولا فى الطبابـة فى همـدان ، ثم فى طـهران أخـيرا ، وكـان لـه شـهادة طبـابـة رسـمـية مـن وزارة الصـحة والكليـة الطبيـة ؛ والحـاج السـيد أحمـد علـى

آل أمر هذه الطبابة بيد العطارين وباعة الاعشاب الذين لا شأن لهم بالطبابة ولا مهارة لديهم ، ولا تعود مراجعتهم على المريض المبتلى إلا بالاذى والخطر .

ويقال : إن هناك بعض الاطباء فى ألمانيا يقومون بمعالجة المرضى حسب نهج الطب اليونانى فقط ، وإن لهم صيدليات خاصة تباع فيها الادوية التقليدية القديمة والعقاقير ، وتصرف فيها وصفاتهم الطبية ، فيضع أصحاب هذه الصيدليات لافتات فى واجهتها كتب فيها :

. Herbalist Medcine Shop

لكن الامر يختلف فى أمريكا ، فهناك توجد دكاكين تباع فيها المواد الغذائية الصحية فقط ، مثل الـ « آب نبات » [1] والاعشاب والعقاقير والاقراص والادوية التى لايحتاج استعمالها إلى وصفة طبيب ، وتعلو واجهاتها لافتات : (محل المواد الغذائية الصحية) Health Food Shop [2]

ونحن الآن بانتظار ظهور طبابة وأطباء بهذه الكيفية ، يمتلكون التخصص والمهارة فى ذلك الفن ، مضافا إلى المزايا الاءيجابية النافعة للطب العصرى ، كالعمليات الجراحية وغيرها .

ويقال إن الطب الحديث يقوم على ثلاثة أركان : ابن سينا ، العمليات الجراحية ، التـرياق ؛ ومع امتلاكنا بحمد الله ومنه هذه الاركان الثلاثة فإن

الهمدانى ابن عمه ، وهو رجل عجوز مجد يشتغل حاليا فى الطبابة فى همدان ، أبقاه الله إن شاء الله .

١ ـ نوع من الحلوى تصنع من تبلور محلول سكرى مشبع ساخن بعد تبريده ، ويسمى السكر الفضى .

٢ ـ وقد نقل لى هذه القضية الاستاذ المحترم وطبيب الاسنان الجليل الدكتور باكدان آراكليان هداه الله إلى النهج القويم والصراط المستقيم ، وهو من أطبائنا الاجلاء فى التخصص والمهارة فى فنه ، وفى صدقه واستقامته .

بإمكاننا تأسيس دراسة الطب العالى الذى يمتلك ميزات الطب الحديث ويفتقد أضراره ، ليمكن معالجة المرضى بالنحو الاحسن أولا ، وليتم تخصص الاطباء ونيلهم المهارة بشكل أفضل ثانيا .

ومن أضرار الطب الحالى هو عدم تنميته لمهارة الاطباء الذين يقوم بتخريجهم ؛ إذ لم يدع استعمال ميزان الحرارة (Thermometer) مجالا للطبيب لاخذ نبض المريض ومعرفة كيفية ضرباته التى كان الطب القديم يقسمها إلى (٣٢) نوعا من الضربات ، يشخص الاطباء من كيفية كل نوع من الضربات مرضا خاصا فى المريض المبتلى . ووصل الامر إلى الحد الذى تم أخيرا اختراع جهاز يمكن بواسطته تشخيص الغدة الواقعة فى الرأس فورا وتعيين محلها ، فيقوم معاونو الطبيب بهذا العمل قبل معاينة الطبيب ، فيقدمون المريض إلى الطبيب وبمعيته وصف للغدة وكيفيتها . وبالرغم من مزية هذا العمل إلا أن قوة الابتكار والبحث وكيفية تشخيص الغدة والعثور عليها من الطرق المتعددة التى يسلكها الاطباء عادة لذلك ، ستنتفى بهذا العمل .

وخلاصة الامر أ نه كلما اتسعت دائرة اختراع واكتشاف مثل هذه الاجهزة والوسائل لتشخيص الامراض ، هبط معها بنسبة معكوسة قابلية الاطباء ومهارتهم ، وهذا الامر بنفسه من الآفات التى تواجه الطب الحديث ، لانه لا يربى أطباء حاذقين متمرسين فى تشخيص الامراض ، بل يجعل الاطباء أشبه بالمأمورين فى ماكنةفيزيائية أو محرك كهربائى لاستبدال المسامير اللولبية (البراغى) والصامولات .

كانت هذه هى الاءجابة على الاءشكال الثانى لمقولة صاحب المقالة ، بسطنا القول فيها مجبرين لتتضح أطرافها وجوانبها ، و ذلك لتصبح عظمة علم الحكمة والفلسفة الاسلامية واضحة مشهودة أولا ، وليبرهن على

حقارة الفلسفة الحديثة ـ بما فيها من إلهياتها وطبيعياتها أمام تلك الفلسفة ثانيا .

وكان الاشكال الثالث هو : إظهار المؤلف الاسف لعدم تدريس الدروس الحديثة والعلوم التجريبية فى الحوزات العلمية ، وعدم وجود تخصص لدى الطلبة والفقهاء والفضلاء فى علوم الطبيعة والعلوم البشرية الحديثة كما ينبغى . ونورد هنا نص مقولته لتتضح جوانب الاءشكال فيها جيدا :

لا يتكون أى فهم دينى بمعزل عن نظرة كونية دينية ومستقلة مسبقة ، ولا يبقى أى فهم دينى أيضا على وضعه السابق عند تغير تلك النظرة الكونية ، لذا فإن أعطت فتوى العرب رائحة العرب ، وأعطت فتوى العجم رائحة العجم ، فلا عجب فى ذلك .

ومعنى هذا الكلام أ نه بدون الاجتهاد فى الاصول (وبالمعنى الاعم فى علم الكلام ومعرفة العالم و...) فإن الاجتهاد فى الفروع لن يكون متيسرا أو ناجحا ومفيدا . فالاءنسان لا يمكنه النظر (ولا ينظر) فى الدين بدون أن يكون له مبنى وفلسفة نظرية ، ولن يعود النظر بنفع بدون تنقيح للمنظر ؛ وما لم يفتح باب التحول والتغير فى المبادى ، فستبقى المسائل فى منأى عن التغيير .

ولهذه الجهة فإن الاءعراض ، بل الجفاء الذى أولته وتوليه حوزاتنا الدينية العلمية للعلوم والمعارف الجديدة مثير للاسف وليس له أبدا ما يبرره ، بحيث يتخذ الدفاع معه عن الدين لون الدفاع عن النظرة الكونية والعلوم الانسانية القديمة . لكأن الدين لا ينمو ولا يبقى فى غير تلك الجغرافية المعينة ، فلا وزن لعلم التأريخ (وهو المدخل ، بل الاساس لدراسة العلوم الاءنسانية) ليتخذ مقام الصدارة ، ولا شيء هناك من علم الطبيعة والعلوم الاءنسانية وعلم الاجتماع وعلوم المعرفة الحديثة ، بل لا زالوا يدرسون حتى يومنا هذا علم الاخلاق المعتمد على علم النفس

القديم .[1]

ويلزم قبل الاجابة عليه أن نورد نص كلام أستاذنا الاكرم العلمة آية الله الطباطبائى قدس الله سره ، الذى أورده فى كتابه النفيس «قرآن در اسلام» (= القرآن فى الاسلام) ، ثم نشرع فى البحث :

القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى يساوى بين الحياة الانسانية السعيدة والحياة الفطرية النزيهة أولا ، وهو بعكس جميع المناهج يجمع بين البرنامج الدينى وبرنامج الحياة ثانيا ؛ فله رأيه الخاص فى جميع شؤون الفرد والمجتمع ، ويصدر تعاليمه بما ينسجم مع النظرة الواقعية (معرفة الله تعالى النظرة الكونية) ، وفى الحقيقة فإنه يودع الافراد بيد العالم ، والعالم بيد الافراد ، ويودعهما معا بيد الله سبحانه .[2]

ونشرع الآن فى جوابه والرد عليه بالتفصيل :

ينبغى العلم أولا : ما هو المراد من العلم الذى جرى التأكيد والترغيب على تعلمه فى الاءسلام والقرآن والروايات المستفيضة ، بل المتواترة فى سنة رسول الله وأئمة الهدى عليهم صلوات الله ؟

و ثانيا : على أى أساس من أسس التعليم والتربية وضعت رسالة الحوزات العلمية الدينية وواجباتها ؟

و ثالثا : ما هو الهدف الغائى لمثل هذه الحوزات ؟ وما هى المزايا والخصوصيات التى ينبغى توفرها فى الافراد الذين يتخرجون منها ؟ وبعبارة أخرى : ما هو انتظار وتوقع القرآن ، ورسول الله ، وإمام الزمان

١ـ «بسط وقبض تئوريك شريعت» (= بسط وقبض نظرية الشريعة) ؛ مجلة «كيهان فرهنگى» رقم ٥٠ ، أرديبهشت ماه ٦٧ ، رقم ٢ ، ص ١٧ ، العمود الاول .

٢ ـ «قرآن در اسلام» (= القرآن فى الاسلام) ص ٦١ ، الطبعة الاولى .

عجل الله فرجه الشريف ، والمسلمين الذين يدفعون بعرق الجبين وكد اليمين نفقات الحوزة من مصارف سهم الامام ؟ [١]

أما البحث عن المسألة الاولى وهى المراد من العلم الذى عد من أهم الفرائض ، والذى أكد عليه رسول الله إلى ذلك الحد ، فقال لربيبه الوحيد ووصيه بلا فصل وخليفته فى الارض :

يا على ! إذا رأيت الناس يتقربون إلى خالقهم بأنواع البر ، تقرب إليه بأنواع العقل تسبقهم ! [٢]

هل المراد منه العلوم الحديثة : كالفيزياء والكيمياء والطبيعيات والرياضيات والطب والطب البيطرى والزراعة وتربية الدواجن ، أم المراد منه علم خاص حث عليه وأكد على تعلمه ؟

---

١ ـ نقل للحقير أخيرا الصديق المعظم والرفيق الشفيق ، صاحب العلم والورع ، آية الله المكرم الحاج الشيخ عبد الحميد الشربيانى دامت بركاته ، عن المرحوم آية الله العظمى المجتهد جامع الشرائط السيد محمد حجت كوه كمرى أعلى الله مقامه الشريف ، وهو من المراجع النزيهة والجليلة للحوزة العلمية فى قم ، أن أحد القرويين وضع فى يده يوما ورقة مالية قيمتها خمسة تومانات ، فلما تسلم منه هذا المبلغ بقيت يد القروى فى يده لمدة لا يطلقها ، وبعد أن غادر القروى سأله أحد الحاضرين عن السبب الذى دعاه لاستبقاء يد القروى فى يده كل هذه المدة وهو أمر لم يكن معهودا منه قبلا ؟ فأجاب : إن هذا الرجل مزارع ، وقد كسب هذا المال من عمله بالمسحاة ، وقد أثر العمل فى يده فاخشوشنت وملاتها الفقاقيع والنتوءات ، فضغطت على يده لتنغرس نتوءاتها فى يدى فأعلم كيف ينبغى أن يصرف هذا المال الذى جاء من هذا الطريق . اللهم اغفر لسلفنا الصالحين واخلف على عقبهم فى الغابرين وارحمهم وإيانا برحمتك يا أرحم الراحمين .

١ ـ ورد هذا الحديث فى الجوامع الروائية للشيعة والعامة ؛ وذكره الشيخ الرئيس ابن سينا فى «الرسالة المعراجية» ، والفيض الكاشانى فى «الوافى» ج ١ ، ص ١٠٢ ، الطبعة الحروفية .

مما لا ريب فيه أن دائرة العلوم قد اتسعت إلى حد كبير وهائل ، وأن فرصة تعلمها واكتسابها من قبل الاءنسان ضئيلة ومحدودة جدا ؛ فلو صرف الاءنسان جميع عمره فى اكتساب فن واحد ، للدرجة التى يطلع فيها عليه تحقيقا ويصبح أستاذا أخصائيا فيه ، فلا ضامن له فى وصوله للاءحاطة التامة بجميع أطرافه وجوانبه ودقائقه ، فضلا عن أن يحاول التخصص فى فنين أو أكثر .

لذا فإن على الانسان أن يوازن بين مدة عمره الصالحة للتعلم ، وبين احتياجه من ذلك العلم النافع الذى يرغب فى اكتسابه ، فيصرف الساعات والايام فى تعلمه ليحصل على الغاية التى يتوخاها ؛ [1] أما لو جد الانسان واجتهد ، فاكتسب بالمشاق والمتاعب والسهر العلوم المختلفة التى لا تنفعه ، فلن يكون نصيبه إل الوبال والخسران والندم ، فتكون حاله كمن قضى العمر ببناء البيوت والعمارات الكثيرة على أمل أن يعمر ، وكلما فرغ من عمارة لم يستفد منها ولم يسكن فيها ، بل تدفعه شدة الامل والحرص إلى بناء بناية أخرى ، حتى يأتيه الموت فجأة فيخطفه ، لا مالا حمل ولا بناء نقل . [2]

---

١ ـ أورد الشيخ هادى كاشف الغطاء فى «مستدرك نهج البلاغة» ص ١٦٥ و ١٦٦ عن أمير المؤمنين عليه السلام أ نه قال : أقل الناس قيمة أقلهم علما ؛ ومن لم يتعلم فى صغره لم يتقدم فى كبره ...

حتى يقول : العلم أكثر من أن يحصى ، فخذوا من كل شىء أحسنه . ثم أنشأ يقول :

ما حوى العلم جميعا أحد لا ولو مارسه لألف سنة

إنما العلم بعيدا غوره فخذوا من كل شىء أحسنه

٢ ـ الخطبة ١١٢ من «نهج البلاغة» طبعة مصر بتعليقة محمد عبده ، ج ١ ، ص ٢٢٤ ، ومن جملة فقراته : ومن العناء أن المرء يجمع مالا يأكل ، ويبنى مالا يسكن ، ثم يخرج

وهكذا هو شأن هذا الرجل الذى تعلم العلم لكنه رحل عن الدنيا ولم يجن من عمله إلا الضرر والخسران ، فلقد أضاع بإرادته واختياره عمره الشريف الذى يعد أثمن رأسمال له ، وخسر حياته الحاضرة بلا عوض ، وكان فى هذا الدنيا ـ التى تعد محل اكتساب العلم النافع وتحصيل العقل الكامل والتجرد الخالص مسربل بمسكنة العلم ، صفر اليدين من الكمالات النفسية ، حتى رحل عنها حائرا ذليلا ، وسيق إلى سرادق النور بأعين عمياء وآذان صماء .

لذا فقد كان خاتم الرسل ، النبى الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم يستعيذ بالله من علوم غير نافعة كهذه ، فيدعو ربه ويسأل حاجته من ساحة قدسه : اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع .[1]

إلى الله ل مال حمل ، ول بناء نقل .

١ ـ ورد هذا الدعاء فى الجوامع الشيعية والعامية ؛ وقد ذكر الشيخ الطوسى فى «مصباح المتهجد» ص ٥٣ ، فى جملة تعقيبات صلاة العصر : ثم تقول : اللهم إنى أعوذ بك من نفس لا تشبع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن علم لا ينفع ، ومن دعاء لا يسمع ـ الدعاء .

وأورده الراغب الاصفهانى فى«المحاضرات» ج ١ ، ص ٣٥ : قال النبى صلى الله عليه [وآله] وسلم : أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه . وقال عليه السلم : أشد الناس ندامة عند الموت العلماء المفرطون . وقال صلى الله عليه [وآله] وسلم : اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، وعين لا تدمع ونفس لا تشبع ، وأعوذ بك من شر هؤلاء الاربع .

وروى الحاكم فى «المستدرك» ج ١ ، ص ١٠٤ ثلاث روايات مختلفة ، إثنتان منها بسنده عن أبى هريرة والثالثة بسنده عن أنس : كان رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يدعو فيقول : اللهم إنى أعوذ بك من الربع : من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع ؛ وورد فى الدعاء المروى عن أنس بزيادة : اللهم إنى أعوذ بك من هؤلاء الاربع .

ويقول ابن ميثم كذلك فى شرح قول أميرالمؤمنين عليه السلام فى « شرح نهج

وقد أشار معجزة رسول الله الباقية (القرآن الكريم) إلى هذه النكتة الدقيقة ونبهنا إليها ، حيث يقول :

فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأولـ'ئك الذين هدنـ'هم الله وأولـ'ئك هم أولوا اللبـ'ب . [1]

ويقول سيد الوصيين أمير المؤمنين عليه السلام : العلم كثير فخذوا من كل شيء أحسنه . [2]

ويقول أيضا فى وصيته للامام الحسن عليه السلام : فإن خير القول ما نفع . واعلم أ نه لا خير فى علم ل ينفع ؛ ول ينتفع بعلم ل يحق تعلمه . [3]

وللراغب الاصفهانى كلام فى هذا المقام يستحق المدح ، فهو يقول :

من كان قصده الوصول إلى جوار الله والتوجه نحوه ، كما قال تعالى : ففروا إلى الله [4] ؛ وكما أشار إليه النبى الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم

البلاغة» ج ٥ ، ص ١٢ : ولهذا فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستعيذ بالله من شر هكذا علم ، ويقول : وأعوذ بك من علم ل ينفع . وهو مذكور كذلك فى «مرصاد العباد» ص ٤٨٦ . وأورده فى «إحياء العلوم» ج ١ ، ص ٢٩١ بهذه العبارة ، وأورده فى ج ١ ، ص ٣ بهذه الصورة : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : نعوذ بالله من علم لا ينفع . وأورد الفيض الكاشانى هذا الحديث فى كتاب «المحجة البيضاء» ج ١ ، ص ٤ ، عن الغزالى . ويقول المعلق فى تعليقته : أخرجه ابن ماجة ... والنسائى فى سننه ، وهكذا فى «المستدرك» ؛ وفى «مصباح الشريعة» باب ٦٠ .

١ ـ الآيتان ١٧ و ١٨ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٢ ـ «سفينة البحار» ج ٢ ، ص ٢١٩ .

٣ ـ من جملة وصية طويلة كتبها أمير المؤمنين عليه السلام للامام الحسن عليه السلام فى حاضرين وهى مكان قريب من صفين ، جاءت فى الخمس الاول من الرسالة ٣١ لـ «نهج البلاغة» ، وفى طبعة مصر بتعليقة محمد عبده : ج ٢ ، ص ٤٠ .

٤ ـ الآية ٥٠ ، من السورة ٥١ : الذاريات .

بقوله : سافروا تغنموا ؛ فحقه أن يجعل أنواع العلوم كزاد موضوع فى منازل السفر ، فيتناول من كل منزل قدر البلغة ، ولا يعرج على تفصيله واستغراق ما فيه ، فإنه لو قضى الانسان جميع عمره فى فن واحد لم يدرك قعره ولم يسبر غوره . [١]

ويقول كذلك : العلم أكثر من أن يحوى ، فخذوا من كل شيء أحسنه ! [٢]

وقيل : حل طبعك بالعيون والقفر ؛ فالشجرة لا يشينها قلة الحمل إذا كانت ثمرتها نافعة . [٣]

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : العلم كثير فارعوا أحسنه ؛ أما سمعتم قول الله تعالى : « فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ؟ [٤]

قال الشاعر :

---

١ ـ «سفينة البحار» مادة (علم) ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

٢ ـ أورد فى الجزء الثانى من «الغرر والدرر» شرح آقا جمال الخونسارى ، ص ١٥٧ ، رقم ٢١٧٤ ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال العلم أكثر من أن يحاط به ، فخذوا من كل علم أحسنه !

٣ ـ أورد هذا المطلب فى «سفينة البحار» ج ٢ ، ص ٢١٩ حكاية عن الراغب وبلفظ «يانعة» ، ودلالته على المطلب أفضل من لفظ «نافعة» ؛ ونقل بعد هذا المطلب عن الراغب قوله : ويجب أن لا يخوض فى فن حتى يتناول من الفن الذى قبله بلغته ، ويقضى منه حاجته . حتى يصل إلى القول : وعليه قوله تعالى « الذين ءاتينـٰهم الكتـٰب يتلونه و حق تلوته » ؛ أى لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا .

٤ ـ وأورد الخطيب البغدادى أيضا هذه الرواية فى كتاب «تقييد العلم» ص ١٤١ ، بهذه العبارة : قال ابن عباس : العلم كثير ولن تعيه قلوبكم ولكن ابتغوا أحسنه ؛ ألم تسمع قوله تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » إلى آخر الآية .

قالـوا : خـذ العين من كل فقلت لهم

فى العين فضل ولكن ناظر العين أفضل [1]

وقيل كذلك : قيل : ازدحام العلم فى السمع مضلة للفهم .

وقيل : إذا رأيتم رجل يريد تعلم أنواع العلوم فداووه . [2]

وقيل : من رام أن ينتحـل فنـون العلـم اسـتخف بنحيزتـه ووقـف النـاس على غميزته ؛ قال الشاعر :

تعلمـت حتـى مـن كلـب عـواءها

لعمـرى لقد أسرفت فى طلـب العلـم [3]

ومـن العجـب أن نفـس هـذا المطلـب قـد نقـل عـن أينشـتين ، وليـس معلوما أكان ذلـك مجـرد تـوارد خواطـر ، أم أن أينشـتين قـد نقـل عـن كتـاب الراغب ؟

يقول أينشتين : إن الاءفراط فى القـراءة يسـلب قـوة الابتكـار مـن العقـل بعـد بلـوغ سـن معينـة ؛ فمن أفرط فى القراءة وأقل من اعتماده على فكره ، فإن

---

١ ـ «محـاضرات الادبـاء ومحـاورات الشـعراء والبلغـاء» للراغـب الاصفـهانى : أبى القاسـم حسين بن محمد ، ج ١ ، ص ٥١ .

٢ ـ نقـل فى «سـفينة البحـار» ج ٢ ، ص ٢١٩ ، فى بـاب علـم عـن روضـة « بحـار الانـوار» باب ٢٥ (ضه كه) ، ص ٢٠٦ ، عن كتاب «أعلام الدين» عن الامام موسى بن جعـفر عليـه السـلام ، قـال : أولى العلـم بـك مـا لا يصلـح لـك العمـل إلا بـه . وأوجـب العمـل (العلـم ظ) عليـك مـا أنـت مسـؤول عـن العمـل بـه . وألـزم العلـم لـك مـا دلـك علـى صلـح قلبـك وأظـهر لـك فسـاده . وأحمـد العلـم عاقبـة مـا زاد فـى علمـك العـاجل ؛ فـل تشـغلن بعلـم مـا لا يضـرك جهلـه ، ولا تغفلـن عـن علـم مـا يزيد فى جهلك تركه .

٣ ـ «محاضرات الادباء» ج ١ ، ص ٥٢ .

فكره سيصاب بالخمول والعجز .[١]

وقد أورد ابن أبى الحديد فى آخر« شرح نهج البلاغة » كلمات قصار لامير المؤمنين عليه السلام غير تلك التى فى « النهج » ، من جملتها :

٦٠ ـ العمر أقصر من أن تعلم كل ما يحسن بك علمه : فتعلم الاهم فالاهم .[٢]

ونلحظ أن الامام عليه السلام ينبه على مطلب أسمى وأدق ، وهو أن على الاءنسان أن لا يضن ويبخل بعمره عن إهداره فى اكتساب العلوم غير النافعة فحسب ، بل عليه أيضا مراعاة الاهمية فى سعيه لاكتساب العلوم المقبولة النافعة ، فيقدم الاهم على المهم حسب الاولوية . أى أن يقلل الاشتغال بالامور الدنيوية ليتوفر على حصة وسهم أكبر لتحصيل العلوم الاخروية والمعنوية والروحية . وقد حكى فى « سفينة البحار » مقولة بديعة عن بعض الافاضل :

قال الله تعالى : ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

والفكرة متى توزعت تكون كجدول تفرق ماؤه . فينشفه الجو وتشربه الارض فل يقع به نفع ، وإذا جمع بلغ به المزرع فانتفع به .[٣]

وعلينا الآن أن نرى أى علم نافع من هذه العلوم رغب فى اكتسابه ، وشجع على تعلمه من قبل الشارع الاكرم فعد من أهمها ؟

---

١ ـ كتاب «دو فيلسوف شرق وغرب» (= فيلسوفا الشرق والغرب) للعالم المكرم عباس على راشد ، ص ١١٧ ، الفصل ١٧ ، فى مبادى النسبية .

٢ ـ «شرح نهج البلاغة» (الطبعة ذات العشرين جزءا) ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

٣ ـ «سفينة البحار» للمحدث الكبير الحاج «الشيخ عباس القمى ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ ؛ وورد فى «إحياء العلوم» ج ١ ، ص ٣ : قال رسول الله صلوات الله عليه وسلمه : أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه .

أى علم قال عنه رسول اللـه : اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد . [1]

ذاك الذى قال عنه رسول اللـه : اطلبوا العلم ولو بالصين . [2]

وفرض طلبه على الناس بقوله : طلب العلم فريضة على كل مسلم . [3]

روى محمد بن يعقوب الكلينى عن محمد بن الحسن وعلى بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن محمد بن عيسى ، عن عبيد الله بن عبد الله الدهقان ، عن درست الواسطى،عن إبراهيم بن عبد الحميد،عن أبى الحسن موسى الكاظم عليه السلام أنه قال :

دخل رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم المسجد ؛ فإذا جماعة قد أطافوا برجل ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : علمة . فقال : وما العلمة ؟!

فقالوا له : أعلم الناس بأنساب العر بووقائعها ، وأيام الجاهلية والاشعار العربية .

---

١ ـ «نهج الفصاحة» ص ٦٤ ، حديث رقم ٣٢٧ ، الطبعة الحادية والعشرون .

٢ ـ روى المجلسى فى «بحار الانوار» طبعة الكمبانى ، ج ١ ، ص ٥٧ و ٥٨ هذه الرواية عن «غوالى اللئالى» وعن «روضة الواعظين» .

وورد فى «مصباح الشريعة» تحقيق وتقديم العالم الجليل الحاج الشيخ حسن المصطفوى ، طبعة سنة ١٣٧٩ هجرية ، الباب ٦٢ ، ص ٤١ قال على عليه السلم : اطلبوا العلم ولو بالصين ؛ وهو علم معرفة النفس ، وفيه معرفة الرب عز وجل . وجاء بعده : قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : من عرف نفسه فقد عرف ربه . وقد نقل الملا محسن الفيض الكاشانى عين هاتين الروايتين فى كتاب «المحجة البيضاء» ج ١ ، ص ٦٨ عن «مصباح الشريعة» . وقد ذكر أستاذنا الاكرم آية الله على الاءطلاق العلمة الطباطبائى قدس الله نفسه فى كتاب «الميزان» ج ٦ ، ص ١٨٢ ، فى البحث الروائى حول علم معرفة النفس وأهميته ، عن «الغرر والدرر» للآمدى ، عن أمير المؤمنين عليه السلام اثنتين وعشرين رواية .

٣ ـ «أصول الكافى» ج ١ ، ص ٩٨ و ١٠٠ ، حيث يرويه بسندين عن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وورد فى ذيله : أل وإن الله يحب بغاة العلم .

قال : فقال النبى صلى الله عليه [وآله] وسلم : ذاك علم ل يضر من جهله ، ول ينفع من علمه .

ثم قال النبى صلى الله عليه [وآله] وسلم : إنما العلم ثلثة : آية محكمة ، أو فريضة عادلة ، أو سنة قائمة ؛ وما خلهن فهو فضل .[1]

ويقول المجلسى رضوان الله عليه فى « مرآة العقول » فى شرح هذا الحديث : قوله صلى الله عليه وآله ما هذا ؟ . ولم يقل : من هذا تحقيرا أو إهانة أو تأديبا له ؛ وقوله صلى الله عليه وآله : وما العلمة ؟ أى ما حقيقة علمه الذى به اتصف بكونه علمة ؟ وهو أى نوع من أنواع العلمة ؟ والتنوع باعتبار أنواع صفة العلم ، والحاصل : ما معنى العلمة الذى قلتم وأطلقتم عليه ؟

ثم يشرع المجلسى فى شرح معنى هذه الامور الثلاثة ، ويقول فى حاصلها : أو أن المراد بالآية المحكمة البراهين العقلية المستنبطة من القرآن على أصول الدين ، فإنها محكمة لا تزول بالشكوك والشبهات ؛ وبالفريضة ساير الاحكام الواجبة ، وبالسنة الاحكام المستحبة ، سواء أخذنا

---

١ ـ «أصول الكافى» ج ١ ، ص ٣٣ ، الحديث الاول من كتاب فضل العلم ، المطبعة الحيدرية . ورواه المحدث الجليل الفيض الكاشانى فى كتاب «المحجة البيضاء» ج ١ ، ص ٢٨ و ٢٩ . ورواه المجلسى فى «بحار الانوار» ج ١ ، ص ٦٥ و ٦٦ طبعة الكمبانى ؛ عن «الامالى» للصدوق و«معانى الاخبار» و«السرائر» و«غوالى اللئالى» وأورد له شرحا على النهج الذى ذكره فى «مرآة العقول» . وذكر الغزالى فى «إحياء العلوم» ج ١ ، ص ٢٧ ، وروى فى ص ٢٨ عن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : إن من العلم جهل ، وإن من القول غيا . وهو أعمق من المعنى الاول ، لان الرواية الاولى نفت نفع ساير العلوم لمتعلمها ونفت ضررها لمن جهلها . لكن هذه الرواية عنونت بعض العلوم بالجهل ، ونسبت بعض القول إلى الغى والضلالة .

من القرآن أو من غـيره ، لانـها محكمـة تقـابل المتشـابه ؛ ويقـال للآيـة محكمـة إذا كـانت واضحـة الدلالـة علـى المـراد ولا تحتـاج فى دلالتـها إلى تـأويل ، فالعقـائد والاصـول الـتى تتصـف بهـذه الصفـة تكـون محكمـة وراسـخة ؛ وأمـا العلـة فى وصـف الفريضـة بالعادلـة ، لانـها أخـذت مـن الكتـاب والسـنة بلا إفراط ولا تفريط .[1]

---

١ ـ «مـرآة العقـول» ج ١ ، ص ١٠٢ و ١٠٣ الطبعـة الحروفيـة ، ويقـول ابـن الاثـير فى «النهايـة» : المـراد بـالعدل العـدل فى القسـمة ، أى الواجبـات المعدلـة علـى السـهام المذكـورة فى الكتـاب والسـنة مـن غـير جـور ، ويحتمـل أن يريـد أ نـها مسـتنبطة مـن الكتـاب والسـنة ، فتكـون هذه الفريضة تعدل بما عنهما .

وذكـر هـذا الحديـث أيضـا المحقـق الفيـض فى «الـوافى» ج ١ ، ص ٣٧ ، بـاب صفـة العلـم ، ويقـول فى شـرحه : علمـة أى كثـير العلـم ، والتـاء فيـه للمبالغـة ، ل يضـر مـن جهلـه ، نبهـهم علـى أنـه ليـس بعلـم فى الحقيقـة ، إذ العلـم فى الحقيقـة هـو الـذى يضـر جهلـه فى المعـاد وينفـع اقتنـاؤه يـوم التنـاد ، لا الـذى يتحسـنه العـوام ويكـون مصيـدة للحطـام ، ثم بيـن لهـم العلـم النـافع المحثـوث عليه فى الشرع وحصره فى ثلاثة .

وكـأن الآيـة المحكمـة إشـارة الى أصـول العقـايد ، فـإن براهينـها الآيـات المحكمـات مـن العـالم أو مـن القـرآن ، وفى القـرآن فى غـير موضـع إن فـى ذ لـك لأيـٰت أو لأيـة ، حيـث يذكـر دلايـل المبـدأ والمعـاد . و الفريضـة العادلـة إشـارة إلى علـوم الاخـلاق الـتى محاسـنها مـن جنـود العقـل مسـاويها مـن جنـود الجـهل ، فـإن التحلـى بـالاول والتخلـى عـن الثـانى فريضـة ؛ وعدالتـها كنايـة عـن توسـطها بـين طـرفى الاءفـراط والتفريـط ؛ و السـنة القائمـة إشـارة إلى شـرايع الاحكـام ومسـايل الحـلال والحـرام ؛ وانحصـار العلـوم الدينيـة فى هـذه الثلاثـة معلـوم ، وهـى الـتى جمعـها هذا الكتـاب «الـوافى» وهـى مطابقـة علـى النشـآت الثـلاث الاءنسـانية ، فـالاول علـى عقلـه ، والثـانى علـى نفسـه ، والثـالث علـى بدنـه ، بـل علـى العـوالم الثلاثـة الوجوديـة الـتى هـى عـالم العقـل والخيال والحس . فهو فضل زايد لا حاجة إليه ، أو فضيلة ولكنه ليس بذاك .

وقال فى نفس الصفحة من «الـوافى» : قـال السـيد المـير الدامـاد قـدس اللـه سـره : علـم الآيـة المحكمـة هـو العلـم النظـرى الـذى فيـه المعرفـة باللـه سـبحانه وبأنبيائـه ورسـله وبحقيقـة الامـر فى البـدو منـه والعـود إليـه ، وهـذا هـو الفقـه الاكـبر ، وعلـم الفريضـة العـادلة هـو العلـم الشـرعى

فالمراد من هذه العبارات هو العلم بعقائد الدين وأصوله الحاصلة باليقين ، والعلم بالواجبات والفرائض ، والعلم بالمستحبات ، وما خلا هذه العلوم الثلاثة ففضل وزيادة لا حاجة إليها .

فالعلم بأصول الدين والتوحيد والمعارف الالهية يوجب حياة النفس الاءنسانية ، والعلم بالواجبات والمستحبات بما فيها من العبادات والمعاملات والايقاعات والاحكام والسياسات يوجب العمل الصحيح لاءيصال الانسان للمعارف الحقيقية ، وهو أمر ضرورى لكل بشر .

أما أصناف العلوم التى ينبغى أل نعدها علوما فهى الفنون التى دعتها الرواية فضلا و زيادة ، لا فضيلة ، إذ الفضيلة تتضمن قدرا من الكمال .

وهذا العلم الواجب هو الذى اعتبره القرآن الكريم الغاية من خلق السماوات السبع والارضين السبع وتنزل أمر الله بينهن :

الله الذى خلق سبع سمـ'و ت و من الرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على'كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما . [1]

وهو العلم النافع الذى عده أمير المؤمنين عليه السلام فى خطبة همام من جملة صفات المتقين :ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم . [2]

ويستنتج مما قيل أن أشرف العلوم هو علم بناء الانسان .

وقد اتفق العلماء أن شرف كل علم بشرف المعلوم . وكل علم

الذى فيه المعرفة بالشرائع والسنن والقواعد والاحكام فى الحلال والحرام ، وهذا هو الفقه الاصغر ، وعلم السنة القائمة هو علم تهذيب الاخلاق وتكميل آداب السفر إلى الله تعالى والسير إليه وتعرف المنازل والمقامات والتبصرة ب ما فيها من المهلكات والمنجيات .

١ ـ الآية ١٢ ، من السورة ٦٥ : الطلاق .

٢ ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٩١ ، وفى طبعة مصر بتعليقة محمد عبده ج ١ ، ص ٣٩٦ .

يكون معلومه أشرف المعلومات يكون ذلك العلم أشرف العلوم .

فأشـرف العـلوم العـلم الاءلهـى لا نـه معـلومه وهـو اللـه أشـرف الموجودات .

يقول الخواجه شمس الدين محمد حافظ الشيرازى :

ای دل‌به‌هرزه،دانش‌وعمرت به باد رفت

صـد مـایه داشتی و نکردی کفایتی[1]

ويقول الخـواجة الحـكيم ميـرفندرسـكى فى قصـيدته الحـكمية المعروفة :

هرچه‌بیرون است ازذاتت نیاید سودمند

خویش‌راکن‌سازاگرامروزاگرفرداستی[2]

وما أبدع بيان الحكيم السنائى حين يقول :

ای هواهای توهوی أنگیز وی خدایان تو خدا آزار[3]

---

١ ـ «ديوان حافظ» ص ٢٠٩ ، الغزل رقم ٤٥٧ طبعة پژمان ، وأوله هذا البيت :

ای قصة بهشـت ز کویت حکایتی شـرح جمال حور ز رویت روایتی

ويقـول البيـت الـوارد فى المـتن : «يـا مـن أضـاع عمـره وعلمـه عبثـا وهبـاء منثـورا ، لقـد أعطيت مائة رأسمال فأهدرتها فلم تكفك زادا إلى غايتك» .

٢ ـ للميرفندرسكى قصيدة رائعة فى ثمان وأربعين بيتا مطلعها :

چرخ با این اختران ، نغز وخوش وزیباستی

صـورتی در زیـر دارد آنچـه در بالاسـتی

صـورت زیـرین اگر با نردبـان معـرفـت

بر رود بالا همـان با اصـل خـود یکتاستی

يقـول فى البيـت الـوارد فى المـتن : «عليـك نفسـك أصلحـها إن اليـوم أو غـدا ، فـالظواهر التى لا تمس ذاتك لا تعود عليك بنفع وفائدة» .

٣ ـ «ديوان السنائى » ص ١١٧ إلى ١٢٤ ، طبعـة أمـير كبـير ، و قـد اقتطفنـا هـذه الابيـات مـن هذه القصيدة الجميلة البالغة مائة وأربعة وأربعين بيتا .

ره رهـــا كـرده‌ای از آنی گم
عـز ندانسـته‌ای از آنی خـوار
علـم کـز تـو تـورا نه بستاند
جهل از آن‌علم به بود صد بار
غـول باشـد نه عالم آنکه ازو
بشـنوی گفت و نشنوی کردار
ده بـود آن نه دل که اندر وی
گاو وخر باشد وضیاع و عقار
کی در آیـد فرشـته تا نکـنی
سگ‌ز در دوروصورت‌ازدیوار؟
أفسری کان نه دین نهد بر سر
خواهش‌أفسرشمارو خواه أفسار
قائد و سائق صراط اللـه به
ز قـرآن مـدان و به ز أخبار[٢]

يقول : «يا من اتخذ هوى نفسه آلهة تعبد ، إن آلهة هواك تسخط عليك الإله .

١- يقول : تنكبت عن الدرب للحظة فضللت ، وجهلت العز للحظة فلزمتك المذلة .

علمك إن لم يزجرك ويردعك ، فالجهل لا شك أفضل منه مائة مرة .

وذاك الذى تسمع منه قولا بلا عمل ، ليس عالما بل غول متوحش .

والقلـب إن اشـتمل علـى الضـياع والعقـار والحـمير والابقـار ، ليـس إل قريـة وضيـعة ، لا قلبا .

فمتى يظـهر الملـك إن كنت لا تطـرد الكلب عن بابك ، ولا تنـزع النقـوش عن جدارك ؟

والقـائد الـذى لا يضـع الديـن تـاج شـرف علـى رأسـه ، لا ضـير إن عددتـه قـائدا عظيمـا أو لجاما وضيعا .

أكرم بهما هاديان وسائقان على صراط اللـه : القرآن كتاب اللـه ، والروايات والاخبار» .

وكم هو جميـل وواف ومتسـام شـعر العـارف الرومـى المـل جـلال الديـن البلخى حيث يقول :

او ز حيوانها فزونتر جان كند در جهـان باريك كاريها كند
مكر وتلبيسى كه او تاند تنيد آن ز حيوان دگر ناید پدید[1]
جامـه‌هاى زركشـى را بافتن درهـا از قعـر دريـا يافـتن
خرده كاريهاى علم هندسـه يانجوم وعلم و طب و فلسفه
كان تعلق با همين دنييستش ره به هفتم آسمان بر نيستش
اين همه‌علم بناى‌آخور است كه عماد بود گاو واشتر است
بهر استبقاى حيوان چند روز نام‌آن كردند اين‌گيجان رموز
علم راه حق و علم مـنزلش صاحب‌دل داند آن‌را بادلش[2]

فالعلوم الطبيعية والمعارف التجريبية تعد ـ لهذا السبب جزءا مـن العلـوم الدنيـويـة لا العلـوم الانسـانية ، إذ ليـس مـن شـأنها صيـاغة الانسـان بالـرغم

---

١ ـ ديوان «مثنوى مولوى» مجلد ج ، ص ٣٦١ ، السطر ١٧ فما بعده ، طبعة ميرخانى .
يقول : «لقد كد وكدح ففاق فى كدحه الحيوان ، وأنجز فى العالم ظرائف الاعمال .
وكان مكره وتلبيسه وشيطنته ما يعجز الحيوان عن تلفيق مثله .
٢- يقـول : فحياكـة الملابـس الموشـاة بخيـوط الذهـب ، و صيـد اللؤلـؤ مـن أعمـاق البحار .
ودقائق علم الهندسة والنجوم والطب والفلسفة .
إن تعلقت بعدمه لا وجوده ، فهى مهما علت إلى السماء السابقة .
جميعا كالمعلف الذى تتكى فيه الانعام وتستريح .
المعلف الـذى أعـد لاسـتبقاء الحيوانـات أيامـا عـدة ، لكـن هـؤلاء الحيـارى أطلقـوا عليـه هـذه الاسماء والرموز
فـالعلم الحقيقـى هـو طريـق الحـق ، ومـنزل الحـق ، يعـرف ذلـك مـن كـان لـه قلـب (وألقـى السمع وهو شهيد)» .

من كـون بعضـها مفيـدا للبشـر ، لان هـذه الفـائدة تنحصـر فى بدنـه وطبيعتـه ، شأنها شأن العلوم التى تمتلكها الحيوانات فتستفيد منها لادامة حياتها .

فكل حيوان يعلـم مـاذا ينبغـى أن يـأكل ، ومـاذا ينبغـى لـه أن يصطـاد ، وكيف يتوارى عن أعدائـه ، وكيـف يتناسـل للحفـاظ علـى بقـاء نوعـه . فـهذه العلوم ليسـت علومـا عقليـة ، بـل هـى علـوم حسـية مدبرهـا القـوى الخياليـة الموجودة فى جميع الحيوانات .

والانسـان الـذى ينحصـر همـه وسـعيه فى الحصـول علـى العلاقـات الماديـة وحـل المسـائل الرياضيـة والتحقيـق المعمـق فى الفيزيـاء والكيميـاء والفيزيـاء الكيميائيـة وعلـوم الحيـاة والاجتمـاع والطـب ، مـن أجـل تـأمين صحته والمحافظة على سلامة بدنـه ، فيجـول لاجلـها البلـدان ويطـوى القـارات ، ويذهـب إلى الجامعـات فيسـتفيد مـن علومـها ومكتباتهـا ؛ إنمـا يسـعى وراء العلوم الخيالية التى تشـاركه الحيوانـات فى امتلاكـها ؛ و تغيـير مسـتوى و كيفيـة هذه العلوم لدى الانسان لن يغير حقيقته ولن يميزه عن صف الحيوانات . [١]

وباعتبـار أن هـدف وغايـة هـذه العلـوم ليـس كمـال الاءنسـان ونفسـه الناطقـة ، فيمـكن تسـميتها جميعـا بعلـوم البطـن والمعـلف [٢]، كمـا صـرح ذلـك

---

١ ـ يقـول المرحـوم الشـهيد الشـيخ مرتضـى المطـهرى رحمـة اللـه عليـه فى كتـاب «إنسـان كـامل» ص ١٣٨ : هنـاك كتـاب ترجـم عـن غـاندى يحـوى منـه مقـالات ورسـائل ، واسمـه «هـذا هـو مذهبى» ، وهو فى رأيى كتاب جيـد ، يقـول فيـه : لقـد توصـلت مـن مطـالعة الـ «أپـانى شـادها» إلى ثلاثة أسس : ١ ـ معرفـة النفـس . ٢ ـ أن مـن عـرف نفسـه فقـد عـرف ربـه وعـرف الآخريـن . ٣ ـ أن هنـاك قـوة واحـدة فقـط وهـى التسـلط علـى النفـس وقـهرها . ويقـول فى معرفـة النفـس : إن الا فرنجـى قـد عـرف الدنيـا لكنـه لم يعـرف نفسـه ؛ ولا نـه لم يعـرف نفسـه فقـد أشـقى نفسـه وأشـقى الدنيا . وإنصافا فإن كلامه جميل ، وهجومه على الغرب وعالم ثقافتهم رائع .

٢ ـ ينقـل الشـيخ الطنطـاوى فى تفسـير « الجـواهـر» ج ٣ ، ص ٢٥٥ ، طبعـة مطبعـة

مولانا فى الابيات السابقة ؛ ويقول كذلك :

علم‌هاى أهل حس شد پوزبند تا نگيرد شير ز آن علم بلند[٣٧]

وقد أثار الاءعجاب حقا فى هذا البيت لما فيه من حسن بيان وطراوة وجزالة معنى ، فأعطى الموضوع حقه بشكل رائع .

يقول : كما أ نهم يضعون على فم العجل وصغار الاغنام كمامة تمنعها رضاع أمهاتها ، فإن العلوم التى يكتسبها الناس لاجل الدنيا ، والتى لا أثر لها فى تكامل ورقى أنفسهم ، ولا فى تحرير البشر من رق عبودية المادة والطبيعة ، وسوقه إلى العالم الواسع الفسيح للتجرد والتقرب وعرفان المعبود ، هى كذلك كمامات وضعت على الافكار والآراء والعقول لتحدها وتمنعها وتكبحها عن الانطلاق والاستفادة من المعارف الحقيقية والعلوم

مصطفى البابى ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٥٠ هـ ، ذيل الآية ٥٠ ، من السورة ٥٤ : القمر : وما أمرنآ إلا واحدة كلمح بالبصر ، مطالب عن الحكيم إفلاطون والحكيم أرسطاليس والرواقيين بالمناسبة ، حتى يصل الى قوله :

وقد نقلت من كلام الاستاذ سنتلانه المكتوب بخطه فى كتابه «تاريخ الفلسفة العربية» أن حكماء أوروبا لم يبرعوا فى الفلسفة ولم ينالوا من العلم إل ما كان من قبيل العلوم الجزئية ، كالطبيعيات والرياضيات ، فاخترعوا وزرعوا وطاروا وحاربوا ؛ أما العالم الاعلى وعجائب النفس وأصل التكوين التى وضعت لاجلها الفلسفة ، والتى غاية أبحاثها الوصول للنموذج الاعلى لنوع الاءنسان ، فنسبتهم مع سقراط وأفلاطون كالفيل مع البقة ، وأ نهم لو عرفوا ذلك مثل الحكيمين لم يكونوا إل ملائكة .

١ ـ «ديوان مثنوى» ج ١ ، ص ٢٨ ، السطر ١٠ طبعة ميرخانى ؛ ويروى الغزالى رواية عالية المضمون فى «إحياء العلوم» ج ١ ، ص ٧ ؛ قيل يا رسول الله : أى الاعمال أفضل ؟ فقال : العلم بالله عز وجل . فقيل : أى العلم تريد ؟! قال صلى الله عليه [وآله] وسلم : العلم بالله سبحانه ، فقيل له : نسأل عن العمل وتجيب عن العلم ! فقال صلى الله عليه [وآله] وسلم : إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله ؛ وإن كثير العمل ل ينفع مع الجهل بالله .

السرمدية ، وارتضاع ماء الحياة المعنوية ولبن العلوم الحقيقية ، وتصدها عن الانكباب حتى الارتواء على ثدى علوم العالم العلوى التى تتكفل ببناء الانسان وتربية البشرية .

وحرى هنا ذرف الدموع على الحظ التعس لامثال لافوازيه ونيوتن وأينشتين ومن جاراهم ، وعلى جميع أتباع مدرسته ومادحيه ؛ البكاء عليهم فيم صرفوا أعمارهم وأهدروها ، وأى نفع من الاءنسانية اكتسبوه ؟

ومضافا إلى ذلك فلم يقدر لهذه الاكتشافات أن تعود على الانسانية بنفع ، بل كانت سببا لاءيقاع الضرر بها ؛ فلم ينس أهالى طهران بعد تلك الاصوات المهيبة المفزعة ، والخرائب والحرائق واهتزاز الارض تحت أقدامهم لاكثر من شهر جراء الصواريخ التى صبها عليهم النظام العراقى ، والتى بلغ عددها المائتى صاروخ !! فما الذى مثلته هذه الصواريخ غير قانون لافوازيه والقانون الاول الثرموديناميكى ، والحسابات الدقيقة لجاذبية نيوتن ، وتصحيح نسبية أينشتين ؟

لقد أظهر أينشتين أسفه على ما اخترعه فى آخر سنى حياته فى المؤتمر الذى كرس لتعظيمه فى أمريكا ، وقال :

لم يكن ليخطر ببالى أن الدول الظالمة ستسىء الاستفادة من هذا الاكتشاف إلى هذا الحد ، فيصنعون من فلق الذرة الصواريخ العابرة للقارات ويسحقون بها المرأة والطفل والرجل العجوز ، فيدفنونهم تحت أطنان الانقاض ، ويجعلونهم طعمة للحرائق .

لقد كانت هذه النتائج السيئة هى الاشياء التى تحققت فى حياته ، ناهيك عما تحقق بعد وفاته .[١]

---

١ ـ كانت وفاة أينشتين سنة ١٩٥٥ ميلادية ، حيث انقضى على وفاته حتى الآن

باش تا صبـح دولتـت بدمد كاين‌هنوز ازنتايج سحر است[1]

ونرى مـن المناسـب أن نـورد مطـلبا نقـلا عـن الدكتـور كـارل ، هـذا الرجـل الاجنـبى المسـيحى الملتـزم الـذى لازم الصـواب فى الكثـير مـن المطـالب ، فـهو يـرى رأى العـين أن هـذه المدنيـة العجيبـة لم تقـدم مـن هديـة للمجتمـع البشـرى إل المتـاعب والمشـكلات وإهـدار الطاقـات الانسـانية ؛ يقول :

لو كـان غـاليلو[2]، و نيوتـن [3]، و لافوازيـة[4]، قـد صرفـوا قواهـم الفكريـة فى المطالعة بشـأن بـدن الاءنسـان وروحـه ، فلربمـا اختلفـت دنيانـا اليـوم عـن أمسها .

يجهل رجال العلم وأتباع طريق الفكـر مـا سـتؤول اليـه أبحاثـهم ابتـداء ، ومـا هـى النتـائج الـتى سـيحصلون عليـها ، ومـا يسـوقهم فى مسـيرتهم هـو الصدفة و التعقل وبعض وضوح البصيرة .

لكأن كل منـهم لـه عالمـه الخـاص الـذى يـدار بقوانينـه الخاصـة ، فـهم يرون أحيانا بوضـوح المسـائل الـتى تبـدو لغـيرهم غامضـة عويصـة . وعمومـا فقد جاءت اكتشـافاتهـم دون أى تصـور مسـبق لعـواقبـها ونتائجـها ، ولكـن النتائج هى التى عكست صورتها عمليا على المدنية الحديثة .

لقـد اختـرنا وانتقينـا مـن بين الاكتشـافات العلميـة الكثيرة ، لكننا لم نعن

---

٣٣ سنة .

١ ـ يقول : «صبرا حتى ينفلق صباح دولتك ، فلا زال ما يجرى من عوائد السحر»

٢ ـ Galilee عالم رياضى ومنجم وفيزيائى إيطالى مشهور (١٥٦٤ إلى ١٦٤٢ ميلادية) .

٣ ـ Newton عالم فيزياء إنجليزى (١٦٤٢ إلى ١٧٢٧ ميلادية) .

٤ ـ Lavoisier عـالم كيميـائى فرنسـى ومـن مؤسسـى الكيميـاء الحديثـة (١٧٤٣ إلى ١٧٩٤ ميلادية) .

فى اختيارنا أو نلحظ المصالح السامية للاءنسانية ، بل تبعنا فقط منحدر رغباتنا وهوسنا ، وكان همنا الدائمى الربح الاوفر بالجهد الاقل والسرعة فى العمل وتلون الحياة وتنوعها .[1]

نعم . كانت هذه المطالب فى شأن العلم وحقيقته ، والفرق بين العلم والفن ، وبين العلوم الحقيقية والتصورات الحسية والوهمية والخيالية ؛ وعظمة العلم الحقيقى وحقارة العلوم والتصورات الحسية والوهمية والخيالية . وقيمة الاءسلام والقرآن فى العلوم الاصيلة لا العلوم الحسية والخيالية .

وأما المطلب الثانى ، وهو الاساس الذى شكلت عليه الحوزات العلمية الدينية ، فالمقصود بالحوزة العلمية : الدراسة العلمية والعملية

---

١ ـ «انسان موجود ناشناخته» (= الانسان ذلك المجهول) ص ٢٦ و ٢٧ الطبعة السادسة . ويقول أحمد أمين فى كتاب «يوم الاسلام» الذى أ لفه فى أواخر حياته ، ص ٤٦ و ٤٧ ، طبعة سنة ١٩٥٢ م : ولو بنى الاءسلام على أساس متين لطار كما طار غيره . نعم ، إن الصين بقيت زمنا أطول منه على وثنيتها . ولكن ، يلاحظ أن الصين كانت قارة واحدة ، بينما كان الاسلام فى ثلاث قارات ، وأ نها لم تحط بالاعداء من حولها كما أحيط هو ، ففى وقت واحد كانت ضربات التار وضربات الصليبيين وغيرهم .

إن العلم الحديث مع تقدمه الباهر لم يستطع أن يفسر أسرار الحياة ، إل نتفا هنا ونتفا هناك ، وعجز عجزا تاما عن تفسير الباقى .

أما الاسلام فقد استطاع أن يحيى فى الاءنسان الضمير الدينى ، ويحل به المشاكل كلها بحذافيرها . واستطاع أن يفهم ضم الحياة الاخرى إلى الحياة الدنيا ، فيفهم من ذلك أن مجرما يسعد ، ومستقيما يشقى ، لان هنالك ضميمة أخرى إلى الحياة الدنيا تحدث التعادل بين حياة المجرم والمستقيم . لكل هذه الاسباب ، نرجو أن إحساس الغربى بالشقاء وبالعجز وبالحيرة عن فهم سر الحياة ، يلجئه أخيرا إلى أن يرى المنقذ من كل ذلك ، ولعله لا يجد غير الاسلام .

للقرآن الكريم ، وفهم القرآن والعمل به .

ولتحقق هذا الهدف يجب اكتساب علوم المعارف بالمستوى الرفيع ، واكتساب العقائد والاخلاق بالمستوى الجيد اللائق ؛ وينبغى ـ وصولا لذلك الاستعانة بعلم تفسير القرآن ، والحديث ، والدراية ، والرجال .

إن سبيل الوصول للعلم الصحيح والعمل الصحيح هو علم الفقه ، ومن لوازمه علم الاصول والكلام والحكمة والعرفان ؛ ولا تحقق هذه المعانى إلا حين يكون لدينا فهم واطلاع كامل وصحيح على لسان القرآن ولسان النبى الاكرم وأوصيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام ، والوقوف على السيرة والسنة والاسلوب العلمى والعلمى لهم .

لذا ، ينبغى أن نمتلك اطلاعا واسعا على علوم العربية وآدابها من الصرف والنحو واللغة والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع والمحاورات النثرية والشعرية ، وعن سيرتها وتأريخها ؛ وهذه الفروع السابقة بأجمعها مهمة جدا ، ولابد أن يلم بها المرء جميعها بشكل جيد ليمكنه من الوصول إلى الاجتهاد الصحيح ، وإلا فالنتيجة تتبع أخس المقدمتين ، وسيصبح ـ عملا مقلدا بالرغم من ادعائه الاجتهاد .

لقد كان لكل واحد من علمائنا الاجلاء من صدر الاسلام وحتى يومنا هذا مقامه فى عالم العقل والعلم والدراية ، فقد نشأوا فى هذه الحوزات وأناروا مساحات واسعة بأنوارهم ، سواء فى حياتهم أو بعد مماتهم . ولكى يصبح الطالب عالما أو أخصائيا فى العلوم التى ذكرناها ، فعليه بالجد الدؤوب . وعلى ذى الفهم والقابلية والذكاء الجيد والقوى الفكرية والذاكرة الجيدة أن يقضى عمرا لينال هذه الدرجة بشغف ورغبة وقادة للتعلم ، وبالصبر والثبات أمام المشكلات ، وبالتوجه إلى الله تعالى والاستعانة بفيوضاته الربانية .

على الطالب أن يحلق بجناحى العلم والعمل ويسمو على الدنيا الدنية الفانية ، وأن يخنق فى المهد حب الرئاسة والسيادة والاستعلاء فى كيانه ، وأن يدير ظهره لجميع الاعتباريات والتعينات المانعة من وصول الغاية ، ليصل ـ بحول الله وقوته لتلك التطلعات .

على أن أفرادا قلائل فقط من بين عشرات ومئات الطلبة سيمكنهم طى هذا الطريق إلى نهايته والفوز بالجامعية والكمال .

كما ينبغى كذلك لمدارس العلوم الدينية أن تكون بعيدة عن الضوضاء والصخب وجلبة الاسواق وطلب الدنيا ، وبعيدة عن مظاهر الحياة وظواهرها وترفها وعن النزوع إلى الراحة وقضاء الوقت ، ليتيسر للطلبة أجواء دراسية مناسبة .

وقد اختاروا لهذه الاسباب مدن النجف الاشرف وكربلاء المقدسة والكاظمية وسامراء ومشهد المقدسة وقم المقدسة لتقام فيها مثل هذه المدارس ، وسعوا أن تكون قريبة من الصحن المطهر ليمكن للطلبة ، بقربهم من المركز المعنوى والروحى ، أن يستمدوا الفيض منه بنحو أفضل .

وفى الحقيقة ، فإن من يسعى لتكون دراسته أساسية وأصولية متينة ، سوف لن يمتلك فى اليوم الكامل فراغا لخمس دقائق يطالع فيها الكتب الخارجة عن متن الدروس أو ينشغل بأعمال أخرى ، وإل صار درسه سطحيا ومهزوزا غير أصيل .

لذا فلن يعود أمر إدخال دروس جديدة فى الحوزة العلمية أو ضم الفلسفة الغربية إلى الحكمة الاءسلامية الاصيلة إل بالضرر والفساد .

فمن أين يتأتى لهذا الطالب الذى لا يكاد وقته يسعه لدروس المتن ، أن يهتم بهذه الدروس الاضافية ؟! الدروس التى صيغت على أساس

التخيلات والتصورات مقابل الافكار الحقة الواقعية ، والتى لا تمتلك من المعنويات إل قليلا ؟

وسيبقى الطالب فى هذه الحال لا ظهرا أبقى ولا أرضا قطع ، وستؤول علومه حفظا سطحيا لا ثراء فيه ؛ وعندها ستعجز الحوزات عن إنجاب العلماء المحققين ، وعن تربية وتنشئة الاساطين ، كما هى الحال فعلا فى الجامعات ، التى نرى عدم تنشئتها للمحققين من ذوى الخبرة والبصيرة ، فأية خسارة عظيمة هذه ! وأن كبار المحققين المقتدرين ، الذين كان كل منهم مفخرة من مفاخر الاءسلام ، وممن سطعت أنوارهم فى عالم التشيع فى الفترة الاخيرة ، كالشيخ جواد البلاغى النجفى ، والسيد شرف الدين من جبل عامل ، والسيد محسن العاملى ، والعلمة الشيخ عبد الحسين الامينى ، والعلمة الشيخ آغا بزرك الطهرانى ، والمحدث الكبير الشيخ عباس القمى ، وسماحة أستاذنا آية الله العلمة الطباطبائى قدس الله أسرارهم جميعا ، قد كانوا ممن تربوا فى هذه الحوزات ، وكانوا أصحاب نظر وتحقيق فى الفنون والعلوم التى برعوا فيها .

وكان العلمة الطباطبائى محققا عظيما وصاحب نظر فى الفقه والتفسير والفلسفة ، وكان يناقش آراء السابقين ويحقق فيها ، ثم يبدى نظره الخاص . وكان ينظر الى كتاب « الحكمة المتعالية » للمل صدرا باحترام وإجلال ، لكنه ـ مع كل ذلك ـ كان يرفض بعض ما فيه و يعطى نظرته تجاهه . أما أساتذة الجامعات الذين انصرفوا إلى ترجمة كتب الأجانب و من ثم تدريسها للطلاب ، فهل شاهدتم فيهم أستاذا قد أجرى تحقيقا فى تلك المطالب ، وتوصل إلى اكتشاف ما ؟ وهل شاهدتم فيهم من كان له فى مجال الطب رأيا خاصا يخالف آراء تلك الكتب ؟ أو هل شاهدتم أحدا يبدى رأيه فى الفيزياء بخصوص قاعدة نيوتن للجاذبية ؟ أو

يعترض على آراء أينشتين ؟ أو يتوصل إلى اكتشاف بديع أو اختراع جديد فى العلوم الطبيعية والحياتية ؟ أبدا ، أبدا ! فليس فى الجامعات من حديث عن اكتشاف أو اختراع جديد أو متابعة لهذه الامور ، بل ينحصر الكلام فى قاعات الدرس فى بيان اختراعات الاجانب واكتشافاتهم والحديث عنها يوميا .

لا نريد أن نقول : إن إيران خالية من النبوغ والتحقيق ، فهى مشحونة بذلك أكثر من غيرها ، إذ ألم يكن أمثال أبى ريحان البيرونى وزكريا الرازى وابن سينا والعلمة الطباطبائى إيرانيين ؟ بل نريد القول بأن الاستعمار فى حالة تأهب ولا يريد للجامعات أن تربى طلبة محققين ، ولذلك فقد وضع أسلوب تعليم وتعلم وتربية الاساتذة فى الجامعات الاجنبية على نحو لا يربى محققين ذوى نظر مستقل ، ولهذا السبب ، فقد اكتفى بهذه الدروس السطحية المحفوظة التى تعتمد على ترجمة الكتب الاجنبية .

لقد عمد الاستعمار ـ من أجل دحر حركة العلم والتحقيق إلى فتح الجامعات فى مقابل المدارس العلمية ، وعمد فى محاولته لاقتلاع جذور التحقيق إلى إغلاق المدارس العلمية من جهة ، وإلى إشغال طلبة الجامعات بحفظ الصيغ وكتابة الكراسات على أيدى أساتذة غير أخصائيين ، بهدف الحصول على الشهادة الجامعية لا أكثر ، وقد أسس أمثال كليات الآداب والاءلهيات والفلسفة ومعهد التعليم العالى بهدف تخريب الحوزات وصولا إلى صرف الشباب عنها ، والسيطرة الفكرية عليهم وتغذيتهم بالافكار المنحرفة تحت غطاء الفلسفة والادب الاءيرانى ، وسوق أفكارهم بعيدا عن أصالة القرآن والاسلام إلى النزعات القومية والوطنية وحب إيران باسم مواجهة العرب ، وليس هذا فى الواقع إلا مواجهة للإسلام .

ولقد أسسوا كلية باسم كلية الوعظ والخطابة لتخريج علماء تابعين للنظام مؤتمرين بأمره ، ثم سموها كلية المعقول والمنقول ، ومنعوا الكلام من على المنابر لغير علماء هذه الكلية ، ثم رأوا انتفاء الحاجة إلى المعقول والمنقول بعد تشكيل كلية الاءلهيات والفلسفة فعمدوا إلى إلغائها .

فماذا ينتظر من كلية الالهيات والفلسفة حين يسمح لاساتذتها و إن كانوا من الشيوعيين والاشتراكيين والماركسيين ؟ فالشرط الوحيد الذى كان يشترط فى هؤلاء المدرسين أن لا يكونوا مسلمين حقيقيين ملتزمين !

وندرك هنا جيدا كلام المرحوم السيد حسن المدرس رحمة الله عليه حين سأله المرحوم آية الله البروجردى رضوان الله عليه : ما الذى ينبغى على عمله لتكون خدمتى للدين مؤثرة ؟

فأجابه وهو يرفع سبابتى يديه إلى الاعلى ثم ينزلهما إلى الاسفل مرارا : اصنع طلبة ! فالاستعمار لا يخشى من أية قوة ، ولكن يخشى هؤلاء الطلبة ذوى القامات المنتصبة .

ولقد أظهر التأريخ بجلاء أن المعاهدات الاستعمارية والامتيازات والاتفاقات المجحفة التى كانت فى صالح أعداء الاسلام وفى ضرر الشعب الايرانى المسلم ، من زمن الاستعمار الاءنجليزى ثم الامريكى ، سواء فى العهد القاجارى أم فى النظام البهلوى ، كلها قد أمضاها ومررها دعاة الثقافة من المتربين فى الغرب ، والمهندسون والاطباء المبهورون بأضواء الغرب ومباهج الكفر ؛ أو رأيتم أن واحدا منها قد نفذ على يد عالم دينى ؟!

ونفهم جيدا ؛ من هذه الامور ؛ السبب فى الخراب الذى كان يتسرب زمن الطاغوت إلى المدارس الدينية فتغلق غرفها ، أو تصبح أقساما داخلية لطلبة الجامعات ، أو مخازنا لامتعة الدكاكين المجاورة للمدرسة ، أو حتى محل للأزبال والقمامة .

لقد أسقط جمال عبد الناصر الحكم الملكى للملكين فؤاد وفاروق ، وهيمن على مصر وأخضعها لنفوذه ، فكانت باكورة أعماله أ نه بنى فى جوار الجامع الازهر كلية باسم جامعة الازهر بطراز حديث وجميل ذات طوابق متعددة ، وشجع الطلب على الانتماء إليها ، وأضاف دروس الفيزياء والكيمياء واللغة الاءنجليزية وغيرها من الدروس الحديثة إليها .

و مضافا إلى ذلك فقد سمح للطالبات بالانتماء إليها ، فجعل صفوفها مختلطة للجنسين ؛ فى حين بقى ـ فى المقابل الجامع الازهر الواسع على حاله ، إذ لم يكن فى الوسع تخريبه باعتباره بأجمعه من الآثار القديمة ، لكن عبد الناصر ببنائه جامعة الازهر (كلية الازهر) هذه قد أمات كيان جامع الازهر وجعله مجرد أثر من الآثار القديمة .

فلقد استخدموا منصة الخطابة فى هذه الجامعة الحديثة بدلامن المنبر ، وكان لديهم صالات وقاعات دراسية مجهزة حديثة بدل المسقفات الدراسية ؛ وكان هذا ما يتمناه الاستعمار ويسعى إليه ، وهذا هو الاسلوب المقبول والمرضى لديه ، فلقد أزيح القرآن جانبا وفق هذه الخطة بشكل واضح وعلنى ، وحلت الفيزياء والكيمياء واللغة الاءنجليزية محل بعض الدروس التفسيرية والحديثية .

لقد وضع غلادستون رئيس وزراء بريطانيا الانجليزى اليهودى ذو النزعة الصهيونية ، الذى بعث الروح فى الاستعمار الانجليزى ، القرآن بقوة على منصة الخطابة فى مجلس الاعيان فى غضب ، وقال : ما دام هذا القرآن موجودا فى أيدى المسلمين فلن يستطيع الاستعمار الانجليزى السيطرة على البلاد الاسلامية ، ولا أن يكون نفسه فى أمان . [١]

١ ـ نقل فى كتاب « نهضت هاى اسلامى در صد سالة أخير» (= الحركات الاسلامية

فالقضاء على القرآن ليس بإحراقه أو إغراقه ، ولم يفعل ذلك الانجليز وتحاشوه ، بل بعزله عن التأثير بعدم تعلمه وتعليمه ، وإهمال تلاوته ، وعدم الرجوع إلى تفسيره ، وترك العمل بأحكامه ، ولقد وفقوا فى هذا العمل أيما توفيق ، وأزاحوا القرآن خارجا عن ساحة العمل والتأثير .

فإذا ما شاهدنا اليوم أن هناك فى الحوزات ـ مثلا قدرا من الاغراق الزائد فى دراسة أبحاث الاصول ، فينبغى أن نستبدل بعض ذلك بدرس التفسير ، ودرس « نهج البلاغة » ، ودرس المعارف العالية بشكل رسمى منتظم ، لا أن نستبدله بعلوم الحياة والطبيعة واللغة الاجنبية ؛ إذ إن علينا أن نكون متمرسين فى العربية للحد الذى تصبح فيه كأ نها لغتنا الام ؛ وعلى هذا فكم هو جميل أن نضع درسا للبحث والتدقيق فى لغات القرآن و « نهج البلاغة » ، ونخرج القرآن إلى حيز العمل ، فهذه هى الطريقة المثلى للرقى والتكامل .

وإل نكون قد فعلنا كما فعل عبد الناصر حين بنى جامعة الازهر ، وبدأ تدريس الطلبة الفيزياء والكيمياء فى صفوف مختلطة ، وهو بعينه ما كان يطمح

فى القرن الاخير) ص ٣٠ ، عن كتاب «سيرى در انديشه سياسى عرب» (= جولة فى النظريات السياسية العربية) للدكتور حميد عنايت ، قوله : يرى الاوروبيون أن المعتقدات الدينية هى أوثق الروابط بين المسلمين ، وقد سعوا باسم الانفتاح ومحاربة التعصب إلى تحطيم هذه الرابطة ، لكنهم أكثر من غيرهم ابتلاء بالتعصب الدينى ، فقد كان غلادستون ترجمة حية لبطرس الراهب ، أى صورة مكررة للحروب الصليبية ـ انتهى .

ثم يقول بعد هذا الموضوع : ولقد ظهرت الرؤية الواقعية للافغانى (جمال الدين الاسدآبادى) واضحة للعيان بعد نصف قرن ، فحين احتل الجيش الاءسرائيلى بقيادة ضابط أوروبى مدينة القدس فى الحرب الاولى بين العرب واليهود وسلمها لليهود وتشكلت دولة إسرائيل الصهيونية ، عندها قال : الآن انتهت الحروب الصليبية !

إليه غلادستون ، ولو كنا عنه غافلين .

وأما المطلب الثالث وهو : ماذا تنتظر الحوزة العلمية من الخريجين والمجتهدين والاساتذة والقائمين على إدارتها ؟ وما الذى ينبغى أن يكون عليه نهجهم ومستواهم العلمى والعملى ، ليمكنهم النهوض بأعباء هذه المسؤولية الخطيرة ؟

والجواب على هذا السؤال يسير غير عسير ، لان انتظار الناس من بائع الخضر أن لا يعرض الخضر التالفة الفاسدة للبيع ، وأن يأتيهم بها طرية سالمة ؛ وتوقعهم من الشرطة أن تعين لحفظ أعراض الناس وأموالهم الحراس النشطين المتدينين الواعين ... وهكذا .

فهم يتوقعون كذلك من الحوزة التى تمثل الروحانيات والمعنويات والحافظة لحياة وأعراض وأموال الناس وكرامتهم ، ودينهم ودنياهم ، فى بلد مسلم ينهل شعبه من معين مدرسة التشيع ؛ أن تخرج طلبا لائقين نزيهين ينعكس فى سيمائهم مظهر القرآن وعلائم روح رسول الله ، وتتلألأ وجوههم من إشراق أنوار أئمة الهدى ، طلبة يمكنهم فى زمن الغيبة هذا ، حيث حرم عامة الناس من الاتصال بإمام زمانهم المعصوم ، أن يعملوا فى حدودهم بذلك النهج ويقدمونه للناس ؛ طلبة قادرين على أن يبينوا للناس المعارف الحقيقية الاءلهية ، وأن يكونوا مربيهم وقادتهم فى الاخلاق والعمل فى طريق الوصول إلى قمة التوحيد وأعلى ذروة كمال الشخصية الاءنسانية ؛ طلبة يمكنهم إدارة دين الناس ودنياهم ، ليس فقط من الناحية الظاهرية ، بل بفهمهم لوجهة نظر الولاية الباطنية وإرشادهم الناس على ضوء هديها .

ينتظر الناس أن تقدم لهم الحوزة أناسا يمكنهم فهم العلم الذى وصفه رسول الله بأنه : آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة على

النحو الاحسن والاكمل ، ثم يقومون فى المرتبة الثانية بتوسيع شعاع وجودهم فيقودوا معظم الطبقات من أتباعهم ، بعيدا عن الغش والغل ، فى موكب تلفه السعادة والظفر والعافية والنصر ، ضاحكين مستبشرين ، إلى الجنة التى وعد المتقون ؛ فيكونوا قد عمروا دنياهم وآخرتهم .

وينتظر الناس أن يكون هؤلاء أمينين مأمونين ، مضحين متفانين ، متجردين عن العلائق مع غير الله عز وجل ، يلفهم سكون حرم العز والوقار ، وينهض بهم النظر الثاقب والهمة العالية ، شكورين صابرين ، قانعين متواضعين ، شجعان سمحاء ، طووا مراحل العلم ومدارجه من فقه وأصول وحكمة وفلسفة وتفسير وحديث وتأريخ وغيرها ، وتتلمذوا زمنا فى المعارج العملية والعرفان الاءلهى على يد أستاذ موحد فاهم واصل كامل ، وتربوا السنين الطوال فى رعايته ، فجمعوا بين الحكمة النظرية والعرفان العملى ، وصاروا فى الفقه خبيرين بصيرين ، واطلعوا الاطلاع التام على سيرة رسول الله ونهج أئمة الدين ، وفهموا كتاب الله وقرآنه الكريم ، وعرفوا شأن نزول آياته وتفسيرها ، وحفظوا كل آياته أو معظمها .

أفيجوز لمن يعتبر نفسه إماما فى دين الله ودليلا على الطريق إليه ، أن يكون فاقدا لمعرفة الله ، فيقول إن المعرفة إنما هى المعرفة الاجمالية بأن الله واحد وكفى ! فما تلك ال معرفة العجائز .

إن إمامنا الصادق عليه السلام لم يقل هكذا ؛فقد ورد فى «الوافى» عن «الكافى» عن محمد بن سالم بن أبى سلمة ، عن أحمد بن ريان ، عن أبيه ، عن جميل بن دراج ، عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام ، قال :

لو يعلم الناس ما فى فضل معرفة الله تعالى ، ما مدوا أعينهم إلى ما متع به الاعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها ، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤونه بأرجلهم ، ولنعموا بمعرفة الله تعالى ، وتلذذوا بها تلذذ من

لم يزل فى روضات الجنان مع أولياء الله .

إن معرفة الله أنس من كل وحشة ؛ وصاحب من كل وحدة ؛ ونور من كل ظلمة ؛ وقوة من كل ضعف ، وشفاء من كل سقم .

ثم قال :

قد كان قبلكم قوم يقتلون ، ويحرقون ، وينشرون بالمناشير ، وتضيق عليهم الارض برحبها ، فما يردهم عما هم عليه شيء مما هم فيه ، من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ، ول أذى مما نقموا منهم إل أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد .

فسلوا ربكم درجاتهم ! واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم ! [١]

ونلحظ فى هذه الرواية كيف يبين الاءمام عليه السلام همة وثبات العرفاء بالله ، وكيف يدعو تلاميذه إلى الاستقامة والصبر حفاظا على العلم والاءيمان ومعرفة الله .

هؤلاء هم الذين تعاقبوا فى الازمنة السالفة ، وكانوا بطلوع وإشراق أنوار الحق وصفاته فى قلوبهم حفظة لدين الله وشريعته ، وحماة لقرآنه وكتابه .

خلق را چون آب دان صاف و زلال
اندر او تابان صفات ذو الجلال
علمشان و عدلشان و لطفشان
چون ستارة چرخ در آب روان [٢]

١ ـ «الوافى» ج ١ ، ص ٤٢ و ٤٣ ، الطبعة الحجرية .

٢ ـ ديوان «مثنوى معنوى» للمل الرومى ج ٦ ، ص ٦٠٧ ، السطر ٢٢ ، و ص ٦٠٨ ، يقول : «الخلق أشبه بقطرات ماء صاف زلال ، تشع داخلها صفات الرب ذى الجلال .

قـرنها بگذشـت و اين قـرن نـويست
مـاه آن ماهست و آب آن آب نيست
عـدل آن عدلست و فضل آن فضل هم
ليك مسـتبدل شـد آن قـرن و امـم
قـرنهـا بر قـرنهـا رفـت اى همـام
ويـن معـانى بـر قـرار و بـردوام
آب مبـدل شـد در اين جـو چنـد بـار
عـكس آن خـورشـيد دائـم بـرقـرار
جهـان مـرآت حسـن شـاهـد مـاست
فشـاهـد وجهـه فـى كـل مـرءات[1]

واليوم سيل طلبة العلوم الدينية يتدفق على الحوزات العلمية من كل صوب وحدب ، فإنهم ينبغى أن يحسوا فى قرارة أنفسهم وأعماق وجودهم أن العلوم الدينية إن اتخذت وسيلة للعيش ونظر إليها كثروة دنيوية فقط ، فإنها لن تختلف عن سائر الحرف والفنون ، ولابد من اتخاذها طريقا إلى الله وعرفانه وللكشف عن سر عالم الكون ونيل العلوم الحقة .

فعلمه ولطفه وعدله تبرق كنجوم السماء فى الماء المنساب .

١- يقول : « وتمر القرون ، ويأتى قرن جديد ، ويبقى القمر نفسه ذاك القمر ، لكن الماء لم يعد ذلك الماء .

ولم يزل العدل هو ذلك العدل ، وكذا الفضل هو ذاك الفضل .

لكن القرون والامم قد استبدلت ، ولقد تعاقبت القرون أيها الهمام ، وهذه المعانى راسخة لا تتغير .

وتبدل الماء فى هذه الساقية مرات ومرات ، لكن الشمس ظلت تسطع عليه دوما .

وهذا العالم كالمرآة خير شاهد لمدعانا ، فشاهد وجهه فى كل مرآة» .

قال مولانا فی الدفتر الثانی من « المثنوی » :

هر کجـا دردی دوا آنجـا رود هر کجا فقـری نـوا آنجا رود
هرکجا مشکل جواب‌آنجا رود هرکجاپستی‌استآب‌آنجا رود
آب کم جوتشنگی آوربدست تا بجوشد آبت از بالا وپست
تا سقاهم ربـهم آید خطاب تشنه‌باشدالله أعلم بالصواب[1]

وقال أیضا فی الدفتر الثالث مع تکرار الابیات الثلاثة الاولی :

هرچه روئید ازپی محتاج رست تابیابد طالبی چیزی که جست
حـق تعالی کاین سماوات آفرید از بـرای رفـع حاجات آفرید
هر که جویا شـد بیـابد عاقبت مایه‌اش‌درداست‌واصل مرحمت
هـر کجـا دردی دوا آنجـا رود هـر کجـا فقـری نوا آنجا رود
هر کجا مشکل جواب آنجا رود هر کجاپستی‌است آب‌آنجا رود
آب کم جو تشنگی آور بدست تا بجوشد آبت از بالا وپست[2]

---

١ ـ «دیوان مثنوی» ج ٢ ، ص ١٥٣ ، السطران ٩ و ١٠ .
یقول : «حیثما کان الداء کان الدواء ، وحیثما کان الفقر کان الغنی والثراء .
وأینما کان السؤال لحقه الجواب ، وحیثما انخفضت الارض انساب إلیها الماء .
فأقل من طلب الماء لیهزك العطش ، فتفور میاهك من الاعالی والمنحدرات .
فکن عطشا حتی یأتی خطاب «سقاهم ربهم» ، لان الباری الحکیم أعلم بالصواب» .
٢ ـ «دیوان مثنوی» ج ٣ ، ص ٢٨٣ ، الاسطر ٦ إلی ٩ .
یقول : «کلما نما فی الارض فلاجل المحتاج المفتقر ، کی یجد طالب ما ابتغی .
فلقد خلق الحق تعالی هذه السماوات والارضین لرفع حاجات عباده .
فمن جد فی البحث وجد ، وهو أمر ظاهره الالم وباطنه الرحمة .
فحیثما کان الداء کان الدواء ، وحیثما کان الفقر کان الغنی والثراء .
وأینما کان السؤال لحقه الجواب ، وحیثما انخفضت الارض انساب إلیها الماء .
فأقل من طلب الماء لیهزك العطش ، فتفور میاهك من الاعالی والمنحدرات» .

وكم هو جميـل ومعـبر تعبـير السـنائی الحكيـم عليـه الرحمـة والرضـوان حين صاغ هذاالواقع فی قالب النظم :

دل آنكـس كه گشـت بر تن شاه
بـود آسـوده مـلك ازو وسـپاه
بـد بـود تـن چـه دل تبـاه بـود
ظلـم لشـكر ز ضـعف شـاه بـود
اين‌چنين پرخلل دلی كه‌تو راست
دد وديـوند با تـو زين دل راست
پـاره گوشـت نـام دل كـردی
دل تحقيـق را بجـل كـردی
اينـكه دل نـام كـرده‌ای به مجاز
رو به پيـش سـگان كـوی انـداز
از تن ونفـس وعقل وجان بگذر
در ره او دلی بـدسـت آور
آنچـنان دل كه وقـت پيچـاپيـچ
انـدرو جـز خـدا نيـابی هيـچ[1]

---

١ ـ «سفينة البحار» ج ٢ ، ص ٤٤١ . يقـول : « إن مـن صـار قلبـه ملكـا علـى بدنـه ، صـارت الملكة والجيش منه فی راحة وأمان .
وإن فسد القلب فسد معه البدن ، وإن ظلم الجيش عائد إلى ضعف الملك .
لكن قلبك يا صاح ملیء بالضعف والوهن ، فصار الوحش والشيطان شريكيك فيه .
أتسمى مضغة لحم قلبا ؟ لقد فقدت إذا القلب الحقيقی .
وعليك أن تذهب فتلقی إلى كلاب الحارة ما سميته مجازا بالقلب !
وتخط البدن والنفس والعقل والروح ، واكتسب فی سبيله (هو) قلبا .

ولهذا الامر فقد عدت أحاديث كثيرة العلم منحصرا بالعلم الحقيقى المستقر فى القلب والملازم للعمل .

وجاء فى « مصباح الشريعة » قال الصادق عليه السلم : لا يحل الفتيا لمن لا يستفتى من الله عز وجل بصفاء سره ؛ وإخلص عمله ؛ وعلانيته ؛ وبرهان من ربه فى كل حال . لن من أفتى فقد حكم ؛ والحكم لا يصح إلا بإذن من الله وبرهانه . ومن حكم بخبر (بالخبر ـ خ ل) بل معاينة فهو جاهل مأخوذ بجهله ، ومأثوم بحكمه .

قال النبى صلى الله عليه وآله : أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على الله عز وجل .

أول يعلم المفتى أنه هو الذى يدخل بين الله تعالى وبين عباده ، وهو الجائز (الحائر ـ خ ل) بين الجنة والنار [1] .

قلبا لا تجد فيه عند الشدائد والمنعطفات سوى الله تعالى» .

١ ـ «مصباح الشريعة» ص ٤١ و ٤٢ ، الباب ٦٣ من طبعة نشر كتاب مصطفوى ؛ وج ٢ ، ص ٦٧ إلى ٧١ ، وبرقم تسلسل ص ٣٥١ إلى ٣٥٥ من الشرح الفارسى لـ «مصباح الشريعة» للمل عبد الرزاق الگيلانى (الجيلانى) ، وتصحيح المحدث الارموى . و«بحار الانوار» ج ١ ، ص ١٠١ ، باب النهى عن القول بغير علم ، طبعة الكمبانى . و«مستدرك الوسائل» ج ٣ ، ص ١٩٤ ، باب ما يتعلق بأبواب صفات القاضى وما يجوز أن يقضى به ، الطبعة الحجرية ، و«المحجة البيضاء» ج ١ ، ص ١٤٧ و ١٤٨ .

وقال سفيان بن عيينة : كيف ينتفع بعلمى غيرى وأنا قد حرمت نفسى ؟ ولا تحل الفتيا فى الحلل والحرام بين الخلق إلا لمن اتبع الحق من أهل زمانه وناحيته وبلده بالنبى صلى الله عليه وآله (إلا لمن كان أتبع الخلق من أهل بالحق ـ خ ل) وعرف ما يصلح من فتياه ؛ قال النبى صلى الله عليه وآله : وذلك لربما ولعل ولعسى ، لن الفتيا عظيمة . قال أمير المؤمنين على عليه السلم لقاض : هل تعرف الناسخ من المنسوخ ؟! قال : لا ! قال : فهل أشرفت على مراد الله عز وجل فى أمثال القرآن ؟ قال : لا ! قال : إذا هلكت وأهلكت .

إن فقهاء كهؤلاء يجمعون بين علم الظاهر والباطن ، وبين العلم والعمل ، هم الذين ينبغى أن يعلموا وينشئوا الطلبة والحوزات ، فهم يكتسبون العلم الحقيقى من جانب الرب تعالى فيعكسونه على المتعلمين ؛ وهم القائمون ليلا فى محراب العبادة ، والصافون الاقدام فى

والمفتى يحتاج إلى معرفة معانى القرآن وحقائق السنن ومواطن (بواطن ـ خ ل) الاشارات والآداب والاءجماع والاختلف ، والاطلع على أصول ما اجتمعوا عليه وما اختلفوا فيه ، ثم إلى حسن الاختيار ، ثم إلى العمل الصالح ، ثم الحكمة ، ثم التقوى ، ثم حينئذ إن قدر !

يقول محيى الدين بن عربى فى «الفتوحات المكية» ج ٣ ، ص ٦٩ ، الباب ٣١٨ : فما ثم شارع إل الله تعالى . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه] وآله [وسلم : «لتحكم بين الناس بمآ أريك الله» ، ولم يقل بما رأيت ، بل عتبه الله سبحانه وتعالى لما حرم على نفسه باليمين فى قضية عائشة وحفصة ، فقال تعالى : «يـا´أيها النبى لم تحرم مآ أحل الله لك تبتغى مرضات أزوجك» . فكان هذا مما أرته نفسه ، فهذا يدلك أن قوله تعالى : «بمآ أرىـ'ك الله» أ نه ما يوحى به إليه لا ما يراه فى رأيه ، فلو كان الدين بالرأى لكان رأى النبى صلى الله عليه [وآله] وسلم أولى من رأى كل ذى رأى ؛ فإذا كان هذا حال النبى صلى الله عليه [وآله] وسلم فيما أرته نفسه ، فكيف رأى من ليس بمعصوم ؟ ومن الخطأ أقرب إليه من الاصابة . فدل أن الاجتهاد الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه] وآله [وسلم إنما هو طلب الدليل على تعيين الحكم فى المسألة الواقعة ل فى تشريع حكم فى النازلة ، فإن ذلك شرع لم يأذن به الله إلى آخر بحثه فى هذا الباب .

وقد نقل الملا السيد صالح المولوى الخلخالى التلميذ المبرز للميرزا السيد أبى الحسين جلوه الاصفهانى الذى شرح «المناقب» المنسوب إلى محيى الدين فى صفحة ٢٩ ، عين عبارات محيى الدين هذه عن المحدث النيشابورى ، وذكر نقل باب آخر فى «الفتوحات» : لا يجوز أن يدان الله بالرأى وهو القول بغير حجة وبرهان من كتاب ولا سنة ولا إجماع . وأما القياس فلا أقول به ولا أقلد فيه جملة واحدة ، فما أوجب الله علينا الاخذ بقول أحد غير رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم . ثم أورد شرحا على دلالة هذا المرام على تشيعه .

الدعاء والتضرع والتعظيم لمقام الرب المعبود ، قلوبهم مجذوبة للجذوات الالهية والسبحات الربانية ، فهم يفيضون نهارا ما اكتسبوه فى المحراب ليلا ، ويسبحون فى هذا العالم الواسع ويفيضون فيوضاتهم إلى العالم :

إن ناشئة اليل هى أشد وطا وأقوم قيل * إن لك فى النهار سبحا طويل . [١]

هذا السبح الذى تمنح فيه وتنفق وتفيض مما منحته ليلا فى محراب عبادتك .

لذا فإن الاجتهاد القائم على القواعد فقط هو اجتهاد شكلى ليس إلا ، واجتهاد كهذا أشبه بالميزاب منه بماء الحياة ، فلو فرض أن جرى فيه الماء وانساب ، واتفق مطابقة الحكم للواقع ، فإنه لن يكون إلا وعاء ووسيلة لعبور ماء الحياة وتدفقه ؛ ولو قدر لا سمح الله أن كسر هذا الميزاب أو أصابه العيب والخلل ، لادى ذلك إلى أضرار ومفاسد لا تحصى . يقول مولانا فى الدفتر الخامس للـ « مثنوى » :

علم‌چون درنورحق پرورده شد پس زعلمت نور يابد قوم لد
هرچه گوئى باشد آنهم نور پاك كاسمان هرگزنباردسنگ وخاك
آسمان شو ابر شو باران ببار ناودان بارش كند نبود بكار
آب اندر ناودان عاريتى است آب أندر ابرودريا فطرتى‌است [٢]

---

١ ـ الآيتان ٦ و ٧ : من السورة ٧٣ : المزمل .

٢ ـ «ديوان مثنوى» للملل جلال الدين الرومى ، ج ٥ ، ص ٤٨٥ ، الاسطر ٢ إلى ٤ . طبعة ميرخانى . يقول : «لو ترعرع علمك فى نور الحق ، فسيجد حتى أعداؤك النور والهدى فيه .
فمهما نطقت كان نورا منزها ، لان السماء لا تمطر ترابا وحجارة أبدا .
كن سماء وغيما فأمطر ما وسعك ، ولا تكن كالميزاب لا ينتفع بمائه المنهمر .
لان الماء المنسكب من الميزاب عارية زائلة ، وماء الغيوم والبحر فطرة أصيلة .

فکر و اندیشه است مثل ناودان وحی مکشوفست ابر و آسمان
آب باران ، باغ صد رنگ آورد ناودان همسایه درجنگ آورد[1]

ویقول کذلك فی الدفتر الثانی :

علـم تقلیـدی بـود بهـر فروخت
چون بیابدمشتری‌خوش‌برفروخت
مشـتری علـم تحقیقـی حق است
دائمـا بـازار او با رونـق اسـت
لب ببسـته مسـت در بیع و شری
مشـتری بیحـد کـه اللـه اشـتری
درس آدم را فرشته مشتری
محرم درسـش نه دیـو است وپری
آدم أنبئهم بأسما درس گو
شرح کن أسرار حق را مو به مو[2]

وقـد وردت روایـة عجیبـة عـن الصـادق علیـه السـلام تـوجـب الحـذر

١- کذاك العلم والفکر شأنهما کالمیزاب ، والوحی إنما هو کالغیم والسماء .
فـانظر لمـاء المطـر کیـف اینعـت منـه الروضـة ألوانـا زاهیـة ، وانظـر لمـاء المـیزاب کیـف تنـازع بشأنه الجیران» .

٢ ـ «دیوان مثنوی» ج ٢ ، ص ١٨٥ ، السطران ٢٢ و ٢٣ .
یقول : «العلم إن کان تقلیدیا کان جاهزا للبیع ، إن صادف مشتر جید بیع .
لکن العلم الحقیقی له مشتر هو الحق ، لذا کان سوقه زاهیا کل آن .
تراهم سکوتا سکری فی البیع والشراء ، إذ المشتری لا حصر له ، إذ اللـه اشتری .
وکانـت الملائـکة طلبـا لـدرس آدم مشـترین ، وکـان درسـه سـرا محـرما علـی الجـن والملائکة .
یا آدم علمهم الدرس «آدم انبئهم بأسمائهم» ، واشرح لهم تفصیل أسرار الحق» .

والتيقظ حقا :

فى «الوافى» عن «الكافى» ، عن محمد ، عن ابن عيسى ، عن ابن فضال ، عن على بن عقبة ، عن عمر ، عن أبى عبد الله عليه السلام ، قال الراوى :

قال لنا ذات يوم : تجد الرجل لا يخطى بلم ولا واو خطيبا مسقعا [١] ولقلبه أشد ظلمة من الليل المظلم ، وتجد الرجل لا يستطيع تعبيرا عما فى قلبه بلسانه وقلبه يزهر كما يزهر المصباح . [٢]

روى فى « أصول الكافى » ج ٢ ، ص ٢١٤ بإسناده عن ابن أذينة ، عن الامام جعفر الصادق عليه السلام قال :

إن الله عز وجل خلق قوما للحق فإذا مر بهم الباب من الحق قبلته قلوبهم وإن كانوا لا يعرفونه ؛ وإذا مر بهم الباب من الباطل أنكرته قلوبهم وإن كانوا لا يعرفونه . وخلق قوما لغير ذلك فإذا مر بهم الباب من الحق أنكرته قلوبهم وإن كانوا لا يعرفونه ؛ وإذا مر بهم الباب من الباطل قبلته قلوبهم وإن كانوا لا يعرفونه .

ولقد كان المرحوم صدر المتأ لهين قدس الله سره يئن ويتأ لم من أفراد كهؤلاء ، من الانانيين وعبدة الدنيا وطلب الرئاسة ، فيقول :

والعجب أ نه مع البلء كله والداع جله تمنى نفسه العثور وتدليه بحبل الغرور أن فيما يفعله مريد وجه الله ؛ ومذيع شرع رسول الله ؛

---

١ ـ قال المحقق الفيض : المسقع صحيح بالسين والصاد أيضا ، ومعناه البليغ أو من كان صوته جهوريا، أو الخطيب المفوه الذى يتكلم باستمرار ، فلا يعترى كلامه لكنة أو رجفة .

٢ ـ «الوافى» ج ١ من الطبعة الحجرية ، الجزء الثالث ، ص ٥١ باب أصناف القلوب تنقل أحوال القلب .

وناشر علم دين الله ؛ والقائم بكفاية طلب العلم من عباد الله .

ولو لم يكن ضحكة للشيطان وسخرة لعوان السلطان ؛ لعلم بأدنى تأمل أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء المحدثين المحدثين فى هذه الاوان ، الذين يأكلون ما يجدون من الحلل والحرام .

ويفسدون عقائد العوام باستجرائهم على المعاصى اقتداء بهم واقتفاء لـ ُثارهم ، فنعوذ بالله من الغرور والعمى فإنه الداء الذى ليس له دواء . [1]

وقد برهنت فى مباحث الاجتهاد والتقليد على أن من الشروط الحتمية للافتاء والحكم ، العدول عن الجزئية والارتباط والتعلق بالكلية ، وأن هذا الشرط لا يتحقق إلا بتخطى عالم النفس ومعرفة حضرة الرب تعالى . وقد أوردت فى بحث ضمنى مسألة ولاية الفقيه بشكل مجمل فى كتاب « الرسالة البديعة فى تفسير آية : الرجال قو مون على النسآء » ؛ وهذا المعنى مشهود فى حديث « نهج البلاغة » وخطاب أمير المؤمنين عليه السلام لكميل ، وفى رسالته عليه السلام إلى مالك الاشتر وشواهد أخرى جرى ذكرها هناك ؛ لكن البحث المفصل عن هذه المسألة يحتاج إلى كتاب مستقل فى الاجتهاد والتقليد ، وشروط المفتى والحاكم ، وهو منوط بمجال أوسع وتوفيق أكثر واستعانة بحول الخالق المتعال وقوته . [2]

---

١ ـ «الواردات القلبية فى معرفة الربوبية» ص ٢٥٨ ، الفيض الثالث والعشرون ، الطبعة الحجرية ، المطبوع فى جزء واحد مع سبع رسائل أخرى لصدر المتألهين ورسالة أخرى للسيد صدر الدين الشيرازى . وقد صحح الدكتور أحمد شفيعيها هذه الرسالة وطبعها مستقلة ، حيث ورد هذا القول فى ص ٨٨ ، الفيض الثالث والعشرون .

٢ ـ وقد تم بحمد الله بعد تأليف هذا الكتاب تدوين بحوث تحت عنوان «ولايت فقيه در حكومت اسلام » (= ولاية الفقيه فى حكومة الاسلام » فى أربعة أجزاء ، ضمت بحثا

له الحمد فى الولى' والخرة وله الحكم وإليه ترجعون .[١]

وللخواجة حافظ الشيرازى غزل فى هذا المقام يحوى عالما من لطائف الاشارات :

مرابه رندى و عشق آن فضول عيب كند
كه اعتراض بر اسرار علم غيب كند
كمال سر محبت ببين نه نقص گناه
كه هركه بى هنر افتد نظر به عيب كند
ز عطر حور بهشت آن نفس برآيد بوى
كه خاك ميكدة ما عبير جيب كند
چنان بزد ره اسلام غمزة ساقى
كه اجتناب ز صهبا مگر صهيب كند

تفصيليا عن شرائط تحقق ولاية الفقيه فى زمن غيبة إمام العصر عجل الله فرجه الشريف ، وحدودها وثغور أوامرها ، وعن دورها فى المجتمع الاءسلامى ، والتزام المسلمين تجاه تنفيذ نوايا حاكم الشرع).

١ ـ الآية ٧٠ ، من السورة ٢٨ ، القصص

٢ ـ «ديوان الخواجة حافظ الشيرازى » ص ٥٧ ، الغزل رقم ١٢٥ ، طبعة پژمان .

يقول : «يعيب ذاك الفضولى على جرأتى وعشقى ، معترضا بذاك على أسرار علم الغيوب .

فانظر ، فليس كمال سر المحبة هو النقص من الذنوب ، فمن شيم من لا فضل له تقصى العيوب .

وهناك عبير ذكى يفوح من عطر الحور فى الفراديس ، لا نها تعطر جيب ردائها بتراب حانتنا النفيس .

وغمزات الساقى تنهال على طريق الاءسلام ، فلا يستطيع «صهيب» ـ أحد الصحابة أن يتجنب الصهباء والشراب .

كليد گنج سعادت قبول اهل دلست
مبادكس كه در اين نكته شك و ريب كند
شبان وادى أيمن گهى رسد به مراد
كه چند سال به جان خدمت شعيب كند
زديده خون بچكاند فسانة حافظ
چون ياد وقت و زمان شباب وشيبكند[1]

والاشكال الرابع لصاحب مقالة « بسط وقبض تئوريك شريعت » (=بسط وقبض نظرية الشريعة)، أى نظرية تكامل المعرفة الدينية، هو أنه قد اعتبر ضعف اهتمام الناس بالدين و توجههم نحوه بعد النهضة الدستورية ناشى من ضعف الاقتصاد المدون والفقه والحكمة، التى تراجعت أمام هجوم سيل الثقافة الغربية ، ولم يكن لدى العلماء والفلاسفة وكتبهم شيئا مهما يعتنى به، لذا فقد دهش الناس لتلك المدنية وتبعوها مبهورين مسحورين ؛ ويقول:

إن علينا أن لا نبتعد عن الإنصاف فنعترف أن جمعا من المثقفين الجدد من دعاة الانفتاح، الذين كانت لهم فى تأريخنا المعاصر آراؤهم القاسية بالنسبة للدين، لم يكن ذلك عداء منهم له وحقدا منهم عليه ؛ ولكن السبب يكمن فى صورة الدين التى عرضت عليهم والتى افتقدت الملاحة والجمال والجاذبية .

١- يقول : « وقبول أهل القلوب هو مفتاح السعادة ، فلا تجعل الحبيب يا رب فى شك وريبة من هذه النكتة المعادة .
فلربما نال راعى الوادى الايمن مراده بعد ما يقدم على خدمة شعيب سنينا بفؤاده .
وحكاية حافظ تجعل الدم يقطر من العيون ـ حينما يتذكر زمان الشباب ووقت المشيب»

ففى أوان النهضة الدستورية تدفق سيل المعارف الغربية فى ديارنا، وملات فلسفتهم وعلومهم وحقوقهم وسياستهم أذهان الشباب والمتلهفين، وكانت الدهشة المهيبة والحيرة تلف الجميع، والانهزام النفسى والاستسلام والخضوع يلقن للنفوس؛ وكان هيكل الفكر الدينى فى ذلك الوقت مبتلى بالمحن والامراض الكثيرة، ولم يكن ليمتلك إلا عدة آداب فقهية، فبأى شيء ـ يا ترى ـ كان يمكنه اجتذاب قلوب العقلاء والاذكياء نحوه؟ لا اقتصاد مدون له، ولا سياسة مدونة، ولا حكمة بإمكانها وضع الحلول للمشاكل ، ولا تحقيق نافع مجد .

فكيف نتوقع من المشتغلين بالحكمة والآداب أن يعرضوا عن الافكار المنمقة التى خلط فيها الإفرنج حقا وباطلا، وأن يتمسكوا بعدة من الآراء المضطربة غير المتسقة، وبالادب الصارم الجاف ؟

لم تكن تلك مؤامرة تأريخية، ولا مقتضى وجود موهوم اسمه الغرب ، بل كانت نتيجة حتمية لمواجهة الاقوياء المقتدرين مع الضعفاء العاجزين .[1]

والإجابة على هذا القول هى عين المطلب الذى أورده المهندس مهدى بازركان فى كتاب « راه طى شده » (= الطريق المطوى) ، فقد قال:

وهناك مطلب يرد فى هامش البحث الاصلى ويشكل بنفسه موضوعا يستحق المطالعة والتأمل على حدة؛ وهو تأثير خصائص المذهب المسيحى فى أسلوب تفكير وطريقة انتقاد المعاصرين من مخالفى المذاهب.

وبالطبع فإن أغلب ما ينشر فى بلدنا ضد الفكر الدينى مما يمتلك

١ـ مقاله « بسط وقبض تئوريك شريعت » (= بسط وقبض نظرية الشريعة) العدد ٥٠ ، أرديبهشت ماه(الثانى الشهور الإيرانية» ١٣٦٧ هـ ش . رقم ٢، ص ١٧، العمود الثانى .

وجهة علمية، فإنما هو ترجمة مباشرة أو اقتباس غير مباشر من كتابات ومقالات الاوروبيين . فلوتأملتم بعناية فى هذه الانتقادات للاحظتم أ نها تهاجم صراحة أو تلميحا الديانة المسيحية ورجال الدين المسيحيين ، وأ نها لا تتعدى ذلك ، فبعض هؤلاء المنتقدين لا يمتلك أى معلومات عن الإسلام ، أو أ نه يتجنب إقحامه فى هجومه وانتقاده ، والبعض الآخر لم يتناوله بالنقد إلا قليلا، بالشكل الذى تبقى فيه هذه الانتقادات والمطالعات ناقصة تماما وغير مجدية من وجهة نظر التحقيق الكامل .

ولكننا ـ بخلافهم ـ نعتبر عيسى عليه السلام وتعاليمه مبعوثين من جانب الله عز وجل ، وأن رسولنا كان **مصدقا لما بين يديه من التوراة والآنجيل** ؛ [1] ولكن باعتبار تدرج الاديان وفق السير التكاملى للبشرية ، فإن على البشر كذلك أن يتابعوا السير التكاملى للانبياء عليهم السلام .

كما أن كثيرا من الانتقادات التى يوجهها المنتقدون إلى الاديان قد استندت إلى التحريفات التى تسربت إلى الديانة المسيحية بمرور الزمن ، ولفقدان النسخة الاصلية للإنجيل، أو للثغرات والنقائص فيها والتى عالجها الإسلام بالنحو الافضل والاكمل ووضع لها الحلول الناجعة .

فلو امتلك هؤلاء المخالفون للدين التعمق الكافى فى الإسلام ، والتحقيق الصحيح فى شؤونه ؛ ولو انفك الاوروبيون عن عبادة القديم وامتلكوا الانفتاح والتبصر فى الدين كما امتلكوا الانفتاح والتقدم فى باقى

١ـ الآيتان ٣ و ٤، من السورة ٣: آل عمران بهذا الشكل: **نزل عليك الكتـ'ب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوريـ'ة والانجيل * من قبل هدى للناس** . وليس لدينا فى القرآن مطلقا آية حول الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم فيها عبارة: **مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل** .

شؤون حياتهم، لصاروا مسلمين مجددين، ولتحولت الانتقادات حتما إلى شكل آخر، ولصار للدنيا وجها غير ما هى عليه اليوم .[١]

وهذا الكلام متين لا يرقى إليه الشك، فتأريخ النهضة الدستورية والوقائع التى حصلت بعدها إلى بداية الثورة الإسلامية وتشكيل الحكومة الإسلامية، مشهود أمامنا لا يلوح فيه إلا السيطرة الثقافية والعسكرية والسياسية والاقتصادية الفارغة للغرب على الإسلام. فلقد كان دعاة الثقافة والانفتاح المبهورون بالغرب هم أولئك الذين كانت لهم علاقات مباشرة بالغرب ، وهم الذين كانوا يقدحون زناد الإلحاد والابتعاد عن الدين وينفخون فى ناره لتستعر، ولقد سجل التأريخ أسماء هؤلاء وأحوالهم ونهجهم واحدا بعد واحد.

ولقد كانت الثقافة الغربية تنشر بين الناس بالقوة ، بالسياط والحراب والحبس والتعذيب والإعدام، لكن الشعب بإسلامه الفطرى لم يؤثر الغى على الهدى، فلم تتعد هذه الثقافة عن كونها ظواهر قشرية خارجية، ولقد حافظ الشعب المسلم على ديانته مع تحمله لكل أنواع الحرمان الاجتماعى ، وكان على وعى كامل بدسائس وشيطنة وخيانة دعاة الانفتاح العملاء هؤلاء، مدركا لطرق نفوذ تلك الثقافة التى لم تكن لتضم غير الالفاظ الفارغة الخاوية ؛ ولقد انجرت تلك الحركات و ما أقدموا عليه إلى الخسائر والموت ، واتضح بحمد الله قيام أساس السياسة الاجنبية على المكر والحيلة والكذب والبهتان ، وعلى استحلال إتلاف النفوس البريئة ، و استمداد رونقها و ازدهارها من الأمور سالفة الذكر .

١- كتاب « راه طى شده» (= الطريق المطوى) هامش ص ٢٩ و ٣٠ ، الطبعة الاولى ، سنة ١٣٢٧ شمسية .

ولقد كان لدينا فى بداية النهضة الدستورية اقتصاد متين يستند إلى فقه ومكاسب الشيخ مرتضى الانصارى بدورته الكاملة فى المعاملات والشامل لادق وأعمق المسائل الاقتصادية ؛ وكان لدينا فقه متين أيضا ، فقد تشكلت الحوزات العلمية الدراسية وانتشرت الكتب الفقهية المؤلفة من قبل تلامذة الشيخ الانصارى فى النجف وسامراء، من أمثال آية الله الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازى والآخوند الملا محمد كاظم الخراسانى ، والحاج الميرزا محمد حسن النائينى وغيرهم، ولقد كان تدريس الحكمة فى الحد الاعلى على يد أساتذة كالميرزا أبى الحسن جلوة الإصفهانى ، والآقا ميرزا طاهر التنكابنى ، والحاج الميرزا محمد حسن الاشتيانى ، حيث مثل كل منهم عالما فى التحقيق ، فقد عاصروا هذه المرحلة ولازالت آثار هؤلاء العلماء العظماء موجودة الآن بين أيدينا ، ويعجز دعاة التجديد الفعليين عن فهمها وإدراك مسائلها المطروحة.

إن حقيقة الامر هى أن المتلاعبين بالسياسة من الاجانب قد عملوا بمعونة وألاعيب دعاة التجدد والانفتاح من المنبوذين والمتنكرين لوطنهم وشعبهم ، متعاضدين على فتح أبواب البلد أمام رياح الوباء الصفراء العفنة الهابة من الغرب ، لتنشر عفونتها بين الناس ، فعم الوباء والخراب ، وقضى الجميع عصرا قاتما مظلما .

وحين نقارن الآن الفقه والاقتصاد والحكمة والادب الإسلامى مع القوانين المنتزعة من فلسفتهم وأدبهم، نشاهد ضحالة وتفاهة مدرستهم جلية لكل ذى عينين .

الآشكال الخامس: هوأنه لم يفرق بين الكلام المجازى والكلام الكاذب ، فتخيل الكلام المجازى الذى ورد كثيرا فى القرآن الكريم من جنس الكذب ، ثم استعصى عليه درك بعض الآيات القرآنية ومفاهيمها

الصحيحة المتسامية؛ فقال: ينبغى إما أن لا نقبل بمجازات القرآن، أو أن نوسع من معنى عدم ورود الباطل فى القرآن وكونه فصلا ليس بالهزل إلى الحد الذى لا يتنافى فيه مع هذه المجازات، ليمكن الإيمان بقرآن يحوى مجازا ـ وكذبا فى الحقيقة ـ كهذا.

وتثير هذه العبارات العجب والاستغراب، لإنبائها بالعجز عن إدراك مطالب بسيطة وأولية دارجة بين الطلبة.

ونجد من الافضل أن نورد نص عباراته لبيان نقاط ضعفها وتزييفها ، ثم نشرع بالاءجابة عليها ؛ يقول :

ويكفى لمن يعتبر فى علم الكلام أن المجاز والكناية غير جائزة فى كلام البارى، أن يرى الآخرة مليئة بالولدان الهرمين: **يوما يجعل الولدان شيبا** ـ المزمل ؛ ويشاهد الدنيا مليئة بالجدران ذات الاءرادة : **فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض** ـ الكهف ؛ ويكفى لمن يعتبره جائزا أن لايعد وجودها فى القرآن باطلا ولا هزلا ولا لغوا ، وهى **منطقا من جنس الكذب** ، وأن يؤمن فى الوقت نفسه بمقولة: **لا يأتيه البـاطل من بين يديه، وإنه لقول فصل*** **وما هو بالهزل.** [1]

والاجابة على ذلك : أن الكذب عبارة عن الاءخبار عن شيء يخالف الواقع من دون نصب قرينة على مخالفة هذا الخبر للواقع ؛ كأن يقول شخص مثلا : جاء زيد ، فى حين لم يكن قد جاء بعد ، أو : لم يأت زيد ، فى حين كان قد أتى فعلا .

والمجاز عبارة عن استعمال لفظ فى خلاف المعنى المفهوم

١- مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت»(= بسط وقبض نظرية الشريعة) مجلة « كيهان فرهنگى » ، العدد ٥٠ ، اردیبهشت ماه ١٣٦٧، رقم ٢، ص ١٧ ، العمود الثالث .

والمعهود عرفا، مع نصب قرينة على أن هذا الاستعمال غير المعهود كان لجهة من الجهات؛ كأن يقول شخص مثلا: **رأيت أسدا منهمكا برمى السهام** ، ومقصوده من لفظ الاسد ليس الاسد المفترس والحيوان الصحراوى ، بل الرجل الشجاع الذى عبر عنه لشجاعته بالاسد، وذكر قرينة فى كلامه لهذا الاستعمال ، وهى عنوان الرمى ، فمعلوم أن الاسد الصحراوى لايرمى السهام، بل الرجل الشجاع هو الذى يفعل ذلك.

ومثل هذه الاستعمالات صحيحة جدا ، بل هى أبلغ وأفضل فى إيصال مراد المتكلم بواسطة استعمال اللفظ فى معناه الثانوى ، للعلاقة الموجودة بين المعنى المتعارف والمعنى الفعلى الاستعمالى ؛ ويقال لمثل هذا الاستعمال :

الاستعمال المجازى ؛ والعلاقة ووجه الارتباط بين المعنيين كثيرة ومتعددة ، كعلاقة الاشراف ، والتشبيه ، والاستلزام ، وسائر الانواع والعلاقات والروابط التى أوصلوها فى بعض كتب **البيان** إلى خمس وعشرين علاقة، [1] فى حين يعتقد البعض أن هذه العلاقات غير محدودة ، وأن ملاكها انتخاب واختيار المتكلم الذى استعمل على أساس ذوقه العرفى لفظا له معنى خاص من جهة الوضع اللغوى أو الوضع النقلى ، فى معنى مغاير مع حفظ هذه الرابطة ، أو مع نصب قرينة على هذا الاستعمال .

ولا يختص استعمال اللفظ المجازى بالعربية دون غيرها ، لكنه أكثر انتشارا فى اللغات التى تكون دائرة معانى مفرداتها واشتقاقاتها أكبر، وفصاحتها وبلاغتها أقوى ، كما هو فى العربية .

١ـ جرى بحث الحقيقة والمجاز بإسهاب كاف فى حاشية الشيخ جواد الطارمى على «قوانين الاصول».

ولا ترقى جميع لغات الدنيا إلى قدرة العربية فى اتساع اللغة ، ومصادر الاشتقاق ، وفى جهة لطف قريحة الكلام ، والفصاحة التامة والبلاغة الكاملة ، وقول الشعر بداهة ، وبيان المعانى الكثيرة والمطالب المحتشدة والنكات الدقيقة بأوجز عبارة وأقل بيان .

ويرجع أصل اللغات السائدة وجذورها إلى أصلين : العربية واللاتينية ، والعربية أحكمهما وأمتنهما . كما أن بيان المراد والمقصود بالرعاية الدقيقة للنكات الادبية ، من الحقائق والمجازات والتمثيلات والتشبيهات والاستعارات دليل على كمال تلك اللغة وقوتها ، وفى مقولة : **إن من البيان لسحرا** إشارة إلى هذه النكتة . ولقد نزل القرآن الكريم : الكلام الالهى المعجز، الذى يمثل المعجزة الباقية لرسول الله إلى يوم القيامة ، قد نزل بلسان العرب ، أى بأكمل وأتم وأوسع وأبلغ الالسنة واللغات ، فهو قائد قافلة البشرية بدقائقه البليغة ، ومجازاته واستعاراته .

على أن اتساع اللغة وآدابها، واستعمال المجازات والاستعارات المختلفة[1] توجب اتساع الفهم وحدة الذكاء ونمو الذهن ، فما يشاهد فى

١- الاستعارة هى فى الحقيقة مجاز، والفرق بينها وبين التشبيه، وجوب ذكر أدوات التشبيه فى التشبيه ، مثل : **زيد كالاسد** ، وعدم وجوب ذكرها فى الاستعارة؛ والاستعارة هى ذكر أحد جانبى التشبيه بقصد الجانب الآخر مع ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به بإثبات بعض مختصات المشبه به للمشبه. وهى على نوعين: استعارة مصرح بها ، واستعارة بالكناية.

فأولاهما: هى أن يكون الجانب المذكور من جانبى التشبيه هو المشبه به، كقولك : **رأيت أسدا فى الحمام**؛ فالمراد من الاسد هو الرجل الشجاع .

والثانى : أن يكون المشبه هو جانب التشبيه الذى يجرى ذكره ، مثل : **وإذا المنية أنشبت أظفارها** ؛ فقد شبهت المنية بحيوان مفترس ، مع ذكر المشبه وهو المنية .

يقول السكاكى فى «مفتاح العلوم» ص ١٩٨ و ١٩٩ فى علم البيان :

ذكاء وفراسة وحضور البديهة والخاطر فى عرب الصحارى والبوادى الجافة اللاهبة ، لا يشاهد مثله فى أرقى الامم المتمدنة ، ولا فى سكنة المدن الآخرين ، وتأريخ العرب شاهد على صدق كلامنا .

ولم يحصل هذا إلا بانتشار العربية التى يتقنها العرب الاصليين من سكنة البوادى الذين هم أفضل من سكنة المدن فى هذا المجال، لذا فقد خشى على ضياع أصول وجذور هذه اللغة بعد ظهور الاءسلام والفتوحات الاءسلامية التى أدت إلى اندماج واختلاط أقوام وشعوب غير عربية ، كالاعاجم والنبط، مع العرب، فأمر خلفاء بنى أمية وبنى العباس جماعات بالتطواف الدائم على سكنة البوادى والصحارى وأخذ أصول اللغة وعلامات المجاز والكناية والاستعارة عنهم . وقد ألفت الكتب فى تدوين

تنقسم الاستعارة المصرح بها إلى قسمين : تحقيقية وتخييلية ، والمراد بالتحقيقية أن يكون المشبه المتروك شيئا متحققا أما حسيا وأما عقليا ، والمراد بالتخييلية أن يكون المشبه المتروك شيئا وهميا محضا لا تحقق له إلا فى مجرد الوهم . ثم تقسم كل واحدة منهما إلى قطعية : وهى أن يكون المشبه المتروك متعين الحمل على ما له تحقق حسى أو عقلى أو على ما لا تحقق له البتة إلا فى الوهم ؛ وإلى احتمالية : وهى أن يكون المشبه المتروك صالح الحمل تارة على ما له تحقق وأخرى على ما لا تحقق له ، فإن عددنا قسمى الاحتمالية تحقيقية وتخييلية قسما واحدا فإن مجموع أقسام الاستعارة ستكون أربعة :

١ - الاستعارة المصرح بها التحقيقية القطعية . ٢ - الاستعارة المصرح بها التخييلية القطعية .٣- الاستعارة المصرح بها الاحتمالية مع الاحتمال للتحقيق والتخييل . ٤- الاستعارة بالكناية .

ثم إن الاستعارة ربما قسمت إلى أصلية وتبعية؛ والمراد بالاصلية أن يكون معنى التشبيه داخلا فى المستعار دخولا أوليا؛ والمراد بالتبعية أن لا يكون داخلا دخولا أوليا ؛ وربما لحقها التجريد فسميت مجردة، أو الترشيح فسميت مرشحة، وعلى هذا فيصبح مجموع أقسام الاستعارات ثمانية .ثم يشرع السكاكى فى الكلام مفصلا فى كل من هذه الاقسام .

علم النحو؛ بعد بيان أصوله من قبل مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام **لابى الاسود الدؤلى** ؛ من قبل أمثال **الخليل** و سيبويه و **يعقوب ابن السكيت** .

فكتاب «**العين**» للخليل هو من أهم كتب اللغة المعتبرة التى يستفاد منها إلى يومنا هذا .

و«**الكتاب**» لسيبويه ، من أنفس الكتب التى لم يؤلف مثلها حتى الآن فى نزاهتها وشمولها .

ومع أن كتبا كثيرة قد أ لفت ودونت بعد ذلك ، وكان بعضها ـ إنصافا ـ أكثر تحقيقا وأقرب للواقع وأكثر بعثا على الاطمئنان، كـ «**المصباح المنير**» و «**صحاح اللغة**» و «**لسان العرب**»، ولكن «**الكتاب**» لسيبويه(فى النحو) وكتاب «**العين**» للخليل(فى اللغة) ظلا يتربعان على مقام الصدارة لكل الكتب .

ويعد المجىء بالقصد والمرام بلفظ المجاز من أفضل أنواع الكلام والمحاورة ، لذا فقد قالوا : **كلام البلغاء مشحون بالمجازات** .

وقد زاد استعمال لفظ المجاز لدرجة قد ساوى فى اتساعه استعمال اللفظ الحقيقى فى معناه؛ وقد كتب **الزمخشرى** لهذا السبب كتابا فى اللغة سماه «**أساس البلاغة**»، يتكفل بتمييز وتشخيص المعانى الحقيقية عن المجازية ، ونظم حسب ترتيب الحروف الهجائية لكل مادة ، فهو يشرع بعد المعانى الحقيقية لها ، ثم يعدد تحت عنوان : **ومن المجاز** جميع المعانى المجازية الواردة فى كلام العرب والامثلة والاشعار والقرآن الكريم .

و كانت هذه اللطافة والعظمة لدقائق الاستعارة والمجاز قد صرفت **عبد الله ابن المقفع** الايرانى ـ الذى تمرس فى العربية وبرز حتى عد فى سعة علمه واطلاعه على آداب العربية فردا لا نظير له ـ عن عزمه على

معارضة القرآن، ومرغت أنفه فى تراب الذل والهوان .

فقد عزم مع جمع من أصحابه على معارضة القرآن ، فراحوا يطالعون آياته ، فوقعت أبصارهم على هذه الآيات :

وقيل يـ'أرض ابلعى مآءك ويـ'سمآء أقلعى وغيض المآء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظـ'لمين . [1]

فقالوا لانفسهم : ليس هذا بكلام بشر؛ وانصرفوا عن عزمهم .

ومن الواضح البين أن هذه النكات الدقيقة ، واستعمال ألفاظ الكناية والمجاز والاستعارة هى التى سمت بالقرآن فى أفق متعال تعجز الافهام عن السمو إليه ، وتتصاغر عن مقابلته ومعارضته .

يقول **السكاكى** فى مقدمة كتاب « مفتاح العلوم » : **ثم الصلاة والسلام على حبيبه محمد البشير النذير، بالكتاب العربى المنير، الشاهد لصدق دعواه بكمال بلاغته ، المعجز لدهماء المصاقع عن إيراد معارضته ، إعجازا أخرس شقشقة كل منطيق ، وأظلم طرق المعارضة فما وضح إليها وجه طريق ، حتى أعرضوا عن المعارضة بالحروف ، إلى المقارعة بالسيوف ، وعن المقاولة باللسان ، إلى المقاتلة بالسنان ، بغيا منهم وحسدا ، وعنادا ولددا .** [2]

١ـ الآية ٤٤ ، من السورة ١١ : هود ، التى خصصت لتصوير نهاية طوفان نوح عليه السلام .

ولقد بحث السكاكى فى «مفتاح العلوم» فى علم البيان عن فصاحة وبلاغة هذه الآية فقط من ص ٢٢١ إلى ٢٢٤ .

وأورد بالتفصيل مطالب نفيسة من جهات أربع: من جهتى علم البيان وعلم المعانى وهذان العلمان مرجع البلاغة ، وكذلك من جهتى الفصاحة المعنوية والفصاحة اللفظية .

٢-«مفتاح العلوم» ص ٢ .

وهو كلام صائب فى معرفة القرآن من هذا الرجل العالم بالادب والعربية ، فقد مر على مجيء القرآن حتى اليوم ألف وأربعمائة سنة ، وهذا الكتاب بأيدى البشر يصرخ تحديا أن يأتى أحد بمثله؛ وكان أيسر لاعداء الاسلام وأقل مؤونة وجهدا لو جلسوا فى البيوت الآمنة والجامعات التى تناطح السحاب ، وقبعوا فى الكنائس والصوامع وغيرها من المعابد المخالفة للاءسلام، فدعوا اليهود من حفظة **التلمود**، والنصارى المدافعين عن مذهب المسيحية ، فعملوا كتابا يماثل القرآن أو حتى سورة كسوره، ولو استغرق ذلك منهم قرنا من الزمن، أو قرنين، أو ألفا من السنين ؛ لكنهم عدلوا عن هذا الطريق السهل اليسير وتنكبوا عنه، وتوسلوا بالحرب والقتل والنهب والاءغارة على المسلمين .

وليست الحروب الصليبية إلا أنموذج لذلك ، وكل هذا القتل الفجيع الذى يمارسه اليهود والمسيحيون اليوم بحق المسلمين إلا نماذج أخر.

فلماذا تنكبوا عن الطريق الاسهل؟ أى المجيء بمثل للقرآن؟

وعليه ، فقد كان القرآن معجزة ، وهو اليوم معجزة ، وسيبقى غدا معجزة أيضا .

هذا القرآن معجزة لانه يوصف بأنه ملىء بالمجازات التى انتظمت بين آياته من أوله إلى آخره ، إلى الحد الذى دفع **السيد الرضى** رحمةالله عليه ـ جامع « نهج البلاغة » ـ لتأليف كتاب مستقل فى **مجازات القرآن** جمع فيه كل الآيات التى استعملت فى المجاز، وأوضح فيه النكات البديعة فى استعمال هذه المجازات . وقد ألف كذلك كتابا مستقلا فى مجازات الرسول الاكرم صلىالله عليه وآله وسلم دعاه بـ «**المجازات النبوية**».

فاستعمال الكلمة المجازية جائز فى اللغة، لانه أبلغ فى إيصال المعنى من استعمال الكلمة الحقيقية ، ولذا فقد قيل : **الكناية أبلغ من التصريح** ،

والمجاز أبلغ من الحقيقة، والاستعارة أبلغ من التشبيه . [1]

ويتضح مما قيل أن الاستعارة والمجاز ليسا كذبا ، بل عين الحقيقة والصدق والصواب ، فلا طريق فيهما للكذب والبطلان ، ولا يمكن لاحد توهم الكذب والبطلان فيهما. يقول **السكاكى إمام المحققين فى الادب فى** « مفتاح العلوم » :

والاستعارة لبناء الدعوى فيها على التأويل تفارق الدعوى الباطلة ، فإن صاحبها يتبرأ عن التأويل . وتفارق الكذب بنصب القرينة المانعة عن إجراء الكلام على ظاهره، فإن الكذاب لا ينصب دليلا على خلاف زعمه؛ وأ نى ينصب وهو لترويج ما يقول راكب كل صعب وذلول؟ [2]

وهو عائد للمعنى الكلى للكذب والمجاز بالتفصيل الذى ذكر، مما ينفى أى مجال لشبهة.

ويمكن بعبارة منطقية القول إن النسبة بين الحقيقة والمجاز، وبين الصدق والكذب هى عموم وخصوص من وجه ، يعنى :

1ـ يمكن أن يكون الكلام حقيقة وصدقا، كأن تقول: جاء الامير، و قصدك بالامير نفس الامير لا وزيره أو وكيله ، ويكون الامير قد جاء

١ـ جاء فى كتاب «نقاية القراء» للسيوطى : وهى والمجاز والاستعارة أبلغ من الحقيقة والتصريح والتشبيه. ثم يقول فى شرحه الذى كتبه عليها وسماه بـ«إتمام الدراية لقراء النقاية»:

وهذه العبارة لف ونشر مشوش، أى الكناية أبلغ من التصريح، لان الانتقال فيها من الملزوم إلى اللازم فهو كدعوى الشىء ببينة ، والمجاز أبلغ من الحقيقة لذلك ، والاستعارة أبلغ من التشبيه لا نها مجاز وهو حقيقة.(«كتاب إتمام الدراية لقراء النقاية» بهامش «مفتاح العلوم» للسكاكى ص ١٦١، الطبعة الاولى) .

١- «مفتاح العلوم» ص ١٩٨، الطبعة الاولى، المطبعة الادبية، مصر.

حقا.

٢- ويمكن أن يكون الكلام حقيقة وكذبا، كأن تقول : جاء الامير؛ ويكون مرادك بالامير نفس الامير لا وزيره، لكن الامير لم يكن قد جاء بعد.

٣- ويمكن أن يكون الكلام مجازا وصدقا، كقولك: جاء الامير؛ وقصدك بالامير وزيره لا نفسه، ويكون الوزير قد جاء فعلا.

٤- ويمكن أن يكون الكلام مجازا وكذبا، كقولك جاء الامير، وقصدك بالامير وزيره لا نفسه، لكن الوزير لم يكن قد جاء بعد.

وينبغى بالطبع نصب قرينة لفظية كلامية فى الحالتين الثالثة والرابعة ، أى فى الاستعمال المجازى بصورتيه الصادقة والكاذبة على إرادتك بلفظ الامير وزيره ، أى على صرفك اللفظ عن معناه الظاهرى .

لقد اتضح معنى المجاز جيدا، وعلمنا أن القرآن الكريم ملىء بالمجازات والاستعارات التى هى فى الحقيقة مجازات أيضا؛ وأن آية: **إنه و لقول فصل * وما هو بالهزل** ، [١] وآية: **لا يأتيه البـ'طل من بين يديه ولا من خلفه** [٢] راسختان رسوخ الجبل لا تتزعزعان؛ وأن مجىء المجاز والاستعارة فى القرآن عين الصواب لا الباطل ، وعين الجد والاحكام لا الهزل ؛ فلا حق للمتعلم فى علم الكلام أن يتمرد كما يشاء ويبدى رأية بلاتفكير أو ملاحظة للغة والمحاورة ، وبلا حفظ لظهورات القرآن ، وبلا أساس ودليل يستند عليه ، فيعلن كما يحلو له ـ قبوله لهذا القسم ورفضه لذاك ، فالقرآن ثابت وراسخ ومحكم ، تترافق معانية الحقيقية

١- الآيتان ١٣ و ١٤، من السورة ٨٦: الطارق.

٢- الآية ٤٢، من السورة ٤١: فصلت.

واستعاراته وتتشاكل وتتعاضد، وكلها حق وصدق .

وعلى المرء أن يتعرف على «معالم الاصول» و«المطول» للتفتازانى كحد أدنى ليفهم معنى المجاز ولا يضعه فى قالب الكذب وينسب الكذب إلى الله سبحانه .

وأما آية: **فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدٰن شيبا** . [1]

فلا مجاز هناك أبدا، بل جعل الولدان شيبا كناية عن شدة ذلك اليوم. نعم، نسبة الاتقاء إلى « يوم » مجاز عقلى ، والمراد هو اتقاء العذاب الواقع فى ذلك اليوم، لا نفس اليوم.

وأما آية : **فوجدا فيها جدارا يريد أن يقض فأقامه** . [2] فنسبة الارادة إلى الجدار مجاز، وقد ذكره الزمخشرى أيضا فى « أساس البلاغة » . [3]

وكما بينا مفصلا فإن معنى المجاز خلاف المعنى الحقيقى ، فإرادة الجدار هنا إرادة لا كإرادة الاءنسان، بل جاءت بمعنى إشرافه على السقوط، وهذه الكلمة يعبر بها فى كثير من الموارد التى يكون فيها الفعل على وشك التحقق والوقوع .

يقول **السكاكى** : ومن أمثلة المجاز قوله تعالى: **فإذا قرأت القرءان فاستعذ بالله** ؛ [4] استعملت **قرأت** مكان **أردت القراءة**، لكون القراءة مسببة عن إرادتها استعمالا مجازيا بقرينة **الفاء فى فاستعذ** ، والسنة المستفيضة بتقديم الاستعاذة . ولا تلتفت إلى من يؤخر الاستعاذة فذلك لـ (ضيق

١ـ الآية ١٧، من السورة ٧٣: المزمل.

٢ـ الآية ٧٧، من السورة ١٨: الكهف.

٣ـ «أساس البلاغة» ص ١٨٤، مادة رود، العمود الاول.

٤ـ صدر الآية ٩٨، من السورة ١٦: النحل.

العطن).

وقوله: ونادى' نوح ربه، [١] فى موضع أراد نداء ربه، بقرينة: **فقال رب.**

وقوله تعالى: **وكم من قرية أهلكنـ'ها،** [٢] فى موضع **أردنا هلاكها** ، بقرينة قوله بعدها: **فجآءها بأسنا**، والبأس الاهلاك.

وكذلك من أمثلة المجاز، قوله: **وحر ' م على' قرية أهلكنـ'ها،**[٣] فى موضع **أردنا هلاكها**، بقرينة **أ نهم لا يرجعون**، أى عن معاصيهم للخذلان.

ومنه: **مآ ءامنت قبلهم من قرية أهلكنـ'ها أفهم يؤمنون،** [٤] أى أردنا إهلاكها، إذ معنى الآية: كل قرية أردنا إهلاكها لم يؤمن أحد منهم، أفهؤلاء يؤمنون؟

وما أدل نظم الكلام على الوعيد بالاءهلاك. أما ترى الاءنكار فى جملة **أفهم يؤمنون؟** لا يقع فى المحز إلا بتقدير **ونحن على أن نهلكهم**؛ وإنما حملت الامتناع من أخذ قرأت فى الآية المباركة **فإذا قرأت القرءان فاستعذ بالله** على المعنى الحقيقى على ضيق العطن، لا نه متى جرى فيما هو أبعد جريا مستفيضا يكاد يريك من إذا تكلم بخلافه كمن صلى لغير قبلة. أليس كل أحد يقول للحفار: **ضيق فم الركية**، وعليه فقس.والتضييق كما يشهد لك عقلك الراجح هو التغيير من السعة إلى الضيق، ولا سعة هناك، إنما الذى هناك هو مجرد تجويز أن يريد الحفار التوسعة فينزل مجوز مراده منزلة

١- صدر الآية ٤٥، من السورة ١١: هود.

٢ـ الآية ٤، من السورة ٧: الاعراف.

٣ـ الآية ٩٥، من السورة ٢١: الانبياء.

٤ـ الآية ٦، من السورة ٢١: الانبياء.

الواقع، ثم يأمره بتغييره إلى الضيق، أما يجب أن يكون فى الاقرب أجرى وأجرى ، وأمثال ذلك مما تعدى الكلمة بمعونة القرينة عن معناها الاصلى إلى غيره لتعلق بينهما . [1]

لقد توسعنا فى الاجابة عن هذا الاءشكال مع إمكان الرد المختصر عليه ليتضح الاساس الفكرى والقيمة العلمية لادعياء الفلسفة فى جامعاتنا من المتربين فى أوروبا ، الذين يسعون بهذا المستوى من المعلومات السير فى « بسط وقبض نظرية الشريعة » ويجتهدون فى أحكامها، ويستبدلون المعانى القويمة للقرآن الكريم بالمفاهيم السطحية والمبتذلة .

الاشكال السادس : تأييده لاسلوب المرحوم الطالقانى فى تفسير الآية الكريمة :

الذين يأكلون الربـ'وا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطـ'ن من المس ذ'لك بأ نهم قالو َا إنما البيع مثل الربـ'وا وأحل الله البيع وحرم الربـ'وا فمن جآءه و موعظة من ربه فانتهى' فله و ما سلف وأمره و َ إلى الله ومن عاد فأولـ'ئك أصحـ'ب النار هم فيها خـ'لدون .[2]

حيث اعتبر آكلى الربا فى هذه الآية المباركة كالمجانين والمصروعين يقومون ويسقطون متخبطين، فعبرعن يتخبطه الشيطـ'ن من المس بالجنون.

وكان المرحوم الطالقانى قد اعتبر مس الشيطان تمثيلا عن الصرع وباقى الاختلالات العصبية والنفسية.

١ـ «مفتاح العلوم» ص ١٩٥، باب المجاز اللغوى فى مبحث علم البيان. الطبعة الاولى .

٢ ـ الآية ٢٧٥، من السورة ٢ : البقرة.

وقد نقل صاحب مقالة « بسط وقبض... » عبارته، ثم نقل رد العلامة الطباطبائى عليها؛ لكنه مع ادعائه أن كلامه فى المقام يستند إلى وجهة نظر المعرفة، وأ نه لا يتطرق إلى تعيين حقانية أو بطلان رأى هذا المفسر أو ذاك، ولابيان أن المعرفة الدينية تطابق رأى هذا المفسر أو ذاك ، [١] لكنه فى بيانه وتمجيده لعبارة المرحوم الطالقانى وانتقاده للعلامة الطباطبائى قد أظهر تأييده لذلك الاسلوب فى التفسير .

وسنورد ـ فى معرض الرد ـ عين عباراته لبيان موارد الاءشكال والاشتباه فى ذلك الاسلوب ، ثم نشرع بنقدها والرد عليها ، فقد قال :

جاء فى الآية ٢٧٦ من سورة البقرة: الذين يأكلون الربـ'وا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطـ'ن من المس ؛ حيث اعتبر المرحوم الطالقانى فى تفسيره «پرتوى از قرآن» (= إشعاع من القرآن) أن الذى يتخبطه الشيطـ'ن من المس [٣] هو تمثيل لمرض الصرع والاختلالات العصبية والنفسية الاخرى، إذ إن العرب كانوا ينسبون هذه الامراض إلى مس الجن، ويقال بالفارسية لذلك « ديوانه» أى المصاب بالجن .

وقد قال بعض المفسرين الجدد إن مس الشيطان ربما كان إشارة إلى الجرثومة (الميكروب) التى تنفذ إلى المراكز العصبية، وربما كان إشارة إلى منشأ الوسوسة وإثارة الاوهام والتخيلات ذلك . [٣]

ونسأل : لماذا أورد المرحوم الطالقانى احتمالات كهذه فى تفسير

---

١ ـ «بسط وقبض تئوريك شريعت»(= بسط وقبض نظرية الشريعة) «كيهان فرهنگى»(=العالم الثقافية) العدد ٥٢، تيرماه(الشهر الرابع الايرانى) ١٣٦٧ هش، الرقم ٤، ص ١٥، العمود الثالث .

٢ ـ الذى فى الآية ٢٧٥، من السورة ٢: البقرة، هو: كما يقوم الذى يتخبطه الشيطـ'ن من المس، وليس عندنا فى القرآن آية بهذا التعبير: كالذى يتخبطه الشيطـ'ن من المس .

٣ ـ «پرتوى از قرآن»(= إشعاع من القرآن) ج ٢، ص ٢٥٤.

هذه الآية؟ أو ليس للجنون إثر مس الشيطان معنى صريحا وصحيحا؟ فما الذى أجبره على القول إن القرآن قد تكلم هنا بلسان الاعراب، وتماشى متساهلا مع أوهامهم وعقائدهم وخرافاتهم؟ ولم استعان بالعلم الحديث فأشار إلى تأثير الجراثيم(الميكروبات)؟

لا شك ولا ريب أن هناك علة واحدة لكل هذه الامور ، وهى ترافق وتصاحب فهمه وثقافته الدينية مع الفهم والثقافة العصرية ؛ فكيف يمكن لمن يعتقد أن الصرع أو الجنون مسبب عن دلائل مادية (طفيلية أو دوائية أو مخية أو إرثية...) أن يتجاهل عقيدته هذه ويعارضها ؟

فأما أن يفسر الشيطان بمعنى الجرثومة(الميكروب)، أو أن يقول إن هذه الاقوال كانت زمن نزول الوحى لمماشاة ثقافة الاعراب من عبدة الخرافات والشعوذة .

لكن قولا كهذا ـ كما أوضحنا ـ يكشف عن استراتيجية معينة ولاينحصر فى الاطر والحدود الضيقة؛ فإن عليه لهذا أن يعيد النظر أيضا فى معنى الصدق ، الكذب ، الجد، الهزل ، الحسن والقبح . فيعتبر وجود هذه المعانى فى القرآن رغم منافاتها للواقع جديا وصادقا وحسنا .

وعليه أيضا أن يوسع مفهوم «نزول القرآن بلسان قوم» ويستبدله بمفهوم «نزوله وفق ثقافة قوم»، أى توسعة معنى «عربية» القرآن؛ وأن يجيز أيضا استخدام هذا الاسلوب فى القصص التأريخية والمطالب العلمية القرآنية الاخرى، فيرفع كل تعارض ظاهرى يجده مع المكتشفات البشرية المتقنة بهذا الاسلوب .

وعليه أن لا يعد هذا الامر نقصا فى الدين، بل أن يعتبر الاستعانة بالكذب والخرافات جائزا كلما وجب ذلك لاداء القصد وبيان الغرض ، وفى الحقيقة فإن المرحوم الطالقانى قد نحى هذا المنحى فى تفسيره لبعض القصص القرآنية ؛ أى أن أمثال هذا التفسير الذى أورده لهذه الآية

لا تصدر إلا عن افتراضات كهذه، فإن لم نضف لها تلك المبادى فإنها لن تفيد تلكم المعانى، وبالطبع فإنها كانت آراء تفسيرية مخلصة لا قصد فيها لتحريف كتاب الله العزيز.

كما ينبغى ملاحظة خلو عمله من التأويل، بل انصب على إعطاء قاعدة لحل المشكلات التفسيرية عند التعارض مع الواقع، وتلك القاعدة والاصل هى: أن القرآن كما ورد بلسان العرب فقد جاء فى قالب ثقافة العرب وعقائدهم(الصحيحة أو الخرافية)، لذا فلا ينبغى علينا البحث عن المعنى الصحيح والدقيق لاجزائه، بل يجب الاخذ بالقصد والغرض منه بشكل مجمل، بغض النظر عن انطباق الآيات بحذافيرها مع الحقيقة والواقع.

حتى يصل إلى القول :

إن أسلوب ونهج المرحوم الطالقانى مقبول ومتبع عند بعض المفسرين من أهل السنة .[1]

وينقسم إشكالنا على كلامه إلى عدة جهات :

الجهة الاولى : إذا ما قال لنا طبيب ما : إن تمام أنواع الجنون مسببة عن العلل المادية ، بالشكل الذى لا تأثير معه للجن فى أى من جهات تلك النفوس؛ أفيجب علينا أن نأخذ كلامه فنقبله على علاته بلاتحقيق وبلابحث، مهما استلزم مخالفة ظاهر آية من كلام الله المجيد؟ أم أن ذلك لاينبغى علينا لضعف هذا المنطق وعدم سلامته !

أولا: لم يدع أى طبيب حتى الآن أن جميع أنواع الجنون لها علل وأسباب طبيعية وجرثومية (ميكروبية) ؛ وما ادعى فى هذا المجال فقد كان

١ ـ «بسط وقبض تئوريك شريعت»(= انبساط وانقباض نظرية الشريعة) مجلة «كيهان فرهنگى» العدد ٥٢، تيرماه ١٣٦٧ ، رقم ٤ ، ص ١٥ ، العمود الثانى .

لبعض أنواع الجنون لا جميعها.

وثانيا : هل تعتبر الاكتشافات الطبية العلل الطبيعية للجنون منافية لتأثير ومس نفوس الشياطين ؟ أو أن منتهى إدراك الطب فى البحث عن هذا السبب يقف عند هذا الحد ؟ وأ نى له القدرة على نفى أسباب ماوراء إحاطة علمه ومعرفته ، والادعاء أن غير هذه العلل من الاسباب والعوامل والشروط الاخرى ليست مؤثرة أبدا فى ظهور الجنون ؟

إن الآية المباركة مورد البحث كما يقوم الذى يتخبطه الشيطـ'ن من المس توضح إجمالا أن بعض أنواع الجنون تنشأ بمس الشيطان ، أى أن للنفوس الشريرة من طائفة الجن تأثيرا فى النفوس الضعيفة المستعدة من طائفة الانسان، فتسوقها للانحراف عن سلوك طريق الاعتدال إلى القيام بالحركات المضطربة غير المنسجمة فى الاقوال والافعال؛ هذا هو مفاد ظاهر الآية الشريفة .

ولقد رفض الشيخ محمد عبده فى تفسير «المنار» ظاهر الآية هذا لمجرد أن هذا الامر مستحيل، فالعلوم الحديثة ترفض تأثير الجن فى الجنون؛ وقد سار المفسرون الآخرون على هذا النهج فتابعوه فى رأيه وقوله .

فهو يقول: ثم إن التشبيه مبنى على أن المصروع الذى يعبر عنه بالممسوس يتخبطه الشيطان، أى أ نه يصرع بمس الشيطان له ، وهو ما كان معروفا عند العرب وجاريا فى كلامهم مجرى المثل . قال البيضاوى فى التشبيه :

وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الاءنسان فيصرع ، والخبط ضرب على غير اتساق كخبط العشواء .

وتبعه أبو السعود ـ كعادته ـ فذكر عبارته بنصها فى تفسيره .

فالآية ـعلى هذاـ لا تثبت أن الصرع المعروف يحصل بفعل الشيطان حقيقة ولا تنفى ذلك. وفى المسألة خلاف بين العلماء :

أنكر المعتزلة وبعض أهل السنة أن يكون للشيطان فى الانسان غير ما يعبرعنه بالوسوسة . و قال بعضهم إن سبب الصرع مس الشيطان كما هو ظاهر التشبيه ، وإن لم يكن نصا فيه . وقد ثبت عند أطباء هذا العصر أن الصرع من الامراض العصبية التى تعالج كأمثالها بالعقاقير [١] وغيرها من طرق العلاج الحديثة. وقد يعالج بعضها بالاوهام ، [٢] وهذا ليس برهانا قطعيا على أن هذه المخلوقات الخفية التى يعبر عنها بالجن يستحيل أن يكون لها نوع اتصال بالناس المستعدين للصرع ، فتكون من أسبابه فى بعض الاحوال .

والمتكلمون يقولون : إن الجن أجسام حية خفية لا ترى ، وقد قلنا فى تفسير « المنار » غير مرة إنه يصح أن يقال إن الاجسام الحية الخفية التى عرفت فى هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعا من الجن، وقد ثبت أ نها علل لاكثر الامراض . قلنا ذلك فى تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز [٣] الجن.

على أننا نحن المسلمين لسنا فى حاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم

---

١ ـ فى «أقرب الموارد» مادة عقر: العقار فعال للمبالغة: الدواء والشىء الذى يداوى به من الاعشاب وجذورها. وقال فى «الصحاح»: العقاقير أصول الادوية، واحدها عقار.

٢ ـ الوهم مفرد الاوهام ، يقال تارة للقوة الوهمية من الحواس الباطنة التى من شأنها إدراك المعانى الجزئية المتعلقة بالمحسوسات، كشجاعة زيد وسخائه . وهى تلك القوة التى تدفع الشاة للفرار من الذئب، وللحنو على ولدها .

٣ ـ أورد فى «أقرب الموارد» فى كلمة وخز: وخزه يخزه وخزا: طعنه طعنة غير نافذة برمح أو إبرة أو غير ذلك.

وقرره الاطباء، أو إضافة شيء إليه مما لا دليل فى العلم عليه لاجل تصحيح بعض الروايات الآحادية ، فنحمد الله تعالى أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم . [1]

وقد قال العلامة آية الله الطباطبائى قدس الله سره فى تفسير هذه الآية : إن التشبيه فى قوله يتخبطه الشيطـ'ن من المس لا يخلو من إشعار بجواز تحقق ذلك فى مورد الجنون فى الجملة ، فإن الآية وإن لم تدل على أن كل جنون هو من مس الشيطان ، لكنها لا تخلو عن إشعار بأن من الجنون ما هو بمس الشيطان ، وكذلك الآية وإن لم تدل على أن هذا المس من فعل إبليس نفسه، فإن الشيطان بمعنى الشرير يطلق على إبليس وعلى شرار الجن وشرار الاءنس ، وإبليس من الجن ، [2] فالمتيقن من إشعار الآية أن للجن شأنا فى بعض الممسوسين إن لم يكن فى كلهم.

وما ذكره بعض المفسرين أن هذا التشبيه من قبيل المجاراة مع عامة الناس فى بعض اعتقاداتهم الفاسدة ، حيث كان اعتقادهم بتصرف الجن فى المجانين ، ولا ضير فى ذلك لا نه مجرد تشبيه خال عن الحكم حتى يكون خطأ غير مطابق للواقع، فحقيقة معنى الآية: أن هولاء الآكلين للربا حالهم حال المجنون الذى يتخبطه الشيطان من المس ؛ وأما كون الجنون مستندا

---

١ ـ تفسير «المنار» ج ٣، ص ٩٥ و ٩٦.

٢ ـ ورد فى القرآن الكريم كلمة آدم كاسم خاص وعلم لآدم أبى البشر، وكلمة إنسان وبشر كاسم عام واسم جنس لنوع بنى ادم، وكذلك أيضا فقد وردت كلمة إبليس كاسم خاص وعلم لرئيس الشياطين والجن ، وكلمة الشيطان والجن كاسم عام لذلك النوع . وجاء فى الآية ٥٠ ، من السورة ١٨: الكهف : وإذ قلنا للملـ'ئكة اسجدوا لادم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . وجاء فى الآيتين ٩٤ و ٩٥ من السورة ٢٦ : الشعراء : فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون .

إلى مس الشيطان فأمر غير ممكن، لان الله سبحانه أعدل من أن يسلط الشيطان على عقل عبده أو على عبده المؤمن. وهذا القول بتمامه محل للاشكال :

فأولا : أنه تعالى أجل من أن يستند فى كلامه إلى الباطل ولغو القول بأى نحو كان من الاستناد إلا مع بيان بطلانه ورده على قائله، وقد قال تعالى فى وصف كلامه : وإنه و لكتـ'ب عزيز * لا يأتيه البـ'طل من بين يديه ولا من خلفه ،[1] وقال تعالى : إنه و لقول فصل * وما هو بالهزل .[2]

وثانيا : قولهم إن استناد الجنون إلى تصرف الشيطان بإذهاب العقل ينافى عدله تعالى، ففيه أن الاشكال بعينه مقلوب عليهم فى إسنادهم ذهاب العقل إلى الاسباب الطبيعية، فإنها أيضا مستندة بالآخرة إلى الله تعالى مع إذهابها العقل .

وثالثا : على أنه فى الحقيقة ليس فى ذهاب العقل بإذهاب الله إياه إشكال ، لان التكليف يرتفع حينئذ بارتفاع الموضوع ، وإنما الاشكال فى أن ينحرف الادراك العقلى عن مجرى الحق وسنن الاستقامة مع بقاء موضوع العقل على حاله ، كأن يشاهد الانسان العاقل الحسن قبيحا وبالعكس ، أو يرى الحق باطلا وبالعكس جزافا بتصرف من الشيطان .

فهذا هو الذى لا يجوز نسبته إلى الله تعالى، وأما ذهاب القوة المميزة وفساد حكمها تبعا لذهاب نفسها فلا محذور فيه سواء أسند إلى الطبيعة أم إلى الشيطان .

ورابعا : على أن استناد الجنون إلى الشيطان ليس على نحو الاستقامة

---

١ ـ الآيتان ٤١ و ٤٢ ، من السورة ٤١ : فصلت.

٢ ـ الآيتان ١٣ و ١٤، من السورة ٨٦ : الطارق.

ومن غير واسطة ، بل الاسباب الطبيعية كاختلال الاعصاب والآفة الدماغية أسباب قريبة وراءها الشيطان ، كما أن نوع الكرامات تستند إلى الملك مع تخلل الاسباب الطبيعية فى البين ، وقد ورد نظير ذلك فيما حكاه الله عن أيوب عليه السلام، إذ قال: أ نى مسنى الشيطـ'ن بنصب وعذاب ،[1] وإذ قال: أ نى مسنى الضر وأنت أرحم الر'حمين .[2]

و الضر هو المرض وله أسباب طبيعية ظاهرة فى البدن، فنسب ما به من المرض المستند إلى أسبابه الطبيعية إلى الشيطان .

وهذا وما يشبهه من الآراء المادية التى دبت فى أذهان عدة من أهل البحث من حيث لم يشعروا بها ، حيث إن أصحاب المادة لما سمعوا الإلهيين يسندون الحوادث إلى الله سبحانه، أو يسندون بعضها إلى الروح أو الملك أو الشيطان اشتبه عليهم الأمر فحسبوا أن ذلك إبطال للعلل الطبيعية وإقامة لما وراء الطبيعة مقامها ، ولم يفقهوا أن المراد به تعليل فى طول تعليل لا فى عرض تعليل ، وقد مرت الاشارة إلى ذلك فى المباحث السابقة مرارا .[3]

كان هذا حاصل المطالب الواردة فى « تفسير الميزان » والتى مثلت حقا جوابا كافيا وشافيا لذلك الاحتمال غير الوجيه .

كما أن من بين المفسرين الذين كان لهم قبله بحث مفيد عن تخبط المجنون من مس الشيطان ، السيد محمود الآلوسى البغدادى فى تفسير « روح المعانى » ، حيث قارب قوله قول العلامة إلى حد كبير، فهو يقول :

---

١ ـ الآية ٤١، من السورة ٣٨: ص.

٢ ـ الآية ٨٣، من السورة ٢١: الانبياء.

٣ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٢، ص ٤٣٦ و ٤٣٧.

المس أى الجنون، يقال: مس الرجل فهو ممسوس إذا جن، وأصله اللمس باليد، وسمى به لان الشيطان قد يمس الرجل وأخلاطه مستعدة للفساد فتفسد ويحدث الجنون . وهذا لا ينافى ما ذكره الاطباء من أن ذلك من غلبة مرة السوداء ، [1] لان ما ذكروه سبب قريب وما تشير إليه الآية سبب بعيد، وعلية مس الشيطان للجنون ليست مطردة ولا منعكسة، فقد يحصل مس ولا يحصل جنون ، كما إذا كان المزاج قويا ، وقد يحصل جنون ولم يحصل مس، كما إذا فسد المزاج من دون عروض أجنبى ، والجنون الحاصل بالمس قد يقع أحيانا ، وله عند أهله الحاذقين أمارات يعرفونه بها ، وقد يدخل فى بعض الاجساد على بعض الكيفيات ريح متعفن تعلقت به روح خبيثة تناسبه فيحدث الجنون أيضا على أتم وجه، وربما استولى ذلك البخار على الحواس وعطلها، واستقلت تلك الروح الخبيثة بالتصرف فتتكلم وتبطش وتسعى بآلات ذلك الشخص الذى قامت به من غير شعور للشخص بشيء من ذلك أصلا . وهذا كالمشاهد المحسوس الذى يكاد يعد منكره مكابرا منكرا للمشاهدات .

وقال المعتزلة و القفال من الشافعية : إن كون الصرع والجنون من الشيطان باطل، لا نه لا يقدر على ذلك، كما قال تعالى حكاية عنه: وما كان لى عل؟ كم من سلط'ن، [١٧] فالآية واردة هنا على ما يزعمه العرب ويعتقدونه من أن الشيطان يخبط الانسان فيصرع، وأن الجنى يمسه فيختلط عقله وليس

---

١ ـ كانوا يقولون فى الطب القديم إن أخلاط الجسم أربعة : الصفراء ، السوداء ، البلغم والدم ، وعندما تتعادل نسبتها تكون صحة الجسم جيدة وسليمة ، وعندما تختل هذه النسبة وتقوى أحدها على الاخرى تظهر عوارض المرض على بدن الانسان .

٢ ـ الآية ٢٢ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

لذلك حقيقة ؛ وليس بشىء ، بل هو من تخبط الشيطان بقائله ومن زعمه المردود بقاطعية أدلة الشرع ، فقد ورد : ما من مولود يولد إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخا .

وفى بعض طرق الروايات : إلا طعن الشيطان فى خاصرته ، ومن ذلك يستهل صارخا. إلا مريم وابنها لقول أمها: «وإنى ٰ أعيذها بك وذريتها من الشيطـ'ن الرجيم» . [1] وقوله صلى الله عليه [وآله] وسلم : كفوا صبيانكم أول العشاء ، فإنه وقت انتشار الشياطين .

وقد ورد فى حديث المفقود الذى اختطفته الشياطين وردته فى زمان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه حدث من شأنه معهم قال : فجاءنى طائر كأنه جمل قبعثرى فاحتملنى على خافية من خوافيه . [2]

إلى غير ذلك من الآثار، وفى كتاب «لقط المرجان فى أحكام الجان» كثير منها.

واعتقاد السلف وأهل السنة أن ما دلت عليه(الآية) أمور حقيقية واقعة كما أخبر الشرع عنها ، والتزام تأويلها كلها يستلزم خبطا طويلا لايميل إليه إلا المعتزلة ومن حذا حذوهم ، وبذلك ونحوه خرجوا عن قواعد الشرع القويم ، فاحذرهم قـ'تلهم الله أنى' يؤفكون . [3]

وأما الآية التى ذكروها فى معرض الاستدلال على مدعاهم فلا تدل عليه ، إذ السلطان المنفى فيها إنما هو القهر والإلجاء إلى متابعته ،

---

١ ـ الآية ٣٦، من السورة ٣: آل عمران.

٢ ـ فى «أقرب الموارد»: الخوافى: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت، ومفردها خافية، بإزاء القوادم ، وهى ريشات مقدم الجناح ومفردها قادحة .

٣ ـ الآية ٤ ، من السورة ٦٣: المنافقون .

لا التعرض للاءيذاء والتصدى لما يحصل بسببه الهلاك؛ ومن تتبع الاخبار النبوية وجد الكثير منها قاطعا بجواز وقوع ذلك من الشيطان، بل وقوعه بالفعل .

وخبر: الطاعون من وخز أعدائكم الجن صريح فى ذلك، وقد حمله بعض مشايخنا المتأخرين على نحو ما حملنا عليه مسألة التخبط والمس ، حيث قال : إن الهواء إذا تعفن تعفنا خاصا مستعدا للخلط والتكوين ، تنفرز منه وتنحاز أجزاء سمية باقية على هوائيتها أو منقلبة بأجزاء نارية محرقة ، فيتعلق بها روح خبيثة تناسبها فى الشرارة وذلك نوع من الجن، فإنها على ما عرف فى الكلام- أجسام حية لا ترى، إما الغالب عليها الهوائية أو النارية .

ولها أنواع عقلاء وغير عقلاء ، تتوالد وتتكون ، فإذا نزل واحد منها طبعا أو إرادة على شخص أو نفذ فى منافذه، أو ضرب وطعن نفسه به يحصل فيه بحسب ما فى ذلك الشر من القوة السمية وما فى الشخص من الاستعداد للتأثر منه - كما هو مقتضى الاسباب العادية فى المسببات- ألم شديد مهلك غالبا مظهر للدماميل والبثرات فى الاكثر لسبب إفساده للمزاج المستعد ، وبهذا يحصل الجمع بين الاقوال فى هذا الباب ، وهو تحقيق حسن لم نجده لغيره؛ كما لم نجد ما حققناه فى شأن المس لاحد سوانا .[1]

وعلى كل حال ، فطبقا لمنطق القرآن الكريم والبحوث العقلية فى دورة معارف الاسلام والحكمة المتعالية ، فإن كل المعلومات فى عالم الطبع والمادة مستندة إلى علة فى العالم الذى وراءها ، وصولا إلى علة العلل ومسبب

١ ـ تفسير «روح المعانى» ج ١، ص ٤٩٦ و ٤٩٧، طبعة بولاق، المطبعة الكبرى الميرية سنة ١٣٠١ هجرية.

الاسباب .

فالعلل الاعلى لا تبطل عمل المعلولات الاوطأ، بل هى حاكمة عليها ، وتلك العلل نفسها هى الموجدة والمظهرة للعلل الطبيعية ، والآية الكريمة : فالمدبر'ت أمرا[1] شاهد صادق لهذا الادعاء .

ولقد برهنا هذا الامر بحول الله وقوته فى دورة العلوم والمعارف الاءسلامية، قسم «معرفة المعاد»، الجزء الثالث ، المجلس السابع عشر؛ وأوضحنا أن التعبير عن الجن بالجرثومة(الميكروب) ناشى عن عدم التفقه والتعمق فى المسائل العلمية .

الجهة الثانية من جهات الاءشكال: أن مسألة وجود الجن مسألة ثابتة لاتردد فيها طبقا للآيات القرآنية والشواهد الخارجية، فقد قسم القرآن الكريم المكلفين إلى مجموعتين وفئتين: الاءنس والجن، وكان خطابه موجها لكليهما معا، كالآية : يـ'معشر الجن والاءنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السم'و'ت والارض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلط'ن * فبأى ءالآء ربكما تكذبان .[2]

ومثل آية: سنفرغ لكم أيه الثقلان * فبأى ءالآء ربكما تكذبان .[3]

وآية : ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والاءنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم ءاذان لا يسمعون بها أول'ئك كالانعـ'م بل هم أضل أول'ئك هم الغـ'فلون .[4]

---

١ ـ الآية ٥ ، من السورة ٧٩ : النازعات .

٢ ـ الآيتان ٣٣ و ٣٤ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٣ ـ الآيتان ٣١ و ٣٢ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٤ ـ الآية ١٧٩ ، من السورة ٧ : الاعراف .

فالقرآن الكريم يعتبر الاءنسان والجن موجودين ماديين يمتلكان الشعور والاءدراك، وقابلين للامر والنهى، واعتبرهما فى جنب بعضهما قابلين للخطاب والمفاهمة ، خلق الرب المتعال أولهما من الطين وثانيهما من النار :

خلق الانسـ'ن من صلصـ'ل كالفخار * وخلق الجآن من مارج من نار* فبأى ءالآء ربكما تكذبان . [١]

وتبعا لذلك فأصل خلق الجن من النار والغازات غير المرئية ، وله نزوع إلى الاعلى ، فى حين أن أصل خلق الاءنسان من الطين المرئى ، ونزوعه إلى الاسفل. ولهاتين المجموعتين نبى بإنسى مشترك هو خاتم الانبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو نبى للجن ، كما هو نبى للإنس :

وإذ صرفنآ إليك نفرا من الجن يستمعون القرءان فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى' قومهم منذرين * قالوا يـ'قومنآ إنا سمعنا كتـ'با أنزل من بعد موسى' مصدقا لما بين يديه يهدى َ إلى الحق وإلى'طريق مستقيم * يـ'قومنآ أجيبوا داعى الله وءامنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له و من دونه أوليآء أولـ'ئك فى ضلـ'ل مبين . [٢]

وهناك سورة فى القرآن الكريم باسم سورة الجن جرى فيها الحديث بشكل

---

١ ـ الآيات ١٤ إلى ١٦، من السورة ٥٥ : الرحمن . ولقد خلقنا الانسـ'ن من صلصـ'ل من حمإ مسنون * والجآن خلقنـ'ه من قبل من نار السموم . (الآيتان ٢٦ و٢٧ ، من السورة ١٥ : الحجر) .

٢ ـ الآيات ٢٩ إلى ٣٢ ، من السورة ٤٦ : الاحقاف.

مفصل عن إيمان الجن برسول الله وانقسامهم إلى مجموعتين: صالحة وطالحة، مسلمة ومتعدية قاسطة، ثم بيان الثواب والعقاب الاخروى الذى ينتظرهم . وتحوى هذه السورة على دقائق بديعة وشرح حال الجن ، إذ يأمر الله سبحانه نبيه أن :

قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرءانا عجبا * يهدى َإلى الرشد فامنا به ولن نشرك بربنآ أحدا * وأ نه و تعـ'لى' جد ربنا ما اتخذ صـ'حبة ولا ولدا * وأ نه و كان يقول سفيهنا على الله شططا * وأ نا ظننآ أن لن تقول الاءنس والجن على الله كذبا * وأ نه, كان رجال من الاءنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * وأ نهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا * وأ نا لمسنا السمآء فوجدنـ'ها ملئت حرسا شديدا وشهبا * وأ نا كنا نقعد منها مقـ'عد للسمع فمن يستمع الان يجد له و شهابا رصدا * وأ نا لا ندرى أشر أريد بمن فى الارض أم أراد بهم ربهم رشدا * وأ نا منا الصـ'لحون ومنا دون ذ ' لك كنا طرآئق قددا * وأ نا ظننآ أن لن نعجز الله فى الارض ولن نعجزه و هربا * وأ نا لما سمعنا الهدى'ءامنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا * وأ نا منا المسلمون ومنا القـ'سطون فمن أسلم فأولـ'َئك تحروا رشدا * وأما القـ'سطون فكانوا لجهنم حطبا * وأ لوا استقـ'موا على الطريقة لاسقينـ'هم مآء غدقا * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا * وأن المسـ'جد لله فلا تدعوا مع الله أحدا * وأ نه و لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا . [1]

أما بشأن إمكان معاشرة واختلاط أفراد طائفتى الجن والانس

١ ـ الآيات ١ إلى ١٩، من السورة ٧٢: الجن.

ببعضهم ظاهرا أو باطنا ، وإعانة بعضهم بعضا فى الاءيمان والكفر، وبإجمال : أن يكون لهم تأثير على بعضهم البعض مع حفظ إرادة واختيار كل من هذين الطائفتين، فقد وردت بذلك آيات من القرآن الكريم فى أن الله سبحانه يجمع يوم الجزاء طائفتى الاءنس والجن فيتم الحجة عليهما أنهما قد تنكبتا عن جادة الصواب وتبعا بعضهما بلا إجبار وإلزام، بالرغم من إرساله الرسل والانبياء إليهما لاءنذارهما، فآل عاقبة أمرهما إلى الخسران والعذاب ؛ فيقول :

ويوم يحشرهم جميعا يـ'معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أوليآؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنآ أجلنا الذى َأجلت لنا قال النار مثوى'كم خـ'لدين فيهآ إلا ما شآء الله إن ربك حكيم عليم * وكذ'لك نولى بعض الظـ'لمين بعضا بما كانوا يكسبون * يـ'معشر الجن والاءنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم ءايـ'تى وينذرونكم لقآء يومكم هـ'ذا قالوا شهدنا على'أنفسنا وغرتهم الحيو'ة الدنيا وشهدوا على' أنفسهم أ نهم كانوا كـ'فرين *ذ'لك أن لم يكن ربك مهلك القرى' بظلم وأهلها غـ'فلون * ولكل درجـ'ت مما عملوا وما ربك بغـ'فل عما يعملون .[١]

فالله سبحانه يكلف جميع أفراد الانسان والجان ويثيبهم حسب ذلك التكليف، أو يسوقهم إثر تجريهم ومعصيتهم وإتمامه الحجة عليهم إلى جهنم ؛ فهو يعدهم العذاب الاليم والخسران فى عاقبة الامر :

أولـ'ئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من

١ ـ الآيات ١٢٨ إلى ١٣٢، من السورة ٦: الانعام.

الجن والانس إنهم كانوا خـ'سرين . [١]

وقيضنا لهم قرنآء فزينوا لهم مـا بيـن أيديـهم ومـا خلفـهم وحـق عليـهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس إنهم كانوا خـ'سرين . [٢]

وقال الذين كفروا ربنآ أرنا الذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحـت أقدامنا ليكونا من الاسفلين . [٣]

وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين . [٤]

ولـ'كن حق القول منى لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين . [٥]

وجعلوا بينه و وبين الجنة نسـبا ولقـد علمـت الجنـة إنـهم لمحضـرون * سبحـ'ن الله عما يصفون * إلا عباد الله المخلصين . [٦]

فمن تأمل أدنى تـأمل فى هـذه الآيـات أدرك أن الجـن خلقـوا مسـاوين للاءنسـان، فـهم فى التكليـف والمؤاخـذة والاختيـار والارادة والثـواب والعقـاب والسوق إلى الجنة أو الهوى فى جهنم على حـد سـواء . وبـالطبع فـإن وجودهـم أضعـف مـن الانسـان ، كمـا أن أفـراد الانسـان أنفسـهم يتفـاوتون بينـهم قـوة وضعفا .

وباعتبار تفوق الاءنسان فى القوة علـى الجـن، فقـد كـان نـبى الجـن مـن طائفـة الاءنـس ، لا مـن أنفسـهم؛ فالآيـة المذكـورة ألـم يـأتكم رسـل منكـم تعـنى : رسـل مـن جنـس المـادة والطبيعـة ، مقـابل المـلائـكة الـذيـن هـم

١ ـ الآية ١٨، من السورة ٤٦: الاحقاف.

٢ ـ الآية ٢٥، من السورة ٤١: فصلت.

٣ ـ الآية ٢٩، من السورة ٤١: فصلت.

٤ ـ الآية ١١٩، من السورة ١١: هود.

٥ ـ الآية ١٣، من السورة ٣٢: السجدة.

٦ ـ الآيات ١٥٨ إلى ١٦٠، من السورة ٣٧: الصافات.

موجودات ملكوتية .

فهؤلاء الانبياء كانوا من جنس البشر؛ والبشر والجن متجانسان ، أى من مادة وطبيعة واحدة ؛ فالقول إن هؤلاء الانبياء كانوا من جنس الجن هو قول صحيح وصائب .

وقد قال العلامة الطباطبائى قدس الله نفسه الزكية : ولقد سئل عن هذا الامر من الجن أنفسهم : « ألم يأتكم رسل منكم » ؟ أى من جنسكم ، فقالوا فى الاءجابة: إن أنبياءنا من الاءنس، وإنا آمنا بخاتمة الرسالات وأقررنا بالنبى خاتما للرسل.

أفليس من المضحك والمثير للسخرية ـ مع وجود هذه المطالب وهذه الآيات الجليةـ أن يقول امرى: إن الجن فى القرآن بمعنى الميكروب . أو إن بعض أنواعهم ميكروبات ؟ ذلك لان الميكروب موجود حى وصغير وخفى . أفهل يحشر الله سبحانه هذه الميكروبات فيحاسبها ويعذبها ؟

أو أنها تلقى فى جهنم مع البشر رديفا لهم ؟

أو كانت هذه الميكروبات هى التى تشرفت بالحضور عند رسول الله فى مكة فآمنت به ، وحكى الله سبحانه أقوالهم فى قرآنه ؟

فمحل نزول الجن فى مكة معين معروف، وقد سمى بمسجد الجن ، يقع قرب المسجد الحرام فى شارع المسجد الحرام، حيث يستحب للحجاج الذهاب إليه والصلاة فيه ركعتين .

قال لى يوما أحد المطلعين فى أحد مجالس طهران : أيها السيد! إن هؤلاء الامريكان هم الجان أنفسهم ، وإن من معجزات القرآن الكريم إخباره عن اكتشاف قارة أمريكا ؛ لان الجن معناه الموجود الخفى الحى ، والامريكان كانوا حتما أحياء عند نزول القرآن ومخفيين عن نظر جميع أفراد البشر.

فأجبته : إن الجن مقابل الإنس وعدله ومساويه ، وهذه الحقيقة مشهورة فى الخطابات القرآنية التى تعد الجن مع الانس وليس ضمنهم ، وإن جميع أفراد البشر وجدوا من أصل واحد هو آدم وزوجه ، تبعا للآية الكريمة الصريحة : يـ'أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس و'حدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونسآء . [1]

فحيثما وجد البشر فهو إنسان من ولد آدم لا من الجن ؛ لذا فإن جميع الرجال والنساء على ظهر البسيطة هم من آدم وحواء، ولا دخل للجن فى هذا النسل، فالإنسان الاءفريقى والامريكى والعنصر الاحمر هم كلهم من طائفة الاءنسان، والاءنسان غير الجن .

إن هؤلاء الافراد الذين يقحمون أنفسهم فى التفسير بدون أن يمتلكوا معرفة بالمنطق القرآنى ، فيحاولون تفسير القرآن وفق علومهم ومدركاتهم ، ستظهر منهم نظائر هذه المطالب ، فيدعون الميكروب شيطانا وقصص القرآن تمثيلا؛ وفى الحقيقة فإنهم سيعرضون أساطير وحكايات وهمية من نسج خيالهم ، وحاشا من كلامه العالى ، الذى قال عنه : إنا جعلنـ'ه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه و فى أم الكتـ'ب لدينا لعلى حكيم ؛ [2] أن يسقط إلى هذا الحد فى المطالب السطحية والتخيلات الوهمية .

ولو فهم هؤلاء المفسرون آية واحدة فقط من القرآن : ومآ أوتيتم من العلم إلا قليلا ، لما حاولوا ـ إلى آخر حياتهم ـ أن يمسكوا بقلم التفسير ويقتحموا ميدانه .

---

١ ـ الآية ١، من السورة ٥ : النساء .

٢ ـ الآيتان ٣ و ٤، من السورة ٤٣ : الزخرف .

فحين يدرك الإنسان ضحالة علمه ، فإنه لن يتعرض للمطالب القرآنية السامية والراقية التى تقصر الافكار عن بلوغها، ويسلك طريق البحث والتنقيب إلى آخر عمره ليتضح الامر لديه بدرجة كافية؛ لا أن يكرر على الدوام هذه الصيغة المحفوظة التى استظهرها الجميع :

إن العلم لايؤيد هذا الامر! إن التجربة لم تثبت ذلك !

إن علم وظائف الاحياء وعلوم الحياة لم تفعل كذا وكذا... إلى آخره . فما علاقة علم وظائف الاعضاء وعلوم الحياة بكشف الجن والشيطان ، أو برؤية الملائكة ؟

إن الطلاع على هذه الامور له طريق آخر ما لم يسلكه الانسان فلاحق له فى التدخل وإظهار النظر، وهذا الامر من الواضحات ، إذ إن فروع العلوم كثيرة ومتشعبة ، وكل منها يختص بموضوع معين ، فاستخدام علم وظائف الاعضاء فى الورود فى علم كشف الحقائق والمخفيات ـ بما فيها الموجودات الملكوتية الرحمانية والموجودات الجنية الشيطانية ـ والسعى بتلك الادوات والوسائل للعثور على حلول لمسائل هذه العلوم ، هو كالوصول إلى تركستان لمن كان يحث الخطى قاصدا مكة !

لا ندعى بوجوب حيازة المفسر لروح ملكوتية، ولا نبغى ألا يفسر القرآن أحد. لكننا نقول : ينبغى للمفسر أن يلم بمعانى ومصطلحات القرآن ، فيفسر القرآن كما يريد القرآن ، وبلسان القرآن ، وإن لم يكن المفسر مسلما حتى ، بل مسيحى أو يهودى ، فالمهم فى الامر أن لايتخطى فى تفسير القرآن المنطق القرآنى والرؤية القرآنية ، فيقول ما قاله القرآن بغض التنظر عن اعتقاده الشخصى .

إن من أكبر الهفوات التى ارتكبها الشيخ محمد عبده فى تفسير « المنار» هو قلة اهتمامه وعنايته فى تفسيره بالحقائق و معنويات وأسس

العالم العلوى وخلقة موجودات ما وراء هذا العالم ، فى حين عنى واهتم بأسس وعلائق العلوم المادية والتقدم الطبيعى .

فهذا المنطق لا يمنح الروح البشرية الارتواء ، ولا يخمد عطشها الملتهب ، لان البشر مرتبط ومتعلق بعالم الغيب ، فبدنه فى عالم الشهادة لكن روحه وسره وكمون وجدانه فى عالم الملكوت ، فلا يمكن إرضاءه وإشغاله بهذه العلوم الفانية البشرية . لكن تفسير « الميزان » على معلمه آلاف التحية والثناء والرحمة الالهية الموصولة ، قد فتح هذا الباب فى التفسير، فاعتبر أن الولاية هى حقيقة معانى القرآن ، وقدم العرفان على أنه الطريق الوحيد للوصول إلى سر الملكوت. وقد استفاد فى هذا التفسير من سنة النبى الاكرم فى إشباعه الارواح الغرثى، وإروائه المتعطشين للمعارف فى دعوته إلى الله ووحدته الحقة الحقيقية، وإلى عالم الروح والملكوت ، وإلى الوصول إلى مقام الولاية ، والتزود من كلا عالمى الملك والملكوت .

لذا ، فقد لوحظ : أن تفسير العلامة الطباطبائى قدس الله سره الزكى قد حاز هذه الايام فى مصر ولبنان وبعض البلاد الاخرى هذه الشهرة الفائقة؛ ومع أن مؤلف « المنار » سنى المذهب ومن أهل تلك البلاد والديار ـ أى مصر ـ لكن المعلمين وخريجى المعاهد والجامعات المصريين واللبنانيين قد شغفوا بتفسير « الميزان » إلى الحد الذى لم نكن لنتصوره أبدا .

لقد ذهبت خلال حلولى فى مدينة مشهد المقدسة لزيارة أحد علماء النجف الاشرف المقيمين حاليا فى قم بعد تشرفه بالقدوم للزيارة ؛ وذلك بعد مدة قصيرة من كتابتى لرسالة « مهر تابان » (= الشمس الساطعة) كتخليد لأستاذنا العلامة ، حيث طبعت تلك الرسالة بسرعة ؛ وكان مجلس ذلك العالم يضم جمعا من أولاده وأصهاره ، و قد تطرق الحديث إلى رحلة العلامة ، وكان الحاضرون يدلون بأقوالهم ، فسألنى أحد أصهار هذا العالم ،

وكان من مواليد النجف ومن أصل عربى من أحفاد المرحوم الصدر: ألم تكتبوا هذه الرسالة بالعربية ؟ فلقد كان حريا أن تكتب بتلك اللغة .

فأجبته : لقد كان العلامة من المتكلمين بالفارسية ، وإيران بلده وموطنه . وقد أ لف هذا الكتاب للتعريف بأحواله، ومن الواضح أن شهرة العلامة فى إيران أكثر من غيرها .

قال : إنكم على خطأ، فللعلامة فى البلاد العربية شهرة تفوق عشرات المرات شهرته فى إيران ؛ فأساتذة الجامعات وأهل الفن والاطلاع ، وحتى طلبة الجامعات يعتمدون على تفسير « الميزان » ، و صار هذا الأمر عاديا معهودا . فالكل يعتبر« الميزان » مصدرا أصيلا للتحقيق ، فى حين تراجعت جانبا تفاسير «المنار» و «فى ظلال القرآن» وأمثالها .

وكان يقول : لقد كنت بنفسى مقيما هناك ، ولمست هذا الأمر عن قرب .

فقلت : ليس فى الامر من مشكلة ، إذ يمكن لبعض أهل الخبرة ممن لهم إلمام كامل بالعربية أن يترجم هذا الكتاب إليها ليتضح لهم أيضا الاسلوب الاخلاقى والسلوك الادبى ، و أيضا علو همة و إخلاص هذا الفقيد السعيد. رحمة الله عليه ما بقيت السماوات والارضون .

كما أن مسألة تأثير الجن فى النفوس البشرية من الاهمية بحيث بين الله المتعال فى قرآنه الكريم من باب سنته القطعية فى مسألة دعوة الانبياء والمرسلين جعله أعداء لهم من طائفة الانس ليعاكسوا مسيرة الدعوة ويعرقلوا تبليغ الرسالات الالهية ويختلقوا المشكلات والعقبات أمامها ، وأ نه تعالى يجعل أيضا أعداء من طائفة الجن لمثل هذا الامر، فيعاضدون الاعداء الانسيين فى إيجاد الموانع والعقبات أمام سبيل دعوة الانبياء وإبلاغهم رسالات الله ؛ كل ذلك لتكون دعوة الانبياء مقرونة بالجد والجهد ، محفوفة

بالمشقة والمجاهدة والتعب :

وكذ'لك جعلنا لكل نبى عدوا شيـ'طين الانس والجن يوحى بعضهم إلى' بعض زخرف القول غرورا ولو شآء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون * ولتصغى'إليه أفدة الذين لا يؤمنون بالاخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون .[1]

فينبغى للانسان ـ لهذا الامرـ أن يستعيذ بالله تعالى من شر شياطين الجن ، كما يستعيذ به من شياطين الانس .

فالشيطان بمعنى الموجود الشرير، وليس كل الجن شياطينا ، كما ليس كل الانس شياطينا ؛ والشيطان الجنى هو ذلك الجنى الكافر غير المسلم، الذى من دأبه الفساد والشر والشيطنة ، كما أن من دأب الشيطان الانسى ، أى الاءنسان غير المسلم، الاضرار والاعاثة فى الارض فسادا .

فشياطين الجن تأنس بشياطين الانس وتصحبها ، كما أن مسلمى الجن هم فى صدد إعانة ومساعدة مسلمى الانس .

ويتمثل عمل شياطين الانس فى الوسوسة الظاهرية والخارجية للانسان ، فهم يغرونه ويحرفونه بكلامهم المعسول عن الصراط المستقيم ، ويسوقونه إلى أهدافهم وغاياتهم الفاسدة التى تعقب الخسران والندامة .

فى حين يوسوس شياطين الجن إلى الانسان من باطنه وداخله ، فيوردون عليه الخواطر السيئة والافكار الجاهلة والآراء الكاسدة الفاسدة ، ليبعثوه على ارتكاب الاعمال الشريرة والخبيثة ويزينون له ذلك .

والوسوسة هى حديث النفس بما ليس من مصلحة الانسان فعله ، بل بما يحيد به عن الاستقامة والنهج القويم .

---

١ ـ الآيتان ١١٢ و ١١٣، من السورة ٦ : الانعام.

وقد ورد فى سورة الناس أن على الانسان أن يستعيذ بالله ويحتمى به ويلتجى إليه من هذه الوساوس التى يسوقها إليه كل من الجن والانس :

قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذى يو سوس فى صدور الناس * من الجنة والناس .[١]

وقد نزل جبرائيل بهذه السورة مع سورة الفلق على رسول الله من قبل الله سبحانه، وذلك حين حم الحسنان عليهما السلام ومرضا، لتقرأ عليهما فيشفيان . ومعروف أن هاتين السورتين لم يضمهما مصحف ابن مسعود، فهكذا ورد عن أهل البيت عليهم السلام ، لان ابن مسعود كان يعتقد أ نهما تعويذتان نزل بهما جبرائيل من السماء ليعوذ بهما الحسنان ، ولقد علقتا عليهما وقرأتا فشفيا ؛ أما الآخرون غير ابن مسعود فقد عدوهما من سورالقرآن .

والمراد بالمعوذتين ـ بصيغة اسم الفاعل ـ سورتا قل أعوذ برب الناس، وتتضمن الاستعاذة بالله من كل شر روحى ووساوس باطنية ؛ وسورة قل أعوذ برب الفلق وتتضمن الاستعاذة بالله من كل شر بدنى وجسمى ودنيوى .

وقد روى المجلسى رضوان الله عليه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقرأ آية الكرسى حين يأوى إلى فراشه ، ويقول : إن جبرائيل جاءنى فقال : يا محمد ! إن عفريتا من الجن يكيدك فى منامك ؛ فعليك بآية الكرسى .[٢]

---

١ ـ السورة ١١٤: الناس.

٢ ـ «بحار الانوار» ج ٦، ص ١٥٦، طبعة الكمبانى .

ولقد أردنا أن نكتفي في هذه البحوث بآيات القرآن لتكون حجة قاطعة على منكري وجود الجن وتأثيراتهم السيئة ، وإلا فإن الروايات المستفيضة من الشيعة والسنة قد فاقت حد الاحصاء ، ويحتاج البحث فيها إلى كتاب مستقل .

أما من جهة المشاهدة الخارجية للجن ، فلا نتطرق إلى نقل ما جاء في الكتب والتواريخ من حكايات ، بل نكتفي فقط بنقل عدة فقرات من مشاهدات قد حصلت في زماننا منقولة عمن يوثق بكلامهم .

فضمن بيان أن تقسيم الآية المباركة : بسم الله الرحمـ'ن الرحيم في مربعات إلى الحروف الابجدية مفيد لدفع الجن عن الافراد المبتلين بالجن ، قال الاستاذ العلامة الطباطبائي قدس الله سره الشريف :

لقد تطرق الحديث يوما في مجلس ما ـ وكنت حاضرا هناك أسمع وأشاهد ـ إلى موضوع أن الجن هل يستطيعون الدخول من الابواب المقفلة، أو أن يستخرجوا أشياء من صناديق مقفلة أم لا؟ فقال أحد الحاضرين ممن يدعي تسخير الجن: نعم! يستطيع الجن أن يخرجوا الاشياء من الصناديق المغلقة والمقفلة .

وكان في ذلك المجلس صندوق كبير لحفظ الملابس موضوعا في زاوية الغرفة ، وضعت فيه صرر الملابس، فجيء به إلى وسط الغرفة ، وأحكم إقفاله بأقفال متينة عديدة ، وفوق ذلك فقد جلس رجل ثقيل ضخم الجثة فوق ذلك الصندوق . وفجأة شاهدنا عيانا أن صرر الملابس منضودة جميعا على الارض خارج الصندوق، فدهشنا لذلك . ثم نهض ذلك الرجل الضخم ذو البنية القوية جانبا من على الصندوق ، وفتحت الاقفال ورفع غطاء صندوق الملابس فرأيناه خاليا من صرر الملابس!

وقال العلامة أيضا : لقد جاءني يوما السيد نور الدين(ولده الاصغر)

حين كنت فى طهران فقال: أبى العزيز! إن البحرينى موجود فى طهران حاليا، أفتريدون أن أجيئكم به على الفور؟

وكان السيد البحرينى أحد الافراد المعروفين والمشهورين بإحضار الجن ، ومن المتبحرين فى علم الابجد وحساب المربعات .

قلت : لا مانع من ذلك .

فذهب السيد نور الدين وعاد بعد ساعة أو ساعتين وبصحبته السيد البحرينى ، فجلس فى المجلس ، ثم جىء بعباءة ووضع طرفى العباءة فى يدى ، وأمسك طرفيها الآخرين بيديه ، وكانت العباءة مرتفعة عن الارض ـ ونحن نمسك بها ـ بحوالى شبرين .

ثم قام بإحضار الجان على هذه الحالة، فتصاعدت ولولة وهمهمة شديدة تحت العباءة، وكانت العباءة تهتز بشدة تكاد معها أن تفلت من أيدينا ، وكنت أمسك بها بقوة ، فرأيت تحت العباءة مخلوقات شبيهة بالآدميين قصار القامة لا تتجاوز قاماتهم الشبرين مزدحمين بأعداد كبيرة يتحركون ويذهبون ويجيئون .

ولقد شاهدت بكمال الفراسة أن هذا المنظر كان خاليا من خداع الاعين والاجواء المفتعلة، كلا بالتأكيد، فلقد كان أمرا ذا وقوع خارجى مائة فى المائة .

وفى هذه الحال فقد رسم السيد البحرينى مربعا ذا اثنين وثلاثين قسما، ولم أكن قد سمعت أو شاهدت قبلا مربعا كهذا، لان سير المربعات أربعة فى أربعة، أو خمسة فى خمسة، ومهما تصاعدت كمربع مائة فى مائة فهى على هذا المنوال؛ لكن مربعا ذا اثنين وثلاثين قسما غير موجود فى أى كتاب . وكان السيد البحرينى يطرح على أسئلة ويسجلها ثم يجيب عليها، فأجاب عن بعض مشكلاتنا التى لم يطلع عليها أحد بإجابات

صحيحة وصادقة .

ولقـد امتلكـنى العجـب ذلـك اليـوم كثـيرا؛ تمامـا كحـالى حـين أحضـر الاديـب [1] ـ وكـان مـن تلامـذة أخـى السـيد محمـد حسـن ـ روح القـاضى رحمةاللـه عليه وسأله عنى فأجـاب : إن سـلوكه مقبـول وجيـد جـدا ، والعيـب الوحيد الذى فيه أن أبـاه غـير راض عنـه ويقـول إنـه لميشـركه معـه فى ثـواب التفسير الذى كتبه .

وحين كتب إلى أخـى هـذا المطلـب مـن تـبريز، قلـت فى نفسـى : إنـنى لم أكن أرى لنفسى ثوابـا مـن التفسـير كـى أهديـه لابى ، فيـا إلهـى ! إن كنـت بلطفك قدرت لى ثوابـا علـى هـذا التفسـير فاجعلـه مـن نصيـب والـدى فقـد أهديتهما ثوابه بأجمعه .

ثم وصلتنى رسالة أخرى بعد عدة أيام مـن أخـى يقـول فيـها : إنـه حـين أحضـر روح المرحـوم القـاضى ، قـال لـه : الآن رضـى أب السـيد محمدحسـين عنه ، فهو سعيد لمشـاركته إيـاه فى الثـواب . ولم يكـن لاحـد خـبر عـن إهـداء الثواب هذا .

ولقد قال آية اللـه الحـاج الشـيخ محمـد رضـا مـهدوى الدامغـانى دامـت بركاتـه، وهـو مـن علمـاء مدينـة مشـهد المقدسـة البـارزين: لقـد غضـب يومـا المرحوم الحاج الشـيخ حسـن علـى نخودكـى الاءصفـهانى أعلـى اللـه مقامـه الشريف على أحد تلامذته ـ وهـو المرحـوم السـيد أبـو الحسـن حافظيـان ـ إثـر خطـأ واشـتباه ارتكبـه فى أمـرما . فقـال المرحـوم الشيخ له: إما أن استعيد منك

---

١ ـ اسمـه الشـيخ محمـد علـى ارتقـائى، والملقـب بـأديب العلمـاء، وقـد نقلنـا فى رسـالة « مـهر تابـان » (= الشـمس السـاطعة) وفى «معـاد شناسـى» (= معرفـة المعـاد) مطالبـا عنـه تحـت عنوان تلميذ السيد محمد حسن الاءلهى التبريزى الاخ المكرم للعلامة الطباطبائى .

إجازة إعمال جميع الاشياء التى أعطيتكها، أو أن أبعدك من هنا.

فرضى المرحوم حافظيان بالاءبعاد؛ فقال له الشيخ: ينبغى عليك الذهاب عشر سنين إلى الهند، على أن لا تقدم خلالها إلى مشهد مطلقا، ثم تبقى هناك بعدها خمس عشرة سنة أخرى يحق لك فيها التردد المحدود على مشهد ، ثم إن شئت بعدها المجىء إلى مشهد والاءقامة فعلت .

وقد ذهب المرحوم حافظيان إلى الهند عشر سنين ، ثم كان بعد ذلك يتشرف بزيارة مشهد بين مدة وأخرى ؛ واتفق أن حدثت قصة خلال إحدى سفراته إلى مشهد تدخل بنفسه فى حلها، وقد شهدت تلك القضية بنفسى .

فلقد جاء يوما أحد أهالى المنبر فى كرمانشاه، واسمه المرحوم صدر، وهو مقيم فى مشهد منذ سنوات قلائل؛ جاء إلى والدى المرحوم آية الله الحاج الشيخ محمد كاظم الدامغانى رحمة الله عليه وقال: إن الجان يؤذوننا فى المنزل كثيرا ، فهم يثيرون الصخب ولا يدعوننا ننام بسلام، إذ يوقظوننا بضجيجهم، فنشاهد بكرة البئر تدور والماء يخرج من البئر ثم يسكب فيه ثانية، لكننا لا نشاهد أحدا، وكل ما نشاهده حركة البكرة ودورانها.

فقال المرحوم أبى: أرغب كثيرا أن أشاهد بأم عينى بعض هذه الاعمال التى يعملونها . فإن عملوا هذه المرة شيئا مما يمكن مشاهدته ، فتعال وأخبرنا .

وقد جاء المرحوم صدر إلى منزلنا يوما فقال : لقد جاؤوا وفتحوا غطاء صندوق الملابس وأخرجوا الملابس جميعا وعلقوها على جدار الغرفة .

فذهب المرحوم والدى إلى هناك وكنت بمعيته ، فشاهدنا أنهم

ألصقوا الملابس بصورة غير منتظمة بالحائط ، وكانت الملابس معلقة على الحائط بلا مسمار أو شيء يمسك بها ، فما إن نمس أحدها إلا ويسقط إلى الارض . وكان هذا المشهد غريبا ومحيرا ، وكان ذاك لابى أمرا لم يعهده أو يره من قبل . وقد نقل المرحوم والدى هذه القضية إلى المرحوم حافظيان وكان عندها فى مشهد ـ فأصدر أمرا أو فعل شيئا ما كف بعده الجان عن التعرض للمرحوم صدر بأى أذى .

الجهة الثالثة من جهات الاشكال هى : هل يمكن تفسير القرآن وبيان معانيه وفق المعانى التى يرتضيها الانسان ويستحسنها ، أو ينبغى أن يخضع التفسير لضوابط وقواعد معينة بحيث يعد فى حال تخطيها وعدم رعايتها تفسيرا خاطئا سقيما ؟

إن القرآن الكريم يمتلك ـ كما فى سائر الكتب السماوية وغير السماوية ذات اللغات المختلفة ـ ألفاظا وكلمات تحكى عن معان خاصة ومعينة، فما لم ترد قرينة قطعية على عدم إرادة تلك المعانى، فينبغى القول بإن المراد بالكلام هو تلك المعانى الاولية المتبادرة ، سواء كانت دلالة الالفاظ على معانيها دلالة تخصيصية أم بالوضع التخصصى .

وبعبارة أخرى ، فإن كل كلمة تمتلك عند نطقها دلالة على معنى خاص ، وهو ما يدعى ب الظهور؛ بحيث ينبغى حمل الكلمات على مفاهيمها الظاهرية ما دام القائل لم ينصب قرينة لفظية أو بالاشارة والكناية أو قرينة خارجية على أن المراد من هذه الكلمات معان أخرى غير تلك المتبادرة .

ويدعى هذا البحث ببحث حجية الظواهر، ويبحث مفصلا فى علمى أصول الفقه والبيان .

وحاصل الامر: أن الكلمات والالفاظ فى أى لغة و لسان كانت ، ـ عربية ، عبرية ، فارسية أو أجنبية ـ تمتلك حجية فى المحاورات

والمعاملات والاءقرارات والمحاكمات وغيرها، وتبعا لهذه الظهورات يقوم حاكم المحكمة بالاستدلال على المدعى، فيحكم لصالح المحكوم له، وضد المحكوم عليه . فإذا ادعى امرى مرة أن قصده لميكن هذا المعنى اللغوى الوضعى ، بل كان شيئا آخر، فإن الحاكم والمحكمة ، والتاجر والزارع والناكح ومن معهم ممن لهم علاقة بالشؤون والعلاقات الاجتماعية المرتبطة بالمكالمات والمحاورات ، سيردون كلامه ويرفضونه ، وسيعملون وفق أساس إرادة المعنى الظاهرى فى تفهيم المراد والقصد . ولا اختلاف فى هذه المسألة أكان هناك مخاطب فى الالفاظ والكلمات الواردة فى قالب جمل وعبارات أم لم يكن ، أو كانت العبارات موجهة لشخص حاضر أم غائب ، حتى أن حجية الظهورات لاتتغير من لغة إلى أخرى ، ومن المفاهمة إلى المشاهدة .

وحتى الكلمة الفارسية التى يكتبها شخص تركى فى إحدى المجلات التركية تكون حجة هناك ما دامت تشير الى معنى فى اللغة التركية أيضا .

وقد تحمل على هذا الاساس أهل اللغة الاتعاب والمشاق فى تدوين كتب اللغة، وفى الفصل بين المعانى الظاهرية والمعانى الاخرى . ويستدل فى المحاكم بكتب اللغة هذه المنتزعة من الفهم العرفى ، وبالاقوال المتبادلة، والمخاصمات، والشكايات والمنازعات بأدق الاساليب لتعيين المقاصد والمراد فى العقود وغيرها .

وللقرآن الكريم ، استنادا على هذا الاساس ، ظهورات تعد حجة ، حيث يبين البارى تعالى مقاصده ومراده بهذه الظهورات، فإذا أراد أحيانا بكلماته مرادا ومقصودا آخر، فإنه ينصب قرينة لذلك لئلا يختل أساس المفاهمة والمكالمة. وبغير ذلك فستنتفى الفائدة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وسينهار صرح الكلام وترويج الدين وهداية البشرية ،

وستضمحل آثار الحياة على هذه البسيطة.

فحجية القرآن الكريم تستند على أساس حجية الظهورات؛ أى لو أعطى للبشر الاءذن فى عدم حمل الكلمات على معانيها ومرادها الظاهر المتبادر، فلن تتلاشى عظمة القرآن فقط، بل إنه سيصبح رديفا لابسط وأتفه الكتب المعهودة، وسيكون مثل كتب الاساطير والقصص الخرافية كـ « ألف ليلة وليلة » وغيرها ، على الرغم من كونه أسمى الكتب التى نزلت على أساس حجية الظهورات من الملا الاعلى إلى عالم الاعتبار.

فاعتبار الشيطان والجن فى القرآن الكريم بمعنى الجرثومة « الميكروب » يعد من أوضح وأجلى التخطيات لهذا الاساس العام، ومن أوضح مصاديق التفسير بالرأى المنهى عنه بشدة على لسان رسولالله وأئمة أهل البيت عليهم السلام.

فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من فسر القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار. [1]

وفى حديث نبوى آخر: من قال فى القرآن بغير علم، فليتبوأ مقعده من النار. [2]

وفى حديث نبوى ثالث: من فسر القرآن برأيه، فقد افترى على الله الكذب. [3]

وفى حديث نبوى رابع عامى : من فسر القرآن برأيه فأصاب، فقد

---

١ ـ «الرسائل» للشيخ مرتضى الانصارى ، ص ٦٠ و ٦١، باب حجية الظن، طبعة طهران المحشاة .

٢ ـ «الرسائل» ص ٦٠، باب حجية الظن.

٣ ـ «الرسائل» ص ٦١، باب حجية الظن؛ ومقدمة تفسير «الصافى » ص ٩، الطبعة الحجرية.

أخطأ.[١]

وروى عن رسول اللـه وأوصيائه الائمة الطاهرين:

إن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالاثر الصحيح والنص الصريح.[٢]

وكذلك فقد روى عـن « تفسـير العياشـى » عـن الإمـام الصـادق عليـه السلام، قـال: مـن فسـر القـرآن برأيـه إن أصـاب لـم يؤجـر؛ وإن أخطـأ فـهو أبعد من السماء.[٣]

وروى عـن الإمـام الرضـا عليـه السـلام عـن أبيـه، عـن أبائـه، عـن أمير المؤمنين عليهم السلام؛ قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسـلم: إن اللـه عـز وجـل قـال فـى الحديث القدسى : «ما آمن بى من فسر كلامى برأيـه. ومـا عرفنـى مـن شـبهنى بخلقى، وما على دينى من استعمل القياس فى دينى».[٤]

وورد فى « تفسير الاءمام العسكرى عليـه السـلام » ضمـن حديـث عـن رسولاللـه صلىاللـه عليـه وآلـه وسـلم، قـال: أتـدرون متـى يتوفـر علـى المسـتمع والقـارى هـذه المثوبـات العظيمـة؟ إذا لـم يقـل فـى القـرآن برأيـه، ولميجف عنه. ولم يستأكل به. ولم يراء به.

وقـال: عليكـم بـالقرآن فإنـه الشـافع النـافع والـدواء المبـارك، عصمـة لمن تمسك به. ونجاة لمن اتبعه.

ثم قال : أتـدرون مـن المتمسـك بـه الـذى بتمسـكه ينـال هـذا الشـرف العظيـم ؟ هـو الـذى يأخـذ القـرآن وتـأويلـه عنـا أهـل البـيت وعـن وسائطنا

١ـ «الرسائل» ص ٦١، باب حجية الظن؛ ومقدمة تفسير «الصافى » ص ٩.

٤ـ «الرسـائل» للشـيخ الإنصـارى ، ص ٦١؛ و«وسـائل الشـيعة» ج ٣، ص ٣٧٢، كتـاب القضاء، طبعة أمير بهادر.

السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين .

فأما من قال فى القرآن برأيه فإن اتفق له مصادفة صواب فقد جهل فى أخذه عن غير أهله. وإن أخطأ القائل فى القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار. [1]

و يقول المرحوم أستاذ الفقهاء والمجتهدين الشيخ مرتضى الأنصارى فى كتاب أصوله « الرسائل »: إن الاخبار والروايات الواردة فى هذا الباب بالقدر الذى ادعى مؤلف « وسائل الشيعة » آية الله الشيخ الحر العاملى رضوان الله عليه تجاوزها عن حد التواتر.

الجهة الرابعة من الإشكال هى: هل ستنتهى المسألة بعدم الاعتراف بالجن وتخبط الشيطان فى مسألة آكلى الربا وتأويل ذلك بمرض الصرع والميكروب إلى هذا الحد. أم أ نها ستعم جميع الاشياء غير المرئية وغير المسموعة التى لا تتمكن العلوم التجربية والطبيعية والطبية من إثباتها، كالملائكة والروح، ووسائط العالم العلوى ، وصولا إلى الجنة والجحيم والميزان والصراط والموقف والحشر والنشر وذات الخالق المقدسة؟

فإن قالوا: إنهم يتوقفون فلا يعممون ذلك ولا يتعدونه إلى غيره، نقول: بأى دليل لا تعممون ذلك مع اتحاد الملاك والمعيار ومناط عدم القبول فى جميع هذه المسائل، وهو عدم إثباتها من قبل العلوم التجربية؟!

وإن قالوا بأ نهم لا يتوقفون، بل يعممون ذلك على جميع المسائل، فإننا لن نستطيع فى تلك الحال إدراك الفرق بين هذه المدرسة التى تدعى الإيمان بالله مع المدرسة المادية. أيكفى فى ذلك مجرد القول بوجود إله،

١ـ «وسائل الشيعة» ج ٣، ص ٣٧١، كتاب القضاء

٢ـ كتاب «الرسائل» ص ٦١، طبعة طهران المحشاة.

ذلك الإله الموهوم؟!

وحاصل الإشكال هو: أن روح هذه النظرية فى اعتبار الشيطان والجن ميكروبا يستمد جذوره من نفس مدرسة الماديين والطبيعيين الملحدين ومنكرى الروح والتجرد، ذلك الاتجاه الذى نسجتم شراكه وألقيتموها بين أفراد البشر لعدة آلاف من السنين.

فالإيمان بالغيب [١] وبالملائكة [٢] وما شابههما مما ورد فى القرآن الكريم له موضوعية قائمة فى أساس الإسلام، كما أن مسألة الموت والبرزخ والقيامة والحياة الخالدة فى الجنة أو الجحيم، ومسائلة ومخامصة أهل جهنم مع أهل الجنة، والحور والقصور، ورضوان، والنار ودركاتها، وملائكة الغضب وأمثال ذلك مما يشكل معظم آيات القرآن، إنما يمثل صميم عقائدنا، فإن آل الأمر إلى مساواة ذلك كله بالتمثيلات الذهنية والتوجيهات التخيلية، فما الفرق إذا بين هذه الأصول والأسس الواقعية المسلمة مع أفكار المتمردين والمرتدين من الطبيعيين والماديين الذين أعرضوا صفحا عن جميع الأسس، فلم يؤمنوا إلا بالمادة والبطن والفرج والشبع وإطفاء الشهوات وإعمال الغضب واتباع القوى الوهمية والتخيلات

١ـ كالآية ٣، من السورة ٢ : البقرة: الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلو'ة ومما رزقنـ'هم ينفقون؛ والآية ٩٤، من السورة ٥: المائدة: ليعلم الله من يخافه بالغيب. وبشكل عام فإن تقسيم العوالم إلى عالمى الغيب والشهادة أساس مهم فى القرآن الكريم، كما فى الآية ٧٣، من السورة ٦: الانعام: عـ'لم الغيب والشهـ'دة وهو الحكيم الخبير؛ والآية ١٢٣، من السورة ١١: هود: ولله غيب السمـ'و'ت والارض وإليه يرجع الامر كله؛ والآية ٩٢، من السورة ٢٣: المؤمنون: عـ'لم الغيب والشهـ'دة فتعـ'لى' عما يشركون .

٢ـ كالآية ١٧٧، من السورة ٢: البقرة: ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولـ'كن البر من ءامن بالله واليوم الاخر والملـ'ئكة والكتـ'ب والنبيين.

والتصورات التى جعلوها فى رأس برنامج عملهم؟

لقد أجابت الفلسفة العالية والحكمة المتعالية والذوقيّات والوجدانيّات العرفانيّة فى مدرسة العقل والإحساس عن جميع هذه المسائل، وأبانت عن كلام الصادع بالشريعة، الناضح من قلبه المنزّه وجبلّته المنيرة بالبرهان والعيان والمشاهدة كالشمس الساطعة فى رابعة النهار.

فالشرع والعقل والمشاهدة قد توحّدت اليوم فى اعتمادها على الأساس القويم الذى اختطّه ذلك الرجل الفريد الملكوتىّ، والإنسان الجبروتىّ، والبشر اللاهوتىّ، الذى وضع رأسه فى حريم الامن والامان الأقدس الإلهىّ، وقدمه على فرق عالم الناسوت والطبيعة، أى مَحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَهِ وَخُلَفَاؤُهُ الحَقِيقِيُّونَ الاثْنَا عَشَر الذين حُفظت أقوالهم وأفعالهم وسُطِّرت فى ثناياالكتب.

فالفلسفة مقرونة بالعرفان، وكلاهما مؤيّد ومسدّد لشرعنا القويم، نحن الجهلة والعميان عن نشأة المادّة والمزاج هذه، وعن عالم الوجود والفساد هذا، وهما دليلنا ورائدنا إلى الحرم الاصلىّ والموطن الخالد، والوصول إلى مقام عزّ الحضرة الاحديّة وعلوّ السرمديّة.

إلهِى! هَبْ لِى كَمَالَ الانْقِطَاعِ إلَيْكَ وَأَنرْ أَبْصَارَ قُلُوبنَا بضِيَاءِ نَظَرهَا إلَيْكَ حَتَّى تَخْرقَ أَبْصَارُ القُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إلَى مَعْدِنِ العَظَمَةِ وَتَصِيرَأَ رْوَاحُنَا مَعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ. [1]

١ـ من جملة فقرات المناجاة الشعبانيّة التى نقلها السيّد ابن طاووس فى «الاقبال» ص ٦٨، عن ابن خالويه ، وقال : واسم ابن خالويه الحسين بن محمّد ، وكنيته أبو عبدالله ، وذكر النجاشى أنّه كان عارفاً بمذهبنا وكان أُستاذاً بعلوم العربيّة واللغة والشعر، وسكن

كانت هذه الجهات الاربع هى الجهات المختلفة التى أوردناها لتوضيح الإشكال السادس على صاحب مقالة « بسط وقبض تئوريك شريعت » (= بسط وقبض نظرية الشريعة).

وينبغى العلم أن صاحب المقالة لم يقدم فى مقالته على نفى هذه الامور،وأن ما أورده بعنوان الاسلوب التفسيرى للمرحوم الطالقانى ومقارنته بالأسلوب التفسيرى للمرحوم العلامة الطباطبائى كان فى الحقيقة صغرى القياس القائل: إذا تفاوتت المقدمات العلمية للمفسر ومعلوماته عن العلوم التجريبية أو العلوم العقلية،فإن فهمه للكلام الإلهى سيتفاوت؛ لذا ينبغى القول أن ليس هناك من معنى للفهم الواحد والثابت والصحيح للقرآن والمتون الدينية. وهذا يمثل أخطر فقرات كلامه وأشدها تخريبا: أن ينكر الفهم الصحيح للدين بدليل اختلاف الأفهام؛لكنه كان فى نفس الوقت، وضمن هذا الاستنتاج الخاطئ، يقوم بتأييد وجهة تفسير المرحوم الطالقانى فلزم إيراد هذه الانتقادات لإبطال هذا النهج من التفسير.

الاءشكال السابع: عدم إدراكه واستيعابه لمقولة الاستاذ آيةالله العلامة الطباطبائى قدس الله سره الشريف فى سر اتخاذ العلل الطولية من جانب رب العزة تعالى لإيجاد الامور الخارجية والحوادث الكونية، فى إثبات عدم تنافى إسناد الجنون إلى بعض الأمور الطبيعية المحسوسة وإلى

بحلب .

وذكره محمد ابن النجار فى «التذييل» وقال: وقد ذكرناه فى الجزء الثالث من «التحصيل» كان إماما أوحدا فرد الدهر فى كل قسم من أقسام العلوم والادب، وكان إليه الرحلة من الآفاق، سكن بحلب، وكان آل حمدان يكرمونه، ومات بها، قال: إنها مناجاة أميرالمؤمنين على بن أبى طالب والائمة من ولده عليهم السلام كانوا يدعون بها فى شهر شعبان .

بعض الأمور الخفية.

فقد بيّن الأستاذ اللاّمة هاأعلى اطالب ا فسفالعرفانية والقرآنية، أى وجود سلسلة العلل الطولية بين الذات القدسية للحضرة الاحدية ،أى الواحد الأحد، ذاتا وصفة، وبين الموجودات والحادثات الكثيرة والمختلفة لهذا العالم، وقدم حلا لهذا الأشكال يتعذر بدونه حل مسألة كيفية نشأة الكثرة من الوحدة، والحادث من القديم، والمادى من المجرد، والطبيعى من النور المحض.

فهذه كتب العلم والفلسفة قديمها وجديدها فى متناول أيدينا، كلها قد عجزت وتعثرت فى كيفية حدوث الحادث من المجرد، والاستناد إلى العلة البسيطة، اللهم إلا تلك الكتب التى نهجت نهج العلامة واختطت أسلوبه .

فالماديون الذين عجزوا عن الجمع بين علتين مادية ومعنوية ، أراحوا أنفسهم تماما وتنصلوا من قبول إله قادر قاهر عليم حكيم مختار مريد، وأنكروا وجود الخالق العليم .

أما الالهيون فانقسموا مدارس واتجاهات مختلفة ، فمنهم من أنكر العلل المعنوية وبعض حصر العامل بهذه العلل المادية ، و آخرون أنكروا العلل المادية واعتبر أن العلل المعنوية فقط هى المؤثرة فى العالم . وبقى أولئك القائلون بالعلل الطبيعية والعلل المعنوية ـ كليهماـ عاجزين عن بيان كيفية ارتباطهما وتأثيرهما على بعضهما، فبقيت مطالبهم مشتتة ومتفرقة، لم يقدموا نهجا قويما ولا سبيلا متينا عاريا عن التناقض فى القول أو التهافت فى الاستدلال.

أما القول بالعلل المادية التى توجبها الضرورة والمشاهدة، والقول بتبعيتها للعلل المعنوية تبعا لضرورة البرهان وضرورة الكشف بالعيان ،

وصولا إلى الواحد الحى القيوم الذى هو نفسه المبدى والمنشى والمعيد والمعاد، فهو أشبه بالماء الصافى الزلال البارد الهنىء الذى ينساب فى حر تموز اللاهب على الاكباد الحرى للباحثين عن وادى الرواء وكأس المعرفة، يحل جميع الإشكالات، ويبرهن بداهة على الاشياء التى تبدو بعيدة عن التحقق .

فهو من جهة يوافق على سلسلة العلية بقوامها واستحكامها هذا ويعتقد بصحتها، ومن جهة أخرى يستدل ويبرهن على وحدة علة العلل بتمام معنى الكلمة، سواء الوحدة فى الذات أم فى الصفات، أم فى الافعال .

لذا ، فإن القول بسلسلة العلل الطولية له ما يدعمه من الناحية الفلسفية والعرفانية والقرآنية ، وهو الحل الامثل لعقد المشكلات المستعصية والمسائل الغامضة العسيرة فى باب الكلام والحكمة ، ولا مفر للشخص الباحث ولا مناص له من قبوله والتسليم به روحا وقلبا كى يمكنه الوصول للحقائق .

فإن فصلنا بين تأثير الدواء وتأثير الميكروب وبين العلل الطبيعية ، لخالفنا الصواب ، وإن أنكرنا تأثير الله سبحانه فيهما لخافنا الصواب أيضا . أما لو قلنا بأن تأثير الدواء والميكروب من الله سبحانه ، لصار منطقنا سليما صائبا، سواء اعتبرنا بين الميكروب والدواء وبين الله سبحانه واسطة مثل ملائكة الرحمة أو جان النقمة أم لم نعتبر . فالمهم فى الامر هو الاعتراف بطولية العلل ، لا ننا حين نعتقد بذلك فإن مسألة الملائكة والجان ستثبت هى الاخرى وتصبح مسألة مقبولة .

ولكن لعدم إدراك صاحب المقالة لروح هذا المطلب، فقد أشكل على العلامة إسناده بعض أنواع الصرع إلى الميكروب، وفى نفس الوقت إلى الشيطان أيضا . ويلزمنا ـ إيضاحا للامر ـ أن نورد عين كلامه ثم نتطرق إلى

البحث عنه ، فقد قال:

(ومضافا إلى ذلك، فقد قال المرحوم الطباطبائى : أولا: إن القدر المتيقن من دلالة الآية هو أن بعض أنواع الجنون على الاقل مسبب عن مس الجن. وثانيا: إن إسناد الجنون ونسبته إلى علل معينة كمس الشيطان لا يستلزم إبطال العلل الطبيعية، بل إن تلك العلل غير الطبيعية أعلى وفى طول العلل الطبيعية، لا فى عرضها.

ونلحظ كيف حلت مشكلة التعارض مع العلم الطبيعى بالتوسل بعدة قواعد فلسفية، وهى أولا: أن أساس العلية جار فى العالم، وثانيا : أننا نمتلك علا طولية متدرجة، وثالثا: أن العلل غير المادية لاتحل محل العلل المادية والطبيعية، وأن الفعل يمكن أن يستند فى آن واحد لكليهما. لذا يجب فهم الآية بالشكل الذى لا تعطى فيه معنى نفى العلل الطبيعية أو المس المادى والمباشر للشيطان.

وهو معنى جديد وبالطبع معنى عميق متعال، لكنه يثل فهما تحقق فى ضوء تلك الاسس الفلسفية(التى كانت من بين معتقدات العلامة الطباطبائى وليست أبدا من ضرورات الدين)؛ لكن نفى العلية فى العالم(على الاقل بأسلوب الاشاعرة) أو عدم القبول بالعلية الطولية، واعتبارها أمرا لا يمكن إدراكه وتصوره أصلا، وكذلك القول بالتدخل المباشر للموجودات المادية فى العالم(كما يرى الكثير من المتكلمين) ، أو عدم القول بالموجودات المادية والمفارقة، واعتبار الروح وإبليس والملك ـ خلافا للحكماء ـ مادة لطيفة(كما يرى الكثير من المتكلمين والمحدثين) ، كل هذه الامور تؤدى إلى عدم إعطاء الآية معنى كما أراده المرحوم الطباطبائى . [1]

١ ـ مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت»، مجلة «كيهان فرهنگى» العدد ٥٤ ، تيرماه ١٣٦٧ شمسى ، رقم ٤، ص ١٥، العمود الثالث .

وقوله هذا مخدوش من عدة جهات:

الجهة الأولى: أ نه مع تصريحه واعترافه أن تعليل العلامة هذا هو معنى عميق متعال، أى أ نه لم يستطع الرد عليه من جهة فن الاستدلال، لكنه يقول أنه كان من إيحاءات ذهن العلامة وليس من ضروريات الدين، لأن الأشاعرة والكثير من المتكلمين والمحدثين لا يقبلون به.

وينبغى أن نسأل أولا: أيتوجب أن يكون ما يصوغه الشخص الحكيم والمحقق فى قالب البرهان، ويستدل عليه إثباتا مقبولا سائغا للجميع، ولو كانت مقدماتهم الاستدلالية فاسدة ومخدوشة؟

أكان يتوجب أن لايكون هناك مخالف لما برهن عليه ابن سينا أو الخواجة نصيرالدين أو صدرالمتأ لهين فى باب الألهيات؟ أو أن يقضى على جميع الماديين والطبيعيين فى العالم ؟

و أن علينا حين نرى حاليا وجود الكثير من أصناف الماديين أن نقول بأن مقدمات برهان أولئك الحكماء من أهل التوحيد كانت خاطئة، وإن ذلك يستتبع أن يكون أصل الاعتقاد بوحدة الحق تعالى أمر خاطىء؟!

وحين نقول إن الحق فى الولاية كان لأمير المؤمنين عليه السلام، أفتستلزم واقعية هذا الأمر أن لا يكون هناك مخالف لهذه المسألة؟

أفإن علمنا أن أبا بكر وعمر وأتباعهما لم يقبلوا بهذا الامر فى زمن حياة رسولالله، فإن علينا أن نقول إن أصل الولاية والخلافة والاءمامة أمر مخدوش؟!

وإذا قلنا: إن النبى الاكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم كان آخر الانبياء المرسلين بالوحى المنزل من قبل رب العزة؛ أفيمكننا القول إن هذا الكلام سيكون مقبولا إذا قبل به جميع اليهود والنصارىبه، وبما أ نهم لم يقبلوا به فعلا، وبما أن هناك ملايين من البشر المعادين

للاسـلام فى العـالم . إذن، الاءسـلام ليـس آخـر الأديـان؟! وبـأن نبينـا الأكرم ليس خاتم الرسل؟!

وأساسا، فما معنى أن يقول امرؤ بـأن الكـلام ـمـهما كـان ـ هـو صحيـح حين يقبل به الجميع فعـلا؟ فـهذا الكـلام غلـط وخـاطىء بتمـام معـنى الكلمـة، بل إن الكلام يكون صحيحا حين يكون قـابلا للقبـول، قـد صـب علـى أسـاس المقدمـات البرهانيـة والاوليـات والمسـلمات والبديـهيات.فـهو صحيـح و متين فى تلك الحالة، سواء قبله أحد بالفعل أم لم يقبل به.

ولقد كان هناك كلام صحيـح كثـير فى هـذا العـالم لم يقبـل بـه أحـد، لأن القبـول ينبغـى أن يحصـل عـن حسـن عقيـدة وصفـاء نفـس السـامع وإدراكـه وتعقله لذلك المطلب، وإلا فإنه سيرفضه.

أكانت صحيحة تلك الأقوال والآراء الـتى أبداهـا الأشـاعرة والكثـير مـن المتكلمين والمحدثين فى هذا الباب والتى دونوها فى كتبهم؟

لقد كان سيد الشهداء عليه السـلام علـى الحـق، مـهما طيـف برأسـه مـن بلـد إلى بلـد، أو وضـع فى محفـل يزيـد فاحتسـى عنـده الخمـر، أو أ لـف فى يومنا هذا فى المملكة العربية السعودية كتاب باسم حقائق أميرالمؤمنين يزيدفـدرس فى المدارس!!

و عليـه، فـإن الكـلام الراسـخ والصحيـح هـو القـائم علـى أسـاس مـن البرهان القويم والبينـة الإلهيـة، فـهذه المقدمـات البرهانيـة تلـزم البشـر بـالقبول وتدينه فى محكمة العـدل الإلهـى ، ولا علاقـة فى الأمـر بـالقبول أو عـدم القبـول الفعـلى .

فحين يبـين العلامة مطـلبا فيثـبت فيه العـلل الطـولية الماديـة والمجـردة وصـولا إلى الحضـرة الأحديـة، وينشـىء هـذا المطلـب علـى أسـس البرهـان وعلى أسـاس الاستفـادة من صـريـح الآيـات الـقـرآنـيـة المـبـاركـة، ويظـهـر

كالشمس ضرورة هذه الحقيقة، فإن قوله راسخ ومتين وقول سواه فاسد مهزوز، أشعريا كان أم متكلما أم محدثا، وسواء كان مثل كانت أم مثل ديكارت.

لقد كان جميع الفلاسفة السابقين على هذا النهج: أن يرتبوا تبعا للنتائج الفكرية التي يتوصلون إليها مقدمات معينة، ويؤلفوا في ذلك الكتب، فيقدم كل منهم مطلبا على هذا الأساس، وللمخالف أن يشكك فقط في مقدماته البرهانية، أو أن يردها إن قدر على ذلك، لا أن يتوقف خلف متراس الجهل فيعلن عدم قبوله.

الجهة الثانية: لقد أثبت العلامة في تفسيره مفصلا سلسلة العلل المادية وارتباطها بالعلل المجردة المعنوية والنورانية، وانتهاءها أخيرا إلى ذات الحق القدسية؛ فالقول بطولية العلل هي من ضروريات برهانه المتين ودليله القويم.

وقد أوضح هذه الحقيقة بشكل ساطع في الجزء الأول من تفسير « الميزان »، ضمن مقالة بشأن معنى المعجزة وكيفية تأثيرها في أبحاث سبعة، وأورد على ذلك شواهد من آيات القرآن لم تبق مجالا للشك؛[1] فلم ندع في هذه الحالة بأن القول بالعلل الطولية ليس من ضروريات الدين؟ أو هناك أساس للدين غير الكتاب الإلهي ؟

وإذا اتضح هذا المعنى بربط وتفسير آيات القرآن، أفلا يكون بعد من ضروريات الدين؟!فالقرآن يقول بوجود أسباب وعلل للحوادث الطبيعية، ويقر قانون العلية العام، كما أن العقل يثبت هذا المعنى، والتجربة تشير إلى أن أي احتراق أينما حصل فلابد من علة تسببه، سواء

١- «الميزان في تفسير القرآن» ج ١، ص ٧٢ إلى ٨٨.

كانت تلك العلة حركة أم احتكاكا أم غير ذلك. لذا، فالكلية وعدم تخلفها من أحكام العلية والمعلولية ولوازمها.

ولقد أفصح القرآن الكريم فى أقواله وفى سياق بيانه وأسلوبه فى مسائل الحياة والموت والرزق، ونزول المطر ونشوء العشب والزرع والشجر، وجريان الماء، واخيرا فى جميع الحوادث السماوية والارضية، عن روابط العلية المادية ، ولو أنه أسندها فى الخاتمة على أساس مسألة التوحيد إلى الله المتعال .

كما فعل فى آية: إن فى خلق السمٰوٰت والارض واختلٰف اليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ومآ أنزل الله من السمآء من مآء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دآبة وتصريف الريٰح والسحاب المسخر بين السمآء والارض لايٰت لقوم يعقلون. [1]

وكآية: الله الذى خلق السمٰوٰت والارض وأنزل من السمآء مآء فأخرج به من الثمرٰت رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهٰر. [2]

حتى أنه يصرح فى موضعين من القرآن أن هذه الفلك التى تحملكم على الماء بنيت على هيئة جعل فيها مقدمها حادا قاطعا ليمكنه بذلك شق الماء فى سيره وجريانه فى البحر؛ وقد استخدم هذا النوع من الهياكل للسفن والطائرات تقليدا لأسلوب خلقة الطيور التى يمكنها شق طريقها فى الجو بسرعة لقلة سطح تماسها مع الهواء عند حركتها.

---

١ ـ الآية ١٦٤، من السورة ٢: البقرة.

٢ ـ الآية ٣٢، من السورة ١٤: إبراهيم.

أى أن تأثير ودخل ماخرة [١](أى طراز وهيئة مقدمة السفينة) يوجب حركة السفينة بيسر، فلم يكن القرآن الكريم ليدع بيان هذه العلية أيضا.

لقد جاء لفظ مواخر؛ أى جمع ماخرة؛ فى موضعين من القرآن الكريم أولهما فى سورة النحل: وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون.[٢]

وثانيهما فى سورة فاطر: وترى الفلك فيه مواخر ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. [٣]

حتى أ نه بين العلة فى خلق الجبال فى أنها كالأوتاد تثبت الأرض وتمسكها عن التلاشى والانهيار والميدان:

ألم نجعل الارض مهـ'دا* والجبال أوتادا. [٤]

وألقى' فى الأرض رو'سى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون. [٥]

كان هذا كله راجعا لتصريح القرآن الكريم بشأن العلل الطبيعية والمادية، أما بشأن العلل المجردة وماوراء عالم المادة والطبيعة، كوجود الملائكة الذين يمثلون واسطة الفيض من جانب الحق تعالى فى تدبير جميع أمور عالم الخلق، فآيات القرآن واضحة فى ذلك و يمكن عدها من ضروريات هذا الكتاب السماوى ، فسورة فاطر المباركة تبدأ بهذه الآية:

١-يقول فى أقرب الموارد فى مادة مخر: تمخر واستمخر الريح: استقبلها بأنفه. الماخرة مؤنث ماخر، ج: مواخر، الفلك المواخر: التى تشق الماء مع صوت.

٢ ـ الآية ١٤، من السورة ١٦: النحل.

٣ ـ الآية ١٢، من السورة ٣٥: فاطر.

٤ ـ الآيتان ٦ و ٧، من السورة ٧٨: النبأ.

٥ ـ الآية ٥، من السورة ١٦: النحل.

الحمـد للـه فـاطر السمـٰو ت والارض جـاعل الملـئكة رسـلا أولـىٓ أجنحة مثنى' وثلـٰث وربـع يزيد فى الخلق ما يشـآء إن اللـه علـى' كـل شـىء قدير.[١]

الملائكة جمع ملـك، وهـم عبـارة عـن موجـودات خلقـهم اللـه سـبحانه وجعلهم وسـائط بينـه وبـين هـذا العـالم المشـهود، ووكلـهم تدبـير أمـور العـالم التكوينية والتشريعية.

وقالوا اتخـذ الرحمـٰن ولـدا سـبحـٰنـه و بـل عبـاد مكـرمـون * لا يسبقونه و بالقول وهم بأمره يعلمون.[٢]

وعبـارة جـاعل الملـئكة رسـلا بملاحظـة أن الملائكـة جمـع محلـى بالالف واللام تبين أن جميـع أفـراد ومجـاميع الملائكـة هـم رسـل ووسـائط بـين الخـالق وخلقـه فى إجـراء الأوامـر الـتى تعـهد إليـهم، سـواء فى ذلـك الأوامـر التكوينية أم التشريعية.

وعلى هذا، فلا موجب لتخـصيص الآية بالملائـكة النازلـين علـى الانبيـاء عليهم السلام والحـاملين للوحـى بخصـوص الاحكـام والشـريعة؛ إذ مضافـا إلى إطـلاق لفـظ رسـل، فـإن لدينـا آيـات فى القـرآن الكـريم عـبرت عـن الرسـل والوسائط بين اللـه وخلقه بغير تعبير الملائكة، مثل آية:

حتى إذا جآء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون.[٣]

وآية: إن رسلنا يكتبون ما تمكرون.[٤]

وآيـة: ولمـا جـآءت رسـلنآ إبرٰهيـم بالبشـرى' قالـوا إنـا مهـلكوا أهل

١ ـ الآية ١، من السورة ٣٥: فاطر.

٢ـ الآيتان ٢٦ و ٢٧، من السورة ٢١: الانبياء

٣ـ الآية ٦١، من السورة ٦: الانعام.

٤ ـ الآية ٢١، من السورة ١٠: يونس.

هـ'ذه القرية. [١]

و أجنحة جمع جناح، وهو من الطائر بمنزلة اليد من الإنسان، ليتوسل به إلى التحليق فى السماء والنزول إلى الأرض والطيران من مكان لآخر.

بناء على هذا، فإن الملائكة مجهزة بقوى وخصوصيات كالطائر الذى يحرك جناحيه، وهى كذلك تحلق من السماء إلى الأرض وتنتقل من مكان لآخر بواسطة هذه القوى والأجنحة.

وقد سماه القرآن جناحا لترتب القصد والغاية من الجناح عليه، وهو الوصول للهدف والغاية؛ فلا يلزم أن يكون من سنخ جناح الطير ذا ريش وزغب، إذ لا يستوجب مجرد إطلاق لفظ جناح عليه أكثر من ذلك، ونظيره فى ذلك كلمات: العرش و الكرسى و اللوح و القلم وأمثالها الكثيرة فى القرآن الكريم.

ومعنى أولى أجنحة مثنى وثلـ'ث وربع أن بعض أصنافها مجهز بقوتين وقدرتين من الحق تعالى، وبعض بثلاث قوى وبعض بأربع. وقوله بعد ذلك بلا فصل يزيد فى الخلق ما يشآء مشعر بحسب السياق أن بعض أصناف الملائكة مجهز بأكثر من أربع قوى بما أراد الله لهم.

وللأستاذ آية الله العلامة الطباطبائى قدس الله سره الشريف بيان فى ذيل تفسير هذه الآية الكريمة المباركة بعنوان: كلام فى الملائكة نجد من المناسب إيراده هنا:

« تكرر ذكر الملائكة فى القرآن الكريم، ولم يذكر منهم بالتسمية إلا جبريل وميكال؛ وما عداهما مذكور بالوصف، كملك الموت، و الكرام الكاتبين و السفرة الكرام البررة، و الرقيب، و العتيد وغير ذلك.

١ ـ الآية ٣١، من السورة ٢٩: العنكبوت.

والذى ذكره اللـه سبحانه فى كلامـه ـ وتشـايعه الأحـاديث السـابقةـ مـن صفـاتهم وأعمـالهم هـو أولا: أ نـهم موجـودات مكرمـون، هـم وسـائط بينـه تعـالى وبـين العـالم المشـهود، فمـا مـن حادثـة أو واقعـة صغـيرة أو كبـيرة إلا وللملائكة فيها شأن وعليـها ملـك موكـل أو ملائكـة موكلـون بحسـب مـا فيـها من الجهـة أو الجـهات، وليـس لهـم فى ذلـك شـأن إلا إجـراء الأمـر الإلهـى فى مجـراه أو تقريـره فى مسـتقره، كمـا قـال تعـالى: لا يسـبقونه و بـالقول وهـم بأمره يعملون. [1]

وثانيا: أ نهم لا يعصون اللـه فيما أمرهم بـه فليسـت لهـم نفسـية مسـتقلة ذات إرادة مستقلة تريد شيئا غير مـا أراد اللـه سـبحانه، فـلا يسـتقلون بعمـل ولايغيرون أمرا حملهـم اللـه إيـاه بتحريـف أو زيـادة أو نقصـان، قـال تعـالى:

لا يعصون اللـه مآ أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. [2]

وثالثـا: أن الملائكـة علـى كـثرتهم علـى مراتـب مختلفـة علـوا ودنـوا، فبعضهم فـوق بعـض، وبعضـهم دون بعـض، فمنـهم آمـر مطـاع، ومنـهم مـأمور مطيع لأمـره، والآمـر منـهم آمـر بـأمر اللـه حـامل لـه إلى المـأمور، والمـأمور مأمور بأمر اللـه مطيع له، فليس لهـم من أنفسـهم شى البتـة، قـال تعـالى:

وما منآ إلا له و مقام معلوم. [3]

وقال: مطاع ثم أمين. [4]

وقال: قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق. [5]

---

١ ـ الآية ٢٧، من السورة ٢١: الانبياء.

٢ ـ الآية ٦، من السورة ٦٦: التحريم.

٣ ـ الآية ١٦٤، من السورة ٣٧: الصافات.

٤ ـ الآية ٢١، من السورة ٨١: التكوير.

٥ـقسم من الآية ٢٣، من السورة ٣٤: سبأ.

و رابعا: أ نهم غير مغلوبين، لأنهم إنما يعملون بأمر الله وإرادته: وما كان الله ليعجزه و من شيء فى السمـ'و'ت ولا فى الارض.[١]

وقد قال الله سبحانه: والله غالب على' أمره.[٢]

وقال: إن الله بـ'لغ أمره .[٣]

ومن هنا، يظهر أن الملائكة موجودات منزهة فى وجودهم عن المادة الجسمانية التى هى فى معرض الزوال والفساد والتغير، ومن شأنها الاستكمال التدريجى الذى تتوجه به إلى غايتها، وربما صادفت الموانع والآفات فحرمت الغاية وبطلت دون البلوغ إليها .

ومن هنا يظهر أن ما ورد فى الروايات من صور الملائكة وأشكالهم وهيئاتهم الجسمانية إنما هو بيان تمثلاتهم وظهوراتهم للواصفين من الانبياء والائمة عليهم السلام، وليس من التصور والتشكل فى شيء. ففرق بين التمثل والتشكل ، فتمثل الملك إنسانا هو ظهوره لمن يشاهده فى صورة الإنسان، فهو فى ظرف المشاهدة والإدراك ذو صورة الإنسان وشكله، وفى نفسه والخارج من ظرف الإدراك ملك ذو صورة ملكية،وهذا بخلاف التشكل والتصور، فإنه لو تشكل بشكل الإنسان وتصور بصورته صار إنسانا فى نفسه من غير فرق بين ظرف الإدراك والخارج عنه، فهو إنسان فى العين والذهن معا. وقد تقدم كلام فى معنى التمثل فى تفسير سورة مريم.

ولقد صدق الله سبحانه ما تقدم من معنى التمثل فى قوله فى قصة

---

١ ـ قسم من الآية ٤٤، من السورة ٣٥: فاطر.

٢ ـ قسم من الآية ٢١، من السورة ١٢: يوسف.

٣ ـ قسم من الآية ٣، من السورة ٦٥: الطلاق.

المسيح ومريم:

فأرسلنآ إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا. [1]

وأما ما شاع من الألسن:أن الملك جسم لطيف يتشكل بأشكال مختلفة إلا الكلب والخنزير؛ والجن جسم لطيف يتشكل بأشكال مختلفة حتى الكلب والخنزير. فمما لا دليل عليه من عقل ولا نقل من كتاب أو سنة معتبرة؛ وأما ما ادعاه بعضهم من إجماع المسلمين على ذلك، فمضافا إلى منعه لا دليل على حجيته فى أمثال هذه المسائل الاعتقادية.[2]»

ولقد أقسم الله سبحانه فى مواضع من القرآن الكريم بالملائكة المأمورين بإنجاز وظائف خاصة، كما فعل فى الآيات الاوائل من سورة النازعات:

والنـ'زعـ'ت غرقا * والنـ'شطـ'ت نشطا* والسـ'بحـ'ت سبحا * فالسـ'بقـ'ت سبقا * فالمدبرت أمرا. [3]

ونلحظ فى هذه الآيات أن الله تعالى قد بين أن تدبير جميع أمور هذا العالم المشاهد المحسوس يحصل بواسطة هذه الملائكة، فجميع هذه الصفات من النزع و النشط و السبح و السبق و التدبير هى لنوع معين من الملائكة الذين ينزلون من ساحة الحق تعالى، فيكون شأنهم ومأموريتهم فى مقامهم تدبير وإدارة أمور هذا العالم.

ومع أن معنى النازعات و الناشطات و السابحات و السابقات سيبدو لنا فى الوهلة الأولى غير واضح و لا مشخص، ومع أن المفسرين قد ذكروا

---

١ ـ الآية ١٧، من السورة ١٩: مريم.

٢ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٧، ص ٩ و ١٠.

٣ ـ الآيات ١ إلى ٥، من السورة ٧٩: النازعات.

لها فى تفاسيرهم معان مختلفة، إلا أ ننا نستطيع إزالة الإبهام والغموض عن الآية واكتشاف معناها بوضوح حين نلحظ أسسا ثلاثة مهمة:

الأول: وضوح معنى المدبر ت أمرا، أى الملائكة المدبرين للحوادث والوقائع.

والثانى: بلحاظ ارتباط المعنى والمراد بين هذه الطوائف والمجاميع الخمس التى بينت صفاتها فى الآية.

والثالث: بلحاظ إلغاء التفريعية الدالة على التراخى فى بداية المدبر'ت و السـ'بقـ'ت، وعدم الإتيان بها فى بداية المجاميع الثلاث التى سبقتها، أى النـ'زعـ'ت و النـ'شطـ'ت و السـ'بحت.

وبيان ذلك أن فاء التفريع وردت فى فالمدبر 'ت أمرا فدلت على تفرع صفة التدبير من صفة السبق، وهكذا الأمر فى فالسـ'بقـ'ت سبقا التى جاءت مع فاء التفريع الدالة على تفرع صفة السبق على صفة السبح والسرعة.

ونفهم من ذلك أن هناك مجانسة خاصة بين المعانى المقصودة من هذه الآيات الثلاث، لا نها تقول:

السـ'بحـ'ت سبحا * فالسـ'بقـ'ت سبقا * فالمدبر'ت أمرا

ومفادها هو تدبيرها الأمور بعد أن سبقت إليها، وكان سبقها بعد أن سبحت وأسرعت إليها فى وقت النزول.

وعليه فإن مفاد السـ'بحـ'ت و السـ'بقـ'ت هى نفس الملائكة المدبر' ت التى وصفت بهذه الصفات بلحاظ كيفية نزولها لتنفيذ ما أوكل إليها من تدبير الامور.

ويمكن بنظرة أوسع اعتبار مجموع هذه الآيات الثلاث موافقا لمفهوم الآية الشريفة القائلة : له و معقبـ'ت من بين يديه ومن

خلفه يحفظونه و من أمر الله. [1]

فالملائكة المأمورون بتدبير الأمور للأشياء والحوادث ينزلون، فى حال تكون معه أسباب وعلل تلك الأشياء والحوادث قد تجمعت وتصارعت بينها للتأثير فى وجودها و عدمها، وفى بقائها و زوالها وفى أحوالها المختلفة، لكن الملك المأمور بتدبير الأمر المبرم المحتوم الإلهى المتعلق بها ينزل بسرعة فيسبق بقية الأسباب ويتم ذلك السبب المقتضى تبعا للإرادة والقضاء الإلهى ، كى يتحقق فى النهاية ما فى قضاء الحق تعالى وأمره المحتوم.

والآن وقد استبان المراد من هذه الآيات الثلاثة المشيرة إلى سرعة الملائكة فى نزولها لتنفيذ مهماتها، وسبقها فى تدبيرها، فينبغى حمل آيتى: والنـ'زعـ'ت غرقا * والنـ'شطـ'ت نشطا على نزعها وخروجها من موقف الخطاب إلى مهمتها وتدبير أمرها.

فنزوعها هو شروعها فى الحركة والنزول إلى هدفها وغايتها، المتحقق بشدة وجدية، ونشطها: خروجها من ذلك الموقف، كما أن سبحها هو سرعتها بعد الخروج، ويعقبه سبقها لتنفيذ الأمر، أى تدبيره بإذن الحق تعالى.

وعلى هذا، فتمثل هذه الآيات الخمسة قسم الحق تعالى بالصفات المختلفة التى تتلبس بها الملائكة لتدبير أمر من أمور هذا العالم المشهود، من شروع نزولها إلى انتهاء أمر التدبير.

وأما إطلاق التدبير فى هذه الآية وعدم تقييده بشىء، فمشعر بأن المراد هو جميع أقسام التدبيرات فى هذا العالم؛ و أمرا إما تمييز أو مفعول

١ـ صدر الآية ١١، من السورة ١٣: الرعد.

للمدبرات. أى أن الملائكة مدبرة للأمر أو لهجة الأمر، ومطلق التدبير هو الشأن المطلق للملائكة، ولذا فإن المراد من المدبر 'ت أمرا ينبغى أن يكون مطلق الملائكة.

أما التعبير عن الملائكة بصيغة التأنيث(فى قوله: والنازعات فلا إشكال فيه، لأن موصوفها عنوان جماعة وتأنيثها لفظى ، ويمكن أن يكون باعتبار الروح التى تنزل الملائكة معها، كما فى قوله:

ينزل الملئكة بالروح من أمره على' من يشآء من عباده. [١]

وقوله: يلقى الروح من أمره على' من يشآء من عباده لينذر يوم التلاق. [٢]

ولهذه الآيات مشابهة تامة بالآيات الأوائل من سورة الصافات:

والصـ'فـ'ت صفا * فالزـ'جر'ت زجرا * فالتـ'ليـ'ت ذكرا.

وبالآيات الأوائل من سورة المرسلات: والمرسل'ت عرفا * فالعـ'صفـ'ت عصفا * والنـ'شـر'ت نشرا * فالفـ'ر قـ'ت فرقا * فالملقيـ'ت ذكرا، التى كانت هى الأخرى فى مجال بيان أوصاف الملائكة المأمورين بأمر الله سبحانه والذين هم فى مقام الامتثال والطاعة، باختلاف أ نها تصف فقط عن الملائكة الحاملين للوحى، بينما حين كانت الآيات مورد البحث فى مجال وصف مطلق الملائكة المدبرة لأمور العالم، الذين يتصفون فى تدبيرهم بإذن الله بتلك الصفات التى جرى ذكرها.

وحاصل البحث هو أنه يمكن انطباق الصفات التى أقسم الله سبحانه بها فى آيات سورة النازعات على صفات الملائكة فى سعيهم وحركتهم

١ ـ صدر الآية ٢، من السورة ١٦: النحل.

٢ ـ ذيل الآية ١٥، من السورة ٤٠: المؤمن.

وامتثالهم لأوامـر سـاحة العـز القدسـية للبـارى، الصـادرة إليـهم والمتعلقـة بهـم فى تدبير أمور هذا العالم المشهود، ليقوموا بإذن الحق تعالى بتدبيرها.

ولسماحة آيـة اللـه العلامـة كـلام فى ذيـل تفسـير هـذه الآيـات تحـت عنوان: كلام فى أن الملائكة وسائط فى التدبير، نورده هنا للمناسبة:

" الملائكة وسائط بينه تعـالى وبـين الاشـياء بـدءا وعـودا علـى مـا يعطيـه القـرآن الكـريم، بمعـنى أ نـهم أسـباب للحـوادث فـوق الأسـباب الماديـة فى العالم المشهود قبل حلول الموت والانتقال إلى نشأة الآخرة وبعده.

أمـا فى العـود، أعـنى حـال ظـهور آيـات المـوت، وقبـض الـروح، وإجراء السؤال، وثـواب القـبر وعذابـه، وإماتـة الكـل بنفـخ الصـور، وإحيائـهم بذلـك، والحشـر، وإعطـاء الكتـاب، ووضـع الموازيـن، والحسـاب، والسـوق إلى الجنة والنار، فوساطتهم فيها غـنى عـن البيـان، والآيـات الدالـة علـى ذلـك كثيرة لاحاجة إلى إيرادها، والأخبـار المـأثورة فيـها عـن النـبى الأكـرم وأئمـة أهل البيت عليهم السلام فوق حد الأحصاء.

وكـذا وسـاطتهم فى مرحلـة التشـريع مـن النزولبـالوحى ودفـع الشـياطين. عـن المداخلـة فيـه، وتسـديد النـبى وتـأييد المؤمنـين وتطـهيرهم بالاستغفار.

وأمـا وسـاطتهم فى تدبـير الأمـور فى هـذه النشـأة، فيـدل عليـها مـا فى مفتتح هذه السورة من إطلاق قوله: والنـازعـات غرقا * والنـاشطـات نشـطا * والسـابحـات سبحا * فالسـابقات سبقا * فالمدبر'ت أمرا بما تقدم من البيان.

وكذا قوله تعالى: جاعل الملـئكة رسلا أولى ٓ أجنحة مثنى وثلـ'ث وربـ'ع الـواردة فى سـورة فـاطر، الظـاهر بإطلاقـه- علـى مـا تقـدم مـن تفسـيره- فى أ نهم خلقوا وشأنهم أن يتوسطوا بينـه تعـالى وبـين خلـقه، ويرسـلوا لإنـفـاذ

أمره الذى يستفاد من قوله تعالى فى صفتهم: بل عباد مكرمون * لا يسبقونه و بالقول وهم بأمره يعملون، [١] وقوله: يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، [٢] وفى جعل الجناح لهم إشارة إلى هذه الحقيقة.

فلا شغل للملائكة إلا التوسط بينه تعالى وبين خلقه بإنفاذ أمره فيهم، وليس ذلك على سبيل الاتفاق بأن يجرى الله سبحانه أمرا بأيديهم ثم يجرى مثله لا بتوسيطهم، فلا اختلاف ولا تخلف فى سنته تعالى: إن ربى على صر اط مستقيم؛ [٣] وقال: فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا[٤].

ومن الوساطة كون بعضهم فوق بعض مقاما، وأمر العالى السافل بشيء من التدبير، فإنه فى الحقيقة توسط من المتبوع بينه تعالى وبين تابعه فى إيصال أمر الله تعالى، كتوسط ملك الموت فى أمر بعض أعوانه بقبض روح من الأرواح، قال تعالى حاكيا عن الملائكة:وما منآ إلا له و مقام معلوم، [٥]وقال: مطاع ثم أمين. [٦]

وقال: حتى'إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق. [٧]

ولا ينافى هذا الذى ذكر من توسطهم بينه تعالى وبين الحوادث، أعنى كونهم أسبابا تستند إليها الحوادث استناد الحوادث إلى أسبابها القريبة

١ ـ الآيتان ٢٦ و ٢٧، من السورة ٢١: الانبياء.
٢ ـ الآية ٥٠، من السورة ١٦: النحل.
٣ ـ الآية ٥٦، من السورة ١١: هود.
٦ ـ الآية ٤٣، من السورة ٣٥: فاطر.
٥ ـ الآية ١٦٤، من السورة ٣٧: الصافات.
٦ ـ الآية ٢١، من السورة ٨١: التكوير.
٧ ـ الآية ٢٣، من السورة ٣٤: سبأ.

المادية، فإن السببية طولية لا عرضية، أى أن السبب القريب سبب للحادث، والسبب البعيد سبب للسبب.

كما لا ينافى توسطهم واستناد الحوادث إليهم استناد الحوادث إليه تعالى وكونه هو السبب الوحيد لها جميعا على ما يقتضيه توحيد الربوبية، فإن السببية طولية كما سمعت لا عرضية، ولا يزيد استناد الحوادث إلى الملائكة استنادها إلى أسبابها الطبيعية القريبة، وقد صدق القرآن الكريم استناد الحوادث إلى الحوادث الطبيعية كما صدق استنادها إلى الملائكة.

وليس لشيء من الأسباب استقلال قباله تعالى حتى ينقطع عنه، فيمنع ذلك استناد ما استند إليه إلى الله سبحانه ما يقول به الوثنية من تفويضه تعالى تدبير الأمر إلى الملائكة المقربين، فالتوحيد القرآنى ينفى الاستقلال عن كل شيء من كل جهة:

لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا. [1]

فمثل الأشياء فى استنادها إلى أسبابها المترتبة القريبة والبعيدة وانتهائها إلى الله سبحانه بوجه بعيد كالكتابة التى يكتبها الإنسان بيده وبالقلم. فللكتابة استناد إلى القلم، ثم إلى اليد التى توسلت إلى الكتابة بالقلم، وإلى الإنسان الذى توسل إليها باليد وبالقلم، والسبب بحقيقة معناه هو الإنسان المستقل بالسببية من غير أن ينافى سببيته استناد الكتابة بوجه إلى اليد وإلى القلم.

ولا منافاة أيضا بين ما تقدم أن شأن الملائكة هو التوسط فى التدبير

---

١ ـ هذه الجملة ليست عين الآية القرآنية، بل اقتباس من الآية ٣، من السورة ٢٥: الفرقان، القائلة: واتخذوا من دونه ءالهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حيو'ة ولا نشورا.

وبين ما يظهر من كلامه تعالى أن بعضهم أو جميعهم مداومون على عبادته تعالى وتسبيحه والسجود له، كقوله:

ومن عنده و لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون* يسبحون اليل والنهار لا يفترون. [١]

وقوله: إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله و يسجدون. [٢]

وذلك لجواز أن تكون عبادتهم وسجودهم وتسبيحهم عين عملهم فى التدبير وامتثالهم الأمر الصادر عن ساحة العزة بالتوسط، كما ربما يومىء قوله تعالى: ولله يسجد ما فى السم'و'ت وما فى الارض من دآبة والملئكة وهم لا يستكبرون.» [٣]

كانت هذه أمور راجعة إلى تفسير الآيات الأوائل لسورة النازعات وبيان وظيفة وشأنية الملائكة الموكلين بتمام الأمور، وأما بشأن خصوص الملائكة الموكلين بأمر الوحى وبيان صفات وكيفية إلقاء الوحى فقد ورد قسم الله تعالى بهم فى موضعين من القرآن الكريم غير المواضع السابقة:

أولهما: فى ابتداء سورة الصافات حيث يقول:

والصـ'َفـ'ت صفا* فالز'جر'ت زجرا * فالتـ'ليـ'ت ذكرا * إن إل'هكم لو'حد. [٤]

وهذه الآيات التى وردت بالقسم هى أول الآيات الواردة بالقسم فى

---

١ ـ الآيتان ١٩ و ٢٠، من السورة ٢١: الانبياء.

٢ ـ الآية ٢٠٦، من السورة ٧: الاعراف.

٣ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٢٠، ص ١٨٣ إلى ١٨٥. والآية هى الآية ٤٩، من السورة ١٦: النحل.

٤ ـ الآيات ١ إلى ٤، من السورة ٣٧: الصافات.

القرآن الكريم، ويحتمل أن يكون المراد بهذه الطوائف الثلاث المذكورة طوائف الملائكة الذين ينزلون بالوحى على النبى الاكرم، والمأمورون بتأمين طريق الوحى وحفظه مصونا، ودفع الشياطين عن المداخلة فى الوحى، ثم إيصاله إما إلى مطلق الانبياء أو إلى خصوص محمدبن عبدالله صلى‌الله عليه وآله وسلم، كما يستفاد من قوله تعالى:

عـٰلم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه أحدا * إلا من ارتضىٰ من رسول فإنه و يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسـٰلـٰت ربهم وأحاط بما لديهم وأحصىٰ كل شيء عددا .[1]

وعليه ، فسيكون معنى الآيات مورد البحث : أقسم بالملائكة الذين يصفون فى طريق الوحى صفا ، فبالذين يزجرون الشياطين ويمنعونهم عن المداخلة فى الوحى بعد صفهم صفا، فبالذين يقومون بعد زجر الشياطين وطردهم بتلاوة الذكر على الانبياء أو بتلاوة القرآن على خاتم الانبياء .

ويؤيد هذا التفسير تعبيره عنه بالتلاوة، ويؤيده أيضا ما ورد فى هذه السورة بعد هذه الآيات من رمى الشياطين بالشهاب الثاقب .

ولا ينافى نزول القرآن بواسطة هؤلاء الملائكة المتعددين نزوله بواسطة جبرائيل وحده فى قوله: من كان عدوا لجبريل فإنه و نزله و علىٰ قلبك.[2]

وقوله: نزل به الروح الامين * علىٰ قلبك.[3]

١ـ الآيات ٢٦ إلى ٢٨، من السورة ٧٢: الجن.
٢ـ صدر الآية ٩٧، من السورة ٢: البقرة.
٣ـ الآيتان ١٩٣ و ١٩٤، من السورة ٢٦: الشعراء.

لان هذه الصنوف من الملائكة إنما هم أعوان جبرائيل فى إنزال القرآن، فنزولهم به فى الحقيقة هو نزوله. وقد قال تعالى:

فى صحف مكرمة *مرفوعة مطهرة * بأيدى سفرة * كرام بررة . [١]

وقال أيضا: وإنا لنحن الصآفون * وإنا لنحن المسبحون . [٢]

وقال حكاية عنهم : وما نتنزل إلا بأمر ربك . [٣]

فنوع وأسلوب نزول القرآن بوساطة الملائكة وبوساطة جبرائيل كالتوفى وقبض الارواح الذى ينسب أحيانا إلى الملائكة، كما فى قوله تعالى : حتى'إذا جآء أحدهم الموت توفته رسلنا . [٤]

وينسب أحيانا إلى ملك الموت وهو رئيسهم ، فى قوله تعالى :

قل يتوفـ'كم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى' ربكم ترجعون. [٥]

وثانيهما : فى بداية سورة المرسلات ، فيقول : والمرسلـ'ت عرفا * فالعـ'صفـ'ت عصفا * والنـ'شـر'ت نشرا * فالفـ'رقـ'ت فرقا * فالملقيـ'ت ذكرا *عذرا أو نذرا * إنما توعدون لو'قع . [٦]

ويظهر من هذه الآيات أيضا؛ لوضوح معنى فالملقيـ'ت ذكرا وهو تلقين الوحى، ولتفرعه بفاء التفريع على فالفـ'رقـ'ت فرقا من الفصل والتمييز، وهذه بدورها مترتبة بفاء التفريع على والنـ'شـر'ت نشرا من البسط والنشر؛ على أن هذه الصفات الثلاث هى صفات مجموعة واحدة

---

١ ـ الآيات ١٣ إلى ١٦، من السورة ٨٠: عبس.

٢ ـ الآيتان ١٦٥ و ١٦٦، من السورة ٣٧: الصافات.

٣ ـ صدر الآية ٦٤، من السورة ١٩: مريم.

٤ ـ الآية ٦١، من السورة ٦: الانعام.

٥ ـ الآية ١١، من السورة ٣٢: السجدة.

٦ ـ الآيات ١ إلى ٧، من السورة ٧٧: المرسلات.

من الملائكة النازلين بالوحى على النبى أو على الانبياء.

ولقرينة اتحاد السياق بين جميع الآيات فإن المراد من المرسلات عرفا والعاصفات عصفا هذه المجموعة أيضا. فهم يرسلون فى الوهلة الاولى جماعات متتابعة، فيسرعون فى سيرهم وحركتهم، فينشرون الصحف ويبسطونها، ويفرقون بين الحق والباطل، ويقرؤون الصحف المكرمة الالهية على الرسول الاكرم أو على الرسل ويلقونها عليهم .

ولهذا، فإن محط ومتعلق القسم خصوص ملائكة الوحى الذين يتصفون بهذه الصفات الخمس.

أما الآيات التى وردت فى القرآن الكريم فى غير موارد القسم لبيان الاعمال المختلفة للملائكة فكثيرة، منها ما ورد فى سورة آل عمران مثلا فى ذكر الملائكة الثلاثة آلاف الذين نزلوا فى غزوة بدر الكبرى لنصرة المسلمين وإمدادهم، والتى بينت أ نه فى حال صبر المسلمين وتقواهم فإن خمسة آلاف ملك سينزلون عليهم : إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة ءالٰف من الملٰئكة منزلين *بلى' إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هٰذا يمددكم ربكم بخمسة ءالٰف من الملٰئكة مسومين *وما جعله الله إلا بشرى' لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . [1]

ولا منافاة بين نزول ونصرة الملائكة الثلاثة آلاف فى هذه الآية مع نزول ألف ملك منهم كما ورد فى سورة الانفال ، لان نزول الالف ملك هنا قد قيد بلفظ مردفين ، أى ألف ملك يردفهم ملائكة آخرون ، وهى دلالة على أن الملائكة نزلوا فى غزوة بدر على هيئة مجموعة من ألف ملك فى

١ ـ الآيات ١٢٤ إلى ١٢٦، من السورة ٣: آل عمران.

الوهلة الاولى، أردفهم بعدهم الالفان الآخران؛ أما تعبير سورة الانفال فقد كان :

إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملئكة مردفين * وما جعله الله إلا بشرى' ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . [١]

وكذلك فقد ورد فى قضية إفشاء حفصة بنت عمر السر الذى أوصاها رسولالله بكتمانه، فباحت به إلى عائشة، ثم أفشتاه كلاهما، فكانتا عاصيتين لامر الرسول، أن هددهما القرآن إن تظاهرا على الرسول فإن الله وجبرائيل وأمير المؤمنين سيحميانه وينصرانه عليهما، والملائكة بعد ذلك معين فى هذا الامر:

إن تتوبآ إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظ'هرا عليه فإن الله هو مولا'ه وجبريل وصـ'لح المؤمنين والملـ'َنءكة بعد ذ'لك ظهير . [٢]

وقد ثبت وجود الملائكة ذوى النفوس المجردة بالادلة العقلية ، فالمثل الاءفلاطونية التى أحياها المرحوم صدر المتأ لهين قدس الله سره وأثبت وجودها إنما هى ملائكة والمدبر'ت أمرا .

يرى أهل الكشف والشهود الملائكة ، بصورتهم التمثلية ، لان الملائكة كما ذكرنا مخلوقات مجردة لا يمكنها التلبس بلباس المادة ، خلافا للجن والشيطان اللذان هما موجودان ماديان ناريان لهما شكل وصورة، فهؤلاء الجن متشكلون، أما أولئك الملائكة فمتمثلون، أى أ نهم يظهرون فى القوى الذهنية للانسان بصورة مناسبة.

---

١ ـ الآيتان ٩ و ١٠، من السورة ٨: الانفال.

٢ ـ الآية ٤، من السورة ٦٦: التحريم.

ولقد أحاطت حقيقة جبرائيل، ذلك الموجود المجرد النورانى ، حين ظهر لرسول الله على تلك الصورة، بمشرق العالم وغربه، لكنه كان يتمثل أحيانا بصورة دحية الكلبى ، فكان رسول الله يراه فى تلك الحال على حقيقته، والآخرون يرونه ويتخيلونه دحية، فى حين أ نه لم يكن دحية بل متمثلا بمثال وصورة دحية فى أنظار الناظرين.

يقول ابن الفارض المصرى العارف الجليل:

وها دحية وافى الامين نبينا بصورته فى بدء وحى النبوة
أجبريل قل لى:كان دحية إذ بدا لمهدى الهدى فى هيئة بشرية
وفى علمه عن حاضريه مزية بماهية المرئى من غير مرية
يرى ملكا يوحى إليه وغيره يرى رجلا يدعى لديه بصحبة[1]

الجهة الثالثة : قوله بكل بساطة أن لا لزوم لتكلف الاءنسان فى رفضه لآراء العلامة الطباطبائى ، لان للعلامة أصولا مفروضة ومسلمة لهذا المدعى يكفى لردها أن يرفض الاءنسان ـ كما فعل كانت ـ أسس ما وراء الطبيعة ، وحينئذ سينهار بناؤه ويتداعى .

وكانت عين عباراته هى:

ونضيف إلى ذلك بأن مسلمات العلامة الطباطبائى ليست هذه الاصول المعدودة المشهورة بأى وجه من الوجوه، فقد افترض أيضا أسسا فى علم المعرفة ، مثل أن الانسان يمكنه ـ خلافا لرأى كانت ـ أن يقيم فلسفة ما وراء الطبيعة ، وأن يثبت فيها آراء بالقطع واليقين ، وأن رأى ما وراء الطبيعة يمثل معنى وليس بلا معنى ـ كما يزعم فلاسفة المذهب التحليلى الجدد ـ وعلى هذا يكفى أن يتبنى الشخص آراء كانت ، أو حتى

١ ـ «ديوان ابن فارض» التائية الكبرى، ص ٧٣، الابيات ٢٨٠ إلى ٢٨٣.

أقل من ذلك بأن يتبع مدرسة أهل الحديث، لتنهار مبانيه وتسقط، ويتضح من هذه النماذج والامثلة جيدا مزج الآراء الخارجية ـ بما فيها الفلسفية والتجريبية ـ مع الآراء الدينية ، وتركيب هذين الاثنين لاءنشاء فهم جديد .[١]

والجواب على هذه المقولة هو أن التعامل مع المطالب والآراء الفلسفية قبولا أو رفضا يختلف عن التعامل مع المأكولات والمشروبات التى قد يسيغ المرء أحيانا نوعا منها، وقد يختار نوعا آخر أحيانا أخرى .

فالحكيم يرتب مقدمات معينة على أساس المنطق القويم والبرهان المتين ليحصل على نتيجة ما، فيلزم العالم ويجبره على قبول رأيه واستنتاجه؛ فما علاقة كانت وديكارت بهذا الامر؟! وما علاقة الجهل والعمى حين يتعلق الامر بالعلم والبصيرة؟! وما فائدة نسج الخرافات والاباطيل أمام سطوع شمس العقل والدراية؟!

وعلى مخالفى مقولة الحكيم أن يخرجوا ما لديهم فى جعبتهم من دفاع، وما يخبئون فى أكمام أرديتهم من ردود لابطال مقدمات برهانه، أى إبطال صغرى المسألة أو كبراها ، أو التشكيك فى قياسه الاستثنائى ، فالغلبة ستكون لهم إن تمكنوا من ذلك ، ولا اعتراض لاحد فى الامر، كانت أم غيره .

أما عند العجز عن التشكيك فى الاصول العقلية والمقدمات البرهانية المسلمة للحكيم، فما الذى يمكن أن ينطوى عليه الحديث عن هذا أو ذاك ، وأتباع رأى هذه المدرسة أو تلك ، غير الاقرار بالجهل والاغراء به؟!

---

١ ـ مقالة «بسط وقبض تئوريك در شريعت»، مجلة «كيهان فرهنگى»، العدد ٥٤ ، تيرماه ١٣٦٧ شمسى . رقم ٤ ، ص ١٥، العمود الثالث .

الإشكال الثامن على صاحب المقالة هو قوله: ينبغى اتّباع ما ورد فى كتب عصرنا الحاضر باسم العلم، والذى ابتُنى على أساس الفرضيّات والنظريّات وطائفة من الاُمور اليقينيّة ، واعتباره من المسلّمات ، ولو خالف ظاهر القرآن الكريم ، فإنّ العلم الذى هو فى حال تحوّل وتغيّر دائمىّ يستتبع تحوّل وتغيّر المعارف والاستنباطات من الدين ؛ خلافاً لنظرية پيردوئم الفيلسوف والفيزيائىّ الفرنسىّ الذى يعتبر الفرضيّات العلميّة وسائل لتنظيم الحوادث ، ويسمّى علمه صراحةً بالعلم اليقينى الإيجابىّ ، پُوزِتفسْتيك ، وأخيراً فقد بنى نظريّته بحيث إنّ الفرضيّات العلميّة لاحظّ لها فى إظهار الواقع ، بل تنحصر فى كونها أساليب لتنظيم وتنسيق الحوادث وجعلها قابلة للمحاسبات .

ثمّ انتقد العلاّمة الطباطبائىّ قدّس الله سرّه فى إظهاره ميلاً لهذا الاتّجاه فى مقاطع من آرائه التفسيريّة، واعتباره حفظ ظواهر الكتاب مستلزماً لاعتبار بعض الفرضيّات العلميّة كوسائل . ثمّ قال :

إنّ الإنسان ما لم يدوّن وينقّح معارفه (وعلومه الإنسانيّة ومعرفته للعالم) ، وينزّه نفسه عن المخالفة غير المبرّرة ، فإنّه لن يمتلك معرفة دينيّة عميقة ذات متانة وصلابة كافية .

وفوق هذا ، فإنّ هذه المعارف البشريّة السيّالة ستجبر المعرفة الدينيّة أن تتوائم معها فى السيلان والجريان .

ولقد كتب فى تفسير مطلع سورة النساء ، **يَـأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفس وَاحِدَة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً** : أنّ ظاهر الآية القريب من النصّ هو أنّ النسل الموجود من الإنسان ينتهى إلى آدم وزوجته ، لم يشاركهما فيه غيرهما .

ثمّ ينقل نظريّة القائلين بالانواع، ويضيف: أنّ هذه الفرضيّة قد افترضت لتبرير وتوجيه ما يلحق بهذه الانواع من الخواصّ والآثار لاتطوّر ذواتها، من غير قيام دليل عليها بالخصوص ونفى ما عداها، فإنّ التجارب لم تتناول فرداً من أفراد هذه الانواع تحوّل إلى فرد من نوع آخر، كتحوّل قرد إلى إنسان، وإنّما تتناول بعض هذه الانواع من حيث خواصّها ولوازمها وأعراضها .

ولهذا السبب، فإنّ الهدف من تلك الفرضيّة التى لم يقم دليل قطعىّ عليها هو توجيه وتبرير المسائل الخاصّة والمنحصرة بها. لذا فإنّ قول القرآن الكريم بأنّ الإنسان نوع مستقلّ عن سائر الانواع غير معارض بأىّ كلام علمىّ.[1]

ثمّ يقول:

قارنوا كلام المرحوم الطباطبائىّ بكلام داروين حين يعتبر فرضيّته لدلائل خاصّة ـ كالقدرة مثلاً على تنظيم الظواهر وظهور النماذج البديعة وغير المنتظرة ـ فرضيّة معتبرة ومدعومة، وفى اعتباره تحوّل الانواع أمراً نظريّاً علميّاً . ولاحظوا كذلك معيار العلاّمة الطباطبائىّ حين يطلب مشاهدته رأى العين تحوّل قرد إلى إنسان لتصحّ عنده تلك النظريّة وتحوز رتبتها العلميّة ، أى أنّه فى النهاية ينهى المطلب ويجعله معتمداً على فلسفة العلم أو علم المعرفة .

ثمّ يقول:

وليس واضحاً لى هل عمل المرحوم الطباطبائىّ على بسط نظره وتنميته فى مجال امتحان واختبار الفرضيّات العلميّة ورفضها أو قبولها ، أم لا ؟

١ـ «الميزان» ج ٤، ص ١٣٤ فصاعداً .

٢ ـ يقول فى الهامش ، ص ١٠٥ و ١٠٦ : جاء فى المقالة الخامسة من « أُصول

أوَ حَقّاً أنّه يعد شرط صدق النظريّات فى كلّ مكان أن تشاهد مصاديقها النظريّة بشكل مباشر أم لا؟

أوَ هل أقام بنفسه معرفة صحيحة ومنقّحة أم لا؟

أوَ هل يعتقد بهذا الرأى كذلك فى باب نظريّة كوبرنيك مثلاً، فيطالب برؤية حركة الارض حول الشمس ، أو بمشاهدة سكون الشمس ، وإلاّ فإنّه لن يقبل بها؟

أوَ يطالب فى الكيمياء بمشاهدة جزىء كلوريد الصوديوم أو البنزين مباشرة ؟

أوَ يعتبر المشاهدة بالاستعانة بالآلات مشاهدة أيضاً أم لا؟ (كالمشاهدة من خلال الميكروسكوب أو التلسكوب).

أوَ يعتبر الوسائل والادوات امتداداً للحواسّ البشريّة فقط أم يعدّها نظريّات مجسّمة؟

وهل يعدّ المشاهدة بلا نظريّة ، وغير المسبوقة بفرضيّة ما أمراً ميسّراً أم لا ؟

مهما كان الجواب فمن المسلّم أنّه ما لم يقدّم جواباً إجماليّاً أو تفصيليّاً لهذه الاسئلة فإنّ ذلك الحكم فى باب فرضيّة التكامل والتطوّر، ذلك المعيار لاختيار النظريّات العلميّة سيبقى ناقصاً غير كافٍ .[1]

فلسفه وروش رئاليسم» (= أُسس الفلسفة والمذهب الواقعىّ) تحت عنوان «نشوء الكثرة فى الادراكات» فى باب الفرضيّات العلميّة: ويمكن القول بشكل عامّ إنّ فرض الفرضيّة فى علمٍ ما ليس لاجل الاستنتاج العلمىّ، أى ليس لايجاد علمنا بمسائل ونظريّات ذلك العلم المعيّن، بل إنّه لتشخيص خطّ السير لئلاّ يضلّ سلوكنا العلمىّ خطّ سيره... تماماً كقدم الفِرجار الثابت الذى يمنع بثباته ورسوخه ضلال وتخبّط خطّ سير القدم المتحرّك.

١ ـ مجلّة «كيهان فرهنگى» بالفارسيّة، العدد ٥٢، ص ١٦، العمود السادس، وص ١٧، العمود الاوّل.

لقد أجبنا فى هذا الكتاب على هذه المقولة بالنقوض والايرادات التى أوردناها على كتاب « خلقت انسان » (= خلق الإنسان) ، وبرهنّا هناك أنّ مسألة تغيّر وتطوّر الانواع لا تعدو عن كونها فرضيّة ليس إلاّ، ولايمكن تسميتها قانوناً .

فالافراد الذين يدلون بآرائهم فى هذه القضيّة يستدلّون على وجوب التطوّر والتبدّل بوجود التكامل فى الانواع، ولايملكون لقولهم هذا من برهان إلاّ لفظ **يجب** .

إنّ الاستقراء الناقص الذى أُجرى على الانواع فأثبت وجود التكامل فيها لا علاقة له بمسألة تغيّر الانواع وتبدّلها، فلايمكن إثبات هذا الحكم بثبوت ذاك، ولا يمكن من ترتيب المقدّمات الظنّيّة الاستقرائيّة فى الانواع استخلاص نتيجة كلّيّة لجميع الانواع، وحتّى لتغيّرها وتطوّرها، فكلمات **داروين** وأقواله مخدوشة.وقد أُلِّفت الكتب فى مهاجمته ومهاجمة نظريّته، وقد انحسر اليوم اعتبار هذا الكلام وقيمته فى محافل العلم، فلم يعد أحد يلقى إليه بالاً.

وعلينا حين نلحظ ظهور القرآن الكريم القريب من النصّ على أنّ ولادة جميع أفراد البشر من آدم شخصى ّواحد وزوجته ، أن لا نرفع اليد عن هذا الظهور لمجرّد الحدس والتخمين . فلقد نهى القرآن الكريم عن العمل بالظنّ، فلا يحقّ للإنسان إلاّ أن يسلك طريق العلم والقطع واليقين .

فأى ّدليل قطعى ّويقينى ّقد قُدّم على اتّصال البشر بالقرد ؟!

لقد تصوّر داروين أنّ ذلك الاتّصال كان عن طريق القرد، وقد ردّ مقولته القائلون بتبدّل الانواع لدلائل كثيرة، وصاروا يقولون بوجود حلقة مفقودة ، فهم عنها يبحثون .

أمّا **القائلون بثبات الانواع** (فيكسيزت) فيرفضون مطلقاً مسألة

التبدّل والتغيّر، ويعدّونه منحصراً فى داخل الانواع ، لا تغيّر نوع إلى آخر، أو تغيّر ماهيّة وتطوّرها إلى ماهيّة أُخرى .فأىّ دليل يقينىّ وعلمىّ وتجريبىّ أُقيم فى علوم الحياة على قاطعيّة تغيّر الانواع؟!

إنّ الحكيم والعالم لا يتكلّم إلاّ عن طريق العلم، تاركاً المحتملات فى بوتقة الاحتمال وفى بقعة الاءمكان .

وقد كان كلام العلاّمة فى باب تغيّر الانواع من أعلى الاحكام والنتائج التى ينبغى أن تستحصل، لانّه يقول: لميقم هناك دليل علمىّ لتغيّر الانواع فيُثبت الامر باليقين والمشاهدة، فيبقى إذَن احتمال الرأى الآخر المقابل لهذا الكلام على قوّته واعتباره ، ولايمكن رفع اليد عن ظاهر القرآن بدون حجّة عقليّة .

ولم يكن المقصود بالمشاهدة الرؤية ، كى يحاول بزيادة الامثلة والتشكيك رفضاً أو قبولاً افتعال أجواء معيّنة وتوسعة ساحة المغالطة ؛ بل كان المقصود بها اليقين والقطع ، فالجميع يعلم أنّ المراد من مشاهدة التركيبات الكيميائيّة هو الفعل والانفعال الحاصل بين شيئين ليحصل وينتج منهما شىء ثالث ، والمراد من مشاهدة حركة الارض قاطعيّة ذلك على أساس قانون البندول وتجربة فوكو، لا الاءحساس بحركتها شأن حركة مهد الطفل .

كانت هذه إجاباتنا على افتراض مجىء لفظ الرؤية أو المشاهدة فى عبارة العلاّمة قدّس الله نفسه، مع أنّ الامر لم يكن كذلك، بل هو تحريف ظاهر واضح من صاحب المقالة لكلام العلاّمة ، فلقد كانت عباراته فى تفسير « الميزان » لَمْ يَتَنَاوَل ، ولا ربط لها بمعنى ومفهوم العلم والمشاهدة والرؤية ، وأعمّ وأشمل فى معناها .

وممّا يُثير العجب الشديد أن يقول صاحب المقالة فى انتقاده لكلمات العلاّمة كما ذكرنا: « إنّ الإنسان ما لم يدوّن وينقّح معارفه(وعلومه الإنسانيّة ومعرفته للعالم) وينزّه نفسه عن المخالفة غير المبرّرة ، فإنّه لن يمتلك معرفة دينيّة عميقة ذات متانة وصلابة كافية » .

فما هذه الجرأة والوقاحة فى أن يمنح امرى نفسه الحقّ ـ لمجرّد اكتسابه حظّاً من هذا الحبك المتشابك الذى يدعونه بالعلوم الإنسانيّة وعلم المعرفة ـ فى أن ينسب أُسطوانة العلم والحكمة والفضيلة الفريدة ومرجع المعارف الدينيّة فى القرون الاخيرة باعتراف المؤالف والمخالف معاً إلى الضحالة وعدم الصلابة فى المعرفة الدينيّة ؟ إن هى إلاّ الرذالة والسخافة والدناءة.

هزارمرتبة شستن دهن به مشك و گلاب

هنوز نام تو بردن كمال بى ادبى است[1]

إنّ القطع واليقين حجّة فى ذاته ونفسه، وحجّيّته غير قابلة للجعل ، لا إثباتاً ولانفياً، أى لا يمكن إعطاؤه الحجّيّة أو سلب الحجّيّة عنه.

وتسمية القطع واليقين بالحجّة ينطوى على مسامحة ، لانّ الحجّة تقال للشيء الباعث على اليقين والقطع بالمطلوب ، فلا يمكن إطلاقها على نفس القطع واليقين.

أمّا حجّيّة الادلّة الظنّيّة ، فباعتبار وقوعها فى طريق الدليل القطعىّ واليقينى ّوانتهائها إليه ، وإلاّ فإنّ كلّ ظنّ وحدس لا يمتلك حجّيّة بنفسه .

أمّا اتّباع العلم واليقين فهو ممّا يأمر به العقل قبل الشرع: **وَلاَتَقْفُ مَا**

١ـ يقول : « إنّ غسل الفم ألف مرّة بالمسك وماء الورد لن يجعل التفوّه باسمك خالياً من إساءة الادب والجسارة» .

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، [1] وهى حقيقة فطريّة وجدانيّة، وعقليّة فكريّة، وإيمانيّة شرعيّة، خرقت طبقات الظلام كالشمس الساطعة، وتخلّصت من حجب الاوهام والخيالات والحدس والظنّ، وكانت فى سطوعها فى سماء العقل والمعرفة البشريّة لالف وأربعمائة سنة هادياً ومرشداً، ودليلاً قاطعاً ، وسنداً حيّاً، وشاهداً صادقاً على حقّانيّة القرآن .

فحجّيّة العقل سابقة على حجّيّة الشرع ، لانّ الشرع إنّما يثبت بالعقل، والشخص المجنون الذى لا عقل له لا تكليف له ؛ فإن لم يكن هناك حكم عقلىّ على وجوب اتّباع النبىّ والإمام، فكيف ستثبت حجّيّة أقوالهم ؟

وأمّا القول بحجّيّة الشرع اعتماداً على الشرع فيستلزم الدور والتسلسل ، فكيف سيمكن ـ فى غياب العقل ـ تمييز رسول الله عن مسيلمة الكذّاب، أو تشخيص نبىّ إلهىّ عن مدّعٍ للنبوّة ؟

لا ريب أنّ للعقل حكم المصباح الذى يمكن للانسان أن يبصر بنوره جميع الاشياء، ويهتدى به إلى حلّ جميع المجهولات، ومن بينها وجوب اتّباع الكتاب السماوىّ والنبىّ والامام الحقيقيّين ، لذا فإنّ اتّباع الامام كان بواسطة العقل وهديه .

يروى **محمّد بن يعقوب الكُلَيْنىّ** فى كتاب « الكافى » بسنده المتّصل عن أبى يعقوب البغدادىّ أنّه قال : **قَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ**[2] **لِابِى الحَسَنِ عَلَيهِ**

١ـ الآية ٣٦، من السورة ١٧: الاسراء.

٢ـ ابن السكّيت بكسر السين وتشديد الكاف، يعقوب بن إسحاق السكّيت أبو يوسف، من أفاضل الإماميّة وثقاتهم. وقد أورد فى ترجمة أحواله فى «مجمع الرجال» ج ٦، ص ٢٧٢: أنّه كان متقدّماً عند الإمام محمّد التقىّ والإمام علىّ النقىّ عليهما السلام، ولم يدرك غيرهما، قتله المتوكّل العبّاسىّ لعنه الله لاجل تشيّعه. قيل إنّ سبب قتله أنّه كان معلّماً لولدَى المتوكّل المعتزّ والمؤيّد ، وكان ذات يوم حاضراً عند المتوكّل إذ أقبلا فقال

السَّلاَمُ: لِمَاذَا بَعَثَ اللهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بالعَصَا وَيَدِهِ البَيْضَاءِ وَ آلَةِ السِّحْرِ؟! وَبَعَثَ عِيسَى بآلَةِ الطِّبِّ؟ وَبَعَثَ مُحَمَّدَاً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَعَلَى جَمِيعِ الاَنْبِيَاءِ بالكَلاَمِ وَالخُطَب؟!

فَقَالَ أَبُو الحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : إنَّ اللَهَ لَمَّا بَعَثَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ كَانَ الغَالِبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ السِّحْرَ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ بمَا لَمْ يَكُنْ فِى وُسْعِهِمْ مِثْلُهُ ، وَمَا أَبْطَلَ بِهِ سِحْرَهُمْ ، وَأَثْبَتَ بِهِ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ .

وَإنَّ اللَهَ بَعَثَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِى وَقْتٍ قَدْ ظَهَرَتْ فِيهِ الزَّمَانَاتُ وَاحْتَاجَ النَّاسُ إلَى الطِّبِّ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ بمَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِثْلُهُ ، وَبمَا أَحْيَى لَهُمُ المَوْتَى، وَأَبْرَأَ الاَكْمَهَ وَالاَبْرَصَ بِإذْنِ اللهِ وَأَثْبَتَ بِهِ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ.

وَإنَّ اللَهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ فِى وَقْتٍ كَانَ الغَالِبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ الخُطَبَ وَالكَلاَمَ ـ وَأَظُنُّهُ قَالَ : الشِّعْرَ ـ فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنْ مَوَاعِظِهِ وَحِكَمِهِ مَا أَبْطَلَ بِهِ قَوْلَهُمْ وَأَثْبَتَ بِهِ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ .

قَالَ : قَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ : تَاللهِ ؛ مَا رَأَيْتُ مِثْلَكَ قَطُّ! فَمَا الحُجَّةُ عَلَى الخَلْقِ اليَوْمَ؟!

قَالَ : فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : العَقْلُ يُعْرَفُ بِهِ الصَّادِقُ عَلَى اللهِ فَيُصَدِّقُهُ ؛

له المتوكّل: يا يعقوب! أيّهما أحبّ إليك، ولداى هذان أم الحسن والحسين؟ فقال ابن السكّيت: وَاللهِ؛ إنَّ قَنْبَراً غُلاَمَ عَلِىٍّ بْنِ أَبى طَالِبٍ عَلَيهِ السَّلاَمُ خَيْرٌ مِنْهُمَا وَمِنْ أَبِيهِمَا. فقال المتوكّل: سلّوا لسانه من قفاه. فسلّوه، فمات. رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَرِضْوَانُهُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

١ـ المراد بأبى الحسن هنا أبو الحسن الثالث، أى الإمام الهادى عليه السلام، بقرينة أنّ ابن السكّيت لم يدرك أبا الحسن الثانى أى الرضا عليه السلام. وقد صرّح بهذا المعنى المولى محسن الفيض فى «الوافى»، ويُعلم منه أنّ ما ورد فى «الاحتجاج» للطبرسىّ و«عيون أخبار الرضا» للصدوق من تقييد كلمة أبى الحسن بالرضا عليه السلام ، لم يكن صائباً.

وَالكَاذِبُ عَلَى اللَهِ فَيُكَذِّبُهُ .

قَالَ: فَقَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ: هَذَا وَاللَهِ هُوَ الجَوَابُ. [1]

وللمحقّق الفيض الكاشانى ّ كلام فى ذيل هذا الحديث المبارك بشأن معنى العقل الذى جعله الإمام عليه السلام حجّة، قال :

« فى كلام الإمام عليه السلام تنبيه على ترقّى الاستعدادات وتلطّف القرائح فى هذه الأُمّة ، حتّى استغنوا بعقولهم عن مشاهدة المعجزات المحسوسة، فإنّ الايمان بالمعجزة دين اللئام ومنهج العوامّ، وأهل البصيرة لايقنعون إلاّ بانشراح الصدر بنور اليقين :

أَفَمَن شَرَحَ اللَهُ صَدْرَهُ و لِلاْسْلَـ'مِ فَهُوَ عَلَى' نُور مِّن رَّبِّهِ. [2]

فالإنسان الصادق الذى تكون دلالته وحكايتهً من الله وللّه صادقة يمكن تشخيصه بالعقل ، لانّه بالعقل يمكن أن يُفهم علمه بكتاب الله ومراعاته له وتمسّكه بالسنّة وحفظه لها، والكاذب على الله يمكن كذلك تشخيص جهله بكتاب الله وتركه له ومخالفته للسنّة وعدم مبالاته بها .

قال فى « الاحتجاج » :

وقد ضمّن الرضا [3] صلوات الله عليه فى كلامه هذا أنّ العالم لا يخلو فى زمان التكليف من صادق من قبل الله يلتجى المكلّف إليه فى ما اشتبه عليه من أمر الشريعة، صاحب دلالة تدلّ على صدقه عليه تعالى، يتوصّل المكلّف إلى معرفته بالعقل ، ولولاه لما عُرف الصادق من الكاذب ، فهو

١ـ «أُصول الكافى» ج ١، ص ٢٤ و ٢٥، طبعة حيدرى؛ وكتاب «الوافى» ج ١، ص ١١٠ إلى ١١٢، طبعة إصفهان.

٢ـ الآية ٢٢، من السورة ٣٩: الزمر.

٣ـ أوردنا سابقاً أنّ صاحب كتاب «الاحتجاج» عدّ هذا الحديث للإمام أبى الحسن الرضا عليه السلام.

حجّة اللـه على الخلق أوّلاً » .[١]

فالإمام عليه السلام لم يكن ليريد فى هذا الحديث الافهام بأن حجّة اللـه اليوم هى العقل لا الإمام والنبىّ ، وأنّ حجّته فى الازمنة السابقة المصحوبة بالمعجزات كانت الانبياء لا العقل، لانّ تلك المعجزات أيضاً لم‌تكن لتثمر شيئاً لولا وجود العقل .

أمّا فى هذا الزمان فإنّ العقل لا يكفى لوحده، إذ لولا وجود صادق من جانب اللـه تعالى، فإنّ الإنسان سيعجز بعقله عن معرفة مَن سيتبع وبمن سيقتدى .

لذا فإنّ أمس واليوم كلاهما بحاجة إلى حجّة ، كما يحتاجان العقل ، ذلك العقل الذى أمكن لابن السكّيت أن يدرك أنّ الهادى عليه السلام هو الإمام الصادق ، وأنّ المتوكّل هو الإمام الكاذب الزائف .

فلقد دعاه الإمام فى تلك العبارات بأحلى بيان وأقوى برهان إلى الاعتقاد بإمامته عن طريق **أَدِلَّة قِيَاسائُهَا مَعَهَا**، وهى: أنّ لك عقلاً! فاكتشف بعقلك الطريق! ومَيِّز به القائد من السارق، والدليل الهادى من قاطع الطريق! ثمّ تَحَرَّكْ معه واتَّبِعْهُ! وكان للامام إشارة هنا إلى أنّ عقول الناس اليوم من القوّة ممّا لا حاجة معه لمعجزة، فقد كانت المعجزة لاصحاب الابصار، أمّا أصحاب العقول والبصائر فيكتشفون قائدهم‌وإمامهم‌بانشراح الصدر ونور اليقين ، فلا يَدَعُونَ ملازمته حتّى ينالوا مقصودهم ويتوصّلوا إلى غايتهم .

وقد روى المرحوم الكلينىّ فى « الكافى » كذلك، بسنده المتّصل عن ابن أبى يعفور، عن مولى لبنى شيبان ، عن أبى جعفر محمّد الباقر عليه

١ـ «الوافى» ج ١، ص ١١٢ و ١١٣، طبعة إصفهان الحروفيّة.

السلام قـال : **إذَا قَـامَ قَائِمُنَـا وَضَـعَ اللَـهُ يَـدَهَ عَلَـى رُؤُوسِ العِبَـادِ فَجَمَـعَ بِـهَا عُقُولَهُمْ ، وَكَمُلَتْ بِهِ أَحْلاَمَهُمْ .** [1]

كما روى الكَلينىّ بسنده المتّصل عـن عبـد اللـه بـن سـنان، عـن الإمـام الصادق عليه السـلام قـال : **حُجَّـةُ اللَـهِ عَلَـى العِبَـادِ النَّبِـىُّ؛ وَالحُجَّـةُ فِيمَـا بَيْـنَ العِبَادِ وَبَيْنَ اللَهِ العَقْلُ .** [2]

يقول المحقّـق الفيـض فى بيـان وشـرح هـذا الحديـث: يعـنى مـا يقطـع بـه عذرهـم فى تركـهم لمـا يتوصّلـون إلى سـعادتهم وفيـه نجـاتهم هـو النـبىّ بعـد تصديقهم باللـه سبحانه ، وما يقطع به عذرهـم فى تركـهم لمعرفـة اللـه سـبحانه والتصديق به قبل ذلك هو العقل .

ولمّـا كـانت الحجّـة فى الاوّل موصلـة لهـم إلى شـىء آخـر غـير اللـه ، أعـنى سـعادتهم، وكـانوا معتقديـن لالهيّتـه سـبحانه، أضـاف الحجّـة إلى اللـه تعـالى **حجّـة اللـه**، وأورد لفـظ **عَلَـى**، ولمـا كـانت الحجّـة فى الثانيـة موصلـة لهم إليه تعالى، وكانوا غـير معتقديـن بعـد لالهيّتـه، وهـى قـد تكـون حجّـة لهـم وقد تكون حجّـة عليـهم لاختـلاف مراتـب عقولهـم ، قـال : فيمـا بينـهم وبـين اللـه .

ثمّ أورد شـرحاً لأُسـتاذه فى المعقـول : صـدر المتـألّـهين الشـيرازىّ طيّباللـه مضجعـه، محصّلـه: أنّ النـاس أمّـا أهـل بصـيرة وأمّـا أهـل حجـاب، والحجّة للّـه عليـهم أمّـا ظـاهرة وأمّـا باطنـة؛ ويكفـى لاهـل الحجـاب الحجّـة الظاهرة، إذ لا بـاطل لهـم، لا نّـهم عميـان القلـوب لا يبصـرون بباطنـهم شـيئاً ، لهـم قلـوب لا يفقهـون بها ، فالحجّـة عليهـم هو النبىّ مع معجـزته ، وهى الحجّة

١ـ «أُصول الكافى» ج ١، ص ٢٥. و«الوافى» ج ١، ص ١١٤، الطبعة الحروفيّة.

٢ـ «أُصول الكافى» ج ١، ص ٢٥؛ و«الوافى» ج ١، ص ١١٣.

الظاهرة.

وأمّا أهل البصيرة فالحجّة الظاهرة عليهم هو النبيّ، والباطنة هو العقل المكتسب ممّا استفادوا من النبيّ.

ثمّ يقول: هذا تحقيق حسن الاّ انّ إرادته من الحديث بعيدة.[١]

ومن بين الاحاديث فى باب حجّيّة العقل وأفضليّته، رواية جليلة ونفيسة رواها فى «الكافى» بسنده المتّصل عن هشام بن الحكم، عن أبى‌الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام، تضمّ مطالب قيّمة ومعارف عالية ودقائق وإشارات ولطائف تليق أن يؤلّف لكشف نكاتها العميقة كتاب مستقلّ، وباعتبارها مفصّلة فإنّنا نكتفى هنا بعدّة فقرات منها:

قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: يَا هِشَامُ! إنَّ اللَهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَشَّرَ أَهْلَ العَقْلِ وَالفَهْمِ فِى كِتَابِهِ، فَقَالَ: «فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ و أُولَـئكَ الَّذِينَ هَدَبهُمُ اللَهُو أُولَـئكَ هُمْ أُولُوا الاَلْبَـابِ».[٢]

يَا هِشَامُ! إنَّ اللَهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْمَلَ لِلنَّاسِ الحُجَجَ بِالعُقُولِ، وَنَصَرَ النَّبِيِّينَ بالبَيَانِ، وَدَلَّهُمْ عَلَى رُبُوبيَّتِهِ بالاَدِلَّةِ.

يَا هِشَامُ! إنَّ العَقْلَ مَعَ العِلْمِ. فَقَالَ: «وَتِلْكَ الاَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إلاَّ الْعَالِمُونَ».[٣]

يَا هِشَامُ! إنَّ لُقْمَانَ قَالَ لاِبْنِهِ: تَوَاضَعْ لِلْحَقِّ تَكُنْ أَعْقَلَ النَّاسِ، وَإنَّ الكَيِّسَ لَدَى الحَقِّ يَسِيرٌ.

يَا بُنَىَّ! إنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ قَدْ غَرِقَ فِيهِ عَالَمٌ كَثِيرٌ، فَلْتَكُنْ سَفِينَتُكَ

١ـ «الوافى» ج ١، ص ١١٤.

٢ـ الآيتان ١٧ و ١٨، من السورة ٣٩: الزمر.

٣ـ الآية ٤٣، من السورة ٢٩: العنكبوت.

فِيهَا تَقْوَى اللَهِ، وَحَشْوُهَا الايمَانَ، وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلَ، وَقَيِّمُهَا العَقْلَ، وَدَلِيلُهَا العِلْمَ، وَسُكَّانُهَا الصَّبْرَ.

يَا هِشَامُ! مَا بَعَثَ اللَهُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ إِلَى عِبَادِهِ إِلاَّ لِيَعْقِلُوا عَن اللَهِ! فَأَحْسَنُهُمُ اسْتِجَابَةً أَحْسَنُهُمْ مَعْرِفَةً؛ وَ أَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَهِ أَحْسَنُهُمْ عَقْلاً. وَأَكْمَلُهُمْ عَقْلاً أَرْفَعُهُمْ دَرَجَةً فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

يَا هِشَامُ! إِنَّ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْن: حُجَّةً ظَاهِرَةً وَحُجَّةً بَاطِنَةً. فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالانْبِيَاءُ وَالاَئِمَّةُ؛ وَأَمَّا البَاطِنَةُ فَالعُقُولُ.

يَا هِشَامُ! الصَّبْرُ عَلَى الوَحْدَةِ عَلاَمَةُ قُوَّةِ العَقْل، فَمَنْ عَقَلَ عَن اللَهِ اعْتَزَلَ أَهْلَ الدُّنْيَا وَالرَّاغِبِينَ فِيهَا وَ رَغِبَ فِيمَا عِنْدَ اللَهِ، وَكَانَ اللَهُ أُنْسَهُ فِى الوَحْشَةِ، وَصَاحِبَهُ فِى الوَحْدَةِ، وَغِنَاهُ فِى العِيلَةِ، وَمُعِزَّهُ مِنْ غَيْر عَشِيرَة.

يَا هِشَامُ! كَانَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَقُولُ: مَا عُبِدَ اللَهُ بِشَىء أَفْضَلَ مِنَ العَقْل، وَمَا تَمَّ عَقْلُ امْرِى حَتَّى يَكُونَ فِيهِ خِصَالٌ شَتَّى: اَلكُفْرُ وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونَان، وَالرُّشْدُ وَالخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولاَن، وَفَضْلُ مَالِهِ مَبْذُولٌ، وَفَضْلُ قَوْلِهِ مَكْفُوفٌ، نَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا القُوتُ، لاَ يَشْبَعُ مِنَ العِلْم دَهْرَهُ، الذُّلُّ أَحَبُّ إِلَيْهِ مَعَ اللَهِ مِنَ العِزِّ مَعَ غَيْرِهِ، والتَّوَاضُعُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرَف.

يَسْتَكْثِرُ قَلِيلَ المَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَسْتَقِلُّ كَثِيرَ المَعْرُوفِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَيَرَى النَّاسَ كُلَّهُمْ خَيْراً مِنْهُ؛ وَأَنَّهُ شَرَّهُمْ فِى نَفْسِهِ وَهُوَ تَمَامُ الاَمْر.

يَا هِشَامُ! لاَ دِينَ لِمَنْ لاَ مُرُوَّةَ لَهُ، وَلاَ مُرُوَّةَ لِمَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ. [1]

يقول المحقّق الفيض الكاشانى فى شرح وبيان فقرة تَوَاضَعْ لِلْحَقِّ تَكُنْ أَعْقَلَ النَّاسِ :أى تواضع مع الناس للحقّ سبحانه لا لغرض آخر، فإنّ

١ـ «أُصول الكافى» ج ١، ص ١٣ إلى ١٩؛ و«الوافى» للكاشانىّ، ج ١، ص ٨٦ إلى ٩٣، الطبعة الحروفيّة.

مَن تواضع للّه رفعه اللـه، كما ورد فى الحديث.

أو نقول : التواضع للحقّ هو الاءقرار بـه والطاعـة لـه والانقيـاد، كمـا هـو مقتضى العقل .

وقال أُستاذنا(صـدر المتـأ لّـهين الشـيرازى ّ قـدّس اللـه سـرّه): هـو أن لايرى العـبد لنفسـه وجـوداً ولا حـولاً ولا قـوّة إلاّ بـالحقّ تعـالى وحـوله وقوّته، فيرى أن لا حول ولا قوّة له ولا لغيره إلاّ باللـه.

وورد فى الحديث النبـوى ّ: **مَـنْ تَوَاضَـعَ لِـلَّهِ رَفَعَـهُ اللَـهُ**؛ فـإذا فـنى عـن نفسه بالموت الاءرادى ّ قبل الموت الطبيعى ّ يكون باقياً باللـه.

ثمّ قال الملاّ صـدرا: وهـو المـراد بقولـه: **تَكُـنْ أَعْقَـلَ النَّـاس** ، فـإنّ أعقـل الناس هم الانبياء والاولياء ثمّ الامثل فالامثل .[1]

وقـال فى شـرح وبيـان فقـرة: **فَمَـنْ عَقَـلَ عَـنِ اللَـهِ اعْـتَزَلَ أَهْـلَ الدُّنْيَـا وَالرَّاغِبِينَ فِيهَا** : بلغ عقله إلى حدّ يأخذ العلم عن اللـهَ مـن غـير تعليـم بشـر فى كلّ أمرَ .

ومعنى الاعـتزال عـن الدنيـا وأبنـاء الدنيـا: إذ لم يبـقَ لـه رغبـة فى الدنيـا وأهلها، وإنّما يرغب فيمـا عنـد اللـه مـن الخـيرات الحقيقيّـة والانـوار الالهيّـة والاءشراقات العقليّة والابتهاجات الذوقيّة والسكينات الروحيّة.

وفى شرح وبيان فقـرة: **مَـا عُبـدَ اللَـهُ بشَـىء أَفْضَـلَ مِنَ العَقْـل**، قـال: أى أفضل ما يتقرّب به العبد إلى اللـه هوَ تكميـلَ العقـلَ باكتسـاب العلـومَ الحقيقيّـة الأُخرويّة والمعارف اليقينيّة الباقية المـأخوذة مـن اللـه سـبحانه دون غـيره مـن الطاعات والعبادات البدنيّة والماليّة والنفسيّة .

كمـا ورد عـن النـبى ّصـلّى‌اللـه عليـه وآله وسلّم : **يَا عَـلِى ُّ! إذا تَقَـرَّبَ**

١ـ «الوافى» ج ١، ص ٩٧.

النَّاسُ إِلَى خَالِقِهِمْ بِأَنْوَاعِ البرِّ، فَتَقَرَّبْ أَنْتَ إِلَيْهِ بِالعَقْلِ حَتَّى تَسْبِقَهُمْ. [1]

نعم، حين نرى أنّ دين الإسلام القويم قائم على أساس العقل، وأنّ الآيات القرآنيّة تدعونا إلى العقل والتعقّل، وأنّ هذه الاحاديث المعتبرة من رسول الله وآله الميامين جاءت لتدعو إلى العقل؛ وحين نعلم أنّ للعقل حجّيّة قبل الشرع، وأنّه أحد حجّتَى الله وبرهانيه الصادقَين، وأنّ هذا العقل يدعونا للعلم واليقين؛ وأنّ القرآن الكريم ينهانا عن أُسلوب الظنّ وعن أىّ منهاج للحدس لا ينتهى بالقطع واليقين، فكيف يمكننا مع هذا كلّه ـ أن نتمسّك بفرضيّة تفتقر إلى الاساس العلمىّ، ولم تصاغ على أساس من البرهان واليقين ، ولم تكتسب حجّة يقينيّة وشهوداً وجدانيّاً ، فنرفع لاجلها يدنا عن ظاهر الكلام الاءلهىّ والكتاب السماوىّ؟!

إنّ الحكيم أوالعالم لن ينحنى أو يخضع إمام هذه التصوّرات وهذه المختبرات، وأمام تنظيم عدّة تماثيل وعظام مزوّرة وعدّة من الفسائل الطبيعيّة الناقصة وذات الدلالة المبهمة الغامضة، فهو لا يبيع المحكمات بالمتشابهات .

١ـ «الوافى» ج ١، ص ١٠١ و ١٠٢؛ وأورد الغزّالىّ فى «إحياء العلوم» ج ٣، ص ١٤:
قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَسَلَّمَ لِعَلِى ٍّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: إِذَا تَقَرَّبَ النَّاسُ إِلَى اللَهِ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ البرِّ، فَتَقَرَّبْ أَنْتَ بعَقْلِكَ. وروى فى «إحياء العلوم» ج ٣، ص ٣٥٣، عن أبى الدرداء: إِنَّهُ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَهِ! أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ وَيَحِجُّ وَيَعْتَمِرُ وَيَتَصَدَّقُ وَيَغْزُو فِى سَبِيلِ اللَهِ وَيَعُودُ المَرِيضَ وَيُشَيِّعُ الجَنَائِزَ وَيُعِينُ الضَّعِيفَ وَلاَ يُعْلَمُ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ اللَهِ يَوْمَ القِيَامَةِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا يُجْزَى عَلَى قَدْرِ عَقْلِهِ.

وَقَالَ أَنَسٌ: أُثْنى عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ [و آلِهِ] وَسَلَّمَ، فَقَالَ: كَيْفَ عَقْلُهُ؟! قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَهِ نَقُولُ مِنْ عِبَادَتِهِ وَفَضْلِهِ وَخُلُقِهِ؟ فَقَالَ: كَيْفَ عَقْلُهُ؛ فَإِنَّ الاَحْمَقَ يُصِيبُ بِحُمْقِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الفَاجِرِ، وَ إِنَّمَا يُقَرَّبُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ.

أمّا أتباع الظواهر الذين تمركزت عقولهم فى عيونهم ، فيحكمون فوراً بمجرّد التفرّج على عدّة فسائل لا تحكى إلاّ التغيّر والتكامل داخل الانواع على قضيّة أشمل ومطلب أوسع، فيقولون: الآن وقد ثبت التطوّر والرشد والتغيّر داخل الانواع، فإنّ علينا أن نعتبره أساساً عامّاً كلّيّاً فنطلقه على تبدّل الانواع وتغيّراتها الخارجيّة، ونعتبر جميع الانواع من أصل واحد وجرثومة واحدة .

بأى ّعلّة؟ وبأى ّمناط؟ وبأى ّبرهان؟

أيحمل قائل هذا الكلام فى جعبته شيئاً غير خلط ومزج المطالب الحدسيّة والوهميّة وغير الاستقراء الناقص ؟ فليقدّمه وليُشر إليه .

الإشكال التاسع على صاحب المقالة: هو عدم فهمه لمعنى الفطرة وفطريّة الاحكام ، حيث أشكل تبعاً لذلك على العلاّمة قدّس الله نفسه الشريفة بشأن عدم منافاة تزويج أولاد آدم أبى البشر وبناته للفطرة ، ثمّ أورد مطلباً منه شفعه بأمثلة غير صحيحة من عنده، فأدغمها فى كلام العلاّمة ونسبها خطأً إليه، ثمّ أنهى كلامه بعد شرح مختصر.

ونجد أنفسنا مجبرين ـ إيضاحاً لحقيقة الامر ـ على إيراد عين عبارته ، ثمّ الاءشارة إلى نقاط مغالطته ومواضع مكابرته الشاعريّة .يقول :

مضافاً إلى ذلك فإنّه يضع نفسه ـ بقبوله كون آدم وزوجه أباً وأمّاً لجميع نوع البشر ـ أمام سؤال عسير:

هل تزوّج أولاد وبنات آدم فيما بينهم ؟ حيث أجاب على ذلك بالإيجاب . ثمّ أجاب بالنفى على السؤال الآخر: أو لا يتعارض زواج الاخ والاُخت مع الفطرة؟

وأورد كشاهد على تأييد عدم تعارض زواج الاُخت والاخ للفطرة قصصاً منقولة عن الايرانيّين القدماء، وعن أعمال بعض الاُوروبّيّين المعاصرين.

ونُعرض من جديد عن نفس الاسئلة والاجوبة، ونلحظ فقط مستلزمات الكلام الاوّل، فقد رأى فى معرض دفاعه عن وجهة نظره الأُولى لزوم عرض ملاكٍ ما فى باب موافقة الفطرة ومعارضتها يثير بنفسه أسئلة جديدة ويستلزم أجوبة جديدة، ويشيد بشكل عامّ فهماً دينيّاً جديداً.

فلا جرم أنّ شرب الخمر، والزنا، واللواط، والربا التى كانت سائدة ورائجة فى الاقوام السابقة كما هى رائجة عند الأُوروبّيّين المعاصرين، هى فى نظره من الأُمور التى لا تخالف الفطرة، بل إنّها بحدّ ذاتها ليست حسنةً ولا قبيحة، ولا معنى لان تُحلّل فى شريعة ما وتُحرّم فى أُخرى .

ولا جرم أنّ الدين ـ وخاصّة الدين الإسلامىّ ـ الذى يمثّل فى نظره طريقاً لاءيصال الفرد والمجتمع لكماله اللائق جميع أحكامه فطريّة بهذا المعنى ، [1] سيكتسب وجهاً ومظهراً آخر، وسيتّضح أنّ كثيراً من أحكام الدين الإسلامىّ يمكن أن تكون بشكل آخر مع احتفاظها بفطريّتها .

وهذه كلّها نوع من المعرفة الدينيّة تتناسب مع نوع المعرفة الإنسانيّة ومعرفة العالم، أى أنّ المفسّر ما لم يكن له إدراك وفهم خاصّ عن الإنسان والعالم، وعن مفهوم الحُسن والقبح ، وعن الاحتياجات الإنسانيّة ، فإنّه لن يستطيع الحكم أنّ زواج الأُخت والاخ فطرىّ أحياناً وغير فطرىّ أحياناً أُخرى، أو أ نّه أمر لا فطرىّ ولاغير فطرىّ .

ويتّضح من جديد أنّ موافقة أحكام الدين للفطرة أمر لايمكن إثباته بالتجربة، كما لا يمكن نفيه بالتجربة، لانّ زواج الأُخت والاخ ـ وهو أمر اعتبارىّ لا حقيقىّ ـ كان فى بدء خلق الإنسان مجازاً ومشروعاً فى نظره ، لانّ غرض الشارع ومصلحة العالم كانت فى تكثير نسل الإنسان، وأمّا الآن وقد انتفت هذه المصلحة فقد حُرِّم هذا الزواج .

---

١ ـ تفسير «الميزان» للعلاّمة الطباطبائىّ ج ١٤، الآية ٣٠، من السورة ٣٠ : الروم .

إنّ هذا الكلام يمنع بشكل كامل أمر إثباتنا لفطريّة الاحكام الشرعيّة أوّلاً، وباعتبار عدم معرفتنا لغرض الشارع من جعل الحكم الفلانىّ فإنّنا يمكن أن نعتبر أىّ حكم موافقاً للفطرة ، لذا فإنّ الفطريّة وغيرالفطريّة ستفقد عمليّاً قيمتها الاستدلاليّة وروح معرفتها وإدراكها .

وثانياً فلابدّ لاءظهار ذلك النظر من أن نُنشى نظريّة أخلاقيّة خاصّة تقول بعدم وجود اعتبار لحُسن الافعال وقبحها، وإنّ جوانب العلاقات الفرديّة والاجتماعيّة (العلاقات الجنسيّة وعلاقات الحكم و...) ليست بذاتها حسنة ولا قبيحة ، بل إنّ لحسنها وقبحها معنى ومنشأ آخر، فيمكن أحياناً أن يصبح عمل ما لمصلحة معيّنة(كتكثير النسل) مشروعاً، وأن يصبح ممنوعاً أحياناً أُخرى؛ وحين يكون هذا الامر جائزاً فى زواج الأُخت والاخ، فَلِمَ لا يكون جائزاً فى الموارد الأُخرى؟!(وفى الحقيقة فإنّ نظر المرحوم الطباطبائىّ فى باب الاخلاق هو نفس هذه العقيدة ، حيث أوردها بوضوح فى المقالة السادسة [1] من كتابه «أُصول فلسفه وروش رئاليسم» (= أسس الفلسفة والمذهب الواقعىّ) ؛ وقد توسّل جماعة من المفسّرين تجنّباً لهذه الصعوبات بأحاديث تحكى تزويج ابنَى آدم بجنيّة وحوريّة». [2]

وعلينا بياناً لمواضع خطأ صاحب المقالة أن نورد بحثاً عن الفطرة ومعناها، ثمّ نعمد إلى ذكر الاشتباهات ؛ فلدينا فى القرآن الكريم آية صريحة وواضحة تكشف عن أنّ الإنسان قد خُلق على أساس الفطرة ، تُعدّ الدين الاسلامىّ المبين ديناً قائماً على أساس الفطرة :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لَلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

١ ـ لم يذكر العلاّمة الطباطبائىّ مثل هذا الكلام فى المقالة السادسة .

٢ـ «كيهان فرهنگى» العدد ٥٢، تير ماه ١٣٦٧ شمسىّ، رقم ٤، مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت»، ص ١٧، العمودان الاوّل والثانى .

لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَهِ ذَ'لِـكَ الدِّيـنُ الْقَيِّـمُ وَلَـ'كِـنَّ أَكْثَـرَ النَّـاسِ لاَ يَعْلَمُـونَ * مُنيبينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُـوهُ وَأَقِيمُـوا الصَّلَـو'ةَ وَلاَ تَكُونُـوا مِـنَ الْمُشْـرِكِينَ * مِـنَ الَّذِيـنَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .[1]

قال العلاّمة الطباطبائى فى تفسير هذه الآيات:

الفطـرة بنـاء نـوع مـن الفطـر بمعـنى الإيجـاد والإبـداع، و فِطْـرَتَ اللَـهِ منصوب على الاءغراء، أى الْزَمِ الفطـرة، ففيـه إشـارة إلى أنّ هـذا الديـن الـذى يجب إقامة الوجه له هـو الـذى تهتـف بـه الخلقـة وتهـدى إليـه الفطـرة الإلهيّـة التى لاتبديل لها .

وذلك أنّه ليس الدين إلاّ سنّة الحيـاة والسـبيل الـتى يجـب علـى الإنسـان أن يسلكها حتّى يسعد فى حياته، فـلا غايـة للإنسـان يتبعـها إلاّ السـعادة، وقـد هدى كلّ نوع مـن أنـواع الخليقـة إلى السـعادة الـتى هـى بغيـة حياتـه بفطرتـه ونوع خلقته، وجهّز فى وجوده بما يناسب غايته من التجهيز ؛ قال تعالى: رَبُّنَا الَّـذِى أَعْطَـى' كُـلَّ شَـىْءٍ خَلْقَـهُ و ثُـمَّ هَـدَى'.[2] وقـال: الَّـذِى خَلَـقَ فَسَـوَّى' * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى'.[3]

فالإنسـان كسـائر الانـواع المخلوقـة مفطـور بفطـرة تهديـه إلى تتميـم نواقصـه ورفع حوائـجه ، وتهـتف له بما ينفعه وما يضـرّه فى حياته ، قال تعالى:

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّب'هَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَيـ'هَا .[4]

وهـو مـع ذلـك مجهـز بمـا يتـمّ لـه بـه مـا يجـب له أن يقصده من العمل،

---

١ ـ الآيات ٣٠ إلى ٣٢، من السورة ٣٠: الروم.

٢ ـ الآيـة ٥٠، مـن السـورة ٢٠: طـه، وهـى حكايـة اللـه عـن جـواب موسـى وهـارون علـى سؤال فرعون : «فمن ربّكما يا موسى» ؟

٣ ـ الآيتان ٢ و ٣، من السورة ٨٧: الاعلى.

٤ ـ الآيتان ٧ و ٨، من السورة ٩١: الشمس.

قال تعالى :

ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ . [١]

فللإنسانَ فطرة خاصّة تهديه إلى سنّة خاصّة فى الحياة وسبيل معيّنة ذات غاية مشخّصة ليس له إلاّ أن يسلكها خاصّة ، وهو قوله : فِطْرَتَ اللَهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .

وليس الإنسان العائش فى هذه النشأة إلاّ نوعاً واحداً لا يختلف ما ينفعه وما يضرّه بالنظر إلى هذه البُنية المؤلّفة من روح وبدن ، فما للإنسان من جهة أنّه إنسان إلاّ سعادة واحدة وشقاء واحد، فمن الضرورى ّحينئذٍ أن يكون تجاه عمله سنّة واحدة ثابتة يهديه إليها هادٍ واحد ثابت ، وليكن ذاك الهادى هو الفطرة ونوع الخلقة، ولذلك عقّب قوله: فِطْرَتَ اللَهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا بقوله : لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَهِ .

فلو اختلفت سعادة الإنسَان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادة الافراد المجتمعين ، ولو اختلفت السعادة باختلاف الاقطار التى تعيش فيها الأُمم المختلفة ، بمعنى أن يكون الاساس الواحد للسنّة الاجتماعيّة أعنى الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقة ، كان الإنسان أنواعاً مختلفة باختلاف الاقطار ، ولو اختلفت السعادة باختلاف الازمنة ، بمعنى أن تكون الاعصار والقرون هى الاساس الوحيد للسنّة الدينيّة ، اختلفت نوعيّة كلّ قرن وجيل مع من ورثوا من آبائهم أو أخلفوا من أبنائهم ، ولم يسر الاجتماع الإنسانى ّسير التكامل، ولم تكن الإنسانيّة متوجّهة من النقص إلى الكمال ، إذ لايتحقّق النقص والكمال إلاّ مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينهما .

وليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الامكنة أو

١ ـ الآية ٢٠، من السورة ٨٠: عبس.

الازمنة بعض التأثير فى انتظام السنّة الدينيّة فى الجملة، بل إثبات أنّ الاساس للسنّة الدينيّة هو البنية الإنسانيّة التى هى حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الافراد، فللانسانيّة سنّة واحدة ثابتة بثبات أساسها الذى هو الإنسان، وهى التى تدير رحى الإنسانيّة مع ما يلحق بها من السنن الجزئيّة المختلفة باختلاف الافراد أو الامكنة أو الازمنة . وهذا هو الذى يشير إلى قوله بعد : ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ، وسنزيد المقام إيضاحاً فى بحث مستقلّ إن شاء الله تعالى .[1]

ثمّ يقول فى فصل مستقلّ تحت عنوان : كَلاَمٌ فِى مَعْنَى كَوْنِ الدِّينِ فِطْرِيّاً فِى فُصُولٍ :

١ ـ إذا تأمّلنا هذه الانواع الموجودة التى تتكوّن وتتكامل تدريجيّاً، سواء كانت ذوات حياة وشعور كأنواع الحيوان ، أم ذات حياة فقط كأنواع النبات ، أو ميّتة غير ذى حياة كسائر الانواع الطبيعيّة ـ على ما يظهر لنا وجدنا كلّ نوع منها يسير فى وجوده سيراً تكوينيّاً معيّناً ذا مراحل مختلفة بعضها قبل بعض ، وبعضها بعد بعض ، يرد النوع فى كلّ منها بعد المرور بالبعض الذى قبله وقبل الوصول إلى ما بعده، ولا يزال يستكمل بطىّ هذه المنازل حتّى ينتهى إلى آخرها وهو نهاية كماله .

نجد هذه المراتب المطويّة بحركة النوع يلازم كلّ منها مقامه الخاصّ به لايستقدم ولا يستأخر من لدن حركة النوع فى وجوده إلى أن تنتهى إلى كماله، فبينها رابطة تكوينيّة يربط بها بعض المراتب ببعض بحيث لايتجافى ولا ينتقل إلى غير مكانه، ومن هنا يستنتج أنّ للنوع غاية تكوينيّة يتوجّه إليها من أوّل وجوده حتّى يبلغها .

---

١ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٦، ص ١٨٦ إلى ١٨٨.

فالجوزة الواحدة مثلاً إذا استقرّت فى الارض استقراراً يهيّؤها للنموّ على اجتماع ممّا يتوقّف عليه النموّ من العلل والشرائط، كالرطوبة والحرارة وغيرهما ، أخذ لبّها فى النموّ وشقّ القشر وشرع فى ازدياد من أقطار جسمه، ولم يزل يزيد وينمو حتّى يصل إلى حدّ يعود فيه شجرة قويّة خضراء مثمرة . ولا يختلف حاله فى مسيره هذا التكوينىّ وهو فى أوّل وجوده قاصداً قصداً تكوينيّاً إلى غايته التكوينيّة التى هى مرتبة الشجرة الكاملة المثمرة .

وكذا الواحد من نوع الحيوان ، كالواحدة من الضأن مثلاً ، لانشكّ فى أنّها فى أوّل تكوّنها جنيناً متوجّهة إلى غايتها النوعيّة التى هى مرتبة الضأنة الكاملة التى لها خواصّها، فلا تضلّ عن سبيلها التكوينيّة الخاصّة بها إلى سبيل غيرها، ولا تنسى غايتها يوماً فتسير إلى غاية غيرها كغاية الفيلة مثلاً أو غاية شجرة الجوز مثلاً، فكلّ نوع من الانواع التكوينيّة له مسير خاصّ فى استكمال الوجود ذو مراتب خاصّة مترتّبة بعضها على بعض تنتهى إلى مرتبة هى غاية النوع ذاتاً ، يطلبها طلباً تكوينيّاً بحركته التكوينيّة، والنوع فى وجوده مجهّز بما هو وسيلة حركته وبلوغه إلى غايته .

وهذا التوجّه التكوينىّ لاستناده إلى الله يسمّى هداية عامّة إلهيّة ، وهى كما عرفت لا تضلّ ولا تخطى فى تسيير كلّ نوع مسيره التكوينىّ وسوقه إلى غايته الوجوديّة بالاستكمال التدريجىّ، وبإعمال قوّته وأدواته التى جهّز بها لتسهيل مسيره إلى غايته . قال تعالى : رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ و ثُمَّ هَدَى[1] .

١ ـ الآية ٥٠، من السورة ٢٠: طه.

وقال : الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّی ' * وَالَّذِی قَدَّرَ فَهَدَی ' * وَالَّذِیَ أَخْرَجَ الْمَرْعَی ' * فَجَعَلَهُ و غُثَآءً أَحْوَی '. [1]

٢ ـ نوع الإنسان غير مستثنى من كلّيّة الحكم المذكور، أعنى شمول الهداية العامّة له، فنحن نعلم أنّ النطفة الإنسانيّة من حين تشرع فى التكوّن متوجّهة إلى مرتبة إنسان تامّ كامل له آثاره وخواصّه، قد قطع فى مسيره مراحل الجنينيّة والطفوليّة والمراهقة والشباب والكهولة والشيب .

غير أنّ الإنسان يفارق سائر الانواع الحيوانيّة والنباتيّة وغيرها فيما نعلم فى أمر، وهو أ نّه لِسعة حاجته التكوينيّة وكثرة نواقصه الوجوديّة لايقدر على تتميم نواقصه الوجوديّة ورفع حوائجه الحيويّة وحده، بمعنى أنّ الواحد من الإنسان لا تتمّ له حياته الإنسانيّة وهو وحده، بل يحتاج إلى اجتماع منزلىّ ، ثمّ اجتماع مدنىّ يجتمع فيه مع غيره بالازدواج والتعاون والتعاضد ، فيسعى الكلّ بجميع قواهم التى جهّزوا بها للكلّ ، ثمّ يقسّم الحاصل من عملهم بين الكلّ فيذهب كلّ بنصيبه على قدر زنته الاجتماعيّة.

وهذه المدنيّة ليست بطبيعيّة للانسان ، بمعنى أن ينبعث إليه من ناحية طبيعته الإنسانيّة ابتداءً ، بل له طبيعة مستخدمة لغيره لنفع نفسه ما وجد إليه سبيلاً . فهو يستخدم الاُمور الطبيعيّة ثمّ أقسام النبات والحيوان فى سبيل مقاصده الحيويّة، فهو باستخدام فرد مثله أو أفراد أمثاله أجراً ، لكنّه يجد سائر الافراد أمثاله فى الاميال والمقاصد وفى الجهازات والقوى ، فيضطرّ إلى المسالمة وأن يسلّم لهم حقوقاً مثل ما يراه لنفسه .

وينتهى هذا التضارب بين المنافع أن يشارك البعض البعض فى العمل التعاونىّ ، ثمّ يقسّم الحاصل من الاعمال بين الجميع ويعطى منه لكلّ

١ ـ الآيات ٢ إلى ٥، من السورة ٨٧: الاعلى.

ما يستحقّه . وكيف كان، فالمجتمع الإنسانى ّلا يتمّ انعقاده ولا يعمّر إلاّ بأُصول علميّة وقوانين اجتماعيّة يحترمها الكلّ ، وحافظ يحفظها من الضيعة، ويجريها فى المجتمع، وعند ذلك تطيب لهم العيشة وتشرف عليهم السعادة .

أمّا الأُصول العلميّة ، فهى معرفته إجمالاً بما عليه نشأة الوجود من الحقيقة، وما عليه الإنسان من حيث البداية والنهاية ، فإنّ المذاهب المختلفة مؤثّرة فى خصوص السنن المعمول بها فى المجتمعات ، فالمعتقدون فى الإنسان أ نّه مادّى ّ ليس له من الحياة إلاّ الحياة المعجلّة المؤجّلة بالموت، وأن ليس فى دار الوجود إلاّ السبب المادّى ّ الكائن الفاسد، ينظّمون سنن اجتماعهم بحيث تؤدّيهم إلى اللذائذ المحسوسة والكمالات المادّيّة ما وراءها شيء .

والمعتقدون بصانع وراء المادّة ـ كالوثنيّة ـ يبنون سننهم وقوانينهم على إرضاء الآلهة ليسعدوهم فى حياتهم الدنيويّة ، والمعتقدون بالمبدأ والمعاد يبنون حياتهم على أساس يسعدهم فى الحياة الدينويّة ثمّ فى الحياة المؤبّدة التى بعد الموت ، فصور الحياة الاجتماعيّة تختلف باختلاف الأُصول الاعتقاديّة فى حقيقة العالم والإنسان الذى هو جزء من أجزائه .

وأمّا القوانين والسنن الاجتماعيّة، فلولا وجود قوانين وسنن مشتركة يحترمها المجتمعون جميعهم أو أكثرهم ويتسلّمونها، تفرّق الجمع وانحلّ المجتمع .

وهذه السنن والقوانين قضايا كلّيّة عمليّة صورها : يجب أن يفعل كذا عند كذا أو يحرم أو يجوز، وهى أيّاماً كانت معتبرة فى العمل لغايات مُصلحة للاجتماع والمجتمع تترتّب عليها تسمّى مصالح الاعمال ومفاسدها.

٣ ـ قد عرفت أنّ الإنسان إنّما ينال ما قدر له من كمال وسعادة بعقد مجتمع صالح تحكم فيه سنن وقوانين صالحة تضمن بلوغه ونيله سعادته التى تليق به، وهذه السعادة أمر أو أُمور كماليّة تكوينيّة تلحق الإنسان الناقص الذى هو أيضاً موجود تكوينىّ ، فتجعله إنساناً كاملاً فى نوعه تامّاً فى وجوده .

فهذه السنن والقوانين ـ وهى قضايا عمليّة واعتباريّة ـ واقعة بين نقص الإنسان وكماله، متوسطة كالعبرة بين المنزلتين، وهى كما عرفت تابعة للمصالح التى هى كمال أو كمالات إنسانيّة، وهذه الكمالات أُمور حقيقيّة مسانخة ملائمة للنواقص التى هى مصاديق حوائج الإنسان الحقيقيّة .

فحوائج الإنسان الحقيقيّة هى التى وضعت هذه القضايا العمليّة واعتبرت هذه النواميس الاعتباريّة، والمراد بالحوائج هى ما تطلبه النفس الإنسانيّة بأميالها وعزائمها، ويصدّقه العقل الذى هو القوّة الوحيدة التى تميّز بين الخير والنافع وبين الشرّ والضارّ، دون ما تطلبه الاهواء النفسانيّة ممّا لايصدّقه العقل، فإنه كمال حيوانىّ غير إنسانىّ .

فأُصول هذه السنن والقوانين يجب أن تكون الحوائج الحقيقيّة التى هى بحسب الواقع حوائج لا بحسب تشخيص الاهواء النفسانيّة .

وقد عرفت أنّ الصنع والايجاد قد جهّز كلّ نوع من الانواع ـ ومنها الإنسان ـ من القوى والادوات بما يرتفع بفعّاليّته حوائجه ويسلك به سبيل الكمال، ومنه يستنتج أنّ للجهازات التكوينيّة التى جهّز بها الإنسان اقتضاءات للقضايا العمليّة المسمّاة بالسنن والقوانين، التى بالعمل بها يستقرّ الإنسان فى مقر كماله مثل السنن والقوانين الراجعة إلى التغذّى المعتبرة بما أنّ الإنسان مجهّز بجهاز التغذّى، والراجعة إلى النكاح بما أنّ الإنسان مجهّز بجهاز التوالد والتناسل .

فتبيّن أنّ من الواجب أن يتّخذ الدين سأى الأُصول العلميّة والسنن والقوانين العمليّة التى تضمن باتّخاذها والعمل بها سعادة الإنسان الحقيقيّة ـ من اقتضاءات الخلقة الإنسانيّة وينطبق التشريع على الفطرة والتكوين، وهذا هو المراد بكون الدين فطريّاً، وهو قوله تعالى :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّين حَنيفًا فِطْرَتَ اللَهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْق اللَهِ ذَ'لِكَ الدِّينُ اَلْقَيِّمُ .

٤ ـ قد عرفت معنى كون الدين فطريّاً ، فالإسلام يسمّى دين الفطرة لما أن الفطرة الإنسانيّة تقتضيه وتهدى إليه .

ويسمّى إسلاماً ، لما أنّ فيه تسليم العبد لارادة الله سبحانه منه ، ومصداق الارادة وهى صفة الفعل ـ لا صفة الذات ـ تجمّع العلل المؤلّفة من خصوص خلقة الإنسان وما يحتف به من مقتضيات الكون العامّ على اقتضاء الفعل أو الترك . قال تعالى :إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَهِ الاْسْلَـ'مُ.[١]

ويسمّى دين الله، لانّه الذى يريده الله من عباده من فعل أو ترك ، بما مرّ من معنى الارادة .

ويسمّى سبيل الله ، لما أنّه السبيل التى أرادها الله أن يسلكها الإنسان لتنتهى به إلى كماله وسعادته ، قال تعالى : الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .[٢]

وأمّا أنّ الدين الحقّ يجب أن يؤخذ من طريق الوحى والنبوّة ولايكفى فيه العقل، فقد تقدّم بيانه فى مباحث النبوّة وغيرها من مباحث الكتاب .[٣]

---

١ ـ الآية ١٩، من السورة ٣: آل عمران.

٢ ـ الآية ٤٥، من السورة ٧: الاعراف.

ویتّضح جیّداً وبشکل مفصّل ممّا أوردناه من تفسیر « المیزان » أنّ مراد العلاّمة قدّس الله سرّه من فطرة الإنسان هو البنیة الوجودیّة ـ بما یشمل الجسم والروح ـ وذلك الطریق والمسیر الذی یوصله إلی غایة الخلقة وهدفها من الکمال المنشود والسعادة المطلقة .

والمراد بدین الفطرة تلك القواعد والاحکام المؤثّرة فی سیر الإنسان باتّجاه سعادته وکماله ، وهذه القواعد والقوانین والسنن بالرغم من أنّها أصبحت معتبرة باعتبار الشارع المقدّس، لکنّها کانت قائمة علی أساس منطق العقل ووصول الإنسان إلی درجة الإنسانیّة، لا علی أساس منطق الحسّ والشهوة الذی یهبط به إلی مرتبة الحیوانیّة والبهیمیّة .

إنّ السعادة للإنسان أمر حقیقیّ ، وهذه السنن الفطریّة التی هی أُمور اعتباریّة، توجب حرکته وسیره إلی مقام الکمال الحقیقیّ ، فإذا ما انحرفت تلك السنن أحیاناً فی اعتبارها، فإنّ تلك السعادة الحقیقیّة والکمال المنشود لن یکونا من نصیبه .

ومع أنّ أحکام الشرع وقوانینه التی وضعت علی أساس الفطرة هی أحکام اعتباریّة وضعها منوط باعتبار الشارع ، لکنّه اعتبار لا یتخطّی قید شعرة مکانه الواقعیّ والحقیقیّ ، وقد استمدّ اعتباره هذا علی أساس الاحتیاجات التکوینیّة للإنسان وإیصاله إلی أعلی درجات الکمال الحقیقیّ والوجودیّ ، فلا معنی ـ علی هذا ـ لان یکون أمرٌ ما حلالاً فی شریعة معیّنة وحراماً فی أُخری .

فالزواج والنکاح ـ مثلاً ـ هو أمر فطریّ أمضاه الشرع وأقرّه ، وانسجم التشریع فیه مع التکوین ، فی حین أنّ العلاقة الجنسیّة بین الجنس الواحد أمر غیر فطریّ ، حرّمه الشرع وعیّن له العقوبة الصارمة، ونجد أنّ أمر التشریع ـ وهو الحرمة ـ قد انطبق علی التکوین وهو المنع :

ولُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ .[١]

ولُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ *أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ .[٢]

ولُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ .[٣]

فاللواط ـ وهو العلاقة الجنسيّة بين جنس الرجال ـ يوجب قطع سبيل الزواج، ويستتبع المقت ، والعدوان والاءسراف، لذا فقد عُدّ ممنوعاً وحراماً وقبيحاً فى هذه الآيات ، ولا اختصاص لهذا الامر بشريعة دون أُخرى، لانّه مخالف لمسيرة التكوين ولمصالح الفرد والمجتمع ، ومخالف للسنّة الإنسانيّة والقانون الفطرىّ والالهىّ ، لذا فقد اعتبر الشارع المقدّس حرمته عامّة ومطلقة فى كلّ مكان وزمان وفى كلّ شريعة .

هذا العمل هو من القباحة للحدّ الذى تمتنع منه الحيوانات ، إذ لايُشاهد مثيله فى أحد منها ، حتّى القرد يهرب منه ويشمئزّ وينفر، وينبغى هنا ملاحظة درجة قبح ووقاحة لوردات مجلس الاعيان الانجليزىّ ـ الذين يعتقد رئيسهم حسب نظريّة داروين أ نّه من نسل القرد ـ فى إعلانهم إباحة فعل قوم لوط الشنيع هذا ، بحيث لم يُعهد عن الاقوام التى

١ ـ الآيتان ٨٠ و ٨١، من السورة ٧: الاعراف.
٢ ـ الآيتان ٢٨ و ٢٩، من السورة ٢٩: العنكبوت.
٣ ـ الآيتان ٥٤ و ٥٥، من السورة ٢٧: النمل.

سبقت قوم لوط أن دنّسوا أنفسهم به ؛ هذا المجلس الذی یفضّل الآراء المرفوضة لبرتراند راسل الذی سقط من المسیحیّة إلی حضیض الالحاد، وآراء فروید الیهودی ّعلی تعالیم السیّد المسیح علی نبیّنا وآله وعلیه السلام، فیصدر مصادقته علی قانون اللواط، ثمّ ینهمکون بارتکابه فی مجالسهم ومحافلهم المنکرة. قَبَّحَهُمُ اللَهُ وَمَا عَمِلُوا وَمَا اسْتَنُّوا، وَلاَ یَزَالُ بُنْیَانُهُمُ الَّذی بَنُوا قَاطِعاً لِنَسْلِهِمْ إنْ شَاءَ اللَهُ تَعَالَی .

إنّ فطرة الإنسان تستدعی زواج الرجل والمرأة اللذین ینجذبان إلی بعضهما وفق السنّة الالهیّة المودعة فی وجودهما، کما ینجذب قطبا الکهربائیّة الموجب والسالب أو مرکزا الفعل والانفعال لبعضهما ، فتنعقد بالشرارة الالهیّة النطفة فی الرحم ، وینشأ منها إنسان هو خلیفة الله فیطأ بقدمه ساحة الوجود الرحیبة .

فقولوا بربّکم وفق أیّة سنّة ، وعلی أساس أیّة خاصّیّة یتمّ جماع الرجال للرجال، أو النساء للنساء ؟ غیر أن یشبها اجتماع قطبین موجبین أو قطبین سالبین، أو اجتماع نوعین للفاعلیّة المحضة أو نوعین للقابلیّة المحضة؟

وأی ّشیء سیوجب غیر البُعد والابتعاد عن بعضهما ، وغیر تسبیب النفور والضجر والملل والمفاسد والاضرار الجانبیّة التی لاتعدّ ولاتحصی؟

وقد قال آیة الله العلاّمة الطباطبائی ّقدّس الله نفسه فی المقالة السادسة من « أُصول الفلسفة » تحت عنوان « الفطرة الإنسانیّة حکم یتکوّن بإلهام الطبیعة » :

٤ ـ إنّ حرّیّة الإنسان باعتبارها موهبة طبیعیّة هی فی حدود هدایة الطبیعة ، وبالطبع فإنّ هدایة الطبیعة مرتبطة بالتجهیزات التی تمتلکها البُنیة

النوعيّة. وعلى هذا فـإنّ هدايـة الطبيعـة(الاحكـام الفطريّـة) سـتحدّد بالاعمـال التى تنسجم مع أشكال وتركيبات التجهيزات البدنيّة.

فنحن لا نُجيز مثلاً أيّة رغبـات جنسـيّة تتـمّ بغـير طريـق الـزواج(سـواء كـانت بـين رجـل ورجـل، امـرأة وامـرأة، رجـل وامـرأة مـن غـير طريـق الزواج إنسان مـع غـير الإنسـان، إنسـان مـع نفسـه، تناسـل مـن طريـق غـير طريـق الـزواج) ولـن نشـجّع التربيـة الاشـتراكيّة للاطفـال، وإلغـاء النسـب والوراثـة، وإبطـال الأُصـول والاعـراق وغـير ذلـك، لانّ البنيـة المرتبطـة بالزواج والتربية تتعارض مع هذه المسائل .[1]

ويتّضح مـن هـذا البيـان مـدى الخطـأ الفـاحش الـذى ارتكبـه مَـنْ عـدّ الوطء مباحـاً، كمـا فعـل أتبـاع المالكيّـة تبعـاً لـرأى إمامـهم مـالك بـن أنـس، وكيف انغمروا فى ورطـة مهلكـة لمخالفتـهم سـنّة التكويـن والفطـرة مـن جهـة ، وحكم الكتاب والشريعة من جهة أُخرى .

وقد نقل أحد الاحبّة والاعزّة من العلمـاء الاعـلام ـ لا يـزال فعـلاً علـى قيد الحياة ـ أنّـه تبـاحث فى المدينـة المنـوّرة مـع بعـض مشـايخ المالكيّـة بشـأن هـذا الموضـوع(أى وطء الغـلام) . فـاحتجّ بـأنّ للآيـة الشـريفة: وَالَّذِينَ هُـمْ لِفُرُوجِـهِمْ حَـ'فِظُـونَ * إِلاَّ عَلَـى'أَزْوَ'جِـهِمْ أَوْ مَـا مَلَكَـتْ أَيْمَـ'نُـهُمْ فَإِنَّـهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ [2] دلالة عليه .

---

١ ـ «أُصـول فلسـفه وروش رئاليسـم»(= أُسـس الفلسـفة والمذهـب الواقعـىّ) ج ٢، ص ١٩٩ و ٢٠٠، الطبعة الأُولى، الناشر الشيخ محمّد الآخوندىّ.

٢ ـ وردت هـذه الآيـة المباركـة فى موضعـين مـن القـرآن، الاوّل: فى الآيتـين ٥ و ٦، مـن السـورة ٢٣: المؤمنـون: قَـدْ أَفْلَـحَ الْمُؤْمِنُـونَ * الَّذِيـنَ هُـمْ فِـى صَلاَتِـهِمْ خَـ'شِـعُونَ * وَالَّذِيـنَ هُـمْ عَـنِ اللَّغْـوِ مُعْرِضُـونَ * وَالَّذِيـنَ هُـمْ لِلزَّكَـو'ةِ فَـ'عِلُـونَ * وَالَّذِيـنَ هُـمْ لِفُرُوجِـهِمْ حَـ'فِظُـونَ إِلاَّ عَلَـى' أَزْوَ'جِهِمْ أَمْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـ'نُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ .

فقلت: إنّ الغلام خارج عن مدلول هذه الآية بالاجماع.

أجاب : الإجماع لكم ، أمّا نحن فلا إجماع عندنا ! ـ انتهت مقولته .

أقول: إن قيل: إنّ أزواج جمع زوج بمعنى القرين، فهو يشمل كلا الزوج والزوجة؛ فإن تمسّكنا ـ على هذا ـ بإطلاق أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، فسوف لا يكون ثمّة إشكال فى وطء النساء من قبل الغلمان الذين فى ملك يمينهنّ ؛ ولانّ هذا الامر يخالفُ بشكل مسلّم عقائد الجميع ـ حتّى المالكيّة ـ فإنّنا نقول : إنّ وطء الرجال للغِلمان خارج بنفسه من الإطلاق بهذه الكيفيّة .

ونقول إنّ آية قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، وآية إِلاَّ الْمُصَلِّينَ تختصّ من جهة العبارة والخطاب بالرجال ، مع أنّها تشمل من جهة الملاك الرجل والمرأة .

لذا فإنّ هذه الجملة الاستئنافيّة إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ استثناء خاصّ بالرجال لا بالنساء .

ويمكن لهذا أن تقول المالكيّة إنّ استثناء مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فى هذه الآية المتعلّقة بالرجال استثناء مطلق يشمل الجارية والغلام. وأمّا فى الاجماع المنعقد على تساوى النساء والرجال فى الاحكام وفى الخطابات فإنّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ جارية أو غلاماً ليس خارجاً من الاستثناء بشكل مطلق ، وحرام على المرأة المجامعة مع ما ملك يمينها من جوار أو غلمان ،

والثانى : فى الآيتين ٢٩ و ٣٠، من السورة ٧٠: المعارج:إِنَّ الْاءنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دآئمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئل وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّن عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ *إِن عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ .

وفقط إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ باقية بشأن النساء على عموميّتها ، فوطء النساء من قبل أزواجهنّ حلال .

لذا فإنّ ما قلناه من التمسّك بالاجماع على حرمة وطء الغلام وتخصيص آية مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لذلك لا يكفى لردّ المالكيّة الذين يرفضون الاجماع . وهناك فى ردّهم الآيات التى ذكرناها بشأن قوم لوط ، والتى تعلن بأعلى نداء وبيان بأنّ جماع الرجل للرجل فاحشة ومنكر بشكل مطلق ، سواء كان الغلام غلامه هو أم غلام غيره : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ... وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ.

وسينفى عنوان المنكر والفاحشة ـ مع النهى الشديد والمنع الاكيد من هذا العمل ـ أىّ مجال لشبهة وإشكال فى حرمة وطء الغلام .

ويتّضح من هذا البيان أنّ مجامعة الرجال للنساء من غير طريق النكاح المعهود هو الآخر عمل قبيح جدّاً ، أى أنّ جماعهنّ فى الدُّبُر لا فى القبل ، وهو المحلّ المعهود للنكاح وطريق التناسل والتكاثر، محلّ إشكال، وفقهاؤنا ما بين قائل بالحرمة أو قائل بالكراهة الشديدة الاكيدة المغلّظة التى تلى الحرمة وتقاربها فى ميزانها ودرجتها .

وقد ورد فى رواية عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : مَحَاشُّ النِّسَاءِ عَلَى أُمَّتِى حَرَامٌ .[1]

---

١ ـ هذا الرواية صحيحة يرويها سُدير عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله ، وقد أورد الشهيد الثانى فى «شرح اللمعة» وروى المجلسىّ كذلك فى «بحار الانوار» ج ٢٣، ص ٩٨، طبعة الكمبانىّ، عن «تفسير العيّاشىّ» عن يزيد بن ثابت، قال: سأل رجل أميرالمؤمنين عليه السلام أن يؤتى النساء فى أدبارهن ؟ فقال: سَفَلَتَ سَفَلَ اللَهُ بِكَ ! أَمَا سَمِعْتَ اللَهَ يَقُولُ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنَ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾؟

وروى العيّاشىّ أيضاً عن صفوان بن يحيى ، عن بعض أصحاب الرواية ، قال :

سألتُ أبا عبد اللـه الصادق عليـه السـلام عـن قـول اللـه: «نِسَـآؤُكُمْ حَـرْثٌ لَّكُـمْ فَـأْتُوا حَرْثَكُـمْ أَنَّـى' شِئْتُمْ. فقال: من قدّامها وخلفها فى القُبل .

وروى العيّاشىّ كذلـك عـن معمّـر بـن خـلاد، عـن الإمـام الرضـا عليـه السـلام أنّـه قـال: أىّ شـىء يقولـون فى إتيـان النسـاء فى أعجـازهن؟ قلـتُ: بلغـنى أنّ أهـل المدينـة لا يـرون بـه بأسـاً ؛ فقـال: إنّ اليـهود كـانت تقـول: إذا أتى الرجـل مـن خلفـها خـرج ولـده أحـول، فـأنزل اللـه نِسَـاؤُكُمْ حَـرْثٌ لَّكُـمْ فَـأْتُوا حَرْثَكُـمْ أَنَّـى' شِـئْتُم، يعـنى مـن خلـف أو قـدّام خلافـاً لقـول اليـهود، ولَمْيعـنِ فى أدبارهنّ .

وكذلـك روى العيّاشـىّ عـن أبى بصـير عـن الصـادق عليـه السـلام، قـال: سـألته عـن الرجـل يـأتى أهلـه فى دبرهـا، فكـره ذلـك وقـال: إنّمـا معـنى «نِسَـاؤُكُمْ حَـرْثٌ لَّكُـمْ فَـأْتُوا حَرْثَكُـمْ أَنَّـى' شِئْتُمْ»: أىَّ سَاعَةٍ شِئْتُمْ.

وفى مقـابل هـذه المجموعـة مـن الروايـات فقـد روى العيّاشـىّ، عـن ابـن أبى يعفـور عـن الصـادق عليـه السـلام، قـال: سـألتُ أبـا عبـد اللـه عليـه السـلام عـن إتيـان النسـاء فى أعجـازهنّ، قال: لا بـأس، ثم تـلا هـذه الآيـة نِسَـاؤُكُمْ حَـرْثٌ لَّكُـمْ فَـأْتُوا حَرْثَكُـمْ أَنَّـى' شِـئْتُمْ؛ وروايـة العيّاشـىّ عـن عبدالرحمـن بـن الحجّـاج قـال: سمعـتُ أبـا عبـد اللـه(الصـادق) عليـه السـلام ذُكـر عنـده إتيـان النسـاء فى أدبـارهنّ، فقـال: مـا أعلـم آيـةً فى القـرآن أحلّـت ذلـك إلاّ واحـدة: إِنَّكُـمْ لَتَـأْتُونَ الرِّجَـالَ شَهْوَةً مِن دُونِ النِّسَآءِ.

وروى العيّاشـىّ أيضـاً عـن الحسـين بـن علـىّ بـن يقطـين قـال: سـألتُ أبـا الحسـن(الكـاظم) عليـه السـلام عـن إتيـان المـرأة مـن خلفـها؟ فقـال: أحلّتـها آيـة فى كتـاب اللـه، قـول لـوط: هَـ'ؤُلآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ، وقد علم أنّهم ليس الفرج يريدون.

إنّ مـا يُسـتنتج مـن مجمـوع هـذه الروايـات هـو حرمـة الـوطء فى الدبـر، لانّ معـنى الحـرث هـو الزراعـة والتناسـل، وذلـك متحقّـق فقـط فى الفـرج. وعلـى هـذا فـإنّ فَـأْتُوا حَرْثَكُـمْ أَنَّـى' شِـئْتُمْ ليـس بمعـنى المكـان، بـل بمعـنى الكيفيّـة، أى أنّ الجمـاع فى الفـرج يمكـن أن يكـون بأيّـة صـورة ترغبون. والروايـة الـتى تـدلّ علـى أنّ المـراد بـ أَنَّـى' زمانيّـة معارضـة بالروايـة الـتى تـدلّ علـى هـذا المعـنى، لـذا فـهى سـاقطة؛ وكذلـك فصحيحـة ابـن أبى يعفـور معارضـة بهـذه الروايـات الكثـيرة الدالّـة علـى الحرمـة، لـذا تعـدّ سـاقطة، مـع أنّ وجـود معارضتـها للكتـاب يوجـب فى حـدّ ذاتـه سـقوطها. وأمّـا روايـة ابـن الحجّـاج وروايـة الحسـين بـن عـلىّ بـن يقطـين فمتشـابهـة فى

وقد أرود السيوطيّ و ابن كثير فى تفسيريهما أنّ أحمد بن حنبل ، وعبدبن حميد، والترمذيّ ، والنسائيّ ، وأبا يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن حبّان، والطبرانيّ ، والخرائطيّ فى « مساوى الاخلاق » ، والبيهقيّ فى « السنن »، والضياء فى « المختارة »، رووا عن ابن عبّاس أ نّه قال :

جَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَهِ ؛ هَلَكْتُ !

قَالَ : وَمَا أَهْلَكَكَ؟! قَالَ : حَوَّلْتُ رَحْلِى اللَّيْلَةَ! فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئاً ، فَأُوحَى اللَهُ إِلَى رَسُولِهِ هذِهِ الآيَةَ : «نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَ نَّى' شِئْتُمْ» . [١]

يقول: أَقْبِلْ وَ أَدْبِرْ وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالحَيْضَةَ . [٢]

ورووا كذلك عن أحمد بن حنبل، عن ابن عبّاس أنّ جماعة من الانصار أتوا النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فسألوه فنزلت هذه الآية : نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إئْتِهَا عَلَى

المعنى، لا نّها تستند إلى آيتين لا تدلّ أيّة منهما على الجواز، لذا ينبغى رفع اليد عن هذه الروايات المعارضة لمخالفتها لظاهر الكتاب أوّلاً، ولمعارضتها ـ ثانياً ـ الروايات الكثيرة الأُخرى التى هى أقوى منها متناً وسنداً .

١ ـ الآية ٢٢٣، من السورة ٢: البقرة. وواضح أنّ كلمة أ نّى' فى هذه الآية ليست بمعنى الزمان والمكان ، لتنافى ذلك مع معنى الحَرْث وهو الزرع والتناسل . ويجب أخذها بمعنى حَيْث الدالّة على الكيفيّة ليناسب ذلك معنى الحرث . وفى هذه الحالة، يمكن عدّ هذه الآية أيضاً من أدلّة حرمة الوطء فى الدبر.

٢ ـ «الدرّ المنثور» ج ١، ص ٢٦٢ ؛ و«تفسير ابن كثير» الدمشقيّ ، ج ١، ص ٤٦٣ . طبعة دار الفكر.

كُلِّ حَالٍ إِذَا كَانَ فِى الفَرْجِ .[1]

وبغضّ النظر عن الشرع والشريعة ، فإنّ مضار جماع النساء فى الدبر قد ثبت فى الطبّ أيضاً .[2]

يقول الميرزا محمّد حكيم(ملك الاطبّاء) : ومن بين أنواع الجماع الذى ينبغى الاحتراز عنه اللواط بالنساء ، فقد وجد بالتجربة أنّ أولاد شخص كهذا سيبتلون بالعلّة المعروفة ،[3] وهناك جملة من الحكايات والاخبار الطبّيّة فى هذا الباب ، ذكرها فى هذه الرسالة مستوجب للإطالة .[4]

وبغضّ النظر عن هذا كلّه ، فإنّ مسائل العلاقات الجنسيّة بين الجنس الواحد، وشيوع هذا الفعل الشنيع اليوم فى بلاداُوروبّا وأمريكا المتقدّمة قد أوجد الامراض المهلكة للحدّ الذى سبب هستيريا أولياء أمُورهم ؛ ولينبغى حقّاً تسمية هؤلاء بوحوش العالم ، وتسمية تلك البقاع ببِرْكَةِ السِّبَاعِ أو حديقة الحيوانات .

فعدا أمراض السفلس والسيلان وأشباههما، فإنّ مرض الايدز قد خيّم على الجميع كالغيوم السوداء المهولة وكالغول المهيب المفزع ، وأنذر

---

١ ـ «الدرّ المنثور» ج ١، ص ٢٦٢؛ و«تفسير ابن كثير» الدمشقىّ، ج ١، ص ٤٦٣ . طبعة دار الفكر.

٢ ـ ويتّضح ممّا قيل مدى ضحالة ما أورده الدكتور روشنگر فى «بازشناسى قرآن» بالفارسيّة، ص ٢٧٥، وافتقاره الاساس المتين، وإسناده جواز وطء النساء من الدُّبر مستنداً على كلمة أ نَّى' فى القرآن الكريم .

٣ ـ على ما يبدو أنّ المراد من العلّة المعروفة هو مرض الأُبنة، أى المرض الذى يصيب الدُّبر فلا يهدأ إلاّ بوطء الرجال ومنيّهم.

٤ ـ رسالة «حفظ صحّت ناصرى» بالفارسيّة، ص ١٥٨، وكان قد كتبها لناصرالدين شاه .

الجميع بالموت المحتّم .

هذا الميكروب الخطر الذى لم يستطيعوا حتّى الآن اكتشاف مصل مضادّ له لتطعيم الناس به ، يبدأ فعّاليّته حال دخوله البدن ، وتعجز كريّات الدم البيضاء عن مقاومته، لذا فهو يضعها على حافّة الموت والهلاك خلال مدّة وجيزة.

وطبقاً لاحصائيّة أحد التقارير، فإنّ من كلّ ٩٥٪ حالة لمرض الايدز وجدت فى مجاميع ستّ، فإنّ ٧٢/٢٪ منها كانت خاصّة بالرجال الذين لهم علاقات جنسيّة مع نفس جنسهم أو مع الجنسين كليهما نجمت من اللواط أو من عقد علاقات جنسيّة مع أزواج متعدّدة . وكانت المجاميع الخمس الباقية المسبّبة عن الاعتياد ونقل الدم وأمثالها ترجع أيضاً إلى خصوص مسألة اللواط . [1]

فها هى مردودات البناء الشامخ للمدنيّة والثقافة الجديدة وصرحها المشيد ، فقد أعادت هؤلاء المساكين إلى مستوى أوطأ من قوم لوط ومرّغتهم فى مستنقع الرذيلة والدناءة .

ومع أنّ الزنا ليس كاللواط فى مجانبة سبيل البذر والتناسل ولهذا السبب فإنّ عقوبته أخفّ من حدّ اللواط ـ لكنّه مع ذلك يمتلك قبحاً فطريّاً بلحاظ حفظ النسب والاولاد، وتبعاً للغيرة التى وهبها الله للرجال على عرضهم وناموسهم . وقد حُرّم الزنا فى جميع الشرائع ، بل إنّه كان بين الاقوام الهمجيّين والصحراويّين قبل التشريع ، بل و يعتبر من الأُمور الشنيعة والقبيحة حتّى عند المادّيّين والطبيعيّين من منكرى الخالق

١ ـ رسالة «الإيدز» ص ١١ و ١٢، تأليف الدكتور حسين صادقى شجاع ، من نشريات مديرية التعليم والتدريب الصحىّ لوزارة الصحّة .

ومنكرى الوحى والنبوّة والشرائع .

وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى' إِنَّهُ و كَانَ فَـ'حِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً. [١]

وكان قبح هذا العمل إلى الحدّ الذى قرنه البارى فى قرآنه بقتل النفس المحترمة : وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ . [٢]

وبحيث جُعل رديفاً للشرك باللـه والسرقة التى كان رسول اللـه يبايع النساء أواخر زمان الهجرة بشرط اجتنابها، فيقبل منهنّ إسلامهنّ بهذه الشروط:

يَـ'أَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَـآءَكَ الْمُؤْمِنَـ'تُ يُبَـايِعْنَكَ عَلَـى'أَن لاَّ يُشْـرِكْنَ بِاللَـهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْـرِقْنَ وَلاَ يَزْنِـينَ وَلاَ يَقْتُلْـنَ أَوْلَـ'دَهُـنَّ وَلاَ يَـأْتِينَ بِبُهْتَـ'نٍ يَفْتَرِيَنَـهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِـهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَـكَ فِـى مَعْـرُوفٍ فَبَايِعْـهُنَّ وَاسْـتَغْفِرْ لَـهُنَّ اللَـهَ إِنَّ اللَهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . [٣]

كذلك فإنّ قبح هذا العمل ووقاحته كانت للحدّ الذى عُبّر عنه فى كثير من الآيات القرآنيّة بالفاحشة والفحشاء ، فيقول بشأن يوسف النبىّ الذى آثر السجن على الزنا مع زُليخا امرأة عزيز مصر : كَذَ'لِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُ و مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . [٤]

وَالَّـ'تِى يَأْتِينَ الْفَـ'حِشَةَ مِنْ نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ. [٥]

وَإِذَا فَعَلُوا فَـ'حِشَةً قَالُوا وَجَدْنَـا عَلَيْـهَا ءَابَآءَنَـا وَاللَـهُ أَمَرَنَـا بِـهَا قُـلْ إِنَّ اللَهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . [٦]

---

١ ـ الآية ٣٢، من السورة ١٧: الاءسراء.

٢ ـ الآية ٦٨، من السورة ٢٥: الفرقان.

٣ ـ الآية ١٢، من السورة ٦٠: الممتحنة.

٤ ـ ذيل الآية ١٢، من السورة ١٢: يوسف.

٥ ـ صدر الآية ١٥، من السورة ٤: النساء.

٦ ـ الآية ٢٨، من السورة ٧: الاعراف

ونلحظ هنا أنّ مشركى العرب كانوا ينسبون الامر بالزنا إلى الله سبحانه، وربّما كان معناه إرادة السنّة التكوينيّة، حيث ردّ البارى قولهم ، وبيّن أن: ليس هناك من عمل قبيح وفاحشة وزِناً يصبح عملاً فطريّاً وسنّة إلهيّة .

إنّ شعور الغيرة على الأُنثى وحفظها وصونها من عبث العابثين وعن مسّ أيادى السوء أمر ملحوظ ومشاهد فى كثير من الحيوانات التى يصل بها الامر إلى إيثار الموت والتضحية بالروح حفظاً للناموس .

فالديك مثلاً له عشق وعلاقة حميمة بأُنثاه ، فهو يقاتل ويُقتل من أجل منع تعدّى ديك آخر على بيته وحرمه، فى حين يمتاز الخنزير من بين الوحوش بفقدانه الغيرة على أُنثاه ، فيُقال إنّه إن شاء مجامعة أُنثاه فإنّه يصوّت بصوته فيدعو باقى الخنازير إليها ، حتّى يجامعها قبله سبع مرّات خنازير آخرون ، ثمّ يشرع نفسه فى مجامعتها .

ولذا فقد حُرّم لحم الخنزير، إذ إنّ الآثار النفسيّة والروحيّة للخنزير تنتقل بتناول لحمه إلى الشخص الآكل . وهكذا فإنّ أحد الاسباب المهمّة لفقدان الأُوروبّيّين والامريكان للغيرة هو تناولهم لحوم الخنازير، حيث تنتقل هذه الروحيّة مع انتقال خلايا بدن الخنزير إلى أبدانهم ، فيبدأ مفعولها بالظهور آنيّاً، ثمّ يصبح إثر التكرار والمداومة على الاكل ملكةً عندهم تستأصل الغيرة والحميّة من نفوسهم .

لكنّ الرجال المسلمين والمؤمنين يصونون نساءهم فى ستر الحجاب تبعاً لتعاليم القرآن، كى لا تلحظها نظرات الخيانة والتطفّل، ولئلاّ تتناثر أزهار حياتهنّ وعفّتهنّ وعصمتهنّ وتقواهنّ أو تتلاشى فى مهبّ عواصف الشهوات .

وقدأجاد الشاعر الوافى العراقىفى شعره العفيف عند وصف فوائد

غيرة الرجال وحجاب النساء :

معنی ناموس چیست؟ روی نهان داشتن
پردهٔ عفّت زدن ، عالَم جان داشتن
عصمت وناموس ما، به مسلك هوشمند
گنج بود گنج را به که نهان داشتن
ای‌که‌تورا آرزوست‌به‌کشف‌ناموس‌خویش
پرده دری نارواست، پردگیان‌داشتن
مگر کمی از وحوش، نگر به سوی طیور
پندبگیر از خروس ز ماکیان داشتن
حافظ شیرین لبان ، مقنعة عصمت است
تلخ بود بی‌نقاب، روی زنان داشتن
قصة ناموس وغیر،چه‌برق با خرمن است
خرمن‌خودرا مخواه‌برقِ یَمان‌داشتن[1]

---

١ ـ «کشف الغرور أو مفاسد السفور» تألیف المؤرّخ والمحدّث الجلیل الحاجّ الشیخ ذبیح‌الله محلاّتی ، ص ٤٣ و ٤٤ ، طبعة ١٣٦٨ شمسیّة هجریّة .

یقول الشاعر: «ما معنی الناموس ؟ هو ستر الوجه وإسدال ستار العفّة، والحفاظ علی عالم الروح .

فعصمتنا وناموسنا هی کنز بنظر اللبیب، فأنعم بالکنز المُخبّأ المصون.

فیا من ترغب فی کشف ناموسك! إنّ هتك ستار المخدّرات قبیح.

فإن کنت أوطأ من الوحوش، فانظر إلی الطیور واتّعظ بالدیك فی حراسته للدجاجة .

لنّ قناع العصمة حارس للشفاه الجمیلة، و ما أمرّ أن تکون وجوه النساء سافرة بلانقاب.

کما أنّ قصة الناموس مع الغِیَرِ قصّة البرق والبیدر، فلا تتمنّ أن تصیب الصاعقة بیدرك.

تـا نگمـــاری نظـــر ، دل نکنـــد آرزو
گرسنه چشمی دهد،دیده به نان داشتن
آینـهٔ بی حجـاب ، بـه طبـع گیرد غبـار
خوش بود آئینه را پـرده بر آن داشتن
منـع تماشـاچیـــان ، گر نکنـــد باغبـــان
مـی نتـوانـد به باغ نخـل روان داشتن
گر بگشائی دری ز خانه برمفلسان
دگرمدار این امید، به‌خانه‌خوان داشتن
غنچه به‌باغ ایمن است تا بود اندر حجاب
آفت جان و دل است‌چهره‌عیان داشتن
مـرد وزن اجنبی ، چه آتـش وپنبه است
جمع به یکجا دو ضدّ، نمی‌توان داشتن
کشـف حجاب زنـان ، باری باشـد گران
دور ز غیرت بـود ، بار گران داشتن

١- يقـول : « ومـا لم ترسـل النظـــرات فلـــن تخطـــر الامنيـــة فی القلـــب ، فالجـــائع يســـترق النظرات متطلّعاً لامتلاك الخبز .

كمـا أنّ المـرأة المكشـوفة سـيعروها الغبـار بـلا شـكّ ، فـــأكرم بســـتر المـــرآة و صونهـــا عـــن الغبار .

وإن لم يمنع البستانی ّالمتفرّجين والمتطفّلين ، فلن يمتلك يوماً بستاناً عامرة بالنخيل .

وإن فتحـتَ البـاب للمفلسـين والجيـــاع علـــى مصراعيـــه، فـــلا تـــأمل أن تبقـــى المـــائدة فی بيتك ملآى .

إنّ البرعم فی البستان فی أمان ما دام مستوراً؛ فإن بدا للعيان أُصيب فی قلبه وروحه.

مثـل الرجـل والمـرأة الاجنبيّـة ، كالنـار والقطـن ، فـلا يمكـــن لهذيـــن الضدّيـــن أن يجمعـــا فی مكان واحد.

كمـانِ ابرو متاب ، خدنگ مژگان بپوش
نيست به دوران شاه،تيرو كمان داشتن
وافى اگر گشـته پير، طبعـى دارد جـوان
خوش‌است پيرانه سر،طبع‌جوان داشتن[1]

أمّا السادة الذين يعتبرون أنفسـهم مـن نسـل القـرود، فقـد أرخـوا لجـام الشـهوات، وسـخروا بالنكـاح المشـروع ، وسـعوا إلى إيجـاد العلاقـات الجنسـيّة مع كلّ رجل وامرأة، لكنّهم جـهلوا أنّ هـذه الحيـوان الـبرىء(القـرد) مـن أهـل الغـيرة ولـه سُـنّة زواج وحـسّ غـيرة فى حفـظ أُنثـاه وحراسـتها، لـذا ينبغـى اعتبـارهم أكـثر وضاعـة ورذالـة مـن القـرد، فـالقرد الـبرىء يـأنف أن ينسـب إليه أراذل كهؤلاء ، فهم الذين تصدق عليهم حقّاً الآية الكريمة :

أُولَـئِكَ كَالأَنْعَـامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ .[2]

يقول الدميرى فى « حياة الحيـوان » عـن القـرد : وَيَـأْخُذُ نَفْسَـهُ بِـالزَّوَاجِ وَالغَيْرَةِ عَلَى الاءنَاثِ .[3]

كمـا أنّ اسـتعمال الخمـر والمسـكر رجـس أيضـاً ومـن عمـل الشـيطان ، فكيف يمكن أن يكون حلالاً فى شريعة ما وحراماً فى أُخرى ؟!

كما أنّ سفور النساء أمر ثقيل وصعب، وبعيد على الغيور أن لا يبهضه تحمّل ذلك.

١- يقـول : « فـلا تسـدّدى قـوس الحـاجبين، وغطّـى رمـوش سـهام العيـون، فليـس لائقـاً فى زمن الملك أن يحمل أحد سهاماً وقوساً .

والوافى وإن صار شيخاً فإنّ له طبع الشباب ، وجميل للشيوخ امتلاك طبع الشباب » .

٢ ـ الآية ١٧٩، مـن السـورة ٧ : الاعـراف: وَلَقَـدْ ذَرَأْنَـا لِجَـهَنَّمَ كَثِـيرًا مِـنَ الْجـنِّ وَالاءنْـس لَـهُمْ قُلُـوبٌ لاَيَفْقَـهُونَ بِـهَا وَلَـهُمْ أَعْيُـنٌ لاَّ يُبْصِـرُونَ بِـهَا وَلَـهُمْ ءَاذَانٌ لاَّ يَسْـمَعُونَ بِـهَا أُولَـئِـكَ كَالأَنْعَـامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـئِكَ هُمُ الْغَـافِلُونَ.

٣ ـ «حياة الحيوان»، الطبعة الحجريّة، سنة ١٢٨٥ ه ، باب القاف ، مادّة قِرْد .

أيمكن إباحة المسكرات التى تزيل العقل ، فتجعل الإنسان فى صفّ المجانين؟!

إنّ الناس يفضّلون الابتلاء بأشدّ الامراض كالسلّ والسرطان والبرص والجذام والعمى والشلل على الاءصابة بالجنون، فإنسانيّة الإنسان بعقله لابشيء آخر، والإنسان بلا عقل أسفل وأرذل من جميع الحيوانات والوحوش.

كما لَنّ تأثير المسكر على الإنسان هو سوقه إيّاه للجنون، فما الفرق بين الجنون الدائمى ّوالجنون المؤقّت؟

أفيمكن فى هذه الحالة اعتبار المسكر خارجاً عن شروط الحلّيّة والحرمة؟ أو الحكم بحلّيّته؟

لقد قلنا إنّ الاحكام الفطريّة هى الاحكام التى تعدّ واسطة لنيل الكمال، وسير الإنسان إلى أعلى درجات الإنسانيّة؛ أفشرب الخمر له ميزة كهذه؟ أو هل يسير السكّير دوماً فى طريق مدارج ومعارج الكمال ؟

أوَ يطوى الطريق المطلوب للكمال رجل مخمور لا يفرّق بين زوجته وأُخته وأُمّه، فيشاركهنّ فراشه ؟

أوَ يَعدّ الرجل المخمور الذى يقذف طفله حال غضبه من الشرفة إلى ساحة المنزل إنساناً ؟

أيعدّ إنساناً الرجل السكران الذى تكتنفه الخيالات المشوّهة والمموّهة، فيتخبّط فى عالم الاوهام والخيالات ، بحيث يتصوّر قلم الكتابة نخلة عالية، وساقية الماء بحراً يباباً ؟

كلاّ بالطبع، فشرب الخمر من أسوأ المسائل المعاكسة للفطرة والسنّة الآدميّة ، فهو يهوى بالإنسان ويحرمه من جميع المزايا والحظوظ .

أيعقل أنّ السيّد المسيح على نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام قد قام

بتحليل هذه المادّة الخبيثة وهذا الشيطان الرجيم؟

إنّ أغلب المسيحيّين بما فيهم الكاثوليك والبروتستانت يحتسون الخمر ويعتبرونها دم عيسى ! فيا للعجب! كم يحتوى بدن السيّد المسيح من الدم بحيث ينقضى على صعوده إلى السماء بما يقرب من ألفى سنة ولا زال نصارى العالم يحتسون من دمه فلا ينفد ولا ينضب؟!

كلاّ وحاشا، فلا السيّد المسيح شرب الخمر، ولا أُمّة المصطفاة ، ولاحُلّلت الخمر فى كتاب الانجيل السماوىّ، ولا أجاز المسيح لحوارييه شربها يوماً .

لقد أبطل المرمنيّون ـ وهم أمريكيّو الاصل من غيرالمهاجرين والمقيمين هناك؛ والساكنون فى ولاية إتازونا ـ أساس الكاثوليك والبروتستانت، وقالوا بحرمة الخمر وشربها، وعدّوا من الخطأ نسبة السيّد المسيح إلى شرب الخمر، فقد كان يشرب عصير العنب، فأساءوا بعد ذلك الاستفادة من هذا العمل فنسبوا إليه شرب الخمر .

تشير الآيات القرآنيّة بصراحة وبألفاظ وعبارات واضحة إلى أنّ شرب الخمر من الخبائث، وأ نّها رجس من عمل إبليس وتلبيسه على الناس، أشاعها بينهم لاءيقاع العداوة والبغضاء بينهم، ولصدّهم عن ذكر الله والصلاة والتضرّع لمقام عزّه وقطع طريق العبوديّة للخالق .

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالاْنصَابُ وَالاْزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَـٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ . [1]

١ ـ الآيات ٩٠ إلى ٩٢، من السورة ٥: المائدة.

ويعدّ الربا من المصاديق والاحكام المعاكسة للفطرة بشكل واضح وبيّن، ويتضمّن معناه الاستفادة المجّانيّة وبلا عوض من جهود الناس وأتعابهم ، فهو فى الحقيقة يمثّل استخدام الشخص المظلوم وتسخيره لخدمة الشخص الظالم المتجاوز، فالشخص المرابى يأخذ فائدة مقابل لاشيء ، إذ عند استرداده القرض الذى أقرضه ، فما معنى أخذه الزيادة عليه؟! خلافاً للبيع والشراء اللذين يمثّلان حصول منفعة أزاء عمل معيّن ، وفى الحقيقة فإنّهما يمثّلان حصول منفعة مقابل صرف عمر بذله البائع فى تهيئة الاجناس المعيّنة وعرضها .

ونلحظ لهذا أنّ الشخص المشترى لا يحسّ بالقلق والضجر بالفطرة والوجدان حين يشترى شيئاً مع علمه بأنّ البائع ينتفع ببيعه منه ، على العكس من الشخص المستقرض الذى يحسّ بالضجر والملل والقلق تجاه الزيادة التى يتقاضاها منه المقرض، فلكأ نّما قَرَعَتْهُ قارعة أو ألمّ به خطب ، ولو كانت الزيادة طفيفة وتافهة، وهذا لا يحصل إلاّ بإحساس الشخص المقترض عند سداده للزيادة بإجباره على ذلك وقهره عليه ـ لافرق فى هذا الامر وفق أىّ مذهب ونظام تمّ؛ وهو معنى كون جميع أقسام الربا وتصريف النقود وفوائد البنوك أمراً غير فطرىّ ، بل معاكساً للفطرة ، ولو كانت الفائدة المستحصلة فى أدنى مراتبها .

لقد حوّل مرابو العالم والبنوك الدنيا إلى سوق للاستثمار والاستعمار والاستهلاك والاستعباد، وهو أقسى وأشدّ ألف مرّة ممّا كان يحصل فى زمن الرقّ والعبوديّة وشراء وبيع الغلمان والجوارى ، فذاك كان يحصل لفئة وطبقة خاصّة وفى موارد معيّنة محدودة ، وهذا يمثّل ابتلاع جميع العالم ومصادرة جهود الشيخ والشابّ والرجل والمرأة والآمر والمأمور والرئيس والمرؤوس وصاحب العمل والموظّف بلقمة واحدة.

وقد وردت حرمة الربا فى القرآن الكريم بشكل أكيد ومشدّد ، وبعبارات حادّة وتمثيلات وتشبيهات عجيبة :

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبوا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَـٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبوا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبوا فَمَن جَآءَهُ و مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ و مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ و إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبوا وَيُرْبِى الصَّدَقَـٰتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ *إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ و أَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ .[1]

و للعلاّمة آية الله الطباطبائى قدّس الله سرّه بحوث نفيسة وقيّمة بشأن هذه الآيات نشير هنا إلى بعضها :

لقد شدّد الله سبحانه فى هذه الآيات فى أمر الربا بما لم يشدّد بمثله فى شىء من فروع الدين إلاّ فى تولّى أعداء الدين ، فإنّ التشديد فيه يضاهى تشديد الربا، وأمّا سائر الكبائر فإنّ القرآن وإن أعلن مخالفتها وشدّد القول فيها، فإنّ لحن القول فى تحريمها دون ما فى هذين الامرين، حتّى الزنا وشرب الخمر والقمار والظلم وما هو أعظم منها كقتل النفس التى حرّمالله

١ ـ الآيات ٢٧٥ إلى ٢٨١ ، من السورة ٢ : البقرة .

والفساد، فجميع ذلك دون الربا وتولّى أعداء الدين .

وليس ذلك إلاّ لانّ تلك المعاصى لا تتعدّى الفرد أو الافراد فى بسط آثارها المشؤومة، ولا تسرى إلاّ إلى بعض جهات النفوس ، ولا تحكم إلاّ فى الاعمال والافعال ، بخلاف هاتين المعصيتين فإنّ لهما من سوء التأثير ما ينهدم به بنيان الدين ويعفى أثره، ويفسد به نظام حياة النوع، ويضرب الستر على الفطرة الإنسانيّة ويسقط حكمها فيصير نسياً منسيّاً على ما سيتّضح إن شاء الله العزيز بعض الاتّضاح .

وقد صدّق جريان التأريخ كتاب الله فيما كان يشدّد فى أمرهما ، حيث أهبطت المداهنة والتولّى والتحابّ والتمائل إلى أعداء الدين الاُمم الإسلاميّة فى مهبط من الهلكة صاروا فيها نهباً منهوباً لغيرهم : لايملكون مالاً ولا عرضاً ولا نفساً ، ولا يستحقّون موتاً ولا حياةً ، فلا يؤذن لهم فيموتوا ، ولا يغمض عنهم فيستفيدوا من موهبة الحياة ، وهجرهم الدين ، وارتحلت عنهم عامّة الفضائل .

وحيث ساق أكل الربا إلى ادّخار الكنوز وتراكم الثروة والسؤدد، فجرّ ذلك إلى الحروب العالميّة العامّة، وانقسام الناس إلى قسمَى المثرى السعيد والمعدم الشقىّ، وبان البين، فكان بلوى يدكدك الجبال، ويزلزل الارض ، ويهدّد الإنسانيّة بالانهدام ، والدنيا بالخراب ، ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا السُّوٓ ٰأى'.[1] وسيظهر لك إن شاء الله تعالى أنّ ما ذكره الله تعالى من أمر الربا وتولّى أعداء الدين من ملاحم القرآن الكريم .[2]

---

١ ـ الآية ١٠، من السورة ٣٠، الروم : ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا السُّوأى'أن كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰت الله وكَانُوا بهَا يَسْتَهْزءُونَ .

٢ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٢، ص ٤٣٢ و ٤٣٣ .

واعلم أنّ أمر الآية عجيب، فإنّ قوله تعالى: فَمَن جَآءَهُ و مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى' فَلَهُ و مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ و إِلَى الله وَمَنْ عَادَ فَأُولَـ'ئكَ أَصْحَـ'بُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـ'لِدُونَ .

مع ما يشتمل عليه من التسهيل والتشديد حكم غير خاصّ بالربا ، بل عامّ يشمل جميع الكبائر الموبقة، والقوم قد قصروا فی البحث عن معناها ، حيث اقتصروا بالبحث عن مورد الربا خاصّة من حيث العفو عمّا سلف منه، ورجوع الامر إلى الله فيمن انتهى، وخلود العذاب لمن عاد إليه بعد مجیء الموعظة ، هذا كلّه مع ما تراه مع العموم فی الآية .

إذا علمتَ ، هذا ظهر لك أنّ قوله : فَلَهُ و مَا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ و إِلَى اللَهِ لايفيد إلاّ معنى مبهماً يتعيّن بتعيّن المعصية التی جاء فيها الموعظة ويختلف باختلافها، فالمعنى : أنّ من انتهى عن موعظة جاءته، فالذی تقدّم منه من المعصية، سواء كان فی حقوق الله أم فی حقوق الناس فإنّه لا يؤاخذ بعينها، لكنّه لايوجب تخلّصه من تبعاته أيضاً كما تخلّص من أصله من حيث صدوره، بل أمره فيه إلى الله، إن شاء وضع فيها تبعة، كقضاء الصلاة الفائتة والصوم المنقوض وموارد الحدود والتعزيرات وردّ المال المحفوظ المأخوذ غصباً أو ربا وغير ذلك مع العفو عن أصل الجرائم بالتوبة والانتهاء، وإن شاء عفى عن الذنب ولم يضع عليه تبعة بعد التوبة ، كالمشرك إذا تاب عن شركه ومن عصى بنحو شرب الخمر واللهو فيما بينه وبين الله ونحو ذلك ، فإنّ قوله: فَمَن جَآءَهُ و مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى' مطلق يشمل الكافرين والمؤمنين فی أوّل التشريع وغيرهم من التابعين وأهل الاعصار اللاحقة . [1]

١ ـ «الميزان» ج ٢، ص ٤٤٢.

ومن هنا يظهر أنّ المراد من مجيء الموعظة بلوغ الحكم الذى شرّعه الله تعالى، ومن الانتهاء التوبة وترك الفعل المنهى عنه انتهاءً عن نهيه تعالى ، ومن كون ما سلف لهم عدم انعطاف الحكم وشموله لما قبل زمان بلوغه، ومن قوله : فَلَهُ و مَا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ وَ إِلَى اللَهِ أنّه لايتحتّم عليهم العذاب الخالد الذى يدلّ عليه قوله: وَمَن عَادَ فَأُولَئكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ، فهم منتفعون فيما أسلفوا بالتخلّص من هذه المهلكة، ويبقى عليهم أنّ أمرهم إلى الله فربّما أطلقهم فى بعض الاحكام، وربّما وضع عليهم ما يتدارك به ما فوّتوه .[1]

يَمْحَقُ اللَهُ الرِّبَوا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ : المحق نقصان الشيء حالاً بعد حال، ووقوعه فى طريق الفناء والزوال تدريجاً ؛ و الإرباء الإنماء، والاثيم الحامل للإثم ، وقد مرّ معنى الإثم .

وقد قوبل فى الآية بين إِرْبَاءِ الصَّدَقَاتِ وَمَحْقِ الرِّبَا، وقد تقدّم أنّ إرباء الصدقات وإنماءها لا يختصّ بالآخرة ، بل هى خاصّة لها عامّة تشمل الدنيا كما تشمل الآخرة ، فمحق الربا أيضاً كذلك لا محالة . ٢

قوله تعالى : وَاللَهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ تعليل لمحق الربا بوجه كلّىّ ، والمعنى أن آكل الربا كثير الكفر لكفره بنعم كثيرة من نعم الله لستره على الطرق الفطريّة فى الحياة الإنسانيّة، وهى طرق المعاملات الفطريّة ، وكفره بأحكام كثيرة فى العبادات والمعاملات المشروعة ، فإنّه بصرف مال الربا فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه يبطل كثيراً من عباداته بفقدان شرائط مأخوذة فيها، وباستعماله فيما بيده من المال الربوىّ يبطل كثيراً من معاملاته ، ويضمن غيره ، ويغصب مال غيره فى موارد كثيرة ، وباستعمال

١ ـ «الميزان» ج ٢، ص ٤٤٣ .

الطمع والحرص فى أموال والخشونة والقسوة فى استيفاء ما يعدّه لنفسه حقّاً يفسد كثيراً من أُصول الاخلاق والفضائل وفروعها ، وهو أثيم مستقرّ فى نفسه الإثم فالله سبحانه لا يحبّه لاِنَّ اللَهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيم . [1]

قوله تعالى : يَـأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ؛ خطاب للمؤمنين وأمر لهم بتقوى الله وهو توطئة لما يتعقّبه من الاَمر بقوله وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوا، وهو يدلّ على أنّه كان من المؤمنين فى عهد نزول الآيات مَنْ يأخذ الربا وله بقايا منه فى ذمّة الناس من الربا فأُمِرَ بتركها ، وهدّد فى ذلك بما سيأتى من قوله : فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَهِ وَ رَسُولِهِ . [2]

وقوله : وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَ أَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم تَعْلَمُونَ .

ومع أنّ الآية مطلقة غير مقيّدة، لكنّها منطبقة على مورد الربا ، فإنّهم (أى أعراب الجاهليّة) كانوا إذا حلّ أجل الدَّين يطالبونه من المدين ، فيقول المدين لغريمه : زد فى أجلى كذا مدّة أزيدك فى الثمن بنسبة كذا، والآية تنهى عن هذه الزيادة الربويّة وتأمر بالإنظار . [3]

كان هذا بحثنا عن الفطرة وأحكام الفطرة وانطباق الاحكام الشرعيّة والسنن الاءلهيّة ومنهاج الشرائع وسيرة الانبياء عليها؛ وعلمنا أنّ الفطرة هى المسار التكوينى لكلّ فرد من أفراد الإنسان(الذى هو موجود حقيقىّ واقعىّ) إلى كماله المنشود الذى هو الآخر أمر حقيقىّ ، وأنّ الاحكام التى وضعت لإيصال الإنسان إلى هذا الكمال تدعى بالاحكام الفطريّة ، وأنّ هذه

---

١ ـ «الميزان» ج ٢، ص ٤٤٣ .

٢ ـ «الميزان» ج ٢، ص ٤٤٧ .

الاحكام عبارة عن المسائل التى جُعلت من قبل الخالق العليم الحكيم والخبير بالبنية الوجوديّة والمسير التكاملىّ والهدف الغائىّ للإنسان ؛ ومعنى الجعل الاءلهىّ هو الاعتبار الاءلهىّ.

فهذه الاُمور الاعتباريّة هى الواسطة بين مبدأ الإنسان وبين كماله وغايته . فالعبد الخاضع للّه يمكنه بتنفيذ هذه الاحكام والاوامر وتطبيقها إيصال نفسه إلى أعلى ذروة الكمال والارتقاء بها إلى أوج الإنسانيّة .

فهذه الاحكام التى تمّ اعتبارها بإرادة اللّه ونظره فاقت فى إحكامها ومتانتها كلّ أمر آخر، وكانت أكثر توفيقاً ونجاحاً فى إيصال الإنسان إلى الهدف الاصلىّ للخلقة، لانّها تنطبق مع حكم العقل وحكم الشهود والوجدان . ومعنى الاعتبار أنّ المُعْتَبر ـ وهو اللّه سبحانه ـ قد قرّرها وعيّنها بلحاظ الهيكل البُنيوىّ والقوى المَاديّة والطبيعيّة ، وبرعاية الاُمور النفسيّة والروحيّة للإنسان، بعيداً عن ذرّة من الحقد والحسد وإعمال الغرض ولحاظ النفع الشخصىّ والفائدة الذاتيّة، فقد حُسبت جميع المصالح والمفاسد، وأسباب النجاة والفوز وعوامل الهلاك والشقاء، بأدقّ الحسابات وأعمقها وأكملها ، ثمّ جُعل الحكم تبعاً لهذه النظرة ؛ أشبه بطبيب حاذق يعاين مرض المريض ويطالعه ويناقش جوانبه وسوابقه ولواحقه ، ويجرى المقارنات ، ويراعى الظروف الزمانيّة والمكانيّة والاُمور الوراثيّة، ثمّ يعتبر بعد تشخيص المرض دواءً له .

فهذا الاعتبار يقابل الحقيقة، أى يقابل الخارج والخارجيّة، أى حكم ونظر ، فنظر الطبيب هو نظر الشخص المعتبر، وهو الذى يعتبر الادوية الفلانيّة فى وصفة الدواء التى يعطيها للمريض .

ثمّ إنّ المريض الذى يمثّل مرضه أمراً حقيقيّاً ، يعمل بالنظريّة الاعتباريّة للطبيب ، فيستعمل الدواء ويشفى فى النتيجة ، والشفاء بدوره

أمر حقيقى ّ.

ومن ثمّ فإنّ اعتبار نظريّة الطبيب ، أى تقييم هذا الدواء وفق نظره ، هو أمر صحيح وكامل جدّاً ليس فوقه شىء ، إذ يستحيل أن يصف الطبيب فى هذه الحال دواءً خلافاً لنظريّته بخصوص هذا المريض، كأن يصف مثلاً دواءً يعاكسه، وإلاّ لدفع بالمريض إلى حافّة الهلاك، ولما سُمِّى آنذاك بالطبيب ، بل وجب تسميته بالقاتل والمفسد والجانى .

فالطبيب يقضى عمره فى الدراسة والتحصيل وإجراء التجارب ليكون ماهراً فى فنّه، وليؤيّد بنظره هذا الاعتبار بشكل صحيح ، فلايمكنه تخطّى هذا الاعتبار القائم به مائة فى المائة أو تجاوزه .

لذا، فإنّ قضاء عمر فى مشقّة الدراسة والتعلّم والتعليم ، والسهر فى خفارة المستشفيات ـ وهى كلّها أُمور حقيقيّة ـ كان من أجل حصول وإيجاد هذا الامر الاعتبارى ّ.

أمّا اعتبار الخالق الحكيم فهو من الصحّة والصواب ومطابقة المراد ، بحيث ينبغى القول حقّاً إنّه يفضل آلافاً من الحقائق ، لا نّه مفتاح جميع أنواع السعادة وكمال الحظّ .

ولقد بيّن العلاّمة آية الله الطباطبائى ّ قدّس الله سرّه الشريف هذه الحقائق مفصّلاً فى المقالة السادسة من « أُصول فلسفة وروش رئاليسم » (=أُسس الفلسفة والمذهب الواقعى ّ) ؛ كما بيّن بكمال الدقّة هذه الحقيقة فى تفسير الآية المباركة المتعلّقة بالفطرة على النحو الذى أوردناه .

والعجب هنا من صاحب مقالة « بسط وقبض تئوريك شريعت » (= بسط وقبض نظريّة الشريعة) الذى يبدو أنّه عدّ الاعتبار أمراً زائداً عابراً لاملاك له ولاقيمة ، وهو أشبه ما يكون عنده بنسج الخيالات ، واعتبره مدفوعاً بهواه من الأُمور التى لا أساس لها ولا مناط ، ووضعه ردفاً

للأُمور الواهية ، ثمّ انتقد سماحة العلاّمة وذكر مطالباً وأُموراً لا تليق بساحة كاتب ولا مقامه .[١]

ونجد أنفسنا مجبرين على أن نذكّر بعدّة تنبيهات لشرح و توضيح بعض مسائل الفطرة والاحكام المعتمدة عليها .

التنبيه الاوّل: هل نحن قادرون على اكتشاف جزئيّات أحكام الفطرة من غير طريق الشرع والشريعة؟

الجواب منفيّ بالطبع ، أى أنّه لا إمكان مطلقاً فى الوصول إلى أحكام الفطرة لعامّة البشر بدون الاتّصال بالوحى ومرحلة النبوّة ، وعلّة ذلك كما ذكرنا أنّ أحكام الفطرة وضعت على أساس الاحتياجات الحقيقيّة للإنسان، وليس هناك غير علاّم الغيوب من مطّلع على البواطن والسرائر والغرائز، وخبير بالسبل الموصلة إلى الهدف الغائىّ لخلق الإنسان، وعليم بالبناء البدنىّ والمادّىّ والنظام الروحىّ والنفسىّ له ، ليمكنه جعل حكم يحفظ مصلحة الآدمىّ المطلقة من جميع الجهات؛فمهما ارتفعت درجات الافراد ـ من دون الله ـ العلميّة ، وارتقت مراتب الحكمة فيهم ، إلاّ أنّهم لن يحيطوا مع ذلك بجميع جوانب الإنسان :

وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً .[٢]

وفى المثال الذى أوردناه عن علم الطبّ والمريض ، فإنّ على المريض مهما كانت درجته العلميّة مراجعة الطبيب والعمل بوصفة الدواء ، واتّباع تعاليمه بلا مناقشة ، وذلك باعتبار جهل المريض لفنّ الطبّ ، ولانّ

---

١ ـ مجلّة «كيهان فرهنگى»، العدد ٥٢، تيرماه ١٣٦٧ ش، رقم ٤، مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت»، ص ١٧، العمودان الاوّل والثانى.

٢ـ ذيل الآية ٥٨ ، من السورة ١٧ : الاءسراء .

الطبيب حسب فرضنا حاذق ماهر، لـذا فـإنّ مفـاد حكـم الفطـرة وحكـم العقـل وحكم الشرع يقول : فَسْـَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ .[1]

وينبغى على المريـض أن يلـتزم بـالتعبّد المحـض مقـابل أقـوال الطبيـب ، وإلاّ فإنّ تخطّيـها وتجاوزهـا سـيعدّ تمـرّداً واتّباعـاً للـرأى الشـخصى ّ ومسـتلزماً للـهلاك، وهـو أحـد مصـاديق الانتحـار، ومعلـوم أنّ الانتحـار حـرام عقـلاً وشرعاً، لذا فإنّ رأى الطبيب صحيح ورأى المريض خطأ .

والامـر فى الأُمـور الشـرعيّة كمـا هـو فى أمـر الطبيـب الحـاذق العـارف ببواطـن أُمـور البـدن وتركيبـه وأفعالـه وردود فعلـه، وخـواصّ الـدم، وتركيـب السـمّ والتريـاق، وأخـيراً فـهو مطّلـع علـى مجمـوع حـالات المريـض وكيفيّة تأثير الدواء؛ فالشـارع المقـدّس مطّـلع بأحسـن وجـه وأكمـل طريـق على جميع الاحوال المادّيّة والروحيّة للمريض وكيفيّة معيشته وحياة عمـر المريـض وعافيته المطـلقة، وصحّة وسلامة نفسـه، وتمتّـعه بجـميـع المـواهـب الالهـيّة والاسـتعدادات الفطريّـة، وكيفيّـة جعلـها فعّالـة فى جميـع الشـؤون الفرديّـة والاجتماعيّة. والاءيصال إلى سـاحة قـدس الحبيـب علـى الاءطـلاق والفنـاء فى ذاته المقدّسة .

لـذا، ينبغـى متابعـة النبى ّووصيّـه، واتّبـاع الإمـام الحـى ّ، وإلاّ فـإنّ المخاطر سـتواجه البشـر بشـكل حتمـى ّ وقطعـى ّ، وسـيُنزل بنـا ـبسـبب عـدم التمسّك بميثـاق النبـوّة وحبلـهاـ مـا نـزل بالمجتمعـات الكبـيرة والاُمـم المتمدّنـة فى عالمنـا الحـاضر، فقـد كـانوا سـعداء جذلـين مبـهورين بـأضواء الدنيـا الزائفـة، مشـغولين كالاطفـال بـالتفرّج علـى صنـدوق العـجائب، فخسـروا بلامقـابل جميـع مـزاياهـم الاخلاقيّـة والروحيّـة وسـجاياهم الفطـريّة وغرائزهم

١ ـ ذيل الآية ٧، من السورة ٢١: الانبياء.

الموهوبة من قبل اللـه ، بل خسروا حتّى صحّة المزاج الطبيعىّ وهدوء البال وراحة الفكر، فلم يربحوا فى مقامرتهم هذه، بل كانوا هم الاخسرين ، وعلى قول إقبال الباكستانىّ :

دل ودين باختهاى تا هنر آموختهاى

آه ازاين دُرّگرانمايهكه درباختهاى[1]

ويتّضح من هذا البيان أنّ ما ذكره بعض دعاة التجدّد المبهورون بالغرب فى معنى خاتميّة الرسول الاكرم صلّى اللـه عليه وآله وسلّم من: « أن العلوم البشريّة اليوم فى حالة تزايد وتكامل، لذا فلا حاجة للبشر إلى نبىّ ، لانّ البشر يستطيع بقواه العقليّة وبحوثه العلميّة أن يدير أُموره بلاواسطة للرسول » ، وهو قول سخيف لا اعتبار له .

وينبغى العلم أنّ مرادنا بعدم قدرة العقل على اكتشاف الاحكام الفطريّة كما أشرنا قبلاً ، هو جزئيّات وتفاصيل الاحكام، ولايمكن قبول الادّعاء بأنّ البشر يمكنه بعقله استخراج واستنباط الاحكام الفطريّة، إذ هو قول جزاف.

أمّا فى الأُسس والاحكام الكلّيّة التى يتوافق البشر عليها، كحسن الاءحسان إلى المُحسن، وحسن الاءيثار، والاءنفاق على الغير فى الموارد الصحيحة، أو قبح الكذب المضرّ وحسن الصدق النافع، وحسن العدالة وقبح الظلم، وكغريزة النزوع إلى المبدأ، وسائر الاحكام من هذا القبيل ، فهى أحكام فطريّة يمكن إدراكها، بل إنّها من أوّل الاشياء التى يصل إليها العقل ويدركها ، لانّ الفطرة إن اعتُبرت بمعنى كيفيّة الخلق والبنية الوجوديّة

١ـ يقول: «لقد خسرتَ روحك ودينك حتّى تعلّمت فنّاً، فيا للحسرة من الدرّالثمين الذى قد خسرتَه».

الخاصّة للإنسان ، فإنّ أُسسها عموماً ستكون قابلة لاءدراك البشر وجداناً فى بعض مواردها ، ولو كانت هذه الأُسس والأُصول جملةً غيرقابلة لادراك البشر وفهمهم فإنّ ذلك يؤدّى إلى نفى الغرض ، وسيصبح الادّعاء بأنّ أحكام الدين فطريّة أمراً لامعنى له، لانّ الاحكام ستكون ما يأمر به الدين ويقوله ، وهذا يستلزم الدور .

التنبيه الثانى : وكما صرّح آية الله العلاّمة قدّس الله نفسه، فإنّ المراد بأحكام الفطرة هى الاحكام المطابقة للعقل، أى العقل الإنسانىّ من حيث هو إنسان ، لا العقل الحيوانىّ، فالعقل الحيوانىّ عبارة عمّا يشترك به الإنسان مع الحيوانات ، والشعور المرتبط بالحواسّ الظاهريّة والقوى الخياليّة الداعى لاتّباع اللذائذ البهيميّة والشهوات ، وتحقيق الرغبات المادّيّة، ونيل الرياسة، وجمع الحطام الدنيوىّ، وحسّ التفوّق والتظاهر، وعبادة الذات ، وحبّ الظهور والجاه وأمثالها ، وواضح أنّ هذا الشعور والادراك لا يصل بالإنسان إلى مقام الإنسانيّة، بل يجعله فى مرتبة الحيوانات واجناسها التى هى أعلى من النباتات والجمادات . أمّا العقل الإنسانىّ الذى يصوغ الفرد إنساناً ، فهو عبارة عن العبوديّة المحضة والمطلقة مقابل الخالق الحكيم العليم، والانقياد والاءطاعة الصرفة بلحاظ مقام العبوديّة مقابل عظمة ومقام ربوبيّة ذلك الخلاّق الخبير .

كما أنّ حبّ الوصول إلى ذات ذلك المبدأ الازلىّ والابدىّ، وشوق وعشق لقاء الجمال السرمدىّ والفناء فى ذاته الاحديّة جلّ وعزّ، وتكميل القوة العاقلة والعاملة والاءيثار والتضحية والفتوّة والمروءة والصبر والتحمّل والاءنفاق والخيرات وأعمال البرّ المطلوبة هى التى تفصل الإنسان عن وجوده المعار والمجاز وتلحقه بالوجود الابدىّ والحقيقىّ .

فهذه وأشباهها من صفات الانبياء العظام والائمّة المعصومين

والاولياء المقرّبين هى الهدف الاصلىّ والغائىّ للإنسان. وبهذا اللحاظ فإنّ أحكام الفطرة هى الاحكام التى ينبغى تشريعها وتدوينها لهذا النهج من السير والسلوك، لا الاحكام التى يجعلها ويدوّنها ويتوصّل إليها عقل الإنسان المادّىّ والشهوانىّ بما هو حيوان، إذ لا يمكن اعتبار هذا النمط من الاحكام والسنن سنناً فطريّة وأحكاماً حقيقيّة.

ومن هنا، فإنّ الإنسان محتاج دوماً للاتّصال بالشرع والشريعة ومنهل الولاية ومعدن حكمة النبوّة، لا ملجأ له ولا علاج غيرها، ولا طريق له غير نهجها وطريقها.

أمّا إذا اعتبرت أحكام الفطرة على أنّها الاحكام التى تتوصّل إليها العقول البشريّة، فإنّ ضرورة الشريعة ستنتهى حينذاك، وسيرجع جميع الناس إلى عقولهم فيعملون بمقتضاها، وهذا ما يساوق نسخ الشريعة، ونسخ القرآن، ونسخ النبوّة، ونسخ الولاية، ونسخ معنى إمامة وولاية الإمام الحىّ.

وهيهات هيهات أن تكون يد البشر القاصرة قد نالت ذلك أو تناله، وأن حرىّ بنا أن نبعد هذه الافكار الساذجة عن أذهاننا وأن لا نتطرّق إليها، ونزجر هذه الافكار الشيطانيّة فلا ننخدع بها، وعلينا أن لا نتخطّى ما رُسِم لنا من مقام وحدود، وأن ننهل دوماً من معين الإمام الحىّ. الحجّة ابن الحسن العسكرىّ أرواحنا فداه، فنروى أكبادنا الظمأى وقلوبنا الحرّى، وأن نعدّ أنفسنا بالعمل بشرعه وشريعته ونهجه وسيرته للتكامل والوصول للهدف المنشود، حينذاك يصبح أحدنا إنساناً يصدق عليه أنّ عالم الوجود والشمس والقمر وخلق الارض مسخّر لاجله.

التنبيه الثالث: بشأن قاعدتَى الملازمة المبحوثتين فى علم أُصول الفقه:

الأُولى: كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ الشَّرْعُ حَكَمَ بِهِ العَقْلُ.

الثانية : عكسها : كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ العَقْلُ حَكَمَ بِهِ الشَّرْعُ .

فهل هاتان القاعدتان أو إحداهما صحيحة بشكل عامّ وكلّىّ، أم أنّ هذه الملازمة غير تامّة ؟

يمكن الحصول على إجابة هذا السؤال ممّا ذكرناه من انطباق حكم الفطرة مع حكم العقل الإنسانىّ والحكم الشرعىّ، لانّه إن أريد من كلمة العقل فى هاتين القاعدتين هذه العقول النظريّة العامّة التى يمتلكها عامّة البشر، فيستخدمونها لتنسيق أُمورهم البيتيّة وتنظيم مجتمعهم ومدنيّتهم ، فلن يكون صحيحاً بشكل كلّىّ أيّاً من هاتين الملازمتين، لا نّنا نرى فى كثير من الموارد أنّ للعقلاء حكماً ما لكنّ الشرع يورد خلافه، كما فى المعاملات الربويّة وأُسس معاملات البنوك ، وكالتلقيح والحمل بحقن نطفة رجل أجنبىّ فى رحم امرأة لا يربطها به عقد شرعىّ، ومثل تبنّى طفل أجنبىّ وإصدار شهادة الجنسيّة له ومعاملته معاملة الابن الحقيقىّ فى جميع المراتب، وكثير من أمثال هذه المسائل ، فى حين يمتلك الشرع وجهة نظر مخالفة كلّيّاً .

أمّا إن كان المراد من كلمة العقل نفس العقل الإنسانىّ الحقيقىّ الموجود للانبياء والائمّة بلحاظ الجانب الملكوتىّ والعلوىّ للإنسان، لابلحاظ حيوانيّته وبهيميّته ، وحيث إنّ العَقْلُ مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَاكْتُسِبَ بِهِ الجِنَانُ ؛ [1] فإنّ كلا القاعدتَين والملازمتَين ستكون صحيحة ، ذلك لأنّه

١ ـ يروى هذه الرواية فى «أُصول الكافى» ج ١، ص ١١ عن أحمد بن إدريس، عن محمّدبن عبد الجبّار، عن بعض الاصحاب مرفوعاً عن الإمام الصادق عليه السلام: قَالَ : قُلْتُ لَهُ : مَا العَقْلُ ؟ قَالَ : مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَاكْتُسِبَ بِهِ الجِنَانُ . قَالَ: قُلْتُ: فَالَّذِى كَانَ فِى مُعَاوِيَةَ ؟ فَقَالَ : تِلْكَ النَّكْرَاءُ! تِلْكَ الشَّيْطَنَةُ ، وَهِىَ شَبِيهَةٌ بِالعَقْلِ وَلَيْسَتْ بِالعَقْلِ . وهى مرويّة فى «الوافى» للفيض ، ج ١، ص ٧٩ ، عن «الكافى» للكلينىّ .

ليس هناك من حكم عقلي ّفطري ّإلاّ وهناك حكم شرعي ّيطابقه ويوافقه ، والعكس صحيح ، وهذا هو معنى أنّ دين الإسلام هو دين الفطرة ، فَأَقِمْ وَجْهَكَ لَلدِّين حَنيفًا فِطْرَتَ اللَهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا . [1]

التنبيه الرابع : يشاهد فى بعض الموارد أنّ هناك لموضوع أو متعلّق واحد حكمين مختلفين ، كالوجوب والحرمة ، كما فى موارد الاضطرار مثلاً، حيث يصبح الحرام حلالاً : مَا مِن شَيْءٍ حَرَّمَهُ اللَهُ إلاَّ وَقَدْ أَحَلَّهُ لِمَن اضْطَرَّ إلَيْهِ . [2] كأكل لحم الميتة والدم ولحم الخنزير وذبيحة غير

١ ـ صدر الآية ٣٠، من السورة ٣٠ : الروم .

٢ ـ روى الشيخ الطوسي ّهذه الرواية فى كتاب « تهذيب الاحكام» عن الحسين بن سعيد ، عن الحسين بن زرعة ، قال : سَأَلْتُهُ عَن الرَّجُل يَكُونُ فِى عَيْنِهِ المَاءُ... إلَى قَوْلِهِ : فَقَالَ : وَلَيْسَ شَيءٌ مِمَّا حَرَّمَ اللَهُ إلاَّ وَقَدْ أَحَلَّهُ لِمَن اضْطَرَّ إلَيْهِ . («تفسير نور الثقلين» لعبد علي بن جمعة العروسي ّالحويزي ّ، ج ١، ص ١٣٠) .

ويروى عبد علي بن جمعة أيضاً عن «من لا يحضره الفقيه» أنّ : مَن اضْطَرَّ إلَى المَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الخِنْزِيرِ فَلَمْ يَأْكُلْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يَمُوتَ فَهُوَ كَافِرٌ. وأورد هذه الرواية عن «من لايحضره الفقيه» الملاّ محسن الفيض الكاشاني ّ فى «تفسير الصافى» ج ١، ص ١٥٩. وينبغي العلم أنّ هذه الروايات قد أوردت فى هذه التفاسير فى ذيل الآية ١٧٣، من السورة ٢: البقرة : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وهناك نظير مفاد هذه الآية آيات ثلاث أُخرى فى القرآن الكريم.

ولدينا مضافاً إلى هذه الآيات روايات من جملتها ما رواه فى «أُصول الكافى» ج ٢، ص ٢٤٢، بإسناده عن عمرو بن مروان قال : سمعتُ أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: رُفِعَ عَنْ أُمَّتِى أَرْبَعُ خِصَالٍ : خَطَأُهَا وَنِسْيَانُهَا وَمَا أُكْرِهُوا عَلَيْهِ وَمَا لَمْ يُطِيقُوا ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَهِ عَزَّ وَجَلَّ: « رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ» ؛ وَقَوْلُهُ : «إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ و مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَـٰن».

المسلمين المحرّم فى الحالات العاديّة، لكنّه يصبح حلالاً عند الاضطرار:

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .[1]

ونلحظ فى هذه الآيات ونظائرها أنّ الله سبحانه جعل حكمَين مختلفَين لموضوع ومتعلّق واحد ، الحكم الاوّل فى حال عدم الاضطرار وهو الحرمة، والحكم الثانوىّ حال الاضطرار وهو الإباحة والجواز ، فأىّ حكم من هذين الحكمين ـيا تُرىـ يطابق الفطرة ؟

لقد عرفنا أنّ المَراد بالحكم الفطرىّ ليس ذلك الحكم التابع لاهوائنا ومشتهياتنا النفسيّة ورغباتنا الاوّليّة، بل هو الحكم الذى يمثّل الواسطة للوصول إلى الغاية والهدف المنشود من الخلقة. وعلى هذا، فإنّ حكم المحاربة والدفاع والجهاد سيكون فطريّاً، لا نّه يقود الإنسان إلى الكمال المطلوب وسعادة الدنيا والآخرة والوصول إلى عزّ الإنسانيّة، وكذلك فإنّ صيام أيّام الصيف الحارّ وقيام ليالى الشتاء البارد، والحجّ والعمرة فى تلك البلاد الحارّة القاحلة ستكون كلّها فطريّة، لا نّها توصل الإنسان إلى الكمال الحقيقىّ، ولو لم يرغب بها الطبع الاوّلىّ للإنسان ولم يرتضيها فى قرارة نفسه، أو أجراها على نحو الاءكراه. وسنعرف فى هذه الحال لِمَ قسمَى الحكم

وأورد كذلك مرفوعاً عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: وُضِعَ عَن أُمَّتِى تِسْعُ خصَالٍ: الخَطَأُ، وَالنِّسْيَانُ، وَمَا لاَ يَعْلَمُونَ، وَمَا لاَ يُطِيقُونَ، وَمَا اضْطَرُّوا إِلَيْهِ ، وَالطِّيَرَةُ ، وَالوَسْوَسَةُ فى التَّفَكُّرِ فِى الخَلْقِ ، وَالحَسَدَ ، وَمَا لَمْ يَظْهَرْ بِلِسَانٍ أَوْ يَدٍ .

وروى فى «تحف العقول» ص ٥٠، عن رسولَ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: رُفِعَ عَنْ أُمَّتِى [تِسْعٌ] : الخَطَأُ، وَالنِّسْيَانُ ، وَمَا أُكْرِهُوا عَلَيْهِ ، وَمَا لاَ يَعْلَمُونَ ، وَمَا لاَيُطِيقُونَ ، وَمَا اضْطَرُّوا إِلَيْهِ، وَالحَسَدُ، وَالطِّيَرَةُ ، وَالتَّفَكُّرُ فِى الوَسْوَسَةِ فِى الخَلْقِ مَا لَمْ يَنْطِقْ بِشَفَةٍ وَلاَ لِسَانٍ .

[٢١] ـ الآية ١٧٣، من السورة ٢: البقرة.

الاضطراري وغير الاضطراري مطابقان لحكم الفطرة، لانّ كلاّ منهما ـ حسب دوره وظرفه الخاصّ ـ يتكفّل بإيصال الإنسان إلى كماله وسعادته .

أمّا عند الاختيار وانتفاء القحط والمجاعة ووفور أنواع الاغذية المحلّلة ، فمن الواضح أنّ أكل لحم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ لغيرالله به أمر مخالف للفطرة ، لاضراره الماديّة والجسميّة من جهة ، ولاضراره الروحيّة والمعنويّة من جهة أُخرى . وعلى هذا ، فحكم الفطرة ينطبق مع الشرع .

وأمّا في حال الاضطرار، فباعتبار أنّ حياة الإنسان ستكون منوطة بالتناول منها بمقدار رفع الضرورة ، فإنّ من البديهي الحتمي أن يكون ذلك جائزاً في الشريعة الكاملة ، لانّ الاكل بمقدار سدّ الرمق موجب لبقاء الحياة وحفظها ، وبقاء الحياة مع تناول هذه الموادّ المحرّمة أفضل وأولى من استقبال الموت بتركها ، لذا فحكم الفطرة المجعول والمعتبر على أساس المصالح والمفاسد الواقعيّة يتطابق هنا أيضاً مع حكم الشرع .

ونجد في بعض الموارد أنّ الاحكام الخمسة : الوجوب ، الاستحباب ، الاءباحة، الكراهة و الحرمة تُجعل جميعاً لمتعلّق واحد، كما في النكاح والزواج مثلاً الذى هو في حدّ ذاته أمر وسنّة مستحبّة .أمّا حين تغلب الشهوة وينتفي السبيل المشروع لإشباع الغريزة ، ومع خوف الوقوع في التهلكة والضرر والإصابة بالامراض الجسميّة أو النفسيّة ، فإنّ هذه الأُمور تجعل النكاح يصبح أمراً واجباً . وفي الموارد التي يتزاحم فيها النكاح مع أمر واجب أهمّ، كتحصيل المعارف الإسلاميّة وأُصول العقائد، أو تمريض أُمّ عجوز ضعيفة لاتقوى بنفسها على إنجاز أعمالها الضروريّة وأمثال ذلك ، فإنّ الزواج سيكون حراماً في هذه الصورة.فإن تساوت الجهات الراجحة والمرجوحة صار النكاح مباحاً . فإن زادت الجهات المرجوحة

على الراجحة صار مكروهاً، كما فى حال شابّ لم تغلب عليه شهوته ، مشغول بتحصيل المعارف الدينيّة وتعلّم القرآن والاخبار والفقه والتفسير والحكمة والعرفان، فهذا الشابّ إذا أقدم على الزواج سيمكنه الاستمرار فى دروسه وتحصيله ، لكنّه شاء أم أبى سيتعرّض إلى وقفة ونكسة وفتور فى اكتساب كمالاته المعنويّة ، ففى هذه الحال ستكون الاولويّة فى ترك النكاح .

وكان القصد بهذا الكلام أنّ جميع الأحكام الخمسة فىموضوع النكاح هذا هى أحكام فطريّة ليس هناك بينها من تنافٍ ولاتعارض ، وينبغى الدقّة التامّة فى كلّ متعلّق خاصّ تمهيداً لاستخراج الحكمالفطرىّ والشرعىّ .

ويمكن تلخيص ما ذكرناه بما يلى :

١ ـ أنّ الفطرة بمعنى الخلقة الاوّليّة والبنية الوجوديّة للإنسان ؛ وأنّ الإسلام قائم على أساس هذه الفطرة التى يصدر العقل الإنسانىّ المستقلّ وغيرالمشوب بشوائب الهوى والهوس ـ أحكامه المطابقة لها .

٢ ـ أنّ العقول العاديّة للناس ، القائمة على أساس المصالح المتدنيّة للحياة والعيش هى فى مرتبة الشعور الحيوانىّ، وباعتبار اشتراكها مع الحيوانات فى التفكير بالمصلحة والانتفاع ودفع الضرر وقضاء الحاجات الشهويّة والغضبيّة والوهميّة ، فهى عاجزة عن كشف الاحكام الاصيلة للبشر بما هو بشر وإنسان، لذا فهى غير قادرة على استخراج الاحكام من الفطرة، ومحتاجة إلى نبىّ وولىّ أمر معصوم قد تعدّى حدود ذاته وارتبط بالكلّيّة وصدر عن منهل العرفان والتشريع، ولولا ذلك لما كانت الحاجة إلى التكليف والقانون الاءلهىّ، ولامكن للناس إدارة أُمورهم وتسييرها بالرجوع إلى هذه الافكار والاكتشافات والاعتماد على علومهم المادّيّة

والطبيعيّة والتجريبيّة .

٣ ـ أنّ الكثير من الاحكام التى تبدو بحسب النظر الابتدائى غير منافية للفطرة ، كنكاح أُخت الزوجة، وأُمّها ، ومحرّمات الرضاع ، وبنت أُخت الزوجة وبنت أخيها بدون إذنها ، وترك الجهاد (لا الدفاع) وغيرها ؛ قد نهى الشرع المقدّس عنها لكونها بلحاظ النظرة الاصيلة منافية للفطرة لعدم وقوعها فى طريق المصالح العالية ، بل لإيجابها سدّ طريق تكامل الإنسان ومنعها طيّه للمدارج المعنويّة .

٤ ـ أنّ الاحكام الاضطراريّة والإكراهيّة والضروريّة والاستثنائيّة هى كالاحكام الاوّليّة من أحكام الإسلام ومطابقة للفطرة . وعلى هذا ، فإنّنا لانجد فى الإسلام أىّ قانون عامّ أو خاصّ، كلّىّ أو جزئىّ، جنسىّ أو شخصىّ، إلاّ وكان موافقاً للفطرة ومؤدّياً بالنتيجة إلى رشد ورقىّ وفاعليّة القوى والقابليّات المودعة فى البنية الوجوديّة والحيويّة للإنسان .

التنبيه الخامس: ذكر صاحب مقالة « بسط وقبض » ـ فى كتاب مستقلّ آخر له باسم « دانش و أرزش پژوهشى در ارتباط علم و أخلاق » ـ الفرق بين العلم والاخلاق ، بأنّ العلم عبارة عن القضايا الخارجيّة التى يصحّ إطلاق الصدق والكذب عليها ، والاخلاق عبارة عن الأُمور الاعتباريّة التى لا ارتباط لها بالخارج أبداً :

الأخلاق العلميّة أيضاً من أبناء هذه الرؤية الحديثة لمشركى عبدة العلم .

حتّى يصل إلى القول:

فحين نعلم أنّ إشعاعات الموادّ المشعّة تسبّب السرطان (علم)، ثمّ نعلم أنّ علينا الحذر منها (أخلاق) .

وحين نعلم أنّ سحق الغرائز وكبتها يحطّم الشخصيّة ويسبّب نشوء

العُقد (**علم**) ، ثمّ ندرك أنّ علينا أن لا نُميت الغرائز ونوجد العُقد (**أخلاق**) .

وحين نتعرّف على **البناء الكيميائيّ واى ثار الصيدلانيّة والحيويّة** لدواء معيّن (**علم**) ، ثمّ يمكننا أن نقرّر استخدام ذلك الدواء أم عدم استخدامه .

وحين نناقش ونحلّل بما لا يقبل الخطأ الهيكل الفاسد والظالم الغاصب لنظام اجتماعيّ معيّن (**معرفة**) ، ثمّ نشعر بالمسؤوليّة تجاه إسقاط ذلك النظام (**أخلاق**) .

فهذه الامثلة ومئات أُخرى من قبيلها تظهر بوضوح أنّ العلم هو الذى يلد الاخلاق، وأنّ الفكر هو الذى يخلق القيم، وأنّ المعرفة هى التى توجد الالتزام .[1]

... علينا فى البداية التعرّف باختصار على العلم والاخلاق ، فالعلم يعنى **التوصيف** والاخلاق تعنى **التكليف** . العلم يعنى معرفة **الواقعيّات** والاخلاق تعنى معرفة **القيم** . فى العلم يدور الكلام عن الطبيعة ، وفى الاخلاق عن الفضيلة . فى عهدة العلم أن يبحث **كيف وجد** و **كيف لم يوجد** ، وفى عهدة الاخلاق أن تناقش ماذا يجب عمله، و ماذا يجب اجتنابه ؛ فمجموعة المعارف التى تصف بنحو جزئيّ أو كلّيّ كيفيّة الوجودات تُدعى علماً ؛ أمّا القوانين الاخلاقيّة فهى جميع القوانين التى تقوم بتقييم الاشياء والأُمور الخارجيّة ، أو تتحدّث بنحو جزئيّ أو كلّيّ عن يجب و لايجب أو الداعية لاءقدام وتصرّف معيّن.[2]

إنّ تقييم الاشياء وتعيين جيّدها من رديئها ليس فى الحقيقة معزولاً

---

١ ـ كتاب «دانش و أرزش»(= العلم والقيم)، للدكتور عبد الكريم سروش، ص ١٢إلى ١٤ ، الطبعة الثانية .

٢ ـ «دانش و أرزش» ص ١٤ .

عن **يجب و لا يجب** ، وبمعنى آخر هما شيء واحد. فالعمل الذى نقول إنّه يجبألاّ يُعمل ، فإنّنا قد قلنا بتعبير آخر إنّ عمله سيّيء، وكذا الأمر بالنسبة إلى المورد الجيّد الذى يجب عمله .

وعليه ، فلايخلو أبداً أى قانون أخلاقى ممن نوع من التقييم والتقدير، على العكس من القوانين العلميّة التى تتجنّب دوماً بوعى مسألة التقييم، وتكتفى ببيان كيفيّة وجود أو عدم وجود الظاهرة المعيّنة. [١]

إنّ كشف وإبطال المغالطة الكامنة فى الاستدلال والفكر الاخلاقى العلمى يمثّل أحد الاءنجازات البشريّة العظيمة والقيّمة، وتكتسب هذه المسألة أهمّيّتها بلحاظ إمكان استخدامها كمعيار لتقييم وقياس متانة وأصالة الإيديولوجيّات ؛ فكلّما كانت إحدى المدارس والاتّجاهات العلميّة مصونة من وسوسة هذه المغالطة، كلّما كانت أكثر أصالة وإتقاناً وتكاملاً، وكلّما سقطت المدرسة أكثر فى شباك هذه الشبهة فإنّها ستصبح بنفس النسبة عديمة الثبات ، ضئيلة الاهمّيّة . [٢]

إنّ الاعتباريّات هى المفاهيم التى يفترضها ويتّخذها الشخص لاجل ضرورات العيش بمساعدة العواطف والرغبات الباطنيّة ؛ والحقائق هى المفاهيم التى يكتشفها العقل بالنظر فى الواقع الخارجى للاشياء وفى روابطها وعلائقها ، فهذان النوعان من المفاهيم لايتولّد أحدهما من الآخر، وبعبارة أُخرى : لا يمكن الوصول من الكشف إلى الفرض .

فدوران القمر حول الارض هو من كشوف العقل ، ومقولة إنّ قلب الإنسان السليم ينبض ٧٠ مرّة فى الدقيقة ليست فرضاً وتعاقداً، وعلى هذا فهى لا تتغيّر بالاستحسان وعدم الاستحسان، وبالقبول أو عدم القبول، وبوجود شخص ما أو عدم وجوده .

فنحن إن شئنا أم أبينا ، وقبلنا أم رفضنا، ووُجدنا أم لمنوجد ، فإنّ

١و٢ ـ «دانش و أرزش» ص ١٤.

القمر كوكب يدور حول الارض.

أمّا بشأن الفرضيّات والعقود فالامر مختلف، فحين ندعو الميكروب سيّئاً، فليس ذلك مستقلاّ بأىّ وجه عن رغباتنا واستحساننا ووجودنا . فأوّلاً : لو لم يكن هناك وجود لاىّ إنسان لما اتّصفت الميكروبات بصفة السوء ، فالبشر الذين يرغبون فى البقاء هم الذين ينعتون الميكروبات التى تمنع بقاءهم بالسيّئة ، وإلاّ فإنّ الميكروبات فى حدّ ذاتها وبقطع النظر عن البشر هى ميكروبات فقط ، لاجيّدة ولاسيّئة .

وثانياً : أنّ هذه الميكروبات تصبح جيّدة بالنسبة لنا أحياناً ، إذ فى حال فتك الميكروبات الوبائيّة بأعدائنا فرضاً ، فإنّها لن تكون سيّئة أبداً . [1]

وبتعبير آخر: لا يمكن بأىّ وجه إثبات حسن شىء أو قبحه باستخدام سلسلة براهين منطقيّة، كما لا يمكن بهذا الدليل إثبات وجوب عمل شىء أو عدم وجوبه بأى برهان منطقىّ .

وفى نهاية هذا القسم ، فإنّ هيوم يذكر نكتة مهمّة نقلها عنه واقتبسها بعده فلاسفة آخرون وصارت ملهمة لكثير من التحقيقات المنطقيّة :

... ونرى فجأة بكمال العجب بدل الأُسلوب المعهود من إضافة قضايا تشتمل على **وجود** و **عدم** ، فإنّ جميع القضايا تصبح فجأة ذات **يجب ولا يجب** ، على الرغم من عدم التفات أحد الى هذا التغيير .

... وسيمنحنا الفرصة لنرى جيّداً أنّ الخير والشرّ والفضيلة والرذيلة لم تُبنَ على أساس العلائق والروابط بين الاشياء ، وليست مشمولة للإدراكات العقليّة . [2]

ولم تتكرّر فكرة هيوم المكثّفة هذه إلاّ فى أوائل القرن العشرين على لسان فيلسوف آخر. فقد نشر جى اى مور الحكيم الإنجليزىّ سنة

١ ـ «دانش و أرزش» ص ٢٤٣ و ٢٤٤ .

٢ ـ «دانش و أرزش» ص ٢٤٤ .

١٩٠٣ م كتابه ذائع الصيت باسم «مبانى الاخلاق»، وقام فى كتابه بتحليل دقيق ومفصّل لمفهوم « **الحَسن** » وعدّه مفهوماً بسيطاً لا يتجزّأ ولا يُعرّف .

وقد استخدم فى هذا الكتاب اصطلاح « **مغالطة دعاة الطبيعة** » لأوّل مرّة ، وكان الغرض منه كما سيأتى فيما بعد نفس تلك المغالطة الكامنة فى جميع أنواع الأخلاق العلميّة . [١]

وكان **كانت** ، الفيلسوف الألمانىّ والمعارض الشهير لجميع أنواع الميتافيزيقيّة ، قد دعى كتابه المشهور فى نقد ما وراء الطبيعة « مقدّمة على كلّ فلسفة ميتافيزيقيّة مستقبليّة تدّعى العلميّة » . وذكر مور أيضاً فى مقدّمة كتابه أنّ هدفه الاصلىّ من كتابه أن يكون مقدّمة « **لاى نّوع من ايخلاق المستقبليّة تدّعى العلميّة** » . [٢]

ويتكرّر هذا الخطأ اليوم من قِبل الكثيرين، ولقد سمع الكاتب كثيراً وشاهد بنفسه أنّ جمعاً من المفكّرين المشتغلين بالبحث فى أمر فلسفة الاخلاق يظنّون أنّ المسألة الاساسيّة فى فلسفة الاخلاق أن يجدوا بنحو من الانحاء شيئاً مطلوباً ومحبوباً بذاته بلاباعتباره وسيلة ـ وكأنّ جميع الصعوبات والمشاكل ستنهار بالعثور على هذا المحبوب النهائى ، وكأنّ جميع الالغاز ستنحلّ بإشراق جمال ذلك المحبوب ، وسيتّضح مرّة واحدة ما هى الوظيفة والتكليف؟ وما العمل الذى ينبغى؟ وعن أىّ شىء ينبغى البحث؟ وما هو معيار الجيّد والسيّى؟ وما هو منشأ القيم والموازين؟ لكنّ هذا ليس إلاّ خطأً وخيالاً ليس إلا ، فالعثور على المطلوب النهائىّ شىء ، وإرادة أنّ ذلك المطلوب ينبغى طلبه وابتغاءه شىء آخر ، فأحدهما **توصيف** والآخر **تكليف** ، الاوّل هو وظيفة **العلم** (بالمعنى الواسع) ، والثانى وظيفة **الاخلاق** ، وجعل هذين الاثنين واحداً يمثّل خطأ الاخلاق العلميّة الذى لا يُغتفر .

١و٢ ـ «دانش و أرزش» ص ٢٤٥ .

وخلاصة الكلام أنّ « **الناس يبحثون عن مطلوبهم** » وأنّ« **المطلوب ينبغى لزوماً أن يُطلب** » متفاوتان بشكل كامل ، فالأولّ توصيفىّ والثانى تكليفىّ . [1]

وكان **السيّد محمّد حسين الطباطبائى**ّ الحكيم والمفسّر المعاصر فى بلاد الشرق هو أوّل الحكماء الذين عملوا بإيحاء من أنفسهم على طرح حلّ مسألة الإدراكات الاعتباريّة وعلاقتها بالإدراكات الحقيقيّة ، ولقد خطا خطواته فى هذا الوادى مفكّراً مستنتجاً دون أيّة إشارة إلى آراء حكماء الغرب أو الاستعانة بها فى هذا المجال ، ويمكن العثور على بحثه التفصيلىّ بهذا الشأن فى المقالة السادسة من سلسلة مقالات فلسفيّة نُشرت بأجمعها تحت عنوان « أُصول فلسفة و روش رئاليسم » . [2]

هذا النوع من الإدراكات له اختلاف جوهرىّ مع الإدراكات الحقيقيّة ، فهى أفكار تنطبق على الواقع وحاكية عن صفات موجود واقعىّ وخارجىّ ، فلا هى تُستحدث وفق رغباتنا ولا تتغيّر بتغيّرها » . [3]

... وحين يكون الأمر كذلك وتوجد هذه الهوّة الواسعة التى لايمكن ملؤها بين الافكار التصوّريّة والافكار الحقيقيّة ، فإنّ علينا عندئذٍ أن لا ننتظر وجود ارتباط منطقىّ بين هذين النوعين من الاءدراك ، أو الوصول من أحدهما إلى الآخر. أو حسب التوضيح الوارد فى المقالة : ولانّ هذه الإدراكات والمعانى هى وليدة عوامل الإحساس ، فليس لها علاقة توليديّة مع الإدراكات والعلوم الحقيقيّة، وباصطلاح المنطق ، فلايمكن بالبرهان إثبات تصديق شعرىّ . وفى هذه الحالة ، فلن تصدق

---

١ ـ «دانش و أرزش» ص ٢٤٥ إلى ٢٥٧ و ٢٥٩ .

٢ ـ « أُصول فلسفة وروش رئاليسم » للسيّد محمّد حسين الطباطبائىّ ، تقديم وتعليق مرتضى المطهرىّ ، طهران ، ١٣٣٢ ، (التعليقة)

٣ ـ «دانش و أرزش» ، ص ٢٥٩ .

بعض أقسام المعانى الحقيقيّة فى مورد هذه المعانى الوهميّة ، مثل : بديهى ّ ونظرى ّ وضرورى ّ ومحال وممكن . [١]

وبعبارةٍ أُخرى : لا يمكن إثبات إدراك اعتبارى ّ من الادراكات الحقيقيّة ، ولا العكس ، ولا يمكن أيضاً الاعتماد على التشبيه لاثبات حكم حقيقى ّ.

وفى تصوّرنا فإنّ هذه النكتة عظيمة الاهمّيّة ، فهى تزيح الستار عن مغالطات ضخمة وواسعة كثيراً ما تستلفت النظر فى أغلب الاستدلالات المتسامحة، وخاصّة فى البحوث الاجتماعيّة والسياسيّة . [٢]

وبعد بحث التمثيلات والاستعارات ، وبيان الانفكاك المنطقى ّ بينها وبين الادراكات الحقيقيّة ، يصل البحث إلى « **الوجوب** » .

فمؤلّف «روش رئاليسم» (= المذهب الواقعى ّ) يعتقد أن لا بدّ لكلّ اعتبار من الانتهاء والختم بحقيقة معيّنة، وعلينا أن نبحث فى الحقائق عن أصل جميع التصوّرات . وعلى هذا ، فإنّ الوجوبات الاخلاقية (الاعتباريّة) تستمدّ نشأتها فى نظره من الوجوبات الحقيقيّة والفلسفيّة ؛ فإذا ما رأينا فى مكان ما وجوباً اعتباريّاً وأخلاقيّاً، فإنّ علينا أن نوقن بأ نّه يستند إلى وجوب وضرورة واقعيّة موجودة فى مكان آخر، فهذان الوجوبان مرتبطان يلد ثانيهما أوّلهما .

والضرورة الفلسفيّة هى الضرورة القائمة بين العلّة والمعلول ، فمع حضور العلّة التامّة فإنّ وجود المعلول سيصبح ضروريّاً لاتخلّف فيه. أمّا الضرورات الاخلاقيّة فتتجلّى فى الوجوبات الاخلاقيّة ، فهى توصى بشىء ما أو تحرّمه بصورة الامر والنهى . [٣]

---

١ ـ « أُصول وروش رئاليسم » ص ١٥٣ و ١٥٤ .

٢ ـ «دانش و أرزش»، ص ٢٥٩ و ٢٦٠ .

٣ ـ «دانش و أرزش» ص ٢٦٣ و ٢٦٤ .

وحسب نظر المقالة مورد البحث ـ أى المقالة السادسة من «أُصول فلسفه» ـ فإنّ الإنسان أيضاً(كسائر أنواع الموجودات الطبيعيّة التى تقوم بسلسلة من الاعمال فى داخلها مع الاتّصال بخارجها من شمس وهواء وأرض حفظاً على دوام معيشتها وبقاء حياتها) ، يتناول الطعام للوصول إلى الشبع ، لكنّه يعتبر الحصول على المال ضروريّاً للحصول على الطعام ، ويعتبر العمل ضروريّاً للحصول على المال، ويعتبر مراجعة أصحاب الاعمال ضروريّاً للعمل ، و... فهو لهذا يقرّر فى نفسه بوعى : يجب أن أذهب إلى صاحب العمل؛ و« يجب » هذه « التى هى إدراك ذهنى» واسطة لوصول الموجود الحىّ إلى هدفه (كالشبع مثلاً) ، وهكذا الامر بشأن أىّ هدف آخر وأىّ وجوب آخر .

وعليه فإنّ الاحتياجات الطبيعيّة لاعضائنا وقوانا ستوجد فينا وجوبات ـ بتوظيفها وعينا وشعورنا ـ ليمكن بمساعدتها تأمين احتياجاتها تلك .

إنّ العلاقة بين الغذاء والشبع علاقة جبريّة وضروريّة ، أى أنّ تناول الغذاء سيوجد تلقائيّاً وبحكم قانون العلّة والمعلول إحساس الشبع ، أمّا العلاقة بين الشبع ومراجعة صاحب العمل فليست علاقة جبريّة ، ولكن لانّ جهاز إدراكنا التابع لبنيتنا الطبيعيّة يميّز وجوباً جبريّاً بين الغذاء والشبع ، فهو يقوم بصياغة وجوب اعتبارىّ من هذه الملازمة الحقيقيّة (وهو لزوم مراجعة صاحب العمل)، ليردّ إيجاباً على إحساسه الباطنىّ وهو طلب الشبع .[1]

... وسنورد هنا جزءاً فقط من إيضاحات هذه المقالة حول اعتبار أساس الاستخدام :

نحن نقول إنّ الإنسان يريد الحصول على نفعه من الجميع تبعاً

١ ـ «دانش و أرزش» ص ٢٦٥.

لهداية الطبيعة والتكوين(اعتبار الاستخدام)، ويريد ـمن أجـل نفعـه ـ نفـعَ الجميـع (اعتبـار المجتمـع) ، ويريـد العـدل الاجتمـاعى ّلنفع الجميـع (اعتبـار حسن العدالـة وقبـح الظلـم) ، ونتيجـة للفطـرة الإنسـانيّة فـإنّ الحكـم الـذى يكوّنـه بإلهـام الطبيعـة والتكويـن يمثّـل حكمـاً عامّـاً لاينطـوى علـى حقـد خاصّ على الطبقة الراقية ، ولا عداء خاصّ مع الطبقـة السـفلى ، بـل إنّـه تبـع فى ذلـك طائعـاً حكـم الطبيعـة والتكويـن فى الاختـلاف الطبقى ّللقرائـح والاستعدادات ، وراغباً ـ تبعاً للأُسـس الثلاثـة المذكـورة ـ أن يحـل ّكـل ّ واحـد فى محلّه ومكانه المناسب .

فالهداية الطبيعيّة (الاحكام الفطريّـة) سـتتحدّد بالاعمـال الـتى تتوافـق مـع أشـكال وتركيبـات الاجـهزة البدنيّـة ، فنحـن مثـلاً لا نُجـيز لهـذه الجهـة إشباع الرغبات الجنسيّة عن غير طريق الزواج (كعلاقـة رجـل ورجـل ، امـرأة وامرأة، رجل وامرأة عن غير طريق الزواج، إنسـان مـع غـير الإنسـان، إنسـان مع نفسه ، التناسل عن غير طريق الزواج) .

ولـن نمتـدح التربيـة الاشـتراكيّة للاطفـال ، وإلغـاء النسـب والوراثـة ، وإبطـال العـرق والعنصـر؛ ذلـك لانّ النظـام المـرتبـط بـالزواج والتـربية لن يتلائم مع هذه الأُمور.[1]

كلّ ما تقدّم هو تمـام مـا أورده صـاحب كتـاب « دانـش و أرزش » فى بيان وشرح عبارات العلاّمة قـدّس اللـه سـرّه ، ثمّ يشـرع بعدهـا فى انتقادهـا والردّ عليها :

ومـع احترامنـا العميـق لحضـرة المؤلّـف المحـترم لهـذه المقالـة ، فإنّنـا لا نوافقـه علـى جميـع آرائـه فى مجـال الاعتبـارات الاخلاقيّـة ، فنحـن نعتقـد ـ كمـا سـنوضّـح ـ أ نّه لم يفرّق ـ كما يبـدو ـ بين نوعين مـن « الوجـوب » ،

١ـ (أُصول فلسفه) ، ص ١٩٩ و ٢٠٠ .

فوصل فى النهاية بسبب عدم التفكيك هذا إلى نوع من الاخلاق العلميّة المحضة .

ثمّ يقول بعد شرحٍ مختصر :

وأمّا الاستفادة الفلسفيّة والاخلاقيّة، فقد كان جميع سعى المقالة المذكورة هو إظهار أنّ كلّ « وجوب » معلول لاقتضاء القوى الفعّالة الطبيعيّة والتكوينيّة للإنسان، وحين يثبت هذا فكأنّما سيثبت تلقائيّاً أنّه يجب العمل بذلك « الوجوب » ؛ وبعبارة أُخرى أنّ « الوجوبات » التى تستمدّ نشأتها من مقتضى البنية الطبيعيّة هى « وجوبات » وأحكام طبيعيّة وفطريّة تحمل سند جوازها ووجوبها معها بلا حاجة إلى أىّ دليل وبرهان .

أى أنّه حالما يتّضح أنّ حكماً ما حكم فطرىّ ، فلن يمكن عندئذٍ السؤال عن حسنه وقبحه، لانّ أىّ حكم فطرىّ هو فى ذاته جيّد وحسن ، وهنا يكمن ـ حسب تصوّرنا ـ « الخَلْط » المدمّر.

ذلك لانّه لو افترضنا أنّنا حصلنا على مقتضى بنيتنا الطبيعيّة ـ أى على حكم فطرىّ ـ فيبقى مع ذلك السؤال مطروحاً: لماذا ينبغى العمل بمقتضى البنية الطبيعيّة ؟ ولِمَ تكون الاحكام الفطريّة واجبة وينبغى اتّباعها ؟ من أين يأتى ـ يا ترى ـ هذا الوجوب الثانى ؟

ويتّضح هنا أنّنا نملك نوعين من « الوجوب »، فإن لم يكن لدينا إيمان بـ« وجوب » ابتدائىّ وأساسىّ ، فإنّنا لن نتمكن من صنع أىّ وجوب أخلاقىّ آخر .[1]

... وأصعب من هذا وأعقد ، مسألة العثور على الاحكام الفطريّة، فحسب أىّ معيار وضابط يمكن القول إنّ حكماً ما فطرىّ أم لا ؟ وخاصّةً إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار مسألة تصاعد حياة الكائنات الحيّة واعتبارنا أنّها فى حالة تغيّر جسمىّ ونفسىّ دائم ، حيث سيصعب علينا بل سيستحيل

١ ـ «دانش و أرزش» ص ٢٦٧ .

التمييز بينها ومعرفة أىّ عضو فيها أساسىّ وأيّها غير أساسىّ، ومقتضى أىّ قوّة ينبغى أن نأخذ بنظر الاعتبار؟ وأيّها ينبغى اعتبارها فى طريقها إلى الزوال ؟ [١]

وتُظهر الاختلافات والنزاعات الحاصلة حول الاحكام الفطريّة، والمشاقّ العظيمة فى تعيين الحدّ والضابط للاحكام وإمكان الاستفادات غيرالصحيحة باسم الفطرة درجة التى سيكون عليها إصدار الحكم اعتماداً على مبانى الاحكام الفطريّة من الضعف والركاكة . [٢]

...ونكرّر قولنا السابق فى أنّ هناك مقابل كلّ واقع خارجىّ معيّن موقفَين ونوعَين من الخيار يمكن اتّخاذهما، رفضه أو قبوله ؛ وأنّ نفس الواقع الخارجىّ لا يعيّن مطلقاً نوع ذلك الخيار، خلافاً لوجهة نظر المؤلّف المحترم للمذهب الواقعىّ « روش رئاليسم » .

فوجود الاعضاء التناسليّة لدى الرجل والمرأة (بمثابة واقع معيّن) لايعيّن بنفسه وجوب زواجهما فقط ، أو ينفى إمكان مقاربة رجل لآخر، أو أنّ الحمل عن غير طريق الزواج أمر غير مقبول . فنفس ذلك الواقع الخارجىّ ليس هو المعيِّن لهذه الخيارات الاخلاقيّة ، ولهذا السبب لا يمكن تقبيح القرارات الاخلاقيّة المخالفة لها اعتماداً على مبنى مخالفتها للبنية الطبيعيّة للرجل والمرأة .

علىالرغم من أنّ خياراتنا الاخلاقيّة تعتمد على بنيتنا الطبيعيّة ومتعلّقة بشأنها ، لكنّها لا تستمدّ نشأتها منها مباشرة ، بل إنّ أساسها شىء آخر، وهى نابعة من مصدر نشأة « **الوجوبات** » .

فليس هناك علاقة بين الطبيعة والفضيلة ، ولا يمكن صنع ارتباط بين وجود شىء و انتخابه ، فإن اعتبرنا الطبيعة فى حالة تصاعد

١ ـ «دانش و أرزش» ص ٢٦٨ و ٢٦٩ .

٢ ـ «دانش و أرزش»، ص ٢٧٠ .

وجريان مستمرّ، وتصوّرنا أنّ العمل بحكم الطبيعة أمر مقبول وواجب، فيمكننا اعتبار أىّ عمل ما مُباحاً . [1]

... وينتج من الكلام السابق أنّه لا يمكن غضّ النظر عن فرض «**وجوب**» أصيل وابتدائىّ، وأنّ الاخلاق لها مبدأ منفصل فى النتيجة عن «**العلم**»، وأنّ«**الوجوبات**» لا يمكن إرجاعها فى أُصولها إلى « **الوجودات**»، وحتّى العمل بالاحكام الفطريّة يمكن عدّه واجباً حين يكون لدينا مسبقاً أساس آخر يقول بوجوب العمل بمقتضى الفطرة والخلقة، أى أنّ انتخاب الاحكام الفطريّة ورفض الاحكام غير الفطريّة(**الوجوبات الاعتباريّة فى اصطلاح المقالة السادسة للمذهب الواقعىّ = روش رئاليسم**) هو نفسه محكوم لـ« وجوب » اعتبارىّ أوّلىّ لا يمكن توجيهه وتعليله على أساس الفطرة ومبناها ، وما لم‌يكن لدينا ذلك الوجوب ، فإنّها هى الأُخرى لن تكتسب القاطعيّة والالزام من كونها فطريّة . [2]

كان هذا خلاصة كلام صاحب مقالة « بسط وقبض تئوريك شريعت » فى كتاب«دانش و أرزش» رداً علىكلام الأُستاذ العلاّمة آية الله الطباطبائىّ قدّس‌الله سرّه، فى عدم انتزاع الاعتباريّات من الحقائق الخارجيّة وضرورة الفصل والتفكيك بين لفظ «وجوب» و لفظ «وجود»؛ ومع أ نّنا أوردناه بإيجاز واختصار، إلاّ أ نّه مع ذلك قد حوى قدراً من الشرح والتفصيل لإيضاح جوانب الإشكال ، ولئلاّ يكون هناك قصور فى تقريره وبيانه .

وأمّا كلامنا فى هذا الشأن فهو أنّ صاحب المقالة المحترم لم‌يدرك أبداً مقولة العلاّمة فى « أُصول فلسفه وروش رئاليسم » ولم يصل إلى كُنه كلامه وقصده ، فلم يشخّص أساساً حقيقة المعنى الاعتبارىّ من الحقيقىّ ،

١ ـ «دانش و أرزش» ص ٢٧٠ و ٢٧١.
٢ ـ «دانش و أرزش» ص ٢٧١.

ثمّ تصدّى ـ فى كتابه الذى لم يضمّ على ضخامته إلاّ القليل من المطالب ـ للانتقاد والردّ على كلام العلاّمة فى المقالة السادسة بشأن الإدراكات الاعتباريّة ، فخبط خبط عشواء .

ونرى أنفسنا مجبرين؛ فى بياننا لمواقع الخطأ ومواضع الانحراف ؛ على إيراد بحث عن الاعتباريّات وانتهائها بالحقائق، لتتّضح متانة ورسوخ كلام الأُستاذ العلاّمة وتفاهة وضحالة رأى المنتقد .

فالحقائق عبارة عن الواقعيّات الموجودة فى الخارج ، بما فيها المادّيّات والطبيعيّات والموجودات الملكوتيّة المجرّدة، بما فيها من العلوم والمعارف الذهنيّة التى لم تتحقّق على أساس فرض فارض واعتبار معتبر .

أمّا الاعتباريّات فعبارة عن الاشياء التى محلّها وموقعها الذهن فقط ، والمتحقّقة على أساس فرض فارض ، بالشكل الذى تدور وجوداً وعدماً مدار الفرض والاعتبار، فهى تكتسب تحقّقها الاعتبارى ّبمجرّد الاعتبار، وينتفى عنها أى تحقّق بمجرّد رفع اليد عن الاعتبار أو نقضه .

وبالطبع فإنّ لدينا قسماً ثالثاً غير هذين القسمين وهو الانتزاعيّات، وهذه ليست من الحقائق ولا من الاعتباريّات، بل تنشأ بواسطة انتزاع الذهن من الحقائق الخارجيّة ، فلا تحقّق لها فى الخارج أبداً ، وكلّ ما هناك أنّ محلّها ومورد انتزاعها فى الخارج ، كما فى الفوقيّة و التحتيّة .

فعنوان الفوقيّة ، كفوقيّة سطح البيت ـ مثلاً ـ نسبة إلى ساحته ليست شيئاً غير ذات السطح ، فنحن لا نجد شيئاً غير نفس السطح ، وغير سقف الغرفة الذى يعلوها باسم فوق، فما هناك هو نفس السطح، لكنّ ذهننا ينتزع من النسبة الخارجيّة بين سقف الغرفة وأرضيّتها عنواناً ندعوه بـ فوق .

وهذا العنوان محلّه الذهن لا الخارج ، ومبدأ انتزاعه فى الخارج ، وهو

ليس أمراً اعتباريّـاً ، لانّ فوقيّـة السـقف نسـبة إلى الارض غـير قائمـة باعتبـار الشخص المعتبر، فالسقف يعلو سطح الغرفة شئنا أم أبينا.

ونغـضّ الطـرف عـن شـرح وتفصيـل الأُمـور الانتزاعيّـة باعتبارهـا لا ترتبـط فعـلاً بموضـوع بحثنـا الحـالىّ ، ونقصـر الكـلام علـى الحقـائق والاعتباريّات .

إنّ الاعتباريّات باعتبارها من صنع الذهـن وصياغتـه ، فـلا بـدّ لحصولهـا من وساطة قوى الاءدراك، سـواء القـوى الوهميّـة والخياليّـة والفكريّـة، وبعبـارة أوجـز: العقـل النظـرىّ ، أم النفـس الناطقـة والنـور المجـرّد للـروح الإنسـانيّة التى نعبّر عنـها بـالعقل البسـيط والملكـوت الاعلـى والناطقـة القدسـيّة والكلمـة الإلهيّة .

ومـع أنّ قيـام الاعتباريّـات وقوامـها فى الذهـن ، وأنّ قيامـها باعتبـار المعتـبر، إلاّ أنّـها فى نهايـة المتانـة والاءتقـان، وكثـيراً مـا تكـون بنفسـها منشـأ ومبـدأ لحقـائق كثـيرة فى الخـارج ، فطباعـة أوراق العملـة النقديّـة مثـلاً جعـل القيم المختلفـة لهـا أمـر اعتبـارىّ يرتبط بقـرار خزانـة الدولـة ورئيـس الأُمـور الماليّـة ، حيـث يصـدران الامـر بطباعـة الاوراق النقديّـة وعرضـها بقيـم مختلفة .

فتكون هذه الاوراق النقديّـة معتـبرة مـا دام إمضـاء المسـؤول والشـخص المعتبر وإقراره لهـا باقيـاً ، لكنّـها تسـقط عـن الاعتبـار بمجـرّد سـحب الرئيـس المسـؤول ومسـؤول الخزانـة إمضائـهما أو إصدارهمـا قـراراً بإلغائـها ، فتصبـح أكـداس الاوراق النقديّـة الثمينـة حينـذاك بـلا قيمـة ، ويـؤول مصيرهـا إلى الإحراق فى المدفأة أو ما إلى ذلك من الاستعمالات .

ولا يخضـع اعتبـار الرئيـس المسـؤول لهـا ، وطبعـها، ومقـدار المطبـوع منهـا ، وتعيين قيمتهـا ، ومـدّة اعتبـارها ، وطـرحها للتـداول داخل الدولة أو فى

الداخل والخارج ، للفوضى أو المزاجيّة ؛ إذ لا بّد من حساب دقيق لتقدير ثروة المملكة من الذهب والفضّة الموجودة فى الخزينة أو ضمن أموال الدولة، وقيم المعادن المستخرجة، أو محصول اللؤلؤ المستخرج من البحر، والاراضى الزراعيّة والبساتين، أو العمل والجهود اليدويّة للعمال والفلاحين، وكلّ ما يصدق عليه عنوان المال ويمكن حسابه فى هيئة العملة الصعبة، وبعد الحساب الدقيق لقيمة العملة الصعبة وأسعار البضائع والذهب والفضّة الخارجيّة وملاحظة العوامل المهمّة الأُخرى، كميزان الثروة والنقد عند الشعب، يقومون بتبديل ذلك المال فى المعاملة إلى أوراق رسميّة معتبرة ويدعونها بأوراق العملة الماليّة ، تسهيلاً للحمل والنقل ، وحفظاً للذهب والفضّة ، ولجهات أُخرى غيرها .

وهذا الحساب من الدقّة والصحّة بالقدر الذى يحدّد الشخص المعتبر والمعيِّن لقيم وأسعار الاوراق النقديّة بضرورات المحاسبة الاقتصاديّةَ ، بحيث إنّه لا يجرؤ على طباعة وعرض ورقة نقديّة بقيمة خمسة تومانات أكثر أو أقلّ من المطلوب ، وفى حالة ثبوت هذا الامر فإنّه سيحاكم على مخالفته هذه عند الحاكم والقاضى المسؤول . وللصكوك والكمبيالات أيضاً نفس هذا الامر الاعتبارىّ .

والطوابع البريديّة لها أيضاً نفس الشأن، فدائرة البريد تعمد لسهولة استلام النقود من الناس مقابل التزامها بإيصال رسائلهم وأماناتهم إلى مقاصدها ـ إلى طباعة طوابع تُلصق على الشىء المرسَل بما يتناسب مع وزنه وبُعد مقصده وكونه من المطبوعات أو غيرها، فتقبل هذه الطوابع بمثابة إيصالات نقديّة . ثمّ تقوم هذه الدائرة ـ لتغطية ميزانيّتها الكلّيّة ورواتب موظّفيهاوعمّالها وأُجور وسائل الحمل والنقل على اختلافها من الطائرة والسفينة والسيّارة والدرّاجة الناريّة والدرّاجة الهوائيّة وفى بعض القرى من الحمار

والحيوانات المستعملة للنقل- بحساب هذه الأُمور وتقسم مجموعها على جملة المحمولات، فتصدر طوابع بريديّة للنقل داخل المدينة بقيمة ريال واحد مثلاً ، وللنقل إلى المدن الأُخرى بقيمة خمسة ريالات وإلى خارج الدولة بأكثر من ذلك، وتقوم بتعيين واعتبار وتثبيت هذه الاسعار وتطبع الطوابع تبعاً لذلك وتبيعها .

وحين تستلم دائرة البريد الطرود وتقوم بنقلها حسب تعهّدها والتزامها ، فإنّها تختم عليها بختم البطلان، أى أ نّها تُسقط تلك الطوابع من درجة الاعتبار وتُلغى اعتبارها منها ، لانّ التزام دائرة البريد وتعهّدها كان فقط إيصال تلك الطرود إلى مقاصدها ، وستصبح فى هذه الحال تلك الطوابع البريديّة حينذاك قيمتها، فتستخدم لمعرفة تأريخ واسم وصفات السلاطين المتوفّين ؛ وتُجمع فى دفاتر ومجاميع تثير الاعتبار والاتّعاظ ، أو تُلقى مع المهملات فى صندوق النفايات .

لقد كان الاعتبار ومدّة الاعتبار وزمانه وكيفيّته وقيمته محدودة ومشروطة ، وحين يُختم عليها بختم البطلان فإنّها ستبطل جميعاً وتنهار دفعة واحدة ، وليس فى هذا الامر استبداد ولا إعمال للرأى الشخصى ّلمرئيس دائرة البريد فى هذه الاعتبارات، لا بلحاظ القيمة ولابلحاظ مدّة الاعتبار ، فهم يمتلكون حقّ طبع وبيع وتعيين قيم هذه الطوابع ضمن دائرة محدّدة مرتبطة بمصالح الدولة ونفقات دائرة البريد ، ومع أنّ جميع أعمالهم هذه اعتبار محض ، إلاّ أنّه ليس اعتباراً جزافيّاً ، لانّهم بحكم عقلهم ودرايتهم وحسن إدارتهم وصدقهم وأمانتهم ، لايملكون أن يطبعوا يوماً ما ولمرّة واحدة طابعاً واحداً بقيمة ريال واحد ويقوموا باعتباره من غير داعٍ وسبب ، وهم كذلك غير قادرين حتّى فى مورد واحد أن يقوموا بإبطال طابع واحد بقيمة ريال واحد وإسقاطه من الاعتبار والختم عليه بالبطلان من غير داعٍ

وسبب .

ولقد عمل آية الله العلاّمة الطباطبائى قدّس الله سرّه فى المقالة السادسة من « أُصول فلسفه » التى بحث فيها فى ثلاثين مسألة بشأن الاعتباريّات، على تشخيص محلّ وموضع الحقائق التى هى أُمور واقعيّة وحقيقيّة ، وعيّن كذلك محلّ وموطن الاعتباريّات تبعاً لجعل وضع الشخص المعتبر فى الذهن ، وأوضح كالشمس أمر عدم ولادة العلوم الاعتباريّة من العلوم الحقيقيّة ، وفصل جميع موارد « **الوجوبات** » عن « **الوجودات** » ؛ لكنّه بيّن أنّ هناك رابطة وعلاقة بين الاعتباريّات والحقائق فى موردَين :

المورد الاوّل : قيام المعانى الوهميّة بالمعانى الحقيقيّة ؛ وكانت عبارته :

أنّ كلاّ من هذه المعانى الوهميّة قائمة على حقيقة معيّنة، أى أنّنا حين نضع أىّ حداً وهميّاً إلى مصداق ما، فإنّ له مصداقاً حقيقيّاً آخر ينشأ منه ، فلو اعتبرنا مثلاً إنساناً ما كالاسد ، فإنّ هناك أسداً حقيقيّاً أيضاً يرجع إليه حدّ ذلك الاسد . [1]

وهذه المقولة متينة جداً ، لانّ هذا الامر الاعتبارى القائم بالقوى الوهميّة والخياليّة إن استند إلى أمر حقيقىّ فإن ذلك سيثبت مطلوبنا ومرادنا ، أمّا إن استند إلى أمر وهمى وخيالى آخر فإنّه يستلزم الدور والتسلسل ، وسيفتقد معناه بغير ذلك القيام ، لانّ الصور المنطبعة فى النفس هى إمّا من الخارج أو من الذهن ، والاخيرة أيضاً تحقّقت سابقاً بانعكاس صورة خارجيّة .

---

١ ـ «أُصول فلسفه» ج ٢، ص ١٥١.

ومن هنا تصحّ قاعدة : **كُلُّ مَا بِالعَرَضِ لاَبُدَّو اَنْ يَنْتَهِى إلَى مَا بِالذَّاتِ** . وقاعدة : **لِكُلِّ مَجَازٍ حَقِيقَةٌ** .

ذلك لانّ فرض موجودٍ عرضىّ قائم بذاته بدون فرض الذات محال، وفرض استعمال المجاز ـ وهو الخروج من دائرة الاستعمال الحقيقىّ ـ بدون فرض وجود الحقيقة محال أيضاً .

وقد بيّن الاساتذة العظام فى أُصول الفقه هذا البحث بالتفصيل ، وأوضحوا أنّ الإنشاء ـ فى مقابل الإخبار ـ عبارة عن الإيجاد والإبداع والخلق فى عالم الذهن ، فكما أ نّنا نستطيع فى بعض الموارد إيجاد شىء فى الخارج ومنحه لباس الوجود والتحقّق ، فكذلك يمكننا إنشاء وإيجاد عين ذلك الامر الخارجىّ فى الذهن ، والحكم القطعىّ بوجوده فى الخارج . فمعنى قول البائع فى المعاملات : بعتك هذا بالمبلغ الفلانىّ : أنّنى نقلتُ إليك هذا الشىء فى عالم الاعتبار وملّكتك إيّاه مقابل انتقال المبلغ الفلانىّ فى هذا الاعتبار والإنشاء إلى ملكى وحيازتى .

لكأنّ هذا النقل والتحويل قد حصل فى الخارج وكأنّنى قد أوجدتُ هذا الامر الخارجىّ فى عالم ذهنى واعتبارى ، وقد ارتضى العقل والشرع هذا الاعتبار، أى التحقّق الخارجىّ فى عالم الوهم والخيال .

وفى صيغة النكاح حين تقول المرأة للرجل : أَنْكَحْتُكَ نَفْسِى ، فإنّ ذلك يعنى فى عالم الاعتبار أ نّها جعلت نفسها فى الخارج فراشاً له ودعته إلى نكاحها ووطئها ! والرجل حين يقبل بهذا القول فهو إنّما يقبل هذا المعنى .

وبهذه الصيغة يتحقّق النكاح الخارجىّ، لا النكاح الذهنىّ والتخيّلىّ، وعليه فإنّ إنشاء صيغة النكاح هى أمر اعتبارىّ، وهو اعتبار يصنعه الذهن لما فى الخارج ، فالمرأة تجعل نفسها فى عالم الاعتبار حقيقة وفعلاً موطوءة

للرجل فى الخارج، وينبغى عند إجراء صيغة النكاح الالتفات إلى هذا المعنى ، لانّ النكاح هو بمعنى الوطء لا بمعنى العقد .

والامر كذلك بالنسبة إلى الحاكم الشرعىّ الذى يحكم أحياناً بدخول الشهر بالرغم من عدم رؤيته لهلال أوّل الشهر ومع وجود الشكّ لديه، لكنّه يحكم بذلك استناداً إلى القرائن الخارجيّة أو لشهادة رجلَين عادلَين.

ومعنى ذلك قوله : إنّى أجعل وأخلق فى عالم اعتبارىّ وإنشائىّ هلالاً فى أُفق السماء ؛ وبالطبع فهو غير الخلق الخارجىّ الحقيقىّ الذى من الواضح أنّه أمر يفوق قدرته ، وغير خلقه إيّاه فى عالم نفسه وذهنه ، لانّ رؤية الهلال الذهنىّ لا توجب دخول أوّل الشهر، بل هو هلال خارجىّ حقيقىّ، كلّ ما فى الامر أ نّه فى عالم الذهن والاعتبار، وهو معنى حكم الحاكم برؤية الهلال وبدخول الشهر.

وباعتبار إمضاء الشرع المقدّس لهذا الحكم فإنّ حكم الحاكم برؤية الهلال بمثابة ومنزلة الرؤية الخارجيّة للهلال ، وقائم مقامها وحائز منزلتها ورتبتها .

وهذه المسألة دقيقة جدّاً ، حيث إنّ الإنشاءات والاعتبارات فى خصوص الذهن لا أثر خارجىّ لها ، وهذه الاُمور لا تتحقّق فى الخارج ، فمحلّها إذَنْ فى الذهن مع الحكم بتحقّقها فى الخارج . وجميع الاُمور الاعتباريّة التكليفيّة من وجوب واستحباب وتحريم ، والاُمور الوضعيّة مثل الضمان والصحّة والفساد هى من هذا القبيل ، حيث إنّ اعتبار هذه المعانى بدون وجود حقيقتها فى الخارج سيكون بلامعنى.

المورد الثانى : تأثير الحقائق الخارجيّة فى إيجاد المعانى الاعتباريّة الذهنيّة، وهذه المسألة أيضاً قد أثبت العلاّمة تحقّقها بوضوح .

ومع أنّ الحقائق الخارجيّة التى يعبّر عنها بالمسائل العلميّة والتى

تتّخذ لنفسها عنوان الوجود، هى غير المسائل الاعتباريّة التى يعبّر عنها بعنوان الوجوب، وأنّ المسائل العلميّة والحقائق الخارجيّة لا تقع بأىّ وجه من الوجوه فى طريق ولادة المسائل الاعتباريّة، فلا يمكن بألف مسألة علميّة استخراج أمر اعتبارىّ واحد بصورة البرهان ، لكنّ مسائل العلم تقع فى طريق الاستنتاج وفى طريق الحصول على الحكم الاعتبارىّ .

فبعد اطّلاع نفس الإنسان على المسائل العلميّة فإنّه يجعلها دوماً صغرى البرهان ، ثمّ يضع حكماً عقليّاً يرتّبه بنفسه بعنوان كبرى المسألة ، فيشكّل منهما برهاناً صحيحاً ويصل إلى النتيجة المطلوبة .

فالصغرى مثل: تناول السمّ موجب لزوال الحياة؛ والكبرى مثل : كلّما أوجب زوال الحياة يجب اجتنابه . ونتيجتهما: أنّ تناول السمّ لازم الاجتناب .

مقدّم چون پدر ، تالى چو مادر

نتيجه هست فرزند اى برادر[1]

وما ذكره العلاّمة هو أنّ الاعتباريّات لا تولد من الحقائق ، لا أنّ الحقائق لا يمكن الاستفادة منها فى استنتاج برهان معيّن بأن توضع كمقدمة له .

وبالطبع فإنّ البرهان الذى يشكّل أحد مقدّماته أمر اعتبارىّ ، سيكون اعتباريّاً أيضاً بلحاظ أنّ النتيجة تابعة لاخسّ المقدّمتَين .

فلا يمكن الاستعانة بالمقدّمات الاعتباريّة ـ سواء فى الصغرى أم فى الكبرى ـ لاستنتاج مسألة فلسفيّة وعلميّة ، وممّا لا شكّ فيه انّه يمكن استنتاج أمر اعتبارىّ بطريقة البرهان من مقدّمات فلسفيّة وعلميّة مقدّمتها

١ ـ يقول :« المقدّم (فى القياس) كالاب ، والتالى كالأُمّ ، والنتيجة أيّها الاخ هى الولد » .

الأخرى أمر اعتبارىّ ، وهناك مسألة من المسائل العلميّة كمقدّمة للبرهان فعلاً فى الكثير من نتائج الأُمور الاعتباريّة والاحكام والقوانين .

فمقولة العلاّمة الطباطبائى ّفى أنّ الاحكام الفطريّة عبارة عن الاحكام التى أودعها نظام الخلقة والطبيعة فى طينة الإنسان ، فهى التى تيسّر أُسلوب حركة الإنسان فى سيره فى مدارجه الكماليّة ، هى من أعلى المقولات و أكثرها منطقيّة . لانّ الفطرة والطينة ـ كما سيأتى تفصيله ـ عبارة عن البنية الوجوديّة الماديّة والمعنويّة وتجهيز القوى والاستعدادات لمنح الفعّاليّة للنفس المبهمة والهيولى المستعدّة والمحضة للوصول إلى غاية الخلقة والقصد من الايجاد .

فالاطّلاع على هذه التجهيزات والأُمور الطبيعيّة هو من المسائل العلميّة التى يتوصّل إليها الفرد بواسطة العلم ، وحكم العقل بوجوب استخدامها هو حكم اعتبارى ّنتيجته وجوب إعمال القوى الماديّة والطبيعيّة والروحيّة فى مجرى الخلقة ومسار الحياة .

لا نقرّ باعتباريّة مسائل العلم ، كما لا نضع الأُمور الاعتباريّة محلّ مسائل العلم أبداً ، فلكلٍّ منهما مقامه ومكانه الخاصّ ، لكنّنا نقول ونؤكّد كثيراً على أنّنا لا نمتلك ـ غير حكم العقل ـ طريقاً لاستخدام المعلومات والغرائز والمسائل الفطريّة . فهو الحكم الذى تجعله النفس وتعتبره للمسائل المستحصلة عن طريق العلم ، لا أن تكون المعلومات الفطريّة والغرائز بنفسها علّة تامّة للعمل، أو أن يكون مجرّد عنوان الفطرة ونظام الطبيعة كافياً لوحده للعمل ، بل حين تتعرّف النفس الإنسانيّة على مسائل العلم بشأن الفطرة ، فإنّها تقوم بإصدار حكم عقلى ّبوجوب اتّباعها والسير على نهجها .

وقد أشار العلاّمة بوضوح إلى هذه المرحلة فى أنّ عمل الطبيعة

والفطـرة لا يكفـى لوحـده فى اسـتخدامها ، بـل ينبغـى ضـمّ الاختيـار والارادة لذلك، فإن نحن أوكلنا الزمام عند ذلك بيَدِ العقل النظرى ّوالشـعور الإنسـانى ّالذى تشـاركنا فيـه الحيوانـات فى كثـير مـنَ الجـهات، فـإنّ هنـاك احتمـالاً كبـيراً فى انحراف سـعى الإنسـان عـن طريـق الفطـرة ونهجـها، أمّـا إن أعطينـا الزمـام بيَدِ العقل الإنسانى ّمِنْ حَيْثُ هُوَ إنسَانٌ ، فإنّنا نضـمن تحـقّق الحـكم الفطـرى ّوَقيام العقل باسـتخدام هـذه الاجـهزة للوصـول إلى كمـال الإنسـانيّة، وحينـذاك سـيقع حكـم العقـل موافقـاً لمسـائل الفطـرة وتجـهيزات الخلقـة ، وهـو معـنى : **فِطْرَتَ اللَهَ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** . [1]

ولوكـانت الغرائـز والفطـرة ومسـائل الطبيعـة كافيـة لوحدهـا للعمـل ، فعلامَ سنحمل هذه الانحرافات والاخطاء ؟

أمّا قولكم إنّ هـذه الوجوبـات تحتـاج إلى وجـوب ابتدائى ّترجـع إليـه ، فقول صائب نؤيّـده ونوافق عليه، لكنّ هذا الوجـوب الابتـدائى ّليـس إلاّ حكـم العقل المسـتقلّ الإنسـانى ّ المـنزّه عـن شـوائب الاوهـام والوسـاوس ، ولايمكـن أن يكون شيئاً آخر غيره ، فإنّ لم يكـن هـذا العقـل فى الإنسـان، لاصبـح الامـر فى : **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا** ، [2] لغواً لا فائدة فيه .

فهذا العقل هو الذَى يصوغ من الإنسـان إنسـاناً ، وبـه عـرّف اللـه نفسـه بواسطة لسان الباطن و لسان الانبياء ، وهو الـذى يقـول : ينبغـى لهـذا الوجـوب الابتدائى ّأن يكون حكم العقـل وليـس حكـم البـارى الموجّـه إلى النفـس الـتى تفتقد العقل والتى لا ينفع معها ألف وجوب ووجوب .

لطـالما قلنـا ، ونقـول : إنّ مسـائل الفطـرة تحتـاج فى سـنّة التكـوين إلى

---

١ ـ قسم من الآية ٣٠، من السورة ٣٠: الروم.

٢ ـ صدر الآية ٣٠، من السورة ٣٠: الروم.

وجوب لنقلها إلى حيّز العمل ، وينبغى أن يكون ذلك الوجوب أبداً من نتاج العقل وملازماً لانسانيّة الإنسان . فهل تعرفون مبدأ ومنشأ غير هذا الوجوب العقلىّ؟ هاتوه وأرونا إيّاه فنحن فى الانتظار!

ويتّضح من هذا الكلام أنّ حكم المعترض بهذه العبارة :

ونقول هنا: إنّه لا يمكن بألف برهان عقلىّ تشكّل مقدّماته الادراكات الحقيقيّة «وجود» و«عدم» من إثبات حُسن شيء أو قبحه ، ولا إثبات ملكيّتنا لشيء ما ، ولا الدلالة بحكم العقل على رئاستنا لجماعة ما ؛ فالذين يسعون عبثاً ليثبتوا بالبرهان للآخرين أنّ فعل العمل الفلانىّ حسن أو قبيح ، إنّما يسيرون فى متاهة ويحاولون عبثاً» .[1]

هو حكم واهٍ وليس أكثر من مغالطة وسفسطة ، وذلك من خلال اعترافكم بالقول : بالبرهان العقلىّ! ولو وصلت النوبة إلى البرهان العقلىّ لصارت جميع المطالب ثابتة راسخة . وإنّ جميع نبوّة الانبياء وحجّيّة القرآن وتوحيد الربّ جلّ وعلا إنّما تعتمد على العقل. ولو فُرض زوال حجّيّة البرهان العقلىّ، فسينهار الصرح الشامخ للعلم والمعرفة تبعاً له وسيصبح العالم داراً للمجانين ومجمعاً لشملهم .

فلو كنتم تدرسون فى كلّيّة جميع معلّميها ومدرّسيها مجانين لاعقل لهم ، فهل تعلمون أىّ بلاءٍ كان سيحلّ بكم ، مهما كانت جميع الكتب النفيسة والخطّيّة والقديمة الموجودة فيها فى أعلى درجات الاتقان ؟

وعليه، فلا مفرّ لتركيب القياس البرهانىّ والاستثنائىّ لأحكام الصواب والخطأ والمحاسن والقبائح غير استخدام جميع العلوم بعنوان صغرى القياس ، وجعل حكم العقل عموماً بعنوان كبرى القياس،و أخيراً

١ ـ كتاب «دانش و أرزش» ص ٢٧٥.

استحصال النتيجة المطلوبة؛ والامر كذلك فى القياسات الاستثنائيّة .

أمّا ما نُقل عن هيوم فهو أمر ضعيف جدّاً ولا يمكن مقارنته بالتحقيقات الرائعة للعلاّمة قدّس سرّه .

لقد كان أقصى وسع جى اى مور ونهاية إدراكه أن يفهم أنّ معنى الحسن بسيط لا يتجزّ أ، وكان هذا من العجب العجاب !!

وكان من الحرى بهم أن يسألوا أحد طلبتنا المبتدئين فى مستوى « الحاشية » عن ذلك ليبيّن لهم بسهولة أنّ الجيّد والسيّى، والحسن والقبح ، وكثير من الكلمات عامّة البلوى، كالعامّ والخاصّ، والمطلق والمقيّد ، باعتبارها بسيطة وخالية فى جوهرها من التركيب، فتعريفها بتعريف شامل للحدّ والرسم ، تامّاً كان أو ناقصاً أمرٌ محال ، ولهذا فإنّ جميع التعريفات التى أُعطيت لها كانت من باب شرح الاسم .

التنبيه السادس : لقد أراد صاحب مقالة « بسط وقبض تئوريك شريعت » فى الفصل الرابع من كتابه « دانش و أرزش »؛ بعد قيامه فى الفصول السابقة ـ حسب نظره ـ بإثبات عدم إمكان تشكيل برهان عقلىّ فى مسائل الحسن والقبح، والقيم، والجودة والرداءة، وبشكل عامّ فى جميع الاعتباريّات، متصوّراً أنّه قد صنع هوّة أبديّة تفصل بين الواقعيّة والاخلاق ،[1] أن يُشير إلى الوجوب الاوّلىّ الذى يمثّل أساس باقى الوجوبات؛ وباعتبار أنّه قد فسّر أوّلاً آية الفطرة المباركة بأُسلوبٍ خاصّ لا ينطبق على حقيقة الامر، ولادّعائه ثانياً أنّ الوجوبات فى القرآن الكريم غير مستفادة من مسائل الطبيعة والفطرة ، ولم تعتمد أيّاً من أيّاً من أحكام هذا الكتاب السماوىّ المقدّس يقوم على أساس المسائل العلميّة والواقعيّة ،

١ ـ كتاب «دانش و أرزش» ص ٢٨٩.

ولم يستخدم الحقائق كجزء للبرهان العقلى ّالمنطقى ّمن أجل استنتاج أحكامه التى يصدرها ؛ فإنّنا نجد أنفسنا مجبرين على تقديم بحث مختصر بشأن هذين الموضوعَين :

أمّا بشأن آية الفطرة :

بَل اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُو ا أَهْوَآءَهُمْ بغَيْر عِلْم فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ* فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّين حَنيفًا فِطْرَتَ اللَهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْق اللَهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنيبينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .[١]

فقد أكدّت هذه الآية صراحة على لزوم متابعة الفطرة الإنسانيّة ، لكنّ كاتب المقالة قال أوّلاً على أساس عدم استخدام حكم العقل فى طريق انتاج قياس الاحكام الفطريّة :

إنّ هناك فاصلاً بين قضية: أنّ الفطرة تدعو إلى شيء معيّن : (خبر) وقضيّة : يجب اتّباع ما تدعو الفطرة إليه: (أمر) ، هو بقدر الفاصل بين العلم والقيم ، وإنّ صنع جسر للعبور من أحدهما إلى الآخر هو ذلك الخطأ الخالد لجميع أنواع الاخلاق العلميّة . وبهذا اللحاظ فحتّى لو كانت الفطرة البشريّة داعية إلى الدين ومجبولة على التوحيد ، فلايكفى ذلك لوحده فى الدلالة على وجوب الاتّجاه للدين أو اتّباع التوحيد .

ولو صحّ احتواء الآية المذكورة على أمر كهذا مبتن على هذا الاستنتاج ، لصحّ كلام الذين ينظرون من منظار الاخلاقً العلميّة ، والحاملين فى قلوبهم وسوسة الاعتبار الحقيقى ّ؛ ولكن يجب القول

١ ـ الآيات ٢٩ إلى ٣٢، من السورة ٣٠: الروم.

إنصافاً بأنّ ذلك ليس صحيحاً .[1]

و ثانياً أخذه كلمة الفطرة فى الآية المباركة حسب احتمال الفخر الرازىّ والشيخ الطوسىّ ـ خلافاً لاكثر المفسّرين ـ بمعنى الدين والمنهج ، لئلاّ تدلّ على لزوم متابعة الفطرة الاوّليّة والخلقة والبنية الطبيعيّة للانسان .

... ولا شأن لنا بالجدال حول الاحتياجات والدوافع الفطريّة الإنسانيّة ، ولا ننكر أنّ الفطرة الإنسانيّة حسب التعليمات الاسلاميّة داعية إلى الخالق ، لكنّ ما نقوله إنّه لا يمكن القول : لانّ الله متبوع ومطلوب ، إذاً يجب طلب الله ؛ فهذا الاستنتاج الاخير هو الخاطى بنظرنا منطقيّاً .[2]

وجوابنا على المطلب الاوّل هو نفس كلامنا السابق من أنّ العقل يحكم بضرورة متابعة الفطرة ، لا أن تكون الفطرة بنفسها محرّكة للانسان ، وإلاّ لما تعلّق به الامر والتكليف . فالطبيعة والفطرة هنا(أى العلم) ليست واسطة لنشوء القيم والاعتبار، ولم تُتّخذ جسراً لذلك ؛ بل إنّ حكم العقل المستقلّ الناجم عن القياس المنطقىّ هو المشير بضرورة متابعة هذا العلم، والموجب بالبرهان القطعىّ إلى لزوم متابعة الفطرة، فهذه ليست ولادة الاخلاق والاعتبار من العلم، بل إنشاء حكم النفس بلزوم متابعة مسائل العلم .

وأمّا جوابنا على المطلب الثانى، أى تفسير آية الفطرة المباركة فمُبتن على علمنا بأنّ معنى الفطرة من مادّة فَطَرَ التى استخدمت كراراً فى القرآن الكريم ، مثل : فَطَرَهُنَّ[3] ـ فَطَرَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ[4] ـ السَّمَآءُ

---

١ ـ «دانش و أرزش»(= العلم والقيم) ص ٣٢٠.

٢ ـ «دانش و أرزش» ص ٣٢١.

٣ ـ فى الآية ٥٦، من السورة ٢١: الانبياء.

٤ ـ قسم من الآية ٧٩، من السورة ٦: الانعام.

مُنفَطِرٌ بِهِ [١] ـ إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ . [٢]

فهى تعنى فى جميع هذه الموارد الابداع والخلق بلا مثيل سابق .

و أمّا صيغة الفِطْرَة على وزن فِعْلَة فتدلّ على النوع، مثل جلْسَة، أى الكيفيّة الخاصّة للجلوس، لانّ هذا الوزن يستخدم فى العربيّة فى بيان النوع والهيئة ؛ كأن تقول : جَلَسْتُ جلْسَةَ زَيْدٍ .

وعليه، فيصبح معنى الفطرة فى الآية: فِطْرَتَ اللَهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا: ذلك النمط الخاصّ من الخلقة الذى خلق الله الإنسان عليه ؛ وهى تلك الخصائص والآثار التى لا تنفكّ عن الإنسان، فقد خلق الله الإنسان مع تلك الخواصّ والخصائص والسجايا الاخلاقيّة والهداية للتكامل الخاصّ ، ولم يكن خلقه ذاك خلقاً مجرّداً ، بل ابتداعاً وإيجاداً وتصويراً على غير مثال سابق وشبيه .

يقول ابن الاثير : جاء فى رواية عن ابن عبّاس : قَالَ : مَا كُنْتُ أَدْرِى مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ ، حَتَّى احْتَكَمَ إِلَىَّ أَعْرَابِيَّان [٣] فِى بِئْرٍ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمَا : أَنَا فَطَرْتُهَا .أَ ى ْ ابْتَدَأْتُ حَفْرَهَا . [٤]

لقد كان ابن عبّاس رجلاً عربيّاً عالماً وفصيحاً، ولم يكن أعجميّاً ليُحمل عدم معرفته معنى الفَطْر على عدم اطّلاعه على لغة العرب ، بل يتّضح من جهله به ومجىء الاعرابىّ به فى كلامه أنّ استعمال هذا اللفظ باشتقاقاته لم يكن معهوداً فى اللغة العربيّة وأدبها وأشعارها ، وكأنّ

١ ـ صدر الآية ١٨، من السورة ٧٣: المزّمّل.

٢ ـ الآية ١، من السورة ٨٢: الانفطار.

٣ ـ الاعرابىّ هو من سكن البادية، وجمعه أعراب؛ أمّا العَرَب فيُجمعون على عُرْب لا أعراب.

٤- « النهاية » لابن الأثير ، مادة فطر ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ .

استعماله من مختصّات القرآن الكريم. وقد اهتمّ القرآن الكريم بشكل خاصّ بهذه الكلمة التى أوضح بها فى كلّ موضع وردتْ فيه أنّ صنع الربّ الخالق الحكيم كان إبداعاً وصنعاً على غير شبيه ، و كذلك إبداع عوالم الوجود من خلق السماوات والارض وسائر الموجودات. يقول الراغب الاصفهانى فى « المفردات » :

أَصْلُ الفَطْرِ: الشَّقُّ طُولاً... وَفَطَرَ اللَهُ الخَلْقَ ؛ وَهُوَ إيجَادُهُ الشَّىْءَ وَإبْدَاعُهُ عَلَى هَيْئَةٍ مُتَرَشِّحَةٍ لِفِعْلٍ مِنَ الاَفْعَالِ .

وعليه، فإنّ قوله تعالى : فِطْرَتَ اللَهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا إشارة إلى أنّ الله تعالى ركز معرفته فى الإنسان وأوجدها إبداعاً . فـ فِطْرَتَ اللَهِ عبارة عن قوّةٍ منه أودعها فى الناس لمعرفة الاءيمان وجبلها فى طينتهم ، ولذا فإنّهم حين يُسألون مَنْ خَلَقهم؟ يقولون : الله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَهُ . [1]

وقال تعالى : «الَّذِى فَطَرَهُنَّ» ، «وَالَّذِى فَطَرَنَا» ؛أَى أَبْدَعَنَا و أَوْجَدَنَا يصحّ أن يكون الانفطار فى قوله : السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ إشارة إلى قبول ما أبدعها وأفاضه علينا منه . [2]

يقول ابن الاثير فى « النهاية » فى مادّة فَطَرَ :

ورد فى الحديث النبوىّ : كُلُّ مَوْلُدٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ؛ [3] الفَطْرُ

---

١ ـ قسم من الآية ٨٧ ، من السورة ٤٣ : الزخرف.

٢ ـ «المفردات» للراغب، ص ٣٨٢، طبعة حلبى ـ مصر، تعليق محمّد سيّد الگيلانىّ.

٣ ـ روى فى «إحياء العلوم» ج ٣ ، ص ١٣، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ؛ وَإنَّمَا أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ. وورد فى تفسير «روح البيان» ج ٧، ص ٣١، الطبعة الجديدة، جزء ٢١، سورة الروم، بهذه العبارة: قَوْلُهُ عَلَيهِ السَّلاَمُ : مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ وَقَدْ يُولَدُ عَلَى فِطْرَةِ الإسْلاَمِ ؛ ثُمَّ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ

الابْتِدَاءُ والاخْتِرَاعُ . والفِطْرَةُ : الحَالَةُ مِنْهُ ، كالجِلْسَةِ والرِّكْبَةِ .

والمَعْنَى أَنَّهُ يُولَدُ عَلَى نَوْعٍ مِنَ الجِبلَّةِ وَالطَّبْعِ المُتَهَيِّئِ لِقَبُولِ الدِّينِ ؛ فَلَوْ تُرِكَ عَلَيْهَا لاَسْتَمَرَّ عَلَى لُزُومِهَا ولَمْ يُفَارِقْهَا إِلَى غَيْرِهَا . وَإِنَّمَا يَعْدِلُ عَنْهُ مَنْ يَعْدِلُ لآفَةٍ مِنْ آفَاتِ البَشَرِ وَالتَّقْلِيدِ . ثُمَّ تَمَثَّلَ بِأَوْلاَدِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي اتِّبَاعِهِمْ لآبَائِهِمْ وَالمَيْلِ إِلَى أَدْيَانِهِمْ عَنْ مُقْتَضَى الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ .

وَقِيلَ : مَعْنَاهُ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَهِ وَالاءقْرَارِ بِهِ . فَلاَ تَجِدُ أَحَداً إلاَّ وَهُوَ يُقِرُّ بِأَنَّ لَهُ صَانعاً ، وَإِنْ سَمَّاهُ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، أَوْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ .

ثمّ يقول : وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ : «وَجَبَّارُ القُلُوبِ عَلَى فِطْرَاتِهَا» .أَى عَلَى خِلَقِهَا ؛ جَمْعُ فِطَر، وَفِطَرٌ جَمْعُ فِطْرَة ؛ أَوْ هِيَ جَمْعُ فَطْرَة كَكَسْرَةٍ وَكِسَرَاتٍ بِفَتْحِ طَاءِ الجَمْعِ ، يُقَالُ : فِطْرَاتٌ وفِطَرَاتٌ وفِطِرَاتٌ .[1]

وقد سار الزمخشرىّ فى « أساس البلاغة » على هذا النهج، فبعد بيانه معنى فَطَرَ اللَهُ الخَلْقَ ، وَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ؛ أى على الجبلّة ، يقول : وَقَدْ فَطَرَ هَذَا البِئْرَ. وَفَطَرَ اللَهُ الشَّجَرَ بِالوَرَقِ فَائفَطَرَ بِهِ وَتَفَطَّرَ. وَتَفَطَّرَتِ الاَرْضُ بِالنَّبَاتِ . وَتَفَطَّرَتِ اليَدُ وَالثَّوْبُ : تَشَقَّقَتْ...[2] إلى آخره .

كان هذا تحقيقاً بشأن المعنى اللغوى للفطرة وتفسير الآية المباركة ، وقد اتّضح أنّ معنى الفطرة بمعنى الخلق من العدم ، والاءيجاد من العدم المحض ، والابداع والاختراع على غير مثال سابق . ولا حيلة ولا مهرب

وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتِجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا. ويقول فى «أقرب الموارد» فى مادّة جَدَعَ : جَدَعَ يَجْدَعُ بمعنى قطع الانف ، ويستعمل مجازاً فى قطع الأذن والانف واليد .

١ ـ «النهاية» لابن الاثير؛ ج ٣ ، ص ٤٥٧ .

٢ ـ «أساس البلاغة» ص ٣٤٤ .

من هذا المعنى والمفهوم من آية الفطرة حسب أقوال أساطين العلم والمتبحّرين بالعربيّة وآدابها ؛ وإذا ما أخذ البعض كلمة الفطرة فى هذه الآية بمعنى الملّة والسنّة والدين فإنّ ذلك كان أيضاً بلحاظ نفس معنى الخلقة والسجايا الطبعيّة والروحيّة التى أنشأ الله سبحانه الملّة والشريعة عليها .

ويتّضح أيضاً بهذا البيان أنّ ما أورده المعترض فى هذا البحث فراراً من الامر الاعتبارىّ واستناداً إلى آية الفطرة من :

« إنّ العلوم لا تمنحنا إلاّ النواهى لا الاوامر، وحين نعلم النواهى فإنّنا سنعلم **الواجبات** أيضاً بالملازمة ».[1] و جوابنا عليه هو أنّ الكلام ليس إلاّ دوراناً فى حلقة مفرغة ولن يؤدّى إلاّ إلى نفس النتيجة ، كمن يدير اللقمة فى يده ما شاء من المرّات ثمّ يضعها فى النهاية فى فمه؛ فكلا الوجوب و النهى أمر اعتبارىّ ، فإن لم يجز الامر فى الوجوبات ، فهو كذلك فى النواهى فلا تغفل .

كان هذا بحثنا عن الموضوع الاوّل والاشكال الوارد على صاحب كتاب « دانش و أرزش » (= العلم والقيم) فى تفسير آية الفطرة ؛ وأمّا بشأن الموضوع الثانى بشأن ادّعائه أن ليس لدينا آية قرآنيّة تأمرنا بشىء أو تنهانا عن شىء حسب مبنى المسائل العلميّة وعن طريق الاستنتاج العلمىّ ، وبكلمة أوجز أنّه لا يمكن لمقدّمات المسائل الفلسفيّة والطبيعيّة أن تكون طريقاً للوصول إلى الاحكام الشرعيّة والمواعظ الالهيّة القرآنيّة ؛ فإنّنا نجد ـ رغم ادّعائه هذا ـ الكثير من الآياتٍ القرآنيّة من هذا القبيل ، ونكتفى بذكر بعضها كأمثلة :

١ ـ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَهِ لِيُرِيَكُم مِّن ءَايَـٰتِهِ

١ ـ «دانش و أرزش» ص ٢٨٩ إلى ٢٩٣ ، القسم الرابع، النظرة الواقعيّة الاخلاقيّة.

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لاَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . [١]

فانسياب الفلك على سطح الماء من مسائل العلم، ونتيجتها ـ أى لزوم الصبر والشكر ـ من الاخلاق .

٢ ـ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَـٰمِ *إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لاَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ. [٢]

فحركة السفن العملاقة على سطح الماء بحركة الرياح وتوقّفها إثر سكون الرياح من مسائل العلم ، وهى تدعو فى النتيجة إلى الاستقامة والصبر الوافر والشكر الكثير، أى الاخلاق .

٣ ـ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ وَ كَانَ تَوَّابًا . [٣]

فالنصر والظفر الالهى ودخول الناس أفواجاً فى الاسلام من مسائل العلم ، يستلزم على إثره تسبيح رسول الله وحمد الله وطلب الغفران وهى من مسائل الاخلاق .

٤ ـ وَإِنَّهُ وَ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ وَ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَـٰفِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِين * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيم . [٤٦]

تذكرة القرآن للمتّقين ، وعلم البارى بالمكذّبين ، كون القرآن حسرة للكافرين ، وكونه فى الثبوت والتحقّق حقّ اليقين ، كلّ ذلك من مسائل العلم . وتسبيح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم باسم ربّه العظيم

---

١ ـ الآية ٣١، من السورة ٣١ : لقمان.

٢ ـ الآيتان ٣٢ و ٣٣، من السورة ٤٢ : الشورى.

٣ ـ الآيات ١ إلى ٣، من السورة ١١٠ : النصر.

٤ ـ الآيات ٤٨ إلى ٥٢، من السورة ٦٩ : الحاقّة.

المترتّب عليه بفاء الترتيب ، والناتج من ذلك العلم ؛ هو عبارة عن الاخلاق .

٥ ـ.. أَفَرَأَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ . [١]

فظهور الماء على سطح الارض من هطول المطر، وتحليته وعذوبته ، وظهور النار من الشجر لرفع حوائج المحتاجين لها ، كلّها من مسائل العلم ؛ وتسبيح رسول الله تبعاً لها من مسائل الاخلاق .

٦ ـ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ *إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ. [٢]

فمكانٌ ومنزلة المقرّبين من البارى سبحانه وهو الروح والريحان وجنّة النعيم، والسلام الذى يقترن به أصحاب اليمين، والحميم ومعادن جهنّم المصهورة ، واستقرار المكذّبين الضالّين فى الجحيم ، وثبوتها وحقّانيّتها هى جميعها من مسائل العلم ، وفى النتيجة أمر الخالق سبحانه رسوله بتسبيح اسم ربّه العظيم مسألة أخلاقيّة .

٧ ـ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَـٰوَٰتِ وَالاْرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ*فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ*وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ السُّجُودِ . [٣]

---

١ ـ الآيات ٦٨ إلى ٧٤، من السورة ٥٦: الواقعة.

٢ ـ الآيات ٩٢ إلى ٩٦، من السورة ٥٦: الواقعة.

٣ ـ الآيات ٣٨ إلى ٤٠، من السورة ٥٠: ق.

فخلق السماوات والارض وما بينهما فى يسر وسهولة فى ستّة أيّام من مسائل العلم، وعلى إثرها وجوب الصبر من قبل رسول الله وأمره به مقابل كلام المشركين غير المستساغ، وتسبيحه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وقدراً من الليل وأدبار السجود جميعها من مسائل الاخلاق، ومن الاعتباريّات الاخلاقيّة المترتّبة على الحقائق .

٨ ـ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى' مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنَ ءَانَآىءِ الَّيْلِ فَسَبِّحْو أَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى'. [١]

فلأجل سبق الكلمة الالهيّة التكوينيّة والارادة الحتميّة السبحانيّة والاجل المسمّى الذى قدّره الله سبحانه ، وعدم لزوم العذاب وتحقّقه فى الدنيا قبل الموت من المسائل العلميّة ؛ وصبر رسول الله واحتماله لاقوال المعاندين، وتسبيحه وحمده خالقه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وراء الأُفق، وآناء من الليل وفى أطراف النهار هى كلّها من الاخلاقيّات والاوامر الالهيّة الاعتباريّة والمترتّبة على مسائل العلم تلك .

٩ ـ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً . [٢]

إنّ جَعْل الليل مظلماً فى حكم اللباس والستر، والنوم باعثاً على الهدوء والراحة ، وجَعْل النهار مضيئاً للعمل والنشاط من مسائل العلم ، واستراحة الإنسان ليلاً وسعيه ونشاطه نهاراً من الاخلاق .

١٠ ـ وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم بشأن الرجل

---

١ ـ الآيتان ١٢٩ و ١٣٠، من السورة ٢٠: طه.

٢ ـ الآية ٤٧، من السورة ٢٥: الفرقان.

والمرأة وتكاليفهما المختلفة حسب اختلاف البنية الطبيعيّة والمزاج والنظام الوجودىّ، تتعلّق بمسائل النكاح والطلاق والميراث والنفقة والرضاع والعدّة وكيفيّة العبادة ، كاجتناب الصلاة والصيام أيّام الطمث ، ووجوب الحجاب من الرجال من غير المحارم وغيرها، وهى تدلّ بأجمعها على اختلاف هذه الاحكام على أساس الاختلاف فى البنية الوجوديّة والطبيعيّة لهما .

وعليه، فإنّ اختلاف البنية والنظام المادّىّ والروحى ّللرجل والمرأة هو من مسائل العلم، وترتّب الاحكام المختلفة على ذلك من مسائل الاخلاق، وقد استخدمت تلك المسائل العلميّة فى هذه الآيات بشكل واضح فى قياس إجراء الاحكام الاخلاقيّة والامر والنهى والضمان والملكيّة وغيرها ، حيث إنّها جميعاً من الاعتباريّات .

ولا كلام لدينا فى التقييم والاعتبار، فعاقبة الامر أنّ الناس يُساقون إلى الجنّة على أساس مقدار التقوى والامر الصالح، الرجل والمرأة على حدٍّ سواء :

مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ و حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ١

ولكنّ الكلام حول اختلاف الاحكام تبعاً لمبنى اختلاف البُنية الوجوديّة، أى اختلاف مسائل الاخلاق وتفاوت الاعتبار على أساس تفاوت واختلاف مسائل الطبيعة والعلم ، ولا شكّ ولا تردّد فى هذا الامر، ومع ذلك فقد كان لمؤلّف كتاب « دانش وأرزش » خبط واشتباه فيه ، فقد تنكّب عن الجادّة فى هذه المسألة البيّنة فقال : لا شأنلنا بأى ّلحاظٍ كان

١ ـ الآية ٩٧، من السورة ١٦: النحل.

اختلاف مسائل المرأة والرجل، فما هو موجود فعلاً تساويهما فى القيمة التقوائيّة . ونورد عين عبارته ليتّضح خلطه ومغالطته للعيان :

ومن هنا ينبغى العلم بأنّ اختلافات الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة مثلاً لم تكن بسبب الاختلافات فى الجسم والطبع بنظر القرآن فى تقييمه لتلك الاختلافات .

فما ميّز بين حقوق الرجل والمرأة أساساً هو النظرة الواقعيّة الاخلاقيّة والعزم على اجتناب التكليف بما يفوق الطاقة والتحمّل ، فلم‌تُفرض على كلّ من الرجل والمرأة واجبات تفوق حدود طاقتهما ، وهذا هو أساس نشوء اختلاف حقوقهما .

ولا زال هناك الكثير ممّن يتصوّر أنّ مرجع اختلاف حقوق المرأة والرجل فى القرآن إلى اختلافهما فى التقييم فى نظر المقنّن والمشرّع ، و مشير إلى تفوّق أحدهما وضِعَة الآخر.

لذا، ينبغى أن تفضح صراحةُ الآية السابقة [1] والآيات الأُخرى المشيرة إلى تساوى الرجل والمرأة عند الخالق بطلان هذا التصوّر المهين .

إنّ الاختلافات الحقوقيّة للمرأة والرجل فى الاسلام مهما كان سببها ، فهى حتماً غير ناشئة من تفاوت قيمتهما المعتبرة، فالكرامة والقيمة والقدر فى نظر القرآن أمر مختصّ بالتقوى وحدها ، ولقد كان منظار

---

١ ـ المقصود بالآية السابقة هى : يَـا أَيُّـهَا النَّـاسُ إِنَّـا خَلَقْنَـاكُم مِّـن ذَكَـرٍ وَأُنثَـى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَـكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَـاكُـمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلِيـمٌ خَبِـيرٌ . (الآيـة ١٣، من السورة ٤٩ : الحجرات) .

وكما نلاحظ فهذه الآية لا تفرّق بين الرجل والمرأة ، كما لا تفرّق بين السيّد والسيّدة والغلام والجارية من جهة المقام والقيمة المعنويّة وسلوك طريق التقوى والقرب من ربّ العزّة سبحانه ، لا أ نّها تساوى بينهم من جهة الاحكام والواجبات والقوانين . وكلامنا فعلاً فى الجهة الثانية لا الأُولى .

العلميّة هو المسبّب لعجز البعض عن تفسير تفاوت الحقوق إلاّ بمعنى تفاوت القيمة ، وتفاوت القيمة إلاّ باختلاف البُنية الطبيعيّة .[1]

يلاحظ فى العبارات السابقة كيف خلط المؤلّف البحث ، فحاول إظهار اختلاف المرأة والرجل فى أفكار المفكّرين القرآنيّين على أنّه حسب مبنى اختلافهما فى القيمة والقدر، ثمّ قام برفضه، مع أنّ كلامنا لم يكن أساساً فى موضوع اختلاف القيمة والقدر، بل فى اختلاف الحقوق والاحكام والارث والنفقة وعدم الجهاد والقضاء والحكومة ونظائرها ، وهى مسائل أخلاقيّة اعتباريّة محضة رُتّبت من وجهة النظر القرآنيّة على أساس المسائل العلميّة والطبيعيّة للمرأة والرجل .

الإشكال العاشر على مقالته « بسط وقبض تئوريك شريعت » هى مسألة قبوله بتبدّل الانواع ، وإقراره بعدم انتهاء نسل الإنسان إلى آدم وزوجته المخلوقَين من التراب . فبتبجيله وتكريمه لداروين وتسميته له بنابغة الفهم والادراك ومسخّر النظريّات الطبيعيّة ، وبمن أجلس الفرضيّة والنظريّة على عرش الحقيقة ؛ ممّا يستلزم فى النهاية عودة البشر و نشأته إلى القرد ، قد أضاف إلى مقالته إشكالاً جديداً ؛ إذ يقول :

لقد نقل المؤرّخون أن داروين لم يستطع ـ لتمسّكه بفرضيّته ـ فهم وقبول الصحف الدينيّة المقدّسة كما يفهمها الآخرون ويقبلونها ؛ عكس جورج كوفيه الذى لم يستطع ـ لتمسّكه والتزامه بمعارف التوراة ـ معرفة الطبيعة كما عرفها الآخرون .وقصّة داروين الانجليزى مشهور،لكن قصّة كوفيه الفرنسى تستحقّ هى الأُخرى أن تُعرف ، فلقد اكتشف كوفيه وأبدع أساسَين مهمَّين فى علم الحيوان وعلم الجيولوجيا(طبقات الارض) كان لهما أحسن الاثر عند المتكلّمين فأكثروا من الحديث عنهما ، ذلك لانّه

١ ـ «دانش و أرزش» ص ٣٢٣ و ٣٢٤

حافظ على ظواهر الكتاب المقدّس ومنحه دعماً علميّاً .

فقد اكتشف وأعلن فى النصف الاوّل من القرن التاسع قبل ظهور نظريّة داروين قانون «تناسب أعضاء الحيوانات» Correlation Principle، وهذا القانون الذى يحظى اليوم بقبول علماء الحيوان الذى كان ذو مفاد ومدلول آخر.

وكان يقول إجمالاً بأنّ أعضاء جميع الحيوانات هى من التناسب والتوازن فيما بينها، بحيث ينتفى معه وقوع أىّ تحوّل وتغيّر فيها مع بقاء نفس الحيوان .

لذا ، فقد تحقّق من بين المؤلّفات المختلفة والمتصوّرة للاعضاء ما كان تحقّقه ممكناً ، أمّا ما لم يتحقّق فهو الذى كان تحقّقه محالاً. وحسب قول كولمان Coleman :

« إنّ مفاد قانون كوفيه كان تقريباً : كلّ ما هو ممكن فهو موجود ، وكلّ ما هو غير موجود فغير ممكن » .

وعليه ، فقد كانت الفاصلة بين الانواع ضروريّة ، فمن المحال أن يملا الفراغ بين القطّة والعصفور مثلاً ، ونتيجة لذلك كان ينبغى للحيوان إمّا أن يبقى مصوناً من التغيّر الكلّىّ ، أو أن يتغيّر كلّيّاً من الاساس ليصبح منشأ لنوع آخر.

ولم يكن كوفيه ليؤمن بالتحوّلات التدريجيّة الطفيفة الهادئة ، ولهذا فقد اعتقد بثبات الانواع الذى وافق بشكل واضح ظاهر الكتاب المقدّس....

وكان هذا الامر مثار عجب مؤرّخى العلم، فعلى الرغم من مخالفة كوفيه الشديدة لتغيّر الانواع(ترانسفورميزم)، فإنّ تحقيقاته فى علم الآثار والتشريح العملىّ لم تمهّد الطريق لظهور نظريّة التكامل فحسب ، بل كانت مقدّمة ضروريّة لا غنى عنها لتلك النظريّة . فاهتمامه المبذول فى مسألة تناسب وتوافق أعضاء الحيوان الواحد مع بعضها ، وتناسب بدن الحيوان مع

محيطه، كان عنصراً حيويّاً فى تدوين نظريّة التكامل. لكنّ الذى لم يلحظه كوفيه ورآه داروين أنّه يمكن لذلك التوافق والتناسب أن يكون له توضيح (علمىّ) وتكاملىّ وميكانيكى ّمادّى ّوطبيعى ّ، وأنّه ينبغى عدم إرجاعه مباشرة إلى قدرة الخالق وفعله .

فالاعتقاد بالتدخّل المباشر ليد الخالق فى الطبيعة(وهو رأىٌ كلامىٌّ معناه وضع الطبيعة وما وراء الطبيعة فى عرض بعضهما و إجلاسهما نفس المجلس)، كان من أهمّ العوامل المثيرة للجدل فى ميدان المعرفة فى بلاد الغرب والشرق وأكثرها تخريباً ، فلقد كان يقطع الطريق فى كلّ مكان ابتداءً من نيوتن إلى كوفيه وباستور، ومن الفخر الرازىّ إلى الحشويّة الجدد .

فلم يكن فى إمكان كوفيه أن يشاهد أبعد ممّا فعل ، لانّ أساس توافق المعارف لم يكن ليسمح له أن يفعل ذلك، فلقد كان علمه الكلامىّ (أى: النسبة التى كان يعتقدها بين الله والطبيعة) وكلام الله(أى: التفسير الذى كان يستنبطه من الكتاب المقدّس) يوقفانه عند ذلك الحدّ .

وكان يلزمه معرفةً أُخرى بالله وتفسير أفضل للكتاب ليمنحاه مجالاً أفضل للإبداع العلمىّ .[1]

لقد تكلّمنا مفصّلاً فى هذا الجزء من كتاب « نور ملكوت القرآن » عن الضعف والوهن اللذين يكتنفان نظريّة التكامل فى الانواع فى ردّنا على مؤلّف كتاب « خلقتْ إنسان » (= خلق الإنسان) وإثباتنا لنظريّة الأُستاذ العلاّمة آية الله الطباطبائى ّقدّس الله نفسه ، وأثبتنا أنّ ذلك الرأى لم‌يكن أبعد من فرضيّة لم تثبت بشكل قانون علمىّ ّ، وأنّ الحكم بها فى هذه الحال

١ ـ مجّلة «كيهان فرهنگى» العدد ٥٢، تير ماه ١٣٦٧ ش. ق، رقم ٤، مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت» للدكتور عبد الكريم سروش، ص ١٧، العمودان الثانى والثالث.

أمر مرفوض من الناحية الفلسفيّة، وأ نّها من جهة أُخرى غير مقبولة أيضاً لظهور القرآن الكريم، بل لصراحته بشأن خلقة الإنسان وبيانه لخلق آدم وزوجه من الطين.

على أنّ هذا البحث الكلامىّ فى اعتبار البعض للّه سبحانه مقابل الطبيعة أمر خاطى، فالله سبحانه وملائكة السماء المدبّرون للاُمور هم فى طول عالم الطبيعة، بل إنّ عالم الطبيعة هو عين ظهور الله وأثره، لاانفكاك بينها. ولقد قدّم الاُستاذ العلاّمة قدّس الله نفسه بحوثاً قيّمة وثمينة فى هذه المسائل التوحيديّة فى التفسير والحكمة، حرىّ بجميع الحكماء والفلاسفة والمتكلّمين أن ينحو نحوها وينهلوا من معينها؛ وعندها، فمن سيكون نيوتن والفخر الرازىّ؟! فضلاً عن ذِكر كوفيه وباستور.

إنّ مسألة مشابهة الإنسان لبعض أصناف الحيوانات فى الخلقة الطبيعيّة هى موضوع معيّن ، ومسألة أصالة الحيوانات وكونها أساساً فى بدء خلقة الإنسان موضوع آخر، ولا يمكن استخدام الاوّل للعبور إلى الثانى واستنتاجه ، فالإنسان لا يشبه فقط بعض الحيوانات فى جهاز الدورة الدمويّة وتركيب الهيكل العظمىّ وغيرها، بل إنّ له شبهاً من ناحية أوسع وأعمّ مع جميع الحيوانات ، وحتّى مع جميع النباتات ، وانتهاءً بجميع الجمادات . فله شبه فى أحكام الذرّات والاءلكترونات مع جميع الموجودات المادّيّة . وقد ورد فى القرآن الكريم :

وَاللَهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللَهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ.[١]

١ ـ الآية ٤٥، من السورة ٢٤: النور.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأرْضِ وَلاَ طَـٰئِـرٍ يَطِيرُ بجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .[1]

بل إنّ الإنسان يشترك مع جميع الحيوانات النباتات فى نوع واحد من النفس الكلّيّة ، أى أنّ له مشابهة ومشاركة فى الطبيعة والحياة والنفس مع الجميع ؛ لكنّ هذا لا يصحّ أن يكون دليلاً لكونه قد ولد ونشأ منها ؛وما أورده داروين فى كتابه « النشوء والارتقاء » ليس أكثر من المشاهدة المجرّدة بشأن البنية الطبيعيّة .

يقول داروين : إنّ أحد أدلّتى هو تشابه البنيّة الطبيعيّة ، لانّ بدن الإنسان قد رُكِّب من وجهة النظر الكلّيّة على مثال أجساد الحيوانات الثدييّة الأُخرى ، فللهيكل العظمى الإنسانى شبيه ونظير هو هيكل القرد والخفّاش وعجل البحر مثلاً . وينسحب هذا التماثل والتشابه على العضلات والاعصاب والاوعية الدمويّة والامعاء والاحشاء الداخليّة ومخّ الإنسان ودماغه ، ويشترك الإنسان مع الحيوانات ـ مضافاً إلى ما ذكرنا ـ فى قابليّة العدوى والاءصابة بالميكروبات المعدية لبعض الامراض، كداء الكلب والجدرى والسفلس والكوليرا [2] وغيرها . وهى دليل قطعى على شدّة التشابه بينه وبين الحيوانات فى الدم والانسجة بلحاظ دقّة التركيب والبناء .

وفوق ذلك فإنّ القرود تشبه الإنسان فى تعرّضها للاصابة بالزكام، والصداع، والصرع، والتهاب الامعاء، ومرضى سائل قزحيّة العين، والحمّى ، كما أنّ للادوية والعقاقير الطبّيّة نفس التأثير على كِلا الإنسان

---

١ ـ الآية ٣٨، من السورة ٦: الانعام.

٢ ـ الكوليرا وباء يصيب بعض المناطق الحارّة، ولا يسبّب موت المصاب، بل يسبّب القيء والاسهال، ويكثر فى مناطق إفريقيا.

والقرد، وبملاحظة أنّ لبعض أنواع القرود رغبة شديدة لشرب الشاى والقهوة والمشروبات الروحيّة المسكرة ، وبملاحظة الآلام والعوارض العصبيّة التى تصيبها إثر السكر، فإنّه يتّضح جيّداً شدّة مشابهتها للانسان حتّى فى الذوق والحسّ العامّ بالنسبة للاشياء .

كذلك فإنّ بعض البثور والانتفاخات الجلديّة الخارجيّة والداخليّة التى تظهر فى الإنسان هى من نفس جنس تلك التى تظهر فى سائر الحيوانات الثديّة، وتدلّ على شدّة التشابه بين الإنسان والحيوانات الراقية، وخاصّة مع القرود، وذلك فى عموم البنية ، ودقّة الانسجة ، والتركيب الكيميائىّ وألفتها ببعضها . [1]

وما نُقل فى بيانات أئمّة المسلمين وعلمائهم من التشابه بين الإنسان والقرد يفوق بكثير ما نُقل عن داروين، لكنّهم مع ذلك لم يحكموا بالاتّصال وعلاقة الولادة بينهما .وقد ورد فى كتاب « التوحيد » الذى أملاه الإمام جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ عليه السلام على الْمُفَضَّل بْن عُمَرَ الجُعْفِىِّ : تَأَمَّلْ خَلْقَ القِرْدِ [2] وَشَبَهَهُ بالإنسان فِى كَثِير مِنْ أَعْضَائِهِ ، أَعْنى الرَّأْسَ وَالوَجْهَ وَالمَنْكَبَيْن وَالصَّدْرَ؛ وَكَذَلِكَ أَحْشَاؤُهُ شَبيهَةٌ أَيْضاً بِأَحْشَاءِ الإنسان ؛ وَخُصَّ مَعَ ذَلِكَ بِالذِّهْنِ وَالفِطْنَةِ الَّتِى بِهَا يَفْهَمُ عَنْ سَائِسِهِ مَا يُومِى إِلَيْهِ .

وَيَحْكِى كَثِيراً مِمَّا يَرَى الإنسان وَيَفْعَلُهُ ، حَتَّى أَنَّهُ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِ

---

١ ـ «نقد فلسفة داروين» (= نقد فلسفة داروين) لابن المجد الشيخ محمّد رضا الاصفهانىّ ، ج ١، ص ٥١ و ٥٢ ، طبعة ١٣٣١ هق .

٢ ـ قِرْد بكسر القاف وسكون الراء، وجمعه قِرَدَة بكسر القاف وفتح الراء المهملة ، يجمع أيضاً قُرُود ، و قِرْدَة بكسر القاف وسكون الراء ، وجمعها قِرْد . انظر(«حياة الحيوان» للدميرىّ) .

الإنسان وَشَمَائِلِهِ فِي التَّدْبِير فِـى خِلْقَتِـهِ عَلَـى مَـا هِـىَ عَلَيْـهِ أَنْ يَكُـونَ عِـبْرَةً لِلأنْسَانِ فِي نَفْسِهِ . فَيَعْلَـمُ أَنَّـهُ مِـنْ طِينَـةِ البَـهَائِم وَسَـنْخِهَا إِذْ كَـانَ يَقْـرُبُ مِـنْ خَلْقِهَا هَذَا القُرْب ، وَلَوْلاَ أَنَّـهُ فَضِيلَـةٌ فَضَّلَـهُ بِـهَا فِـى الذِّهْـنِ وَالعَقْـلِ وَالنُّطْـقِ ، كَانَ كَبَعْض البَهَائِم .

عَلَـى أَنَّ فِـى جسْـم القِـرْد فُضُـولاً أُخْـرَى يُفَـرِّقُ بَيْنَـهُ وَبَيْـنَ الإنسـان كَالخَطْم وَالذَّنَب المُسْدَل وَالشَّعْر المُجَلِّل لِلْجسْم كُلِّهِ .

وَهَذَا لَـمْ يَكُـنْ مَانعـاً لِلْقِـرْد أَنْ يَلْحَـقَ بالإنسـان لَـوْ أُعْطِـى مِثْـلَ ذِهْـن الإنسـان وَعَقْلِـهِ وَنُطْقِـهِ، وَالفَصْـلُ الفَـاصِلُ بَيْنَـهُ وَبَيْـنَ الإنسـان بِالصِّحَّـةِ هُـوَ النَّقْصُ فِى العَقْل وَالذِّهْن وَالنُّطْق . [1]

وقد أورد الدميرىّ فى «حياة الحيوان» :

والقرد حيوان قبيـح مليـح ذكىّ سـريع الفـهم يتعلّـم الصنعـة . حكـى أنّ ملك النَّوْبَة أهدى إلى المتوكّل(الخليفـة العبّاسـى) قـرداً خيّاطـاً وآخـر صائغـاً ، وأهل اليمن يعلّمون القـردة القيـام بحوائجـهم، حتّـى أنّ القصّـاب والبقّـال يعلّـم القرد حفظ الدكّان حتّى يعود صاحبه، ويُعلّمه السرقة فيسرق.

وهـذا الحيـوان شـبيه بالإنسـان فى غـالب حالاتـه ، فإنّـه يضحـك ويطرب ويغنّى ويحكى ويتنـاول الشـىء بيـده ، ولـه أصـابع مفصّلـة إلى أنـامل وأظافر، ويقبـل التلقـين والتعليـم ويـأنس بالنـاس ، ويمشـى علـى أربـع مشـية المعتـاد ويمشـى علـى رجليـه حينـاً يسـيراً ، ولشـفر عينيـه الاسـفل أهـداب وليـس ذلـك لشـىء مـن الحيـوان سـواه وهـو كالإنسـان ، وإذا سـقط فى المـاء غـرق كالآدمىّ الذى لايحسـن السـباحة . ويأخـذ نفسـه بالـزواج والغـيرة على

١ ـ «بحـار الانـوار» للعلاّمـة المجلسـىّ، كتـاب السـماء والعـالم، ج ١٤، ص ٦٦٦ و ٦٦٧، طبعـة الكمبانى؛ وفى الطبعة الحروفيّة(الحديثة): ج ٦٤، ص ٥٩.

الاناث وهما خصلتان من مفاخر الإنسان. وإذا زاد به الشبق استمنى بفيه، وتحمل الأُنثى أولادها كما تحمل المرأة ومن قبول التأديب والتعليم ما لا يخفى . ولقدد رُبِّ قرد ليزيد على ركوب الحمار وسابق به مع الخيل ، وفيه يقول يزيد لمّا سبق بأتان ركبها فرساً :

مَن مُبْلِغُ القِرْدِ الّذِى سَبَقَتْ بهِ جَوَادَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنينَ أَتَانُ
تَعَلّقْ أَبَا قُشٍّ بهَا إِنْ رَكِبْتَهَا فَلَيْسَ عَلَيْهَا إِنْ هَلَكْتَ ضَمَانُ[1]

وروى ابن عَدِىّ فى كامله عن أحمد بن طاهر بن حرملة، ابن أخى حرملةبن يحيى، أنّه قال: رأيتُ بالرَّمْلَة قرداً يصوغ، فإذا أراد أن ينفخ أشار إلى رجل حتّى ينفخ له . وفى ترجمة محمّد بن يوسف المنكدر عن جابر رضى الله تعالى عنه ، قال : إنَّ النَّبِىَّ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى القِرْدَ خَرَّ سَاجِداً .[2]

---

١ ـ ذكر المسعودىّ فى «مروج الذهب» ج ٣، ص ٦٧ و ٦٨، طبعة دار الاندلس، أنّ كنية قرد يزيد أبا قيس، ونسب هذين البيتين إلى بعض شعراء الشام ، يقول : وغلب على أصحاب يزيد وعمّاله ما كان يفعله من الفسوق، وفى أيّامه ظهر الغناء بمكّة والمدينة، واستعملت الملاهى، وأظهر الناس شرب الشراب، وكان له قرد يكنّى بأبى قيس يحضره مجلس منادمته ويطرح له متّكأ، وكان قرداً خبيثاً، وكان يحمله على أتان وحشيّة قد ريضت وذلّلت بسرج ولجام ويسابق بها الخيل يوم الحلبة، فجاء فى بعض الايّام سابقاً فتناول القصبة ودخل الحجرة(حجرة يزيد) قبل الخيل، وعلى أبى قيس قباء من الحرير الاحمر والاصفر مشمّر، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق ، وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر منقوش ملمّع بأنواع من الالوان ، فقال فى ذلك بعض شعراء الشام فى ذلك اليوم :

تَمَسَّكْ أَبَا قَيْس بفَضْل عِنَانهَا فَلَيْسَ عَلَيْهَا إِنْ سَقَطَتْ ضَمَانُ
أَلاَ مَنْ رَأَى القِرْدَ الَّذِى سَبَقَتْ بِهِ جِيَادَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَتَانُ ؟

٢ ـ هذه الرواية سندها ضعيف؛ ويمكن على تقدير صحّتها أن يكون سجود النبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لعظمة مقام الإنسان عند الله سبحانه مع إمكانه أن يخلقه

وهو فى « المستدرك » قبيل كتاب الجمعةذكره شاهداً . . . و رواه البيهقىّ عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أيضاً بمعناه ولفظه أنّ النبىّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ، قال : لا تشوبوا اللبن بالماء ، فإنّ رجلاً فيمن كان قبلكم كان يبيع اللبن ويشوبه بالماء ، فاشترى قرداً وركب البحر، حتّى إذا لجج فيه ألهم الله القرد صرّة الدنانير فأخذها، وصعد الدقل [1]ففتح الصرّة وصاحبها ينظر إليها ، فأخذ ديناراً فرمى به فى البحر وديناراً فى السفينة حتّى قسمها نصفَين، فألقى ثَمَن الماء فى البحر وثمن اللبن فى السفينة . [2]

ومهما بالغ داروين فى المشابهة الجسميّة والمعنويّة للانسان مع القرد، فلن تصل أقواله إلى مستوى أقوال رسائل إخوان الصفا فى قولهم :

أَمَّا القِرْدُ فَلِقُرْبِ شَكْلِ جِسْمِهِ مِنْ جَسَدِ الإنسان صَارَتْ نَفْسُهُ تُحَاكِى النَّفْسَ الإنسانيَّةِ . [3]

نعم فليس من البعيد على الغربيّين ـ الذين لا يمتلكون فلسفة صائبة ولا كتاباً صحيحاً ـ أن يلتزموا بنظريّة تبدّل الانواع وانتهاء نسل الإنسان إلى القرد، ولكنّ العجب أن يتقبَّل ذلك المسلم الذى قد كان له فى البرهان والحكمة أمثال ابن سينا والفارابىّ والملاّ صدرا ،والذى ينهى كتابُه المتقن

كالقرد قبيح المنظر وخبيث الاخلاق ، لكنّه تعالى خلقه إنساناً وشرّفه بشرف تكليف وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا. ووهبه العقل وجعله خليفته .

١ـ جاء فى «أقرب الموارد» أنّ الدَّقَل هو خشبة طويلة تنصب فى وسط السفينة يُشدّ بها الشراع .

٢ ـ «حياة الحيوان» للدميرىّ، مادّة قرد، انظر: ج ٢ ص ٢٠٠ إلى ٢٠٢، طبعة مصر.

٣ ـ «نقد فلسفة داروين» بالفارسيّة، ج ١، ص ٥٤ .

الاصيل بندائه السماوىّ على الدوام عن متابعة التخمين والحدس والظنّ ، ومن القول بغير علم ولا دليل قطعىّ .

فمن العجب أن يخسر شخصيّته وينهار دفعة واحدة إثر أفكار تجريبيّة ونظريّات غير ثابتة لم يقم الدليل على صحّتها، فيعتقد بمدرسة التصوّر ويبيع الحقائق بثمن بخس ، ويحاول بتشكيل مقدّمات وهميّة الحصول على نتيجة قطعيّة، لانّ ذلك طريق لايسلكه الحكماء ولايرتضيه المتشرّعون والملتزمون بنهج القرآن الكريم .

ملاطفة : كان لى بحث يوماً ما مع أحد القائلين بانتهاء نسل الإنسان إلى القرد، فجاوز الحدّ فى إصراره وإبرامه عقيدته، ولم يكن دليله فى دعواه غير هذه التصوّرات والاوهام الخياليّة التى تحدّثنا عنها فى هذا الكتاب ، وقد رفضتُ بكلّ قوّة وثبات مقولته، وأشرتُ إلى مواضع الخطأ فيها ، وحصل أن صادفتهُ أيضاً فى مجلس آخر، ففاجأته بالقول :

أيّها السيّد! لقد ثبت عندى أنّ الناس على صنفَين :أُولئك الذين هم من بين البشر ظاهراً وباطناً ، وأُولئك الذين هم من بنى البشر ظاهراً ، ومن نسل القرود باطناً .

فردّ قائلاً : لقد كنتم تقولون بخلاف هذا ، وتذكرون أنّ الآية الأُولى من سورة النساء صريحة فى أنّ جميع أفراد البشر من نسل واحد ، وينتهون جميعاً إلى نفس واحدة وزوجها(آدم وحوّاء) !

أجبتُ : والآن أيضاً عقيدتى كذلك، لكنّ إصراركم الزائد على رجوع نسلكم إلى القرد أوجد شبهة عندى، أن تكونوا حقيقة قرداً تلبّس بلباس إنسان !

ضحك ، وقال : يبدو أنّ السيّد يريد الإنعام عَلَىَّ بلقب جديد ؟

أجبتُ : كلاّ، فهذه هى الحقيقة التى اعترفتم وأقررتم بها ؛ ولَدَىَّ

شواهد لاءثبات كلامكم وادّعائكم .

تساءل : أىّ شواهد؟!

قلتُ : **القاعدة الاوّلى: كُلُّ شَىْءٍ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ** ، فلو لم يكن أصلكم من القرود ، فمن أين أتت هذه الجاذبيّة و التعلّق بالأجداد المحترمين؟!

الثانية: وجوب حفظ النسب ، فحرام فى الإسلام أن ينتمى الرجل إلى غير أبيه ويدّعى نسباً غير نسبه . لذا ، فقد التزمتم بهذا الامر لحفظ شجرة نسبكم .

الثالثة : وجوب صلّة الرحم . فصلة الرحم واجبة فى الإسلام، وقطع الرحم حرام ، ولقد شاء سيادتكم للصلة مع قرود العالم وعدم قطع الرحم معها أن تحفظوا مراتب الوداد والاتّصال هذه . **هَنيئاً لَكُمْ وَشَكَّرَ اللَهُ مَسَاعِيَكُمْ**. ولا ضير على هذا إن راجعتم يوماً دائرة الجَنَسيّة والاحوال المدنيّة وانتخبتم لنفسكم أحد الالقاب المناسبة، مثلاً: **حفيد القرود، ولَد النسناس،** [1] **شامبانزى النسب....**

ونُنهى الكلام فى الردّ على مقالة « بسط وقبض تئوريك شريعت » ؛ ومع سعينا الشديد لعدم الإطالة، فإنّ الكلام فى عشرة إشكالات أساسيّة على المقالة المذكورة ـ قد طالو استغرق القسم الأعظم من الكتاب ، ولم يكن من ذلك بدّ ، لانّ آثار المقالة شديدة الخطورة والضرر، وكان من الضرورى بيان مواضع الشبهة والمغالطة والخلط، وتجلية الاشتباهات .

وكانت الإشكالات العشرة هى المواضع التى ظهر فيها الخلط فى هذه المقالة جليّاً واضحاً ، فى حين غضضنا الطرف ـ لضيق المجال ـ عن

١ـ فى «أقرب الموارد» مادّة نَسْنَسَ: النَّسْنَاس، من معانيه: نوع من القرود.

الاخطاء والعثرات الاُخرى لقلّة أهمّيّتها عمّا ذكرناه من إشكالات ، ويمكن للمطالعين الاجلاّء مطالعة أصل المقالة التى طُبعت فى عددَين [1] ليكتشفوا مواضع الخطأ والمغالطات الاُخرى .

ولقد اعتبرت فريضة على نفسى ـ على الرغم من ضعف حالتى الصحيّة ومقتضيات الشيخوخة، وكثرة الشواغل العلميّة ـ إدراج هذه المطالب مع الابحاث القرآنيّة الحاضرة ، لتُدرج ملاحظاتى مع تلك المقالات لمن يطالعها من الإخوة ، فينقذوا القرآن من مظلوميّته .

فلقد طعنت هذه المقالة فى القرآن الكريم ، وفى حجّيّته ، وفى خلوده ، وطعنت فى جميع مقدّسات العالم وحقائقه ، و عرضت و هى متبنّية لروح كتابات الشكّاكين والسوفسطائيّين وأتباع هيغل ، هادفة من وراء ذلك جرّ الشريعة والقرآن إلى الانزواء والعزلة .

وقد طرحت هذه المقالة مسألة فصل فهم الشريعة عن الشريعة نفسها ، بدعوى أنّ الشريعة أمر صامت لايُنال ، أمّا القابل لنيل البشر ووصولهم فهو فهمنا عن الشريعة، ولانّه يمثّل فهمنا نحن فهو أمر نسبىّ ومتغيّر وعابر. وبهذا الترتيب فإنّ التغيّر الحاصل فىالعلوم الحديثة سيغيّر من فهمنا للشريعة ، هذا التغيّر الذى لايتنافى معثبات الشريعة ، تلك الشريعة التى تختفى كالعنقاء خلف جبل قاف فلايصل إليها أحد، وكلّما قيل وكُتب عنها فهو بيان لهذا الفهم وليس الشريعة نفسها .

فهذا الفصل إنّما هو التزام بهدم الشريعة وإنكار لاصلها ، وإنكار

---

١ ـ مجّلة «كيهان فرهنگى» العددان ٥٠ و ٥٢، أُرديبهشت ١٣٦٧ ش. ق، رقم ٢، ص ١٢ إلى ١٨؛ وتير ماه ١٣٦٧ ش. ق، رقم ٤، ص ١٢ إلى ١٨، مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت»، نظريّة «تكامل معرفت دينى».

للخالق ، وإنكار للقرآن، وإنكار للسنّة المحمّديّة . ومن الأُمور التى تبعث على الاسى والاسف الشديد أن يكتب ذلك الرجل الاجنبى ّالزنديق فى إنجلترا التى تعتبر مركزاً ضدّ الاسلام كتاباً باسم « الآيات الشيطانيّة» ، ثمّ تكتب فى بلد الإسلام ومهد التشيّع بعد عشر سنين من الثورة الإسلاميّة العظيمة مقالة نظير ذلك الكتاب من كاتب يعدّ نفسه معلّماً وفيلسوفاً ومن أهل التحقيق والمطالعة . وقد ذكرتُ هذا لتعلموا أنّ هؤلاء جميعاً يرتوون من نبع واحد؛ أى من جامعات الفلسفة وعلم الاجتماع وأمثالها التى تقام هناك ، فى حين يُصرف شبابنا بتأثير الدعايات الصارخة المزوّرة عن دراسة العلوم الحقّة، فيولّون وجوههم شطر الصوب الآخر، فينشأون ويتربّون وينهون دراساتهم فى تلك المجتمعات، ثمّ تكون النتيجة ظهور ثمرات فجّة كهذه .

فحين تزاح الفلسفة الإسلاميّة الاصيلة جانباً فيدرّس بدلها فى الجامعات الفلسفة الغربيّة، فلن يتوقّع ويُنتظر فى النتيجة شىء غير هذا .

فما معنى تعلّم الاءلهيّات من فم الشيطان!

وما معنى تلقّى الفلسفة من أفواه الزنادقة ؟

لقد كان صدر المتأ لّهين الشيرازى ّيوصى بتعلّم فلسفته وتلقّيها من الافراد النزيهين العابدين المتهجّدين . فقارنوا ذلك بالفلسفة التى تدرّس فى الجامعات المقتصرة على الكلام عن كانت و ديكارت و راسل و فرويد وأمثالهم .

أيصنع هذا الأُسلوب من الطالب موحّداً عارفاً باللـه؟!

إنّ احترام القرآن وإكرامه يتمثّل بالبحث والتحقيق والتدقيق فيه، وقراءته وحفظه وتفسيره والتدبّر فيه ، فالقرآن سيكون إذ ذاك حيّاً ، فإن انصرف طلاّب العلوم عن حفظ القرآن ومزاولته ولم يعدّوا تفسيره والتدبّر

فيه من أهمّ الأُمور، فإنّ كتاب اللـه سيُهجر شيئاً فشيئاً، وسيأخذ الآخذُ كـلّ آيـة منه فيعنونها ويفسّرها بمـا يشـاء فيجعلـها وفـق مـراده وتبـع هـواه ، وهـو أمـر أعظم وأخطـر علـى القـرآن مـن حـرب اليمامـة الـتى فقـد فيـها المسـلمون فى دفعـهم غائلـة مُسَـيْلَمَة الكَـذَّاب أربعمائـة أو سـبعمائة مـن قـرّاء القـرآن ، وأوشك كتاب اللـه بذهاب حامليه على الزوال من وجه العالم كلّيّاً .

لم يملـك المتجّـددون مـن ذوى الثقافـة الغربيّـة الذيـن بـاعوا دينـهم وضمائرهم القدرة على إنكـار القـرآن ، فذلـك مـا يخـالف مصالحـهم ، لـذا فقـد عمدوا ـمع تعظيمهم وإجلالهم الظاهرى ّلـه ـ إلى إيجـاد شـبهة وتـأويل خـاطى له، وإلى صرف ظواهر الآيات بـلا شـاهد ولا دليـل عـن معانيـها، وإلى عـرض الاتّجاهـات والمـدارس الفكريّـة الكثـيرة مقـابل القـرآن ، وعـرض الآراء ووجـهات النظـر الكثـيرة مقـابل المقولـة الاحمديّـة والسـنّة المحمّديّـة ، سـعياً منهم إلى استئصال جذوره ، أو علـى الاقـلّ أن يظـهروا هـذه التحفـة السـماويّة والكتاب الربّانى ّ الذى لاَ يَأْتِيهِ الْبَـٰطِـلُ مِـن بَيْـن يَدَيْـهِ وَلاَ مِـنْ خَلْفِـهِ تَـنزِيلٌ مِّنْ حَكِيم حَمِيدٍ [1] لـدى الدارسـين والتلامـذة الجـَدد الذيـن لم تكتمـل أذهـانَهم بعد ، ككتاًب واهٍ ضئيل القدر، أو كالتوراة والإنجيل محرّف غير مصون .

ولـو فعلـوا لقطعـوا الشـريان الحيوى ّالاصلى ّللإنسـان ، ولمزّقـوا وتـين قلبه ، ولاوقعـوا بـالعقل الإسـلامى ّالمفكّرضربة قاسـية ، ولبقيـت تلـك الـبراعم الفتيّـة مـن الدارسـين والتلامـذة إلى آخـر درسـهم وتحصيلـهم ، بـل إلى آخـر عمرهم ، ينظرون بهـذا المنظار إلى الكتـاب الاءلهـى ّ ويقرنونـه بأنيـاب الاغـوال وأساطير الاوّلين .

ويتّضـح من سـرّ هـذا المطلب لماذا كان معاندو القرآن يتعمّدون منع الناس

١ ـ الآية ٤٢، من السورة ٤١: فصّلت.

فى كلّ زمان بشكل خاصّ متعمّد من البحث والتدقيق فى الحقائق والتفسير والتأويل، والتبحّر فى شأن نزول الآيات وفى سيرة وسنّة ونهج رسول الله الذى نزل على صدره القرآن، ولماذا كانوا يردعون الناس عن ذلك فلايدعونهم يستفيدون من هذه الموهبة العظيمة ، أو يفكّرون بالاصالة والتعمّق وبُعد النظر التى يدعو إليها القرآن إلاّ قليلاً ؛ فالقرآن يعبر بالإنسان من العلوم الجزئيّة إلى العلوم الكلّيّة حيث لا اعتبار هناك للمجاز .

يروى أبان عن **سُلَيم بن قيس الهلالى**ّ، وعن عمر بن أبى سَلِمَة، وحديثهما واحد، أنّهما قالا:

قدم معاوية حاجّاً فى خلافته المدينة بعدما قُتِل أميرالمؤمنين صلوات‌الله عليه وصالحَ الحسن عليه السلام (وفى رواية أُخرى وبعدما مات الحسن عليه السلام) فاستقبله أهل المدينة، فنظر فإذا الذى استقبله من قريش أكثر من الانصار، فسأل عن ذلك فقيل : إنّهم محتاجون ليست لهم دوابّ ، فالتفت معاوية إلى قَيْس بْنِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَة فقال : يا معشر الانصار! ما لكم لا تستقبلونى مع إخوانكم من قريش ؟!

فقال قَيْس ـ وكان سيّد الانصار وابن سيّدهم ـ أقعدنا ياأميرالمؤمنين أن لم تكن لنا دوابّ .

قال مُعاوية : **فَأَيْنَ النَّوَاضِحُ؟!**

فقال قيس : أَفْنَيْنَاهَا يَوْمَ بَدْرٍ وَيَوْمَ أُحُدٍ وَمَا بَعْدَهُمَا مِنْ مَشَاهِدِ

١- الناضح : البعير الذى يُستقى عليه؛ يعيب معاوية فى كلامه على الانصار بأنّهم سوقة ضِعاف ، ولم يكن هذا الكلام محتملاً عند الصحابىّ لجليل المجاهد فى سبيل الله قَيْس بْن سَعْدٍ، أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وشيعته وخاصّته، فانبرى له وردّ عليه بقوارعَ الكلام كما جاء فى المتن .

رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، حِينَ ضَرَبْنَاكَ وَأَبَاكَ عَلَى الإسلام حَتَّى ظَهَرَ أَمْرُ اللَهِ وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ .

قال معاوية : اللَهُمَّ غَفْراً!

قال قيس : أَمَا إنَّ رَسُولَ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَتَرَوْنَ بَعْدِى أَثَرَةً .

ثمّ قال : يا معاوية! تعيّرنا بنواضحنا! والله لقد لقيناكم عليها يوم بدر وأنتم جاهدون على إطفاء نور الله وأن تكون كلمة الشيطان هى العليا ، ثمّ دخلتَ أنت وأبوك كرهاً فى الإسلام الذى ضربناكم عليه . [1]

فقال معاوية : كأ نّك تمنّ علينا بنصرتك إيّانا؟ فللّه ولقريش بذلك المنّ والطول. ألستم تمنّون علينا يا معشر الانصار بنصرتكم رسولالله وهو من قريش وهو ابن عمّنا ومنّا ؟ فلنا المنّ والطول أن جعلكم الله أنصارنا وأتباعنا فهداكم بنا!

فقال قيس : إنّ الله بعث محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم رحمة

---

١ ـ ينقل الشيخ محمود أبو ريّة فى كتاب « شيخ المضيرة ، أبو هريرة الدوسىّ » ص ١٧٢، الطبعة الثانية، نظير هذا السؤال والاءجابة عن معاوية وأبى قتادة الانصارىّ، عن «الاستيعاب» ج ١، ص ١٦١، طبعة الهند، بأ نّه لمّا قدم معاوية المدينة لقيهُ أبو قتادة الانصارىّ، فقال له معاوية : تلقّانى الناس كلّهم غيركم معشر الانصار، ما منعكم ؟

قال : لم يكن معنا دوابّ .

فقال معاوية : أَيْنَ النَّوَاضِحُ؟! قال أبو قتادة: عَقَرْنَاهَا فِى طَلَبِكَ وَطَلَبِ أَبِيكَ يَومَ بَدْرٍ!

قال: نَعَمْ يَا أَبَا قَتَادَةَ.

وممّا قاله أبو قتادة لمعاوية يومئذٍ: إنّ رسول الله قال لنا: إنَّا سَنَرَى بَعْدَهُ أَثَرَةً.

قال معاوية: فَمَا أَمَرَكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟

قال: أَمَرَنَا بالصَّبْر.

قال: اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْهُ!

للعالمين فبعثه إلى الناس كافّة، وإلى الجنّ والانس، والاحمر والاسود والابيض. اختاره لنبوّته واختصّه برسالته، فكان أوّل من صدّقه وآمن به ابن عمّه علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ و أبوطالب يذبّ عنه ويمنعه ويحول بينه وبين كفّار قريش وبين أن يردعوه أو يؤذوه .

ثمّ ينقل قيس فضائل ومناقب أميرالمؤمنين عليه السلام ومشاهده ، وقصّة آية الانذار وقصّة العشيرة ، ثمّ يصل إلى قول النبىّ الاكرم : فقال : أَيُّكُمْ يَنْتَدِبُ أَنْ يَكُونَ أَخِى و وَزِيرِى و وَصِيِّى وَخَلِفَتِى فِى أُمَّتِى وَوَلِىَّ كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِى؟!

فسكت القوم حتّى أعادها ثلاثاً، فقال علىّ عليه السلام: أَنَا يَا رَسُولَ اللَهِ! صَلَّى اللَهُ عَلَيْكَ.

فَوَضَعَ رَأْسَهُ فِى حِجْرِهِ وَتَفَلَ فِى فَمِهِ وَقَالَ: اللَهُمَّ امْلاَ جَوْفَهُ عِلْماً وَفَهْماً وَحُكْماً.

ثُمَّ قَالَ لاِبى طَالِب: يَا أَبَا طَالِب! اسْمَعِ الآنَ لاِبْنِكَ وَأَطِعْ فَقَدْ جَعَلَهُ اللَهُ مِنْ نَبِيِّهِ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى!

وآخى صَلّىَ اللَه عليه وآله وسلّم بين علىّ وبين نفسه . فلم يدع قيس شيئاً من مناقبه إلاّ ذكرها واحتجّ بها على معاوية مفحماً له، ثمّ أشار إلى جعفر بن أبى طالب الطيّار، وإلى تزويج فاطمة سلام‌الله عليها، ثمّ ذكر ارتحال رسول الله واجتماع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة للبيعة لسعد بن عبادة وهو أبى قيس ، فقال :

فَجَاءَتْ قُرَيْشٌ فَخَاصَمُونَا بِحُجَّةِ عَلِىّ وَأَهْل بَيْتِهِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ وَخَاصَمُونَا بِحَقِّهِ وَقَرَابَتِهِ . فَمَا يَعْدُوا قُرَيْشٌ أَنْ يَكُونُوا ظَلَمُوَا الاَنْصَارَ وَظَلَمُوا آلَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ. وَلَعَمْرِى مَا لاِحَدٍ مِنَ الاَنْصَارِ وَلاَلِقُرَيْش وَلاَ لاِحَدٍ مِنَ العَرَبِ وَالعَجَمِ فِى الخِلاَفَةِ حَقٌّ مَعَ عَلِىٍّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَوُلْدِهِ

مِنْ بَعْدِهِ .

فغضب معاوية وقال: يا بن سعد! عمّن أخذتَ هذا ؟ وعمّن رويتَه ؟ وعمّن سمعتَه ؟ أبوك أخبرك بذلك وعنه أخذته ؟

فقال قيس: سمعتُه وأخذتُه ممّن هو خيرٌ من أبى وأعظم عَلَىَّ حقّاً من أبى .

قال : مَن؟!

قال قيس: عَلِىُّ بْنُ أَبى طَالِب عَلَيْهِ السَّلاَمُ، عالم هذه الأُمَّة وصدِّيقها الذى أنزل الله فيه : قُلْ كَفَى' بِاللَهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ و عِلْمُ الْكِتَـ'ب . [1]

فلم يدع(قيس) آية نزلت فى علىّ إلاّ ذكرها .

قال معاوية : فإنّ صدِّيقها أبو بكر، وفاروقها عمر، والذى عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام .

قال قيس : أحقّ هذه الاسماء وأولى بها الذى أنزل الله فيه :

أَفَمَن كَانَ عَلَى بُيِّنَةٍ مِّن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ .[2] والذى نصبه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بغدير خمّ ، فقال :

مَنْ كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ فَعَلِىٌّ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ . وفى غزوة تبوك : أَنْتَ مِنِّى بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلاَّ أَنَّهُ لاَ نَبِىَّ بَعْدِى .

وكان معاوية يومئذٍ بالمدينة، فعند ذلك نادى مناديه وكتب بذلك نسخة إلى عمّاله: ألا بَرأت الذمّة ممّن روى حديثاً فى مناقب علىّ وأهل بيته . وقامت الخطباء فى كلّ كورة ومكان على المنابر بلعن علىّ بن أبى

---

١ ـ ذيل آلآية ٤٣ ، من السورة ١٣ : الرعد.

٢ ـ صدر الآية ١٧ ، من السورة ١١ : هود.

طالب عليه السلام والبراءة منه والوقيعة فى أهل بيته عليهم السلام واللعنة لهم بما ليس فيهم عليهم السلام .

ثمّ إنّ معاوية مرّ بحلقة من قريش فلمّا رأوه قاموا إليه غير عبدالله ابن عبّاس ، فقال له : يا بن عبّاس! ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلاّ لموجدة عَلَىَّ بقتالى إيّاكم يوم صفّين؟ يابن عبّاس! إنّ ابن عمّى عثمان قتل مظلوماً .

قال ابن عبّاس : فعمر بن الخطّاب قد قُتل مظلوماً ، [1] فسلّم الامر إلى ولده ؛ وهذا ابنه !

قال معاوية : إنّ عمر قتله مشرك. قال ابن عبّاس : فمن قتل عثمان ؟

قال : قتله المسلمون . قال : فذلك أدحض لحجّتك وأحلّ لدمه ، إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلاّ بحقّ .

قال معاوية : فإنّا كتبنا فى الآفاق ننهى عن ذكر مناقب علىّ وأهل بيته، فكفّ لسانك يابن عبّاس واربع على نفسك .

فقال ابن عبّاس : فتنهانا عن قراءة القرآن ؟! قال : لا.

فقال ابن عبّاس: فتنهانا عن تأويله وتفسيره؟! قال: نعم.

فقال ابن عبّاس: فنقرأه ولا نسأل عمّا عنى الله به؟! قال: نعم.

فقال ابن عبّاس: فأيّما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟ قال: العمل به.

قال ابن عبّاس: فكيف نعمل به حتّى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا؟!

---

١ ـ جاء فى هامش «كتاب سُليم» : إنّما قال ابن عبّاس هذا الكلام ليحجّ به معاوية الذى يعتقد أن عمر قُتل مظلوماً ، وإلاّ فليس من رأى ابن عبّاس ذلك .

قال: سَلْ عن ذلك من يتأوّله على غير ما تتأوّله أنت وأهل بيتك .

قال ابن عبّاس : إنّما أُنزل القرآن على أهل بيتى ، فأسأل عنه آل أبى سفيان وآل أبى معيط واليهود والنصارى والمجوس؟! قال معاوية : فقد عدلتنا بهم ؟

قال ابن عبّاس : ما أعدلك بهم إلاّ إذا نهيتَ الاُمّة أن يعبدوا الله بالقرآن وبما فيه من أمر ونهى ، أو حلال أو حرام، أو ناسخ أو منسوخ ، أو عامّ أو خاصّ ، أو محكم، أو متشابه ، وإن لم تسأل الاُمّة عن ذلك هلكوا واختلفوا وتاهوا .

قال معاوية : فاقرأوا القرآن ولا تروا شيئاً ممّا أنزل الله فيكم وما قال رسول الله واروا ما سوى ذلك .

قال ابن عبّاس : قال الله تعالى فى القرآن : يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَهُ إِلاّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ و وَلَوْ كَرِهَ الْكَـٰفِرُونَ .[1]

قال معاوية : يا بن عبّاس! اكفنى نفسك وكفّ عنّى لسانك، وإن كنتَ فاعلاً فليكن سرّاً ولا تُسمعه أحداً علانية . ثمّ رجع إلى منزله فبعث إليه بخمسين ألف درهم . (وفى رواية أُخرى مائة ألف درهم) . ثمّ اشتدّ البلاء بالامصار كلّها على شيعة علىّ وأهل بيته عليهم السلام ، وكان أشدّ الناس بليّة أهل الكوفة لكثرة من بها من الشيعة ، واستعمل عليها زياداً، ضمّها إليه مع البصرة وجمع له العراقَين. وكان يتبع الشيعة وهو بهم عالم، لانّه كان منهم قد عرفهم وسمع كلامهم أوّل شيء، فقتلهم تحت كلّ كوكب وتحت حجر ومدر، وأجلاهم وأخافهم، وقطع الايدى والارجل منهم ، وصلبهم على جذوع النخل ، وسمل أعينهم وطردهم وشرّدهم ، حتّى

١ ـ الآية ٣٢، من السورة ٩: التوبة.

انتزعوا عن العراق فلم يبقَ بها أحد منهم إلاّ مقتول أو مصلوب أو طريد أو هارب .[1]

ولقد استمرّ لعن أمير المؤمنين عليه السلام من على المنابر وفى الخطب ما يقرب من خمسين سنة، حتّى صدر أمر بتركه سنة ٩٩ هجريّة فى خلافة عمر بن عبد العزيز.

ولقد سوّدت فجائع بنى أُميّة صفحات التأريخ، وكانوا فى الحقيقة شياطين وقفوا فى وجه نور الحقيقة النبويّة وسرّ الولاية العلويّة، ولو طالعنا أساليبهم وتأمّلنا فى حالاتهم لتجلّى أمامنا مفاد الآية الكريمة :

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا .[2]

وهكذا فقد استمرّت محاربة القرآن من بدء نزوله حتّى يومنا هذا ، واتّخذت كلّ يوم شكلاً خاصّاً ونهجاً جديداً؛ ولم يكن لحروب الكفّار والمشركين من قريش وغيرها مع رسول الله من هدف غير القضاء على

---

١ ـ هذه الرواية مرويّة فى «كتاب سُليم بن قيس الهلالىّ» أحد أعيان الشيعة الثقات ، والمؤرّخ الامين الذى يروى عن سلمان وأبى ذرّ وبعض الاصحاب الآخرين. أدرك الإمام زين‌العابدين عليه السلام ، وتوفّى سنة ٩٠ هجريّة خائفاً هارباً. وهى مرويّة فى كتابه ، ص ١٩٩ إلى ٢٠٤. وقد نقلها عنه علماء كثيرون ، كالعلاّمة المجلسىّ فى «بحار الانوار»؛ والشيخ سليمان القندوزىّ فى «ينابيع المودّة» باب ٣٠، ص ١٠٤، الطبعة الأُولى ، إسلامبول ؛ والمحدّث القمّى فى «منتهى الآمال» ج ١، ص ١٧٢.

يقول الإمام الصادق عليه السلام بشأن «كتاب سُليم»: مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْ شِيعَتِنَا وَمُحِبِّينَا كِتَابُ سُلَيْم بْنِ قَيْس الهِلاَلِىِّ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ أمْرِنَا شَىءٌ وَلاَ يَعْلَمُ مِنْ أسْبَابِنَا شَيْئاً وَهُوَ أبْجَدُ الشِّيْعَةِ؛ وَهوَ سِرٌّ مِنْ أسْرَارِ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . (مقدّمة «كتاب سُليم» ص ١١، عن «البحار»، و« سفينة البحار » ج ١، ص ٦٥١ ، الطبعة الحجريّة) .

٢ ـ الآية ٣١، من السورة ٢٥ : الفرقان .

القرآن ومنعه من التربّع على منصّة الهداية . ولو قسّمنا الغزوات السبعين التى حصلت خلال إقامة رسول الله فى المدينة على زمن إقامته فيها لشاهدنا أنّ الرسول الاكرم كان مُجبراً على الخروج للحرب بمعدّل مرّة واحدة كلّ شهرين دفاعاً عن القرآن وصوناً له .

ثمّ اتّخذ الدفاع عن القرآن فى زمن أمير المؤمنين عليه السلام شكلاً ونهجاً آخر، فقد جسّد معاوية فى سلوكه الخبث والفساد والانحطاط ، وأظهر نوايا أبيه أبى سفيان الذى أورد المصائب والويلات على المسلمين فى حروب بدر وأُحد والاحزاب وغيرها بلباس آخر فنفّذها بحذافيرها .

كانت أهداف معاوية هدم أركان الإسلام وهدم القرآن تحت لواء الإسلام وباسم القرآن ، وهذه السيرة كانت أكثر عمقاً وأكبر أثراً من حروب أبيه(أبى سفيان) .

هذا المجرم والشيطان المحتال الماكر ذو الدسائس الذى رأيناه يردّ على قول قيس بن سعد « ضربناك وأباك على الإسلام حتّى ظهر أمرالله وأنتم كارهون » بقوله : اللَهُمَّ غَفْراً ! فيصبح عارفاً بالله طالباً غفرانه . فى الوقت الذى يتخاذل أمام احتجاج ابن عبّاس واستدلاله المتين فى حقّانيّة مظلوميّة أميرالمؤمنين عليه السلام و غصْبه للخلافة ، فيصدر أمراً بلعنه وسبّه ويكتب بذلك إلى البلدان ، نراه يرجع إلى بيته بعد هذا الكلام فيبعث إلى ابن عبّاس خمسين ألف درهم ثمناً لسكوته ؛ ثمّ يكتب إلى البلدان ـ تبعاً لسيرة عمر وسنّته ـ أن يقرأوا القرآن ولا يفسّروه ، وأن لايرووا من النبىّ حديثاً . فهو الآخر قد حارب القرآن وتصدّى له .

إنّ الروايات والاحاديث الواردة عن الرسول الاكرم فى تفسير القرآن هى حقيقة القرآن، ولقد كانأُولئك واقفين على أنّ أحاديث رسولالله ستفضح جنايتهم وخيانتهم على رؤوس الاشهاد،فكان أن منعوا

من الحديث والرواية . كانوا يقرأون القرآن ولكن بلا معنى ولا محتوى ، وبلافهم ولادراية ، فعرش حكومتهم لم يكن ليستقرّ مع الفهم والدراية .

ولانّ القرآن هو كتاب العلم والتعقّل، فإنّ الامر بعدم تفسيره وشرح معانيه فى جميع الموارد كان أمراً بهدمه وإلغائه . لكنّ الله سبحانه وعد بحفظ قرآنه وصونه عن التحريف الظاهرىّ والباطنىّ :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ و لَحَـٰفِظُونَ . [1]

مصطفى را وعده‌داد ألطاف حقّ گر بميرى تو نميرد اين سَبَق [2]

من كتاب ومعجزت را خافضم [3] بيش‌وكم كن را ز قرآن رافضم

من تو را اندر دو عالم رافعم طاغيان را از حديثت دافعم

كس نتاند بيش وكم كردن در او تو به از من حافظى ديگر مجو

رونقت را روز روز افزون كنم نام تو بر زرّ و بر نقره زنم

منبر و محراب سازم بهر تو در محبّت قهر من شد قهر تو

نام تو از ترس پنهان مى‌برند چون نماز آرند پنهان بگذرند

١ـ الآية ٩، من السورة ١٥: الحجر.

٢ ـ كتاب «تعليم الاطفال » – الهامش .

٣ ـ الخفض: عمود الخباء.

٤ ـ «مثنوى» للرومىّ، ج ٣ ص ٢٢٣، طبعة المير زا المحمودىّ؛ وفى طبعة الميرخانىّ: ص ٢٣١ و ٢٣٢.

يقول: «لقد وعد الحقّ بلطفه مصطفاه، إنّ كتاب الهداية هذا لن يموت بموتك .

فأنا الحامى للكتاب والمعجزات من أن تنالها يد الزيادة والنقصان .

وأنا رافعك فى العالَمين، وصارفٌ عن حديثك الطغاة .

فسيقصرون عن الزيادة فيه أو النقصان، فلا تبغ منّى بعد هذا حافظاً .

وسأزيد شهرتك يوماً بعد آخر، وأكتب اسمك على الذهب والفضّة .

ولقد جعلت المنبر والمحراب لاجلك، ففى المحبّة صار قهرى قهرك .

خُفیه مـی‌گویند نامت را کنون خُفیه هم بانگ نماز ای ذو فنون
از هـراس و تـرس کفّـار لعـین دینت پنهـان می‌شـود زیر زمین
مـن منـاره بـر کنـــم آفـاق را کـور گردانم دو چشـم عـاق را
چـاکرانت شـهرها گیرند و جاه دیـن تو گیرد ز ماهی تا به ماه
تـــا قیـامـــت باقیـــش داریـــم مـــا
تو متـرس از نسـخ دیـن ای مصـطفی
ای رســـول مـــا تـو جـادو نیســـتی
صـــادقی ، هـــم خـرقـــة مـوسـیستی
هست قـرآن مـر تـو را همچـون عصا
کفـــرها را در کشـــد چـــون اژدهـــا
تـو اگر در زیـــر خـــاکـــی خفتـه‌ای
چـون عصـایش دان تـو آنچه گفته‌ای
گر چـه باشـی خفتـه تـو در زیر خاك
چـون عصـا آگه بـود آن گفـت پـاك[1]

فهم يهمسون باسمك خوفاً، وإن صلّوا صلّوا متستّرين متكتّمين » .
وهم الآن يهمسون باسمك همساً ، ويؤذّنون للصلاة خفية .
فدينك من خوف الكفّار اللعناء ، تستّر تحت الارض واختفى .
لكنّى سأطبق الآفاق منائراً برغم أنف عدوّك العاصى .
وسيفتح أتباعك المدن وينالون الجاه والسلطة، وسينتشر دينك من بلد إلى بلد.
فسنحفظه قائماً إلى يوم القيامة، فلا تخف من نسخه أيّها المصطفى.
يا رسولنا! لست بساحر كما يزعمون، بل صادق أنت كموسى.
والقرآن لديك كعصاه، يلقف الكفر كما يفعل الثعبان المبين.
وإن أنت رقدت تحت التراب، فاعلم أنّ كلماتك معجزة باقية كعصاه.
ومهما غفوت أنت تحت التراب، فكلامك المطهّر يقظ كعصا موسى».

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلآ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَهُ ءَايَاتِهِ وَاللَهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبهم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ و قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ .[1]

فهذه الآيات صريحة فى خلود القرآن الكريم ، وأبديّة الولاية ، أى حرّاسه والقائمون على صيانته ، ولقد استمرّت أعمال المواجهة والدسائس على مقصود رسول الله وهدفه ، وعلى قوانين القرآن وأحكامه ، لكنّ نور الله غالب قاهر،و هو سبحانه لا يُخلف وعده ؛ فينهض مثل الحسين عليه السلام ليهدم بنهضته العظيمة الباهرة للعقول عرش يزيد المستكبر، ويُخمد إلى الابد نعراته الانانيّة .

ولقد جسّد الحسين عليه السلام الأُنموذج الحىّ والمثال الجلىّ لهدف جدّه رسول الله صلى الله عليه و آله ، وأبيه علىّ المرتضى ، وأُمّه فاطمة الزهراء وأخيه الحسن المجتبى عليهم السلام فى بُيوتٍ :

أَذِنَ اللَهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ و يُسَبِّحُ لَهُ و فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالاْصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَهِ وَإِقَامِ الصَّلَوةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَوةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالاْبْصَارُ .[2]

يقابله فى الجانب الآخر يزيد اللعين مثال الغرور والانانيّة والتكبّر

---

١ ـ الآيات ٥٢ إلى ٥٥ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .

٢ ـ الآيتان ٣٦ و ٣٧ ، من السورة ٢٤ : النور.

والتمرّد ، بقدرته الجهنّميّة والشيطانيّة التى أخضعت الشرق والغرب ، [١] يزيد المعلن لشرب الخمور، الساهر ليله فى مجالس الخمر والسكر مع المغنيّات ، الناكح للمحارم ، اللاعب بالقرود ؛ ولم يكن ليفعل هذا لوحده ، بل إنّ شرب الخمر والسكر والتغنّى صار رائجاً فى عهده ، حتّى كان عمّاله فى الحرمَين الشريفَين مكّة والمدينة يتجاهرون بشرب الخمر ويعقدون مجالس اللهو واللعب على مرأى من المسلمين ومسمع . وكان خراج المسلمين والضرائب المستحصلة منهم يُصرف فى هذه المطامع ، فى حين ساد الفقر والفاقة بين الضعفاء والمساكين فغلب عليهم ، حتّى لم يبقَ لهم ما يستروا به عوراتهم ، ولا ما يبلغوا به كفافهم ويسدّوا به رمقهم .

هناك فى الجانب الآخر رجل لبيغ تمرّس فى الفصاحة و البلاغة و قول

---

١ ـ يقول المستشار عبد الحليم الجندىّ ـ وهو من أركان المجلس الاعلى للشؤون الإسلاميّة فى مصر ـ فى كتابه النفيس « الإمام جعفر الصادق » ص ٥٢ :

أنهى يزيد سنوات حكمه بتجريد جيش على المدينة يسفك دمها، وينتهك حرمها، فى وقعة الحرّة سنة ٦٣ . ليقتل فيها ثمانين من صحابة الرسول . فلم يبق بعدهم على ظهر الارض بدرىٌّ واحد ! وقتل من قريش والانصار ثمانمائة ! ومن الموالى والتابعين وسائر الناس عشرة آلاف ، ثمَّ لفظ آخر أنفاسه وجيشه يحاصر الكعبة بعد أن أحرقها! وأىّ نهاية لبشر أفظع من هذه النهاية! بل أىّ نهاية لدولة أبلغ فى الدلالة على غضب السماء عليها !

فما كان حرق الكعبة ولا قتل الصحابة وتذبيح آلآلاف إلاّ تتابعاً للاحداث التى بدأبها السنوات الثلاث . وختماً طبيعيّاً للبداية المفظعة لحكمه ، وجزاء له ولدولته ، ينزله بها وبنفسه .

لقد استفتح حكمه بجريمة كربلاء فى يوم عاشوراء! فى العاشر من المحرّم سنة ٦١ ، فوقع فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت مثله أو قريباً منه، من استشهاد أبى الشهداء : الحسينبن علىّ الذى دعا له النبىّ : اللَهُمَّ إِنِّى أُحِبُهُ ، فَأَحِبَّ مِنْ يُحِبُّهُ ، والذى عظّمه الخلفاء الراشدون والناس جميعاً على مدار العصور، وهو القدوة فى عطائه وعبادته وتواضعه وشجاعته فى كلّ موقف : فى الجمل وصفّين والنهروان إلى جوار أميرالمؤمنين علىّ .

الشعر بداهة ، يوظّف أشعاره فى السخرية من الخالق و القيامة و النبىّ و القرآن و حجّ البيت و الاذان و الصلاة، و يرى معانقة حبيبته أُمّ كلثوم أولى من الحفاظ على حدود الإسلام و ثغوره من الضياع أو صيانة الاسرى من ذلّ الاسر، فيسدّد بعمق فكرته و شدّة رأيه ضربته لاستئصال جذور الولاية و أُصولها ، و يقدّم فى أشعاره الخمر للإمام المطلق على الارض خامس أهل الكساء و سبط سيّد المرسلين، و يدعوه إلى شربه بلا حياء و لا موارية .

و نلحظ هنا طلوع آية فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ . فيتحرّك سيّد الشهداء عليه السلام من جنوب الحجاز إلى الكوفة و الشام لدحره و فضحه و قمع أمره ، و يُعلن للدنيا بندائه الملكوتىّ و آهاته الحرّى و أنينه الصادع للاكباد أن : أيّها الراقدون الغافلون ! يا من أطار لبّهم و أعمى بصيرتهم الانغماس فى الدنيا و الملاهى ! و يا من أقعدتهم السجّادة و المسبحة ! انهضوا فلقد أُهين القرآن! انهضوا فيزيد يتغنّى فى أشعاره بالسخريّة ممّن جاء بالقرآن ! و لقد تبدّد الدين و الشرف و الاصالة ، و آلت عاقبة حروب بدر و الاحزاب و حنين التى جرت لاءقرار القرآن إلى حكومة جائرة ظالمة بيَدِ الجائرين الذين نصبوا مجالس الشراب فوق دماء شهداء أُحد، والذين اَستمدّوا القوّة و السلطة من دماء شهداء بدر و الاحزاب فصاروا يعقدون الآن مجالس الغناء واللهو و اللعب .

أيّها النائمون ! أنا الحسين ، أمضى على بصيرة من أمرى لاهدّ قصر يزيد علىأُمِّ رأسه ، و سأُوفّق فى هذا الامر، لا فرق إن قتلتُه أم قُتلت ، فالامر سيّان عندى ؛ و الهدف و القصد واحد لدىّ ، فلا ضير عندى إن اختلفت إليه السبل ، فلواء الظفر فى يدى على كلّ حال ، و الحياة مع الجنايات العلنية لهذا الرجس الكافر هى الموت بعينه ؛ و الموت فى ظلّ حدّ السيف القاطع ، أو هدفاً للسهام المثلّثة الشعب و رجم حجارة جيش الكوفة

هو عين الحياة.

لقد كان سيّد الشهداء عليه السلام يرى حتفه كوضوح الشمس ، و سَوْق أهله سبايا رأى العين ، و هو يعلم أن لابدّ لتحقيق هدفه من ذلك .

و لقد تمثّلت غايته فى صرخته المظلومة المدوّية: إنّ حكومة يزيد ما هى إلاّ خلف و امتداد لحكومة معاوية و حكومة الخلفاء الغاصبين ، و امتداد و خلف لحكومة أبى سفيان الجاهليّة ، فالمحن و الآلام و المشاقّ التى تحمّلها النبىّ الاكرم صابراً محتسباً ستذهب جميعاً أدراج الرياح، و سيضيع الدين و يتلاشى هباء منثوراً .

فحين أعلم أنّى سأُقتل ، و يبقى صوت المؤذِّن هدّاراً من فوق المأذنة بنداء الله أكبر فأنا المنتصر، لانّى نلتُ لقاء ربّى، و عملتُ بالمسؤوليّة الملقاد على عاتقى .

و الويلُ من يوم أحيا فيه فأرى حقّ المظلومين يُهدر، و سيوف الظالمين تحزّ رقاب المستضعفين، و أموال المسلمين تُنفق باسم الرئاسة و الحكومة فى الاغراض الشخصيّة ، فذلك يوم لا حياة لى فيه .

لا حياة لى يوم أرى يزيد يحتسى الخمر فى دولة الإسلام و فى مدينة الرسول علناً و لا يستحيى ؛ فأنا أسعى لحياتى ، و حياتى مرهونة بحياة القرآن ، و حياة القرآن مرهونة بحياتى .

إنّ عظمد و جلال نهضة سيّد الشهداء عليه السلام لن يدركها و يلمسها جيّداً من لم يطّلع و يدرك عمق التأريخ السياسىّ لتلك الفترة العصيبة ، و يدرس وضع حكومة يزيد و كيفيّة تسلّطه و سيطرته على البلاد الإسلاميّة، و سعيه الشديد فى ترويج المنكرات و إشاعة الفحشاء . [1]

١ ـ جاء فى «الغدير» ج ٣، ص ٢٥٩ و ٢٦٠ : قال مولانا الحسين عليه السلام

أورد أبوالفرج الاصفهانىّ أنّ معاوية أرسل يزيد إلى الحجّ ، فجلس يزيد بالمدينة على شراب ، فأستأذن عليه عبدالله بن العبّاس و الحسين بن علىّ فأمر بشرابه فرُفع ، و قيل له : إنّ ابن عبّاس إن وجد ريح شرابك عرفه، فحجبه و أذِنَ للحسين عليه السلام. فلمّا دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب فقال :

لِلّهِ درُّ طِيبِكَ هَاذ مَا أَطْيَبَهُ! وَ مَا كُنتُ أَحْسِبُ أَحَداً يَتَقَدَّمُنَا فِى صَنْعَةِ الطِّيب. فَمَا هَذَا يَا بْنَ مُعَاوِيَةَ ؟!

فقال يزيد: يا أبا عبدالله! هذا طيب يُصنع لنا بالشام. ثمّ دعا بقدح فشربه ثمّ دعا بقدح آخر، فقال : اسق أبا عبدالله يا غلام .

فَقَالَ الحُسَيْنُ: عَلَيْكَ شَرَابَكَ أَيُّهَا المَرْءُ! لاَ عَيْنَ عَلَيْكَ مِنِّى. فَشَرِبَ وَ قَالَ:

أَلاَ صَاحِ لِلْعَجَبِ دَعَوْتُكَ ثُمَّ لَمْ تُجِبِ

لمعاوية لمّا أراد أخذ البيعة له (أى ليزيد) : تُريدُ أنْ تُوهِمَ النَّاسَ ؟! كَأَنَّكَ تَصِفُ مَحْجُوباً ، أو تَنْعَتُ غَائِباً ، أوْ تُخْبِرُ عَمَّا كَانَ مِمَّا احْتَوَيْتَهُ بِعِلْمٍ خَاصٍّ ! وَ قَدْ لَ يَزِيدُ مِنْ نَفْسِهِ عَلَى مَوْقِعِ رَأيِهِ . فَخُذْ يَزِيدَ فِيمَا أَخَذَ بِهِ مِن اسْتِقْرَائِهَا لكِلاَبَ المُهَارِشَةَ * عِنْدَ التَّحَارُسِ، وَالحَمَامَ السَّبق لاِثرَابِهنَّ ، وَالقَيْنَات ذَوَاتِ المَعَازِف ، ** وَ ضُرُوبِ المَلاَهِى ؛ تِجِدْهُ نَاصِراً! دَعْ عَنْكَ مَا تُحَاوِلُ ؛ فَمَا أَغْنَاكَ أَنْ تَلْقَى اللهَ بوزْرِ هَذَا الخَلْق بأَكْثَرَ مِمَّا أنتَ لاَقِيهِ . * * *

و قال عليه السلام لمعاوية أيضاً: حَسْبُكَ جَهْلُكَ؛ أَثَرْتَ العَاجِلَ عَلَى الآجِلِ! فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: وَ أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنَّكَ خَيْرٌ مِن يَزِيدَ نَفْساً، فَيَزِيدُ وَاللهِ خَيْرٌ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ مِنْكَ! فَقَالَ الحُسَيْنُ: هَذَا هُوَ الاءفْكُ وَالزُّورُ! يَزِيدُ شَارِبُ الخَمْرَ وَ مُشْتَرِى اللَّهْوِ خَيْرٌ مِنِّى ؟! ****

* ـ المُهَارَشَةُ : تَحريشُ بعضها على بعض .

** ـ المَعَازِفُ، جَمعُ مِعْزَفٍ: آلاتٌ يُضرَبُ بها كالعُود.

*** ـ «الإمامة و السياسة» ج ١، ص ١٥٣.

**** ـ «الإمامة و السياسة» ج ١، ص ١٥٥.

إلَى القِينَـاتِ وَاللّذا ت وَالصَّهْبَاءِ والطَّرَبِ
وَ بَاطِيَـةٍ مُـكَـلَّـلَـةٍ عَلَيْهَـا سَـادَةُ العَرَبِ
وَ فِيهِـنَّ الّتِـى تَبَـلْت فُـؤَادَكَ ثُـمَّ لَـمْ تَتُبِ

فَوَثَبَ الحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَ قَالَ : بَل فُؤَادَكَ يَا بْنَ مُعَاوِيَةَ . [١]

و أورد فى «شفاء الصدور فى شرح زيارة العاشـور» ـ و هـو مـن الكتـب النفيسة ذات التحقيقات الرشيقة ـ عن كيـاء الهراسـىّ (الـذى سمّـاه ابـن خلّكـان علىّ! بن محمّد الطبرىّ) ، هذه الابيات عن يزيد بن معاوية :

أَقُـولُ لِصَـحْبٍ ضَـحَّتِ الكَأْسُ شَمْلَهُمْ
وَدَاعِـى صَـبابَـاتِ الهَـوَى يَتَـرَنَّـمُ

---

١ ـ «الاغـانى» ج ١٤، ص ٦١، طبعـد ساسـى، و نقلـه كذلـك المـيرزا أبـوا لفضـل الطـهرانىّ فى «شـفاء الصـدور فى شـرح زيـارة العاشـور» ص ٢٨٨، و عـن «كـامل التواريـخ» لكنّـى لم أعـثر عليه عند مراجعتى لطبعتين من «كامل التواريخ» .

و ينبغـى العلـم أنّ البيـت الرابـع قـد ورد فى «شـفاء الصـدور» بلفـظ «لم تبـت»، و ذكـره فى «ناسـخ التواريـخ» ج ٣، ص ١٧، مجلّـد الإمـام السـجّاد عليـه السـلام، الطبعـد الحروفيّـة ، بلفـظ «لم تنب»، و أورده فى «الاغانى» بلفظ «لم تتب» .

و باعتبـار أنّ نقـل «ناسـخ التواريـخ» كـان فى نظـرى أقـرب لافـادة المعـنى فقـد اعتمدتـه فى الترجمـة الفارسـيّة للشـعر. و ذكـر فى «الاغـانى» أنّ هـذه الاشـعار لـيزيد بصـورت سـائب خـاثر و هـو مغـنّ معـروف ، أى أنّ سـائب كـان يـأخذ الاشـعار الـتى ينشـدها يزيـد حـال شـربه و سـكره فيتغنّـى بها .

يقـول فى «أقـرب المـوارد» فى مـادّة بطـى : الباطيـة : النـاجود ، و عـن أبى عمـرو أن الباطيـة إنـاء مـن الزجـاج يُمـلا و يوضـع وسـط مجلـس الشـراب يغـرف منـها الشـاربون فيمـلاون أقداحـهم . و جمعها بَواط .

و يقـول فى مـادّة كَـلَّ: كَلَّـلَ فلانـاً: أَلْبَسَـهُ الاءكْلِيـلَ، و الإكْلِيـلُ: التَّـاجُ، و شِـبهُ عِصَابَـةٍ تُزَيَّـنُ بـالجَوْهَر. و جمعـه أكـاليل. و يقـول فى مـادّة تَبَـلَ: تَبَلَـهُ تَبـلاً بعَقْلِـهِ؛ تَبَلَـهُا لحُـبُّ: أَسْـقَمَهُ وَ أَفْسَدَهُ.

خُـذُوا بِنَصِـيبِ مِـنْ نَعِـيم وَلَـذّةٍ
فَكُـلّ وَ إِنْ طَـالَ المَـدَى يَتَصَـرَّمُ[1]

و روى كذلك عن سبط ابن الجوزىّ عن ابن عقيل قال :

و ممّا يدلّ على كفـر يزيـد و زندقتـه أشـعاره الـتى أفصـح بهـا بالالحـاد و أبـان عـن خبـث الضمـائر و سـوء الاعتقـاد ، فمنـها قولـه فى قصيدتـه الـتى أوّلها :

عَلَيَّـةُ هَـاتِى وَاعْـلِنِـى وَتَرَنَّمِى بِـذَلِـكَ إِنِّـى لاَ أُحِبُّ التَّنَاجِيَا
حَدِيثُ أَبى سُفْيَانَ قِدْماً سَمَا بِهَا إِلَى أُحُـدٍ حَتَّـى أَقَامَ البَوَاكِيَزا
أَلاَ هَـاتَ سَقِّينى عَلَى ذَاكِ قَهْوَةً تُخَـيِّرُهَـا الْعَتْبَـاءُ كَـرْماً شَامِيا
إِذَا مَـا نَظَـرْنَا فِـى أُمُـورٍ قَدِيمَةٍ وَجَـدْنَا حَـلاَلاً شُـرْبَهَا مُتَوَالِيَا
وَإِن مُتُّ يَاأُمّ الاحْيْمِرِ فَانْكِحِى وَ لاَ تَأْمَـلِى بَعْـدَ الفِرَاقِ تَلاَقِيَا
فَإِنّ الّـذِى حُدِّثْتِ عَنْ يَوْمِ بَعْثِنَا أَحَادِيثُ طَسْمٍ تَجْعَلُ الْقَلْبَ سَاهِيَا
وَ لاَبُـدَّ لِى مِنواَ نْ أَزُورَ مَحَمَّـداً بِمَشْمُولَةٍ صَفّرَاءَ تَرْوَى عِظَامِيَا[2]

و روى القُرْغْلِىّ [3] عن يزيد أنّه أنشد هذا البيت :

وَ لَـوْ لَمْ يَمَـسَّ الارْضَ فَاضِـلُ بَـرْدِهَا
لَمَـا كَـانَ فِيهـا مَسْـحَـةٌ لِلـتَّيَمُّـمِ

و قال أيضاً إنّ أقوال يزيد :

---

١ ـ «شفاء الصدور» ص ٢٩٢.

٢ ـ «شفاء الصدور» ص ٢٩٣؛ و كذا فى «تذكرة الخواصّ» ص ١٦٤، الطبعة الحجريّة .

٣ ـ القُرغلـىّ هـو أب مصنّـف كتـاب «تذكـرة الخـواصّ» . لانّ سـبط ابـن الجـوزىّ ! لقبـه شمـس الديـن ، و اسمـه يوسـف بـن قزاغلـىّ . و أورد ابـن خلّكـان فى «وفيّـات الاعيـان» ذيـل ترجمـة جـدّه عبدالرحمـن بـن الجـوزىّ أنّ أبـا يوسـف كـان قزاغلـىّ ، و كـان يوسـف حنفيّـاً و واعظـاً مشهوراً .

مَعْشَرَ النَّدْمَانِ قُومُوا وَاسْمَعُوا صَوْتَ الاغَانى
وَاشْرَبُوا كَأسَ مُدَامٍ وَاثْرُكُوا ذِكْرَ المَعَانى
شَغَلَتْنى نَغْمَةُ العِيدَانِ عَنْ صَوْتِ الاذَانِ
وَ تَعَوَّضْتُ عَنِ الحُورِ عَجُوزاً فِى الدِّنَانِ[1]

و فى «مروج الذهب» ورد أنّ يزيد أرسل مُسلِمَ بْنَ عَقَبَة لحرب عبدالله ابن الزبير، فأنشد هذين البيتين و كتب بهما إلى ابن الزبير:

أدعُ إلَهَكَ فِى السَّمَاءِ فَإنَّنى أدْعُو علَيْكَ رِجَالَ عُكَّوَ أَشْعَر
كَيْفَ النَّجَاةُ أَبَا خُبَيْب مِنْهُمْ فَاحْتَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ أَتَى العَسْكَرِ[2]

و روى أيضاً فى «شفاً الصدور» هذه الابيات عن يزيد :

شُمَيْسَةُ كَرْمٍ بُرْجُهَا قَعْرُ دَنِّهَا
وَ مَشْرِقُهَا السَّاقِى وَ مَغْرِبُهَا فَمِى
فَإنْ حَرُمَتْ يَوْمًا عَلَى دِينِ أَحْمَدٍ
فَخُذْهَا عَلَى دِينِ المَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمِ[3]

و نُقل من ديوانه كما شهد بذلك سبط ابن الجوزىّ ، و كما هو معروف فى كتب المقاتل، أنّه أنشد هذين البيتين اللذين يكشفان عن كفره و نفاقه القديمين عند ورود سبايا أهل البيت الشام وَ إشرافهم على رُبى جيرون :

لَمَا بَدَتْ تِلْكَ الحُمُولُ وَ أَشْرَقَتْ تِلْكَ الشُّمُوسُ عَلَى رُبَى جَيْرُونِ
نَعَبَ الغُرَابُ فَقُلْتُ نَحْ أَوْ لاَ تَنْحُ فَلَقَدْ قَضَيْتُ مِنَ النَّبِىِّ دُيُونِى

---

١ ـ «شفاء الصدور» ص ٢٩٣ ؛ و كذا فى «تذكرة الخواصّ» ص ١٦٤، الطبعة الحجريّة .

٢ ـ «مروج الذهب» ج ٣ ، ص ٦٩.

[٨] ـ «شفاء الصدور» ص ٢٩٢ و ٢٩٣ ؛ و كتاب «تذكرة الخواصّ» ص ١٤٨، الطبعة الحجريّة .

و فى «التذكرة» لسبط ابن الجوزىّ رواية عن الزُهرىّ أنّه لمّا جىء بالرؤوس إلى دمشق كان يزيد فى منظره على جيرون، فأنشد لنفسه: «لَمَّا بَدَتْ» إلى آخر البيتين المذكورين .[1]

و أورد ابن الاثَير الجَزَرَىّ أنّه حين وُضع الرأس المبارك لسيّد الشهداء عليه السلام بين يَدَى يزيد و حدّثوه بأمره، فأَذِنَ يَزيد للناس فدخلوا عليه و الرأس بين يديه و معه قضيب و هو ينكت به ثغره بشكلٍ أثّر فيه،[2] ثمّ قال:[3] إنّ هذا (الحسين) و إيّانا كما قال الحصين بن الحُمام :

---

١ ـ «شفاء الصدور» ص ٢٩٢ و ٢٩٣ ؛ و كتاب «تذكرة الخواصّ» ص ١٤٨.

٢ ـ فى عبارته معه قضيبٌ ينكتُ به ثَغْرَهُ، و معنى النكت كما فى «أقرب الموارد» : نَكَتَ الاَرْضَ بقضيب أو بإضبع نَكْتاً: ضَرَبَها به فأثَّر فيها؛ يفعلون ذلك حالَ التفكُّر.

٣ ـ يقول آية اللهً الحاجّ الملاّ محمود التبريزىّ نظاما لعلماء فى كتاب «شهاب الثاقب د ر ردّ نواصب » (= الشهاب الثاقب فى ردّ النواصب» ص ١٥١ و ١٥٢ ما ترجمته : يخطر ببالى ما عانته سكينة من المحن ، تلك المظلومة المشرّدة التى وقفت حاسرةً فى مجلس يزيد بحضور الاجانب و هى تستر وجهها بكمّها و تمسك بيدها الأُخرى طوق الحديد لتمنع مسّه جلدها المتقرّح فيزيد ألمها و عذابها . فقال ولد الزنا يزيد : يا جارية ! لِمَ تسترين وجهكِ ؟

قالت: لَوَ لستَ على شريعة جدّى محمّد ؟! إنّما أستره عن هؤلاء الاجانب .

قال: فلِمَ تضعين يدك على عنقك ؟ قالت : طوق الحديد قرّح رقبتى ، فأنا أمسكه بيدى . لئلاّ يمسّ القرح فيزيد الالم و الاذى .

فبكى يزيد ، و كان يجفّف دمعه بكمّه، فصاحت سُكينة : يا يزيد أُقسم بالله عليك ، لو رآنا جدّى رسول الله عرايا جائعين بين الاجانب فما كان سيفعل ! و ما كان يقول ؟! آهٍ آهٍ !

ترا اى فلك پرده‌ها چاك باد	ترا دشمن اى چرخ چالاك باد
تو اى قامت چرخ شو چنبرى	تو اى آسمان باش نيلوفرى
خزان باد فصل تو اى نو بهار	كمان باد سور تو اى جويبار
تو اى مِهر شو تا أبد سرنگون	تو اى مَه بپالاى رخ را به خون
تو اى گلشن زندگى بر ميار	تو اى پير دهقان درختى مكار

أَبَى قَوْمُـنَا أَنْ يَنْصِفُونَا فَأُنصَفَتْ قَوَاضِـبُ فِى أَيْمَاننا تُقْطِرُ الدَّمَا
يُفَلِّقْنَ هَاماً مِنورِجَالٍ أَعِزةٍ عَلَيْنَا وَ هُـمْ كَانُـوا أَعَـقَّ وَ أَظْلَمَـا[1]

تو ای قـدّ دلکش همه سرمه سای تو ای سرو سرکش ز پا أندر آی
تـو ای نوجـوان زنـدگانی مـکن ز مـن چهـره را ارغـوانی مـکن
تو ای نغمـه جـز ناله راهی مپوی تو ای نغمـه جز ناله حرفی مگوی
زبـان بسـتن از قصّـــة دوش بـه در ایـن راز نگشـــودن گوش بـه
خوشـتر آن باشـد که سـرّ دلبران گفـته آیـد در حـدیث دیگران

يقول: «فلتتمزّق أستارك أيّها الفَلَك، و لتُبْدِ عداءك أيّها الفَلَك المسرع!
لتصبح قامتك ـ أيّها الدهر ـ منحنية، و أنتِ أيّتها السماء كوني لازِوَرْدِيَّة.
عساكَ أيّها الربيـع الفـتىّ كنـت خريفـاً، و عسـى السـرور علـى صفتيـك ـ أيّـها الجـدول ـ كـان منحنياً.
عسـاكِ ـ أيّتـها الشـمس ـ هويـتِ إلى غـير رجعـة ، و عسـى طلعتـك ـ أيّـها القمـر ـ ملطّخـة بالدم .
و يا بستان الحياة كن عقيماً غير مثمر، و يا أيّها الفلاّح العجوز لا تزرعنّ من شجرة.
و يـا صـاحب القامـة الجميلـة اغمـس نفسـك بـالكحل و السـواد، و يـا أشـجار السـرو امتـدّة الشامخة ترجّلى و اسقطى !
يا أيّها الفتى دع الحياة و لا تجعلنّ ـ من الخمر ـ طعلتك بلون الورد .
لا تبحثى أيّتها النغمة عن غير الانين ، و لا تتحدّثى عن غير الانين .
إنّ الصمت عن قصّة البارحة أولى ، و إنّ الإعراض عن استماع هذا الامر أفضل .
و من الافضل أن يأتى حديث سرّ الحبيب الذى خطف القلب فى كلام الآخرين» .
انتهى كلام نظام العلماء أعلى اللـه مقامه .
فلاحظـوا مسـتوى الدنـاءة و الرذالـة و العنـاد الـذى تمـرّغ بـهأُولئـك الذيـن ألّفـوا حديثـاً لطّـلاب المـدارس فى العربيّـة السـعوديّة كتابـاً باسـم «سـيرة أمـيرالمومنين يزيـد» . وَيْحـاً لهـم و تبّـاً لهم ،أُولئِكَ أَصْحَـابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـالِدُونَ .

١ ـ أُورد هـذه القصّـة مضافـاً إلى ابـن الاثـير، سـبط ابـن الجـوزىّ فى«تذكـرة الخـواصّ» ص ١٤٨ و ١٤٩ عـن ابـن أبى الدنيـا؛ و أوردهـا كذلـك المسـعودىّ فى «مـروج الذهـب» ج ٣ ، ص ٦١ ، طبعـة دار الاندلـس . و كـذلك ذكـرهـا ابـن كثـير الدمشـقىّ فى « البـدايـة و النهـايـة» ج ٨ ،

فقال له أبو بَرزَة الاسْلَمِيّ: أَتَنكُتُ بقَضِيبكَ فِي ثَغْرِ الحُسَيْن ؟!

أَمَا لَقَدْ أَخَذَ قَضِيبُكَ فِي ثَغْرِهِ مَأْخَذاً لَرُبَّمَا رَأَيْتُ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ يَرْشُفُهُ ، أَمَا إِنَّكَ يَا يَزِيدُ تَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَابْنُ زِيادٍ شَفِيعُكَ ؛ وَ يَجِيءُ هَذَا وَ مُحَمَّدٌ شَفِيعُهُ . ثُمَّ قَامَ فَوَلَّى .[1]

ثمّ قال يزيد: واللَهِ يا حسين لو كنتُ أنا صاحبك ما قتلتُك . ثمّ قال:

أَتَدْرُونَ مِنْ أَيْنَ أَتَى هَذَا ؟

قَالَ : أَبِي عَلِيٌّ خَيْرٌ مِن أَبِيهِ . وَ فَاطِمَةُ أُمِّي خَيْرٌ مِن أُمِّهِ. وَ جَدِّي

ص ١٩١ و ١٩٢، و أوردها الطبرىّ فى «تاريخ الأُمم و الملوك» ج ٤، ص ٣٥٢ و ٣٥٣، طبعة مطبعة الاستقامة ؛ و الشيخ المفيد فى «الإرشاد» ص ٢٦٨ ، الطبعة الحجريّة ؛ و الشيخ الطبرسىّ فى «إعلام الورى» ص ٢٤٨ .

١ ـ ذكر العلاّمة السيّد شرف الدين فى «الفصول المهمّة» ص ١١٦ إلى ١١٨، الطبعة الثانية، من جنايات يزيد بعد واقعة كربلاء قضيّة إرساله المجرم مسلم بن عقبة و جناياته فى المدينة الطيّبة و الأُمور التى ارتكبها فى المدينة ممّا كادت السماوات يتفطّرن منها : و حسبك أنّهم أباحوا المدينة المنوّرة ثلاثة أيّام حتّى افتُضّ فيها ألف عذراء من بنات المهاجرين و الانصار، كما نصّ عليه السيوطىّ فى «تاريخ الخلفاء» و علمه جميع الناس . و قُتل يومئذٍ من المهاجرين و الانصار و أبناؤهم و سائر المسلمين اللائذين بضريح سيّد النبيّين صلّى الله عليه وآله وسلّم عشرة آلاف و سبعمائة و ثمانون رجلاً ، و لم يبقَ بعدها بدرىّ ، و قذتل من النساء و الصبيان عدد كثير، و كان الجندىّ يأخذ برجل الرضيع فيجذبه من أُمّه و يضرب به الحائط فينتثر دماؤه على الارض و أُمّه تنظر إليه ، ثمَّ أُمروا بالبيعة ليزيد على أنّهم خول عبيد إن شاء استرقّ و إن شاء أعتق، فبايعوه على ذلك و أموالهم مسلوبة و رحالهم منهوبة و دماؤهم مسفوكة و نساؤهم مهتوكة ، و بعث مجرم بن عقبة برؤوس أهل الدمينة إلى يزد . فلمّا أُلقيت بين يديه قال : ـ ليت أشياخى ببدرٍ شهدوا ـ ... الابيات ، و يقول فى الهامش : إرسال رؤوس أهل الميدنة إلى يزيد و إنشاده أبيات ابن العزبعرى مشهور مستفيض ، و قد ذكره ابن عبد ربّه الاندلسىّ فى أواخر وقعة الحَرَّة من «العقد الفريد» ، و نقل هناك اعتراف يزيد بارتداده عن الإسلام .

رَسُولُ اللَهِ خَيْرٌ مِنْ جَدِّهِ. وَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ وَ أَحقذ بهَذَا الاَمْر مِنْهُ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : أَبُوهُ خَيْرٌ مِنْ أَبـى ؛ فَقَـدْ حَـاَجَّ أَبـى أَبَـاهُ إِلَـى اللَـهِ . وَ عَلِـمَ النَّاسُ أَيُّهُمَا حُكِمَ لَهُ . وَ أَمَّا قَوْلُهُ : أُمِّـى خَـيْرٌ مِـنْ أُمِّـهِ ، فَلَعَمْـرى فَاطِمَـةُ بِنْـتُ رَسُولِ اللَهِ خَـيْرُ مِنـو أُمِّـى . وَ أَمَّـا قَوْلُـهُ جَـدِّى رَسُـولُ اللَـهِ خَـيْرٌ مِـن جَـدِّهِ فَلَعَمْـرى مَـا أَحَـدٌ يُؤْمِـنُ بِاللَـهِ وَاليَـوْمِ الآخِـرِ يَـرَى لِرَسُـولِ اللَـهِ فِينَـا عَـدْلاً وَلاَ نِداً .

وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا أُتِىَ مِنْ قِبَلِ فِقْهِهِ ، وَ لَمْ يَقْرَأْ : «قُلِ اللَهُمَّ مَـلِكَ الْمُلْكِ». [١]

و نشـاهد هنـا أنّ البـائسَ قـد خلـط بـلا فـهم بـين القـدرة الظاهريّـة التكوينيّة و بين الحقّانيّة و الولايـة ، فـهو يشـيّد منطقـه علـى المبـدأ الميكـافيللّىّ الـذى يعتـبر الحـقّ قائمـاً علـى أسـاس القـدرة و التسـلّط ، و تابعـاً لمـن قـهر بالسيف ، و هو نفسه منطق عُمَـر الـذى بحثنـا عنـه بـالتفصيل فى سلسـلة كتـب «معرفـة الإمـام» [٢] و أثبتنـا أنّـه منطـق مخـالف للعقـل و الوجـدان و رسـالات الانبياء ، و مخالف لتنزيل الكتب السماويّة و دعوة الناس للعدل و الاحسان .

فهذا المنطق هو شريعد الغـاب و الوحـوش الـذى يـبرّر بـه كـل متسـلّط فتكه بالضعفاء البائسين ، و يوجّه به كلّ ظالم ظلمه و إجحافه .

و سـيتصوّر كـلّ مـن تشـبّه بـيزيد فى نزعتـه، و بعمـر فى سـيرته، و كـلّ ميكافيللّىّ الاُسـلوب و السـنّة أنّ أنواع قهـرهم و جبروتهم و تسلّطهم حقّ مُسلّم

١ ـ «الكـامل فى التـاريخ» ج ٤، ص ٨٤ و ٨٥، طبعـة دار صـادر، بـيروت سـنة ١٣٨٥. و الآية المباركـة هـى الآيـة ٢٦ ، مـن السـورة ٣ : آل عمـران : قُـلِ اللَـهُمَّ مَـلِكَ الْمُلْـكِ تُؤْتِـى الْمُلْـكَ مَن تَشَآءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْـكَ مِمَّـن تَشَـآءُ وَ تُعِـزُّ مَـن تَشَـآءُ وَ تُـذِلُّ مَـنَ تَشَـآءُ بِيَـدِكَ الْخَـيْرُ إِنَّـكَ عَلَـى كُـلِّ شَـىْءٍ قَدِيـرٌ؛ و أورد هـذه القصّـة الطـبرىّ أيضـاً فى تأريخـه ج ٤ ، ص ٣٥٥ ، طبعـة مطبعـة الاستقامة .

٢ ـ «معرفة الإمام» ج ٧، الدرس ٩١ إلى ٩٣.

٣ ـ «معرفة الإمام» ج ٧، الدرس ٩١ إلى ٩٣.

لهم ، و هذا ما سيقطع الطريق على تربية النفس و تكميلها و تهذيبها و رياضتها للعلوّ و السموّ ، و سيسوق العالم فى اتّجاه الزوال و الدمار .

و قد ورد فى «مروج الذهب» أنّ يزيد صاحب حراب و جوارح كلاب و قرود و فهود [1] و منادمة على الشراب [2] .

و جلس ذات يوم على شرابه و عن يمينه ابن زياد و ذلك بعد قتل الحسين عليه السلام ، فأقبل على ساقيه فقال :

اسْقِنى شَرْبَةً تُرَوِّى مُشَاشِى [3] ثُمَّ مِلْ فَاسِقِ مِثْلَهَا ابْنَ زِيادِ
صَاحِبَ السِّرِّ وَالامَانَةِ عِنْدِى وَ لِتَسْدِيدِ مُغْنَمِى وَ جِهَادِى

ثُمَّ أَمَرَ الْمُغنِّينَ فَغَنُّوا بهِ . [4]

و ورد فى عبارة سبطَ ابن الجوزىّ بعد هذين البيتين بيت ثالث بهذه العبارة :

قَاتِلَ الخَارِجِىِّ أَعْنِى حُسَيْناً وَ مُبِيدَ الاعْدَاءِ وَالحُسَّادِ

---

١ ـ يقول فى «أقرب الموارد» الفهد حيوان مفترس يُصاد به، سيّى الخلق و شديد الغضب و ثّاب، و يوصف بكثرة النوم، فيقال: أنوم من فهد.

٢ ـ و يقول (السيّد شرف الدين» فى كتابه «النصّ و الاجتهاد» فى جنايات يزيد: ثمّ توجّه مجرم بن عقبة لقتال ابن الزبير (و هو إذ ذاك بمكّة) و قد بويع بالخلافة، فهلك المجرم فى الطريق و تأمّر بعده الحصين بن نمير بعهدٍ من يزيد، فأقبل بجيشه حتّى نزل على مكّة المكرّمة ، و نصب عليها العرّادات و المنجنيق، و فرض على أصحابه عشرة آلاف صخرة فى كلّ يوم يرمون بها، فحاصروهم بقيّة المحرّم و صفر و شهرَى ربيع يغدون على القتال و يروحون حتّى جاءهم موت طاغيتهم يزيد، و كانت المجانيق أصابت البيت الحرام فهدمته مع الحريق الذى أصابه.

٣ ـ المُشاشة جمعها مُشاش: و هى النفس و الطبع، يقال: فُلانٌ طيّب المُشَاشَة يعنى طَيِّب الخُلق . («أقرب الموارد») .

٤ ـ «مروج الذهب» ج ٣، ص ٦٧ ، طبعة دار الاندلس.

و نقل صاحب «شفاء الصدور» هذا البيت فى كتابه عن ابن الجوزىّ، و كانت عبارته هى: و قد نقل سبط ابن الجوزىّ تفصيل هذه القصّة و ذكر أنّ يزيد استدعى ابن زياد إليه و أعطاه أموالاً كثيرة و تحفاً عظيمة و قرّب مجلسه و رفع منزلته و أدخله على نسائه و جعله نديمه ؛ و سكر ليلةً و قال للمغنّى غنِّ ، ثمّ قال يزيد بديهيّاً : اسْقِنِى شَرْبَةً تُرَوِّى مُشَاشِى إلى آخر الابيات الثلاثة التى ذكرناها .[١]

و أورد سبط ابن الجوزىّ فى كتاب «التذكرة» : و أمّا المشهور عن يزيد أنّه لمّا حضر الرأس بين يديه جمع أهل الشام وَ جَعَلَ يَنْكُتُ عَلَيْهِ بالخَيْزَرَانِ وَ يَقُولُ : أَبْيَاتَ ابْنِ الزِّبَعورَى :

لَيْتَ أَشْيَاخِى ببَدْرٍ شَهِدُوا وَقْعَةَ الخَزرَجِ مِنْ وَقْعِ الاَسَلْ
قَدْ قَتَلْنَا القَرْنَ مِن سَادَاتِهِمْ وَ عَدَلْنَا قَتْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلْ

قال الشعبىّ : و زاد فيها يزيد فقال :

لَعِبَتْ هَاشِمُ بالمُلْكِ فَلاَ خَبَرٌ جَاءَ وَ لاَ وَحْىٌ نَزَلْ
لَسْتُ مِنْ خِنْدِفَ إنْ لَمْ أَنْتَقِمْ مِن بَنِى أَحْمَدَ مَا كَانَ فَعَلْ[٢]

---

١ ـ «شفاء الصدور» ص ٢٩٨.

٢ ـ «تذكرة خواصّ الأُمّة فى معرفة الائمّة» أو «تذكرة الخواصّ من الأُمّة تذكر خصائص الائمّة» ص ١٤٨، تأليف جمال الدين يوسف ، سبط الشيخ أبى الفرج عبدالرحمن ابن الجوزىّ ، و هذا الرجل سبط ابن الجوزىّ المعروف الذى كان تلميذاً لابن تيميّة و له كتاب «الردّ على المتعصّب العنيد» كما سيأتى لا حقاً؛ و كتاب «تذكرة الخواصّ» الذى يعدّ من الكتب المشهورة و المعروفة وا لحاوى للمطالب العالية التى يستدلّ بها علماء الشيعة من آثار هذا السبط .

لقد ذكر ابن كثير الدمشقىّ فى «البداية و النهاية» ج ٨، فى ثلاثة موارد تمثّل يزيد بأشعار ابن الزبعرى، الاوّل: فى ص ١٩٢ عن محمّد بن حميد الرازىّ ـ و هو شيعىّ ـ قال: حدّثنا محمّد بن يحيى الاحمرىّ ، قال : حدّثنا ليث عن مجاهد ، قال : لمّا جىء برأس

يقول أبوالفرج ابن الجوزىّ فى رسالته « الرَّدُّ عَلَى المُتَعَصِّب العَنيدِ المَانعِ مِن ذَمِّ يَزيد» : [1] لَيْسَ العَجَبُ مِنْ فِعْل عُمَرَ بْن سَعْدٍ وَ عُبَيْدِ اللَّه بْن زِيَاد، وَ إنَّمَا العَجَبُ مِنْ خِذْلاَنِ يَزِيدَ وَ ضَرْبِهِ بِالقَضِيب عَلَى ثَنِيَّةِ الحُسَيْنِ وَ إغَارَتِهِ عَلَى المَدِينَةِ .

أَفَيَجُوزُ أَنْ يُفْعَلَ هَذَا بالخَوَارِجِ ؟ أَوَلَيْسَ فِى الشَّرْعِ أَنَّهُمْ يُدْفَنُونَ ؟

أَمَّا قَوْلُهُ : لِى لَأَنْ أَسبيَهُمْ ؛ فأَمْرٌ لاَ يَقْنَعُ لِفَاعِلِهِ وَ مُعْتَقِدِهِ باللَّعْنَةِ ؟

وَ لَوْ أَنَّهُ احْتَرَمَ الرَّأْسَ حِينَ وُصُولِهِ وَ صَلَّى عَلَيْهِ وَ لَمْ يَتْرُكْهُ فِى طَسْتٍ وَ لَمْ يَضْرِبْهُ بقَضِيب ؛ مَا الَّذِى كَانَ يَضُرُّهُ وَ قَدْ حَصَلَ مَقْصُودُهُ مِنَ القَتْلِ ؟ وَلَكِنْ أَحقَادٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَ دَلِيلُهَا مَا تَقَدَّمَ مِن إنْشَادِهِ :

الحسين فوضع بين يدى يزيد، تمثّل بهذه الابيات :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جَزَعَ الخَزْرَجَ فِى وَقع الاَسَلْ

فأهلّوا و استهلّوا فَرَحاً ثُمَّ قالوا لى هَنيئاً لا تَسَلْ

حِينَ حُكّتْ بفِناءِ بَزكها واستحرَّ القَتْلُ فِى عبد الاسَلْ

قد قتلنا الضِّعفَ من أشرافِكم و عدَلْنا ميلَ بَدرٍ فاعْتَدَلْ

قال مجاهد: نافق فيها؛ والله ثمّ والله ما بَقِى فى جيشه أحدٌ إلاّت تركَه. أى ذَمَّه و عابَه!

والثانى: فى ص ٢٠٤ : عن تاريخ ابن عساكر فى ترجمة ريّا حاضنة يزيد، أنّ يزيد حين وُضع رأس الحسين بين يديه تمثّل بشعر ابن الزبعرى ، يعنى قوله :

لَيت أشياخى ببَدرٍ شَهدُوا جَزَعَ الخَزْرَج فِى وَقْع الاَسَلْ

قال: ثمّ نصبه بدمشق ثلاثة أيّام، ثمّ وضع فى خزائن السلاح حتّى كان زمن سليمان ابن عبدالملك ، جىء به إليه و قد بقى عظماً أبيض فكفّنه و طيّبه و صلّى عليه و دفنه فى مقابر المسلمين .

و الثالث: فى ص ٢٢٤ : فى واقعد الحَرّة حيث تمثّل به آنذاك.

١ ـ يقول حاجى خليفة الكاتب الحلبىّ فى كتاب «كشف الظنون عن أسامى الكتب و الفنون» ج ١، ص ٨٣٩، طبعد سند ١٣٦٠ : هذا الكتاب لابى الفرج عبدالرحمن بن علىّ بن الجوزىّ ، و هو كتاب مختصر لَوّله هذه العبارة : الحمدُ للّه كُفْوَ جَلاَلِهِ .

ليت أشياخى ببدر شهدوا جَزَعَ الخَزْرَجَ فِى وَقعِ الاَسَلْ
لاَهَلّوا وَاسْتَهَلّوا فَرَحاً ثُمَّ قَالُوا يَا يَزِيدُ لاَ تَشَلْ

ثمّ يقول ابن الجوزىّ: و هذه الابيات لابن الزبعرى نقل منها بعضها، و ذلك لانّ المسلمين قتلوا منهم عدداً يوم غزوة بدر، و قتلوا منهم آخرين يوم أُحد ، لذا فقد استهشد يزيد بهذه الابيات ، و يبدو أنّه غيّر بعض فقراتها . و يكفيه نفس استشهاده بها خزياً و وبالاً و خذلاناً . [١]

و ورد فى «الفتاوى الكبير» و هو من الأُصول المعتمدة لاهل السنّة رواية فيها :

اكْتَحَلَ يَزِيدُ يَوْمَ عَاشُورَاء بدَمِ الحُسَيْنِ وَ بالاءثْمِدِ لِيَقِرَّ عَيْنُهُ.

و يتّضح من هذا أنّ الاكتحال يوم عاشوراء يرجع إلى فعل يزيد: لَعَنَهُ اللَهُ وَ مَن اسْتَنَّ بسُنَّتِهِ . [٢]

و نرى من جانب آخر أنّ خبر شهادة الحسين عليه السلام يصل المدينة فيفرح حكامها (عمرو بن سعيد) و هو من بنى أُميّة فيضحك و يتمثّل بشعر عمرو بن معدى كرب، ثمّ يقول متهكّماً غامزاً : وَاعِيَةُ كَواعِيَةِ عُثْمَانَ . [٣]

---

١ ـ «شفاء الصدور» ص ٢٩٢ و ٢٩٤ .

٢ ـ «شفاء الصدور» ص ٢٩٨ .

٣ ـ يقول آية الله السيّد شرف الدين العاملىّ رحمة الله عليه فى كتاب «النصّ و الاجتهاد» ص ٣٤٠ و ٣٤١ ، الطبعة الثانية :

و أمرٌ عليهم (معاوية) شرّيره المتهتّك و سكّيره المفضوح، فكان منه فى طفّ كربلاء مع خامس أصحاب الكساء، و سيد شباب أهل الجنة ما أثكل النبيّين و أبكى الصخر الاصمّ دماً، و رمى المدينة الطيّبة بمجرم بن عقبة ـ بعهد إليه فى! ذلك من أبيه ـ * فكانت أمور تكاد السماوات يتفطّرن منها ، و حسبك أنّهم أباحوا المدينة الطيّبة ثلاثة أيّام ، حتّى افتضّ

و قد أورد كلّ من المسعودىّ و ابن كثير الدمشقىّ و ابن الاثير الجزرىّ

فيها ألف عذراء ** من بنات المهاجرين و الانصار، و قتل يومئذٍ من المهاجرين و الانصار و أبنائهم و سائر المسلمين عشرة آلاف و سبعمائة و ثمانون رجلاً، و لم يبق بعدها بدرىّ ، و قتل من النساء و الصبيان عدد كثير، و كان الجندىّ! يأخذ برجل الرضيع فيجذبه من أُمّه و يضرب به الحائط حتّى ينثر دماغه على الارض و أُمّه تنظر إليه . ثمّ أمروا بالبيعة ليزيد على أنّهم خول و عبيد، إن شاء استرقّ، و إن شاء أعتق، فبايعوه على ذلك و أموالهم مسلوبة، و رحالهم منهوبة، و دماؤهم مسفوكة، و نساؤهم مهتوكة. و بعث مجرم بن عقبة برؤوس أهل المدينة إلى يزيد. فلمّا ألقيت بين يديه تمثّل بقول القائل :

* ليت أشياخى ببدرٍ شهدوا * ـ الابيات.

* كما نصّ عليه الإمام ابن جرير الطبرىّ فى الصفحة الاخيرة من حوادث سنة ٦٣ من أوائل الجزء ٧ من تاريخه، و ابن عبد ربّه المالكىّ، حيث ذكر وقعة الحَرَّة فى الجزء الثانى من عقده الفريد.

و لم يبال يزيد و لا أبوه بقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: مَن أخافَ المَدِينَةَ أخَافَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسَ أجْمَعِينَ ، لاَ يَقْبَلُ اللهِ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ صَرْفاً وَ لاَ عَدْلاً. (أخرجه الإمام أحمد من حديث السائب بن خلاّد بطريقين إليه فى ص ٩٦ من الجزء ٤ من مسنده) .

** كما نصّ عليه السيوطىّ فى «تاريخ الخلفاء» و علمه جميع الناس، حتّى قال ابن الطقطقىّ فى ص ٧. (من تأريخه المعروف ب «الفخرىّ» ما هذا نصّه : فقيل إنّ الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوّج ابنته لا يضمن بكارتها، و يقول لعلّها افتضّت فى وقعة الحَرّة ـ انتهى .

و قال الشبراوىّ فى ص ٦٦ من كتابه «الإتحاف»: و افتضّ فيها ألف بكر، و حمل فيها من النساء اللائى لا أزواج لهنّ نحو ألف امرأة. (قلت) و قال ابن خلّكان، حيث ذكر وقعة الحرّة فى ترجمة يزيد بن القعقاع القارى المدنىّ من وفيّاته، ما هذا نصّه: كان يزيد بن معاوية فى مدّة ولايته قد سيّر إلى المدينة جيشاً مقدمه مسلم بن عقبة المرىّ فنهبها و أخرج أهلها إلى هذه الحرّة فكانت الوقعة فيها، و جرى فيها ما يطول شرحه و هو مسطور فى التواريخ ، حتّى قيل إنّ بعد وقعة الحرّة ولدت أكثر من ألف بكر من أهل المدينة بسبب ما جرى فيها من الفجور.

فى تواريخهم : و دخل البشير علـى عمـرو بـن سعيد فقـال : مـا وراؤك ؟ قـال ما سرّ الامير؛ قُتِلَ الحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ. فقال: نـادِ بقتلـه، فنـادى ،فَصَاحِ نسَـاءُ بَنى هَاشِمٍ وَ خَرَجَتْ ابْنَةُ عَقِيلِ بْنِ أَبِـى طَـالِبٍ وَ مَعَـهَا نِسَـاؤُهَا حَاسِـرَةً تَلْـوِى ثَوْبَهَا [١] وَ هِيَ تَقُولُ :

مَـاذَا تَقُـولُـونَ إِنْ قَـالَ النَّبِـىُّ لَكُـمْ
مَـاذَا فَـعَلْتُـمْ وَ أَنتُـمْ آخِـرُ الأُمَـمِ
بِعِـتْرَتِـى وَ بِأَهْـلِى بَعْـدَ مُفْتَقَـدِى
مِنْهُـمْ أُسَـارَى وَ قَتْـلَى ضُرِّجُوا بِدَمِ
مَـا كَانَ هَـذَا جَـزَائِى إِذْ نَصَحْتُ لَكُمْ
أَنْ تَخْـلُفُـونِى بِسُـوءٍ فِى ذَوِى رَحِمِى [٢]

يقول ابن الاثير: فلمّا سمع عمرو بن سعيد أَصواتَهنّ ضحك و قال :

عِجَّـتْ نِسَـاءُ بَنِـى زِيادٍ عَجَّةً كَعَـجِيجِ نِسْـوَتِنَا غَدَاةَ الاَرْنَبِ

---

١ ـ وردت فى عبـارة المسـعودىّ و ابـن الاثـير بلفـظ حَاسِـرَةً، و لكـن وردت فى عبـارة ابن كثير نَاشِرَةً شَعْرَهَا وَاضِعَةً كُمَّهَا عَلَى رَأْسِهَا.

و أوردهـا الشـيخ المفيـد فى «الإرشـاد» ص ٢٧٠، الطبعـة الحجريّـة، بهـذه العبـارة: خرجـت أُمّ لقمـانَ بنـتُ عقيـل بـن أبى طـالب رحمـةُ اللـه عليـهم حـين سَـمِعَتْ نَعِـىَ الحسـى ، حاسـرةً و معـها أَخَواتُـها أُمّ هـانى و أسمـاءُ و رَمْلـة و زينـبُ بنـاتُ عقيـل بـن أبى طـالب رحمـة اللـه عليـه تَبكى قَتْلاها بالطفوف و هى تقول ...

و يقـول الطـبرىّ فى تأريخـه، ج ٤، ص ٣٧٥ ، طبعـة مطبعـد الاسـتقامة ١٣٥٨: خرجـت ابنَةُ عقيل بن أبى طالب و معها نساؤها و هى حاسرةٌ تَلوى بثوبها و هى تقول....

٢ ـ «مـروج الذهـب» ج ٣ ، ص ٦٨ ، طبعـة دار الأندلـس ؛ و « البدايـة والنهايـة » ج٨ ، ص ١٩٧ و ١٩٨ ؛ و « الكـامل فى التـاريخ » ج ٣ ، ص ٣٠٠ ، طبعـة المطبعـة المنيريّـة بمصـر سـنة ١٣٥٦ ، و فى طبعـة دار صـادر بـيروت سـنة ١٣٨٥ : ج ٤ ، ص ٨٨ و ٨٩ ؛ و ذكرهـا أبوريحـان البيرونىّ فى «الآثار الباقيّة» ص ٣٢٩ ، طبعة ليدن .

ثُمَّ قَالَ عَمْرُو : وَاعِيَـةٌ كَوَاعِيَـةِ عُثْمَـانَ . ثُـمَّ صَعَـدَ المِنْـبَرَ فَـأَعْلَمَ النَّـاسَ قَتْلَهُ . [1]

لقد كان الهدف من إيراد هذه الحكايـات مـن سـيرة معاويـة و يزيـد بيـان أنّ معارضتهم و وقوفهم بوجـه أصـل القـرآن و حقّانيّتـه و العمـل بـه قـد ظـهر بهذه الكيفيّة [2] .

فـالحقـد عـلى رسـول اللـه هـو حقد على القرآن ؛ و العداء لاميرالمؤمنين

١-«الكامل فى التاريخ» ج ٤، ص ٨٩ ، طبعة بيروت .

٢ـ و الادهى من كـلّ ذلـك و الامـرّ هـو اعتقـاد البعـض بحقّانيّـة خلافتـه و امتناعـه مـن لعنـه ، و قـد طبـع السـعوديّون فى السـعوديّة فى أيّامنـا هـذه كتابـاً باسـم أمـيرالمؤمنين يزيـد بـن معاويـة يـدرّس فى مدارسـهم ؛ يقـول السـيّد شـرف الديـن فى هـامش ص ١١٩ مـن «الفصـول المهمّـة» : بـل اعتقد قـوم مـن الجمـهور أنّ يزيـد كـان مـن أوليـاء اللـه، و أنّ مـن توقّـف فيـه وقفـه اللـه علـى نـار جـهنّم ، فراجـع مـا حكـاه ابـن تيميّـة عنـهم فى الرسـالة السـابعة مـن مجموعـة الرسـائل الكـبرى فى صفحة ٣٠٠ من جزئها الاوّل .

و نقل الفسـطلانىّ فى بـاب مـا قيـل فى قتـال الـروم مـن كتـاب الجـهاد مـن «إرشـاد السـارىّ فى شـرح صحيـح البخـارىّ» فى ج ٦ ، ص ٢٣٠، عـن المـهلّب أنّـه كـان يقـول بثبـوت خلافـة يزيـد و أنّه من أهل الجنّة .

و نقـل ابـن خلـدون فى صفحـة ٢٤١ أثنـاء الفصـل الـذى عقـده فى مقدّمتـه لولايـة العـهد عـن القـاضى أبى بكـر ابـن العـربىّ! المـالكىّ أنّـه قـال فى كتابـه الـذى سمّـاه ب «العواصـم و القواصـم» مـا معناه : أنّ الحسين قُتل بشرع جدّه صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِو آلِهِ وَسَلَّمَ .

و ذكـر ابـن الاثـير فى عـدّة حـوادث سـنة ٥٨٣ فى آخـر ورقـة مـن الجـزء الحـادى عشـر مـن كاملـه أنّ فى تلـك السـنة مـات عبدالمغيـث بـن زهـير ببغـداد ، قـال : و كـان مـن أعيـان علمـاء الحنابلـة قـد سمـع الحديـث الكثـير و صنّـف كتابـاً فى فضـائل يزيـد بـن معاويـة أتى فيـه بالعجـائب ، و قد ردّ عليه أبوالفرج ابن الجوزىّ و كان بينهما عداوة .

و يقـول آيـة اللـه السـيّد شـرف الديـن: والذيـن عـذروا يزيـد مـن أوليائـه وا عتـذروا عنـه كثـيرون ، منـهم ابـن تيميّـة فيمـا تقدّمـت إليـه الإشـارة مـن رسـالته السـابعة ، و الغـزّالىّ فى الآفـة الثامنة من كتاب آفات اللسان من «إحياء العلوم» ج ٣ ، ص ١١٢.

و أولاده عداء مع القرآن، ذلك لانّ رسول الله و أميرالمؤمنين و الائمّة من اله الميامين هم حقيقة القرآن .

إنّ هؤلاء المترفين و المستكبرين ، المغرورين بعالم المادّة ، و المغمورين فى وادى الشهوات و النزوات، الذين أسكرتهم رياح الرياسة و الجاه، حين لمسوا عجزهم عن استئصال ظاهر القرآن، و عرفوا أنّ ذلك لا يخدم مصالحهم و رأوا أن لا يمكنهم الوصول إلى هدفهم الفاسد بما يريدون إلاّ بالقضاء على حقيقة القرآن بمنع العمل به و بإلغاء قوانينه فى البلاد الإسلاميّة، تماماً كما أكدّ غلادستون [1] رئيس حزب الاحرار و الصدر الاعظم الانجليزىّ ، الذى يرجع إلى أمر تقوية الحركة الصهيونيّة فى العالم فى خطابه و كلامه .

لذا فهم فى نفس الوقت الذى يذيعون فيه القرآن فى الاذاعات و يهتفون به من على المآذن، فقد كانوا يسوقون الناس إلى وادى الغفلة و السكرة، حتّى إذا ذهبت السكرة و بدأ هؤلاء يفيقون و شرعوا يتطّلعون حولهم و يحاولا اكتشاف ما ضاع منهم، شاهدوا ـ و يا للهول ـ أنّ السيل قد جرف كلّ شيء، المزرعة و البستان، المسجد و المدرسة، الزوجة و الولد ؛ ثمّ علتهم فجأةً الموجة الاخيرة للسيل العارم فقذفت بهم إلى ديار الفناء و العدم .

كان تأريخ سيّد الشهداء عليه السلام أُنموذجاً لنا و قدوةً إلى يوم القيامة تعلّمنا مدى الاهمّيّة الكبيرة للقيام بالحقّ وا لقسط و إعلان كلمة

١–ورد فى «فرهنگ معين» (= معجم المعين) ج ٦، مادة گ: گلادستون و ليام أورات ، Gladwtone William Ewart سياسىّ إنجليزىّ ، ولد سنة ١٨٠٩ م ، و توفّى سنة ١٨٩٨ م ، و كان زعيماً للاحرار، و تقلّد منصب رئاسة الوزراء أربع مرّات .

الحـقّ، و السـعى لتقـويم المسـار المنحـرف للطقـاة المـترفين ، و يعلّمنـا كذلـك أنّ العدوّ فى الجـانب الآخـر مـن هـذا الصـراع و المعركـة لا يدّخـر جـهداً عـن السعى بجدّيّة للقضاء على شـخص و شـخصيّة و وجـود الحـقّ و الحقيقـة، و إلى طمـس الآثـار و الخصـائص و الاخبـار؛ فيـأمر عشـرة مـن الفرسـان ليمتطـوا خيولهم فيـهجموا بقسـاوة علـى البـدن القتيـل الطريـح علـى الارض بـلا رأس فيطأوه!!

و لم يكن ذلك فى الحقيقـة ليمثّـل ركـل و رضّ البـدن ، بـل ركـلاً و رضّـاً لروحـه و حقيقتـه و شـخصيّته ، بيانـاً للعـالم و العـالمين بـأنّ مـن كـان منطقـه كمنطق الحسين هذا ، فعاقبته هذه !

و مـن المطـالب المهمّـة أنّ بـين أُميّـة كـانوا بعـد واقعـة كربـلاء يعملـون على هيئة نعل الخيول فيسمّرونها على أبواب دورهم !!

يقول المقرّم فى مقتله نقلاً عن « الآثار الباقية» للبيرونىّ :

لَقَدْ فَعَلُـوا بالحُسَـيْن مَـا لَـمْ يُفْعَـل فِـى جَمِيـعِ الاُ مَـمِ بِأَشْـرَارِ الخَلْـقِ مِـنَ القَتْلِ بالسَّيْفِ وَ الرَّمْحِ وَالحِجَارَةِ وَ إجْرَاءِ الخُيُولِ . [1]

ثمّ ينقـل فى ذليـل هـذا المطلـب عـن كتـاب «التعجّـب» للكراجكـىّ ، ص ٤٦ ، المُلحق ب «كنز الفوائد» :

وَ قَدْ وَصَلَ بَعْضُ هَذِهِ الخُيُـولِ إلَـى مِصْـرَ فَقُلِعَـتْ نعَالُـهَا وَ سُـمِّرَتْ عَلَـى أَبْـوَابِ الـدُّورِ تَبَرُّكـاً . وَ جَـرَتْ بَذَلِـكَ السُّـنَّةِ عِنْدَهُـم ؛ فَصَـارَ أَكْـثَرُهُمْ يَعْمَـلُ نَظِيرَهَا وَ يُعَلِّقُ عَلَى أَبْوَابِ الدُّورِ. [2]

١ـ «مقتـل الحسـين عليـه السـلام» للسـيّد عبدالـرزّاق المقـرّم، ص ٣٦١ ، عـن «الآثـار الباقية» ص ٣٢٩، طبعة ليدن.

٢- «مقتل الحسين عليه السلام» ص ٣٦٢ ، عن «الآثار الباقية» ص ٣٢٩ .

لكنّنا ننقل هنا عين عبارة البيرونىّ التى هى أشدّ إيلاماً للقلوب و تصديعاً للاكباد من حكاية المقرّم و نقله :

وَاتَّفَقَ فِيهِ (أى فِى العَاشِرِ مِنَ المُحَرَّمِ) قَتْلُ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِىٍّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ رَضِىَ اللَهُ عَنْهُمْ، وَ فُعِلَ بِهِ وَ بِهِمْ مَا لَمْ يُفْعَلْ فِى جَمِيعِ الاُمَمِ بِأَشْرَارِ الخَلْقِ مِنَ القَتْلِ بِالعَطَشِ وَالسَّيْفِ وَالاءحْرَاقِ وَ صَلْبِ الرُّؤُوسِ وَ إِجْرَاءِ الخُيُولِ عَلَى الاجْسَادِ فَتَشاءَمُوا بِهِ .

ثمّ يضيف البيرونىّ بعد ذلك: **وَ أَمَّا بَنُو أُمَيَّة** فقد لبسوا فيه ما تجدّد ، و تزيّنوا واكتحلوا و عيّدوا، و أقاموا الولائم و الضيافات، و طعموا الحلاوات و الطيّبات، و جرى الرسم فى العامّة على ذلك أيّام ملكهم، وب قى فيهم بعد زواله عنهم.

و **أَمَّا الشِّيعَة** فإنّهم ينوحون و يبكون أسفاً لقتل سيّد الشهداء فيه ، و يظهرون ذلك بمدينة السلام (مدينة الرسول) و أمثالها من المدن و البلاد، و يزورون فيه التربة المسعودة بكربلاء، و لذلك كره فيه العامّة من تجديد الاوانى و الاثاث .[1]

١ـ «الآثار الباقية عن القرون الخالية» لابى ريحان محمّد بن أحمد البيرونىّ الخوارزمىّ ، ص ٣٢٩ ، طبعة ليدن .

يقول آية الله السيّد شرف الدين العامليّ رحمة الله عليه فى كتاب «النّص و الاجتهاد» ص ٣٤١ و ٣٤٢ ، الطبعة الثانية: و فظائع يزيد من أوّل عمره إلى انتهاء أمره أكثر من أن تحويها الدفاتر أو تحصيها الاقلام و المحابر، و قد شوّهت وجه التأريخ و سوّدت صحائف السير، و كان أبوه معاوية يرى كلابه و قروده، و صقوره و فهوده، و يطّلع على خموره و فجوره، و يشاهد الفظائع من أُموره، و يعاين لعبه مع الغوانى، و يعرف لؤمه و خبثه بكلّ المعانى و يعم أنّه ممّن لا يؤتمن على نقير و لا يدلّى أمر قطمير، فكيف رفعه و الحال هذه إلى أوج الخلافة عن رسول الله ؟ و أحلّه عرش الملك و إمامه المسلمين ؟ و ملّكه رقاب الأُمّة ؟

فغشّها بذلك و قد قال رسول الله (فيما أخرجه البخارىّ فى الورقة الأُولى من كتاب

و لقد أبدع الفقيه و العالم و الشيخ اليمنىّ عمارة فى تعريضه بقصيدة رائعة على كلام يزيد و استكباره و بهتانه و فضيحته مقابل إمام الزمان و قطب دائرة الامكان و الحجّة على جميع الخلائق ، وَ لِلَّهِ دَرُّهُ وَ عَلَى اللَهِ أجْرُهُ :

غَصَبَتْ أُمَيَّةُ إرْثَ آلِ مُحَمَّدٍ سَفَهاً وَ شَنَّتْ غَارَةَ الشَّنَآنِ
وَغَدَتْ تُخَالِفُ فِي الخَلاَفَةِ أَهْلَهَا وَ تُقَابِلُ البُرْهَانَ بالبُهْتَانِ
لَمْ تَقْتَنِعْ حُكّامُهُمْ برُكُوبهِمْ ظَهْرَ النِّفَاقِ وَ غَارِبَ العُدوَانِ
وَقُعُودِهِمْ فِي رُتْبَةٍ نَبَوِيَّةٍ لَمْ يَبْنِهَا لَهُمُ أَبُو سُفْيَانِ
حَتَّى أَضَافُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَخَذُوا بِثزارِ الكُفْرِ فِي الايمَانِ
فَأَتَى زِيَادٌ فِي القَبِيحِ زِيَادَةً تَرَكَتْ يَزِيدَ يَزِيدُ فِي النُّقْصَانِ[1]

إنّ تدبير اللـه سبحانه لعجيب حقّاً، و كيف أنّه فى إتمامه الحجّة على الناس ينبعث شخص فاسق تافه و غير لائق بكلّ معنى الكلمة فيقف فى مواجهة الإمام بالحقّ و النور المطلق، و ينتحل لنفسه اسم النزيه الطيِّب و يدعو مقابله بالخبيث ؛ لَيصدق هنا حقّاً وقوف مركَزَى النور و الظلمة أمام

الاحكام، ص ١٥٥ من الجزء الرابع من صحيحه): مَا مِن وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ المُسْلِمِينَ فَيَمُوتُ وَ هُوَ غَاشٌ لَهُمْ إلاّ حَرَّمَ اللَهُ عَلَيهِ الجَنَّةِ. ـ انتهى. (و كذلك أورد هذه الرواية مسلم فى صحيحه، ج ١، ص ٦٧، باب استحقاق الوالى الغاشّ لرعيّته).

و روى الإمام أحمد من حديث أبى بكر فى الجزء الاوّل من مسنده ، ص ٦، أنّ رسول اللـه صلّى اللـه عليه (وآله) و سلّم قال :

مَن ولى من أُمور المسلمين شيئاً فأمرٌ عليهم أحداً محاباة ، فعليه لعنة اللـه . لا يقبل منه صَرفاً و لا عدلاً حتّى يُدخله مُدخَلزهُم .

و أخرج البخارىّ فى الورقة المذكورة من صحيحه أنّ رسول اللـه صلّى اللـه عليه (وآله) وسلّم قال :

ما مِن عبدٍ استرعاه اللـه رعيّته فلم يُحِطْها بنصيحةٍ إلاّ لم يجد رائحة الجنّة ـ انتهى .

١- «الغدير» ج ٤، ص ٣٥٦ و ٣٥٧.

بعضهما وجهاً لوجه.

يقول **الضَحَّاك بن عبدالله**، و هو من أنصار سيّد الشهداء عليه السلام : و مرّ بنا ليلة عاشوراء خيل لابن سعد تحرسنا و إنّ حُسيناً عليه السلام ليقرأ :

وَ لاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لاَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ .[1] فسمعها من تلك الخيل رجل يقال له **عبدالله بن سمير** وَ كان مضحاكاً وَ شجاعاً بطلاً فارساً فاتكاً و من الاشراف .

فقال : **نَحْنُ وَ رَبِّ الكَعْبَةِ الطَّيِّبُونَ مَيَزَّنَا مِنْكُمْ !**

فقال له **بُرَير بن خُضَير**: يا فاسق! أنت يجعلك الله من الطيّبين ؟!

فقال له : مَن أنت ويلك ؟ فقال له : برير بن خضير، فتسابّاً .[2]

و روى كلاّ من **الشيخ المفيد** و **أمين الآسلام الطبرسيّ**، أنّه: بعد أن جيء برأس الحسين عليه السلام إلى عبيدالله بن زياد ، و وردت زينب سلام الله عليها و السبايا مع السجّاد عليهم السلام ، و كان من زينب سلام الله عليها ذلك الكمم و الاحتجاج البديع، فلمّا أصبح عبيدالله بن زياد بعث برأس الحسين عليه السلام على رمح فدير به فى سكك الكوفة كلّها و قبائلها .

فروى عن **زَيْدِ بنِ أَرْقَمِ أَنَّهُ قَالَ : مُرَّ بِهِ عَلَىَّ وَ هُوَ عَلَى رُمْحٍ وَ أَنَا فِى**

١-الايتان ١٧٨ و ١٧٩، من السورة ٣ : آل عمران: و بقيّة الآية هى: **وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُسُلِهِ مَن يَشَآءُ فَامِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** .

٢-«الإرشاد» للمفيد ، ص ٢٥٢ ، الطبعة الحجريّة .

غُرْفَةٍ لِى ، فَلَمَّا حَاذَانى سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ :

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيم كَانُوا مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا » . [1]

فَقَفَّ وَاللَّهِ شَعْرى وَ نَادَيْتُ: رَأْسُكَ وَاللَّهِ يَابنَ رَسُولِ اللَّهِ أَعْجَبُ وَ أَعْجَبُ ! [2]

١- الآية ٩، من السورة ١٨: الكهف.

٢- «الإرشاد» ص ٢٦٦ و ٢٦٧ ؛ و «إعلام الورى» ص ٢٤٨.

يقول آية الله الحاجّ الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء رحمة الله عليه فى كتاب «جنّة المأوى» ص ٣٧٠ و ٣٧١ من الطبعة الثانية ، ضمن بحث بعنوان هل تكلَّم رأسُ **الحسين عليه السلام** : و لرئيس المحدّثين الشيخ الصدوق رحمة الله عليه كلمات نيّرة صدع بها فى جواب السلطان ركن الدولة رحمة الله عليه لها تعلّق تامّ بهذا الموضوع لا بأس بنقلها لتزيد بصيرة القارى الكريم :

و قد نقل فى ترجمة الشيخ الصدوق رحمة الله عليه أنّ السلطان ركن الدولة جلس يوماً على عرش السلطنة و شرع فى الإطراء و الثناء على الشيخ الصدوق رحمة الله عليه، لأنّه رأى قبل ذلك اليوم بيانات الشيخ رحمة الله عليه و تكلّماته المذهبيّة على ضوء العلم و المنطق ، فاعترض أحد الحضّار على السلان : أنّ اعتقاد الشيخ رحمة الله عليه على أنّ رأس سيّد الشهداء عليه السلام يوم حُمل على القناة كان يقرأ سورة الكهف. فقال الملك : لم أسمع منه هذه المقالة و لكن أسأله. فكتب إليه يستفتيه و يسأله عن هذا المطلب .

فكتب الشيخ الصدوق رحمة الله عليه فى الجواب: أنّ هذه الرواية محكيّة ممّن سمع من رأسه المطهّر أنّه يقرأ عدّة آيات من سورة الكهف ، إلاّ أنّه غير منقول منأحد الائمّة المعصومين عليهم السلام، و مع ذلك لا ننكره، بل هو صواب، لأنّا إن جوّزنا فى يوم الحشر تكلّم أيدى الظالمين و العاصين و أرجلهم كما نطق به القرآن و قال تعالى: **اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَا أَيدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**. (الآية ٦٥ ، من السورة ٣٦ : يس)، فكذا يجوز أن ينطق رأس الحسين عليه السلام و يتلوا القرآن، لكونه خليفة الله و إمام المسلمين و من شباب اهل الجنّة و سيّدهم و سبط النبيّ صلّى الله عليه وآله و ابن وصيّه، أُمّه فاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين صلوات الله عليهم أجمعين، بل إنكار هذا المطلب يؤول فى الحقيقة إلى إنكار قدرة الله تعالى و فضل الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وينشد هنا حجّة الإسلام نيّر التبريزىّ رضوان الله عليه فى مقام العجب و الدهشة :

سر بى تن،كه شنيده است بهلب آية كهف
يا كه ديده است به مِشكَوة تنور آية نور؟

و هذه المرثيّة ، كسائر مراثيه الأُخرى ، فى أعلى درجات الروعة و العظمة ، و أوّلها يبدأ بهذه الابيات :

اى ز داغ تو روان‌خون دل ازديدة حور
بى تو عالم همه ماتمكده تا نفخة صور
خاك بيزان به سراندر سِر نعش تو بنات
اشك ريزان به بَراز سوك تو شعراى غيور
ز تماشاى تجلاّى تو مدهوش كليم
اى سرت سرّ أنا الله، وسنان نخلة طور[1]

و العجب ممّن يكنر صدور أمثال هذه الامور ممّن بكى عليه الملائك فى مصيبته وتقاطر الدم من السماوات فى رزيّته و ناح عليه الجنّ بأصواته . و من أنكر هذه الاخبار و خوارق العادات مع كونها صحيحة فيجوز له إنكار جميع الشرائع و المعجزات الصادرة من النبىّ و الائمّة عليهم السلام ، بل و جميع الضروريّات الدينيّة و الدنيويّة ، فإنّها أيضاً قويّة السند صحيحة الطرق ، قد حصل لنا العلم بمضامينها .

١- «آتشكده» (= معبد النار) لحجّة الإسلام الشيخ محمّد تقى نيّر التريزىّ، ص ١٢١.

يقول: « يا من جرت على مصابك نواظر الحور بدماء القلوب ، بفقدك صار جميع العالم مأتماً إلى يوم نفخة الصور .

فالنساء عند نعشك كن يحثين التراب على الرؤوس ، و نجم الشِّعْرَى الغيور كان يذرف الدموع سِخاناً .

دُهش الكليم من التطّلع إلى تجلّيك ، يا من رأسك سرّ « أنا الله» و السنان نخلةُ الطور» .

ديده‌ها گوهمه دريا شو ودريا همه خون
كه پس از قتل تو منسوخ شد آئين سرور
شمع انجم همه گو اشك عزا باش و بريز
بهر ماتم زده كاشانه چه ظُلمات وچه نور
پای در سلسله سجّاد و به سرتاج يزيد
خاك عالم به سر افسر و ديهيم و قصور
دَير ترسا و سر سبط رسول مدنى
آه اگر طعنه به قرآن زند انجيل و زبور
تاجهان باشدوبوده‌استكه‌داده‌استنشان
ميزبان خفته به كاخ اندر ومهمان به تنور!
سربى‌تن كه شنيده‌است به لب آيةكهف؟
يا كه‌ديده است به مشكوة تنور آية نور؟[1]
إلى آخر هذه المرثيّة ذات النظرة الواقعيّة .
و من بين مراثيه الرائعة :

١- يقول : «و قل للعيون أن تصبح بحاراً من الدماء ، و لقد نسخ قتلك من القلوب الفرحة و السرور.
و قل لمصابيح الانجم كلّها أن تصبح نادبة باكية ، و نصبت الظلمات و النور سرادقات مأتمك .
حين ترسف قدم السجّاد فى الاغلال ، و يغفو التاج على رأس يزيد، فسُحقاً لرأس الملك و تعساً للتاج و القصور.
ديرُ راهبٍ نصرانىّ ، و رأسُ سبط الرسول المدنىّ !! آهٍ لو طعن الإنجيل و الزبور فى القرآن .
مَن يُرينا ـ إن سالفاً أو آنفاً ـ مضيّفاً يرقد فى قصره، فى حين ينام ضيفه فى التنور ؟
من سمع رأساً بلا جسد يتلو آية الكهف ؟ و من رأى فى مشكاة التنور آية النور؟».

قـتل شـهيد عشـق ، نه كار خدَنگ بود
دنيـا براى شـاه جهـان دار تنـگ بـود
عصـفور هر چه باد هم آورد باز نيست
شـهباز را ز پنجـة عصـفور ننـگ بـود
آئينه خود ز تاب تجلّى به هم شـكست
گيرم كه خصـم را دل پر كينه سنگ بود
نيرو از آن گرفت ، بر او آخت تير كين
قـومى كه با خـداى مُهـيّاى جـنگ بود
عهـد ألسـت اگر نگرفـتن عـنان او
شـهد بقـا بـه كـام مخـالف شـرنگ بود
از عشـق پـرس حالت جانبازى حسين
پاى بُـراق عقـل در اين عرصه لنگ بود
احمـد اگر به ذروة قـوسـين عروج كرد
معراج شاه تشـنه ، به سوى خدنگ بود[1]

١- ديـوان «آتشـكده» ص ١١٨ و ١١٩. يقـول : «لم يكـن قتـل شـهيد العشـق مـن فعـل السهم ، فلقد صارت الدنيا لملك العالم ضيّقة لا تسعه .
فالعصفور مـهما علـت بـه الريـح لـن يكـون بازيـاً ؛ و النسـر يـأنف لنفسـه أن يعلـق بـه مخلـب عصفور.
لقد تحطّمت المرآة من شعاع التجلّى ، و أدركت أنّ قلب الخصم الحقود قُدّ من حجر.
فـالذين اسـتمدّوا منـه العـون و القـوّة ثمّ أشـهروا عليـه سـهام العـداوة قـوم تهيّـأ و القتـال ربّهم .
و من لم يُمسك بعنانه عهدُ «ألستُ» فإنّ شهد البقاء سيستحيل فى فم العدوّ علقماً .
سَلْ عن العشق فى فداء الحسين ، لانّ قدم البراق فى هذا الميدان عرجاء .
فإن كان أحمد قد عرج إلى قاب قوسين، فقد كان معراج الملك الظامى إلى السهم».

از تیر کین چـو کرد تهی شـاه دین رکاب
آمد فرا به گوش وی از پرده این خطاب[1]
کای شـهسـوار بادیـة ابتـلای مـا
باز آکه زان تسـت ، حـریم لقـای ما
معراج عشق را شب أسراست هین بران
خوش‌خوش براق‌شوق به‌خلوت‌سرای ما
تـو از بـرای مـائـی و مـا از برای تـو
عهـدی اسـت این فنـای تـرا با بقای ما
دادی‌سری زشوق وخریدی‌لقای دوست
هـرگز زیان نبُـرد کس از خـون بهای ما
جانبازیت حجـاب دو بینی به هم درید
در جلوه‌گاه حسن توئی خود به جای ما
باز آکه چشـم مـا ز ازل از قدوم تست
خـود خـاکروب راه تـو بـود أنبیـای ما
هـین زان تسـت تـاج ربـوبیّت از ازل
گر رفت بر سَـنان سـرت اندر هوای ما[2]

١- یقـول: «و حـین هـوی ملـك الدیـن مـن رکابـه بسـهم الحقـد، جـاءه النـداء مـن سـرادق العرش .
یا فارس صحراء بلائنا الاوحد ! إنّ حریم لقائنا مهیّأ لك .
فعجّل لمعراج العشق فی لیلة الإسراء، و أهلاً ببراق الشوق إلی خلوة منزلنا.
فأنت لنا و نحن لك، و عهد أن یکون فناؤك ببقائنا.
جُدتَ برأسك من الشوق و اشتریت لقاء الحبیب، فلیس مغبوناً من دفعنا دیة دمه.
فداؤك مزّق حجاب الاثنینیّة، إذ إنّك فی موضع تجلّی الحسن قُمتَ مقامنا.

گرزآتش عطش‌جگرت‌سوخت‌غم مخور
از تســـت آب رحمـــت بی منتهـــای مـا
ور سـفله برد ز تو دسـتی ، مشو ملول
با شـــهپر خـدنـگ بپـرّد هُمـــــای مـا
گسـترده‌ایم بال مـلائك به جـای فرش
کـازار بـــر تـنت نکنـــد کـربـــلای مـا
دلـگیر گو مـباد خلیل از فدای دوست
کـافی اسـت اکـبر تـو ذبیـح منـــای مـا
کو نوح ؟ گو به دشـت بلا آی باز بین
کشـــتی شـکسـتگان محیـــط بـلای مـا
مـوسـی ز کوه طور شنید ار جواب لَن
گو بـاز شـو بـه جـــلوه گه نینـــوای ما
گر زنـــده جـــان ببُرد ز دار بلا مسیح
گو دار کـربـلا نـــگر و مبتـــلای مـا[1]

إنّ عيوننا من الازل فی‌ا نتظار مقدمك، و كان أنبياؤنا يمهدون لمقدمك الطريق.
هذا تاج الربوبيّة لك منذ الازل، مهما صعد رأسك على الرمح فی هوانا و حبّنا
١ـ يقول: «فلا تغتمّ إن ألهب العطش كبدك الحرّى، فإنّ لك ماء رحمتنا التی لا انتهاء لها.
و إن قطع الاسافلُ منك يداً فلا تحزن، و حلّق بزغب السهم إلينا يا طائر اليُمن.
و لقد بسطنا لك أجنحة الملائكة فراشاً، لئلاّ تؤذی بدنك كربلائنا.
فالخليل لا يغتمّ لفداء الحبيب، و يكفی أن يكون ودلك الاكبر ذبيح مُنانا.
أين نوح، فليقدم إلى صحراء المحنة و الينظر إلى سفينة المنكسرين فی بحر بلائنا.
و موسـی الـذی سمـع مـن جبـل الطـور جـواب «لـن»، فليقـدم مـرّة أُخـرى إلى محـــلّ تجلّينـــا بنينوی .

منسوخ کرد ذکر اوائل حدیث تو
ای داده تن ز عهد ازل بر قضای ما[1]

الحمد للّه و له الشکر أن یصل هذا الکتاب، و هو الجزء الثانی من «نور ملکوت القرآن» إلی خاتمته عند غروب یوم الرابع عشر من شهر شعبان المعظّم، عند اللیلة المبارکة للمیلاد المبارك لبقیّة اللّه الاعظم الحجّة ابن الحسن العسکریّ عجّل اللّه فرجه الشریف، و جعلنا اللّه تراب مَقْدَمه المبارك؛ و ذلك فی سنة ألف و أربعمائة و تسعة من الهجرة النبویّة علی مهاجرها آلاف التحیّة و السلام فی المدینة المقدّسة للمشهد الرضویّ علی ثاوه آلاف التحیّة و الاءکرام، علی ید الحقیر الفقیر السیّد محمّد الحسین الحسینیّ الطهرانیّ، غفر اللّه له ذنوبه، و وفّقه لما یحبّه و یرضاه.

اللّهمَّ صَلِّ عَلَی المُصْطَفَی مُحَمَّدٍ، و المُرْتَضَی عَلِیٍّ، وَالبَتُولِ فَاطِمَةَ، وَالسِّبْطِینِ الحَسَنِ وَالحُسَیْنِ؛ وَ عَلَی زَیْنِ العَابدِینَ عَلِیٍّ، وَالبَاقِرِ مُحَمَّدٍ، وَالصَّادِقِ جَعْفَرٍ، وَالکَاظِمِ مُوسَی، وَالرِّضَا عَلِیٍّ، وَالتَّقِیِّ مُحَمَّدٍ، وَالنَّقِیِّ عَلِیٍّ، وَالزَّکِیِّ العَسْکَرِیِّ الحَسَنِ، وَ صَلِّ عَلَی الهَادِی المَهْدِیِّ، صَاحِبِ الزَّمَانِ، وَ خَلِیفَةِ الرَّحْمَنِ، وَ قَاطِعِ البُرْهَانِ، وَ إمَامِ الإنسِ وَالجَانِّ، صَلَوَاتُكَ عَلَیْهِ وَ عَلَیْهِمْ أَجْمَعِینَ!

و إن نجی المسیح من خشبة البلاء، فقل له لینظر إلی خشبة کربلا و إلی مبتلانا».

١- یقول: «لقد نسخ حدیثك ذکر الاوائل و السابقین، یا من ضحّی بنفسه فی عهد الازل فی قضائنا».